سورة القصص

[٦٧٨] أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾(١) في عشرة أنا أحدهم.

[٦٧٩] وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم رفاعة يعني أباه إلى النبي [ﷺ] فآمنوا فأوذوا فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾(٢) الآية.

[٦٨٠] وأخرج عن قتادة قال كنا نحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على الحق حتى بعث الله محمداً [ﷺ] فآمنوا به منهم عثمان وعبدالله بن سلاّم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [القصص: ٥٢] الآية.

[٦٨١] سيأتي سبب نزولها في سورة الحديد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية.

[٦٨٢] أخرج مسلم وغيره(٣) عن أبي هريرة قال قال رسول الله [ﷺ] لعمه: «**قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة**» قال لولا أن تعيرني نساء قريش يقلن أنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٤).

[٦٨٣] وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال: سألت ابن عمر عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٥) في أبي جهل وأبي طالب قال: نعم.

---

[٦٧٨] (١) سورة القصص: الآية (٥١).

[٦٧٩] (٢) سورة القصص: الآية (٥٢).

[٦٨٢] (٣) ورواه البخاري في صحيحه (٢/١٩)، الترمذي في سننه (٢٨٩٩) و (٣١٨٨)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢/٣٤٤).

(٤) سورة القصص: الآية (٥٦).

[٦٨٣] (٥) سورة القصص: الآية (٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧] الآية.

[٦٨٤] أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أن أُناساً من قريش قالوا للنبي [ﷺ] أن نتبعك تخطفنا الناس فنزلت.

[٦٨٥] وأخرج النسائي عن ابن عباس أن الحارث بن عامر بن نوفل هو الذي قال ذلك.

قوله تعالى ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ [القصص: ٦١] االآية.

[٦٨٦] أخرج ابن جرير(١) عن مجاهد في قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾(٢) الآية قال نزلت في النبي [ﷺ] وفي أبي جهل بن هشام.

[٦٨٧] وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل.

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القصص: ٨٥] الآية.

[٦٨٨] أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال لما خرج النبي [ﷺ] من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(٣).

* * *

---

[٦٨٦] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٩٤).
(٢) سورة القصص: الآية (٦١).
[٦٨٨] (٣) سورة القصص: الآية (٨٥).

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مَكيَّة وآياتها ثمانٍ وثمانون

سورةُ القَصَص من السور المكية التي تُعْنى بأصول الدين من التوحيد ، والرسالة ، والبعث والجزاء كسائر السور المكية ، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتيْ النملِ ، والشعراء كما اتفقت في جوّ النزول ، ويُلاحظ أن اللاحقة منها تكمِّل أو تُفَصِّل ما أُجمل في السورة قبلها ، ولعلَّ ما ذكرته سورةُ القَصَص من قصة موسى مع فرعون يتضح في كثيرٍ منه أنه تتميمٌ وتكميلٌ لما أُجمل في السورتين قبلها . سُميت سورةَ القَصَصِ لأن الله تعالى ذكر فيها قَصَص نبيّ اللهِ موسى الكليم وأحواله وأطوارَه ، من حين ولادته ، ونشأته إلى حين أن بُعث رسولاً إلى بني إسرائيل ، وحياتُه سلسلةٌ متصلة الحلقات ، وفيها من غرائب الأحداث ما يتجلى فيه بوضوح عنايةُ الله بأوليائه وخذ لانه لأعدائه .
وقصةُ موسى مع فرعون ليست قصة نبيٍّ كريم مع جبار عظيم ، إنما هي قصة تصوّر حقيقة واقعية أليمة ، تتكرر في كل زمان ومكان ، وهي قصة الصراع بين الحق والباطل ، والمعركة الضارية بين جند الرحمنِ وجند الشيطان ، تلك المعركة التي قامت بين أولياء الله وأعداء الله منذُ فجرِ هذا الوجود ، ومنذ أن ظهر على مسرح الحياة الأنبياء والمرسلون ، والدعاة والمصلحون ! !

تبتدىء السورة الكريمة ببيان منطق الطغيان الذي لا يفهم حجةً ولا برهاناً ، ولا يقيم وزناً لمنطقٍ أو عدالة ، إنما طريقه البطشُ والإرهاب

والتعذيبُ والتنكيل ﴿ طسٓمٓ . تلكَ آياتُ الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحقّ لقومٍ يؤمنون . إنَّ فرعونَ عَلاَ في الأرضِ وجَعَل أهلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طائفةً منهم يُذبّح أبناءَهُم ويسْتَحْيي نساءَهُم ، إنه كان من المفسدين ، ونريدُ أنْ نَمنَّ على الذين اسْتُضْعِفُوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين . ونُمكّنَ لهم في الأرضِ ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يَحْذَرون﴾ .

وتنتقل الآيات الكريمة للحديث عن ميلاد موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون فقد كان يقتل ذكور بني إسرائيل ، ولكنَّ الله العظيم القدير طمأنها إلى أنه حافظٌ لهذا الطفل لأن له شأناً عظيماً ، وألهمها أن تُرضعه حتى إذا خشيتْ من زبانية فرعون عليه وضعته في صندوق ثم ألقت به في نهر النيل فسيرده الله إليها ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أَنْ أَرْضِعيه ، فإذا خفتِ عليه فأَلْقيه في اليمّ ، ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ وصدق وعدُ الله مع أم موسى فردَّه إليها واحتضنته لترضعه في بيت فرعون مع الإكرامِ لها والإنعام ، ورعاه الله حتى نبت في بيت فرعون كريحانةٍ زكية تَنْبتُ في تربة مليئة بالأشواك والأقذار ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عَدُواً وحَزَناً ، إن فرعونَ وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فرددناه إلى أمه كيْ تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزنَ ، ولتعلم أنَّ وعد الله حقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ وتتحدث الآيات الكريمة عن بلوغِ موسى سنَّ الشباب ، وقتلِه للقبطي الذي رآه يعتدي على الاسرائيلي ، ثم هربه إلى أرض مدين ، ولم يكن قتلُه للقبطي إلاّ خطأً كما دلَّ عليه التعبير القرآني ﴿ ودخَل المدينةَ على حينِ غَفْلَةٍ من أهلِها فوجَدَ فيها رَجُلَينِ يَقْتتلانِ ، هَذَا من شيعتِهِ وهذا من عدوّه ، فاستغاثَه الذي من شيعتِهِ على الذي من عدوّه فوَكَزَه موسَى فقَضَى عليهِ ، قالَ هذَا من عملِ

الشيطانِ إنَّهُ عدوٌ مضلٌ مبين﴾ والَوكْزُ الضربُ بِجُمْع اليد وهو في العادة لا يقتل وإنما صادفت قضاءً وقدراً فكانت القاضية . ثم تتحدث الآيات عن هجرة موسى إلى أرض مدين خوفاً من بطش قوم فرعون ، وزوجه بابنة شعيب عليه السلام وتكليفِ الله تعالى له بالعودةِ إلى مصر لدعوة فرعونَ وقومهِ إلى الإيمان ، ثم تُعقِّبُ على عتو فرعونَ وطغيانه وإغراق اللهِ له مع جنده بقوله ﴿واستكبرَ هوَ وجُنودُه في الأرضِ بغير الحقّ ، وظَنُّوا أنهم إلينا لا يُرْجعون . فأخذنَاهُ وجنودَهُ فنبذنَاهُم في اليمّ ، فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظالمينَ . وجعلْنَاهُمْ أئِمةً يَدْعُون إلى النَّارِ ، ويومَ القيامةِ لا يُنْصَرونَ . وأَتْبَعْناهم في هذه الدنيا لَعْنةً ، ويومَ القيامةِ هم مِن المَقْبُوحين﴾ .

ومن عجائب الأقدار أن أُمَّ موسى أَلْقتْ ولدها في البحر فنجّاه الله ، وأن فرعون كان يتعالى ويتعاظم بملكه وبالأنهار تجري من تحته ويقول « أليسَ لي مُلْك مِصْرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي أفلا تُبْصرون » ؟ فأهلكه الله بالغَرَق وابتلعته البحار ، ثم نجى الله بدنه وفي هذا أكبر عبرةٍ لمن أراد أن يَذَّكَّرَ أو أراد شكوراً .. ثم تتحدثُ الآياتُ عن كفار مكة ، ووقوفهم في وجه الدعوة المحمدية ، وتبيِّن أن مسلكَ أهلِ الضَّلال واحد ، وحُجَّتهم الزائفةَ واحدة ، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم ، أنكر أسلافهم دعوة موسى وأنكروا هم دعوةَ محمد ، فلا تبتئس يا محمد بتكذيبهم وطغيانهم فسنة الله لا تتخلف في إهلاك الظالمين ﴿وكم أهلكْنَا من قَرْيةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَها ، فتِلْكَ مساكُنُهم لم تُسْكَنْ مِنْ بعدِهِمْ إلا قَليلاً وكنّا نحنُ الوارثين . وما كانَ ربُّك مُهْلكَ القُرى حتَّى يَبْعثَ في أُمِّها رسُولاً يتْلُو عليهم آياتِنَا ، وما كنّا مُهْلكي القُرَى إلا وأَهْلُها ظَالمون﴾ .
وتنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن « قصة قارونَ » وهي قصةٌ لها ارتباط وثيقٌ بالبغي والطغيان ، فكما يكون الطغيان بالجاه والسلطان ،

كذلك يكون بالثروة والمال ، فهذا قارون الذي اتخذ نِعَم اللهِ سبيلاً لكيد عباد الله ، أنعم الله عليه بمالٍ تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه أو حملِ مَفَاتِحَهَا ولكنَّه طغى وبغى فكانت عاقبتُه الهلاك والدمار ﴿إن قارونَ كانَ من قومِ موسَى فبَغَى عليهم وآتيناهُ من الكنوزِ ما إنَّ مَفَاتِحَه لَتَنُوءُ بالعُصْبةِ أُولي القوة ، إذ قال له قومُه لا تفرحْ إن الله لا يحبُّ الفَرِحين . وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ولا تَنْسَ نصيبَكَ مِن الدنيا ، وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إليك ، ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ إنَّ الله لا يحبُّ المفسدين . قال إنما أُوتيتُه على علمٍ عندي ، أَوَ لَمْ يعلمْ أنَّ الله قد أهلك من قبْلِهِ من القرونِ مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعاً ؟ ولا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون﴾ وكانت نتيجةُ هذا الطغيان الخسفُ والهَوَان ﴿فخسفنا به وبداره الأرضَ فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين﴾ وهكذا تكون عاقبةُ من تكبَّر وتجبَّر ، وطغى بماله واستعلى على عباد الله . وتختم السورة الكريمة بالإرشاد إلى أساس الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ﴿تلك الدار الآخرةُ نجعلها اللذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولا تَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر ، لا إله إلا هو كل شيء هالكٌ إلا وجْهَه ، له الحكم وإليه تُرجعون ..﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص[1]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿طسٓمٓ﴾[١] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[٢]

قوله[2] عز وجل: **طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين**، قد ذكرنا تأويل هذا فيما تقدم في غير موضع ما يغني ذكره في هذا الموضع.[3]

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]

وقوله:[4] **نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق**، **من نبإ موسى وفرعون**، أي من خبرهما. وقوله: **بالحقّ**، أي بالصدق، ما يُعلم أنه صدق وحقّ. وجائز أن يكون قوله: **بالحق**، أي بالحق الذي لموسى على فرعون وقومه، أو بالحق الذي لله عليه. ***والله أعلم***.

وقوله:[5] **لقوم يؤمنون**، يحتمل وجهين. أحدهما **نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون**، للمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالأنباء وما فيها. وأما من لا يؤمن فلا ينتفع بها فلا يكون له.[6] والثاني **لقوم يؤمنون**، بالأنباء والكتب المتقدمة، هم يعرفون أنه حق لِما في كتبهم ذلك. ***والله أعلم***.

---

[1] ر م + ذكر أنها مكية؛ ن ث + ذكر أنها مكية نزلت فيها.

[2] ن: وقوله.

[3] انظر مثلا: تأويل الآية ١ من سورة البقرة، والآية ١ من سورة آل عمران، والآية ١ من سورة الرعد.

[4] ن: قوله.

[5] ن: قوله.

[6] ر ث م – له.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤]

وقوله:[١] **إن فرعون علا في الأرض**، قال بعضهم: تجبّر واستكبر وأبى أن يخضع[٢] لموسى ولأمثاله. وقال بعضهم: **علا في الأرض**، أي بغى وقهر، فيكون تفسيره ما ذكر على إثره: **يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحيي نساءهم**، هذا -والله أعلم- يشبه أن يكون علوّه وبغيَه في الأرض. ويشبه أن يكون قوله: **علا في الأرض**، أي علا[٣] قدره وارتفعت[٤] رتبته في الأرض لما ادّعى لنفسه الألوهية والربوبية بعد ما كان عبدًا كسائر العباد أو دونهم، فَعَلا قدره وارتفعت منزلته بدعواه بذلك.[٥] و **علا في الأرض**، أي غلب. وقوله:[٦] **وجعل أهلها شِيَعًا**، قيل: فِرَقًا، يستضعف طائفة ويذبّح طائفة ويستحيي طائفة ويعذّب طائفة. وجائز أن يكون قوله: **وجعل أهلها شِيَعًا**، أي جعل لكل طائفة منهم عبادةَ صَنَم لم يجعل ذلك لطائفة أخرى، وجعل طائفة أخرى على عمل أولئك وحوائجهم ليتفرغوا لعبادة الأصنام التي استعبدهم لها، لأن الشِّيَع فِرَق يرجعون جميعًا إلى أصل واحد وإلى أمر واحد. وقوله:[٧] **إنه كان من المفسدين**، كذلك كان لعَنَه الله.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٥] ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[٦]

وقوله:[٨] **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض**، هذا في الظاهر إخبار لرسوله أنه سيفعل ذلك، لا أنه منَّ عليهم وفعل ذلك لأنه يقول: **نريد أن نمنَ على الذين** كذا، [فإنه لو كان] وقد منّ عليهم بذلك فهلّا قال: وقد منَنّا على الذين استضعفوا في الأرض.
[٥٦١و] لكن معناه -والله أعلم- أي كنا نريد في الأزل أن نَمُنَّ عليهم وأن نجعلهم / أئمة وأن نجعلهم الوارثين. وإلا الظاهر ما ذكرنا.

---

[١] ن: قوله.
[٢] ر م: يضع.
[٣] ر: على.
[٤] جميع النسخ: وارتفع. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٥ظ.
[٥] ن: ذلك.
[٦] ن: قوله.
[٧] ن: قوله.
[٨] ن: قوله.

وقوله: **ونجعلَهم أئمَة**، يحتمل وجهين. أحدهما جعَلهم جميعًا أئمة لنا، بهم نقتدي وننقاد لهم.[١] أو أن يكون قوله: **ونجعلهم أئمة**، أي نجعل فيهم أئمَة وقَادَةً لهم، أي نجعل بعضهم أئمة لبعض، كقوله لموسى: أُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ.[٢] والأئمة المذكورة هاهنا كأنهم هم الأنبياء الذين ذكروا[٣] في هذه الآية.

ونجعلَهم الوارثين ونُمَكِّنَ لهم في الأرض، هذا كما ذكر في آية أخرى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا،[٤] الآية، أي يرثون الأرض ومُلكهم بعد فرعون وقومه.[٥] والوارث هو الباقي على ما ذكرنا. كأنه قال: يَبقون هم في أرضهم وملكهم بعد هلاكهم، كقوله: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا،[٦] أي نبقَى نحن[٧] بعد هلاك الأرض وهلاك من عليها.[٨] *والله أعلم*.

وقوله: **ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يَحذرون**، أي يرَون ما كانوا يحذرون[٩] منه وهو الهلاك وذهاب الملك، هذا [الذي] كانوا يحذرون. فأراهم ذلك، لأنه كان يذبح أبناءهم إشفاقًا[١٠] على بقاء ملكه وحذرًا[١١] [من] ذهابه. قال الزجاج: إنَ مِن حماقة فرعون وقلّة عقله أنه[١٢] كان يذبّح أبناءهم لقول الكهنة: إنه يذهب ملكُه بغلام يولد في العام الذي قالوه.

---

[١] «يحتمل وجهين. أحدهما جعل كلهم أئمة لنا لنقتدي بهم ونتبع إثرهم، حيث صبروا على أذى فرعون وقومه شاكرين لله تعالى على ما رزقهم من الدين الحق راجين منه فضله ورحمته. فأنجاهم الله تعالى منهم وتابع عليهم نعمه. فكذا نصبر على أذى الكفرة والظلمة لِتَلْحقنا النجاة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة» (*شرح التأويلات*، ورقة ٥٦٢ظ).

[٢] ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يُؤْتِ أحدا من العالمين﴾ (سورة المائدة، ٥/٢٠).

[٣] ن ث: ذكر.

[٤] سورة الأعراف،٧/١٣٧.

[٥] م – وقومه.

[٦] سورة مريم، ١٩/٤٠.

[٧] م – نحن.

[٨] م: وهلاك أهلها.

[٩] ث – أي يرون ما كانوا يحذرون.

[١٠] ث: إبقاء.

[١١] جميع النسخ: ويحذر.

[١٢] جميع النسخ: أن. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٥٨ظ.

فلا يخلو إما أن [يكونوا] صدَقوا[1] في قولهم فيذهب ملكه، وإنْ قتَل الأبناء، وإما أن [يكونوا] كذبوا في قولهم فلا معنى لقتل الأبناء، لأنه لا يذهب. لكنه فعل ذلك بهم[2] لحماقته وسفهه وجهله بنفسه.[3]

وقوله: **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض**، بالنجاة من فرعون وآله واستنقاذه إياهم من يدَيه ومن قتل الوِلدان وغير ذلك من أنواع التعذيب. ***والله أعلم***.

وفي قوله: **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض**،[4] إلى آخر ما ذكر وجوه على المعتزلة في قولهم: إنّ[ه] ليس لله أن يفعل بعباده إلا ما هو أصلح لهم في الدين وإنه لو لم يفعل ذلك كان[5] جائرًا.[6]

فيقال لهم: لو كان عليه فعْل الأصلح لهم في دينهم على كلّ حال لكان لا معنى لذكر المنّة على الذين استُضعفوا في الأرض في جعْلهم أئمة وإبقائهم في أرضهم وتمكينه إياهم في ملكهم ووِراثتِهم أموالَهم. لأنه على زعمهم فعَل بهم ما عليه أن يفعل، إذ[7] ذاك أصلح لهم في الدين. وكل مَن فعل فعلاً، عليه ذلك الفعل، لا يكون له الامتنان على المفعول به بذلك.[8] فدل ذِكر المنة فيما ذكر أنه فعل بهم على أنه فعل ما لم يكن عليه ذلك، ولكنه فعل ذلك بهم[9] مُفْضِلا مُمْتَنًّا، وله أن لا يفعل ذلك.

ويقولون أيضًا: إن في إهلاك[10] فرعون وقومه [ما هو] أصلح لهم من إبقائهم وكذلك في إماتة كل كافر. فلم يذكر فيه[11] المنّة. دلّ ذلك أنه ليس على ما يقولون هم وأنّ ذلك منقوض مردود عليهم.

---

[1] ث + هم.

[2] ن – بهم.

[3] *معاني القرآن* للزجاج، ١٣٢/٤.

[4] م – بالنجاة من فرعون وآله واستنقاذه إياهم من يديه ومن قتل الولدان وغير ذلك من أنواع التعذيب والله أعلم وفي قوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض.

[5] جميع النسخ + ذلك.

[6] ر م: جائرا.

[7] ر م: أن.

[8] جميع النسخ: ذلك. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٢ظ.

[9] ر م – بهم.

[10] ن ث: في هلاك.

[11] ن – فيه.

ويقولون أيضًا: إن الإرادة من الله لهم أمر لهم يأمرهم به. فلو كان أمرًا على ما يزعمون لكان الأمر منه قد شمَل الكلّ، ثم لم يصيروا جميعًا أئمّة وقادة ولكن إنما صار بعض دون بعض. دلّ أن الإرادة غير الأمر وأنه إذا أراد لأحد شيئًا كان ما أراد، ليس على ما[1] يقولون: إنه أراد إيمان كلّ كافر، لكنه لم يؤمن بعدَ ما أعطاه جميع ما عنده من القوّة والعَون على ذلك حتى لم يبق عنده شيء من ذلك إلا وقد أعطاه. فدلّ ما ذَكَر على فساد مذهبهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٧]

وقوله:[2] **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضِعيه**، قال عامة أهل التأويل: إن الوحي هاهنا وحيُ الإلهام والقذفِ في القلب لا وحيُ إرسال[3] إليها وإخبار، لأنه لو كان وحي إرسال[4] صارت رسولَة، وذلك لا يجوز. لكن يقال: جائز أن تُلْهَم هي إرضاعَه وإلقاءَه[5] في اليَمّ، فأما أن تُلْهَم ما ذَكَر: **ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**، هذا مما لا سبيل إلى معرفة ذلك وعلمه إلا بتصريح قولٍ ومشافهةِ آخَرَ. اللّهم إلا أن يقال: إنه كان بموسى آياتُ الرسالة وأعلام[6] عرفت هي بتلك الأعلام والآيات التي كانت له أنه يُرَدُّ إليها وأنه يبقى رسولًا إلى وقت. وقد كانت بالرسل أعلام وآيات الرسالة في حال صِغرهم وصِباهم، نحوَ عيسى حيث كلَّم قومه في المهد: إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ [وَجَعَلَنِي نَبِيًّا]،[7] إلى آخر ما ذكر، ونحوَ ما ذُكر[8] أن محمدًا لمّا وُلد[9] بالليل استنارت تلك الناحية واستضاءت بنوره حتى ظنّوا أن الشمس قد طلعت، ونحوَه. فعلى ذلك جائز أن يكون بموسى أعلام وآيات عرفت أمّه بها أنه رسول وأنه يُرَدُّ إليها.

[1] ن: ليس كما.
[2] ن: قوله.
[3] م: إرساله.
[4] ر ث م - إليها وإخبار لأنه لو كان وحي إرسال.
[5] ر ث م: والقاه؛ ن: والقاؤه.
[6] جميع النسخ + به لما. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٥٦٣و.
[7] سورة مريم، ٣٠/١٩.
[8] ر م - ونحو ما ذكر.
[9] ن + ولد.

وإنما كَلَّفَنا[1] هذا[2] التخريجَ[3] قولُ أهل التأويل: إنه وحي إلهام وقذفٍ في القلب لا غير. وعندنا جائز أن يكون الوحي إليها وحيَ إرسال رسول وإخبار إليها[4] من غير أن صارت هي بذلك رسولة، نحوَ ما ذُكر في قصّة مريم أن المَلَك لما دخل عليها[5] تعوّذت بالله منه حيث قالت: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا.[6] وذلك من البِشارة التي بشروها بالولد. فلم تصِر بما أُرسل إليها من الرسل وشافهوها رسولة، فعلى ذلك أمّ موسى. ونحوَ بشارة الملائكة لامرأة إبراهيم بالولد وهو قوله: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ،[7] ونحوَه مما يكثر ذكره ولم يصيرن بذلك رسولاتٍ.[8] فعلى ذلك الوحي إلى أمّ موسى يحتمل ما ذكرنا، وجائز ذلك من غير أن صارت بذلك رسولة. وهو أشبه وأقرب. **والله أعلم**.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[٨]

وقوله: **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا**، قال بعضهم: في الآية إضمار، لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا ولكن كأن فيه إضمارًا،[9] أي التقطه آل فرعون
[٥٦١ظ] / ليتخذوه ولدًا ووليًّا فكان لهم عدوًّا وحَزَنًا إذا كَبُر، أو كلام[10] نحو هذا. وقال بعضهم: ذاك إخبار عما في علم الله أنه يكون ما ذكر. معناه -والله أعلم- التقطه آل فرعون فكان في علم الله تعالى أنه يكون لهم عدوًّا وحَزَنًا. وذلك جائز في اللغة، يقال: «لِدُوا للموت وابنُوا للخراب»[11] [والناس] لا يلِدون للموت ولا يبنون للخراب، ولكن إخبار عمّا يؤول [إليه] أمرهم في الآخرة. **والله أعلم**.

---

[1] جميع النسخ: تكلفنا.
[2] ر ث م: بهذا.
[3] ن ث: لتخريج.
[4] ر م - إليها؛ ث: إليها وإخبار.
[5] ر ث م - عليها.
[6] سورة مريم، ١٩/١٨-١٩.
[7] ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (سورة هود، ١١/٧١).
[8] ر ن م: لم يصيروا بذلك رسلا؛ ث: لم يصرن بذلك رسلا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٣و.
[9] جميع النسخ: إضمار.
[10] ر ث م - أو كلام.
[11] «له مَلَك ينادي كل يوم / لِدُوا للموت وابنُوا للخراب». روي هذا الكلام حديثا مرفوعا وموقوفا مِن طُرق ضعيفة. انظر: *كشف الخفاء* للعَجْلوني، ٢/١٤٠-١٤١.

وقوله:[١] **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين**، ظاهر. وفيه نقض قول المعتزلة من وجه[٢] [حيث قالوا: إن الله تعالى إنما يُبقي الكفرة لما فيه صلاحهم. ثم قد بيّن أنهم كانوا خاطئين في ما مضى من عمرهم، والإبقاء على الخطأ كيف يكون أصلح؟][٣]

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٩]

وقوله:[٤] **وقالت امرأة فرعون قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا**، هذا لطف من الله ورحمة حيث ألقى محبّته[٥] في قلوبهم وحلاه[٦] في أعينهم. وهو ما ذَكر منّته عليه حيث قال: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي،[٧] يستأدي[٨] بذلك الشكر عليه.

قال أبو معاذ:[٩] قال مقاتل: قوله: قُرَّةُ عينٍ لي، ولك لا؛ تقول:[١٠] ليس لكَ بقُرّة عين. قال أبو معاذ: وهذا محال، ولو كان كذلك لكان في القراءة "تقتلونه"، وهذا أيضا محال لقوله: **عسى أن ينفعنا**. ولو كانت القراءة "قرة عين لي ولك لا، لا[١١] تقتلوه" لكان مقاتل مصيبًا.

وقوله: **وهم لا يشعرون**، يحتمل وجهين. أحدهما وهم لا يشعرون أن هلاكهم واستئصالهم على يديه. والثاني لا يشعرون أنه هو المطلوب بقتله من بين الكلّ. ***والله أعلم***.

---

[١] ن: قوله.
[٢] ث – من وجه.
[٣] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٦٣و.
[٤] ن: قوله؛ ث – وقوله.
[٥] م: محبة.
[٦] ر م: وحلاوة.
[٧] سورة طه، ٣٩/٢٠.
[٨] ر م: لتادي.
[٩] فضل بن خالد أبو معاذ النحوي المروزي مولى باهلة، روى عن عبد الله بن المبارك وعبيد بن سليم. وروى عنه محمد بن علي بن الحسن بن شقيق وأهل بلده. مات سنة ٢١١هـ، له كتاب في القرآن حسن. وروى عنه الأزهري في *كتاب التهذيب* وأكثر، وذكره ابن حبان في *الثقات*. ويذكره ابن منظور في *لسان العرب* في مواضع كثيرة (مثلا: وعد، قصر، قطر). وسمى كاتب جلبي كتابه "*كتاب القراءة*". أنظر: *الثقات* لابن حبان ٥/٩؛ و*تهذيب اللغة* للأزهري، ٢٥/١؛ و*الأنساب* للسمعاني، ٥١/١٢؛ و*معجم الأدباء* لياقوت، ٢١٧٧/٤؛ و*الوافي بالوفيات* للصفدي، ٢٨/٢٤؛ و*كشف الظنون*، ١٤٤٩/٢.
[١٠] جميع النسخ: يقول. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٣و.
[١١] ر ن م – لا.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٠]

وقوله: **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغًا**، قال بعضهم: **فارغًا**،[١] مِن همّ موسى وحزنِها[٢] عليه. وقال بعضهم: **فارغًا**، من كلّ شيء إلا على موسى وذِكْرِه. وكان قوله: **وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغًا**، صلة قوله: وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ،[٣] الآية. وهو يحتمل وجوهًا. أحدها أن الله رفع الحزن والخوف عن قلبها[٤] وطبعها من غير أن كان ثمة قول أو كلام. والثاني على القول لها: وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فإن كان على هذا فهو على البِشارة لها بالردّ إليها وجعله رسولًا. أو على النهي والزجر عن الحزن عليه والخوف عليه. والحزن عليه[٥] هو حزن مفارقته[٦] عنها؛ والخوف عليه خوف الهلاك، كقول يعقوب حيث قال: إِنِّي[٧] لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ،[٨] ذَكر الحزن عند المفارقة والذهاب عنه والخوفَ عند الهلاك. فرفع الله عنها حزن المفارقة وبشّرها بالرد إليها وجعْلِه رسوله[٩] وأمّنها عن الهلاك. فيكون قوله: **وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا**، مما خافت عليه وحزنت. *والله أعلم.*

وقوله:[١٠] **إن كادت لَتُبْدِي به لو لا أنْ ربَطْنا على قلبها**، كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها، لكنه ربط على قلبها[١١] بما ذكر من قوله: لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي،[١٢] الآية. فلم تكَد[١٣] تبدي وهو كما ذكر: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ،[١٤]

[١] ن – قال بعضهم فارغا.
[٢] م: وحزنا.
[٣] سورة القصص، ٧/٢٨.
[٤] ر ث م – عن قلبها.
[٥] ر م – والحزن عليه.
[٦] م: مفارقة.
[٧] ن – إني.
[٨] سورة يوسف، ١٣/١٢.
[٩] ن: رسولا.
[١٠] ن: قوله.
[١١] ر م – لكنه ربط على قلبها.
[١٢] سورة القصص، ٧/٢٨.
[١٣] جميع النسخ + أن.
[١٤] سورة يوسف، ٢٤/١٢.

أي كان يهُمُّ بها لو لم ير برهان ربه، لا أنه همّ بها. وهو كقوله: وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً،[١] أي كان يَرْكَنُ[٢] إليهم شيئًا قليلاً لو لم يُثَبِّته، لكنه ثبَّته فلم يركَن إليهم، ونحوه. فعلى ذلك الأول. وقال أهل التأويل: ربط قلبها بالإيمان، وجائز أن يكون رَبْطه [على] قلبها بما[٣] ذكر من قوله: وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي،[٤] الآية.

وقال بعضهم: **فارغًا**، من عهْد الله الذي كان عَهِد إليها. أنساها عهْدَ الله عِظَمُ البلاء الذي حلّ بها فكادت تبدي به، ثم تداركها الله بالرحمة فربط على قلبها فذكرت وارعَوَت.[٥] وقال بعضهم: اتَّخذه فرعون ولدًا فصار الناس يقولون: ابن فرعون ابن فرعون،[٦] فأدركت أمَّه الرقةُ وحبّ الولد فكادت تقول: بل هو ابني. والأول أشبه. وفي حرف ابن مسعود وأبيّ وحفصة: "إن كادت لَتُشْعِرُ به".[٧]

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١١]

وقوله: **وقالت لأخته قُصِّيه**، أي اتّبعي أثره. وقوله:[٨] **فبصُرَت به عن جُنُب**، قيل: عن بُعد، أي كانت تتبع أثره عن بُعد منه. وقال بعضهم: الجُنُب أن يسمُو بصر الإنسان إلى موضع بعيد وهو إلى جَنبه بقرب منه. وذلك عند الناس معروف ظاهر فيهم ذلك. وقال بعضهم في قوله: **فبصُرت به عن جُنُب**، قال: مشَت بجَنَبَاته[٩] وهي معرضة عنه كأجنبية.

وقوله:[١٠] **وهم لا يشعرون**، أن هذه تراقبه أو تنظر إليه وتحفظه، أو **لا يشعرون**، أن هلاكهم على يديه. بَصُرْتُ وأبصرت واحد. وقوله: **عن جُنُب**، عن ناحية بعيدة، وجوانب جماعة.

---

[١] سورة الإسراء، ٧٤/١٧.

[٢] ث – يركن.

[٣] جميع النسخ: لما. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٠و.

[٤] سورة القصص: ٧/٢٨.

[٥] يقال: ارْعَوى فلان عن الجهل يرعوي ارعِواءً حَسَنا ورَعْوى حسنة، وهو نُزوعه وحُسن رجوعه. وارْعَوى يَرْعَوي، أي كفّ عن الأُمور (*لسان العرب*، «رعي [رعا]»).

[٦] ث – ابن فرعون.

[٧] *كتاب المصاحف* لابن أبي داود، ٧١.

[٨] ن: قوله.

[٩] أي بأطرافه.

[١٠] ن: قوله.

ويقال: رجل جُنُب وقوم أجناب، وجانب وأجناب وأجنبي وأجانب، أي غريب. وهذا كله من الاجتناب. وهو قول أبي[1] عَوْسَجَة[2] والقُتَبي.[3]

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[١٢]

وقوله:[4] **وحرمنا عليه المراضع من قبل**، حرَّم تحريمَ منعٍ وحَظْر، [وهو التحريم] الذي ضدّه الإطلاق والإرسال، لا التحريم الذي ضدّه الحلّ. وذلك لطف من الله تعالى وفضل ورحمة حيث منع موسى عن أن يرتضع من النساء وهو طفل، وهِمَّةُ أمثاله الارتضاع والرغبة في التناول من كل لَبَن ومن كل مرضِع تُرضعه لا تمييز[5] لهم في الارتضاع. فدلّ امتناعه وكفُّه[6] نفسه عن الارتضاع من النساء أجمع أن ذلك لطف من الله أعطاه ليمتنع عنه. فعلى ذلك جائز أن يكون عند الله لطف لو أعطى الكافر الذي همته الكفر والرغبة فيه[7] لآمن واهتدى، لكنه

[٥٦٢و] لما عرف رغبته وهمته فيه واختياره له / منع ذلك عنه ولم يعطه.

[٥٦٢و س٣٦] *قال الكسائي:[8] يقال: امرأة مُرضع ما دامت تُرضع، فإذا فَطَمت سُمّيت مرضعة ما دامت

[٥٦٢و س٣٧] حبلى فهي مرضعة، أي ستُرضع.*

---

[1] ر – أبي.

[2] «هو أبو عوسجة توبة بن قتيبة الحُجَيمي النحوي الأعرابي، دخل سمرقند وأقام بها، وكان يذهب مذهب أبي عبيدة معمر بن المثنى في باب الأدب، كان أستاذ الشيخ الإمام أبي منصور الماتُريدي في الأدب، روى عنه سَيحان بن الحسين ابن حازم المؤدب من محلة أشتابديزة» (*القند في ذكر علماء سمرقند* لأحمد النسفي، ١١٥).

[3] تفسير غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٣٢٩. وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبة الدِّينَوَري الكاتب اللغوي، الفاضل في علوم كثيرة، سكن بغداد، وله مصنفات كثيرة جدا في أنواع العلوم، من كتبه غريب *القرآن*، ومشكل *القرآن*، يقال له القتبي نسبة إلى جده (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م). انظر: *تهذيب الأسماء واللغات* للنووي، ٢٨١/٢؛ وسير *أعلام النبلاء* للذهبي، ٢٩٦/١٣–٣٠٠.

[4] ن: قوله.

[5] جميع النسخ: لا تميز. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٣ظ.

[6] م: وكف.

[7] ر – فيه.

[8] أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الكوفي المعروف بالكسائي، أحد القراء السبعة، كان إماما في النحو واللغة والقراءات. له مع سيبويه وأبي محمد اليزيدي مجالس ومناظرات. وروى عنه الفراء وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهما. توفي سنة ١٨٩هـ/٨٠٤م بالري. انظر: *وفيات الأعيان* لابن خلكان، ٢٩٥/٣.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ١٤، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٦٢و/سطر ٣٦–٣٧.

وهذا الحرف ينقُض على المعتزلة مذهبهم في زعمهم أن الله قد أعطى كلّ كافر السبب الذي به يؤمن وما به يصير مؤمنًا، حتى لم يبق شيء مما يكون به إيمانه إلا وقد أعطاه، لكنه لم يؤمن. فينقض[١] قولَهم ما ذكرنا من أمر موسى أن عنده لطفًا[٢] لم يعطه لو أعطاه لآمن واهتدى، لكنه لم يعطه لما ذكرنا.

وفيه لطف آخر وهو أن فرعون والقبط كانوا يقتلون الولدان من الذكور ليصير الذي يخاف هلاكه وذهابَ ملكه على يديه مقتولاً، فجعل الله بلطفه ورحمته محبته في قلب فرعون وقلوب أهله حتى صار أحبّ الخلق إليهم وصاروا هم[٣] أشفق الناس وأرحمهم عليه حتى خافوا هلاكه وطلبوا له المراضع لئلّا يَهلِك بعد ما كانوا يطلبون هلاكه وتَلَفه، وذلك لطف منه له ورحمة. وهو ما قال: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي،[٤] وبالله يستفاد كل فضل ونعمة.

وقوله: **فقالت هل أدُلُّكم على أهل بيت يَكْفُلُونه لكم**، قوله: **فقالت**، أي أخته التي كانت تَتَبّعه وتمشي على إثره. وذلك منها تعريض الدلالة لهم إلى أمّه لئلّا يشعروا أنها أمّه حيث قالت: **هل**[٥] **أدلّكم على أهل بيت**، ولم تقل:[٦] على امرأة لها لبَن وهي ترضع. ولعلها لو قالت لهم ذلك وقع عندهم أنها أمّه ولكن دلّتهم إلى أهلِ[٧] بيت ليقع عندهم أنهم أهل بيت قُتل ولدهم ولهم لبَن.[٨] **يكفلونه لكم**، أي يقبلونه[٩] ويضمّونه إلى أنفسهم.

وهم له ناصحون، يحتمل قوله: **وهم له ناصحون**،[١٠] أي لفرعون، لا يخونونه.[١١] ويحتمل، **وهم له ناصحون**، لموسى.

---

[١] ر: فينقضي.
[٢] جميع النسخ: لطف.
[٣] ر: وصاروهم.
[٤] سورة طه، ٣٩/٢٠.
[٥] ر – هل.
[٦] ر ن م: يقل.
[٧] ر م – أهل.
[٨] ر ث م: ولد.
[٩] ن: يقبلون.
[١٠] ر – يحتمل قوله وهم له ناصحون.
[١١] جميع النسخ + فيه.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٣]

وقوله:[1] **فرددناه إلى أمه كي تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزَنَ**، يحتمل قوله: **كي تَقَرَّ عينُها**، بالمُقام معه والكون عندها، **ولا تَحْزَنَ**، على فراقه. أو أن يقال: **كي تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزَنَ**، أي تُسَرَّ بِردّه إليها. وذلك معروف في النساء ظاهر أنهن يَحْزُنَّ بمفارقة أولادهن ويَهمُمْنَ لذلك ويُسرَرْنَ[2] إذا رجعوا[3] إليهن واجتمعوا.

وقوله:[4] **ولتعلم أن وعد الله حق**، كانت تعلم هي -والله أعلم- أن وعد الله حق كائن لا محالة، لكن كانت تعلم[5] [ذلك] علْمَ خبَر؛ لا علْمَ عِيانٍ ومشاهدةٍ، كأنه قال: لتعلم علم عِيَانٍ ومشاهدة ما علمتْ علم خبر؛ لأن علم العيان والمشاهدة أكبر وأبلغ وأدفع للشبهة من علم الإخبار. ألا ترى[6] أن إبراهيم سأل ربه أن يُريَهُ إحياء الموتى وإن كان يعلم حقيقةً أنه يحيي الموتى وأنه قادر على ذلك، لكنه كان يعلم علْم خبر فأحبّ أن يعلمه علْمَ عِيان ومشاهدة، لأنه أكبر وأبلغ وأدفع للوساوس من علم الإخبار. فعلى ذلك الأول.[7]

*وقوله: **ولتعلمَ أن وعد الله حقّ**، كان وعده إياها أن يردّه إليها ويجعله من المرسلين، [٥٦٢و س٣٥

ومعناه ما ذُكر[8] فيما تقدم.* ٥٦٢و س٣٦]

وقوله: **ولكن أكثرهم لا يعلمون**، والمعتزلة فيهم؛ لأنه أخبر أنه يملأ جهنم من الجِنّة والناس أجمعين حيث قال: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ،[10] وهم يقولون: أراد أن لا يملأ جهنم، لأنهم يقولون: إنه أراد إيمان كلّ الناس جميعًا وشاء ذلك لهم فلم يؤمنوا. فعلى قولهم: إذا شاء ذلك لهم شاء أن لا[11] يملأ جهنم منهم، فذلك خُلف في الوعد وكذبٌ في القول على قولهم.

---

[1] ن: قوله.
[2] ن: ويسرون.
[3] ر م: جعلوا.
[4] ن: قوله.
[5] ر ث م - تعلم.
[6] ن: يرى.
[7] ر م - الأول.
[8] ن: ذكرنا.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٦٢و/سطر ٣٥-٣٦.
[10] ﴿وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنّة والناس أجمعين﴾ (سورة هود، ١١/١١٩)؛ وانظر أيضا: سورة السجدة، ٣٢/١٣).
[11] ر م - لا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[١٤]

وقوله: **ولما بلغ أشُدَّه واستوى**، قال بعض أهل التأويل: الأشُدّ هو ما بين ثمانيَ عَشْرةَ سنة إلى ثلاثين سنةً، ثم هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين استواء الشدة، ثم يأخذ بعد الأربعين في النقصان، ثم غُيِّر بعمره إلى[١] الأربعين[٢] سنة.[٣] وقال بعضهم: **بلغ أَشُدَّهُ**، ثلاث وثلاثون سنة، **واستوى**، أربعون.[٤] وعن ابن عباس مثله.[٥] وقال بعضهم: **بلغ أَشُدَّهُ**،[٦] قال: الأشُدّ الحُلُم، والاستواء أربعون سنة. وأصل الأشُدّ أن يشتدّ كل شيء منه وصار [بحيث] يحتمل ما قُصد به وجُعل فيه، ويدخل في ذلك العقل وكل شيء.

واستوى، أي استوى ذلك واستحكم وصار بحيث يحتمل ذلك. وجائز أن يكون الاستواء هو تفسير[٧] الأشُدّ الذي ذكر. وقال أبو عَوْسَجَة والقُتَبي: **واستوى**، أي استحكم وانتهى شبابه واستقرّ فلم يكن فيه زيادة.[٨] وأصله ما ذكرنا. ***والله أعلم***.

وقوله: **آتيناه حُكمًا وعلمًا**، أي آتيناه العِلم الذي يحكم به بين الناس، وعِلمًا بمصالح نفسه ومصالح الخلق. وقال بعض أهل التأويل: الحُكم [هو] الفِقه[٩] والعقل والعلم قبل النبوة.

وقوله: **وكذلك نجزي المحسنين**، يحتمل قوله: **وكذلك نجزي المحسنين**، في الآخرة بالوعد الذي وعد لهم في الدنيا كما جزى موسى بإنجاز ما وعد له.[١٠] أو أن يكون من موسى اختيار[١١] وجهد في طلب العلم وغير ذلك مما أعطاه ذلك وأخبر أنه كذلك يجزي مَن ذكر، كقوله: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا.[١٢]*

[١] ر ث: إلا؛ ن – إلى.

[٢] ر ث م: أربعين.

[٣] أي غُيِّرت ونُقصت شدة عمر الإنسان إلى تمام أربعين سنة، ويكون مجموعه ثمانين سنة.

[٤] انظر: *معاني القرآن* للزجاج، ٤/١٣٥.

[٥] انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ١١/٤٣٥.

[٦] ث – ثلاث وثلاثون سنة واستوى أربعون وعن ابن عباس مثله وقال بعضهم بلغ أشده.

[٧] ر م – تفسير.

[٨] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٢٩.

[٩] ن – الفقه، صح هـ.

[١٠] ر ث م: لهم.

[١١] ر ث م: إحسان.

[١٢] سورة العنكبوت، ٢٩/٦٩.

* وقع هنا مقطعان من تفسير الآيتين السابقتين برقم ١٢ ورقم ١٣، فقدمناهما إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٦٢و/سطر ٣٥-٣٦، وورقة ٥٦٢و/سطر ٣٦-٣٧.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[١٥] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١٦]

وقوله: **ودخل المدينة على حينِ غفلةٍ من أهلها**، قال عامة أهل التأويل: على حين غفلةِ أهل المدينة وهو عند الظهيرة وذلك وقت القَائِلة. وقال قائلون: على حين غفلةِ أهل[1] البلد عن دخول موسى، أي دخلها من غير أن شَعَروا به وعرفوا أنه موسى. على هذا التأويل الغفلة [٥٦٢ظ] تكون على دخول موسى عليهم. وعلى الأول / على[2] غفلة أهل المدينة، أي وقت غفلتهم. فإن كان على هذا فيحتمل أن يكون غفلةُ أهلها هو أن كان ذلك يومَ عيدهم، خرجوا إليه فدخل هو المدينة ليطّلع أحوالها وأسبابها. إلا أن تكون[3] العادة فيهم أنهم بأجمعهم يَقيلون فذلك محتمل. *والله أعلم*.

وقوله: **فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه**، قال بعض أهل الأدب: إن قوله: **هذا من شيعته وهذا من عدوّه**، إنما يقال للشاهد المشار إليه، فأما للغائب[4] فإنه لا يقال. لكن قالوا: إن فيه إضمارًا ولطفًا كأنه قال: **فوجد فيها رجلين يقتتلان**، من نظر إليهما يقول: **هذا من شيعته وهذا من عدوّه**. ثم قال أهل التأويل: أحدهما كان إسرائيليًّا[5] والآخر قبطيًّا.

فإن قيل: كيف سُمّي الإسرائيلي[6] من شيعة موسى وذلك [كان] أوّل ما دخل موسى المدينة [فكيف يعرف الإسرائيلي من القبطي؟][7] وبنو إسرائيل يومئذ كانوا عُبّاد الأصنام وقد حُبّب ذلك إليهم، حتى قالوا لموسى بعد ما[8] أخرجهم من المدينة وبعد هلاك فرعون والقبط جميعًا:

---

[1] ث + المدينة.

[2] ث – على.

[3] جميع النسخ: يكون.

[4] ر م: الغائب.

[5] ث: إسرائليا.

[6] ث: الإسرائلي.

[7] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٦٤و.

[8] م – ما.

اِجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ.[١] وكذلك يقول مقاتل: كانا كافرين جميعًا،[٢] ألا ترى أنه قال: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ.[٣]

لكن يخرج هذا على الإضمار، كأنه قال: يكون هذا من شيعته وهذا من عدوه. أو يقول: يكون هذا من قوم هم شيعته ويبقى هذا عدوًّا في قوم هم أعداؤه. وعلى هذا يخرج قوله: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا،[٤] أي يبقى عدوًّا لهما أو أن يكون عدوًّا لهما. لأن أبا معاذ النحوي يستدلّ على وَهْم مقاتل ووهمُه في تأويله: إنهما كانا كافرين جميعًا. لكن يخرج على ما ذكرنا. *والله أعلم*.[٥]

وقوله: **فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه**، أي استغاثه الذي كان في علم الله أنه يكون من شيعته على الذي في علم الله أنه يبقى عدوًّا له لينصره.[٦] والاستغاثة[٧] هي الاستعانة والاستنصار، أي سأله أن ينصره.[٨]

وقوله:[٩] **فَوَكَزَه موسى فقضى عليه**، قال أبو عَوْسَجَة: الوَكْزَة الطعن في الصدر.[١٠] وقال الزجاج[١١] والقُتَبي وهؤلاء: الوكزة الدَّفعة.[١٢] **فوكزه**، أي دفعه. **فقضى عليه**، قال بعضهم:

---

[١] سورة الأعراف، ١٣٨/٧.

[٢] م - جميعا. *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٤٩٢/٢.

[٣] الآية التالية.

[٤] الآية ١٩ من هذه السورة.

[٥] «وفي الآية دليل على أن الإسرائيلي لم يكن من الكفرة، فإنه تعالى أخبر عن موسى بقوله: ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾، جعل القبطي الذي استنصر [عليه] الإسرائيلي من موسى - بعد ما قتل موسى رجلا قبطيا لأجله من قبل- عدوا لموسى عليه السلام والإسرائيلي، فدل أنه كان من المسلمين. وهذا لأن بني إسرائيل كانوا على دين إسرائيل عليه السلام ولهذا كان فرعون وقومه يقهرونهم. ولو كانوا كفارا واتبعوه في أوامره ونواهيه لكانوا في أمان منهم، فهذا محتمل. وإنما عرف موسى عليه السلام الإسرائيلي لما لهم علامات يتميزون بها عن القبط، ويخبره الإسرائيلي بذلك، فتظاهره لما عرف من ظلم القبطي على بني إسرائيل بناء على ظاهر الحال. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ٥٦٤و).

[٦] جميع النسخ: ينصره.

[٧] م: والاستغانة.

[٨] جميع النسخ: أي سأله أن يكون من شيعته. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٢و.

[٩] ن: قوله.

[١٠] ر م: في الصدور.

[١١] «الوكز أن تضرب بجمع كفك، وقد قيل وكزه بالعصا» (*معاني القرآن* للزجاج، ١٣٧/٤).

[١٢] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٠؛ و*تفسير القرطبي*، ٢٤٦/١٦-٢٤٧.

أي فرَغ منه، كقوله: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ،[1] وقوله: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ،[2] أي فُرِغ ونحوه. وقال بعضهم: **فقضى عليه**، أي قتله. وكلاهما سواء: إذا قتله فقد فرَغ منه. وهو لم يتعمّد قتله ولا قَصَدَه، لكن الله قضى أجله وجعل انقضاء عمره بوكزة موسى. وهو في الظاهر قاتل، لأنه قال: إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ،[3] ولم يكذّب[4] الله موسى[5] في قوله [ولم يقل له:] إنك لم تقتل. وقال أيضا: **إني ظلمت نفسي فاغفر لي**، الآية.

وفيه دلالة جواز الاستدلال لقول أبي حنيفة حيث قال: من قتل آخَرَ بحجر عظيم أو بخشبة عظيمة مما لا ينجو من مثله فإنه[6] لا يُقتَل به ولا يجب القصاص فيه،[7] لأن موسى لمّا وكز ذلك القبطي مات[8] -وذُكر[9] أن[10] له قوةَ أربعين رجلاً- لم يرَ القصاص به واجبًا حيث قال له ذلك الرجل: إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.[11] ولو كان القصاص واجبًا لكان أولئك لم يكونوا ظَلَمَة في قتله، بل يكون هو الظالمَ فيه. ولا يحتمل أن يكون القصاص واجبًا أيضًا وموسى يَفِرّ من ذلك ويَهرُب وفي ذلك إبطال حقّهم، دلّ أنه لم يجب. ولا شكّ أنّ وَكْزةَ[12] مَنْ له قوّة أربعين رجلاً إلى الهلاك أسرع وأقرب[13] وأعمل من الضرب بالحجر العظيم أو الخشبة العظيمة. فإذا[14] لم يجب في هذا لم يجب في ذاك.[15] *والله أعلم.*

---

[1] الآية ٢٩ من هذه السورة.
[2] سورة يوسف، ٤١/١٢.
[3] الآية ٣٣ من هذه السورة؛ وانظر أيضا: سورة الشعراء، ١٤/٢٦.
[4] ن ث: ولم يكذبه.
[5] ن – موسى.
[6] جميع النسخ: أنه.
[7] انظر: *المبسوط* لشمس الأئمة السرخسي، ١٤٦/٢٦.
[8] جميع النسخ: فمات.
[9] ر م: وكز.
[10] ث – أن.
[11] سورة القصص، ٢٨/٢٠–٢١.
[12] م + موسى.
[13] ر: والأقرب.
[14] جميع النسخ: فإذ. والتصحيح من نسخة الظاهرية ٤٩٥، ورقة ٣٩٦و.
[15] ر ن: ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾[١٧]

وقوله: **ربّ بما أنعمت علي**، قال بعضهم: **بما أنعمت علي**، بالمغفرة فلم تعاقبني بقتل النفس وعصمتَني من أن أُعاقَب به في الدنيا. وجائز أن يكون بما أنعم عليه هو قوّته التي أعطاها. أخبر أنه لا يكون بها ظهيرًا للمجرمين. *والله أعلم*.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾[١٨]

وقوله: **فأصبح في المدينة خائفًا يترقّب**، أكثر ما ذكر في القرآن أصبح، أي صار، كقوله: أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا،[١] أي صار؛ وقوله: إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا،[٢] ونحوه. وأما هاهنا قوله: **فأصبح في المدينة خائفًا**، إنما يريد الصباح نفسه. وقوله: **يترقّب**، قال عامّة أهل التأويل: **يترقّب**، أي ينتظر سوءًا يناله منهم. وقال أبو عَوْسَجَة: الترقّب الخوف كأنه قال: خائفا يخاف هلاكه. وأصل الترقّب هو النظر، والرقوب أن يَرْقُب من يطلبه ومن يأتيه في طلبه، وهو من الترقّب.[٣]

وقوله: **فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لَغَوِيّ مبين**، كأنّ الرجل الذي أخبر أنه من شيعة[٤] موسى كان ضعيفًا في نفسه حيث لا يقدر أن يقوم لواحد، فيستنصرُ به من موسى ويستعينه به؛[٥] إلا أنه كان[٦] يخاطب وينازع ويقاتل لسوء فيه وبلاء[٧] يقاتل[٨] وينازع. وإلا لم يكن بنفسه من القوة ما يقوم لواحد، فمن حيث القُوةُ[٩] لا يقاتِل مثلُه ولكنه لما ذكرنا[١٠] من سوء[١١] به. ولذلك قال له موسى: **إنك لغويّ مبين**، لكن موسى إنما عرف[١٢] غوايته بالاستدلال الذي ذكرنا لا بالمشاهدة.

[١] ﴿فعسى ربي أن يؤتيَنِ خيرا من جنتك ويرسل عليها حُسبانا من السماء فتُصبح صعيدا زَلَقًا أو يصبح ماؤها غَوْرا فلن تستطيع له طَلَبا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٤٠-٤١).

[٢] ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء مَعين﴾ (سورة الملك، ٦٧/٣٠).

[٣] جميع النسخ: من الرقيب.

[٤] ن ث: شيعته.

[٥] ر - به.

[٦] جميع النسخ: كأنه. والتصحيح من نسخة روان ١٨٢، ورقة ٣٢٥ظ.

[٧] ر - وبلاء.

[٨] ر: ويقاتل.

[٩] ر ث م - القوة.

[١٠] ث: ذكر.

[١١] ر: سوا.

[١٢] ر: المعروف.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[١٩]

[٥٦٣و] / ولذلك أراد أن يبطش بالذي[1] هو عدوّ لهما لئلا يقتله[2] ولا يهلكه لما عرف غوايته بالاستدلال لا حقيقة. وذَكَر هاهنا البطش، وهو الأخذ باليد، وفي الأول ذكر الوكزةَ، وهي الدفع والطعن على ما ذكرنا، فهو -والله أعلم- لأنه لَمّا[3] وَكَزَ[4] الأولَ فأتت الوكزةُ على نفسه فقتلته، فأخذ هذا من هذا ليمنعه عن[5] إهلاكه وإتلافه ولا يأتي على نفس الآخر كما فعلَت الوكزة.

ثم قال: **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس**، اختلف في قائل هذا، قال عامة أهل التأويل: إن قائل هذا هو الذي استصرخه واستغاثه. قالوا: لأنه ظن أن موسى إنما أراد بطْشه وأخْذه وإليه قصد، لذلك قال: **أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس**. وقال قائلون: هذا القول إنما قاله[6] ذلك القبطي. فإن كان هذا فهو يدلّ أن قتله ذلك الرجل بالأمس كان ظاهرًا حيث علم به القبطي وكان قوله [تعالى]: عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا،[7] أي من دخول موسى المدينة. وإن كان هو الأوّلَ كان قتله إياه خفيًّا غير ظاهر، فعلى هذا تكون[8] الغفلة على أهل المدينة ليس على دخول موسى. *والله أعلم*.

وقوله: **إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين**، لأن الذي يُصلح بين اثنين لا يقتل ولا يأخذ أحدهما دون الآخر، ولكن يصلح بينهما على السواء، لذلك[9] قال ما قال. وقوله: **إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض**، قال بعضهم: يقول: هكذا فعل الجبابرة بقتل النفس بغير نفس.[10] وقال بعضهم: الجبّار هو الذي

---

[1] ر ث م: الذي.
[2] ر م: يقتلهما.
[3] ر: مما.
[4] ر م: ذكر.
[5] ر م: على.
[6] جميع النسخ: إنما قال له. والتصحيح من نسخة چورلولي علي باشا ١٠، ورقة ٤٥٧ظ.
[7] سورة القصص، ١٥/٢٨.
[8] جميع النسخ: يكون.
[9] ر م: الذي.
[10] ر م + وقال بعضهم الجبابرة يقتل النفس بغير نفس.

يحمل الناس[١] على هواه وعلى ما يريده ويقهرهم على ذلك شاءوا أو أبَوا. وقال بعضهم: الجبّار هو الذي يتكبّر على الناس، لا يرى أحدًا لنفسه نظيرًا، أو كلام نحوه. ويقال: كلّ قاتلٍ آخَرَ على الغضب بغير حق فهو جبّار.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٢٠]

وقوله:[٢] **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى**، يحتمل أن يكون أقصى المدينة هو مسكن فرعون ومُقامه فمنه جاء ذلك الرجل. أو أن يكون أقصى المدينة موطن الملأ والأشراف الذين ذكر أنهم ائتمروا على قتله. وقوله: **يسعى**، والسعي هو العَدْو في اللغة، كأنه يسرع المشي إليه ليخبره بذلك.

وقوله: **إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك**، **يأتمرون**، قال بعضهم: يتشاورون في قتلك. وقال الزجاج: **يأتَمِرون بك**، أي يأمر بعضهم بعضًا أن يقتلوك.[٣] وقال القُتَبي: **يأتمرون**، أي يَهُمُّون في قتلك.[٤] وذكر عنه أنه قال: **يأتمرون**، يتشاورون بك. وهو قول أبي عَوْسَجَة.[٥] وأصل الائتمار في اللغة هو الطاعة والاتّباع لما يؤمَر من الفعل. كأنّ فرعون أمر الملأ أن يقتلوه فأطاعوه وائتمروا لأمره. *والله أعلم*.

وقوله: **فاخرج إني لك من الناصحين**، قال الزجاج: قوله: **لك** [ليس من] صلة [**الناصحين**]،[٦] والصلة لا تتقدم الموصول به ولكن معناه: **فاخرج إني لك من الناصحين** الذين يَنْصَحون لك.[٧] وليس [الأمر][٨] كما قال، [فإن][٩] الصلة تتقدم وتتأخر، وذلك ظاهر في الكلام.

---

[١] ر م: النفس.

[٢] ن: قوله.

[٣] *معاني القرآن* للزجاج، ٤/١٣٨.

[٤] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣١.

[٥] ونسب هذا القول في *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة (ص ٣٣٠) إلى أبي عبيدة.

[٦] الزيادتان من *معاني القرآن* للزجاج، ٤/١٣٨.

[٧] انظر: *معاني القرآن* للزجاج، ٤/١٣٨.

[٨] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٦٥و.

[٩] الزيادة من المرجع السابق.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢١]

وقوله: **فخرج منها خائفًا يترقب**، قد ذكرنا هذا.[١] دلّ قوله: **خائفًا يترقب**،[٢] أن الخوف قد يكون من دون الله، وجائز أن يُخاف من غيره، وليس كما يقول بعض[٣] الناس أنْ لا يسعُ الخوف من دون الله. وحقيقة الخوف تكون[٤] من الله، يَخاف أن ينتقم منه على يدَي هذا. *والله أعلم*.

وقوله:[٥] **رب نَجِّني من القوم الظالمين**، يحتمل الظالم كل مشرك، لأن كلّ مشرك ظالم. ويحتمل قوله: **رب نَجِّني من القوم الظالمين**، حيث همّوا قتلَه. وقتْل موسى ذلك القبطيَّ لم يوجب عليه القتل والقصاصَ، لأنه لم يتعمّد قتله أو لم يقتله بسلاح يجب به[٦] القتل. فذَكَر أنهم فيما همّوا قتله ظَلَمَة.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[٢٢]

وقوله: **ولما توجَّهَ تلقاءَ مَدْيَنَ**، قال بعضهم: أخذ طريقًا إذا سلك ذلك الطريق ونفَذ فيه خرج تلقاء مدين، أو وقع تلقاء المكان المقصود إليه.

وقوله:[٧] **قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل**، أي الطريق الذي كان يقصده ويطلبه وهو طريق مدين. وذُكر أنه كان ضلّ الطريق.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[٢٣]

وقوله:[٨] **ولما ورد ماء مدين**، أي ورد[٩] البئر التي كان ماء مدين من تلك البئر، **وجد عليه أمّةً من الناس يَسقُون**، **أمّة** أي جماعة، وقيل: أناس من الناس يَسقُون أغنامهم ومواشيَهم.

---

[١] ن – قد ذكرنا هذا.
[٢] ن + دل قوله خائفا يترقب.
[٣] ن – بعض، صح هـ.
[٤] م: يكون.
[٥] ن: قوله.
[٦] ن: فيه.
[٧] ن: قوله.
[٨] ن: قوله.
[٩] م: موارد.

ووجد من دونهم امرأتين تَذُودَانِ، قال بعضهم: **تَذُودَانِ**، أي[1] تحبِسان أغنامهما[2] حتى يفرغَ الناس ويُصدروا[3] ويخلو لهما البئر. وقال بعضهم: **تَذُودَانِ**، أي تطردان أغنامهما لتَسْقِياها.[4] ثم قوله: **ووجد من دونهم امرأتين تَذُودَانِ**،[5] يحتمل وجهين. أحدهما تحبسان[6] غنمهما ولا تَسقيانها[7] حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ لِما لا تُترَكان تسقيان غنمهما مع غنم أولئك الرِّعاء حتى يُصدروا هم.[8] والثاني لا تمنعان ذلك ولكنهما تستحيِيان[9] أن تُزاحما الرجال وتختلطاهم فتنتظران[10] فراغهم وصدور[11] الرعاء عنها.

فإن قيل: فما بالهما لا تتخلّفان وقت اجتماع القوم وتَشهَدان في ذلك الوقت / ولا تنتظران خلاء البئر عنهم؟ [٥٦٣ظ]

قيل: لِما ذُكر أن على رأس البئر حجرًا يُلْقَى عليها[12] لا يطيقه إلا كذا كذا نفرًا، وكذلك الدلو التي يُستَقى منها لا يطيقها إلا كذا كذا نفرًا[13] من عشرة إلى أربعين على ما ذُكر. فهما تشهدان ذلك البئر وقت شهود القوم وحضورهم ليتولّوا هم[14] نَزْح الدلْو واستقاءها. ولو تخلّفتا وانتظرتا خلاء البئر عنهم ثم تأتيان لم تقدرا على نزح الماء والدلو ورفع الحجر الذي ذكر أنه كان على رأس البئر، لذلك كان ما ذُكر. ***والله أعلم***.

وقوله:[15] **ما خطْبكما**، أي ما شأنكما وما أمركما؟ **قالتا لا نَسْقِي حتى يُصدر الرِّعاءُ**، لما ذكرنا. وقرئ يَصدُر بنصب الياء وبالرفع جميعًا.[16] فمن قرأ بالنصب فإنه يقول:

---

[1] ر م – أي.
[2] ر م – أغنامهما.
[3] جميع النسخ: ويصدرون.
[4] ر م: لتسقيها.
[5] ث – أي تطردان أغنامهما لتسقياها ثم قوله ووجد من دونهم امرأتين تذودان.
[6] ر ث م – تحبسان.
[7] م: ولا تسقيانهما.
[8] م: يصدروهم.
[9] ر م: تستحيان.
[10] ن: فينتظران.
[11] ر م: صدور.
[12] جميع النسخ: عليه.
[13] ر م – نفرا.
[14] ر ن م: ليتولوهم.
[15] ن: قوله.
[16] انظر: حجة *القراءات* لابن زَنْجَلَة، ٥٤٣.

حتى يَصْدُرَ الرعاء بأنفسهم، أي يرجع؛ ومن قرأ بالرفع [فإنه يقول]: حتى يَصرفوا ويُرجعوا أغنامهم. *والله أعلم.*

وقوله:[1] **وأبونا شيخ كبير**، تذكران -والله أعلم- عذْر أبيهما في التخلّف عن سقْي الغنم وإرساله إياهما في ذلك دون تولّي ذلك بنفسه، وقالتا[2] ذلك لكبره وضعفه مما[3] يتخلّف عن ذلك ويرسلهما، وإلا لا معنى لذكرهما[4] كِبَرَ[5] أبيهما بلا سبب يحملهما على ذلك سوى ما ذكرنا. وجائز أن يكون لمعنى آخر لا نعلمه.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٢٤]

وقوله:[6] **فسَقَى لهما ثم تولَّى إلى الظلّ**، دلّ أن البئر التي كانت تُسقَى الماشية منها كانت في الشمس حيث أخبر أنه لمّا[7] سقى[8] لهما تولّى إلى الظل.[9] وفيه أن لا بأس بأن يَجلس في الظلّ.

وقوله:[10] **فقال ربِ إني لِما أنزلتَ إليّ من خير فقير**، قيل: إن هذا منه[11] شكاية عما أصابه من الجوع، لأنه ذُكر أنه خرج من مصر[12] إلى مَديَنَ هاربًا من فرعون وقومه غير متزوِّد، وهو مسيرة ثماني ليال.[13] وفيه دلالة أنْ لا بأس للرجل أن يخبر ويذكر عما هو فيه[14] من الشدّة والبلاء حيث ذكر موسى حاله التي هو فيها من الجوع الذي أصابه، وكذلك ما قال في آية أخرى: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا نَصَبًا.[15] وذلك يردّ قول من يقول: إن مثل هذا يخرج مخرج الشكاية عن الله، ولو كانت شكاية لكان موسى لا يقول ذلك ولا يذكره.

---

[1] ن: قوله.
[2] جميع النسخ: وقالا.
[3] ر ث م: على ما.
[4] ر ث م: لذكر.
[5] م: كبير.
[6] ن: قوله.
[7] ر م – لما.
[8] جميع النسخ: أسقى. والتصحيح من نسخة چورلولي علي باشا ١٠، ورقة ٤٥٨و.
[9] ث – دل أن البئر التي كانت تسقى الماشية منها كانت في الشمس حيث أخبر أنه لما سقى لهما تولى إلى الظل.
[10] ن: قوله.
[11] ن – منه.
[12] جميع النسخ: المصر.
[13] ر م: ليالي.
[14] ر ث م – فيه.
[15] سورة الكهف، ٦٢/١٨.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢٥]

وقوله: **فجاءته إحداهما تمشي على استحياء**، قوله: **تمشي** مَشْيَ مَن لم يعتد الخروج. أو **تمشي على استحياء**، أي تمشي مشْي من لم يخالط الناس على التستر والتغطية. **قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**، هذا يدلّ على[١] أنْ لا بأس أن يؤخذ على المعروف الذي صُنع إلى آخر أجر. والأفضل على مَن صُنع إليه المعروف والتبرّع أن يعطِي لمعروفه وتبرّعه بدلاً وأجرًا. والأفضل على المتبرع وعلى صانع المعروف أن لا يأخذ على ذلك بدلاً، إلا أن موسى كان قد اشتدت به الحاجة، لذلك كان[٢] ما ذكر وأخذ لمعروفه ما ذكر بدلاً. *والله أعلم*.

وقوله:[٣] **فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص**، أي لمّا جاء موسى أبا المرأتين وقصّ عليه قصته، **قال[٤] لا تخَف نَجَوت من القوم الظالمين**، دلّ قوله[٥] لموسى: **لا تخف نجوت من القوم الظالمين**، أن لم يكن لفرعون على ذلك المكان[٦] سلطان ولا يَد، إذ لو كان له سلطان لكان له فيه الخوف[٧] الذي كان من قبل ولم يكن نجا موسى منه. دلّ أنه لم يكن له عليهم سلطان.

وقوله: **الظالمين**، يحتمل المشركين،[٨] إذ كل مشرك ظالم. ويحتمل، **نجوت من القوم الظالمين**، الذين يقتلون بغير حق. حيث قال: رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.[٩]

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[٢٦]

وقوله:[١٠] **قالت إحداهما يا أبت استأجِره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين**، قال أهل التأويل: قال أبوهما لمّا قالت له: "استأجره فإنه قويّ أمين": ما قوّته وأمانته؟ فقالت:

---

[١] ن – على.
[٢] م – كان.
[٣] ن: قوله.
[٤] ر م + له.
[٥] ر ن ث + هذا.
[٦] ر م: لكان.
[٧] ن – الخوف، صح هـ.
[٨] ث: المشركون.
[٩] الآية ٢١ من هذه السورة.
[١٠] ن – قوله: صح هـ.

أما قوّته فإنه رفَع الحجر من رأس البئر وحده وكان لا يطيقه إلا كذا كذا نفرًا، ونَزَح الدلْو من البئر وحده وكان لا يطيق[1] نزحه إلا كذا كذا[2] [نفرًا] فذلك قوّته. وأما أمانته فإنه قال لي: "امشي خلفي وصِفى لي الطريق". فذلك أمانته. ولكن قد كانت تَعرف أمانته قبل ذلك لما جرى بينه وبينهما من المعاملة حين قال لهما: **ما خطبكما**، وحين سقى لهما. في مثل هذا تُعرف أمانته في ترك النظر إليهما وترك الاعتراض لما يوجب التهمة. *والله أعلم*.

وقولها: **يا أبتِ استأجرْه**، كأن أباها كان[3] في طلب أجير قويّ أمين لكنه لا يجد ولا يَظفَر به، لذلك[4] قالت له: **استأجِره إن خير من استأجرت القوي الأمين**، إذ لا يحتمل أن يكون مَن[5] له ماشية وله غِنىً[6] وبه حاجة إلى رعْي ذلك وسقيه –وقد بلغ في نفسه من الكبر والضعف ما ذُكر– يرسل ابنته في الرعي والسقي ولا يستأجر الأجير ليتولّى ذلك[7] دون بناته. هذا لا يحتمل ذلك. وخاصّة ما وصف ابنته من الحياء حيث قال: **فجاءته إحداهما تمشي على استحياء**، دلّ ذلك أنه كان في طلب الأجير. وإنما أرسل ابنته في سقي الغنم وهو مضطرّ إلى ذلك محتاج إليه لذلك قالت له: **يا أبَتِ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين**.[8]

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢٧]

قال إني أريد أن أُ نْكِحَك إحدى ابْنَتَيَّ هاتين على أن تأجُرني ثمانِيَ حِجَجٍ، طلبت هي الاستئجار وهو عرَض عليه النكاح لما لم ترغب[9] هي في النكاح. أو طلبت الاستئجار

[٥٦٤و] لما[10] لم تر من نفسها الرغبة / في النكاح –وإن[11] كانت لها الرغبة– حياءً. *والله أعلم*.

[1] جميع النسخ: لا يطيقه. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٤ظ.
[2] ن ث – كذا.
[3] م – كان.
[4] ر م: كذلك.
[5] ر م – من.
[6] جميع النسخ: غناء. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٥و.
[7] ن ث + له.
[8] جميع النسخ + ثم.
[9] ن: لم يرغب.
[10] ر م: ولما.
[11] ر: فإن.

ثم قوله: **على أن تأجُرني ثمانِيَ حِجَجٍ**، يحتمل وجهين. أحدهما أنه جعل عمله ثماني حجج بدلاً للنكاح ومهرًا لِبُضْعِها.[١] ثم تحديده بثماني حِجج لِما رأى عمل ثماني سنين مهرَ مثلها.

وقوله:[٢] **فإن أتممت عشرًا فمن عندك**، أي فإن أتممت عشرًا وزدت[٣] على مهر المثل فمن عندك، أي لك ذلك، [وهو] فضل منك وإحسان.

والثاني قوله: **على أن تأجُرني ثمانِيَ حِجَجٍ**، ليس على جعله بدلاً للنكاح ولكن على الإجارة المعروفة على أجرٍ معلوم على جِدة من غير أن كان ذلك مهرًا لها.

ثم التحديد بثماني سنين على هذا الوجه يخرج على إحدى خَلّتين. إحداهما[٤] أنه لمّا قصّ عليه قصّته علم أنه لا يقدر على العَود إلى مصر،[٥] ورأى أنه لا يأمن تلك الناحيةَ بدون ما ذكر من المدة. أو لِما رأى أن نفسه تنزَع وتَتُوق[٦] بالعود إلى ذلك في ذلك الوقت، فشرط ذلك[٧] عليه لئلّا يحدّث نفسه بالرجوع إليه إلى ذلك الوقت.

*وقال القُتَبي: **على أن تأجرني**، أي تُجازِيَني من التزويج، والأجر من الله، إنما هو الجزاء على العمل.[٨]* [٥٦٤و س ٢١]

وقوله:[١٠] **فإن أتممت عشرًا فمِن عندك**، أي فإن زدت سنتين على ذلك فمن فضلك وإحسانك. **وما أريد أن أشُقّ عليك**، في الزيادة على ذلك كله. ***والله أعلم***.

ثم قال: **ستجدني إن شاء الله من الصالحين**، في جميع ما يجري بينك وبيني من المعاملة والصحبة. وفيه أن الثُّنيا فيما يَعِدُون كان ظاهرًا في الأمم السالفة.

---

[١] ر م: لبعضها. البُضْع: النكاح. يقال: ملَك فلان بُضْع فلانة إذا ملك عقدة نكاحها، وهو كناية عن موضع الغشيان (*لسان العرب*، «بضع»).

[٢] ن: قوله.

[٣] ن: ورددت.

[٤] م: احديهما.

[٥] جميع النسخ: المصر. والتصحيح من نسخة نجيب باشا ١٨٢، ورقة ٣٨٦و.

[٦] ر م: وتشوق. وتاق يَتُوق تَوْقا وتَوَقانًا: اشتاق إليه ونزع (*لسان العرب*، «توق»).

[٧] ن + ذلك.

[٨] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٢.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٦٤و/سطر ٢١.

[١٠] ن: قوله.

ثم اختلف في أب[1] المرأتين. قال بعضهم: كان شعيبًا. وقال بعضهم: [كان] ابن أخ[2] شعيب. وقال الحسن: لم يكن شعيب ولكنه كان سيد الماء يومئذ.[3] وليس لنا إلى معرفة مَن كان [هو] حاجةٌ. أما شعيب فإنه لم يكن في زمن موسى. **والله أعلم.**

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[٢٨]

وقوله:[4] **قال ذلك**، يعنى الشرط -والله أعلم-، **بيني وبينك أيَمَا الأجلين قضيتُ**، أي أوفَيت وعملت، إما الثماني وإما العَشْرَ، **فلا عدوان علي**، يقول: لا سبيل لك عليّ بعد ذلك ولا تَبِعة. والعدوان هو الظلم والمجاوزة عن الحدّ الذي جُعل له، يقول: لا ظلْم عليّ ولا مجاوزة عليّ، أي الاختيار إليّ: قضيتُ أيَّ الأجلين اخترتُ وشئت أنا.

ثم قال: **والله على ما نقول وكيل**، قال بعضهم: يقول:[5] والله كفيل على مقالتي ومقالتك. والوكيل هو الشهيد أو الحافظ، كأنه يقول: والله على ما نقول شهيد. ذكر أن جبريل جاء إلى[6] رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن سُئِلْت أيَّ الأجلين قضى موسى فقُل: أَبَرَّهما وأوفاهما؛ وإن سُئِلْت أيّ المرأتين تزوَّج فقل: أصغرهما».[7] فإن ثبت هذا ففيه أنه قضى الأجلين جميعًا الثماني والعشر، وليس في الآية إلا قضاء الأجل حيث قال:[8] ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾.[9]*

---

[1] جميع النسخ: في أبي. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٥ظ.

[2] جميع النسخ: أخي. والتصحيح من المرجع السابق.

[3] انظر: *تفسير الطبري*، ١٨/٢٢٤.

[4] ن: قوله.

[5] ر ث م - يقول.

[6] ر م - إلى.

[7] عن سعيد بن جُبَير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيَّ الأجلَين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أَقدَم على حَبْر العرب فأسأَله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبَهما، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل (*صحيح البخاري*، الشهادات، ٢٩). قارن: *تفسير القرآن العظيم* لابن كثير، ١٠/ ٤٥٤-٤٥٥.

[8] ر م - قال.

[9] الآية التالية.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٦٤و/سطر ٢١.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[٢٩]

وقوله: **فلما قضى موسى الأجل**، قال أهل التأويل: ما ذكرنا أنه قضى: [أي] أتمهما وأكثرهما.[١] لكن لا نعلم إلا بالخبر الصحيح عن فعل ما ذكروا.[٢] وليس في الآية إلا قضاء الأجل فلا يزاد على ذلك إلا بخبر[٣] يثبت، فإن ثبت ما روي من الخبر فهو هو.[٤] *والله أعلم*.

وقوله:[٥] **وسار بأهله آنس من جانب الطور نارًا**، "آنس" قيل: أبصر وأحسّ نارًا. قال بعضهم: إن موسى لم يكن رأى نارًا ولكن إنما رأى نورًا ظنّ أنه نار؛ فلا يحتمل ذلك، لأنه أخبر أنه آنس نارًا، فإن[٦] لم يكن ذلك في الحقيقة نارًا[٧] ولكن نور كان ذلك يوجب الكذب في الخبر. إلا أن يقال على الإضمار: **آنس من جانب الطور** نورًا ظنّ أنه نار،[٨] أو في ظنّه أنه نار.

قال لأهله امكُثُوا إني آنست نارًا لعلّي آتيكم منها بخبر أو جَذْوَةٍ من النار، أي امْكُثُوا لعلّي آتيكم منها بخبرٍ يدلّنا ويخبرنا عن[٩] الطريق. فكأنه قد ضلّ الطريق فيقول: **لعلي آتيكم منها بخبر** الطريق **أو جذوة من النار**، أي آتيكم بجذوة من النار لو بقيتم فيه ولم آتكم بخبر الطريق، **لعلكم تصطلون**، هذا يدلّ أنه كان في أيام الشتاء وفي وقت البرد.

* وقوله: **أو جَذْوَةٍ**، [و]بكسر الجيم ورفعها.[١٠] قال بعضهم: عُود قد احترق بعضه. |٥٦٤ظ س ه
وقال قتادة: أصل شجرة فيها نار.[١١] وقال أبو عَوْسَجَة: الجذوة مثل الشِهاب سواء،

---

[١] ر م: أو أكثرهما. أي قضى الأجلين.
[٢] ر م: فعلى ما ذكروا. أي ليس عندنا علم فيما فعل موسى عليه السلام في قضاء الأجل. وما ذكر أهل التأويل في هذه المسألة لا يعلم إلا بالخبر الصحيح.
[٣] جميع النسخ – بخبر. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٥ظ.
[٤] ر ث م – هو.
[٥] ن: قوله.
[٦] جميع النسخ: وإن. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٦٦و.
[٧] ن ث: نار.
[٨] م: نارا.
[٩] ر م: على.
[١٠] انظر: *حجة القراءات* لابن زَنْجَلَة، ٥٤٣-٥٤٤.
[١١] انظر: *تفسير الطبري*، ٢٤٠/١٨.

والْجُذَى [برفع الجيم وكسرها] جمع[1] الجَذوة. وقال أبو عبيدة:[2] الجذوة القطعة الغليظة.[3] وقال القُتَبي: الجذوة عود قد احترق، أي قطعة منها.[4] **وشاطئ**، أي شطّ الوادي،[5] **آنست**، أبصرت. وكذلك قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا،[6] أي أبصرتم وعلمتم.* [٥٦٤ظ س٨]

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٣٠]

[وقوله:] **فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمَن في البقعة المباركة**، قال بعضهم: **الأيمن**، أي عن يمين الجبل، وقال بعضهم: عن يمين موسى، وقال بعضهم: يمين الشجرة، ولكن الأيمن [عندنا] المبارك وهو من اليُمْن.[8]

في البقعة[9] المباركة. قال بعض أهل التأويل: سمّي[ت] مباركة[10] لكثرة أشجارها وأنزالها وكثرة مياهها وعُشبها، ولكن سمّاه[11] مباركًا وأيمَنَ -والله أعلم- لأنه مكان الأنبياء والرسل وموضع الوحي.

وقوله:[12] **نودي ... من الشجرة أنْ يا موسى إنّي أنا الله رب العالمين**. ولله أن يُسمِع ويخبر من شاء ممّا[13] شاء [و]فيما[14] شاء[15] وكيف شاء، كما أسمع مريم من تحتها حيث قال: فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي.[16]

---

[1] ن: جميع.
[2] ر ث م: أبو عوسجة.
[3] «أي قطعة غليظة من الحطب ليس فيها لهب. وهي مثل الجِذمة من أصل الشجرة، وجماعها الجذا» (*مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ٢/١٠٢-١٠٣).
[4] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٢.
[5] من الآية التالية.
[6] ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ (سورة النساء، ٤/٦).
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ٣١، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٦٤ظ/سطر ٥-٨.
[8] جميع النسخ + الوادي اليمن. وهي لا توجد في *الشرح*، ورقة ٥٦٦و.
[9] جميع النسخ: والبقعة.
[10] جميع النسخ: مباركا.
[11] أي سمّى الوادي.
[12] ن: قوله.
[13] جميع النسخ: مم.
[14] ن ث: فيم.
[15] ر م - فيما شاء.
[16] ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا﴾ (سورة مريم، ١٩/٢٤).

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[٣١]

وقوله: **وأن ألق عصاك**، ليس هذا بموصول بقوله: إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[١] **وأن ألقِ عصاك**، ولكنَّ ذلك[٢] كما[٣] ذكر في سورة طه: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ،[٤] إلى آخر ما ذَكَر.[٥] ثم قال في آخره: **وأن ألقِ عصاك فلما رآها تهتزُّ**، أي تتحرك، **كأنها جانّ**. قال بعضهم: الجانُّ الحية الصغيرة، وقال بعضهم: الجانُّ ما بين العظيمة والصغيرة. ***والله أعلم***. وقوله: **ولّى مُدْبِرًا**، أي[٦] فارًّا هاربًا، **ولم يُعَقِّب**، أي لم يلتفت ولم يرجع لشدّة / خوفه وفَرَقه. |٥٦٤ظ|

وقوله: **يا موسى أَقْبِل ولا تَخَف إنك من الآمنين**، قوله: **لا تَخَف**، يحتمل وجوهًا. أحدها على رفع الخوف من قلبه وإدخال الأمن فيه. والثاني على البِشارة أنه لا يؤذيه، كأنه يقول: لا تَخَف وكُن من الآمنين فإنه لا يؤذيك. والثالث على النهي: **لا تخف**، فإني أحفظك وأدفع أذاه عنك، كقوله: قَالَا[٧] رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى،[٨] أي أسمع ما يقول لكما وأرى ما يفعل بكما وأدفع ذلك عنكما.*

﴿اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[٣٢]

وقوله: **اُسلُك يدك في جيبك**، أي أَدْخل يدك في جيبك،[١٠] على ما ذكر في آية أخرى:

---

[١] الآية السابقة.

[٢] ث: ذكر.

[٣] جميع النسخ: ما.

[٤] سورة طه، ١٢/٢٠.

[٥] وعبارة السمرقندي رحمه الله هكذا: «ليس هذا بموصول بقوله ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾ كأنه قال إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك، ولكن ذكره كما قال في سورة طه ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ إلى آخر ما ذكر» (شرح *التأويلات* ورقة ٥٦٦و). يعني كلم الله تعالى موسى عليه السلام في هذه الآيات (١٢/٢٠-٢١) وقال في أواخرها: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ وكذلك قال هنا في آخر كلامه: ﴿وأن ألق عصاك...﴾.

[٦] ر ث م - أي.

[٧] ر م - قالا.

[٨] سورة طه، ٤٥/٢٠-٤٦.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٢٩، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٦٤ظ/سطر ٥-٨.

[١٠] ر ث م - أي أدخل يدك في جيبك.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ.[١] هذا يدلّ أنْ لا بأس بتغيير[٢] الألفاظ واختلافها بعد إصابة المعنى وما قُصد بها.

وقوله: **تَخْرُجْ بيضاء من غير سوء**، قد ذكرناه فيما تقدم.[٣]

وقوله:[٤] **واضمُم إليك جناحك من الرُّهْب**، بالضم، والرَّهب بالفتح، قد قرئ بهما جميعًا.[٥] ثم قال بعضهم: هو على التقديم والتأخير. قوله: **من الرهب**، موصول بقوله: أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ **من الرهب**،[٦] أي الخوفِ والفَرَق. وقال[٧] بعضهم: أمره أن يضمّ يديه إلى نفسه لأن ذلك أخوف وأهيب وأعظم من إرسالهما. وذلك معروف أيضا في الناس أنهم إذا دخلوا على ملِك من الملوك ضمّوا أيديهم وأجنحتهم[٨] إلى أنفسهم تعظيمًا لهم وتبجيلاً وخوفًا[٩] منهم. فعلى ذلك جائز أن يأمره بضمّ يديه إلى نفسه ليكون بين يدَي ربه أهيَب[١٠] وأخوف ما يكون وأعظمَ ما يجب له، وهو ما قال له: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى.[١١]

وقوله: **فَذَانِكَ برهانان من ربك**، أي اليد والعصا اللتان ذكرهما، **برهانان من ربك**، أي حجّتان،[١٢] **إلى فرعون وملئه**، أي اذهب بهما إلى فرعون وملئه،[١٣] **إنهم كانوا قومًا فاسقين**.

---

[١] ﴿وأدخل يدك في جيبك تَخرج بيضاءَ من غيرِ سوء في تِسْعِ آياتٍ إلى فرعونَ وقومه﴾ (سورة النمل، ٢٧/١٢).

[٢] ر: تغيير.

[٣] ر – وقوله تخرج بيضاء من غير سوء قد ذكرناه فيما تقدم. انظر تفسير الآية ٢٢ من سورة طه.

[٤] ن: قوله.

[٥] «قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿من الرَّهَب﴾ بفتح الراء والهاء. وقرأ حفص عن عاصم ﴿من الرَّهْب﴾ بفتح الراء وسكون الهاء. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿من الرُّهْب﴾ بضم الراء وسكون الهاء» (*المبسوط في القراءات العشر* لابن مهران، ٣٤٠).

[٦] الآية السابقة.

[٧] ن: قال.

[٨] ر ث م: وجناحيهم؛ ن: وجناحهم.

[٩] ر ث م: أو خوفا.

[١٠] ن ث: وأهيب.

[١١] سورة طه، ٢٠/١٢.

[١٢] ر م: حجتنا.

[١٣] ر ث م – أي اذهب بهما إلى فرعون وملئه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنهُمْ نَفسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾[٣٣] ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾[٣٤]

وقوله: **قال ربّ إني قتلت منهم نفسًا فأخاف أن يقتلونِ وأخي هارون هو أفصح منّي لسانًا،** وقال في سورة الشعراء: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، إلى قوله: فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ،[1] أخر في هذا ما كان مقدّما في الذكر في ذلك وذَكَر على اختلاف الألفاظ وتغيير الحروف لِيُعْلَم أنْ ليس على السامع حفْظ الألفاظ والحروف[2] بعد إصابة[3] المعنى وفهْم ما قُصد بها وأودِعَ فيها، لأن الله ذكر هذه الأنباء والقصص التي كانت من قبل في القرآن على اختلاف الألفاظ وتغيير الحروف على التقديم والتأخير والزيادة والنقصان لِيُعلم أن المقصود والمراد بذكرها ما فيها لا عين اللفظ والحرف.[4] فإذا عرف ما فيها وفهم جاز الأداء بأيّ لسان كان وبأيّ لفظ كان.[5] *والله أعلم.*

وقوله:[6] **هو أفصحُ مني لسانًا،** يحتمل وجوها.[7] أما أهل التأويل فإنهم قالوا: كان في لسانه رُتّةٌ[8] أي عُقدة لما أدخل في فَمِه من النار. فذلك لا نعلمه. وقد قال في آية أخرى:[9] وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي.[10] فيجوز أن يكون ذلك خِلْقة خَلَقه [الله تعالى] هكذا على ما خلق بعض الخلق أفصح وأبْيَن من بعض. أو أن يكون لِما ذكر له من الخوف والذنب ما لم يكن ذلك لهارون.[11] ولا شكّ أن[12] من اشتد به الخوف منع صاحبه عن التكلم والبيان،

[1] ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ (سورة الشعراء، ١٢/٢٦-١٤).
[2] ث: حفظ الحروف والألفاظ.
[3] ر م: إصابته.
[4] م: والحروف.
[5] ن ث - كان.
[6] ن: قوله.
[7] ر م + أحدها.
[8] الرُتّة: عَجَلة في الكلام وقلة أناة. وقيل: هي العُجمة في الكلام. والأرتّ: الذي في لسانه عقدة وحُبسة (*لسان العرب*، «رتت»).
[9] ن ث - أخرى.
[10] سورة طه، ٢٧/٢٠-٢٨.
[11] ر ث م: آخرون.
[12] ر م - أن.

وذلك مُتعالَم معروف في الناس، وهو ما قال: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ،[1] الآية. أو أن يكون ذلك لأن نشوء هارون كان فيهم وهم بلسانه أعرف وبنطقه أفهم، ولموسى فَتَراتٌ كان معتزلًا عنهم.

وقوله: **فأرسِلْه معي رِدْءًا**، أي عونًا، **يصدِّقُني**. ثم بيّن في آية أخرى أنه فيم طلبه منه عونًا، وهو ما قال: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ،[2] الآية. **ويصدِّقُني** فيما أقول إذا كذبوني هم. أو أستأنس به إذا ضاق صدري بالتكذيب والرد. فأجابه ربه فقال:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[٣٥]

سنشُدُّ عضُدَك بأخيك، العضد كناية وعبارة عن القوة والعون. لأن القوة فيه تكون فيمن تكون، وهو كقوله: وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا،[3] ذكر الأقدام لأنه بالأقدام[4] يُثَبت، وقولِه: نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ،[5] لأنه بالعَقِب يَنكِص، ومثله كثير، فعلى ذلك هذا.[6]

وقوله: **ونجعَل لكما سلطانًا فلا يَصِلُون إليكما بآياتنا**، قال قائلون: هو على التقديم والتأخير، أي نجعل لكما سلطانًا بآياتنا فلا يصلون إليكما. وقال بعضهم: **ونجعل لكما سلطانًا** باللطف ندفع عنكما أذاهم وشرَّهم، كقوله: لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى،[7] أي أسمع ما يقول لكما وأرى ما يفعل[8] بكما وأدفع ذلك عنكما، **فلا يصلون إليكما** بالآيات التي معكما.

وقوله: **أنتما ومن اتبعكما الغالبون**، يحتمل هذا وجهين. الغالبون بالحجج والبراهين، أي تغلب[9] حجتكما سحرَهم وتمويهاتِهم. أو أن يكون عاقبة الأمر لكما، أو أن يكون ذلك في الآخرة.

---

[1] سورة الشعراء، ١٢/٢٦.

[2] ر ن ث - هارون. ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي هارونَ أخي اُشْدُدْ به أَزْرِي وأَشْرِكه في أمري﴾ (سورة طه، ٢٩/٢٠-٣٢).

[3] سورة آل عمران، ١٤٧/٣.

[4] ر ث م - لأنه بالأقدام.

[5] سورة الأنفال، ٤٨/٨.

[6] ر ث م: هذا ذلك.

[7] سورة طه، ٤٦/٢٠.

[8] أي فرعون.

[9] جميع النسخ: يغلب.

قال / أبو معاذ: العرب تقول: عَضَدْت[١] الرجل، أي أعَنْته. وقال أبو عَوْسَجَة: **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ** [٥٦٥ر]
بأخيك، أي أُعينك به وأقوِيك. والعَضُد كناية عن القوة، لأنه فيه يكون القوة وبه يقوَى مَن يوصف بالقوة على ما ذكرنا.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[٣٦]

وقوله:[٢] **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات**، أي جاء موسى فرعونَ وقومه، **بآياتنا**، أي أعلامًا أنشأناها[٣] موضِحات مظهرات يظهرن ويوضّحن رسالة موسى ونبوّته، وقد أظهرنا[٤] لهم ذلك وعرفوا أنها آيات من الله نزلت.[٥] أفلا ترى أن موسى قال له: يا فرعون لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ،[٦] لكنهم عاندوا وكابروا وقالوا: **ما هذا إلا سحر مفترى**. هذا منهم تمويهٌ وتلبيس على الأتْباع والسَّفَلَة، ولم تزَل[٧] عادتهم التمويهَ والتلبيس على أتباعهم أمرَ موسى.

وقوله:[٨] **وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين**، يقولون –والله أعلم–: إن آباءنا قد عبدوا الأصنام على ما نعبد نحن وقد ماتوا على ذلك من غير أنْ نزل بهم ما توعدنا من الهلاك والعذاب، فعلى ذلك نحن على دين آبائنا وعلى ما هم عليه فلا ينزل بنا شيء مما تذكر وتوعدنا به من العذاب.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٣٧]

ثم قال موسى: **ربِّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار**، هذا –والله أعلم– كأنه ليس بجواب لقولهم: مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ،[٩]

---

[١] ر م: أردت؛ ن ث: أردأت.
[٢] ن: قوله.
[٣] جميع النسخ: أنشأها.
[٤] جميع النسخ: وقد أظهرن.
[٥] جميع النسخ: نزلن.
[٦] سورة الإسراء، ١٧/١٠٢.
[٧] جميع النسخ: ولم يزل.
[٨] ن: قوله.
[٩] الآية السابقة.

ويكون جواب هذا إن كان هو قولَه: **إنه لا يفلح الظالمون،** كنّىٰ بالظلم عن السحر. يقول -والله أعلم-: ليس بسحر لأني قد غلبتكم وقهرتكم وقد أفلحت أنا، ولو كان سحرًا ما آتيتكم به لم أُفلح، إذ الله تعالى أخبر أن الساحر لا يفلح بقوله: إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى،[1] وقال أيضًا: مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ،[2] الآية؛ وقد أصلح عملي فظهر أنه ليس بفساد ولكنه صلاح. ثم نقول:[3] قوله: **ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار،** [يحتمل أن يكون جوابًا] لما ذكر[4] في سورة الأعراف[5] حيث قالوا: أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ،[6] فقال عند ذلك: **ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار،** أنتم أو نحن. [ويحتمل أن يكون قوله:][7] **ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده،** جوابًا لقوله: وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ.[8] *والله أعلم.*

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٣٨]

وقوله: **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علِمْتُ لكم من إلٰهٍ غيري،** كأنه قال للملإ خصوصيةً لهم، لأنه كان اتخذ للأتباع أصنامًا يعبدونها، وجعل للملأ عبادة نفسه وإلٰهيته؛ لِما لم ير الأتباعَ أهلاً لعبادة نفسه، جعل لهم عبادة الأصنام، ورأى الملأ أهلاً لذلك فخصّهم لذلك.[9] ومنه اتخذت العرب عبادة الأصنام دون الله لِما لم يروا أنفسهم أهلاً لعبادة الله، وقالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى.[10]

---

[1] سورة طه، ٦٩/٢٠.

[2] ﴿فلما ألقَوْا قال موسى ما جئتم به السحرُ إن الله سيُبطله إن الله لا يُصلِح عمل المفسدين﴾ (سورة يونس، ٨١/١٠).

[3] جميع النسخ: ويكون جواب. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٦ظ.

[4] جميع النسخ: ما ذكر. والتصحيح مع الزيادة من المرجع السابق.

[5] جميع النسخ: المص.

[6] سورة الأعراف، ١٢٧/٧.

[7] جميع النسخ: ويقول. والزيادة من المرجع السابق.

[8] ﴿قال فرعون ما أُريكم إلا ما أَرَى وما أَهْديكم إلا سبيلَ الرشاد﴾ (سورة المؤمن، ٢٩/٤٠).

[9] ر ث م – لذلك.

[10] ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩).

وقوله:[١] **فأَوْقِدْ لي يا هامان على الطين فاجعل لي صَرحًا**، قال أهل التأويل: أوّل من اتخذ الآجُرَّ هو،[٢] ولا نعلم ذلك يحتمل أن يكون من قبل ذلك. وقوله:[٣] **فاجعل لي صرحًا**، أي قصرًا، **لعلّي أطّلع إلى إلٰه موسى**. كان يعرف[٤] أنه ليس بإلٰه السماء والأرض إذ لا يملك ذلك. فكأنه أراد بقوله: **ما علمت لكم من إلٰه غيري**، قومه وأهلَه خاصة. **وإنّي لأظنّه من الكاذبين**، كان جميع ما كان بين موسى وفرعون من الكلام كان على الظنّ، كقوله: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا،[٥] وكذلك قال له موسى: وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا.[٦]

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[٣٩]
﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[٤٠]

وقوله:[٧] **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق**، الاستكبار هو أن لا يرى لنفسه شكلًا ولا نظيرًا. وهو كذلك كان لا يرى لنفسه شكلًا ولا نظيرًا، لأنه يدّعي لنفسه الربوبيّة والألوهيّة. واستكبار[٨] قومه لما استعبدوا هم[٩] بني إسرائيل واستخدموهم. أو استكبروا [مِن] أن يخضعوا لموسى ويجيبوا له إلى ما يدعوهم إليه.

وقوله:[١٠] **وظنّوا أنّهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده**، أخذناه أخذَ تعذيب وإهلاكٍ، **فنبذناهم في اليَمِّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**، يُعذَّبون بظلمهم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾[٤١]

وقوله:[١١] **وجعلناهم أئمَة يدعون إلى النار**، ذكر في هؤلاء أنه جعلهم أئمة في الشر، وذكر في الرسل وأهل الخير أنه جعلهم أئمة في الخير حيث قال: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

---

[١] ن: قوله.
[٢] أي فرعون.
[٣] ن: قوله.
[٤] ن + اللعين.
[٥] سورة الإسراء، ١٧/١٠١.
[٦] سورة الإسراء، ١٧/١٠٢.
[٧] ن: قوله.
[٨] ر: والاستكبار.
[٩] م: استعبدوهم.
[١٠] ن: قوله.
[١١] ن: قوله.

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ،[1] وما قال: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ،[2] فكان من الله تعالى في أهل الخير صنع ومعنى حتى صاروا بذلك أئمّةَ الخير ما لم يكن ذلك منه بأهل الشر وأئمّة السوء. فهذا على المعتزلة، لأنهم يقولون: لم يكن من الله إلى الرسل وَقَادَةِ الخير شيء[3] إلا وقد كان ذلك منه إلى كلّ كافر وفاسق. فلو كان على ما قالوا لكان لا يُحتمل أن يصير هؤلاء أئمّة الخير وأولئك أئمّةَ الشر، فدل ذلك أنه منه إلى هؤلاء معنى صاروا[4] بذلك ما ذكر ما لم يكن ذلك إلى أولئك. إلا أن يقولوا: إن هؤلاء صاروا أئمة الخير بأعمالهم وأولئك أئمّةَ الشر[5] بأعمالهم أيضًا. وإن كان ما مِن الله إليهم على السواء، لكن يضاف ذلك إلى الله بأسباب تكون[6] منه، وكانت حقيقة ذلك منهم وبعملهم، نحو ما قال:[7] إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ،[8] أضاف إنذاره إلى من اتبع الذكر[9] وإن كان رسول الله / أنذر[10] من اتّبع الذكر[11] ومن[12] لم يتّبع. وكذلك ما قال في الشيطان:[13] إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ،[14] [٥٦٥ظ] وهو يدعو[15] الحزبَيْن جميعًا، لكنه أضاف دعاءه إلى حزبه لما منهم يكون له الإجابة، وأضاف إنذار رسوله[16] إلى من اتّبعه وقَبِله لطاعتهم له. فعلى ذلك الأول، أضاف ذلك إلى نفسه لفعلهم.

---

[1] سورة الأنبياء، ٢١/٧٣.
[2] سورة آل عمران، ٣/١٠٤.
[3] ر م – شيء.
[4] جميع النسخ: فصاروا، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٧و.
[5] ر م – فدل ذلك أنه منه إلى هؤلاء معنى صاروا بذلك ما ذكر ما لم يكن ذلك إلى أولئك إلا أن يقولوا إن هؤلاء صاروا أئمة الخير بأعمالهم وأولئك أئمة الشر.
[6] ث: يكون.
[7] ر م – ما قال.
[8] سورة يس، ٣٦/١١.
[9] ر – أضاف إنذاره إلى من اتبع الذكر.
[10] جميع النسخ: ينذر. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٧و.
[11] ر ث م – من اتبع الذكر.
[12] ث: من.
[13] جميع النسخ: في الشياطين. والتصحيح من المرجع السابق.
[14] ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٦).
[15] ر م – حزبه وهو يدعو.
[16] ر ث: رسول الله.

لكن عندنا لا يكون من الخلق في فعل الخلق حقيقةُ الفعل، إنما يكون منهم الأسباب، ويكون من الله تعالى في أفعالهم الأسباب وحقيقةُ الفعل؛ فيكون إضافة ذلك إلى الله على حقيقة الفعل والأسبابِ جميعًا، وإلى الخلق لأسباب تكون منهم إليه.[١]

والثاني إنما خصّ بالإنذار مَن[٢] اتّبع الذكر، لأنه إنما يقصد بالإنذار به من[٣] اتبعه لا مَن لا يتبعه. وكذلك[٤] الشيطان إنما يقصد بدعائه[٥] إياهم ضررَهم. وإن كان الرسول ينذر الخلق جميعًا: الذي يتبعه والذي لا يتّبعه. وكذلك الشيطان يدعو الحزبين جميعًا لأن هذا يقصد ضررهم بما يدعوهم إليه. ألا ترى[٦] أنه قال: إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ،[٧] والرسول -بما ينذر- يقصد نفعهم، لذلك خصّ الإنذار لمن اتّبعه، وخصّ في ذلك حزبه.

وقوله:[٨] **أئمة يدعون إلى النار**، لا يدعون إلى النار[٩] تصريحًا لأنهم لو دعوهم إلى النار لا يجيبونهم، ولكن يدعونهم إلى أعمالٍ توجب لهم النار لو أجابوهم. وهو كقوله: فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ،[١٠] أي ما أصبرهم على عمل يستوجبون به النار.

وقوله: **ويوم القيامة لا يُنصَرون**، كأنّ الشيطان منّاهم النصر والشفاعة بعبادة الأصنام فيخبر أنهم لا ينصرون لما مناهم.

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[٤٢]

وقوله: **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة**، وهو ما عُذِّبوا في الدنيا واستُؤصِلوا. **ويوم القيامة هم من المقبوحين**. قال بعضهم: مسودّة[١١] وجوههم. وجائز[١٢] أن يكون ذلك جزاءَ ما افتخروا

---

[١] جميع النسخ: إليهم. أي إلى الفعل.
[٢] ر: مع.
[٣] جميع النسخ: لمن.
[٤] ر م: ولذلك.
[٥] ر م: بدعائهم.
[٦] ن: يرى.
[٧] ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ (سورة فاطر، ٦/٣٥).
[٨] ن: قوله.
[٩] ر ث م - لا يدعون إلى النار.
[١٠] ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ (سورة البقرة، ١٧٥/٢).
[١١] جميع النسخ: مسودون.
[١٢] ر م - لما مناهم وقوله وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة وهو ما عذبوا في الدنيا واستؤصلوا ويوم القيامة هم من المقبوحين قال بعضهم مسودة وجوههم وجائز.

في هذه الدنيا[١] بالحُلِيّ والزينة وطعنوا في موسى، وجوابًا[٢] لهم حيث قالوا: فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ.[٣] يخبر أنهم يكونون في الآخرة على غير الحال التي كانوا في الدنيا وافتخروا بها. وقال بعضهم: القُبح[٤] هو السواد مع الزُّرقة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤٣]

وقوله: **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى**، من نحو عاد وثمود وهؤلاء الذين كانوا من قبل[٥] من الأمم، أي أرسلناه بعد هلاك مَن ذكر، **بصائرَ للناس**. يشبه أن يكون قوله: **بصائر للناس**، أي هلاكُ من ذكر من القرون الأولى بصيرة وعبرة لمن يكون مِن بعدهم ليزجرهم ذلك عن تكذيب الرسل ويكونَ ذلك آية لرسالة موسى. والثاني أن[٦] يكون قوله: **بصائر للناس وهدى ورحمة**، أي الكتاب الذي آتاه الله موسى هو بصائرُ وهدًى ورحمةٌ لهم إذا قبلوه واتّبعوه وعملوا به. وكذلك كان جميع كتب الله هدى ورحمة وبصيرة لمن آمن بها وعمل بها. وجائز أن يكون هذا جوابًا وصلة لقولهم: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ.[٧] يقول -والله أعلم-: إنكم لم تسمعوا[٨] ذلك في آبائكم الذين اتبعوا رسلهم فأجابوهم، فأما مَن كذّبوهم فإنا أهلكناهم بتكذيبهم الرسل واستأصلناهم. ***والله أعلم.***

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٤٤] **﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾**[٤٥] **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾**[٤٦]

وقوله: **وما كنت بجانب الغربي**، قال بعضهم: جانب الغربيّ حيث تَغْرُب الشمس والقمر والنجوم، والشرقيُّ حيث تَشرُق وتَطلُع. وقال بعضهم: **بجانب الغربيّ**، أي بجانب الوادي الغربي.

---

[١] ر م - الدنيا.
[٢] ر م: جوابا.
[٣] سورة الزخرف، ٥٣/٤٣.
[٤] جميع النسخ: المقبوح.
[٥] ن: من قبله.
[٦] ن ث - أن.
[٧] سورة القصص، ٣٦/٢٨.
[٨] ر م: لو تسمعون؛ ث: لم تستمعوا.

والله أعلم ما أراد به. وقوله: **وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين**[١] **وما كنت ثاويًا في أهل مدين**، أي مقيمًا. **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**، يحتمل وجوهًا. أحدها إنك لم تكن شاهدًا هذه المشاهد التي شهدها موسى حيث قضينا إلى موسى الأمرَ بجانب الغربيّ ولم تكن شاهدًا هنالك. وما كنت في أهل مدين ثاويًا حتى تعلم أمر موسى ونحوه.[٢] **وما كنت بجانب الطور**، حيث نادينا[٣] موسى ونحوه. أي لم تكن شاهدًا هذه المشاهد التي كان موسى شاهدًا فيها، ثم أعلمناك بتلك الأنباء والأخبار على ما كانت لِتَتْلُوَ تلك الأنباء والأخبار على أهل مكّة فتكون[٤] آية لنبوّتك وحجة لرسالتك. إذ لم تَشهدها ولا اختلفتَ إلى أحد ممن يعرفها فعلّمك، ثم أنبأتَ على ما كانت ليعرفوا أنك إنما عرفت [ذلك] بالله تعالى.

والثاني يحتمل أن يذكر هذا له امتنانًا عليه يستأدي[٥] به شكره، لأنه ذُكر أنه أوحى إلى موسى وذَكَر محمدًا وأمّته في شرفه وكرمه[٦] حتى تَمنىَ موسى أن يُجعَل من أمّته. يقول -والله أعلم-: لم تكن أنت شاهدًا في هذه المشاهد فذكرتُك ثمّةَ[٧] وأمّتَك.

أو أن يَذكر هذا له على الاختصاص له لِيُعرف أن أمر الرسل والوحي إليهم على الاختصاص لهم من الله لا بأمر كان منهم. على هذه الوجوه الثلاثة يحتمل أن يخرج تأويل ما ذكر له.

وقال بعض أهل التأويل في قوله: **وما كنت بجانب الغربيّ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**، يقول لمحمد: لم تعاين هذا ولم تشهده وإنما هو شيء أنزلناه عليك لتتلوه على أهل مكّة.

وقوله:[٨] **ولٰكنا أنشأنا قرونًا فتطاول عليهم العمر**، هذا ليس بصلة بالأوّل ولكن على الابتداء يقول -والله أعلم-: **لكنا أنشأنا قرونًا** بعد انقراض الرسل ودروس أعلامهم وآثارهم وتطاوُل العهد والعمر، ثم بعثناك فيهم رسولاً لتحيي[٩] بك[١٠] آثارهم وتُظهر فيهم سنتهم وأعلامهم / رحمة منّا إليهم. [٥٦٦و]

[١] ر م – وما كنت من الشاهدين.
[٢] جميع النسخ: وحينه.
[٣] ر م: ناديا.
[٤] ر ث م: فيكون.
[٥] ر ث م: لتأدى.
[٦] ر ث م – وكرمه.
[٧] ن ث: ثم.
[٨] ن: قوله.
[٩] ر م: ليحيي؛ ث: لتحيي.
[١٠] جميع النسخ: به.

وهو ما قال في آخره: **ولٰكنْ رحمةً من ربك**، أي أرسلناه[1] إياك رحمة منا لهم. وهو ما قال: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.[2] أو أن يكون قوله: **ولٰكنْ رحمةً من ربك**، أي ما أنبأك [ربك] وأعْلمك من أنباء موسى وأخباره حيث لم تشهدها من رحمة ربك حيث جعلها آية لنبوّتك وحجّة لرسالتك. *والله أعلم*.

وقوله: **لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما **لتنذر قومًا**، ما أُنذر به الرسلُ الذين من قبلك قومَهم. والثاني **لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك**، أي لم يأتهم نذير من قبلك.[3] **لعلّهم يتذكّرون**، أي على رجاء التذكّر تنذرهم. أو أن يكون ذلك خاصة لمن تَذَكّر إذا كان على الإيجاب.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٧]

وقوله: **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم**، "لولا"[4] يستدعي[5] الجواب، وليس ما ذكر على إثره جوابًا[6] له، إلا أن يقال: إن قوله: **ولولا أن تصيبهم مصيبة**، أي لم تصبهم مصيبة،[7] وذلك جائز في اللغة، كقوله: وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا،[8] أي لم تقولوا: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، وقوله: وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ [فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] لَمَسَّكُمْ،[9] أي لم يَمَسَّهم. وجميع ما ذكر في هذه السورة من "لولا" كلّه إنه [بمعنى] لم يكن. فعلى ذلك جائز أن يكون تأويل قوله: **ولولا أن تصيبهم مصيبة**، أي لم تصبهم مصيبة، ولو أصابتهم مصيبة وهو العذاب فيقولوا: **ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً**، وهو كقوله: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا.[10] على هذا يخرج تأويل هذا.

---

[1] ر ث م: أرسلنا.
[2] سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.
[3] ر م - أي لم يأتهم نذير من قبلك.
[4] ر م: لا.
[5] جميع النسخ: ينتظم. والتصحيح من الشرح، ورقة ٥٦٧ظ.
[6] جميع النسخ: جواب. والتصحيح من المرجع السابق.
[7] ر ث م - أي لم تصبهم مصيبة.
[8] سورة النور، ١٦/٢٤.
[9] سورة النور، ١٤/٢٤.
[10] ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نَذِلَّ ونَخزَى﴾ (سورة طه، ١٣٤/٢٠).

ثم في هذه الآية وفي قوله:[١] ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾، وجهان. أحدهما على مَن يقول بأن ليس لله أن يعذّبهم بما كان منهم قبل بعث الرسل إليهم، كقوله:[٢] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾،[٣] وفي الآية بيان أنّ له أن يعذّبهم وإن لم يبعث الرسل، لأنه أوعدهم الهلاك، فلو لم يكن له التعذيب والإهلاك لم يكن للإيعاد معنى،[٤] فدلّ أن له الإهلاكَ في الدنيا والاستئصال أرسل رسولاً أو لم يرسل.[٥] لكنه أخّره عنهم فضلاً منه ورحمة.[٦]

والثاني على المعتزلة في قولهم [بوجوب][٧] الأصلح، لأنه لا يخلو من[٨] أن يكون ما أوعدهم[٩] أصلح لهم من الترك، أو التركُ لهم أصلح. فإن كان ما أوعد لهم أصلح فقد تركه،[١٠] فيكون في تركه[١١] جائرًا إياهم[١٢] على قولهم، لأنه لم يفعل بهم[١٣] ما هو أصلح لهم في الدين. أو أن يكون الترك أصلح لهم[١٤] فيكون بما أوعدهم جائرًا، إذ أوعد بما كان غيره أصلح لهم[١٥] مما أوعد. فدلّ ما ذكرنا على أن ليس على الله حفْظُ الأصلح لهم في الدين.

---

[١] ر م: في قوله.

[٢] ر ث م – كقوله.

[٣] سورة الإسراء، ١٧/١٥.

[٤] ر ث م – معنى.

[٥] جميع النسخ – أرسل رسولا أو لم يرسل. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٠و.

[٦] وعبارة السمرقندي هكذا: «ثم في هذه الآية وفي قوله: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله﴾ دلالة وحجة من وجهين. أحدهما على من يقول بأنه لا يجب الإيمان بمجرد العقل إلا بعد بعث الرسل عليهم السلام، استدلالا بقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾. إلا أن في الآيتين بيانَ أن لله تعالى أن يعذبهم وإن لم يبعث الرسل، لأنه أوعدهم الهلاك، فلو لم يكن له التعذيب والإهلاك لم يكن للإيعاد معنى. فدل أنه له الإهلاك في الدنيا والاستئصال قبل بعث الرسل، لما أقام دلائل التوحيد. لكن أخره عنهم إلى وقت بعث الرسل في الدنيا فضلا منه ورحمة» (شرح *التأويلات* ورقة ٥٦٧ظ).

[٧] الزيادة من المرجع السابق.

[٨] جميع النسخ: إما. والتصحيح من نسخة عاطف أفندي ٧٧، ورقة ٨٩ظ.

[٩] ن: مما أوعدهم.

[١٠] ر م: تركتم؛ ن ث: تركهم.

[١١] ر م: تركتم؛ ن ث: تركهم.

[١٢] جميع النسخ: إياهم جائرا.

[١٣] ر ث م – بهم.

[١٤] ر ث: لهم أصلح.

[١٥] ن – ما هو أصلح لهم في الدين. أو أن يكون الترك أصلح لهم فيكون بما أوعدهم جائرا إذ أوعد بما كان غيره أصلح لهم.

ثم قوله: **بما قدّمت أيديهم**، ليس الكفر نفسَه ولكن العناد والمكابرةُ مع الكفر، لأن عذاب الكفر في الآخرة ليس في الدنيا. لأن الله تعالى قد أبقى كثيرًا من الكفرة لم يهلكهم و لم يعذّبهم في الدنيا، ولكن إنما أهلك واستأصل في الدنيا من عاند وكابر الرسل في الآيات والحجج التي أتوها بهم وأقاموها عليهم على إثر سؤالٍ كان منهم، فعند ذلك أهلكهم واستأصلهم لا بنفس الكفر.

ثم مع ما كان له التعذيب قبل بعْث الرسل لم يعذّبهم ولكن أخّر عنهم إلى أن بعَث الرسل إليهم بالآيات والحجج ليقطع به لِحاجَهم ومنازعتهم فضلاً منه وإن لم يكن لهم الاحتجاجُ عليه[1] بقوله:[2] **لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبعَ آياتك ونكون من المؤمنين**. يحتمل قوله: **فنتبِعَ آياتك**، الآياتِ التي تُبعَث مع الرسل لأنه يُبعث الرسل بالآيات. وجائز أن يكون قوله: **فنتبِعَ آياتك**، يَعْنُون بالآيات الرسل أنفسَهم لأنهم بأنفسهم آيات وحجج.[3] ***والله أعلم***.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾[٤٨]

وقوله: **فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا**، جائز أن يكون الحقّ الذي ذُكر الرسولَ نفسَه، ويحتمل الحقُّ الكتابَ الذي أنزل عليه أو آياتٍ. وقوله: **قالوا لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسى**، هذا يحتمل وجوها. أحدها قالوا: هلّا أوتي محمدًا[4] من أنواع النعم من المنّ والسلوى وغيره من غير تكلّف ولا تعب مثل ما أوتي موسى لو كان رسولاً على ما يقول. أو أن يقولوا: لولا أوتي محمدًا[5] من الآيات الحسّيّات الظاهرات من نحو اليد والعصا[6] والحجَر الذي كان ينفجر منه الماء[7] والغمام[8] وما ذكر من الضفادع والقمّل والدّم والطوفان[9] وغير ذلك مثل ما أوتي موسى.

---

[1] ر م: عليهم.

[2] ن ث: بقولهم.

[3] ر م: يعنون بالآيات الرسل لأنفسهم وحجج؛ ن ث: يعنون بالآيات الرسل أنفسهم لأنهم آيات لأنفسهم وحجج. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٠ظ.

[4] جميع النسخ: محمد.

[5] ر ث م - محمدا؛ ن: محمد.

[6] ث: والعصى.

[7] ر م - الماء.

[8] انظر لليد والعصا: سورة الأعراف، ١٠٧/٧-١٠٨؛ وللحجر: سورة البقرة، ٦٠/٢؛ وللغمام: سورة البقرة، ٥٧/٢.

[9] يشير إلى قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم آياتٍ مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ (سورة الأعراف، ١٣٣/٧).

أو أن يقولوا: لولا أوتي محمدُ القرآنَ جملةً عِيانًا جِهارًا كما أُوتي موسى التوراةَ جملةً عِيانًا جهارًا. والله أعلم بذلك: بما عنوا[١] به.

ثم بيّن الله تعالى وأخبر أنهم إنما يسألون ما[٢] سألوه سؤال عناد ومكابرة لا سؤالَ استرشاد وطلب الحق، حيث قال: **أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل**، أي أولم[٣] يكفر هؤلاء الذين سألوك الآيات بما أوتي موسى، يعني أهلَ مكّة لأنهم كانوا مشركين لم يؤمنوا برسول قطّ من قبل. يحتمل قوله: **أولم يكفروا**، أي أولم يكفر قوم موسى بما أوتي موسى بعد سؤالهم الآيات إذا[٤] أتاهم بها، فعلى ذلك هؤلاء يكفرون بما أوتِيتَ. والأول أشبه.[٥]

قالوا سِحران تظاهرا، وقد قرئ "ساحران" بالألف؛[٦] قال بعضهم: "ساحران" موسى وهارون. وقال بعضهم: / موسى ومحمد، وقال بعضهم: عيسى ومحمد عليهم السلام. [٥٦٦ظ]
وقوله: **سِحران**، بغير ألف كتابان، لكنهم اختلفوا. قال بعضهم: التوراة والإنجيل، وقال بعضهم: الفرقان والتوراة، ونحوه. وقال بعض أهل الأدب: "ساحران" أولى وأقرب، لأنه[٧] ذكَر التظاهر، والتظاهر[٨] إنما يكون بين الأنفس، لا يكون بين الكتب. **تظاهرا**، أي تعاوَنَا. وقال بعضهم من أهل الأدب أيضًا: "سِحران" بغير ألف أولى، لأنه أراد به الكتابين. ألا يرى أنه طلب منهم بما قالوا إتيان الكتاب حيث قال:[٩] ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾،[١٠] ردًّا[١١] على ما قالوا وطلبوا منه. لكن نقول نحن: لا يجب[١٢] أن يختار إحدى القراءتين على الأخرى، لأنه إنما هو خبَر أخبر عنهم أنهم قالوا ذلك.[١٣] فمرّة قالوا: ساحران،

---

[١] جميع النسخ: ما عنوا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٠ظ.
[٢] ن: مما.
[٣] ر م: لم.
[٤] جميع النسخ: إذ. والتصحيح من المرجع السابق.
[٥] جميع النسخ + ثم. والتصحيح من المرجع السابق.
[٦] انظر: *كتاب المصاحف* لابن أبي داود ٧١؛ وحجة *القراءات* لابن زَنْجَلَة، ٥٤٧.
[٧] ر م: لأن.
[٨] ر م − والتظاهر.
[٩] جميع النسخ: قالوا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧١و.
[١٠] الآية التالية.
[١١] ر م: رد.
[١٢] ر م: لا نحب.
[١٣] م + فمرة قالوا فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ذلك.

ومرّة قالوا: **سحران**، فأخبر على ما قالوا. وكذلك[1] قوله: سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ،[2] بالألف وبغير الألف، لا يُختار أحدهما على الآخر، لأنه خبر أخبر عنهم على ما كان منهم فهو على ما أخبر. *والله أعلم*.

وقال بعض أهل التأويل في قوله: **لولا أوتي مثلَ ما أوتي موسى**، قالت اليهود: نأمر قريشًا أن تسأل أن يُؤتَى محمد مثل ما أوتي موسى. يقول الله لرسوله: قل لقريش يقولوا لهم: **أولم يكفروا بما أوتي موسى [من قبل]**، يعني يهودَ، و **قالوا سحران**[3] **تظاهرا**، قال قولَ يهودٍ لموسى وهارون. وهو قريب بما ذكرنا.[4] *والله أعلم*.

وقوله:[5] **وقالوا إنا بكلٍ كافرون**، ما أوتي موسى وما أوتي محمد،[6] على اختلاف ما ذكرنا.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤٩]

ثم قال: **قل** يا محمد لقريش أهلِ مكة، **فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما**، من التوراة والفرقان، أو التوراة والإنجيل على اختلاف ما قالوا، **أَتَّبِعْه إن كنتم صادقين**، في زعمكم أنهما سحران تظاهرا[7] وأنه مفترًى، ائتوا أنتم من عند الله[8] بكتاب أتبعه، إلى هذا ذهب أهل التأويل. ووجه آخر يشبه أن يكون أقرب منه وهو أن قوله: **فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما**، أي ائتوا بكتاب من عند الله أنه أمركم بعبادة الأصنام والأوثان، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام دون الله ويقولون [بأن] الله أمرهم بذلك؛[9] ويقولون: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[10] وأن عبادتهم إياها تقرِبهم إِلَى اللهِ زُلْفَى،[11] ونحوه من الكلام. فيقول -والله أعلم-:

[1] ن + قالوا.

[2] ن ث + وسيقولون الله. انظر: سورة يونس، ٣١/١٠؛ وسورة المؤمنون،٨٥/٢٣، ٨٧، ٨٩.

[3] جميع النسخ: ساحران.

[4] جميع النسخ: وهو ما ذكرنا قريب. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٦٨و.

[5] ن: قوله.

[6] ر م - وما أوتي محمد.

[7] ر م: تظهران.

[8] ن - من عند الله؛ صح هـ.

[9] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).

[10] سورة يونس ١٨/١٠.

[11] كما في قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩).

ائتوا بكتاب من عند الله أنه أمركم بذلك، **هو أهدى منهما**، أي أبيَن منهما وأوضح من هذين، لأن هذين إنما جاءا بنهي عبادة غير الله ومنعها[1] [مما] دونه. يقول: ائتوا بكتاب هو أهدى وأبين مما جاء منه من هذين،[2] **إن كنتم صادقين**، أن الله أمركم بذلك ويكون عبادتكم إياها على ما تزعمون.[3] هذا جائز أن يكون أقرب من الأول. ***والله أعلم***.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٥٠]

وقوله: **فإن لم يستجيبوا لك**، في إتيان ما تطلب منهم وتسأل من الكتاب، **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**، بغير علم، وهم كانوا يعلمون أنهم إنما يتبعون في عبادة الأصنام وتحريم الحلال وتحليل الحرام أهواءهم ويجعلون هواهم هو الإمامَ، إذ لا يؤمنون برسول حتى يكون لهم كتاب. ثم قال: **ومن أضلُّ**، أي لا أحدَ أضلَّ،[4] **ممن اتبع هواه**، على إقرار منهم وعلم أن ليس أحد أضلّ ممن اتبع هواه،[5] **بغير هدى من الله**، أي من غير بيان من الله. **إن الله لا يهدي القوم الظالمين**، أي -والله أعلم- إن الله لا يهدي قومًا يتّبعون أهواءهم ولا[6] يتبعون الحجج والبراهين لا يهديهم ما داموا في اتباع هواهم. أو **لا يهدي القوم الظالمين**،[7] الذين هم[8] ظلَمة الحجج والبراهين. ***والله أعلم***.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٥١]

وقوله: **ولقد وَصَّلْنَا لهم القول لعلهم يتذكّرون**، اختلف فيه. قال قائلون: هو القرآن. ثم يخرج هذا[9] على وجهين. أحدهما[10] وصَل القرآن بعضَه ببعض حتى خرج كله موافقًا بعضُه بعضًا مصدقًا مجتمعًا غير مختلف، وإن فُرّق في الإنزال على تباعد الأوقات وطول المُدَد.

---

[1] جميع النسخ: منعها. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧١و.
[2] ن - لأن هذين إنما جاءا بنهي عبادة غير الله ومنعها ما دونه يقول ائتوا بكتاب هو أهدى وأبين مما جاء منه من هذين.
[3] ر م: يزعمون.
[4] ث - أي لا أحد أضل.
[5] ر م - على إقرار منهم وعلم أن ليس أحد أضل ممن اتبع هواه.
[6] جميع النسخ: لا يتبعون. والتصحيح من المرجع السابق.
[7] جميع النسخ - الظالمين. والزيادة من المرجع السابق.
[8] ر ث م - هم.
[9] ر م - هذا؛ ن ث: هو. والتصحيح من المرجع السابق.
[10] ر: أهما.

لعلّهم يتذكرون، أن مثل هذا لا يكون إلا ممن يعلم الغيب ولا يَعزُب[1] عنه شيء ولا يغيب. إذ لو كان هو ممن لا يعلم ذلك من كلام المخلوق لخرج مختلفًا متناقضًا على ما يكون[2] من كلام المخلوق في تباعد الوقت وطول المدّة مختلفًا متناقضًا. والثاني وصّل مواعظ القرآن بعضَها ببعض ومواعيده بعضها ببعض وعِدَاتِهِ بعضَها ببعض، وكذلك أوامرُه ومناهيه وإن تفرّق نزولها واختلف مواضعها. يدعوهم لِما يدعوهم[3] به مرة بعد[4] مرة[5] لعلهم يتذكرون به.

ومنهم من يقول في قوله: **ولقد وصّلنا لهم القول**، أي الأنباء وأخبار الأمم الخالية نبأً بعد نبأ وخبرًا على إثر خبرٍ: ما نزل بمكذّبي الرسلِ منهم من الهلاك والعذاب وبمصدّقي[6] الرسل من النجاة والبقاء في النعم الدائمة على إقرار منهم بذلك وعِلْم أنه كان بهم ذلك. **لعلهم يتذكرون** ذلك وينزجرون عن تكذيب رسولهم مخافةَ أن ينزل بهم بالتكذيب ما نزل بأولئك.

وجائز أن يكون قوله: **وصَّلْنا لهم القول**، أي قول التوحيد. ووجه هذا أنْ وصّلنا التوحيد
[٥٦٧و] حتى جعلنا في كلّ أمّة وكلّ قوم أهلَ توحيد لم نُخلِ قومًا ولا أمّة عنه، كقوله: / وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ،[7] وكقوله: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ،[8] ونحو ذلك من الآيات [التي] تدل[9] على أن في[10] كل أمة وقرن أهلَ توحيد، **لعلّهم يتذكرون** أن في آباءهم مَن قد آمن بالرسل وصدّق بهم ولا يقولون: إن آباءنا[11] [كانوا] على ما نحن[12] عليه. فيشبه[13] أن يكون هذا وَصْلَ القول الذي ذَكَر: **و[لقد] وصّلنا [لهم] القول.**

---

[1] ر: ولا يعرف.
[2] ر م: على ما يقول.
[3] ر م - لما يدعوهم.
[4] ر: بعدة.
[5] ر - مرة.
[6] ر م: ومصدقي.
[7] سورة الرعد، ٧/١٣.
[8] سورة الأعراف، ١٥٩/٧.
[9] جميع النسخ: يدل.
[10] ر ث م - في.
[11] ن: إن أبانا.
[12] جميع النسخ: على ما هم.
[13] ر ث م: يشبه.

قال أبو عَوْسَجَة والقُتَبي: **ولقد وصَّلنا لهم القول**، أي أتْبعنا بعضه بعضًا فاتصل عندهم.[١] وقال بعضهم: **وصّلنا**، أي بيّنا شيئًا فشيئًا حتى صار عندهم ظاهرًا. وقال أبو معاذ: "وصّلنا" في كلام العرب "أتممنا"، كصلتك الشيء بالشيء.

﴿اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[٥٢] ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[٥٣]

وقوله: **الذين آتيناهم الكتاب من قَبله هم به يؤمنون**، وقال في آية أخرى: اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ،[٢] وقال في آية أخرى: فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ،[٣] وقال: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ،[٤] وأمثاله، يذكر في هذه الآيات أن مِن أهل الكتاب[٥] مَن لم يؤمن، ويذكر في الأولى على الإطلاق أن الذين أوتوا الكتاب من قبله هم به يؤمنون. جائز أن يكون قوله: **الذين آتيناهم الكتاب** وانتفعوا به هم[٦] يؤمنون به. أو أن يكون، **الذين آتيناهم الكتاب** فيتلونه حقَّ تلاوته[٧] هم يؤمنون به،[٨] على ما ذَكَر في آية أخرى: اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.[٩] وأما من لم يتلُ[ه] حقَّ تلاوته[١٠] فلا يؤمن به.[١١]

فأما أهل التأويل فإنهم صرفوا الآية إلى قوم خاصّ من أهل الكتاب [نحوَ][١٢] عبد الله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا به. ويشبه أن تكون[١٣] الآية في قوم خاصّ[١٤] منهم. ألا ترى[١٥] أنه قال على إثره:

---

[١] تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ٣٣٣.
[٢] سورة البقرة، ١٤٦/٢.
[٣] ر م – ومن هؤلاء من يؤمن به. سورة العنكبوت، ٤٧/٢٩.
[٤] سورة المائدة، ١٣/٥.
[٥] ث – أن من أهل الكتاب.
[٦] ر م – هم.
[٧] ن: تلاوة.
[٨] ث: به يؤمنون.
[٩] سورة البقرة، ١٢١/٢.
[١٠] ن: تلاوة.
[١١] ر م – به.
[١٢] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٦٨ظ.
[١٣] جميع النسخ: أن يكون.
[١٤] ر م – خاص.
[١٥] ن: يرى.

وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين؛ يذكر أهل التأويل أنهم كانوا آمنوا به قبل أن يبعث محمد، فلما بُعث ثبتوا على ذلك وآمنوا به[1] على ما كانوا من قبل.

وفيه دلالة أن الإيمان والإسلام واحد، لأنهم قالوا: **آمنا به**، وقالوا: **إنا كنا من قبله مسلمين**، دل أنهما واحد. وكذلك قوله: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،[2] وهم واحد، ذَكَر مرّة الإيمان ومرّة الإسلام، دلّ أنهما واحد.

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٥٤]

وقوله: **أولئك يُؤتَوْن أجرَهم مرّتين بما صبروا**، هذا يحتمل وجوها ثلاثة. أحدها يُؤتَوْن أجرهم مرّة بالإسلام ومرّة بما صبروا على زوال الرياسة منهم وذهابها، لأنهم كانوا أهل رياسة ومنزلة وقدْر فذهب ذلك كله عنهم بالإسلام، فلهم[3] الأجر مرتين لذلك.

والثاني **يُؤتَوْن أجرهم مرّتين**: مرّة بالإسلام ومرّة بما صاروا قُدْوة وأئمّة لمن بعدهم يَقتدُون بهم: أحدُ الأجرين بإسلام أنفسهم، والثاني بدعائهم غيرَهم إليه؛ على ما يُعاقَب الرؤساء منهم والقادة ويضاعف العذاب عليهم مرّتين: مرّة بضلال أنفسهم ومرّة بإضلال غيرهم، كقوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ.[4]

و[الثالث] جائز[5] أن يكون إيتاء الأجر مرّتين لما يصيرون أئمّة وقدوة لغيرهم في الخير، ويضاعف عليهم العذاب إذا صاروا أئمّة وقدوة في الشرّ. ألا يُرَى أنه قال في نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ،[6] وذلك –والله أعلم– لما يصِرْن هنّ أئمّة لغيرهنّ يقتدِين[7] بهنّ، فعلى ذلك الأول.

---

[1] ر م – به.
[2] سورة الذاريات، ٥١/٣٥-٣٦.
[3] ن: وهُم.
[4] سورة النحل، ١٦/٢٥.
[5] ر م: جائز.
[6] سورة الأحزاب، ٣٣/٣٠.
[7] جميع النسخ: يقتدون.

وجائز أن يكون **يُؤتَوْن أجرهم مرّتين**، بالإسلام نفسه، ويكون الصبر كناية عن الإيمان، كقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،[١] أي آمنوا وأسلموا.

وأما أهل التأويل فإنهم يقولون: **يُؤتَوْن أجرهم مرّتين**: مرّة بإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث، ومرّة بإيمانهم بعد ما بُعث، والأول أشبه. وقال بعضهم: **يُؤتَوْن أجرهم مرّتين بما صبروا**، مرّة بإسلامهم، ومرّة **بما صبروا** وتحملّوا[٢] على أذى أولئك الكفرة ولم يكافئوهم بل خاطبوهم بخير، حيث قال [تعالى على لسانهم]: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ.[٣] وروي في بعض الأخبار عن نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل آمن بنبيّ ثم إذا بعث نبيّ آخر آمن به، ومملوك لرجل يَخْدُمه ويُحسن خدمته ويعبد ربّه، ورجل ربّى جارية[٤] ثم أعتقها فتزوّجها.[٥]

وقوله: **ويَدْرَءُون بالحسنة السيئةَ**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما يحسنون إليهم بعد إساءتهم إليهم وأذاهم إياهم على ما كانوا يفعلون ويصنعون إليهم قبل ذلك. والثاني **ويَدْرَءُون بالحسنة السيئة**، أي يعفون عن أذاهم ولا يكافئونهم، فيكون كقوله: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ،[٦] الآية. والأوّل كقوله: اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ.[٧]

وقوله: **ومما رزقناهم ينفقون**، أي ينفقون في حقّ الله وسبيل الخير، وإلا كل كافر ينفق، كقوله: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا / كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ،[٨] الآية. |٥٦٧ظ|

---

[١] ﴿ولئن أذقنا الإنسانَ منا رحمةً ثم نزعناها منه إنه لَيَئُوس كَفور ولئن أذقناه نَعْماءَ بعد ضَرّاءَ مسّته ليقولَنّ ذهب السيئاتُ عني إنه لَفرِحٌ فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (سورة هود، ١١/٩-١١).

[٢] ر م: وحكموا؛ ن ث: وحلموا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٢ظ.

[٣] الآية التالية.

[٤] ر ث م: جاريته.

[٥] ن: فزوجها. عن أبي بُرْدَة أنه سمع أباه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة يؤتَون أجرهم مرتين: الرجل تكون له الأَمَة فيعلّمها فيحسن تعليمها ويؤدّبها فيحسن أدبها ثم يُعتقها فيتزوجها فله أجران؛ ومؤمنُ أهل الكتاب الذي كان مؤمنا ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فله أجران؛ والعبد الذي يؤدي حق الله ويَنْصَح لسيده» (صحيح *البخاري*، الجهاد ١٤٥؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ٢٤١؛ وسنن *الترمذي*، النكاح ٢٤، وسنن *النسائي*، النكاح ٦٤).

[٦] ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٩٩).

[٧] ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (سورة فصلت، ٤١/٣٤).

[٨] ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهْلَكَتْه وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ (سورة آل عمران، ٣/١١٧).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [٥٥]

وقوله:[١] **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه**،[٢] هذا أيضًا يحتمل وجهين. أحدهما[٣] **إذا سمعوا** منهم مِن الكلام ما يتأذّون به[٤] من كلام اللغو والأذى والفِرية، **أعرضوا عنه**، أي لم يكافئوهم[٥] لأذاهم. والثاني **إذا سمعوا** ما يُلغون به من الباطل، **أعرضوا عنه**، أي لم يخالطوهم فيما هم فيه، فليس أنهم لا ينهون ولا يمنعونهم عن ذلك إذا رأوا النهي ينجع فيهم، وإذا رأوا لا ينجع فيهم فعند ذلك أعرضوا عنه. وهو كقوله: وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا.[٦]

وقوله:[٧] **وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**، يقولون هذا لهم إذا لم ينجع النهي والموعظة[٨] ولم يقبلوا ذلك. عند ذلك يقولون: **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**، أي لكم جزاء أعمالكم ولنا جزاء أعمالنا. وكذلك قوله: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ،[٩] لم يقل هذا لهم في ابتداء الدعاء ولكن بعد ما أيِس عن إيمانهم وإجابتهم، فعلى ذلك الأول.

وقوله:[١٠] **سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين**، هذا يشبه أن يخرج على وجهين. أحدهما على القول منهم بالسلام عليهم، أي كانوا لا يخاطبون الجهّال ولا يخالطونهم إلا بالسلام خاصة، بهذا القدر[١١] يخالطونهم فحسب.[١٢] والثاني ليس على حقيقة قول السلام عليهم، ولكن على الصلح وترك المكافأة لهم وتركهم إياهم على ما هم عليه، إذ السلام هو الصلح. *والله أعلم*.

---

[١] ن: قوله.
[٢] ر م – عنه.
[٣] ر ث م – أحدهما.
[٤] ر ث م – به.
[٥] ر م: أي يكافئوهم.
[٦] سورة الفرقان، ٧٢/٢٥.
[٧] ن: قوله.
[٨] ن + فيهم.
[٩] سورة الكافرون، ٦/١٠٩.
[١٠] ن: قوله.
[١١] ر – بهذا القدر.
[١٢] ر ث م: حسب.

وقال بعضهم: ردّوا عليهم معروفًا [بمقابلة ما وجدوا منهم من الأذى وقالوا:][١] **لا نبتغي الجاهلين**، يعنون: لا نريد أن نكون[٢] من أهل الجهل والسفه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٥٦]

وقوله: **إنك لا تهدي من أحببت**، ذكر أهل التأويل أن هذا نزل في أبي طالب عمّ النبي. وذلك أن أبا طالب قال: "يا معشر[٣] بني هاشم أطيعوا محمدًا وصدِّقوه تُفلحوا وتَرشُدوا". فقال له النبي عليه السلام: «يا عمِّ[٤] تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتَدَعُها لنفسك؟» قال: فقال له: "ما تريد يا ابن أخي؟" قال: «أريد منك كلمة واحدة في آخر يوم من الدنيا أن تقول: "لا إله إلا الله"، أشهد لك بها عند الله». قال: "يا ابن أخي قد علمتُ أنك لصادق، ولكن أكره أن يقال: جَزِع عند الموت. ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك وأخيك غَضاضة ومَسَبّة بعدي لَقُلْتُها ولأقرَرْت بها عينك عند الفراق لِما أرى من شدّة وَجْدك ونصيحتك، ولكن سوف أموت على ملّة الأشياخ فلان وفلان". فأنزل الله في[٥] ذلك: **إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء**.[٦] فهو [حجة][٧] على المعتزلة. لأنهم يقولون: إن الهدى البيان. ولو كان بيانًا على ما يقولون لكان رسول الله يقدر أن يبيّن له وقد بيّن. لكن الجُبّائي[٨] يحتجّ لهم فيتأوّل ويقول: إن رسول الله كان يحرص أن يُدخله الجنة فيقول: **إنك لا تهدي** طريق الجنة له حتى يدخلها[٩] [هو]، أو كلام يشبه هذا، وذلك بعيد. وقال جعفر بن حرب:[١٠]

---

[١] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٦٩و.

[٢] ر ث م: يكون.

[٣] ث + قريش.

[٤] ر ث م – يا عم.

[٥] ر م – في.

[٦] انظر: صحيح *البخاري*، التفسير ٢٨/١؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٣؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ٢٩، وسنن *النسائي*، الجنائز ١٠٢.

[٧] الزيادة مستفادة من *الشرح*، ورقة ٥٦٩ظ.

[٨] أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبّائي (ت ٣٠٣هـ/٩١٦م) من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره. وإليه نسبة الطائفة الجبائية. له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب. له تفسير حافل مطول، رد عليه الأشعري (*وفيات الأعيان* لابن خلكان، ٢٦٧/٤-٢٦٨).

[٩] جميع النسخ: تدخلها. والتصحيح من نسخة عاطف أفندي ٧٧، ورقة ٩٠ظ.

[١٠] هو أبو الفضل الأشج جعفر بن حرب الهمداني البغدادي (ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م) من أئمة المعتزلة. أخذ الكلام عن أبي الهذيل العلّاف بالبصرة. وصنف كتبا. (انظر: *الأعلام* للزركلي، ١٢٣/٢).

هذا ليس في ابتداء الهداية ولكن في اللطائف التي تخرج مخرج الثواب لهم، لما كان منهم من الاهتداء في البدء والأنف، كقوله: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى،[1] الآية، فيخبر أنك لا تملك الهداية اللطيفة التي تخرج مخرج الثواب أن تهديهم. فيقال له: أخبرنا عن تلك الزيادة التي تخرج مخرج الثواب لهم لما كان منهم من الاهتداء في الابتداء أتنفع[2] لهم دون الابتداء؟ فإن قالوا: نعم، فيقال لهم: فذلك عليه أن يفعل[3] بهم. إذ من قولهم: إن عليه أن يعطي كل كافر ما ينفعه ويصلح له في دينه فكيف منع ذلك وذلك[4] ينفعهم.[5]

والثاني يقال لهم: إن تلك الزيادة التي تخرج مخرج الثواب لهم واللطائف على ما كان منهم في الابتداء يستوجبها أو لا يستوجبها؟ فإن كان يستوجبها فلا معنى للمنع على قولهم، لأنهم يقولون: إن على الله أن يعطي ذلك. وإن كان لا يستوجبها فلا معنى لقوله: **ولكن الله يهدى من يشاء**، على قولهم. فيبطل الاحتجاج به على قولهم.

وعندنا زيادة الهداية وابتداؤها سواء، وهو على ما أخبر رسوله أنه لا يهديه. ولكن لو كان كل[6] الهداية بيانًا على ما قالوا لكان قد بيّن لهم ذلك.[7] فدلّ ذلك منه أن ثَمّ[8] هدايةً سوى البيان عند الله إذا أعطى العبدَ يصير بها مؤمنًا، وهو التوفيق والعصمة والسداد. ولا يملك[9] رسول الله إنشاء[10] ذلك وابتداعه، بل الله هو المالك لذلك.[11]

---

[1] ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ (سورة محمد، ١٧/٤٧).

[2] ر م: ينفع؛ ن ث: أينفع.

[3] ن: يقول.

[4] ر م - وذلك.

[5] وعبارة السمرقندي هكذا: «ولكن يقال أخبرنا عن تلك الزيادة التي تخرج مخرج الثواب لهم لما كان منهم من الاهتداء في الابتداء هل فيها يقع مصلحة لهم في الدين أم لا؟ فإن قالوا: نعم، فيقال: فهي واجبة عليه أن يفعل بهم، لأن قولهم: إن عليه أن يعطي كل كافر ما ينفعه ويصلح له في دينه، فكيف منع ذلك وذلك ينفعهم وهو مصلحة دينهم، وإن لم يكن لهم فيها نفع ومصلحة في باب الدين فكيف يكون ثوابا لهم» (*شرح التأويلات*، ورقة ٥٩٦ظ).

[6] ر م - كل.

[7] ر ث م - ذلك.

[8] ن: ثمة.

[9] جميع النسخ: وذلك لا يملكه.

[10] ن: إن شاء.

[11] جميع النسخ: بذلك. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٣ظ.

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥٧]

وقوله: **وقالوا إن نَتَّبِعِ الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا**، دل قولهم: **إن نتبع الهدى معك**،[١] على أنهم عرفوا أن[٢] ما جاء به رسول الله ويدعوهم إليه هو الهدى حيث قالوا: **إن نتبع الهدى معك**. وقوله: **نُتَخَطَّفْ من أرضنا**، يخرج قولهم هذا على وجهين. أحدهما، أي[٣] نَهْلِكُ ونَفْنَى[٤] جوعًا إذا خالفْنا أهلَ الآفاق في الدين، لأن أرزاقهم وما به قوام أبدانهم إنما يحمل ويُمَارُ من الآفاق، فيقولون: إنا إذا اتبعنا الهدى معك وخالفْناهم في الدين، أي[٥] أهلَ الآفاق، منعونا المِيرة فنَهلِكُ ونموتُ جوعًا، فذلك تَخطُّفهم من الأرض. والثاني قالوا[٦] ذلك مخافة أن يُغْزَوْا ويُؤسَرُوا أو يُقتلوا إذا خالفوا أهل الآفاق والأطراف في الدين واتبعوا الهدى، [أي] مخافةَ الأسْر والقتل.

[٥٦٨و] / فأجابهم الله ورد عليهم اعتلالهم في الوجهين، فقال: **أولم نُمَكِّنْ لهم حرمًا آمنًا يُجْبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيء رزقًا من لدنَّا**، يقول -والله أعلم-: إنا جعلناهم في الحرم آمنين، وما يُمْتار إليهم من أنواع الثمرات باللطف لا بموافقة الدين. ألا يُرَى أنهم مع موافقة الدين كانوا يَتخطَّفون الناسَ من حولهم[٧] حيث قال في آية أخرى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ.[٨] أخبر أنهم مع موافقتهم في الدين [كانوا] يُتَخَطَّفون. دلّ أنه إنما جعل لهم الحرم مأمنًا والميرةَ إليهم باللطف لا بالموافقة في الدين حتى لا يُتعرّض[٩] لأهل الحرم في الحرم ولا خارجًا منه، ولا يتعرّض أيضًا مَن دخل الحرم بشيء، ليُعلم أنه إنما كان كذلك باللطف من الله لا بالموافقة في الدين.

والثاني أنه مع ما كانوا يعبدون الأصنام دون الله فيه، لا يمنعهم الرزقَ ويؤمِّنهم فيه، فلَأَنْ يفعل ذلك بهم[١٠] عند عبادتهم لله وتركِهم عبادةَ غيره أحق أن يُرزقوا ويَأمنوا فيه.

---

[١] جميع النسخ + هو.
[٢] ر م – أن.
[٣] ر م: أن.
[٤] جميع النسخ: ونفن. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٤و.
[٥] ر م – أي.
[٦] ر ن م: قالوه.
[٧] جميع النسخ: منهم.
[٨] سورة العنكبوت، ٦٧/٢٩.
[٩] ر: لا يتعرضوا.
[١٠] ن: لهم.

وقوله: **يُجْبَى إليه ثمرات كلّ شيء**، قال أهل التأويل: **ثمرات كل شيء**،[1] أي من كل جنس ونوع من الثمرات يُجبَى إليه. وظاهره أن يُجبَى إليه من كل[2] شيء أرفعه وأنفعه وذلك ثمرته، لأن ثمرة كل شيء أرفعه وأنفعه.[3] يقال: ثمرة الشيء كذا، وثمرة هذا الكلام كذا، أي[4] ما يُنتفَع[5] من هذا هذا. *والله أعلم*.

وقوله: **ولكنَ أكثرهم لا يعلمون**، أي ولكنّ أكثرهم لا يعلمون أن ما يُحمل إليهم من الآفاق ويُجبَى إليه من الثمرات والأطعمة إنما هو باللطف لا بموافقة الدين. وكذلك لا يعلمون أن أَمْنهم فيه باللطف لا بموافقة الدين. *والله أعلم*.

[٥٦٨و س٢٦ *قال أبو عَوْسَجَة: **نُتَخَطَّف من أرضنا**،[6] أي نؤخذ. وقوله: **يُجْبَى إليه**، من الجِباية،

٥٦٨و س٢٨] أي يُجمع. يقال: جبيتُ أَجْبِي جِباية وجَبْيًا،[7] وأَجْبَى يُجبي، أي حاز يَحُوز.*

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[٥٨]

وقوله: **وكم أهلكنا من قرية بَطِرَتْ معيشتَها**، قال بعضهم: كفَرت معيشتها، وقال بعضهم: لم ترضَ معيشتها. وفيه إضمار "في"، أي بطرت في[9] معيشتها، فانتصبت[10] لانتزاع[11] حرف "في". وتأويله -والله أعلم- أي كم أهلكنا من[12] قرية بطِر أهلها في معيشتها حتى صرفوا شكرهم إلى غير الذي[13] أنعَم عليهم وجعلوا[14] عبادتهم[15] لغير الذي جعل لهم السعة والرخاء.

---

[1] ن - قال أهل التأويل ثمرات كل شيء.
[2] ر م - كل.
[3] ث: أنفعه وأرفعه.
[4] ر - أي.
[5] ر: وما ينتفع.
[6] ر م + أي أرضنا.
[7] ث - وجبيا.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٦٨و/سطر ٢٦-٢٨.
[9] ر م - في.
[10] ر ث م: فانتصب.
[11] ن: بانتزاع.
[12] ر م - من.
[13] ر ث م - إلى غير الذي.
[14] ن: وجعلها.
[15] ر ث م: عبادتها.

فأنتم يا أهلَ مكة! إذا بطِرتم وأشِرْتم في سَعَتكم وخَصْبكم تُهلَكون كما أهلِك من كان قبلكم. وهو كما قال: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ،[١] الآية.

وقوله:[٢] **فتلك مساكنهم لم تُسكَن من بعدهم إلا قليلاً**، من القَرْيات قرياتٌ إذا أهلك أهلها أُسكِن غيرهم فيها، نحو قريات فرعون وغيره، جعل مساكنهم لبني إسرائيل حيث قال: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ،[٣] الآية، وقوله: وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ.[٤] ومن القَرْيات ما جعلها خَرِبَة معطَّلةً لم يُسكَن غيرهم فيها، نحو قريات لوط وغيره.

وقوله: **وكنا نحن الوارثين**، أي الباقين. والوارث هو الباقي في اللغة على ما ذكرنا آنفا في غير موضع.[٥] وقوله: **وكنا نحن الوارثين**، يخرج على وجهين في هذا. أحدهما إخبار عن هلاك أهل الأرض وفنائهم ويبقى هو، كقوله: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.[٦] والثاني إخبار عن هلاك أولئك وجَعْلُها لغيرهم، أي للمتقين، كقوله: إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.[٧] *والله أعلم*.*

[قال أبو عوسجة:] **بَطِرَت معيشتَها**، أي لم ترض بمعيشتها. وقال القُتَبي: أي أشِرت.[٩]*

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٥٩]

وقوله: **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً**، جائز أن يكون تلك القرى التي أخبر أنه غير مهلكها حتى يبعث في أمّها رسولاً، القَرْياتِ التي هن[١١] حول مكة،

---

[١] ﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبلسون﴾ (سورة الأنعام، ٦/٤٤).

[٢] ن: قوله.

[٣] ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٣٧).

[٤] ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولي الألباب﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٥٣-٥٤).

[٥] انظر مثلا: تفسير الآية من سورة مريم، ١٩/٦٣؛ وسورة الشعراء، ٢٦/٨٥.

[٦] سورة مريم، ١٩/٤٠.

[٧] سورة الأعراف، ٧/١٢٨.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٦٨و/سطر ٢٦-٢٨.

[٩] م: أشرقت. *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٤.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية التالية، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٦٨و/سطر ٢٨-٣٠.

[١١] ن: بين.

لا يُهلك تلك[1] القرى حتى يبعث في أمّها[2] -قيل: في أعظمها وهي مكّة- **رسولاً يتلو عليهم آياتنا**. فإن كان هذا فيكون الإهلاك لها الانتزاعَ من أيديهم وجعلها في أيدي أهل الإسلام على ما كان، لأن الله كان يفتح على رسوله قرية فقريةً وبلدةً فبلدة حتى جعل الكل في أيدي المسلمين. وهو ما قال: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ،[3] وهو وعد فتح مكّة، وذلك إهلاكهم.

والثاني جائز أن يكون هذا في[4] كل القرى وجميع الرسل أنه كان لا يهلكها بالكفر نفسه حتى يبعث في أكبرها وأعظمها[5] -وهي المصر- رسولاً يتلو عليهم آياته. وذلك يشبه قوله:[6] وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً.[7] وإنما ذَكَر بعث الرسول في أمّها لأنه إذا بعث الرسول في أعظمها وهو المصر ينتشر وينتهي إلى الآفاق والصغائر منها. وأهل[8] القرى لما أنهم يدخلون [٥٦٨ظ] المصر لحوائجهم فيتهيأ للرسول تلاوة الآيات عليهم والدعاءُ لهم / وإن[9] كان في[10] بعض القرى لا يتهيأ لهم ذلك. ***والله أعلم***.

[٥٦٨و س٢٨] *وقالا: [أي أبو عَوْسَجَة والقُتَبي:] **في أمّها رسولاً**، أي في أكثرها وأعظمها قدْرًا وهي[11] مكة والنبيّ منهم والكتاب أُنزل عليهم. وقال [أبو عَوْسَجَة]:[12] و"أمّها" كلمة لا يتكلم بها [٥٦٨و س٣٠] أحد يَعْنُون بها الكبر.*[13]

---

[1] ر ث م - تلك.

[2] جميع النسخ + رسولا.

[3] سورة الرعد، ٣١/١٣.

[4] ر م - في.

[5] ن ث: في أعظمها وأكبرها.

[6] جميع النسخ: كقوله. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٥و.

[7] سورة الإسراء، ١٥/١٧.

[8] جميع النسخ - أهل. والتصحيح من المرجع السابق.

[9] ر ن: وإذا.

[10] ر م - في.

[11] م - أي في أكثرها وأعظمها قدرا وهي؛ م + جائز أن يكون تلك القرى التي.

[12] جميع النسخ: وقالا.

[13] جميع النسخ: يعنون بالكسر. وعبارة السمرقندي هكذا: «وقال أبو عوسجة والقتبي: إن كلمة "أمها" لم يتكلم بها أحد وعنى الكبر بها، ولكنها عبارة عن أصل الشيء» (شرح *التأويلات*، ورقة ٥٧٠و).

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية السابقة، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٦٨و/سطر ٢٨-٣٠.

وقوله: **وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون**، أي معاندون مكابرون، لا نهلكهم إهلاكَ تعذيب بنفس الكفر في الدنيا حتى يكون منهم العناد والمكابرة، إنما يعذَّبون عذابَ الكفر في الآخرة وهو عذاب الأبد.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٦٠]

وقوله:[١] **وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى**، أي[٢] إنهم كانوا يتفاخرون بما أُوتُوا من السعة ومتاع الحياة الدنيا، وأهل الزهد والتقوى آثروا الباقي[٣] الموعود في الآخرة على متاع الحياة الدنيا وزينتها،[٤] ولذلك قال:

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[٦١]

أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لَاقِيهِ كمن متَّعناه متاعَ الحياة الدنيا، فجواب هذا أن يقال: بل الموعود الحسن الملاقَى الذي[٥] له عاقبة خير من المتاع الفاني الذي ليست له عاقبة، لكنه لم يذكر له جواب، فجوابه ما ذكرنا. ثم كل استفهام كان من الله فهو على الإيجاب في الحقيقة ليس على الاستفهام.

وقوله: **ثم هو يوم القيامة من المُحْضَرين**، أي يُحضَرون في النار. وقيل: **من المحضرين**، أي المعذَّبين. وكلاهما واحد.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٦٢]

وقوله: **ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون**، قوله: **شركائي الذين** في زعمكم أنهم شركائي حيث أشركتموهم في العبادة وتسمية الألوهيّة، وإلا لم يكن للهِ شريك فيقولَ: **أين شركائي الذين** زعمتم أنهم شركائي.[٦] ثم قوله: **أين شركائي**، إنما يقال لهم لقولهم:

---

[١] ن: قوله.
[٢] ر م – أي.
[٣] ث – الباقي.
[٤] م + وما عند الله خير وأبقى انهم كانوا يتفاخرون إلى.
[٥] جميع النسخ: بالذي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٠و.
[٦] ث – حيث أشركتموهم في العبادة وتسمية الألوهية وإلا لم يكن لله شريك فيقول أين شركائي الذين زعمتم أنهم شركائي.

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[1] وقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.[2] فيقول: أين شفاعة من زعمتم أنهم شفعاؤكم عند الله؟ وأين قُربَتُكم وزلفاكم بعبادتكم إياها حيث زعمتم أن عبادتكم إياها تُقَرِّبكم إلى الله زلفا؟ أين ذلك لكم منهم؟

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٦٣]

وقوله: **قال الذين حق عليهم القول**، يحتمل قوله: **حق عليهم القول**، القولَ[3] الذي قال: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.[4] وجائز أن يكون قوله: **حق عليهم القول**، أي وجب عليهم العذاب، كقوله: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ،[5] أي وجب العذاب عليهم، وكقوله: وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا [فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ]،[6] أي وجب العذاب عليهم بما ظلموا، ونحوه.

ثم اختلف في الذين حق عليهم القول. فمنهم من يقول: هم رؤساء الكفرة وأئمتهم الذين أضلّوا أتباعَهم ودعوهم إلى الضلال. ومنهم من يقول: هم شياطين الجن. وللفريقين جميعًا في الكتاب ذِكر. قال في أئمتهم: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا،[7] وقال: قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا.[8] وأمثال هذا كثير. وقال في شياطين الجن: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ،[9] وقال: اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ،[10] الآية، ونحوه كثير أيضًا.

---

[1] سورة الزمر، ٣/٣٩.

[2] سورة يونس ١٨/١٠.

[3] م – القول.

[4] سورة هود، ١١٩/١١؛ وسورة السجدة، ١٣/٣١.

[5] ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ (سورة النمل، ٨٢/٢٧).

[6] سورة النمل، ٨٥/٢٧.

[7] ر م – من الذين اتبعوا. ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ (سورة البقرة، ١٦٦/٢).

[8] ﴿... فآتهم عذابا ضعفا من النار﴾ (سورة الأعراف، ٣٨/٧).

[9] سورة الزخرف، ٣٦/٤٣.

[10] ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ (سورة الصافات، ٢٢-٢٣/٣٧).

وقوله:[١] **ربّنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غَوينا**، يقولون: **أغويناهم كما غوينا**، يعتذرون أنه لم يكن منا إليهم إلا الدعاء والإشارة إلى الغَوَاية. وهو كقول إبليس اللعين[٢] وخطبته يومئذ حيث قال: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ،[٣] الآية. فعلى ذلك هؤلاء يقولون: لم يكن منا إليهم سوى الدعاء بلا برهان ولا حجة فاتّبعونا. فلا تلومونا ولوموا أنفسكم حيث تركتم إجابة الرسل ومعهم براهين وحجج[٤] وأجبتمونا بلا حجّة ولا برهان فأغويناكم كما غوينا، ولو كنا على الهدى لهديناكم، كقولهم: لَوْ هَدَانَا اللّٰهُ لَهَدَيْنَاكُمْ.[٥]

وقوله: **تبرّأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون**، إنما يتبرّءون [عن الأمر بالعبادة منهم، أي]،[٦] إنا لم نأمرهم بالعبادة لنا، وإلا كانوا عبدوهم.

ثم إن للمعتزلة أدنى تعلّقٍ بهذه الآية لأنهم يقولون: إنما أضافوا الغواية إلى أنفسهم حيث قالوا: **أغويناهم كما غوَينا**، دلّ أن الله لا يُغْوِي أحدًا.

فيقال لهم: إنا لا نضيف ولا نجيز إضافة الغواية إلى الله فيما يخرج مخرج الذمّ له، وإنما نضيف فيما يخرج مخرج المدح له والثناء عليه. ثم قد أضاف إبليس الغواية إليه ولم يُنْكِر عليه حيث قال: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي،[٧] في غير موضع، وقال: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ،[٨] ونحوه كثير في القرآن. فما[٩] خرج مخرج المدح له والثناء عليه يضاف إليه، وما خرج مخرج الذمّ له فلا. وقد ذكرنا هذا في غير موضع.[١٠] *والله أعلم*.

---

[١] ن: قوله.

[٢] ن - اللعين.

[٣] ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ (سورة إبراهيم، ٢٢/١٤).

[٤] ن: والحجج.

[٥] ﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبَعًا فهل أنتم مُغْنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا مِن محيص﴾ (سورة إبراهيم، ٢١/١٤).

[٦] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٠ظ.

[٧] ﴿قال رَبِّ بما أغويتني لَأُزَيِّنَنّ لهم في الأرض ولَأُغْوِيَنّهم أجمعين﴾ (سورة الحجر، ٣٩/١٥؛ وانظر أيضا: سورة الأعراف، ١٦/٧؛ وسورة ص، ٨٢/٣٨).

[٨] ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ (سورة الرعد، ٢٧/١٣؛ وانظر أيضا: سورة النحل، ٩٣/١٦؛ وسورة فاطر، ٨/٣٥).

[٩] ن: فيما.

[١٠] انظر: فهرس المصطلحات والأفكار الرئيسية في آخر المجلدات، «الإضلال».

وقوله:[1] **حق عليهم القول**، يومَ قال لإبليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ،[2] ثم قالت الشياطين في الآخرة: **ربّنا هؤلاء الذين أغوينا**، يَعنون كفار بني آدم. هؤلاء الذين أضللناهم عن الهدى كما ضلَلنا، **تبرّأنا إليك** منهم يا رب، **ما كانوا إيانا يعبدون**. فتبرّأت الشياطين ممن كان يعبدها فقالوا: لم نأمرهم بعبادتنا.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾[٦٤]

وقيل، لكفار بني آدم، **ادعوا شركاءكم**، يقول: سَلوا الآلهة التي سمّيتموها آلهة: أهم آلهة؟[3] **فدعوهم**، أي سألوهم، فلم يجبهم الآلهة بأنها آلهة. وقوله: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ،[4] في الدنيا أن معي شركاء على ما ذكرنا من قبل. ***والله أعلم***. وقوله:[5] **وقيل ادعوا شركاءكم**، يحتمل شركاءكم[6] في الخلقة أو شركاءكم[7] في العبادة. ادعوهم ليشفعوا لكم[8] ويقرّبوكم[9] إلى الله على ما زعمتم في الدنيا. / **فدَعَوهم فلم يستجيبوا لهم**، أي لم [٥٦٩و] يشفعوا لهم ولم يستجيبوا لهم لِما لم يَجْعل في وُسعهم الإجابة لهم واجبًا كائنًا في الآخرة. **ورأَوُا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون**، تأويله، أي لو[10] رأوا العذاب في الدنيا لكانوا يهتدون ولكن لم يرَوه. هذا وجه،[11] ووجه آخر أنهم لم يصدّقوا بالعذاب في الدنيا، ولو صدّقوه لاهتدوا مخافة نزول العذاب بهم. والثالث لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا ما رأوا العذاب في الآخرة. ***والله أعلم***.

---

[1] ن: قوله.
[2] سورة ص، ٨٥/٣٨.
[3] ث – أهم آلهة.
[4] الآية ٦٢ من هذه السورة.
[5] ن: قوله.
[6] ث – يحتمل شركاءكم.
[7] ر: وشركائكم.
[8] جميع النسخ: ليشفعوكم.
[9] ر م: ويقربكم.
[10] ر م – لو.
[11] جميع النسخ: أوجه. والتصحيح من نسخة چورلولي علي باشا، ورقة ٤٦١ظ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[٦٥] ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[٦٦]

وقوله: **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعمِيت عليهم الأنباء**، اختلف فيه. قال قائلون: إنما يُسألون عن إجابتهم الرسلَ: ماذا أجبتموهم؟ على علم منه[١] أنهم ماذا أجابوهم. **فعَمِيَتْ عليهم الأنباء**، أي الإجابة، فلا يتهيأ لهم الإجابة لهول[٢] ذلك اليوم[٣] وفَزَعِهم. وقال بعضهم: إنما يسألون عن الحجّة والعذر الذي به كانوا[٤] تركوا إجابة الرسل فيقول لهم: لأيّ حجّة وعذر تركتم إجابتهم؟ **فعَمِيَتْ عليهم الأنباء**، أي الحجج[٥] والعذر لِما لم يكن لهم الحجة والعذر في تركهم إجابتهم.

فهم لا يتساءلون، قال بعضهم: لا يَسأل بعضهم بعضًا بل يتبرّأ بعضهم من بعض[٦] ويكفُر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا[٧] على ما ذكر في الكتاب. وقال بعضهم: **فهم لا يتساءلون**، بالحجّة والبرهان لِما لا حجّة لهم ولا برهان، أي لا يسأل بعضهم بعضًا عن الحجج لأن الله أدحض حججهم وكلّل ألسنتهم. وقال بعضهم: **لا يتساءلون**، بالأنساب يومئذ كما كانوا يتساءلون في الدنيا، كقوله: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ.[٨] ***والله أعلم بذلك.***

ثم إن بعض المعتزلة تكلّموا فيه وقالوا: لو كان الأمر على ما يقوله[٩] القدريون والجبريون في المشيئة والإرادة لكان يَسهُل لهم الاحتجاج ويهُون لهم العذر فيقولون: يا ربنا أجَبنا[١٠] ما نفذ من مشيئتك وإرادتك وما مضى من قضائك وكتابتك[١١] علينا، إذ كنت أنت قضيت وكتبتَ علينا وشئت وأردت ما كان منّا من التكذيب لهم وترك الإجابة، فلم يكن لنا تخلّصُ مما شئت أنت وقضيت علينا.

---

[١] ث: منهم.
[٢] ر: لهو.
[٣] جميع النسخ - اليوم. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٦و.
[٤] ن - كانوا.
[٥] ن: الحجة.
[٦] انظر: الآية ٦٣ من هذه السورة.
[٧] وذلك في قول الله عز وجل: ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودّةَ بَيْنِكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٥).
[٨] سورة المؤمنون، ٢٣/١٠١.
[٩] ر م: قاله.
[١٠] ن ث: أجبناهم.
[١١] ر ث م: وكتابك.

إلى هذا الخيال يذهب جعفر بن[1] حرب. وهذا منه تعليم لأولئك الكفرة الحِجاجَ بالباطل والكَذِبَ بين يدي ربّ العالمين للتكذيب الذي كان منهم. ثم يقال له:[2] لو كان لهم ذلك الحِجاج على زعمكم فلا يكون ذلك لهم بقولنا ولكن إنما يكون بكتاب الله وسنة رسوله وقول المسلمين أجمعَ حيث قالوا: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».[3] وبكتاب الله ما ذكر في غير آية من القرآن [كقوله:]: يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ،[4] وقوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ،[5] وقوله: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى،[6] وقوله: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ [جَمِيعًا]،[7] الآية وأمثاله مما لا يحصى من الآيات. فَلَإِنْ كان لهم ذلك إنما يكون بما ذكرنا لا بقولنا.

وأصله أنه لا يكون لهم هذا النوع من الاحتجاج، لأنهم وقتَ فعلهم لا يفعلون ما يفعلون بأن الله شاء ذلك لهم أو قضى وكتب ذلك عليهم[8] وهم يودّون ويحبّون وقتَ فعلهم أنْ شاء الله ذلك منهم ويرضى.[9] فإذا كانوا وقت فعلهم لا يفعلون لذلك فكيف يكون لهم الحِجاج على ما كانوا[10] يفعلون لا لذلك؟ لكن هذا منهم تعليم الكذِب لهم لِيَكْذِبوا بين يَدَيْ[11] رب العالمين على ما ذَكَرَ. وأصل قولنا في هذا أنا نقول: إنه شاء من كلِّ ما علم أنه يكون منه ويختار، وكذلك قضى وكتب على كلِّ ما علم أنه يكون منه، إذ لا يجوز أنْ يشأ منه خلاف ما علم أنه يكون،[12] لأن فيه أحدَ وجهين: إما الجهلَ بالعواقب، وإما العجز فيه، وذانك عن الله منفِيّان. تعالى الله[13] عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

---

[1] ر: ابن.
[2] ر م - له؛ ث: لهم.
[3] روي حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر: سنن *أبي داود*، الأدب، ١٠١؛ وراجع للتفصيل *الأسماء والصفات* للبيهقي، ١/٤١٧-٤٢٥.
[4] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/٢٧٢؛ وسورة إبراهيم، ١٤/٤؛ وسورة النحل، ١٦/٩٣؛ وسورة فاطر، ٣٥/٨.
[5] سورة القصص، ٢٨/٥٦.
[6] سورة الأنعام/ ٦/٣٥.
[7] سورة يونس، ١٠/٩٩.
[8] جميع النسخ + ولا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٦ظ.
[9] ر م: يرضى.
[10] ر م + عليه.
[11] ث - يدي.
[12] ث - منه ويختار وكذلك قضى وكتب على كل ما علم أنه يكون منه إذ لا يجوز أن يشأ منه خلاف ما علم أنه يكون.
[13] ث - تعالى الله.

وأصله ما روي عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: بيننا وبين القدَريّة حرفان. أحدهما أنا نقول لهم: إن الله أعَلِمَ[١] ما يكون أنه يكون؟ فإن قالوا: لا، كَفَروا لأنهم جهَّلوا الله؛ وإن قالوا: بلى، فيقال لهم: وشاء أن يكون ما علم أنه يكون؟ فإن[٢] قالوا: لا، كَفَروا لأنهم[٣] يقولون: شاء أن يجهَل وذلك[٤] كُفر. وإن قالوا: بلى شاء ذلك، لزمهم قولنا في المشيئة والإرادة لله في ذلك.[٥]

قال أبو عَوْسَجة والقُتَبي: **فعَمِيت**، بالتخفيف، أي خَفِيت، فعُمِّيت بالتشديد، أي أُخفِيت.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[٦٧]

وقوله: **فأمّا من تاب وآمن وعمل صالحًا**، أي فأمّا من[٦] رجع عما كان فيه[٧] من الشرك والكفر، **وآمن**، بالذي دعاهم الرسل وأجابهم، **وعمل صالحًا**، فيما بينه وبين ربه، **فعسى أن يكون من المفلحين**. يحتمل رجوع "عسى" إلى ذلك الرجل الذي نَعَتَه، يقول: على رجاء القبول والفلاح يفعل ما يفعل من التوبة والعمل الصالح. أو أن يقال ما قال أهل التأويل: إن "عسى" من الله واجب، وهو ما ذكرنا أن كلّ استفهام كان من الله فهو على اللزوم والوجوب.[٨] فعلى ذلك حرف "عسى" و"لعل"، وإن كان حرف شكّ في الظاهر فهو من الله على الوجوب واليقين.

قال أبو معاذ: الفلاح في كلام العرب البقاء، ويقال: النجاة. / وقد ذكرنا [هذا] في غير موضع.[٩] [٥٦٩ظ]

---

[١] ن ث: علم.

[٢] ر م: فإنه.

[٣] ن - جهلوا الله وإن قالوا بلى فيقال لهم وشاء أن يكون ما علم أنه يكون فإن قالوا لا كفروا لأنهم.

[٤] ر م: ذلك.

[٥] روي عن أبي يوسف أنه قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «إذا كلمت القدري فإنما هو حرفان، إما أن يسكت، وإما أن يكفر. يقال له: هل علم الله في سابق علمه أن تكون هذه الأشياء كما هي؟ فإن قال لا، فقد كفر، وإن قال نعم، يقال له: أ فأراد أن تكون كما علم، أو أراد أن تكون بخلاف ما علم؟ فإن قال أراد أن تكون كما علم، فقد أقرّ أنه أراد من المؤمن الإيمان، ومن الكافر الكفر، وإن قال: أراد أن تكون بخلاف ما علم، فقد جعل ربه متمنيا متحسرا، لأن من أراد أن يكون ما علم أنه لا يكون، أو لا يكون ما علم أنه يكون، فإنه متمن متحسر. ومن جعل ربه متمنيا متحسرا فهو كافر». *تاريخ بغداد* للخطيب البغدادي، ١٥/٥١٥-٥١٦؛ *وتاريخ مدينة دمشق* لابن عساكر، ٤٥/٢٩٩؛ *والأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة* لبياضي زاده، ٧٦؛ وانظر أيضا: *كتاب التوحيد* للماتريدي، ٤٨٣.

[٦] جميع النسخ + تاب أي.

[٧] ث - فيه.

[٨] ن: الوجوب واللزوم.

[٩] انظر مثلا: تفسير الآية ١ من سورة المؤمنون.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٨]

وقوله: **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيَرَة**، يقول[١] -والله أعلم-: وربك يختار للرسالة من يشاء ويجتبيه لها فيجعلهم رسلاً. **ما كان لهم الخيرة**، يقول: لم يكن لهم أن يختاروا هم ولكن الله يختار ويصطفي من يشاء، ردًّا[٢] لقولهم: لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ،[٣] الآية، إلى هذا ذهب بعضهم. وجائز أن يكون هذا في كل أمر، أي وربك[٤] يختار ما يشاء ويأمر وما كان لهم الخيرة من أمره، أي التخلّص والنجاة من أمره، كقوله: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا -أي أَمَر اللهُ ورسوله أَمْرًا-[٥] أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ،[٦] والقضاء هاهنا أمر. لكنه يحتمل وجهين. أحدهما على الوقف في[٧] قوله: **وربك يخلق**[٨] **ما يشاء ويختار**، والابتداء من قوله: **ما كان لهم الخيرة** من أمرهم. فإن كان على هذا فيكون "ما" هاهنا "ما" جَحدٍ، أي لم يكن لهم الخيرة من أمرهم.[٩]

والثاني على الصلة ليس على الجحد فيكون تأويله: وربك يخلق ما يشاء ويختار الذي لهم الخيرةُ، فيجب[١٠] أن يكون الوقف على هذا على قوله: **وربك يخلق ما يشاء**، ثم يقول: **ويختار** الذي لهم الخيرةُ.

قال أبو معاذ: قرئ[١١] الخِيْرَة بجزم الياء، وبتحريكها[١٢] **الخِيَرَة**.[١٣]

ثم قوله: **وربّك يخلق ما يشاء ويختار**، على المعتزلة من وجهين. أحدهما ما أجمعوا عليه أن الله قد شاء جميع ما يفعله العباد من الخيرات والطاعات، فإذا شاء ذلك دلّ أنه خلقها.

---

[١] ر ث م: ويقول.

[٢] ن – ردا، صح هـ.

[٣] ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهُمْ يقسمون رحمة ربك﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٣١-٣٢).

[٤] ن: أي ربك.

[٥] ث – أي أمر الله ورسوله أمرا.

[٦] سورة الأحزاب، ٣٣/٣٦.

[٧] ر م – في.

[٨] ث: كان.

[٩] ر ث م: من أمره؛ ن – من أمرهم.

[١٠] ر ث م – فيجب.

[١١] ن: يقرأ.

[١٢] م: وبتحريك.

[١٣] معجم *القراءات القرآنية* لعبد العال سليم مكرم وأحمد مختار عمر، ٣/٤٥٩.

إذ أخبر أنه يخلق ما يشاء وقد شاء الخيرات، فدلّ ذلك على خلق أفعال العباد، لكنّهم يقولون: قوله: **يخلق ما يشاء**، إذا خلقه. وكذلك يقولون في قوله: وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،[١] أي على خلْق كل شيء قدير[٢] إن خلَقَه، أو كلام نحو هذا. فلئن جاز لهم هذا من الزيادة جاز لكل أحد مثله، فذلك بعيد. وعلى قولهم أكثر الأشياء ليست بمخلوقة لله وهو على أكثر الأشياء غير قدير، لأن أفعال الخلق لا شك أنها أكثر من أنفسهم فأخبر أنه على كل شيء قدير وأنه يخلق ما يشاء. وإن هذا منه خرج مخرج الامتداح له والثناء عليه[٣] بما له من السلطان والقدرة على الخلق كلهم. فلو كان على ما يقوله المعتزلة لم يكن هذا مدحًا له ولا ثناء بالسلطان والقدرة، إذ هو -على قولهم- على أكثر الأشياء ليس بقادر على ما ذكرنا.

ثم نزّه نفسه وبرّأها عمّا قالوا فيه وأشركوا غيره في ألوهيّته وربوبيّته وفي عبادته فقال: **سبحان الله وتعالى عما يشركون.**

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٦٩]

وقوله:[٤] **وربّك يعلم ما تُكِنُّ صدورُهم وما يعلنون**، هذا يخرج على الوعيد لهم والتنبيه ليكونوا على حَذَر فيما يُسِرّون من القول والفعل[٥] وما يُعلنون. ***والله أعلم.***

﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٧٠]

وقوله:[٦] **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم**، قوله: **وله الحكم**[٧] كقوله: وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ،[٨] وقد ذكرنا أن قوله: وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ من أمرهم، أنه يخرج على وجهين. أحدهما له الاختيار في أمرهم وليس[٩] لهم الاختيار في أمرهم[١٠]

---

[١] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/٢٨٤.
[٢] ر م - أي على خلق كل شيء قدير.
[٣] ر م: له.
[٤] جميع النسخ: وقال. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٧ظ.
[٥] ر م - من القول والفعل.
[٦] ن: قوله.
[٧] ث - قوله وله الحكم.
[٨] الآية ٦٨ من هذه السورة.
[٩] ر ث م: لا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٨و.
[١٠] ن - وليس لهم الاختيار في أمرهم.

ولا يملكون هم[1] ما يُختار لهم دفعه. والثاني هو يختار لهم الخِيَرة في أمرهم، لأنه هو العالم بمصالح أمورهم وما يرجع إلى الأوفق والأنفع، هم[2] لا يعرفون ذلك. فعلى ذلك قوله: **له الحكم**، في الدنيا والآخرة، لأن أنفُس الخلائق له دونهم، فله الحكم في أمورهم وأفعالهم كما له الحكم في أحوالهم، لأنه لا يلحقه الخطأ[3] في حكمه إذ هو عالم بذاته، ولا يلحقه التهمة أيضًا في دفع مضرّة أو جرّ نفع لأنه غني بذاته، فله الحكم في الدارين جميعًا. **والله الموفق**.

وقوله: **له الحمد في الأولى والآخرة**، هذا[4] يخرج على وجوه. أحدها[5] ما قاله أهل التأويل: إن أولياءه يَحمَدونه في الدنيا والآخرة، في الجنة؛ حيث قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[6] الآية، يقولون [هذا] إذا دخلوا الجنة.

والثاني قال[7] بعضهم: **في الأولى والآخرة**، يقول: في السماوات والأرض، وتصديقه قول الله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[8] وقوله أيضًا:[9] ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[10] وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.[11]

والثالث **له الحمد في الأولى والآخرة**، وهو أنْ جعل الدنيا مشتركة بين الأعداء والأولياء في نعيمها، غيرَ مفترِقة ولا مختلفة، وأما الآخرة فقد فرّق فيها[12] بين الأولياء والأعداء؛ جعل للأولياء النعمة الدائمة وللأعداء العذاب الدائم فله الحمد على ذلك.

والرابع **له الحمد في الأولى والآخرة**، لما جعل الدنيا دار محنة والآخرة دار الجزاء لم يجعلها دار المحنة. أو أن يكون قوله: **له**[13] **الحمد في الأولى والآخرة**، أي له الحمد من الخلق

---

[1] ن – هم.
[2] ن – هم.
[3] ر ث م: الخطاب.
[4] ن – هذا.
[5] ر: أحدهما.
[6] ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٤).
[7] ر م: والثاني وقال؛ ن – والثاني قال.
[8] سورة الروم، ٣٠/١٨.
[9] ر م – أيضا.
[10] سورة الحشر، ٥٩/٢٤.
[11] سورة الإسراء، ١٧/٤٤.
[12] ن + من.
[13] م – له.

في كل حال وكل وقت، كقوله: وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،[١] أنهم يحمدونه في بدء كل أمر وختمه.[٢]

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[٧١] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٧٢] ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٧٣]

وقوله: **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سَرْمَدًا إلى يوم القيامة**، أو إن جعل النهار سرمدًا، أي دائمًا لا ليل فيه إلى آخر ما ذكر من قوله: **أفلا تسمعون**، و **أفلا تبصرون**، يخرج ذلك[٣] لوجهين. أحدهما في تسفيههم في صرف العبادة والشكر إلى الأصنام التي كانوا يعبدونها على علم منهم أنها لا تملك شيئًا مما ذَكَر من جعل الليل نهارًا أو جعل[٤] النهار ليلاً وتركِهم عبادة من يعرفون أنه يملك ذلك كلّه. وكذلك ما ذكر في آية أخرى حيث قال: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ / ضُرِّهِ،[٥] الآية. يقول -والله أعلم-: [٥٧٠و] فإذ لا يملك ما تعبدون من دون الله دفْعَ ضرّ أراده الله به وجَعْلَه رحمةً ولا دفْعَ رحمة أرادها الله وجعْلها[٦] ضُرًّا فكيف تعبدونها وتتركون عبادة مَن يملك جعل هذا هذا[٧] ودفع هذا بهذا؟ فعلى ذلك يقول -والله أعلم-: كيف تعبدون من لا يملك جعْل الزمان كلِّه ليلاً دائمًا لا نهار فيه وجَعْلَ[٨] النهار[٩] نهارًا كلَّه دائمًا لا ليل فيه وتتركون عبادة من يَملك ذلك كلّه، بجعل وقت الراحة والسكون وقت الاكتساب والتعيّش، ووقت التقلّب والكسب وقت الراحة[١٠] والقرار.

---

[١] سورة يونس، ١٠/١٠.
[٢] جميع النسخ + أو أن يكون له الحمد. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٨و.
[٣] جميع النسخ: ذكره.
[٤] ن م: وجعل.
[٥] ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣٨).
[٦] جميع النسخ: وجعله. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧١ظ.
[٧] ن + وهذا هذا.
[٨] م: جعل.
[٩] ن: الليل.
[١٠] ر ث م - والسكون وقت الاكتساب والتعيش ووقت التقلب والكسب وقت الراحة.

والثاني يذكّرهم عظيم نعمه ومِنَنه حيث أنشأ هذا العالم محتاجًا إلى ما به قوام أنفسهم وأبدانهم في دينهم ودنياهم. ثم جعل ذلك كلّه[1] على التعاون وتظاهر[2] بعضهم بعضًا ما لو جعل ذلك على غير ذلك لا تقوم[3] أنفسهم وأبدانهم بذلك، حيث جعلَ الليل وقتًا للراحة والسكون والنهارَ وقتًا للتقلّب والتعيّش. ولو كان ذلك كلُّه وقتًا للراحة لا تقوم[4] أنفسهم أبدًا للتعيّش والكسب، ولو كان كلّه وقتًا للتقلّب والكسب لا راحة فيه[5] لا تقوم أيضًا أنفسهم بذلك. لكنه من رحمته وفضله جعل لهم وقتًا للراحة ووقتًا للتقلّب. والوقت الذي جعله وقتًا للراحة[6] إنما جعله للكل لا لبعض دون بعض. وكذلك ما جعله وقتا للتقلّب إنما جعله كذلك[7] للكل لا لبعض دون بعض، ليقوم لهم أسباب التعيّش وما به قوام أنفسهم وأبدانهم. ولو كان ذلك كلّه وقتًا لأحدهما لم تقُم[8] أنفسهم ولا بقي هذا العالم إلى الوقت الذي جعل له البقاء إلى ذلك الوقت. وهو ما ذكر: **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**. وقوله: **أفلا تسمعون**، و**أفلا تبصرون**، إنما هو سَمْعُ عقلٍ وقلبٍ وبصرُ عقلٍ وقلبٍ. كأنه يقول: أفلا تسمعون هذا بالعقل وأفلا تبصرون بالعقل -والله أعلم- كقوله: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ،[9] الآية.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٧٤]

وقوله:[10] **ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون**، قد ذكرناه. وهذه الآيات التي يكرّرها ويعيد[ها] مرّة بعد مرّة من قوله: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ،[11] وقوله: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ،[12] وقوله:

[1] ن: كل ذلك.
[2] جميع النسخ: والتظاهر.
[3] جميع النسخ: لا يقوم.
[4] جميع النسخ: لا يقوم.
[5] ث - لا راحة فيه.
[6] ر ث م - ووقتا للتقلب والوقت الذي جعله وقتا للراحة.
[7] جميع النسخ: لذلك.
[8] ر ن ث: لم يقم.
[9] ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٦).
[10] ن: قوله.
[11] الآية ٦٥ من هذه السورة.
[12] الآية ٦٢ و٧٤ من هذه السورة.

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ،[1] وأمثال ذلك مما يكثر على علم منه أنهم لا يصدّقونها ولا يقبلونها ولا يستمعون إليها، وإن كرّرت وأعيدت غير مرّة فهو -والله أعلم- يخرج على وجهين. أحدهما لزوم الحجة لما مُكِّنوا من الاستماع[2] والسماع وإن كانوا لا يستمعون إليها. والثاني يكون فيه عِظةٌ للمؤمنين من وجوه. أحدها ليشكروا على ما عُصِموا من عبادة غير الله ووُفِّقوا عبادة الله المستحق لها ليعرفوا عظيم نعمة الله عليهم.

والثاني ليحذروا[3] عاقبتهم في الرجوع إلى ما هو عليه أولئك الكفرة على ما حَذِر الرسلُ والأنبياء وأولو[4] العصمة عاقبتهم في الرجوع إلى ذلك، كقول إبراهيم: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ،[5] وأمثاله كثيرة.[6]

والثالث خوف المعاملة، لئلّا يعاملوا هم[7] في العمل كما يعامَل[8] أولئك في الاعتقاد، لأن المؤمنين وإن خالفوا[9] أولئك الكفرة في الاعتقاد وفي إشراك[10] غيره في العبادة فربما يوافقونهم في العمل.[11] فكرِّرت هذه الأنباء والآيات عليهم وأعيدت مرّة بعد مرّة وإن كان أولئك لا يستمعون إليها للوجوه التي ذكرنا.

والرابع كرِّرت غير مرة لِما لعلّهم لا يقبلون في وقت ويقبلون في وقت، فيقولون: لو كُرِّرت وأعيدت لقَبِلنا. فكرِّرت وأُعيدت لئلّا يقولوا بأنها لو أعيدت وكرّرت لقبلناها. ***والله أعلم.***

---

[1] الآية ٦٤ من هذه السورة.

[2] ر م: أو الاستماع؛ ث: والاستماع.

[3] ر ن م: ليحذرون.

[4] ر ن ث: وأولوا.

[5] سورة إبراهيم، ١٤/٣٥.

[6] جميع النسخ: كثير.

[7] ر ث م: يعاملوا لهم؛ ن: يعاملونهم.

[8] ر ث م: عامل؛ ن: عمل.

[9] ر ن ث: خالفوا هم؛ م: خالفوهم.

[10] ر م: في إشراك.

[11] «والثالث ذكر الله تعالى المعاملة مع الكفرة في الآخرة بما خالفوا الله تعالى من طريق الاعتقاد وتركوا الإيمان، ليكون زجرا للمؤمنين عن المخالفة في أوامره ونواهيه، لئلا يعا مَلوا في العمل السيء كما يعامل الكفرة في الاعتقاد السيء؛ لأن المؤمنين وإن خالفوا الكفرة في آية التوحيد و[في] أولئك الإشراك [إشراك غيره في العبادة] فربما توافقوهم في العمل بمخالفة الأمر والنهي، وإن كان هذا دون الأول بكثير، وجواب هذا أيضا كذلك، لكن من جنس الأول. فأعيد مرة بعد مرة ليتعظ المؤمن بذلك عن ارتكاب المعاصي لئلا يلحقه من جنس هذا التعيير [و]العذاب. والله أعلم» (شرح التأويلات، ورقة ٥٧٢و).

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٧٥]

وقوله: **ونزعنا من كل أمّة شهيدًا**، قيل: شهيدُها رسولها، كقوله: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ،[١] الآية، وقوله: وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا،[٢] ونحوه. سُمّي شهيدًا لأنه شهد على ما عملوا[٣] وحضر ما كان منهم -والله أعلم- من التكذيب والتصديق[٤] والقبول والرد، **فقلنا هاتوا برهانكم**، أي قلنا لكفّارها هاتوا برهانكم[٥] في تسميتكم الأصنام آلهة أو في استحقاق العبادة أو في زعمكم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[٦] ونحو ذلك، يقول: **هاتوا برهانكم** وحجّتكم على ما زعمتم وادّعيتم.[٧]

وقوله:[٨] **فعلموا أن الحقّ لله**، هذا أيضًا يحتمل[٩] وجوهًا. أحدها علموا أن الألوهية والربوبيّة لله. أو علموا أن الشفاعة لله لا للأصنام التي عبدوها ليكونوا شفعاء عند الله، كقوله: قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا.[١٠] أو أن يكون أن الحق الذي عليهم هو[١١] العبادة لله. أو أن يكون ما جاء به الرسل من الحق إنما جاءوا [به] من عند الله. **وضلّ عنهم ما كانوا يفترون**، أي ضلّ عنهم ما كانوا يأمُلون من عبادتهم تلك الأصنام من الشفاعة والزلفى.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٧٦]

وقوله: **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم**، كأنه[١٢] -والله أعلم- يخوّف أهل مكّة ويوعدهم ببغيهم على الله وعلى رسوله[١٣] بعذاب ينزل بهم كما نزل بقارونَ ببغيه على موسى وقومه

---

[١] ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (سورة النساء، ٤/٤١).
[٢] ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾ (سورة النحل، ١٦/٨٤).
[٣] ن: يشهد ما عملوا.
[٤] ر ث م - والتصديق.
[٥] ر ث م - أي قلنا لكفارها هاتوا برهانكم.
[٦] سورة يونس ١٠/١٨.
[٧] ر ث م - وادعيتم.
[٨] ن: قوله.
[٩] ن + وجهين.
[١٠] سورة الزمر، ٣٩/٤٣.
[١١] جميع النسخ: وهي.
[١٢] ر م + قال.
[١٣] ن: على الله ورسوله.

أنْ لم تنفعه قرابته من موسى ولا صلته به لِما ذُكر أنه كان ابنَ عمّه وكان خَتَنَه زوجَ أخته مريم. فعلى ذلك يقول -والله أعلم-: لا تنفعكم القرابة التي بينكم وبين رسول الله ولا اتصالُكم به من عذاب الله ومَقته في الدنيا إذا بَغَيْتم عليه وتركتم اتباعه، كما لم تنفع القرابة التي / بين قارون [٥٧٠ظ] وبين موسى من عذاب الله ومَقته في الدنيا إذا بغى عليه. وكما لم تنفع أُبُوَة أبي إبراهيم لأبي إبراهيم إذا بغى عليه وترك اتّباعه، حيث تبرّأ إبراهيم منه،[١] وحيث قال: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ،[٢] الآية، وحيث لم تنفع لامرأة نوح ولوط الزوجيّة التي كانت بينهما[٣] وبين نوح ولوط من نزول العذاب ومقته بهما إذا تركتا اتباعهما وبغتا عليهما.[٤] فعلى ذلك يا أهل مكة لا ينفعكم من عذاب الله ومقته قرابتكم لرسول[٥] الله صلوات الله عليه وصِلتكم[٦] به. *والله أعلم*.

وقوله:[٧] **فبغى عليهم**، اختلف أهل التأويل في بَغيه عليهم. قال بعضهم: هو أن موسى طلب منه زكاة ما آتاه الله من المال فمنعه وأبَى أن يعطيه. وقال بعضهم: بَغيه عليهم هو أن أعطى امرأة جُعْلاً[٨] لتقذفه [عليه السلام] بنفسها فأراد أن يفضحه على رءوس الأخيار والملأ وأن يرجموه، فدفع الله ذلك[٩] عنه وبرّأه منه.[١٠] وقال بعضهم: إنما بغى عليه بكثرة ماله وولده. هذا يشبه أن يكون كأنه افتخر بكثرة ماله في دفع عذاب الله ونقمته، كقول أهل مكّة: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً،[١١] الآية. وقال بعضهم: بغى عليه، لأن النبوة جعلت في موسى

---

[١] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون﴾ (سورة الزخرف ٤٣/٢٦).

[٢] سورة مريم، ١٩/٤٥.

[٣] ن: بينهن.

[٤] جميع النسخ: بهم إذا تركوا اتباعهم وبغوا عليه، ن ث: عليهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٢ظ.

[٥] جميع النسخ: برسول.

[٦] ن: ووصلتكم.

[٧] ن: قوله.

[٨] الجُعْل والجِعال والجَعِيلة والجُعالة والجِعالة والجَعالة، كل ذلك: ما جعله له على عمله. وأَجْعَله جُعْلاً وأَجْعَله له: أعطاه إياه (*لسان العرب*، «جعل»).

[٩] ر ن - ذلك.

[١٠] وعبارة السمرقندي هكذا: «وقال بعضهم بغيه عليه هو أن يعطي امرأة مالا ليقذف موسى عليه السلام ويدّعي عليه بالزنا فأراد أن يفضحه على رءوس الأخيار والملأ وأن يرجموه، فدفع الله تعالى ذلك عنه وبرّأه من ذلك» (شرح التأويلات، ورقة ٥٧٢ظ).

[١١] ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذَّبين﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣٥).

والحُبُورة في هارون ولم يجعل لقارون شيء.[1] فاعتزل عن موسى واتبعه ناس كثير فاعتدى عليه، ونحو هذا كثير مما قالوه. والأشبه أن يكون بغيه الذي ذَكَر عليه كبغْي فرعون وهامان عليه حيث قال: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ،[2] وكقوله: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ،[3] الآية. فكان منه ما كان من فرعون وهامان من التكذيب والردّ لرسالته وتسميته ساحرًا كذابًا، فذلك هو البغي عليه. أو لا يُفسَّر[4] البغي عليه لأنه ذكر البغيَ ولم يبيّن ما ذلك البغي، والله أعلم بذلك. وقال قائلون: بغيه عليهم هو أن زاد في ثيابهم شِبرًا. فذلك أيضًا لا نعلمه فهو مثل الأول.

وقوله: **وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتَنُوء بالعصبة أولي القوّة**، قال بعضهم: **مفاتحه**، خزائنه، وقال بعضهم: **مفاتحه**، جمع مفتاح وهو في الأصل مفاتيح. وذكر أن كنوزه كانت كذا كذا ألفًا وأن مفاتيحه كان يحملها[5] كذا وكذا[6] بغلاً[7] وأنها من جلود كذا أو مِن كذا قَدرُ كذا. فذلك أيضًا لا نعلمه ولا نفسّره[8] ولا نذكره إلا قَدرَ ما ذكر في الكتاب. إذ ذكر في الكتاب الكنوز والمفاتيح[9] وذكر أن العُصْبة تنوء بها، وذلك لكثرة[10] ما ذكر ولكن لا نعلم قَدرَه وعدده ما هو ولا كم هو. وكذلك "العصبة" أيضًا لا نعلم[11] كم عدده إلا أن أهل التأويل يقول بعضهم: من عشرة إلى أربعين، ويقول بعضهم: من عشرة إلى خمس وسبعين، وبعضهم: من عشرة إلى خمس عشرة. ونحن لا نفسّره ولا نذكر عدده سوى

---

[1] الحَِبْر: «الأثر المستحسن. والحَبْر: العالم، لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدَى بها» (*المفردات* للراغب، «حبر»). ويقول علاء الدين السمرقندي: «وقال بعضهم: إنما بغى عليه لأن الرسالة والنبوة جعلت في موسى عليه السلام والحبورة في هارون، فكأنه أُعد لتعليم التوراة وأحكامها وموسى عليه السلام للدعوة وإقامة الرعية ولم يُجعل لقارون شيء» (*شرح التأويلات*، ورقة ٥٧٢ظ).

[2] سورة المؤمن، ٢٣/٤٠-٢٤.

[3] سورة العنكبوت، ٣٩/٢٩.

[4] ن: ولا يفسر. وعبارة الشارح: «والأصح أن لا يفسر» (ورقة ٥٧٢ظ).

[5] جميع النسخ: يحمل.

[6] ن: كذا كذا.

[7] ن: بغل، صح هـ؛ ث: بغل.

[8] م: ولا نفسر.

[9] جميع النسخ: والمفاتح. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٢ظ.

[10] جميع النسخ: لكثرة. والتصحيح مستفاد من المرجع السابق.

[11] جميع النسخ: لا نعلم. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٧٩ظ.

أنه[١] اسم جماعة يتعصب بعضهم بعضًا ويعين[٢] بعضهم بعضًا، يرجعون جميعًا إلى أمر واحد. وكذلك "الشيعة" هي جماعة يتشيّع بعضهم بعضًا ويتبع بعضهم بعضًا. ولذلك[٣] قال إخوة يوسف لأبيهم: لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، أي يتعصب بعضنا بعضًا لا نَدَعه يأكله ولئن لم نفعل ولم نحفظه، إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ.[٤]

وقوله: **لَتَنُوءُ بالعصبة**، اختلف فيه. قال بعضهم: لتثقُل بالعصبة تلك المفاتيحُ. وقال القُتَبي: **لَتَنُوءُ**، أي تَميل بها العصبة إذا حملتها من ثِقَلها.[٥] وقال أبو عَوْسَجة: **لَتَنُوءُ بالعصبة**، أي لتَعجِز العصبة[٦] عن حملها. وقال بعضهم: "تنوء" تَثقُل، و"العصبة" جماعة.

وقوله:[٧] **إذ قال له قومه لا تفرح**، قال بعضهم: لا تبطَر ولا تأشَر، **إن الله لا يحب** البطِرين الأشِرين. وجائز أن يكون قوله: **لا تفرح**، أي لا تفتخر على الناس بما آتاك الله من المال ولا تتكبر عليهم. أو **لا تفرح**،[٨] أي[٩] لا تسكن إليها ولا تركَنْ إلى ذلك، إن الله لا يحبّ من ذكر.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٧٧]

وقوله:[١٠] **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة**، كأن كثرة ما آتاه الله من المال أنسَتْه الآخرة وشغَلته عنها وعن العمل لها حتى حمله ذلك على الجحود والإنكار، فقال: وابتغ الدار الآخرة بما آتاك الله،[١١] **ولا تنسَ نصيبك من الدنيا**، أي لا تنسَ[١٢] نصيبك[١٣] من مالك في الدنيا ولكن قدِّم لآخرتك.[١٤]

---

[١] ث – أنه.
[٢] ر م: ويعير.
[٣] ن: وكذلك.
[٤] سورة يوسف، ١٢/١٤.
[٥] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٤.
[٦] م: بالعصبة.
[٧] ن: قوله.
[٨] ر م: ولا تفرح.
[٩] جميع النسخ – أي. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٠و.
[١٠] ن: قوله.
[١١] م: وابتغ فيما آتاك الله.
[١٢] م: أي تنس.
[١٣] ر ث م – نصيبك.
[١٤] ر م: لأخريك؛ ث: لأخراك.

قال[1] الحسن في قوله: **ولا تَنسَ نصيبك من الدنيا**، إلى آخره، قال: أمر أن يأخذ من ماله قدر عَيشه ويقدِّم ما سوى ذلك لآخرته.[2] وكذلك قال في قوله: **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة**، أي قدِّم الفضل وأَمسِك ما يبلغك.[3] **وأحسن كما أحسن الله إليك**، قال: يكفيك ما أحلّ الله لك من الدنيا فإن فيه غَناءً وكِفاية.

وأصله ما روي عن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لك من الدنيا ما أكلت ولَبِست وأفنيت وما قَدَّمْتَ».[4] جعل الْمُقَدَّم من الدنيا له، وأما ما خَلْفَه فهو لغيره. وهكذا إن الدنيا لم تُخلَق[5] لِتبقَى لأهلها أو يبقى أهلها فيها، ولكن إنما خلقت لتَفنَىَ هي أو يفنى أهلها، وخلقت الآخرة للبقاء. فنصيبه من الدنيا ما قدّم وأنفق في طاعة الله وفي سبيله ليس ما خلّفه في هذه الدنيا.

وقوله:[6] **وأحسِنْ كما أحسَنَ الله إليك**، يحتمل قوله: **أحسن**، إلى نفسك في العمل للآخرة، / **كما أحسن الله إليك**. أو **أحسن**،[7] إلى الخلق، **كما أحسن الله إليك**. [٥٧١ر]

وقوله:[8] **ولا تبغ الفساد في الأرض**، هذا يدلّ أنه كان ينفق ماله إلا أنه كان ينفق في الصدّ عن سبيل الله حيث قال: **ولا تَبْغِ الفساد في الأرض**، ولو كان في ترك الإنفاق لم يكن في ذلك بَغْي الفساد في الأرض.

ثم الواجب على مَن حضر الملوك وشهِد مجالسهم من أهل العلم أن يخوِّفوا الملوك ويُوعِدوهم[9] بما أوعد قومُ موسى قارونَ وخوَّفوه، و[أن] يأمروهم بالصلاح في أنفسهم وفي رعيّتهم كما أمَر أولئك قارونَ ويَنهَوهم كما نهاه أولئك. فإن أجابوهم [فنِعْمَ] وإلا امتنعوا عنهم وكَفُّوا أنفسهم عن الاختلاف إليهم، فإن لم يفعلوا فهم شركاؤهم في جميع ما يفعلون. ***والله أعلم***.

---

[1] ن: وقال.

[2] *تفسير عبد الرزاق*، ٢/٤٩٨؛ و*تفسير ابن أبي حاتم*، ٩/٣٠١١.

[3] *تفسير الطبري*، ١٨/٣٢٤؛ و*تفسير ابن أبي حاتم*، ٩/٣٠١١.

[4] عن مطرف عن أبيه قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي. (قال:) وهل لك يا ابنَ آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لَبِست فأبلَيت أو تصدقت فأمضيت؟» (*صحيح مسلم*، الرقاق، ٣؛ و*سنن النسائي*، الوصايا ١).

[5] جميع النسخ + للدنيا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٠و.

[6] ن: قوله.

[7] ر م: وأحسن.

[8] ن: قوله.

[9] جميع النسخ: ويواعدوهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٧٨]

وقوله:[١] **قال إنما أُوتِيته على علم عندي**، اختلف فيه. قال بعضهم: إن قارون كان أقرأَ الناس بالتوراة وأعلمَهم بها، وسُمِّي قارون لذلك. وذكر أنه سُمِّي المُنَوَّر لِحُسن صوته بالتوراة.[٢] ***والله أعلم***. وقال بعضهم: قوله: **إنما أُوتِيته على علم عندي**، وهو الكِيمِياء. ذُكِر أنه كان[٣] يعالج صَنعة الذهب ويُحسنها. وقال بعضهم: **إنما أُوتيته على علم عندي**، أي على خير عندي. قال ذلك على إثر قول أولئك: وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، إلى قوله تعالى: وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.[٤] كأنهم أوعدوه بذهاب[٥] ذلك عنه وهلاكه فقال -والله أعلم-: **إنما أوتيته**[٦] **على علم عندي**،[٧] لم أُوتَ جُزافًا بلا سبب. وكأنه -والله أعلم- نسِي الآخرة بما أُوتِي من المال والكنوز وترَك الإنفاق في الخير. وكان ينفق [ماله] في صدّ الناس عن سبيل الله، ولذلك قال: وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إلا أنه كان عارفًا بالله حيث قالوا له: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وقالوا له: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، دلّ هذا منهم أنه كان عارفًا بالله تعالى.

وقوله:[٨] **أولم يعلم أن الله قد أهلك مِن قبله مِن القرون مَن هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعًا**، ذكر هذا -والله أعلم- لما أنه كان يفتخر ويستكبر على الناس بما أوتي من الأموال والكنوز والأتباع، ويحسب أنه يدفع العذاب الموعود في هذه الدنيا بذلك عن نفسه. أو يظنّ أنه لِما أُوتي ذلك لا يعذَّب كظنّ أولئك الكفرة حيث قالوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.[٩] فجائز أن كان من قارونَ من الإعجاب بالكثرة والجمع ما ذكر بأولئك فقال عند ذلك: **أولم يعلم أن الله قد أهلك مِن قبله مِن القرون مَن هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعًا**، ثم لم يتهيأ لهم دفْع ما نزل بهم من العذاب، فعلى ذلك أنت يا قارون. ***والله أعلم***.

---

[١] ن: قوله.
[٢] جميع النسخ + وقال بعضهم سمي منورا لذلك. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٣و.
[٣] ر م - كان.
[٤] الآية السابقة.
[٥] ث + ماله.
[٦] ن ث + ذلك.
[٧] ر م + أي.
[٨] ن: قوله.
[٩] ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣٥).

وقوله:[1] **ولا يُسْأَلُ عن ذنوبهمُ المجرمون**، اختلف فيه. قال بعضهم: لا يسألون[2] عن ذنوبهم لما يعرفون بسيماهم،[3] كقوله: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ.[4] وقال بعضهم: لا يسأل هذه الأمّة عن صنيع مجرمِي الأممِ الخالية. وجائز أنهم لا يسألون[5] عن ذنوبهم لأنهم لا يرون ما[6] يعملون من الأعمال ذنوبًا، ولكن إنما يسألون عن الدليل الذي به لا يَرون تلك الأعمال ذَنْبًا. *والله أعلم*.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٧٩]

وقوله: **فخرج على قومه في زينته**، قال عامة أهل التأويل: إنه خرج على بِغالٍ شُهُب ومعه كذا كذا من الجواري على كذا كذا بِغال شُهُب عليهنّ من الثياب كذا. وقال بعضهم: إنه خرج على بَراذِين[7] كذا بِيضٍ مع كذا كذا غِلمانٍ وجَوارٍ،[8] ونحو ما ذكروا. لكنّا لا ندري على أيّ زينة خرج ولكنّا نعلم أنه خرج على الزينة التي يخرج أمثالُه من الملوك ولا نفسّر أنه كذا على كذا. وكذلك لا نفسّر العِلْم الذي ذُكر أنه أُوتي -على[9] ما أوتي[10] له من المال والكنز- أنه كان عنده كذا من العلم، والله أعلم بذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[٨٠]

وقوله:[11] **وقال الذين أوتوا العلم**، أي أوتوا منافع العلم، إذ[12] قد يؤتى العلمَ رُبَمَا ولا يؤتى مِن الانتفاع له به ما أوتي هؤلاء حيث قالوا لأولئك: **ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا**.

---

[1] ن: قوله.
[2] ر م: لا يسأل.
[3] جميع النسخ – لما يعرفون بسيماهم. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨١و.
[4] سورة الرحمن، ٥٥/٤١.
[5] ر ث م: أن لا يسأل؛ ن: أن يسألوا. والتصحيح من المرجع السابق.
[6] جميع النسخ: مما يعملون. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨١و.
[7] البِرْذَوْنُ: الدابة، وجمعه: بَراذِينُ. والبراذين من الخيل: ما كان من غير نِتاج العِراب (*لسان العرب*، «برذن»).
[8] ر م: وجواري.
[9] جميع النسخ – على. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨١و.
[10] ر م – ما أوتي.
[11] ن: قوله.
[12] ر م: أن.

لم يكن من أولئك إلا التمنّي أن يُؤتَوْا مثل ما أوتي قارونُ، ثم نهاهم الذين أوتوا منافع العلم والانتفاعَ به عن ذلك التمنّي، فدل ذلك أن التمنّي[١] لا يَسَع فيما لا يسع الاشتغال به والطلب حيث قالوا لهم: **ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون.** اختلف في قوله: **ولا يُلَقَّاها**، كيف ذكره بالتأنيث وإنما تقدّم له ذكر "ثواب"، فألّا قال: ولا يُلَقَّاه،[٢] لكن اختلف فيه. قال بعضهم: **ولا يُلَقَّاها**، كناية عن تلك المقالة التي كانت من أولئك الذين أوتوا العلم لأولئك الذين يريدون الحياة الدنيا، أي لا يُلَقَّى[٣] تلك المقالة التي قالوها لأولئك إلا الصابرون. وقال بعضهم: لا، ولكن ذلك كناية عن الأعمال، أي ولا يُلَقَّى[٤] تلك الأعمالَ ولا يُوفَّق إلا الصابرون. وقال قائلون: لا، ولكن: **[ولا] يُلَقَّاها**، كناية عن الدار الآخرة، يقول: وما يُلَقَّى تلك الدارَ إلا الصابرون.[٥] قال أبو عَوْسَجَة والقُتَبي: **ولا يُلَقَّاها**، أي لا يُوفَّق [لها]، ويقال: لا يُرزَق[ها].[٦] و**الصابرون**،[٧] يحتمل المؤمنين أنفسهم،[٨] كقوله تعالى: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ،[٩] / وقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،[١٠] أي آمنوا. ويحتمل **الصابرون**، الذين صبروا أنفسهم وحبسوها على أداء ما افترض الله عليهم ولم يؤتُوا أنفسهم شهوتها[١١] وهواها. ***والله أعلم.*** [٥٧١ظ]

ثم كان في قوم موسى خصالٌ ثلاثٌ[١٢] لم تكن تلك ولا مثلُها في غيره من الأمم. أحدها ما ذَكَر من صَلابة الذين[١٣] أوتوا العلم ويقينهم وطُمَأْنِينَتِهم فيما وُعدوا في الآخرة من الثواب وصبرهم على أداء ما افترض الله عليهم وحبْسهم أنفسَهم عن مُناهم وشهواتهم،

---

[١] م - فدل ذلك أن التمني.
[٢] جميع النسخ: وما يلقاه.
[٣] ن ث: ما يلقى.
[٤] ن ث: وما يلقى.
[٥] ر م - وقال قائلون لا ولكن ولا يلقاها كناية عن الدار الآخرة يقول وما يلقى تلك الدار إلا الصابرون.
[٦] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٦. والزيادتان من المصدر المذكور.
[٧] ر م: الصابرون.
[٨] جميع النسخ: نفسه. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٣و.
[٩] سورة إبراهيم، ١٤/٥.
[١٠] سورة هود، ١١/١١.
[١١] جميع النسخ: شهواتهم. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨١ظ.
[١٢] ن ث: ثلاثة.
[١٣] ر ث م - الذين.

ولصلابتهم وقوتهم في الدين ما وَعظوا قارون حيث قالوا له: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، إلى قوله: إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ،[1] -وهو كان ملِكًا يومئذ- ولما قالوا لأولئك الذين يريدون الحياة الدنيا: **وَيْلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا.**

والثاني ما ذكر سحرةُ فرعون حين أوعدهم بالقطع والصلب والقتل بإيمانهم الذين آمنوا فقَالُوا: لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ،[2] وقالوا: فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ،[3] وأمثال ذلك مما لم يُبالوا حلول ما أوعدهم وخوّفهم من أنواع العذاب.

والثالث ما ذكر من الذي كان يكتم إيمانه حيث قال: وَقَالَ[4] رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ،[5] وإنما أظهر ذلك حين[6] قال فِرعون: ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ،[7] كأنه همَّ أن يقتله. ألا ترى أن ذلك الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه قال لهم: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ [وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ].[8] لم يُبَالِ هلاكَ نفسه بإظهاره الإيمان بعد أن أعان نبيّ الله موسى ونفع له بما قال واستقبل فرعونَ وقومه بما استقبل.

فهذه خِصال لم تذكر عن قوم قطُّ[9] سوى قوم موسى مثلُها. ولذلك وصفهم ونعتهم بفضل الهداية والعدالة، وهو ما قال عز وجل: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.[10] وهكذا الواجب على كل مؤمن إذا أريد منه أخذ الإيمان أو خاف على دينه أن يُذهَب به أو أن يُدخلَ فيه النقصان أن لا يَبْذُلَ[11] ذلك وإن خاف على نفسه تلَفَها وهلاكَها وتعذيبها بأشدِّ ما يكون من العذاب. ألا يرى أن الله مدح أصحاب الأخدود بما احتملوا أشد العذاب

---

[1] الآية ٧٧ من هذه السورة.

[2] سورة الشعراء، ٢٦/٥٠؛ وانظر أيضا: سورة الأعراف، ٧/١٢٥.

[3] ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فَطَرنا فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياةَ الدنيا﴾ (سورة طه، ٢٠/٧٢).

[4] ث - وقال.

[5] سورة المؤمن، ٤٠/٢٨.

[6] ر م: حيوة.

[7] سورة المؤمن، ٤٠/٢٦.

[8] سبقت قريبا.

[9] جميع النسخ + من. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٢و.

[10] سورة الأعراف، ٧/١٥٩.

[11] ر م: يبذل.

وأسوأ القتل ولم يتركوا الإيمان ولم يُعطُوا أولئك الكفرة ما أرادوا منهم.[١] فهكذا الاختيار على كلّ مسلم أن يختار ما اختار أولئك. وهكذا الواجب على كل من يأتي الأمراءَ والسلاطين ويحضر مجالسهم من العلماء أن يعظوهم ويأمروهم بكل ما يؤتَى وينهَوهم عن كل محظور حرام، ويدلُّوهم على كلّ خير وكلِّ ما هو طاعةٌ لله كما[٢] فعل قوم موسى[٣] بقارون، وإلا لم يحضروا مجالسهم ولا أتَوهم طائعين، فإن فعلوا فإنهم يكونون شركاءهم.

وذكر عن بعض السلف أنه قال في عيسى وقارون عبرةً لمن اعتبر: إن عيسى صلوات الله عليه زهِد في الدنيا زُهدًا حتى لم يتخذ لنفسه مسكنًا يسكن ولا مَقرًّا يقرُّ فيه ولا اتَّخذ لنفسه ما يتعيّش به ولا اشتغل بشيء منها، فرفعه الله إلى السماء فجعل عَيشه ومَقرّه فيها في كرامة الله وجواره. وقارون كان يَرْغَب في هذه الدنيا رغبة وجَهدَ في طلبها طاقتَه[٤] ووُسْعه وركَن إليها رُكونًا حتى خسَفه الله في الأرض وأدخله فيها مع كنوزه وأتْباعه فيكون فيها إلى يوم القيامة. ففي ذلك عبرة وآية لكلّ راغب وزاهد؛ فيَرْغَب الزاهد في الزهد فيها وينزجر الراغب عن الرغبة فيها. *والله أعلم*.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [٨١]

وقوله: **فخسفنا به وبداره الأرض**، بالبغي الذي بغَى عليهم، أعني على موسى وأصحابه. وقوله:[٥] **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله**، كأنه كان يفتخر بالمال والحواشي ويتقوّى بذلك في دفع عذاب الله ونقمته، لذلك قال: **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله**، أي لم يُغنِ في دفع عذاب الله عنه أتباعُه وحواشيه. وهو كظنّ أولئك [الذين قالوا]: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ،[٦] وكان ظنّهم ذلك وقولهم إنما كان بوجهين.

---

[١] يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُتل أصحاب الأُخدُود، النارِ ذاتِ الوَقود، إذ هم عليها قُعُود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهُود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (سورة البروج، ٨٥/٤-٨).

[٢] ث: على ما.

[٣] ر ث م: قارون؛ ن: فرعون. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٣ظ.

[٤] ث + وجهده.

[٥] ن: قوله.

[٦] ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣٥).

أحدهما[١] أنهم ظنّوا أن أموالهم وأتباعهم تدفع عنهم عذاب الله ونقمته كما تدفع نقمة بعضهم من بعض فيما بينهم، كقول ذلك الرجل: سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ.[٢] والثاني ظنّوا أنهم إنما أُعْطُوا هذه الأموال والأتْباعَ في هذه الدنيا لكرامةٍ لهم عند الله فلا يعذَّبون أبدًا. *والله أعلم.*

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[٨٢]

وقوله:[٣] **وأصبح الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس**، كانوا تَمَنَّوا أن يُعْطَوْا مثل ما أُعطي قارونُ، **يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر**[٤] ... **ويكأنه لا يفلح الكافرون**. قال بعض أهل الأدب: "وَيْ" صلة، وإنما هو "كأنّ" و"كأنه". وقال مقاتل: **ويكأنه**، أي ولكنه:[٥] ولكن الله يبسط الرزق لمن يشاء، ولكنه لا يفلح الكافرون. وقال بعضهم: قوله: **ويكأن الله**، أي اعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء، واعلموا أنه لا يفلح الكافرون.[٦] وقال بعضهم: ألم تر أن الله يبسط الرزق وألم تر / أنه لا يفلح كذا؟[٧] وقال [٥٧٢و] الزجاج: "وَيْ" مقطوعة من "كأن"[٨] وهو حرف يُفتتح به للتَّندّم،[٩] ثم ابتدأ بقوله: **كأنه لا يفلح الكافرون.**

---

[١] جميع النسخ – أحدهما. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٢ظ.

[٢] ﴿ونادى نوح ابنه وكان في مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ (سورة هود، ٤٢/١١-٤٣).

[٣] ن: قوله.

[٤] م + له.

[٥] *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٥٠٧/٢.

[٦] جميع النسخ: وقال مقاتل ويكأنه أي لكنه ويكأن قال بعضهم قوله ويكأن الله أي اعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء واعلموا أنه لا يفلح الكافرون لكن الله يبسط الرزق لمن يشاء ولكنه لا يفلح الكافرون. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٢ظ.

[٧] ن ث + وقال أبو عوسجة ويكأن ويك مثل قولك ويلك وويحك طرحت منه الألف والنون. وفي *الشرح*: وقال أبو عوسجة: أصل ويكأن ويك مثل قولك ويلك وويحك والألف والنون زائدتان، انظر: ورقة ٥٧٣ظ.

[٨] ن ث: كأنه.

[٩] جميع النسخ: التندم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٣ظ. *معاني القرآن* للزجاج، ١٥٦/٤-١٥٧.

ثم في الآية دلالة نقض قولِ المعتزلة في وجوب الأصلح على الله، لأنهم ذكروا منة الله في منْعه إياهم ما تمنوا بالأمس مما أوتي قارون. فلو كان ما أُعطِي قارون أصلحَ له في دينه لم يكن في منْعه عن هؤلاء[1] منة، دل أن ما أُعطِي قارون لم يكن أصلحَ له، بل المنع أصلح له،[2] وأنْ ليس على الله حفْظ الأصلح للعباد في الدين.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٨٣]

وقوله: **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين.** في ظاهرها أنّ كل مَن لا يريد العلوّ في هذه الدنيا ولا الفساد فيها يكون من أهل تلك الدار. وكذلك ما ذَكَر من دار الآخرة، وجهنّم هي من دار الآخرة أيضًا. لكن الآية تخرج على وجهين. أحدهما كأنها نزلت في رؤساء الكفرة وفراعِينهم هم الذين كانوا يريدون العلوّ في هذه الدنيا بالتكبّر والتجبّر على الرسل والفساد فيها في صرف الناس عن دين الله واتّباع الرسل فقال -والله أعلم-: **تلك الدار الآخرة**، أي الجنة ليست لهؤلاء ولكن لمن تواضع للرسل ودعا الناس إلى دين الله واتّباع الرسل.

والثاني تكون[3] الآية في الذين كانوا يعملون بالخيرات والطاعات منهم من[4] نحو صلة الأرحام والصدقة على الفقراء والإنفاق في ذلك. فأخبر أنهم وإن كانوا يعملون بتلك الأعمال فإنما يعملون للدنيا والعلوّ فيها، لا للآخرة. فتلك الدار الآخرة ليست لهم إنما هي للذين يعملون ويريدون بها الدار الآخرة.

وقوله: **تلك الدار الآخرة**، كأنه يقول: تلك الدار التي دُعُوا إليها ليست لمن ذَكَر، وهي الدار التي قال الله: وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ.[5] فالدار الآخرة هي تلك[6] الدار التي دُعُوا إليها وهي الجنة. الدار الآخرة على الإطلاق [هي] الجنة،[7] كالكتاب المطلق [هو] كتاب الله، والدين المطلق دين الله ونحوه. وقوله: **والعاقبة للمتقين**، أي **تلك الدار الآخرة** للمتقين.

---

[1] ن + منهم، مشطوب عليه.
[2] م: له أصلح.
[3] جميع النسخ: يكون.
[4] ر ث م: في.
[5] سورة يونس، ٢٥/١٠.
[6] ر ث م - تلك.
[7] ر ث م: كالجنة.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٨٤]

وقوله:[١] **من جاء بالحسنة فله خير منها**، هذا[٢] يخرج على وجوه. أحدها ما قاله[٣] أهل التأويل: على التقديم والتأخير، أي فله منها خير. ومعناه أن ما يكون له في الآخرة من الخير إنما يكون بتلك الحسنة التي جاء بها في الدنيا وهي التوحيد. والثاني قوله: **فله خير منها**، أي ما أُعطُوا في الآخرة من الخير والثواب خير مما يُعْطَوْن في الدنيا بصبرهم وحبسهم أنفسهم عن شهواتها وأمانيّها. والثالث **فله خير منها**، أي ثواب الله وما أُكرِموا به خير مما عملوا في الدنيا. والرابع أن توفيقه إياهم وإرشاده خير مما عملوا. أو أن يكون ذكر الله وحمده خير[٤] مما ذُكر، كقوله: وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ.[٥]

وقوله:[٦] **ومن جاء بالسيِّئة**، قالوا جميعًا: السيئة هي الشرك، **فلا يُجْزَى**، إلا مثلَها لكن مثلها هو التخليد في النار أبدًا. وقوله في آية أخرى:[٧] وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ،[٨] فيما يُجزَوْن بها بل [هم] ظلموا أنفسهم.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٨٥]

وقوله:[٩] **إن الذي فرض عليك القرآن لرَادُّكَ إلى مَعاد**، اختلف في قوله: **فرض عليك القرآن**. قال بعضهم: **فرض**، أي نزل عليك، وقال بعضهم: فرض عليك العمل بالقرآن، وقال بعضهم: فرض عليك[١٠] تبليغ ما أَنزل عليك من[١١] القرآن والرسالة إلى الناس. واختلف أيضًا في قوله: **لرادُّك إلى مَعاد**. قال بعضهم: إلى مكّة، وقال بعضهم: المعاد هو البعث والساعة،

---

[١] ن: قوله.
[٢] ر م – هذا.
[٣] ر ث م: ما قال.
[٤] ن: خيرا.
[٥] سورة العنكبوت، ٢٩/٤٥.
[٦] ن: قوله.
[٧] جميع النسخ – وقوله في آية أخرى. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٣ظ.
[٨] ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٦٠).
[٩] ن: قوله.
[١٠] ر ث م – عليك.
[١١] ر م – من.

وقال بعضهم: المعاد الجنة، ويقال: الموت، وكله [يرجع إلى معنى][1] البعث. والمعاد هو البعث في الظاهر. وجائز أن تُسمَّى[2] مكة معادًا لِما يعود الناس إليها مرّة بعد مرّة،[3] كما تسمّى "مثابةً"[4] لِما يثوب الناس إليها مرّة بعد مرّة. لكن من يقول بأن المعاد هو مكّة يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم لَمّا أُمِر بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليها اشتاق إلى بلده ومولِده ومولد آبائه فنزل جبريل عليه بهذه[5] الآية بِشارةً بالعَوْد[6] إليها ظاهرًا عليهم قاهرًا فاتحًا له مكّة. هذا تأويل من يقول بأن المعاد هو مكة.[7]

وجائز أن يكون على غير هذا، وهو يخرج على وجهين. أحدهما كأنه حزِن على الفراق منهم إشفاقًا على هلاكهم لإخراجهم الرسول من بين أظهُرهم. لأن الأمم السالفة إذا خرج من بينهم الرسلُ نزل بهم العذاب، فخاف أنهم لَمّا أخرجوه من بين أظهرهم وأبَوا إجابته[8] أن يُهلَكوا ويعذَّبوا، كقوله: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ،[9] وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ.[10] فبشر بهذا أن [س]تُرَدّ إليها وستعود إليهم فيتبعونك ويؤمنون بك، وهم[11] لا يُهلَكون إهلاك استئصال وتعذيب كسائر الأمم.

والثاني يَذكر على الامتنان عليه، يقول: إن الذي أنزل عليك القرآن وألقاه عليك بعد ما لم تكن[12] ترجو إلقاءَه[13] عليك وإنزالَه ولكن برحمته ومنّه ألقاه إليك وأنزله عليك حيث قال: وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ،[14] فعلى ذلك يردّك إلى مكّة بعد ما لم تكن ترجو ردّك وعَودك إليها.

---

[1] الزيادة مستفادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٤و.
[2] جميع النسخ: أن يسمي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٤و.
[3] ر ث م – بعد مرة.
[4] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ (سورة البقرة، ١٢٥/٢).
[5] ن: جبريل عليه السلام هذه.
[6] ر بشارة في العود؛ ن ث: بشارة له في العود.
[7] *تفسير الطبري*، ٣٤٩/١٨–٣٥١.
[8] ر: وأبواجابته.
[9] سورة الشعراء، ٣/٢٦.
[10] سورة فاطر، ٨/٣٥.
[11] ن – وهم.
[12] ث – لم تكن.
[13] ث: لقاءه.
[14] الآية التالية.

[٥٧٢ظ] / وإن كان المعاد هو البعثَ فهو يخرج أيضًا على وجهين. أحدهما على البشارة، كأنه يقول: إن الذي فرض عليك القرآن يردّك ويبعثك بمن كذّبك وبمن صدّقك فينتقم من مكذبيك جزاء التكذيب ويَجزي من يصدّقك جزاء التصديق.

والثاني يذكّره ويخاطبه وإنما يريد به قومه، أي سيبعثون وسيعودون إليها فيكون كالآيات التي يخاطب بها رسوله والمراد بها قومه، فهو يخرج على الوعيد لهم. ألا ترى أنه قال: **ربّي أعلم بمن جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين**، أي ربّي أعلم بمن جاء بالهدى فيجزيه جزاء الهدى ومن هو في ضلال مبين فيجزيه جزاء ضلاله.[1] ويخرج ذكر هذا عند ادعاء[2] أولئك الكفرة أنهم على الحق والهدى وأن آباءهم كانوا على الحق والهدى وأنتم على ضلال فيقول: **ربي أعلم بمن جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين**، نحن أو أنتم؟ فهو على التحاكم إلى الله أن يحكم بينهم فيجزي كلًّا بما جاء به. ***والله أعلم.***

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾[٨٦] **﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**[٨٧] **﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[٨٨]

وقوله: **وما كنت ترجو أن يُلقَى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك**، فهو يخرج على وجهين. أحدهما **وما كنت ترجو**،[3] وإن كنت مطيعًا، أي خاضعًا، **أن يُلقَى إليك الكتاب**، وينزَّل عليك وتصيرَ رسولًا، أي لم تكن تطمع ذلك ولكن الله بفضله ورحمته جعلك رسولًا نبيًّا.

والثاني ما كنت ترجو أن تكون في قومك وقبيلتك رسالةٌ فضلًا من[4] أن ترجو وتطمع في نفسك. لأنهم ليسوا من بني إسرائيل ولا من أهل الكتاب، والرسالة من قبلُ كانت لا تكون إلا في بني إسرائيل ولكن الله جعل الرسالة في العرب في نفسك برحمته وفضله. ***والله أعلم.***

---

[1] ن: ضلالة.

[2] ن: دعاء.

[3] ر ث م: ترجوا.

[4] جميع النسخ – من. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٤و.

وقوله:[١] **فلا تكونَنّ ظهيرًا للكافرين**، هذا يخرج على وجوه. أحدها على النهي، أي لا تكن ظهيرًا، وإن كان لا يكون للعصمة[٢] التي عصمه الله، لأن العصمة لا تمنع النهي والأمر، بل منفعة العصمة إنما تكون عند النهي والأمر.

والثاني على الأمن له [في عصمته] والإياس أن يكون ظهيرا لهم، كأنه يخاف لعلّه أن يكون ظهيرًا لهم في وقت من الأوقات فأمّنه الله من ذلك[٣] فقال: لا تخف فإنك لا تكون ظهيرًا لهم. وهو ما ذكرنا في قوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ،[٤] وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ،[٥] على رفع الحزن والحسرة بتركهم الإيمان، فعلى ذلك الأول.

والثالث أن الخطاب -وإن كان له في الظاهر- فالمراد منه غيره، على ما ذكرنا في غير آي من القرآن أنه خاطب به رسوله والمراد به غيره. وكذلك هذا[٦] في قوله: **ولا يصدُّنّك عن آيات الله بعد إذ أُنزِلت إليك وادْعُ إلى ربك ولا تكونَنّ من المشركين**، في هذا ما في الأول من الوجوه التي ذكرنا.

وكذلك هذا في قوله: **ولا تدْع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو.**

وقوله: **كلّ شيء هالك إلا وجهَه**، قال بعضهم: قوله: **كلّ شيء**، يرجى منفعته وشفاعته من دون الله باطل إلا ما ابتُغِي به وجه الله[٧] وعُمِل له. وقال بعضهم: **كلّ شيء هالك**، وزائل، **إلا هو**، فإنه حيّ لا يموت دائم لا يزول.[٨] وقال بعضهم: كلّ أمر وجهة يُتَوجّه إليها ويعمل به هالك إلا الجهة والوجهة الذي أمَر هو بالتوجيه إليه والعمل به. وهو قريب من الأول.[٩]

والله أعلم.[١٠]

---

[١] ن: قوله.

[٢] ر ن م: العصمة.

[٣] جميع النسخ: عن ذلك.

[٤] سورة النحل، ١٢٧/١٦.

[٥] سورة فاطر، ٨/٣٥.

[٦] جميع النسخ: بهذا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٤ظ.

[٧] جميع النسخ - به وجه الله؛ + منه. والتصحيح من المرجع السابق.

[٨] ث - دائم لا يزول.

[٩] جميع النسخ: بالأول. والتصحيح من المرجع السابق.

[١٠] ر + بالصواب وإليه المرجع والمآب؛ م - والله أعلم.

سورة القصص

مكية كلها إلا قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] وقيل: إلا آية وهي ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القصص: ٨٥] الآية وهي سبع أو ثمان وثمانون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها و ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو إما اللوح وإما الكتاب الذي وعد الله إنزاله على محمد ﷺ فبيَّن أن آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين؛ لأنه بيَّن فيه الحلال والحرام، أو لأنه بيَّن بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد، أو لأنه يبيِّن صدق نبوة محمد ﷺ أو لأنه يبيِّن خبر الأولين والآخرين، أو لأنه يبيِّن كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال.

أما قوله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ أي على لسان جبريل عليه السلام؛ لأنه كان يتلو على محمد حتى يحفظه، وقوله: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ فهو مفعول ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ أي نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضًا لكنه خص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، والثاني: يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح في تلاوته هو إيمانهم وتكون إرادته لمن لا يؤمن كالتبع. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرئ (فرعون) بضم الفاء وكسرها، والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس ﴿عَلَا﴾ استكبر وتجبر وتعظم وبغى، والمراد به قوة الملك والعلو في الأرض يعني أرض مملكته، ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي فرقًا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم

مخالفته أو يشيع بعضهم بعضًا في استخدامه أو أصنافًا في استخدامه أو فرقًا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة؛ ليكونوا له أطوع أو المراد ما فسره بقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي يستخدمهم ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ فهذا هو المراد بالشيع. قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ تلك الطائفة بنو إسرائيل، وفي سبب ذبح الأبناء وجوه: أحدها: أن كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده، فولد تلك الليلة اثنا عشر غلامًا فقتلهم، وعند أكثر المفسرين بقي هذا العذاب في بني إسرائيل سنين كثيرة، قال وهب: قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفًا من بني إسرائيل. قال بعضهم: في هذا دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وإن كذب فما وجه القتل؟ وهذا السؤال قد يذكر في تزييف علم الأحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف: إن كان زيد في علم الله وفي قضائه من السعداء فلا حاجة إلى الطاعة، وإن كان من الأشقياء فلا فائدة في الطاعة، وأيضًا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته، وأيضًا فجواب المنجم: أن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لصار كذا وكذا، وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثًا.

واعلم أن هذا الوجه ضعيف؛ لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل، ولو جوزناه لبطلت دلالة الأخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو بإجماع المسلمين باطل. وثانيها: وهو قول السدي: أن فرعون رأى في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور. وثالثها: أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل، وهذا الوجه هو الأولى بالقبول، قال صاحب (الكشاف): ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ حال من الضمير في ﴿وَجَعَلَ﴾ أو صفة لشيعًا، أو كلام مستأنف و﴿يُذَبِّحُ﴾ بدل من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يدل على أن ذلك القتل ما حصل منه إلا الفساد، وأنه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى.

أما قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ فهو جملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصًا له، واللفظ في قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالاً من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم، فإن قيل: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى المن عليهم وإذا أراد الله شيئًا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ قلنا: لما كان منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم.

أما قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي متقدمين في الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة إلى الخير وعن قتادة ولاة كقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يعني لملك فرعون

وأرضه وما في يده.

أما قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه يقال: مكن له إذا جعل له مكانًا يقعد عليه (أو يرقد) فوطأه ومهده، ونظيره أرَّض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ قرئ (وَيَرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا) أي: يرون منهم ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ [القصص: ٥] ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧، ٣٨] وقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ كالدلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قال ابن جريج: إنه بعد أربعة أشهر صاح فألقي في اليم والمراد باليم هاهنا النيل ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله في المستقبل، والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل في الماضي، فكأنه قيل: ولا تخافي من هلاكه ولا تحزني بسبب فراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ لتكوني أنت المرضعة له ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى أهل مصر والشام وقصة الإلقاء في اليم قد تقدمت في سورة طه. وقال ابن عباس: إن أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لأم موسى عليه السلام فلما أحست بالطلق أرسلت إليها وقالت لها: قد نزل بي ما نزل ولينفعني اليوم حبك إياي فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام إلى الأرض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت: يا هذه، ما جئتك إلا لقتل مولودك، ولكني وجدت لابنك هذا حبًّا شديدًا فاحتفظي بابنك، فإنه أراه عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته: يا أماه، هذا الحرس فلفته ووضعته في تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع، فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا: لم دخلت

القابلة عليك؟ قالت: إنها حبيبة لي دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى: أين الصبي؟ قالت: لا أدري فسمعت بكاء في التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا فأخذته، ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في قلبها أن تتخذ له تابوتًا ثم تقذف التابوت في النيل، فذهبت إلى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتًا فقال لها: ما تصنعين به؟ فقالت: ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه وما عرفت أنه يفشي ذلك الخبر، فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده، فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله نطقه، فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه، فجعل لله تعالى أنه إن رد عليه بصره ولسانه فإنه لا يد لهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته في النيل، وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة في أمرها، فقالوا: أيها الملك، لا تبرأ هذه إلا من قبل البحر يوجد منه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس، فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطىء إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأمواج وتعلق بشجرة، فقال فرعون: ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فنظرت آسية فرأت نورًا في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته، فإذا هي بصبي صغير في المهد وإذا نور بين عينيه فألقى الله محبته في قلوب القوم، وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون: إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر فرقًا فهمَّ فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله.

أما قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فالالتقاط إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون جواريه.

أما قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فالمشهور أن هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا: وإلا نقض قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ ونقض قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩] ونظير هذه اللام قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله الشاعر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ(١)

---

(١) هذا البيت للشاعر أبي العتاهية وتقدمت ترجمته والبيت هكذا

لدوا للموت وابنوا للخراب   فكلكم يصير إلى ذهاب

واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب (الكشاف) وهو أن هذه اللام هي لام التعليل على سبيل المجاز، وذلك لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه، كإطلاق لفظ الأسد على الشجاع والبليد على الحمار، قرأ حمزة والكسائي (حُزْنًا) بضم الحاء وسكون الزاي والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السُّقْم والسَّقَم.

أما قوله: ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: قال الحسن معنى ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب بملكهم، وأما جمهور المفسرين فقالوا: معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم، وقرىء (خَاطِينَ) تخفيف خاطئين أي خاطين الصواب إلى الخطأ وبيَّن تعالى أنها التقطته؛ ليكون قرة عين لها وله جميعًا، قال ابن إسحق إن الله تعالى ألقى محبته في قلبها؛ لأنه كان في وجهه ملاحة كل من رآه أحبه، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور، ولأنها لما فتحت التابوت رأته يمتص إصبعه، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال: ما كان لها ولد فأحبته، قال ابن عباس: لما قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فقال فرعون: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لي فيه، فقال عليه السلام: «**والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها**» قال صاحب (الكشاف): ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خبرًا ولو نصب لكان أقوى، وقراءة ابن مسعود دليل على أنه خبر، قرأ (لا تقتلوه قرة عَيْنٍ لِي وَلَكَ)، وذلك لتقديم لا تقتلوه، ثم قالت المرأة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيب منه خيرًا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ لأنه أهل للتبني.

أما قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأكثر المفسرين على أنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لا يشعرون أن هلاكهم بسببه وعلى يده، وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل، وقال ابن عباس: يريد لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام. وقال آخرون: هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعر بنو إسرائيل وأهل مصر أن التقطناه، وهذا قول الكلبي.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

ذكروا في قوله: ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ وجوهًا: أحدها: قال الحسن: فارغًا من كل هم إلا من هم موسى عليه السلام. وثانيها: قال أبو مسلم: فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق كقوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، وثالثها: قال صاحب (الكشاف): فارغًا صفرًا من العقل، والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف.

ورابعها: قال الحسن ومحمد بن إسحق: فارغًا من الوحي الذي أوحينا إليها أن ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك فجاءها الشيطان فقال لها: كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت إهلاكه، ولما أتاها خبر موسى عليه السلام أنه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها. وخامسها: قال أبو عبيدة: فارغًا من الحزن؛ لعلمها بأنه لا يقتل اعتمادًا على تكفل الله بمصلحته. قال ابن قتيبة: وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغًا من الحزن والله تعالى يقول: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وهل يربط إلا على قلب الجازع المحزون، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع أنها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند إظهار اسمه، وأيقنت أنها وإن أظهرت فإنه يسلم لأجل ذلك الوعد إلا أنه كان في المعلوم أن الإظهار يضر فربط الله على قلبها، ويحتمل قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالوحي فأمنت وزال عن قلبها الحزن، فعلى هذا الوجه يصح أن يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلاً، وفيه وجه ثالث: وهو أنها سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته إن كادت لتبدي به بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحًا بما سمعت، لولا أن سكن ما بها من شدة الفرح والابتهاج ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواثقين بوعد الله تعالى لا يتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها، وقرئ (فَرِغًا) أي خاليًا من قولهم أعوذ بالله من صفر الإناء وفرغ الفناء وفرغًا من قولهم:

دِمَـــاؤُهُـــمْ بَـــيْـــنَـــهُـــمْ فَـــرَغْ

أي: هدر يعني بطل قلبها من شدة ما ورد عليها.

أما قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ فاعلم أن على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن، قد ذكرنا تفسير قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى﴾ وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوهًا: أحدها: قال ابن عباس: كادت تخبر بأن الذي وجدتموه ابني، وقال في رواية عكرمة: كادت تقول: واإبناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع، وقال الكلبي: ذلك حين سمعت الناس يقولون: إنه ابن فرعون وقال السدي: لما أخذ ابنها كادت تقول: هو ابني فعصمها الله تعالى، ثم قال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المتفلت ليستقر ويطمئن ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعد الله وهو قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧].

أما قوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره وانظري إلى أين وقع وإلى من صار وكانت أخته لأبيه وأمه واسمها مريم ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أبصرته، قال المبرد: أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن بعد وقرئ (عن جانب) و(عن جَنْب) والجنب: الجانب أي نظرت نظرة مزورة متجانبة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحالها وغرضها.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ يقتضي تحريمها من قبله فإذا لم يصح بالتعبد والنهي لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل أنه تعالى مع حاجته إلى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، فلذلك لم يرضع أو أحدث في لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمه لذة فلما تعودها لا جرم كان يكره لبن غيرها، وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع، أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أي الثدي أو الرضاع وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل أن رددناه إلى أمه ومن قبل مجيء أخت موسى عليه السلام، ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه، ولا يخونونكم فيه، والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد، وقال السدي: إنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ دل ظاهر ذلك على أن أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان: قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه، وكل ما روي في هذا الباب يدل على أن فرعون كان بمنزلة آسية في شدة محبته لموسى عليه السلام، لا على ما قال من زعم أنها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ بهذا الضرب من اللطف ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فيما كان وعدها من أنه يرده إليها، ولقد كانت عالمة بذلك، ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه وجوه أربعة: أحدها: ولكن أكثر الناس في ذلك العهد وبعد لا يعلمون لإعراضهم عن النظر في آيات الله. وثانيها: قال الضحاك ومقاتل: يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده إليها. وثالثها: هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغًا. ورابعها: أن يكون المعنى إنا إنما رددناه إليها ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ والمقصود الأصلي من ذلك الرد هذا الغرض الديني، ولكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع، قال الضحاك: لما قَبِلَ ثديها قال هامان: إنك لأمه، قالت: لا، قال: فما بالك قَبِلَ ثديك من بين النسوة قالت: أيها الملك إني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي، قالوا: صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

اعلم أن في قوله: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قولين: أحدهما: أنهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية. والثاني: وهو الأصح أنهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه: أحدها: وهو الأقرب أن الأشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية، والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية. وثانيها: الأشد عبارة عن كمال القوة، والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة. وثالثها: الأشد عبارة عن البلوغ، والاستواء عبارة عن كمال الخلقة. ورابعها: قال ابن عباس: الأشد ما بين الثمان عشرة سنة إلى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة إلى الأربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان، ومن الأربعين يأخذ في النقصان، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما حق؛ لأن الإنسان يكون في أول العمر في النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان، ثم يأخذ في الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر إلى العشرين ومن العشرين إلى الثلاثين يكون التزايد قليلاً والقوة قوية جدًا ثم من الثلاثين إلى الأربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الأربعين إلى الستين يأخذ في الانتقاص الخفي، ومن الستين إلى آخر العمر يأخذ في الانتقاص البين الظاهر، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة؛ لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذبًا إليها فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص، والقوة العقلية في الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي.

المسألة الثانية: اختلفوا في واحد الأشد، قال الفراء: الأشد واحدها شد في القياس ولم يسمع لها بواحد. وقال أبو الهيثم: واحدة الأشد شدة، كما أن واحدة الأنعم نعمة، والشدة القوة والجلادة.

أما قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ففيه وجهان: الأول: أنها النبوة وما يقرن بها من العلوم والأخلاق، وعلى هذا التقدير ليس في الآية دليل على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطي أو بعده؛ لأن الواو في قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ لا تفيد الترتيب. الثاني: آتيناه الحكمة والعلم قال

تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وهذا القول أولى لوجوه: أحدها: أن النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وأن تكون مسبوقة بالكمال في العلم والسيرة المرضية التي هي أخلاق الكبراء والحكماء. وثانيها: أن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه الحكم والعلم مجازاة على إحسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل وثالثها: أن المراد بالحكم والعلم لو كان هو النبوة، لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم، ثم بيَّن إنعامه عليه قبل قتل القبطي.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المدينة فالجمهور على أنها هي المدينة التي كان يسكنها فرعون، وهي قرية على رأس فرسخين من مصر، وقال الضحاك: هي عين شمس.

المسألة الثانية: اختلفوا في معنى قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ على أقوال: فالقول الأول: أن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم في دينه ودين آبائه، علم أن فرعون وقومه على الباطل، فتكلم بالحق وعاب دينهم، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى أن أخافوه وخافهم، وكان له من بني إسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه، وبلغ في الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون إلا خائفًا، فدخلها يومًا على حين غفلة من أهلها، ثم الأكثرون على أنه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون، وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والأول أولى؛ لأنه تعالى أضاف الغفلة إلى أهلها، وإذا دخل المرء مستترًا لأجل خوف، لا تضاف الغفلة إلى القوم. القول الثاني: قال السدي: إن موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثل ما يلبس، ويدعى موسى بن فرعون، فركب يومًا في أثره فأدركه المقيل في موضع، فدخلها نصف النهار، وقد خلت الطرق، فهو قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ القول الثالث: قال ابن زيد: ليس المراد من قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حصول الغفلة في تلك الساعة، بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره، فإن موسى حين كان صغيرًا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته، فأراد فرعون قتله، فجيء بجمر فأخذه وطرحه في فيه، فمنه عقدة لسانه، فقال فرعون: لا أقتله، ولكن أخرجوه عن الدار والبلد، فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر، والقوم نسوا ذكره وذلك قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الروايات على بعض؛ لأنه ليس في القرآن ما يدل على شيء منها.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ قال الزجاج: قال: هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية، أي وجد فيها رجلين يقتتلان، إذا نظر الناظر إليهما قال: هذا من شيعته وهذا من عدوه، ثم اختلفوا فقال مقاتل: الرجلان كانا كافرين، إلا أن أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من القبط، واحتج عليه بأن موسى عليه السلام

قال له في اليوم الثاني: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] والمشهور أن الذي من شيعته كان مسلمًا؛ لأنه لا يقال فيمن يخالف الرجل في دينه وطريقه: إنه من شيعته، وقيل: إن القبطي الذي سخّر الإسرائيلي كان طباخ فرعون، استسخره لحمل الحطب إلى مطبخه، وقيل: الرجلان المقتتلان: أحدهما السامري وهو الذي من شيعته، والآخر طباخ فرعون، والله أعلم بكيفية الحال، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، أي سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه، فوكزه موسى عليه السلام، الوكز الدفع بأطراف الأصابع، وقيل: بجمع الكف. وقرأ ابن مسعود: (فَلَكَزَهُ مُوسَى)، وقال بعضهم: الوكز في الصدر واللكز في الظهر، وكان عليه السلام شديد البطش، وقال بعض المفسرين: فوكزه بعصاه، قال المفضل: هذا غلط؛ لأنه لا يقال: وكزه بالعصا، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي أماته وقتله.

المسألة الرابعة: احتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء عليه السلام من وجوه: أحدها: أن ذلك القبطي إما أن يقال: إنه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول فلم قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ولم قال في سورة أخرى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؟ وإن كان الثاني وهو أن ذلك القبطي لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبًا. وثانيها: أن قوله: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ يدل على أنه كان كافرًا حربيًّا فكان دمه مباحًا فلم استغفر عنه، والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز؛ لأنه يوهم في المباح كونه حرامًا؟ وثالثها: أن الوكز لا يقصد به القتل ظاهرًا، فكان ذلك القتل قتل خطأ، فلم استغفر منه؟ والجواب: عن الأول لم لا يجوز أن يقال: إنه كان لكفره مباح الدم.

أما قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ففيه وجوه: أحدها: لعل الله تعالى وإن أباح قتل الكافر إلا أنه قال: الأولى تأخير قتلهم إلى زمان آخر، فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان. وثانيها: أن قوله (هذا) إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه فقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، المراد منه بيان كونه مخالفًا لله تعالى مستحقًا للقتل وثالثها: أن يكون قوله (هَٰذَا) إشارة إلى المقتول، يعني أنه من جند الشيطان وحزبه، يقال: فلان من عمل الشيطان، أي من أحزابه.

أما قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ فعلى نهج قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] والمراد أحد وجهين، إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن هناك ذنب قط، أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب.

أما قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ أي فاغفر لي ترك هذا المندوب، وفيه وجه آخر، وهو أن يكون المراد رب إني ظلمت نفسي حيث قتلت هذا الملعون، فإن فرعون لو عرف ذلك لقتلني به ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ أي فاستره عليَّ ولا توصل خبره إلى فرعون ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ أي ستره عن الوصول إلى فرعون،

ويدل على هذا التأويل أنه على عقبه قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كانت إعانة المؤمن هاهنا سببًا للمعصية لما قال ذلك.

وأما قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلم يقل: إني صرت بذلك ضالاً، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرًا في حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرًا في ذلك الوقت، واعترف بأنه كان ضالاً أي متحيرًا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يدبر به في ذلك. أما قوله: إن كان كافرًا حربيًّا فلم استغفر عن قتله؟ قلنا: كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حرامًا في ذلك الوقت، أو إن كان مباحًا لكن الأولى تركه على ما قررنا، قوله: ذلك القتل كان قتل خطأ. قلنا: لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفًا وموسى عليه السلام كان في نهاية الشدة، فوكزه كان قاتلاً قطعًا. ثم إن سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الإسرائيلي من يده بدون ذلك الوكز الذي كان الأولى تركه، فلهذا أقدم على الاستغفار على أنَّا وإن سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل ألبتة على أنه كان رسولاً في ذلك الوقت فيكون ذلك صادرًا منه قبل النبوة، وذلك لا نزاع فيه.

المسألة الخامسة: قالت المعتزلة: الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصي إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فنسب المعصية إلى الشيطان، فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقول صاحب موسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ **ففيه وجوه:**

أحدها: أن ظاهره يدل على أنه قال: إنك لما أنعمت عليَّ بهذا الإنعام فإني لا أكون معاونًا لأحد من المجرمين بل أكون معاونًا للمسلمين، وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من إعانة الإسرائيلي على القبطي كان طاعة لا معصية، إذ لو كانت معصية، لنزل الكلام منزلة ما إذا قيل: إنك لما أنعمت عليَّ بقبول توبتي عن تلك المعصية فإني أكون مواظبًا على مثل تلك المعصية.

وثانيها: قال القفال: كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرمًا، والباء للقسم أي بنعمتك عليَّ. وثالثها: قال الكسائي والفراء: إنه خبر، ومعناه الدعاء كأنه قال: فلا تجعلني ظهيرًا، قال الفراء: وفي حرف عبد الله (فَلَا تَجْعَلْنِي ظَهِيرًا)، واعلم أن في الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة. وقال ابن عباس: لم يستثن ولم يقل: فلن أكون ظهيرًا إن شاء الله، فابتلي به في اليوم الثاني، وهذا ضعيف؛ لأنه في اليوم الثاني ترك الإعانة، وإنما خاف منه ذلك العدو فقال: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] لا أنه وقع منه.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾

اعلم أن عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفًا من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به، وخرج على استتار ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ وهو الإسرائيلي ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يطلب نصرته بصياح وصراخ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ قال أهل اللغة: الغوي يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعل أي إنك لمغو لقومي فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه بسببك، ويجوز أن يكون بمعنى الغاوي. واحتج به من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام، فقال: كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؟ الجواب من وجهين: الأول: أن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظًا جفاة ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالمراد بالغوي المبين ذلك. الثاني: أنه عليه السلام إنما سماه غويًا؛ لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد. واختلفوا في قوله تعال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ﴾ أهو من كلام الإسرائيلي أو القبطي؟ فقال بعضهم: لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده، فقال هذا القول، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو، وصار ذلك سببًا لظهور القتل ومزيد الخوف، وقال آخرون: بل هو قول القبطي، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي، والظاهر هذا الوجه؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ فهذا القول إذن منه لا من غيره وأيضًا فقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولاً للكافر.

واعلم أن الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر أحد، ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث في المدينة وانتهى إلى فرعون وهموا بقتله.

أما قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ قال صاحب (الكشاف): يسعى يجوز ارتفاعه وصفًا لرجل، وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ والانتمار التشاور يقال الرجلان (يتآمران) يأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى

يتشاورون بسببك. وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون، فعلى وجه الإشفاق أسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك.

أما قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي خائفًا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ، ثم التجأ إلى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبًا، وإلا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ
ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ
حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن
شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا
عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن الناس اختلفوا في قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ فقال بعضهم: إنه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى إلى مدين، وهذا قول ابن عباس، وقال آخرون: لما خرج قصد مدين؛ لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى، ومن الناس من قال: بل جاءه جبريل عليه السلام، وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدي: لما أخذ موسى عليه السلام في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح، فقال: لا تفعل واتبعني فاتبعه نحو مدين، واحتج من قال: إنه خرج وما قصد مدين بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ ولو كان قاصدًا للذهاب إلى مدين لقال: ولما توجه إلى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ علمنا أنه لم

يتوجه إلا إلى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب إلى أين ينتهي. والثاني: قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا كلام شاك لا عالم، والأقرب أن يقال: إنه قصد الذهاب إلى مدين وما كان عالمًا بالطريق. ثم إنه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق؛ لأنه يبعد من موسى عليه السلام في عقله وذكائه أن لا يسأل، ثم قال ابن إسحاق: خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر، وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر.

أما قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وموسى عليه السلام قلما يذكر كلامًا في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام، وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهو الماء الذي يسقون منه وكان بئرًا فيما روي ووروده مجيئه والوصول إليه ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيرة العدد ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ والذود الدفع والطرد فقوله: (تذودان) أي تحبسان ثم فيه أقوال: الأول: تحبسان أغنامهما واختلفوا في علة ذلك الحبس على وجوه: أحدها: قال الزجاج: لأن على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي. وثانيها: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء. وثالثها: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. ورابعها: لئلا تختلطا بالرجال. القول الثاني: كانتا تذودان عن وجوههما نظرًا الناظر ليراهما. والقول الثالث: تذودان الناس عن غنمهما. القول الرابع: قال الفراء: تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبًا كما يسمى المشئون شأنًا في قولك: ما شأنك ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وذلك يدل على ضعفهما عن السقي من وجوه: أحدها: أن العادة في السقي للرجال، والنساء يضعفن عن ذلك. وثانيها: ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير. وثالثها: قولهما حتى يصدر الرعاء. ورابعها: انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء. وخامسها: قولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ودلالة ذلك على أنه لو كان قويًا حضر ولو حضر لم يتأخر السقي، فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء، وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المعتاد. قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال، وقرأ الباقون بضم الياء، وكسر الدال فالمعنى في القراءة الأولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد، ومن قرأ بضم الياء فالمعنى في القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم.

أما قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي سقى غنمهما لأجلهما، وفي كيفية السقي أقوال: أحدها: أنه عليه السلام سأل القوم أن يسمحوا فسمحوا. وثانيهما: قال قوم: عمد إلى بئر على رأسه صخرة لا يقلها إلا عشرة، وقيل أربعون، وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر. وثالثها: أن

القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا إلقاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك في القرآن، والله أعلم بالصحيح منه، لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على أنها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمس وحر، وفيه دلالة أيضًا على كمال قوة موسى عليه السلام، قال الكلبي: أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوًا من ماء، فقالوا له: إن شئت ائت الدلو فاستق لهما قال: نعم، وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب في الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما. فإن قيل: كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قلنا: ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيبًا والناس مختلفون فيه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما إن أباهما هو بيرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعدما عمي وهو اختيار أبي عبيد وقال الحسن: إنه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب. على أنا وإن سلمنا أنه كان شعيبًا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه؛ لأن الدين لا يأباه، وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر، لا سيما إذا كانت الحالة حالة الضرورة.

وأما قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فالمعنى إني لأي شيء أنزلت إليَّ من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير، وإنما عدى فقيرًا باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب.

واعلم أن هذا الكلام يدل على الحاجة، إما إلى الطعام أو إلى غيره، إلا أن المفسِّرين حمَّلوه على الطعام قال ابن عباس: يريد طعامًا يأكله، وقال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعامًا إلا بقل الأرض، وروي أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك، فإن قيل: إنه عليه السلام لما بقي معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم، فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام، أليس أنه عليه السلام قال: «**لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلاَ لِذِي قُوَّةٍ سَوِيٍّ**»؟ قلنا: أما رفع الصوت بذلك لإسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى عليه السلام ألبتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى، وفي الآية وجه آخر كأنه قال: رب إني بسبب ما أنزلت إليَّ من خير الدين صرت فقيرًا في الدنيا؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، فقال ذلك رضى بهذا البدل وفرحًا به وشكرًا له، وهذا التأويل أليق بحال موسى عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ فقوله ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في موضع الحال أي مستحيية، قال عمر بن الخطاب: قد استترت بكم قميصها، وقيل: ماشية على بعد مائلة عن الرجال وقال عبد العزيز بن أبي حازم: على إجلال له ومنهم من يقف على قوله: ﴿تَمْشِي﴾ ثم يبتدىء فيقول: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ يعني أنها على الاستحياء قالت هذا

القول؛ لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي، لا سيما المرأة وفي ذلك دلالة على أن شعيبًا لم يكن له معين سواهما وروي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا فسقى لنا، فقال: لإحداهما اذهبي فادعيه لي، أما الاختلاف في أن ذلك الشيخ كان شعيبًا عليه السلام أو غيره فقد تقدم، والأكثرون على أنه شعيب. وقال محمد بن إسحاق في البنتين: اسم الكبرى صفورا، والصغرى ليا، وقال غيره صفرا وصفيرا، وقال الضحاك: صافورا والتي جاءت إلى موسى عليه السلام هي الكبرى على قول الأكثرين، وقال الكلبي الصغرى، وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل.

أما قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ففيه إشكالات: أحدها: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية، فإن ذلك يورث التهمة العظيمة، وقال عليه السلام: «اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَم»؟ وثانيها: أنه سقى أغنامهما تقربًا إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه فإن ذلك غير جائز في المروءة، ولا في الشريعة؟ وثالثها: أنه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وأنه عليه السلام كان في نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعي، فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على ذلك القدر من السقي من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة؟ ورابعها: كيف يليق بشعيب النبي عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفًا أو فاسقًا؟ والجواب عن الأول: أن نقول: أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرًا كان أو عبدًا ذكرًا كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها، وأما المشي مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع. والجواب عن الثاني: أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلبًا للأجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ، وروي أنها لما قالت: ليجزيك كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا، ولا نأخذ على المعروف ثمنًا، حتى قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، وأيضًا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث: فإن الضرورات تبيح المحظورات. والجواب عن الرابع: لعله عليه السلام كان قد علم بالوحي طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فقام يمشي والجارية أمامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام: إني من عنصر إبراهيم عليه السلام فكوني من خلفي حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لي، فلما دخل على شعيب فإذا الطعام موضوع، فقال شعيب: تناول يا فتى، فقال موسى عليه السلام: أعوذ بالله، قال شعيب: ولِمَ؟ قال: لأنا من أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبًا، فقال شعيب: ولكن عادتي وعادة آبائي إطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل، وإنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة

له على عمله، ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] والفرق أن أخذ الأجر على الصدقة لا يجوز، أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه.

أما قوله: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ فالقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص، قال الضحاك: لما دخل عليه قال له: من أنت يا عبد الله، فقال: أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم، وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه، فقال شعيب: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا سلطان له بأرضنا فلسنا في مملكته وليس في الآية دلالة على أنه قال ذلك عن الوحي أو على ما تقتضيه العادة. فإن قيل: المفسرون قالوا: إن فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب في ألف ألف وستمائة ألف، فالملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته؟ قلنا: هذا وإن كان نادرًا إلا أنه ليس بمحال.

أما قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالأمانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها إلى أبيها.

المسألة الثانية: إنما جعل ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ اسمًا و ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ خبرًا مع أن العكس أولى؛ لأن العناية هي سبب التقديم.

المسألة الثالثة: القوة والأمانة لا يكفيان في حصول المقصود ما لم ينضم إليهما الفطنة والكياسة، فلم أهمل أمر الكياسة؟ ويمكن أن يقال: إنها داخلة في الأمانة، عن ابن مسعود رضي الله: (أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر).

أما قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ فلا شبهة في أن هذا اللفظ، وإن كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الأجلين، فكانت الزيادة كالتبرع، والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرًا كالمال وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز، ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا، ويدل على أنه قد كان جائزًا في تلك الشريعة أن يشرط للولي منفعة، وعلى أنه كان جائزًا في تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد، ثم قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ تأجرني: من أجرته إذا كنت له أجيرًا وثماني حجج ظرفه أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثماني حجج مفعول به ومعناه: رعية ثماني حجج ثم قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: لا أريد أن أشق عليك بإلزام أتم الرجلين، فإن قيل: ما حقيقة قولهم شققت عليه وشقّ عليه الأمر؟ قلنا: حقيقته أن الأمر إذا تعاظم فكأنه شق عليك ظنك باثنين، تقول تارة: أطيقه وتارة: لا أطيقه. الثاني: لا أريد أن أشق عليك في الرعي ولكني أساهلك فيها وأسامحك بقدر الإمكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد في

كيفية الرعي، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس، ومنه الحديث (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ شَرِيكِي فَكَانَ خَيْرَ شَرِيكٍ لاَ يُدَارِي وَلاَ يُشَارِي وَلاَ يُمَارِي) ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وفيه وجهان: الأول: يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب. والثاني: يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة، وإنما قال: إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته.

فإن قيل: فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط، فإنك لو قلت: امرأتي طالق إن شاء الله لا تطلق؟ قلنا: هذا مما يختلف بالشرائع.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ فاعلم أن ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام، يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعًا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطتَ عليَّ ولا أنت عما شرطتَ على نفسك، ثم قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ من الأجلين أطولهما الذي هو العَشر أو أقصرهما الذي هو الثمان ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي لا يعتدي عليَّ في طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعني إن شاء هذا وإن شاء هذا ويكون اختيار الأجل الزائد موكولاً إلى رأيه من غير أن يكون لأحد عليه إجبار، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والوكيل: هو الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عُدِّيَ بعلى لهذا السبب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَزَوَّجَ صُغْرَاهُمَا وَقَضَى أَوْفَاهُمَا**»(١) أي: قضى أوفى

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٢/ ١٩)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٦١/ ٣٩)، والخطيب في (تاريخ بغداد) (٢/ ١٢٨)، جميعًا من طريق عويد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر . . . به.

وقال الهيثمي: (٨/ ٢٠٣)، (رواه الطبراني في الصغير والأوسط، والبزّار باختصار، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران الجوني ضعفه ابن معين وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني ثقات)، وساقه ابن كثير=

الأجلين، وقال مجاهد: قضى الأجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾ يدل على أن ذلك الإيناس حصل عقيب مجموع الأمرين ولا يدل على أنه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الأجل، فبطل ما قاله القاضي من أن ذلك يدل على أنه لم يزد عليه وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ ليس فيه دلالة على أنه خرج منفردًا معها وقوله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ فيه دلالة على الجمع.

أما قوله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فقد مر تفسيره في سورة طه والنمل.

أما قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ **ففيه أبحاث:**

الأول: قال صاحب (الكشاف): الجذوة باللغات الثلاث وقد قرىء بهن جميعًا وهو العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن، قال الزجاج: الجذوة القطعة الغليظة من الحطب.

الثاني: قد حكينا في سورة طه: أنه أظلم عليه الليل في الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا بردًا شديدًا فعنده أبصر نارًا بعيدة فسار إليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفي قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ دلالة على إنه ضل وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دلالة على البرد.

أما قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاعلم أن شاطىء الوادي جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطىء الوادي من قبل الشجرة وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله: ﴿مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ﴾ بدل الاشتمال؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء كقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] وإنما وصف البقعة بكونها مباركة؛ لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى إياه **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: احتجت المعتزلة على قولهم: إن الله تعالى متكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ فإن هذا صريح في أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزَّه أن يكون في جسم فثبت أنه تعالى إنما يتكلم بخلق الكلام في جسم أجاب القائلون بقدم الكلام فقالوا: لنا مذهبان: الأول: قول أبي منصور الماتريدي وأئمة ما وراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع إنما المسموع هو الصوت والحرف وذلك كان مخلوقًا في الشجرة ومسموعًا منها، وعلى هذا التقدير زال السؤال. الثاني: قول أبي الحسن الأشعري: وهو إن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعًا، كما أن الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون

=(٣/ ٣٨٧) من رواية البزّار الذي قال: (لا نعلم يُروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد) وفي إسناده (عويد) ومن حديثه رواه ابن أبي حاتم وفيه زيادة غريبة.

مرئية فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الأمرين، واحتج أهل السنة بأن محل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة: إني أنا الله، والمعتزلة أجابوا بأن هذا إنما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسألة، أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال: لا تأكل مني فإني مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى، فإن كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال: لا تأكل مني فإني مسموم، وهذا باطل وإن كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت: إني أنا الله وكل ذلك باطل.

المسألة الثانية: يحتمل أن يقال: إنه تعالى خلق فيه علمًا ضروريًا بأن ذلك الكلام كلام الله، والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا: لأنه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى؛ لأنه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى أنه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال: إنه تعالى لما أسمعه الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت عرف أن مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال: إن ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى في أنه يعلم أن مثل ذلك لا يكون إلا من الله تعالى، ويحتمل أن يكون المعجز هو أنه رأى النار في الشجرة الرطبة فعلم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة إلا الله تعالى، ويحتمل أن يصح ما يروى أن إبليس لما قال له: كيف عرفت أنه نداء الله تعالى؟ قال: لأني سمعته بجميع أجزائي، فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى، وهذا إنما يصح على مذهبنا حيث قلنا: البنية ليست شرطًا.

المسألة الثالثة: قال في سورة النمل ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] وقال هاهنا: ﴿نُودِىَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال في طه: ﴿نُودِىَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢] ولا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

المسألة الرابعة: قال الحسن: إن موسى عليه السلام نودي نداء الوحي لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] قال الجمهور: إن الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وسائر الآيات، وأما الذي تمسك به الحسن فضعيف؛ لأن قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] لم يكن بالوحي؛ لأنه لو كان ذلك أيضًا بالوحي لانتهى آخر الأمر إلى كلام يسمعه المكلف لا بالوحي وإلا لزم التسلسل بل المراد من قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] وصيته بأن يتشدد في الأمور التي تصل إليه في مستقبل الزمان بالوحي.

أمـا قـولـه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ فقد تقدم تفسير كل ذلك، وقوله ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ صريح في أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل: إنه في نفسه جان، فلا يكون هذا مناقضًا لكونه ثعبانًا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار، وقد تقدم الكلام في خوفه، ومعنى ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع، يقال: عقب المقاتل إذا كر بعد الفر، وقال وهب: إنها لم تدع شجرة ولا صخرة إلا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير أسنانها وسمع قعقعة الصخر في جوفها فحينئذ ولى، واختلفوا في العصا على وجوه: أحدها: قالوا: إن شعيبًا كانت عنده عصي الأنبياء عليهم السلام، فقال لموسى: بالليل إذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي، فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فقال: أرني العصا فلمسها وكان مكفوفًا فضن بها فقال: خذ غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له معها شأنًا. وروي أيضًا أن شعيبًا عليه السلام أمر ابنته أن تأتي بعصا لأجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال: ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلم يقع في يدها غيرها، فلما رأى الشيخ ذلك رضي به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال: أعطني العصا، قال موسى: هي عصاي فأبى أن يعطيه إياها فاختصما، ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشي فقضى بينهما فقال ضعوها على الأرض فمن حملها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة، فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين. وثانيها: روى ابن صالح عن ابن عباس قال: كان في دار بيرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله إلا بيرون وابنته التي زوجها من موسى عليه السلام، وأنها كانت تكنسه وتنظفه، وكان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا، وكان لبيرون أحد عشر ولدًا من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت وإخراج عصا من تلك العصي فرجع موسى ذات يوم إلى منزله، فلم يجد أهله واحتاج إلى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصي وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت إلى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك بيرون وقال لها: إن زوجك هذا لنبي، وإن له مع هذه العصا لشأنًا. وثالثها: في بعض الأخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعي قال له شعيب عليه السلام: اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فإن بها تنينًا عظيمًا فأخشى عليك وعلى الأغنام منه، فذهب موسى بالأغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشبًا كثيرًا، ثم إن موسى عليه السلام نام والأغنام ترعى وإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهي دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولاً فارتاح لذلك وعلم أن

لله تعالى في تلك العصا قدرة وآية، وعاد إلى شعيب عليه السلام وكان ضريرًا فمس الأغنام فإذا هي أحسن حالاً مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم أن لموسى عليه السلام وعصاه شأنًا، فأراد أن يجازي موسى عليه السلام على حسن رعيه إكرامًا وصلة لابنته فقال: إني وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه ففعل ثم سقى الأغنام منه فما أخطت واحدة منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه. ورابعها: قال بعضهم: تلك العصا هي عصا آدم عليه السلام وإن جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقي بها موسى عليه السلام ربه ليلاً: وخامسها: قال الحسن: ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضًا أي أخذها من عرض الشجر يقال: اعترض إذا لم يتخير، وعن الكلبي: الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض؛ لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها والأخبار متعارضة، والله أعلم بها.

أما قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فاعلم أن الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات أحدها: هذه. وثانيها: قوله في طه ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ [طه: ٢٢]. وثالثها: قوله في النمل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢] قال العزيزي في (غريب القرآن): ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخلها فيه.

أما قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ فأحسن الناس كلامًا فيه، قال صاحب (الكشاف): فيه معنيان أحدهما: أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقيل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى، والمراد بالجناح اليد؛ لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه. الثاني: أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران، ومعنى قوله: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ على أحد التفسيرين واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب، فإن قيل: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضمومًا وفي الآخر مضمومًا إليه، وذلك قوله: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وقوله:

﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[طه: ٢٢] فما التوفيق بينهما؟ قلنا: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح، هذا كله كلام صاحب (الكشاف) وهو في نهاية الحسن.

أما قوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ قرئ مخففًا ومشددًا، فالمخفف مثنى (ذَا)، والمشدد مثنى (ذان)، قوله: ﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ حجتان نيرتان على صدقه في النبوة وصحة ما دعاهم إليه من التوحيد، وظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ما الذي يظهره عنده من المعجزات؛ لأنه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾[القصص: ٣٣] قال القاضي: وإذا كان كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هناك من دعاه إلى رسالته من أهله أو غيرهم، إذ المعجزات إنما تظهر على الرسل في حال الإرسال لا قبله، وإنما تظهر لكي يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف؛ لأنه ثبت أنه لا بد في إظهار المعجزة من حكمة ولا حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعي، وأما كونه لا حكمة هاهنا فلا نسلم، فلعل هناك أنواعًا من الحكم والمقاصد سوى ذلك، لا سيما وهذه الآيات متطابقة على أنه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾[القصص: ٣٢] تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه، فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوي قلبه ويزيل خوفه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ لأنه كان في لسانه حبسة، إما في أصل الخلقة، وإما لأجل أنه وضع الجمرة في فيه عندما نتف لحية فرعون.

أما قوله: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: الردء اسم ما يستعان به، فعل بمعنى مفعول به، كما أن الدفء اسم لما يدفأ به، يقال: ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط.

البحث الثاني: قرأ نافع (ردا) بغير همز والباقون بالهمز، وقرأ عاصم وحمزة (يُصَدِّقُنِي) برفع القاف، ويروى ذلك أيضًا عن أبي عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبي عمرو، فمن رفع فالتقدير ردءًا مصدقًا لي، ومن جزم كان على معنى الجزاء، يعني أن أرسلته صدقني ونظيره قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥،٦] بجزم الثاء من يرثني. وروى السدي عن بعض شيوخه ردءًا كيما يصدقني.

البحث الثالث: الجمهور على أن التصديق لهارون، وقال مقاتل: المعنى كي يصدقني فرعون والمعنى أرسل معي أخي حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان، فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون.

البحث الرابع: ليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ وفائدة الفصاحة إنما تظهر فيما ذكرناه لا في مجرد قوله: صدقت.

البحث الخامس: قال الجبائي: إنما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هارون بأمر الله تعالى وإن كان لا يدري هل يصلح هارون للبعثة أم لا؟ فلم يكن ليسأل مالا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة، ويحتمل أيضًا أن يقال: إنه سأله لا مطلقًا بل مشروطًا على معنى، إن اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعي في دعائه.

البحث السادس: قال السدي: إن نبيين وآيتين أقوى من نبي بواحد وآية واحدة. قال القاضي: والذي قاله من جهة العادة أقوى، فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبي ونبيين؛ لأن المبعوث إليه إن نظر في أيهما كان علم، وإن لم ينظر فالحالة واحدة، هذا إذا كانت طريقة الدلالة في المعجزتين واحدة، فإما إذا اختلفت وأمكن في إحداهما إزالة الشبهة ما لا يمكن في الأخرى، فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك أن يقال: إنهما بمجموعهما أقوى من إحداهما على ما قاله السدي، لكن ذلك لا يتأتى في موسى وهارون عليهما السلام؛ لأن معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة.

أما قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ فاعلم أن العضد قوام اليد وبشدتها تشتد، يقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده: فت الله في عضدك. ومعنى سنشد عضدك بأخيك: سنقويك به، فإما أن يكون ذلك لأن اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور، وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة.

أما قوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فإن قيل: بيّن تعالى أن السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات أو ليس فرعون

قد وصل إلى صلب السحرة وإن كانت هذه الآيات ظاهرة؟ قلنا: إن الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضًا تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الأمرين، فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال: ما صلبوا، وليس في القرآن ما يدل عليه وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه، ثم قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ والمراد إما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال، أو الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والأول أقرب إلى اللفظ.

اما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فقد بينًا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد.

اما قوله: ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ فقد اختلفوا في مفترى، فقال بعضهم: المراد أنه إذا كان سحرًا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى، وقال الجبائي: المراد أنه منسوب إلى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا: هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته، أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به.

واعلم أن هذه الشبهة ساقطة؛ لأن حاصلها يرجع إلى التقليد ولأن حال الأولين لا يخلو من وجهين، إما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة، فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضًا عليها وإنما لما وجد منه العناد صح أن يقول: ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعًا ومن هو على الباطل ويضم إليه طريق الوعيد والتخويف وهو قوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٣]وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فإن قيل: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار؛ لأن الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قلنا: إنه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازًا إلى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ليبلغوا خاتمة

الخير وعاقبة الصدق؛ فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف، فإذن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير، وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية في زجرهم عن العناد الذي ظهر منهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر هاهنا شبهتين الأولى: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وهذا في الحقيقة يشتمل على كلامين: **احدهما:** نفي إله غيره. **والثاني:** إثبات إلهية نفسه، فأما الأول فقد كان اعتماده على أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته، أما أنه لا دليل عليه فلأن هذه الكواكب والأفلاك كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي فلا حاجة إلى إثبات صانع، وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته فالأمر فيه ظاهر.

واعلم أن المقدمة الأولى كاذبة فإنا لا نسلم أنه لا دليل على وجود الصانع وذلك؛ لأنا إذا عرفنا بالدليل حدوث الأجسام عرفنا حدوث الأفلاك والكواكب، وعرفنا بالضرورة أن المحدث لا بد له من محدِث فحينئذ نعرف بالدليل أن هذا العالم له صانع، والعجب أن جماعة اعتمدوا في نفي كثير من الأشياء على أن قالوا: لا دليل عليه فوجب نفيه، قالوا: وإنما قلنا: إنه لا دليل لأنا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلاً، فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق إلى أن كل ما لا يعرف عليه دليل وجب نفيه، وإن فرعون لم يقطع بالنفي بل قال: لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبًا في دعواه، ففرعون على نهاية جهله أحسن حالاً من هذا المستدل. أما الثاني وهو إثباته إلهية نفسه، فاعلم أنه ليس المراد منه أنه كان يدعي كونه خالقًا للسموات والأرض والبحار والجبال وخالقًا لذوات الناس وصفاتهم، فإن العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضي

زوال العقل، بل الإله هو المعبود فالرجل كان ينفي الصانع ويقول: لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره، فهذا هو المراد من ادعائه الإلهية لا ما ظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقًا للسماء والأرض، لا سيما وقد دللنا في سورة طه في تفسير قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]على أنه كان عارفًا بالله تعالى وأنه كان يقول ذلك ترويجًا على الأغمار من الناس الشبهة الثانية: قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ **وهاهنا أبحاث:**

الأول: تعلقت المشبهة بهذه الآية في أن الله تعالى في السماء قالوا: لولا أن موسى عليه السلام دعاه إلى ذلك لما قال فرعون هذا القول. والجواب: أن موسى عليه السلام دل فرعون بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشعراء: ٢٤]ولم يقل: هو الذي في السماء دون الأرض، فأوهم فرعون أنه يقول: إن إلهه في السماء، وذلك أيضًا من خبث فرعون ومكره ودهائه.

الثاني: اختلفوا في أن فرعون هل بنى هذا الصرح؟ قال قوم: إنه بناه قالوا: إنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا وقد هلك، ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليهم وهي ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه. ومن الناس من قال: إنه لم يبن ذلك الصرح؛ لأنه يبعد من العقلاء أن يظنوا أنهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض، ومن شك في ذلك خرج عن حد العقل، وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم إلى السماء ورجوعه متلطخًا بالدم، فإن كل من كان كامل العقل يعلم أنه لا يمكنه إيصال السهم إلى السماء، وأن من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التي حكاها الله تعالى في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل، فيصير ذلك مشرعًا قويًا لمن أحب الطعن في القرآن، فالأقرب أنه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ يعني لا سبيل إلى إثباته بالدليل، فإن حركات الكواكب كافية في تغير هذا العالم ولا سبيل إلى إثباته بالحس، فإن الإحساس به لا يمكن إلا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل إليه، ثم قال عند ذلك لهامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]وإنما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لا دليل على الصانع، ثم إنه رتب النتيجة عليه فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فهذا التأويل أولى مما عداه.

الثالث: إنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨] ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه؛ لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة، ولأن هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان - وهو وزيره - بالإيقاد على الطين فنادى باسمه بـ(يا) في وسط الكلام دليل على التعظم والتجبر، والطلوع والاطلاع: الصعود يقال: طلع الجبل واطلع بمعنى واحد.

أما قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فاعلم أن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبرياء الشأن، قال عليه السلام فيما حكى عن ربه «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ»(١) وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق.

المسألة الثانية: قال الجبائي: الآية تدل على أنه تعالى ما أعطاه الملك وإلا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب، لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم أن ملكهم من الله تعالى فإن الله تعالى قد بيَّن في كل غاصب لحكم الله أنه أخذ ذلك بغير حق، واعلم أن هذا ضعيف؛ لأن وصول ذلك الملك إليه، إما أن يكون منه أو من الله تعالى، أو لا منه ولا من الله تعالى، فإن كان منه فلِمَ لَمْ يقدر عليه غيره، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح الغرض، وإن كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟ واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل.

أما قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى إلا أنهم كانوا ينكرون البعث فلأجل ذلك تمردوا وطغوا.

أما قوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فهو من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، شبههم استحقارًا لهم واستقلالاً لعددهم، وإن كانوا الكبير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧] ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] سبحانه وتعالى وليس الغرض منه إلا تصوير أن كل مقدور وإن عظم فهو حقير بالقياس إلى قدرته.

أما قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فقد تمسك به الأصحاب في كونه تعالى خالقًا للخير والشر، قال الجبائي: المراد بقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ أي بينا ذلك من حالهم وسميناهم به، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] وتقول أهل اللغة في تفسير فَسَّقه وبخَّله جعله فاسقًا وبخيلاً، لا أنه خلقهم أئمة؛ لأنهم حال خلقهم لهم كانوا أطفالاً، وقال

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم في كتاب (البر)، باب: (تحريم الكبر) (٤/ ١٣٦/ ٢٠٢٣)، بقوله: عذبته بدلا من قذفته في النار، وأبو داود في كتاب (اللباس)، باب: (ما جاء في الكبر) (٤/ ١٧٥٤/ ١٧٥٥)، حديث رقم (٤٠٩٠) من طريق حماد وحدثنا هناد... به، وابن ماجه في كتاب (الزهد)، باب: (البراءة من الكبر) (٢/ ١٣٩٧)، حديث رقم (٤١٧٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٨) من طريق الأعز... به.

الكعبي: إنما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة، ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر، وذلك كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾[التوبة: ١٢٥] لما زادوا عندها ونظير ذلك أن الرجل يسأل ما يثقل عليه، وإن أمكنه فإذا بخل به قيل: للسائل جعلت فلانًا بخيلاً أي قد بخّلته، وقال أبو مسلم: معنى الإمامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين.

واعلم أن الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم في قوله: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[مريم: ٨٣] ومعنى دعوتهم إلى النار دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي فإن أحدًا لا يدعو إلى النار ألبتة، وإنما جعلهم الله تعالى أئمة في هذا الباب؛ لأنهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات، ومن كان كذلك استحق أن يكون إمامًا يقتدى به في ذلك الباب، ثم بيَّن تعالى أن ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أو يكون معناه: ويوم القيامة لاينصرون كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة.

اما قوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ معناه: لعنة الله والملائكة لهم وأمره تعالى بذلك فيها للمؤمنين، وبيَّن أنهم يوم القيامة من المقبوحين أي المبعدين الملعونين، والقبح هو الإبعاد، قال الليث: يقال: قبحه الله، أي: نحاه عن كل خير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من المشئومين بسواد الوجه وزرقة العين، وعلى الجملة فالأولون حملوا القبح على القبح الروحاني وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والباقون حملوه على القبح في الصور. وقيل فيه: إنه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين. ثم بيَّن تعالى أن الذي يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والكتاب هو التوراة، ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس، من حيث يستبصر به في باب الدين، وهدى من حيث يستدل به، ومن حيث إن المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب، ووصفه بأنه رحمة؛ لأنه من نعم الله تعالى على من تعبَّد به. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أَهْلَكَ اللَّه تَعَالَى قَرْنًا مِنَ الْقُرُونِ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلاَ مِنَ الْأَرْضِ مُنْذُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مَسَخَهَا قِرَدَةً**»(١).

اما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فالمراد لكي يتذكروا، قال القاضي: وذلك يدل على إرادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك أو لم يختره، ففيه إبطال مذهب المجبرة الذين يقولون: ما أراد التذكر إلا ممن يتذكر، فأما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه، ونص القرآن دافع لهذا القول، قلنا: أليس أنكم حملتم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[الأعراف: ١٧٩] على العاقبة، فلم لا يجوز حمله هاهنا على العاقبة، فإن عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك في الآخرة.

---

(١) ذكره أهل التفسير من رواية أبي سعيد الخدري ولكن من غير إسناد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

اعلم أن في الآية سؤالات:

السؤال الأول: الجانب موصوف، والغربي صفة، فكيف أضاف الموصوف إلى الصفة؟

الجواب: هذه مسألة خلافية بين النحويين، فعند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى الصفة إلا بشرط خاص سنذكره، وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقًا، حجة البصريين أن إضافة الموصوف إلى الصفة تقتضي إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا غير جائز فذاك أيضًا غير جائز، بيان الملازمة أنك إذا قلت: جاءني زيد الظريف، فلفظ الظريف يدل على شيء معين في نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة، فإذا نصصت على زيد عرفنا أن ذلك الشيء الذي حصلت له الظرافة هو زيد، إذا ثبت هذا، فلو أضفت زيدًا إلى الظريف، كنت قد أضفت زيدًا إلى زيد، وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة، فإضافة الموصوف إلى صفته وجب أن لا تجوز، إلا أنه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ، وهي قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٣٠] ويقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء، فقالوا: التأويل فيه جانب المكان الغربي ودين الملة القيمة وحق الشيء اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الأولى ومسجد المكان الجامع وبقلة الحبة الحمقاء، ثم قالوا في هذه المواضع: المضاف إليه ليس هو النعت، بل المنعوت، إلا أنه حذف المنعوت وأقيم النعت مقامه فهاهنا ينظر إن كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت، حسن ذلك وإلا فلا، ألا ترى أنه ليس لك أن تقول: عندي جيد على معنى عندي درهم جيد، ويجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه؛ لأن الفقيه يعلم أنه لا يكون إلا من الناس والجيد قد يكون درهمًا وقد يكون غيره، وإذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربي؛ لأن الشيء الموصوف بالغربي الذي يضاف إليه الجانب لا يكون إلا مكانًا أو ما يشبهه، فلا جرم حسنت هذه الإضافة، وكذا القول في البواقي، والله أعلم.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ ؟ الجواب: الجانب الغربي هو المكان الواقع في شق الغرب، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور، وكتب الله (له) في الألواح والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه، والخطاب للرسول ﷺ يقول: وما كنت حاضرًا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام، ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه أو على (الْمُوحَى) إليه، (وَهِيَ لِأَنَّ الشَّاهِدَ لاَ بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ حَاضِرًا)، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات.

السؤال الثالث: لما قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ ثبت أنه لم يكن شاهدًا؛ لأن الشاهد لا بد أن يكون حاضرًا، فما الفائدة في إعادة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ؟ الجواب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: التقدير لم تحضر ذلك الموضع، ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع، فإنه يجوز أن يكون هناك، ولا يشهد ولا يرى.

السؤال الرابع: كيف يتصل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكًا له؟ الجواب: معنى الآية: ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام إلى عهدك قرونًا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذي أنت فيه، فاندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى، فالحاصل كأنه قال: وما كنت شاهدًا لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب، فإذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده. واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال: إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله، دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

أما قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فالمعنى ما كنت مقيمًا فيه.

وأما قوله: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ ففيه وجهان:

الأول: قال مقاتل: يقول: لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها.

الثاني: قال الضحاك: يقول: إنك يا محمد، لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وإنما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً، فأرسلنا إلى أهل مدين شعيبًا وأرسلناك إلى العرب؛ لتكون خاتم الأنبياء.

أما قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي علمناك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر بالرفع أي هي رحمة، وذكر المفسرون في قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ وجوهًا أخر: أحدها: إذ نادينا أي قلنا لموسى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وثانيها: قال ابن عباس: إذ نادينا أمتك في أصلاب آبائهم: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، أَجَبْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي، وَأَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ

أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي» قال: وإنما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً لميقات ربه. وثالثها: قال وهب: (لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ لِمُوسَى فَضْلَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ رَبِّ أَرِنِيهِمْ، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُدْرِكَهُمْ وَإِنْ شِئْتَ أَسْمَعْتُكَ أَصْوَاتَهُمْ، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ فَأَجَابُوهُ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ فَأَسْمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْوَاتَهُمْ ثم قال: أَجَبْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي) الحديث كما ذكره ابن عباس[١]. ورابعها: روى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: «كتب الله كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، إن رحمتي سبقت غَضَبِي أَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي مَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ»[٢].

اما قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فالإنذار هو التخويف بالعقاب على المعصية. واعلم أنه تعالى لما بيَّن قصة موسى عليه السلام قال لرسوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ فجمع تعالى بين كل ذلك؛ لأن هذه الأحوال الثلاثة هي الأحوال العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام إذ المراد بقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[القصص: ٤٤] إنزال التوراة حتى تكامل دينه واستقرَّ شرعه والمراد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أول أمره والمراد ناديناه وسط أمره وهو ليلة المناجاة، ولما بيَّن تعالى أنه عليه السلام لم يكن في هذه الأحوال حاضرًا بيَّن تعالى أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ واختلفوا فيه فقال بعضهم: لم يبعث إليهم نذير منهم، وقال بعضهم: حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث إليهم من يجد تلك الحجة عليهم، وقال بعضهم: لا يبعد وقوع الفترة في التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرًا للتكاليف وإزالة لتلك الفترة.

اما قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ الآية فقال صاحب (الكشاف): (لولا) الأولى امتناعية

---

(١) أورده أهل التفسير في تفاسيرهم بغير إسناد.

(٢) أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٤/ ١٥٤)، حديث رقم (٤٤٤٣) من طريق إبراهيم بن زكريا الأحمر حدثنا محمد بن يوسف الفريابي عن سفيان الثوري عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن عمرو بن عنبسة... به.

(قلت): الحديث أصله عند أهل السنة من رواية النعمان بن بشير.

صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل القرآن)، باب: (سورة البقرة) (٥/ ١٤٧)، حديث رقم (٢٨٨١) من طريق ابن مهدي... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٧٤)، حديث رقم (١٨٣٢٧) من طريق روح وعفان... به، والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٥٣٦)، حديث رقم (٩٦٧) من طريق الحجاج... به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن)، باب: (فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي) (٢/ ٣٢٢)، حديث رقم (٣٣٨٧) من طريق حماد بن سلمة... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٦٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، أربعتهم (روح، وعفان، والحاج، وابن مهدي) عن حماد بن سلمة عن الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني... فذكره.

وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، والفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾ للعطف، (وفي قوله للعطف). وفي قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ جواب (لَوْلاَ) لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد، والمعنى لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً، محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم، يعني إنما أرسلنا الرسول إزالة لهذا العذر وهو كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ واعلم أنه تعالى لم يقل: ولولا أن يقولوا هذا العذر لما أرسلنا، بل قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟﴾ هذا العدو لما أرسلنا وإنما قال ذلك لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك، بل إنما يقولون ذلك إذا نالهم العقاب فيدل ذلك على أنهم لم يذكروا هذا العذر تأسفًا على كفرهم، بل لأنهم ما أطاقوا وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتجَّ الجبائي على وجوب فعل اللطف قال: لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، إذ من الجائز أن لا يبعث إليهم وإن كانوا لا يختارون الإيمان إلا عنده على قول من خالف في وجوب اللطف كما مر أن الجائز إذا كان في المعلوم لو خلق له لم يمكن إلا أن يفعل ذلك.

المسألة الثانية: احتج الكعبي به على أن الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا أنه ليس المراد من قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ما يظنه أهل السنة، وإذا ثبت أنه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى وإلا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى.

المسألة الثالثة: قال القاضي: فيه إبطال القول بالجبر من جهات: إحداها: أن اتباعهم وإيمانهم موقوف على أن يخلق الله ذلك فيهم سواء أرسل الرسول إليهم أم لا. وثانيتها: أنه إذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء أرسل الرسول أم لا. وثالثتها: إذا أراد ذلك وجب أرسل الرسول إليهم أم لا، فأي فائدة في قولهم هذا لو كانت أفعالهم خلقًا لله تعالى؟ فيقال للقاضي: هب أنك نازعت في الخلق والإرادة ولكنك وافقت في العلم فإذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا، فإن لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وإن وجب لزمك ما أوردته علينا، واعلم أن الكلام وإن كان قويًّا حسنًا إلا أنه إذا توجه عليه النقض الذي لا محيص عنه، فكيف يرضى العاقل بأن يعول عليه؟

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، بيّن أيضًا أنه بعد الإرسال إلى أهل مكة قالوا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى، فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن أن الله كلّمه وكتب له في الألواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وما أشبه ذلك.

واعلم أن الذي اقترحوه غير لازم؛ لأنه لا يجب في معجزات الأنبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل إليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد إذ الصلاح قد يكون في إنزاله مجموعًا كالتوراة ومفرقًا كالقرآن، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ إلى من يعود، وذكروا وجوهًا: أحدها: أن اليهود أمروا قريشًا أن يسألوا محمدًا أن يؤتى مثل ما أوتي موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ يعني أو لم تكفروا يا هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة. وثانيها: أن الذين أوردوا هذا الاقتراح كفار مكة، والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام إلا أنه تعالى جعلهم كالشيء الواحد؛ لأنهم في الكفر والتعنت كالشيء الواحد. وثالثها: قال الكلبي إن مشركي مكة بعثوا رهطًا إلى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه فقالوا: إنا نجده في

التوراة بنعته وصفته، فلما رجع الرهط إليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا: إنه كان ساحرًا كما أن محمدًا ساحر، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ ورابعها: قال الحسن: قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم بأن قالوا في موسى وهارون: ساحران. وخامسها: قال قتادة: أو لم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا: ساحران. وسادسها: وهو الأظهر عندي أن كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم إنهم لما طلبوا من الرسول ﷺ معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ بل بما أوتي جميع الأنبياء من قبل، فعلمنا أنه لا غرض لكم في هذا الاقتراح إلا التعنت، ثم إنه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتي موسى من وجهين: الأول: قولهم: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأهل المدينة (سَاحِرَانِ) بالألف وقرأ أهل الكوفة بغير ألف وذكروا في تفسير الساحرين وجوهًا:

أحدها: المراد هارون وموسى عليهما السلام تظاهرا أي تعاونا وقرىء (اظَّاهَرَا) على الإدغام وسحران بمعنى ذوي سحر، وجعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله: ﴿سِحْرَانِ﴾ بأن المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالألف؛ لأن المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب. وجوابه: إنا بينا أن قوله: ﴿سِحْرَانِ﴾ يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوي الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز: تعاونا كما: تقول تظاهرت الأخبار، وهذه التأويلات إنما تصح إذا حملنا قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ إما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام ولا شك أن ذلك أليق بمساق الآية. الثاني: قولهم: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي بما أنزل على محمد وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق إلا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة في أنهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذي يمنع من مثله في محمد ﷺ وإن ظهرت حجته، ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد ﷺ فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله، قال الزجاج (أَتَّبِعْهُ) بالجزم على الشرط ومن قرأ (أَتَّبِعُهُ) بالرفع فالتقدير أنا أتبعه، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ قال ابن عباس: يريد فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج، وقال مقاتل: فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل منهما وهذا أشبه بالآية فإن قيل الاستجابة تقتضي دعاء فأين الدعاء هاهنا؟ قلنا: قوله: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ﴾ أمر والأمر دعاء إلى الفعل ثم قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني قد صاروا ملزمين ولم يبق لهم شيء إلا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وأنه لا بد من الحجة والاستدلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو عام يتناول الكافر لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] واحتج الأصحاب به في أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين.

وقالت المعتزلة: الألطاف منها ما يحسن فعلها مطلقًا ومنها ما لا يحسن إلا بعد الإيمان والدليل عليه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧] فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ محمول على القسم الثاني ولا يجوز حمله على القسم الأول؛ لأنه تعالى لما بيَّن في الآية المتقدمة أن عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم، فبأن يكون عدم الهداية عذرًا لهم أولى، ولما بيَّن تعالى نبوة محمد ﷺ بهذه الدلالة قال: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ وتوصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان، وهو من وصل البعض بالبعض، وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه إنا أنزلنا القرآن منجمًا مفرقًا يتصل بعضه ببعض؛ ليكون ذلك أقرب إلى التذكير والتنبيه، فإنهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب إلى التذكر، وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابًا عن قولهم: هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتي موسى كتابه كذلك، ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الأنبياء بعضها ببعض وأخبار الكفار في كيفية هلاكهم تكثيرًا لمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد: بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزًا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون. ثم إنه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن أسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك، واختلفوا في المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: قال قتادة: إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدًا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام.

وثانيها: قال مقاتل: نزلت في أربعين رجلًا من أهل الإنجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر.

وثالثها: قال رفاعة بن قرظة: نزلت في عشرة أنا أحدهم، وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من حصل في حقه تلك الصفة كان داخلًا في الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد إيمانهم وهو قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ فقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ يدل على التعليل يعني أن كونه حقًا من عند الله يوجب الإيمان به وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ بيان لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيمانًا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه، ثم إنه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أنهم يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بمحمد ﷺ قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الأقرب؛ لأنه تعالى لما بيَّن أنهم آمنوا به بعد البعثة وبيَّن أيضًا أنهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم أثبت الأجر مرتين وجب أن ينصرف إلى ذلك. وثانيها: يؤتون الأجر

مرتين مرة بإيمانهم بالأنبياء الذي كانوا قبل محمد ﷺ ومرة أخرى بإيمانهم بمحمد ﷺ. وثالثها: قال مقاتل: هؤلاء لما آمنوا بمحمد ﷺ شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصف وأجر على الإيمان، يروى أنهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه، قال السدي: اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول: سلام عليكم ثم قال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ والمعنى (يَدْفَعُونَ) بالطاعة المعصية المتقدمة، ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الأذى، ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصي؛ لأن نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة، ويحتمل التوبة والإنابة والاستقرار عليها، ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى مدحهم أولاً بالإيمان ثم بالطاعات البدنية في قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ثم بالطاعات المالية في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال القاضي: دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقًا. جوابه: أن كلمة من للتبعيض فدل على أنهم استحقوا المدح بإنفاق بعض ما كان رزقًا، وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله، ثم لما بيَّن كيفية اشتغالهم بالطاعات والأفعال الحسنة بيَّن كيفية إعراضهم عن الجهال فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ واللغو ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه إعراضًا جميلاً فلذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله: في أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين، وعلامة الاحتمال من الجاهلين، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكيًا عنهم: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم، قال قوم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال وهو بعيد؛ لأن ترك المسافهة مندوب، وإن كان القتال واجبًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾

اعلم أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب ثم قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمدًا وصدقوه تفلحوا وترشدوا، فقال عليه السلام: «**يَا عَمّ تَأْمُرُهُمْ بِالنُّصْحِ لأَنْفُسِهِمْ وَتَدَعُهَا لِنَفْسِكَ! قَالَ فَمَا تُرِيدُ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ أُرِيدُ مِنْكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَإِنَّكَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْكَ وَعَلَى بَنِي أَبِيكَ غَضَاضَةٌ وَمَسَبَّةٌ بَعْدِي لَقُلْتُهَا وَلأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ عِنْدَ الْفِرَاقِ لِمَا أَرَى مِنْ شِدَّةِ وَجْدِكَ وَنُصْحِكَ، وَلَكِنِّي سَوْفَ أَمُوتُ عَلَى مِلَّةِ الأَشْيَاخِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهَاشِمٍ وَعَبْدِ مَنَافٍ**»(١).

المسألة الثانية: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ولا تنافي بينهما فإن الذي أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية.

المسألة الثالثة: احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال، فقالوا: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يقتضي أن تكون الهداية في الموضعين بمعنى واحد لأنه لو كان المراد من الهداية في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ شيئًا وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ شيئًا آخر لاختل النظم، ثم إما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة إلى الجنة أو تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة في القلوب على سبيل الإلجاء أو خلق المعرفة في القلوب لا على سبيل الإلجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الأدلة لأنه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهي غير الهداية التي نفى الله عمومها، وكذا القول في الهداية بمعنى الدعوة إلى الجنة، وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهي أيضًا غير مرادة من الآية لأنه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق

---

(١) غريب بهذا اللفظ وهو في الصحيحين من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن المخزومي.

متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز)، باب: (إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله) (٢/ ٢٦٣)، حديث رقم (١٣٦٠) من طريق صالح . . . به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (الدليل على صحة من حضر الموت. . .) (١/ ٣٩/ ٥٤) من طريق يونس. . . به، جميعًا من طريق الزهري. . . به.

الجنة غير معلق على المشيئة لأنه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقًا على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنانير، لا يجوز أن يقول إني أعطي عشرة دنانير إن شئت، وأما الهداية بمعنى الإلجاء والقسر فغير جائز لأن ذلك عندهم قبيح من الله تعالى في حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة، ولما بطلت الأقسام لم يبق إلا أن المراد أنه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها، ولا يسأل عما يفعل، ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذرًا عن ذلك.

أما قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فالمعنى أنه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي، ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهي قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قال المبرد: الْخَطْفُ، الانتزاع بسرعة، روى أن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله ﷺ: إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَقُولُهُ حَقٌّ، وَلَكِنْ يَمْنَعُنَا مِنْ ذَلِكَ تَخَطُّفُنَا مِنْ أَرْضِنَا(١)، أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا، فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه الأول: قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي أعطيناكم مسكنًا لا خوف لكم فيه، إما لأن العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكانه، فإنه يروى أن العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة، وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكان الحرم، أو لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وأما قوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خاليًا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه، ومعنى: ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ يجمع من قولهم: جبيت الماء في الحوض إذا جمعته، قرأ أهل المدينة (تجبى) بالتاء، وأهل الكوفة، وأبو عمرو بالياء، وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي، فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى، ومعنى الكلية الكثرة كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وحاصل الجواب: أنه تعالى لما جعل الحرم آمنًا وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى، قال القاضي: ولو أن الرسول قال لهم: إن الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقًّا لم يكن عذرًا لكم في أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة، لانقطعوا، أو قال لهم: إن تخطفهم لكم بالقتل وغيره، وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضًا، ولو قال لهم: ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم، لانقطعوا، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم في أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة، أن ذلك لا يجري إن آمنوا، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه

---

(١) ذكره النيسابوري في (تفسيره) (١/ ١٥٦)، ولم يذكر له إسنادًا.

للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا، فلذلك قدمه الله تعالى، والآية دالة على صحة الحجاج الذي يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين. بقي هاهنا بحثان:

الأول: قال صاحب (الكشاف) في انتصاب رزقًا: إن جعلته مصدرًا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء، ويرزق ثمرات كل شيء واحد، وأن يكون مفعولاً له، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصيصها بالإضافة، كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة.

الثاني: احتج الأصحاب بقوله: ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ في أن فعل العبد خلق الله تعالى، وبيانه أن تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقًا لله تعالى لما صحت تلك الإضافة، فإن قيل: سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك الأرزاق إليهم، قلنا: تلك الدواعي إن اقتضت الرجحان، فقد بينا في غير موضع أنه متى حصل الرجحان، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود، وإن لم يحصل الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية. واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ما وصلت إليهم إلا من الله تعالى، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحدًا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدًا غير الله تعالى، فيبقى نظرهم منقطعًا عن الخلق متعلقًا بالخالق، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني: عن تلك الشبهة، وذلك لأنه تعالى لما بين لأهل مكة ما خصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا: إنا لا نؤمن خوفًا من زوال نعمة الدنيا، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم، لا الإقدام على الإيمان، قال صاحب (الكشاف): البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها، وإما تضمين بطرت معنى كفرت.

فأما قوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ففي هذا الاستثناء وجوه أحدها: قال

ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يومًا أو ساعة. وثانيها: يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها، وإذا لم يبق للشيء مالك معين قيل: إنه ميراث الله؛ لأنه الباقي بعد فناء خلقه، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها، فكأن سائلاً أورد السؤال من وجهين الأول: لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد ﷺ مع أنهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد؟ الثاني: لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد ﷺ مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد ﷺ ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة، ثم ذكر المفسرون وجهين أحدهما: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رسولاً لإلزام الحجة وقطع المعذرة، الثاني: وما كان ربك مهلك القرى التي في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، ومعنى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يؤدي ويبلغ، وأجاب عن السؤال الثاني بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فإن بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثالث: عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا: تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا، فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى، أما أنه خير فلوجهين أحدهما: أن المنافع هناك أعظم وثانيهما: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار فيها أكثر، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدمًا فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجًا عن حد العقل، ورحم الله الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا

المشتغلون بالطاعة، فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها، وهذا هو المراد بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [الصافات: ٥٧] فهو يكون كمن أعطاه الله قدرًا قليلاً من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب، والمقصود أنهم لما قالوا: تركنا الدين للدنيا، فقال الله لهم: لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم؟ وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء أحدها: قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم: أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكًا في العبادة وتزعمون أنه يشفع؟ أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذي نزل بكم؟ ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول، والمراد من القول هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه، واختلفوا في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم؟ فقال بعضهم: الرؤساء الدعاة إلى الضلال، وقال بعضهم: الشياطين، قوله: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيًّا مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعني أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال، وهذا معنى ما حكاه الله عن

الشيطان أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢] فقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾[الحجر: ٤٢] يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل إلجاء الشيطان إلى ذلك، ثم قال: تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون إنما كانوا يعبدون أهواءهم، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[البقرة: ١٦٦] وأيضًا فلا يمتنع في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أن يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فإنهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزله الشريك لله تعالى، وإذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا: إلهنا هؤلاء ما عبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ والأقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة وأن العذاب ثابت فيهم، وكل ذلك على وجه التوبيخ، وفي ذكره ردع وزجر في دار الدنيا، فأما قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهًا أحدها: قال الضحاك ومقاتل: يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة، وثانيها: لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعلموا أن العذاب حق، وثالثها: ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون، ورابعها: لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب وخامسها: قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[الشعراء: ٢٠١] وعندي أن الجواب غير محذوف وفي تقريره وجوه أحدها: أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسَّدَر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئًا فقال تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ شيئًا أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئًا لا جرم ما رأوا العذاب، وثانيها: أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الأصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب، فإن قيل قوله: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام؟ قلنا هذا كقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾[الكهف: ٥٢] وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا، وثالثها: أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقية هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون، وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فإن ذلك يقتضي تفكيك النظم من الآية، الأمر الثالث: من الأمور التي يسأل الله الكفار عنها قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي فصارت الأنباء كالعمى

عليهم جميعًا لا تهتدي إليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضًا كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعًا في عمي الأنباء عليهم والعجز عن الجواب، وقرئ فعميت وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك يتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال، ويفوضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]فما ظنك بهؤلاء الضلال، قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقًا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عميت عليهم الأنباء ولقالوا: إنما أتينا في تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك، فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول: إنما أغويت بخلقك فيَّ الغواية، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهرًا والجواب: أن القاضي لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها، وكما أن وجه استدلاله في الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع الإيمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الإيمان إذا أمر بإدخال الإيمان في الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين، والذي اعتمد القاضي عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرًا فثبت أن الإشكال مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ٦٧ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٧٠ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجري عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيبًا في التوبة وزجرًا عن الثبات على الكفر فقال: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ وفي عسى وجوه: أحدها: أنه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين، وثانيها: أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال: فليطمع في الفلاح، وثالثها: عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا، واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ والمراد أنه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا

اعتراض عليه ألبتة، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصوابًا فليس لأحد أن يعترض عليه وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضًا اسم للمختار يقال: محمد خيرة الله في خلقه، إذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان: الأول: وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله: ﴿وَيَخۡتَارُ﴾ ويكون ما نفيًا، والمعنى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل، والثاني: أن يكون ما بمعنى الذي فيكون الوقف عند قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ثم يقول: ﴿وَيَخۡتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾، قال أبو القاسم الأنصاري: وهذا متعلق المعتزلة في إيجاب الصلاح والأصلح عليه، وأي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله، فإن قيل لما كلفه: استوجب على الله ما هو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم قطعًا أنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه في العقاب الأبدي لا يكون رعاية للمصلحة، ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل في حق من يستنكف من تفضله، أما الذي ما حصل الذات والصفات إلا بخلقه وبفضله وإحسانه فكيف يستنكف من تفضله، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير غيره في النبوة، ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وفيه تنبيه على كونه قادرًا على كل الممكنات، وعالمًا بكل المعلومات، منزهًا عن النقائص والآفات يجازي المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين، ويحتمل أيضًا أن لما بين فساد طريق المشركين من قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾[القصص: ٦٢] ختم الكلام في ذلك بإظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به.

أما قوله: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلاً وإحسانًا فله الحمد في الأولى والآخرة، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾[فاطر: ٣٤] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾[الزمر: ٧٤] ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ١٠] أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة، وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم، قال القاضي: إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضًا بما فعله بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والإلطاف وسائر النعم، لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر، وهذا فيه نظر، لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فإذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب

وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن بذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم في استحقاق الثواب أفترى أن الإنسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة؟ كلا، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب.

أما قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ فهو إما في الدنيا أو في الآخرة: فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول، فهو الحاكم في الحقيقة، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة، فينتصف للمظلومين من الظالمين.

أما قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون، فإن كلمة إلى لانتهاء الغاية، وهو تعالى منزه من المكان والجهة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الإجمال بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات، ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى، وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر، قال الكلبي: قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال، قال صاحب (الكشاف) السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، فإن قيل

هلا قال: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: بليل تسكنون فيه؟ قلنا: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معًا.

واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكنًا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنًا إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين، أولاً ثم ذكر التوحيد ودلائله، ثانيًا عاد إلى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي [يوم] القيامة فيقول ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ والمعنى: أين الذين ادعيتم إلهيتهم لتخلصكم؟ أو أين قولكم: تقربنا إلى الله زلفى؟ وقد علموا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائدًا في غمهم إذا خوطبوا بهذا القول.

أما قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ فالمراد مَيَّزْنا واحدًا ليشهد عليهم، ثم قال بعضهم: هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا في إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدًا في غمهم، وقال آخرون: بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ويدخل في جملتهم الأنبياء، وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التي لم يوجد فيها النبي وهي أزمنة الفترات والأزمنة التي حصلت بعد محمد ﷺ فعلموا حينئذٍ أن الحق لله ولرسله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الباطل والكذب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضًا حملهُ على القرابة، قال الكلبي: إنه كان ابن عم موسى عليه السلام، لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى، وموسى ابن عمران بن قاهث بن لاوى، وقال محمد بن إسحاق إنه كان عم موسى عليه السلام، لأن موسى ابن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون ابن يصهر بن قاهث. وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته، ثم قيل إنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، إلا أنه نافق كما نافق السامري.

أما قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ففيه وجوه أحدها: أنه بغى بسبب ماله، وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله، والثاني: أنه من الظلم، قيل ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم، الثالث: قال القفال: بغى عليهم، أي طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده، الرابع: قال الضحاك: طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم في أمر، الخامس: قال ابن عباس: تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم، السادس: قال شهر بن حوشب: بغيه عليهم أنه زاد عليهم في الثياب شبرًا، وهذا يعود إلى التكبر، السابع: قال الكلبي: بغيه عليهم أنه حسد هارون على الحبورة، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهارون، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح، وكان لموسى الرسالة، فوجد قارون من ذلك في نفسه، فقال: يا موسى لك الرسالة، ولهارون الحبورة، ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا، فقال موسى عليه السلام: والله ما صنعت ذلك لهارون ولكن الله جعله له، فقال: والله لا أصدقك أبدًا حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهارون، قال: فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه، فجاءوا بها، فألقاها موسى عليه السلام في قبة له، وكان ذلك بأمر الله تعالى، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون أما ترى ما صنع الله لهارون! فقال: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير، وولي هارون الحبورة والمذبح والقربان، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هارون فيضعها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل، فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «**كَانَ قَارُونُ مِنَ السَّبْعِينَ الْمُخْتَارَةِ الَّذِينَ سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى**».

أما قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ **ففيه أبحاث:**

الأول: قال الكعبي: ألستم تقولون: إن الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ وأجاب بأنه لا حجة في أنه كان حرامًا، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك، وكان هذا الظفر طريق التملك، أو وصل إليه بالإرث من جهات، ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملاً.

البحث الثاني: المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو ما يفتح به، وقيل هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم، ويقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم.

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول: ههنا قولان أحدهما: أن المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب، قالوا: كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع، وكان لكل خزانة مفتاح، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلاً، ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين الأول: أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح، فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح، الثاني: أن الكنوز هي الأموال المدخرة في الأرض، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح، والجواب عن الأول: أن المال إذا كان من جنس العروض، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد، وأيضًا فهذا الذي يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملاً، ليس مذكورًا في القرآن فلا تقبل هذه الرواية، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة، وكان كل واحد منها معينًا لشيء آخر، فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد، وعن الثاني: أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق، القول الثاني: وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد. قال ابن عباس: كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء، وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف، القول الثالث: وهو اختيار أبي مسلم: أن المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها، ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمور أحدها: قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ والمراد لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً، وقال بعضهم: إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي:

أَشَـدُّ الـغَـمِّ عِـنْـدِي فِـي سُـرُورٍ تَـيَقَّـنَ عَـنْـهُ صَاحِبُهُ انْـتِقَـالاً [١]

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] قال ابن عباس: كان فرحه ذلك شركًا، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى، وثانيها: قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ والظاهر أنه كان مقرًّا بالآخرة، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع، وثالثها: قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وفيه وجوه: أحدها: لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك، وثانيها: لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة، وثالثها: المراد منه الإنفاق في طاعة الله فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال عليه السلام: «فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنَ الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ» [٢] ورابعها: قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ لما أمره بالإحسان بالمال أمره بالإحسان مطلقًا ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر، وإنما قال: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ تنبيهًا على قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وخامسها: قوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل: إن هذا القائل هو موسى عليه السلام، وقال آخرون: بل مؤمنو قومه، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد، لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال: إنما أوتيته على علم عندي وفيه وجوه: أحدها: قال قتادة ومقاتل والكلبي: كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة فقال: إنما أوتيته لفضل علمي واستحقاقي لذلك، وثانيها: قال سعيد بن المسيب والضحاك: كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبًا، وثالثها: أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات، ورابعها: أن يكون قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي الله أعطاني ذلك مع كونه عالمًا بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل، وقوله: ﴿عِندِىٓ﴾ أي عندي أن الأمر كذلك، كما يقول المفتي، عندي أن الأمر كذلك، أي مذهبي واعتقادي ذلك، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ وفيه وجهان: الأول: يجوز أن يكون هذا

---

(١) المتنبي تقدمت ترجمته.

(٢) القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٤٢٥)، حديث رقم (٧٣٠) من طريق أبي محمد يحيى بن ثمامة بن حجر القرشي حدثنا محمد بن زكريا بن دينار حدثنا ابن عائشة عن أبيه ومحمد بن حفص والد ابن عائشة، ذكره ابن حجر في (تعجيل المنفعة) (١/ ٣٦٣)، وقال الحسيني: فيه نظر.

إثباتًا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له: أولم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته، الثاني: يجوز أن يكون نفيًا لعلمه بذلك كأنه لما قال: أوتيته على علم عندي، فتصلف بالعلم وتعظم به، قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين؟.

أما قوله: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فالمعنى أكثر جمعًا للمال أو أكثر جماعة وعددًا، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافًا.

فأما قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال، فإن قيل: كيف الجمع بينه وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٩٢] قلنا: يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه، وذكر أبو مسلم وجهًا آخر فقال: السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتقرير والتبكيت، وقد يكون للاستعتاب، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[النحل: ٨٤] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات ٣٥، ٣٦].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

أما قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر، إلا أن الناس ذكروا وجوهًا مختلفة في كيفية تلك الزينة، قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب، وقال بعضهم: بل خرج في تسعين ألفًا هكذا، وقال آخرون: بل على ثلاثمائة. والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ من هذه الأمور والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن

يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا: ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم، لأن للثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث، قال صاحب (الكشاف): ويلك أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى.

أما قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فقال المفسرون: لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: أحدهما: إلى ما دل عليه قوله: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون، والثاني: قال الزجاج: يعني، ولا يلقى هذه الكلمة - وهي قولهم: ثواب الله خير - إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار.

وأما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره، والفاء تدل على ذلك، لأن الفاء تشعر بالعلية، وثانيها: قيل إن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني إسرائيل، وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت، قال: نُبَرْطِلُ فلانة البغي حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستًا من ذهب مملوءًا ذهبًا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه، ومن زنى وهو [غَيْرُ] محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى، فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجدًا يبكي، وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك، فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعًا غير رجلين، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ما أفظك استغاثوا بك مرارًا فلم ترحمهم، أما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبًا مجيبًا فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة، قال القاضي: إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض

السابعة أو دون ذلك فإنه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة في الزجر، وأما قولهم: إنه تعالى قال: لو استغاث بي لأغثته، فإن صح حُمِل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام ما فعله إلا عن أمره فبعيد، وقولهم: إنه يتجلجل في الأرض أبدًا فبعيد لأنه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات، والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن، ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب.

أما قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال: نصره من عدوه فانتصر، أي منعه منه فامتنع.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجرًا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعيًا إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله.

أما قوله: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ فاعلم أن وي، كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم، فلما قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩] ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا: وي ثم قالوا: كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة، قال سيبويه: سألت الخليل عن هذا الحرف فقال: إن وي مفصولة من كان وإن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم: وي. وذكر الفراء وجهين: أحدهما: أن المعنى ويلك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال: ويلك اعلم أن الله، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس، الثاني: وي منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وي أما ترى ما بين يديك فقال الله وي ثم استأنف: كأن الله يبسط، فالله تعالى إنما ذكرها تعجبيًا لخلقه، قال الواحدي: وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة، وأجاب الأولون بأن خط

المصحف لا يقاس عليه، ثم قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهذا تأكيد لما قبله.

أما قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما، وعن علي عليه السلام: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها، قال صاحب (الكشاف): ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] والفساد لقارون لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [القصص: ٧٧] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾ وفيه وجوه: أحدهما: المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير وثانيها: حصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة، ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره في آخر النمل، وأما قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فظاهره أن لا يزادوا على ما يستحقون. وإذا صح ذلك في السيئات دل أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب، قال صاحب (الكشاف): تقدير الآية: ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون، لكنه كرر ذلك لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررًا فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين، وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها، وههنا سؤالان:

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧] كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة بمرة واحدة، وفي هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى في

ذكر الإحسان بمرة واحدة، فما السبب؟ الجواب: لأن هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة، فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب، لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة. وأما الآية الآخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى.

السؤال الثاني: كيف قال: لا تجزي السيئة إلا بمثلها مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذب أبد الآباد؟ والجواب: لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبدًا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه. قال الجبائي: وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذابًا دائمًا بغير جرم، قلنا: لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك، شرح له ما يتصل بأحواله فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال أبو علي: الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد، وتنكير المعاد لتعظيمه، كأنه قال: إلى معاد وأي معاد، أي ليس لغيرك من البشر مثله. وقيل: المراد به مكة، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح، ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادًا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهرًا ظافرًا. وقال مقاتل: إنه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه، فنزل جبريل عليه السلام وقال: تشتاق إلى بلدك ومولدك، فقال عليه السلام: نعم، فقال جبريل عليه السلام: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني إلى مكة ظاهرًا عليهم وهذا أقرب، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود، وذلك لا يليق إلا بمكة، وإن كان سائر الوجوه محتملاً لكن ذلك أقرب، قال أهل التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزًا، ثم قال ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ووجه تعلقه بما قبله أن الله تعالى وعد رسوله الرد إلى معاد، قال: ﴿قُل﴾ للمشركين ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنيهم وما يستحقون من العقاب في معادهم، ثم قال لرسوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ففي كلمة (إلا) وجهان: أحدهما: أنها للاستثناء، ثم قال صاحب (الكشاف): هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل: (وَمَا أُلْقِيَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) ويمكن أيضًا إجراؤه على ظاهره، أي وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك، أي ما كنت ترجو إلا على هذا، والوجه الثاني: أن إلا بمعنى لكن للاستدراك، أي ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا

﴿وَلَٰكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص: ٤٦] خصصك به، ثم إنه كلفه بأمور أحدها: كلفه بأن لا يكون مظاهرًا للكفار فقال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ وثانيها: أن قال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الميل إلى المشركين، قال الضحاك: وذلك حين دعوه إلى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرًا من مالهم، أي: لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله، وثالثها: قوله: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى دين ربك، وأراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأن من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم، ورابعها: قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وهذا وإن كان واجبًا على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصًا لأجل التعظيم، فإن قيل: الرسول كان معلومًا منه أن لا يفعل شيئًا من ذلك ألبتة فما فائدة هذا النهي؟ قلنا: لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد، ثم بين أنه لا إله إلا هو، أي: لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو، كقوله: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل: ٩] فلا يجوز اتخاذ إله سواه، ثم قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعًا به، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء، وإن كانت أجزاؤه باقية، فإنه يقال: هلك الثوب وهلك المتاع، ولا يريدون به فناء أجزائه، بل خروجه عن كونه منتفعًا به، ومنهم من قال: معنى كونه هالكًا كونه قابلاً للهلاك في ذاته، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك، فأطلق عليه اسم الهلاك نظرًا إلى هذا الوجه.

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا: ثبت أن العالم محدث، وكل ما كان محدثًا فإن حقيقته قابلة للعدم والوجود، وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبدًا، لأن الإمكان من لوازم الماهية، ولازم الماهية لا يزول قط، إلا أنا لما نظرنا في هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ما سوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز، فالدليل الذي يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ما سوى الله تعالى إلا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث، ولهم في نفي هذا القسم الثالث طريقان، أحدهما: قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في الكتب الكلامية، والثاني: قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركًا لله تعالى في نفي المكان

والزمان والإمكان، ولو كان كذلك لصار مثلاً لله تعالى وهو ضعيف، لاحتمال أن يقال: إنهما وإن اشتركا في هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا يفي بإثبات أن كل شيء هالك إلا وجهه، والذي يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول: ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته، وإلا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته، وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبًا عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه، ثم إن الجزأين إن كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضًا ويلزم التسلسل وهو محال، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجبًا، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح، وافتقاره إلى المرجح، إما حال عدمه أو حال وجوده، فإن كان الأول ثبت أنه محدث، وإن كان الثاني فافتقار الموجود إلى المؤثر، إما حال حدوثه أو حال بقائه، والثاني باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال، فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث، وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزًا أو قائمًا بالمتحيز أو لا متحيزًا ولا قائمًا بالمتحيز، فإن نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته، فاعلم أن هناك فرقًا قويًا وإذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثًا كان قابلاً للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شيء هالك إلا وجهه، بمعنى كونه قابلاً للهلاك والعدم، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال، وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال، وعلى ما قلتموه أنها ستهلك لا إنها هالكة في الحال، فكان قولنا أولى وأيضًا فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقًا لا للوجود ولا للعدم من ذاته، فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالإنسان الفقير الذي استعار ثوبًا من رجل غني، فإن الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرًا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبدًا هالكة من حيث هي هي، أما الذين حملوه على أنها ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا: الهلاك في اللغة له معنيان: أحدهما: خروج الشيء عن أن يكون منتفعًا به، الثاني: الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال، لأنها وإن تفرقت أجزاؤها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم، وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة، وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة. وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء. أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال: هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوبًا لأجلها، فإذا مات الإنسان قيل: هلك، لأن الصفة

المطلوبة منه حياته وعقله، وإذا تمزق الثوب قيل: هلك، لأن المقصود منه صلاحيته للبس، فإذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لأجلها كانت منتفعًا بها انتفاعًا خاصًا، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها، فأما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ٤٨] وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع.

المسألة الثانية: احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء، قالوا لأنه استثنى من قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ، فوجب كونه شيئًا يؤكده ما ذكرناه في سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ١٩] واحتجاجهم على أنه ليس بشيء بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١] والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئًا، جوابه: أن الكاف صلة زائدة.

المسألة الثالثة: استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين: الأول: قالوا: الآية صريحة في إثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية، والثاني: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل إلا في الأجسام. والجواب: لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة. وهو بيان ابن سمعان وذلك لا يقول به عاقل، ثم من الناس من قال: الوجه هو الوجود والحقيقة، يقال: وجه هذا الأمر كذا، أي حقيقته، ومنهم من قال الوجه صلة، والمراد: كل شيء هالك إلا هو، وأما كلمة (إلى) فالمعنى: وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون.

المسألة الرابعة: استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين، قالوا لأن الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا، وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾[الرعد: ٣٥]. والجواب: هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣] وفي صفة النار: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤] ثم إما أن يحمل قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ على الأكثر، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٢٣] أو يحمل قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾[الرعد: ٣٥] على أن زمان فنائهما لما كان قليلاً بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ يدل على أن الذات ذات بالفعل، لأنه حكم بالهلاك على الشيء فدل على أن الشيء في كونه شيئًا قابل للهلاك، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئًا، والله أعلم. والحمد لله رب العالمين.

سورة القصص

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آيةً نزلت بين مكة والمدينة[١]. وقال ابن سلاَّم: بالجَحْفةِ في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢]. وهي ثمانٌ وثمانون آية[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ تقدَّم الكلام فيه[٤]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ «تِلْكَ» في موضع رفعٍ بمعنى: هذه تلك، و«آياتُ» بدلٌ منها. ويجوزُ أن تكون «تلك»[٥] في

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

(٤) في أول سورة الشعراء.

(٥) كلمة «تلك» من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضع نصبٍ بـ «نَتْلُو» و«آيَاتُ» بدلٌ منها أيضاً، وتنصبُها كما تقول: زيداً ضربتُ[١].
و«الْمُبِينِ» أي: المبينِ بركتَه وخيرَه، المبينِ الحقَّ من الباطل، والحلالَ من الحرام، وقصصَ الأنبياء، ونبوَّةَ محمدٍ ﷺ. ويقال: بانَ الشيءُ وأبانَ: اتَّضح[٢].

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكرَ قصةَ موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتجَّ على مشركي قريش، وبيَّنَ أنَّ قرابةَ قارون من موسى لم تنفَعْه مع كفره، وكذلك قرابةُ قريشٍ لمحمد، وبيَّنَ أنَّ فرعونَ علا في الأرض وتجبَّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنبِ العلوَّ في الأرض، وكذلك التعزُّزَ بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ أي: يقرأ عليكَ جبريلُ بأمرنا ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: من خبرِهما[٣]، و«من» للتبعيض و«مِنْ نَبَإ» مفعول «نَتْلُو» أي: نَتْلو عليك بعضَ خبرهما، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[٤] [المؤمنون: ٢٠]. ومعنى: «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق الذي لا ريبَ فيه ولا كذب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله، فأمَّا مَنْ لم يؤمن فلا يعتقِدُ أنه حقٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبر وتجبَّر. قاله ابن عباس والسُّدِّي[٥]. وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادَّعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه، فصارَ عالياً على مَنْ تحت يده. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً وأصنافاً في الخدمة[٦]. قال الأعشى[٧]:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٧.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٨ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٦ عن السدي، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣، وزاد المسير ٦/ ٢٠١.

(٧) في ديوانه ص١٥٣.

وبلدةٍ يَرْهَبُ الجوَّابُ[١] دُلْجَتها[٢] حتى تراه عليها يَبْتغي الشِّيعا

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل[٣]. ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم القولُ في هذا في «البقرة»[٤] عند قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية؛ وذلكَ لأنَّ الكهنةَ قالوا له: إنَّ مولوداً يولَدُ في بني إسرائيل يذهبُ مُلكُكَ على يديه[٥]، أو قال المنجِّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعُبِّرت كذلك[٦]. قال الزجَّاج: العجَبُ من حُمقِه لم يَدْرِ أنَّ الكاهن إن صدَقَ فالقتلُ لا ينفع، وإن كذبَ فلا معنى للقتل[٧]. وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كلَّ قومٍ من بين إسرائيل في شغل مفرد[٨]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبُّر[٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نتفضَّل عليهم ونُنعِم[١٠]. وهذه حكايةٌ مضت. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال ابن عباس: قادةً في الخير. مجاهد: دُعاةً إلى الخير. قتادة: وُلاةً وملوكاً، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[١١] [المائدة: ٢٠].

---

(١) أي: الذي يقطع البلاد سيراً فيها. اللسان (جوب).

(٢) المثبت من الديوان، والدُّلجة: السير آخر الليل. اللسان (دلج). وفي (ظ): وُلجتها. وفي (د) و(ز): داجتها. وفي (م): دجلتها.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(٤) ٢/ ٨٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٤ عن السدي.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢ .

(٨) وقد سلف بيان ذلك ٢/ ٨٥ .

(٩) الوسيط ٣/ ٣٩٠ .

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(١١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ ، والكشاف ٣/ ١٦٥ .

قلت: وهذا أعَمُّ، فإنَّ المَلِكَ إمامٌ يؤتَمُّ به ويُقتدى به. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِمُلكِ فرعون؛ يرثون مُلكَه، ويسكنون مساكنَ القبط[1]. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نجعلَهم مُقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر[2]. ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: ونُريدُ أن نُرِيَ فرعون.

وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: «وَيَرى» بالياء على أنه فعلٌ ثلاثيٌّ من رأى «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» رفعاً؛ لأنه الفاعل. الباقون: «نُرِيَ» بضَمِّ النون وكسر الراء على أنه فعلٌ رباعيٌّ من أرى يُرِي، وهي على نسق الكلام؛ لأنَّ قبلَه «وَنُرِيدُ» وبعده «نُمَكِّنَ». «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» نصباً بوقوع الفعل[3]. وأجازَ الفرَّاءُ «وَيُرِيَ فِرْعَوْن» بضَمِّ الياء وكسر الراء وفتح الياء، بمعنى: ويُرِيَ اللهُ فرعونَ[4] ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أُخبِروا أنَّ هلاكَهم على يَدَي رجلٍ من بني إسرائيل، فكانوا على وَجَلٍ «مِنْهُمْ» فأراهم الله «ما كانُوا يَحْذَرونَ»[5]. قال قتادة: كان حَازياً لفرعون ـ والحازي: المُنجِّم ـ قال: إنه سيولَدُ في هذه السنة مولودٌ يذهب بملكِكَ؛ فأمر فرعونُ بقتلِ الوِلْدانِ في تلك السنة[6]. وقد تقدَّم[7].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٥ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ بنحوه. وينظر السبعة ص٤٩٢، والتيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٨. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٢، إلا أنه قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤، وزاد المسير ٦/ ٢٠١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٧، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٧٣).

(٧) ٢/ ٨٨.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قد تقدَّم معنى الوحي ومحامله. واختُلِفَ في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلهاماً. وقالت فرقة: كان بمَلَكٍ تَمَثَّلَ لها[1]. قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك[2]. فعلى هذا هو وحيُ إعلامٍ لا إلهام.

وأجمعَ الكلُّ على أنها لم تكن نبيَّة، وإنَّما إرسال المَلَكِ إليها على نحو تكليم المَلكِ للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرَّجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة «براءة»[3]. وغير ذلك ممَّا رُويَ من تكليم الملائكة للناس من غير نبوَّة[4]، وقد سلَّمتْ على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيّاً. واسمُها أيارخا. وقيل: أيارخت فيما ذكر السهيلي[5]. وقال الثعلبي: واسم أم موسى لوخا بنت هاند ابن لاوى بن يعقوب[6]. «أَنْ أَرْضِعِيهِ» وقرأ عمر بن عبد العزيز: «أَنِ ارْضِعِيهِ» بكسر النون وألف وصل؛ حذفَ همزةَ «أرضع» تخفيفاً، ثم كسرَ النونَ لالتقاء الساكنين[7].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٤)، وصحيح مسلم (١٠١٧)، وقد سلف ١٠/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠، ووقع في مطبوعه: إيمارخا. وقيل: أياذخت.

(٦) وقع اسمها في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤: يوخانذ بنت لاوى بن يعقوب.

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٧ إلا أنه ذكر أن حذف الهمزة اعتباطاً لا تخفيفاً. قلنا: وهي قراءة شاذة.

قال مجاهد: وكان الوحيُ بالرَّضاع قبل الولادة. وقال غيرُه: بعدَها[١]. قال السُّدِّي: لمَّا ولدَتْ أمُّ موسى أمرت أن تُرضِعَه عُقيبَ الولادة وتصنعَ به بما في الآية؛ لأنَّ الخوفَ كان عُقيبَ الولادة. وقال ابن جُريج: أُمِرَتْ بإرضاعِه أربعةَ أشهرٍ في بستان، فإذا خافت أن يصيح ـ لأنَّ لبنَها لا يكفيه ـ صنعَتْ به هذا. والأوَّل أظهرُ، إلَّا أنَّ الآخَرَ يعضِدُه قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و«إِذَا» لِما يُستقبَلُ من الزمان[٢]؛ فيُروى أنَّها اتخذَتْ له تابوتاً من بَرْدِيٍّ وقيَّرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقَتْه في نيل مصر[٣]. وقد مضى خبره في «طه»[٤]. قال ابن عباس: إنَّ بني إسرائيل لمَّا كثُروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، فسلَّط الله عليهم القِبطَ، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجَّاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغني أنَّ فرعونَ ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفاً. ويُروى أنها حين اقتربت وضَربَها الطَّلقُ، وكانت بعضُ القوابلِ المُوكلاتِ بحبَالى بني إسرائيل مصافيةً لها، فقالت: لِينفعني حُبُّكِ اليوم. فعالجَتْها، فلمَّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عينيه، وارتعشَ كلُّ مَفْصِلٍ منها، ودخل حبُّه قلبَها، ثم قالت: ماجئتُكِ إلَّا لأقتُلَ مولودَكِ وأُخبِرَ فرعون، ولكني وجدتُ لابنِكِ حُبّاً ما وجدتُ مثلَه قطّ، فاحفظيه. فلمَّا خرجت جاء عيونُ فرعون فَلفَّتْه في خرقةٍ ووضعته في تُنُّورٍ مسجورٍ ناراً لم تعلمْ ما تصنعُ لمَّا طاشَ عقلُها، فطلبوا فلم يُلفوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعتْ بكاءَه من التُّنُّور، وقد جعلَ اللهُ عليه النارَ برداً وسلاماً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ لا تخافي عليه الغرق. قاله ابن

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) عرائس المجالس ص١٧٠ عن مقاتل.

(٤) ١٤/ ٥٧.

(٥) عرائس المجالس ص١٧١ - ١٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

زيد. الثاني - لا تخافي عليه الضَّيعة. قاله يحيى بن سَلَّام. ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ فيه أيضاً وجهان: أحدهما - لا تحزني لفراقه. قاله ابن زيد. الثاني - لا تحزني أن يُقتل. قاله يحيى بن سَلَّام. فقيل: إنها جعلَتْه في تابوتٍ طولُه خمسةُ أشبار، وعرضُه خمسةُ أشبار، وجعلتِ المفتاحَ مع التابوت وطرحَتْه في اليمِّ بعد أن أرضعَتْه أربعة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ في حكاية الكلبي. وحُكِيَ أنَّه لمَّا فرغَ النجَّارُ من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعثَ معه مَنْ يأخذه، فطمسَ اللهُ عينيه وقلبَه فلم يعرفِ الطريق، فأيقنَ أنه المولود الذي تخوَّفَ[1] منه فرعون، فآمن مِنْ ذلك الوقت، وهو مؤمن آل فرعون. ذكره الماوردي[2]. وقال ابن عباس: فلمَّا توارى عنها ندَّمَها الشيطانُ وقالت في نفسها: لو ذُبِحَ عندي فكفَّنْتُه وواريتُه لكان أحبَّ إليَّ من إلقائه في البحر، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إلى أهل مصر. حكى الأصمعيُّ قال: سمعتُ جاريةً أعرابيةً تنشد وتقول:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كلِّهِ قَبَّلتُ إنساناً بغيرِ حِلِّهِ
مثلَ الغزالِ ناعماً في دَلِّهِ فانتصفَ الليلُ ولم أُصَلِّهِ

فقلتُ: قاتَلكِ اللهُ ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية؛ فجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لمَّا كان التقاطُهم إيَّاه يؤدِّي إلى كونه لهم عدوّاً وحزناً؛ فاللامُ في «ليكون» لامُ العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قُرَّةَ عين، فكان عاقبةُ ذلك أنْ كان لهم عدوّاً وحزناً[3]،

(١) المثبت من (ظ)، وفي (د) و(ز): خوف، وفي (م): يخاف.
(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٦ ، وما بعده منه.
(٣) البيان ٢/ ٢٢٩ .

فذكر الحال بالمآل، كما قال الشاعر:

وللمنايا تُربِّي كلُّ مُرضِعةٍ ودُورُنا لخرابِ الدهرِ نَبْنِيها[١]

وقال آخر:

فللموتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخالَها كما لخرابِ الدَّهرِ تُبنَى المساكنُ[٢]

أي: فعاقبةُ البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به.

والالتقاط: وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، والعربُ تقول لِما وجدَتْه من غير طلب ولا إرادة: التقطَه التقاطاً. ولقيتُ فلاناً التقاطاً. قال الراجز:

ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا[٣]

ومنه اللقطة. وقد مضى بيانُ ذلك من الأحكام في سورة «يوسف»[٤] بما فيه كفاية.

وقرأ الأعمش ويحيى والمُفضَّل وحمزة والكسائي وخلف: «وَحُزْناً» بضَمِّ الحاء وسكون الزاي. الباقون بفتحهما، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: للتفخيم فيه[٥]. وهما لغتان، مثل: العَدَم والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد[٦]. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وكان وزيره من القِبط. ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين مشركين

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٧، لكن الصواب في هذا البيت كما في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٣، وزاد المسير ٤/ ٥٦: وللمنايا تربِّي كلُّ مرضعةٍ.... وللخراب يُجدُّ الناس عمرانا. أما عجز البيت الذي ذكره المصنف فقد سلف ٣/ ٥٠، وصدره: أموالنا لذوي الميراث نجمعها.

(٢) قائله سابق بن عبد الله البربري كما في العقد الفريد ٢/ ٦٩.

(٣) الفائق ٣/ ٤٢٧ بنحوه. وتتمة الرجز: «لم ألقَ إذ وردتُه فراطا»، وهو لنقادة الأسدي كما في اللسان (لقط).

(٤) ١١/ ٢٦٦ - ٢٧١.

(٥) قراءة حمزة والكسائي وخلف في السبعة ص٤٩٢، والتيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١. وقراءة الأعمش ويحيى في المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩١.

آثمين[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يُروى أنَّ آسية امرأةَ فرعون رأتِ التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسَوقِه إليها وفَتْحِه، فرأت فيه صبيّاً صغيراً، فرحمَتْه وأحبَّته، فقالت لفرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ»[٢] أي: هو قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ، فـ «قُرَّةُ» خبرُ ابتداءٍ مُضمَرٍ. قاله الكسائي. وقال النحَّاس: وفيه وجهٌ آخرُ بعيدٌ ذكره أبو إسحاق؛ [قال][٣]: يكون رفعاً بالابتداء، والخبر «لا تَقْتُلوهُ» وإنما بَعُدَ؛ لأنَّه يصير المعنى أنه معروف بأنه قُرَّةُ عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرَّةُ عينٍ لي ولكَ فلا تقتلوه[٤]. وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «وَلَكَ»[٥]. ويجوز النَّصب بمعنى: لا تقتلوا قرةَ عينٍ لي ولك. وقالت: «لا تَقتلُوهُ» ولم تَقُل: لا تقتُلْه، فهي تخاطب فرعون كما يُخاطَبُ الجبَّارون، وكما يُخبرون عن أنفسهم[٦]. وقيل: قالت: «لا تَقْتُلوهُ» فإنَّ اللهَ أتى به من أرضٍ أخرى وليس من بني إسرائيل[٧]. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيبَ منه خيراً[٨] ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبَه لها، وكان فرعونُ لمَّا رأى الرؤيا وقصَّها على كهنته وعلمائه ـ على ما تقدَّم ـ قالوا له: إنَّ غلاماً من بني إسرائيل يُفسِدُ ملكَك. فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فوُلِدَ هارونُ عليه السلام في عام الاستحياء، ووُلِدَ موسى عليه السلام في عام الذبح[٩].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧.

(٣) ما بين حاصرتين يقتضيه السياق.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٣٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٩. قلنا: وقراءة ابن مسعود هذه شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٨) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلامٍ من الله تعالى، أي: وهم لا يشعرون أنَّ هلاكَهم بسببه[١]. وقيل: هو من كلام المرأة، أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنَّا التقطناه، ولا يشعرون إلَّا أنه ولَدُنا[٢].

واختلف المتأوِّلون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» فقالت فرقة: كان ذلكَ عند التقاطِ التابوت لمَّا أشعرَتْ فرعونَ به، ولما أعلمته سبق إلى وهمه[٣] أنه من بني إسرائيل، وأنَّ ذلك قصدَ به ليتخلَّص من الذبح فقال: عليَّ بالذبَّاحين. فقالت امرأتُه ما ذُكِرَ، فقال فرعون: أمَّا لي فلا. قال النبيُّ ﷺ: «لو قال فرعون: نعم، لآمنَ بموسى، ولكان قرَّةَ عينٍ له»[٤] وقال السُّدِّي: بل ربَّتْه حتى دَرَج، فرأى فرعونُ فيه شهامةً، وظنَّه من بي إسرائيل وأخذَه في يده، فمدَّ موسى يدَه ونتفَ لحية فرعون، فهمَّ حينئذٍ بذبحه، وحينئذٍ خاطبَتْه بهذا، وجرَّبَتْه له في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانُه وعلق العقدة[٥]. على ما تقدَّم في «طه»[٦]. قال الفرَّاء: سمعتُ محمد بن مروان الذي يُقال له السُّدِّي يذكر عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لَا» ثم قالت: «تَقْتُلُوهُ» قال الفرَّاء: وهو لحن[٧]؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللَّحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأنَّ الفعل المستقبل مرفوعٌ حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال الفرَّاء: ويُقوِّيك على ردِّه قراءةُ عبد الله بن

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٢.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٣) في (م): فهمه.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٣ من طريق أبي معشر، عن محمد بن قيس المدني، عن النبي ﷺ. إسناده معضل. وأبو معشر: هو نَجيح بن عبد الرحمن المدني، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤-٢١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٦) ١٤/ ٥١ - ٥٢.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٢.

مسعود: «وقالَتِ امرأةُ فِرْعونَ لا تقتلوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» بتقديم «لا تقتُلوهُ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجَوْني وأبو عبيدة: «فَارِغاً» أي: خالياً من ذكر كلِّ شيءٍ في الدنيا إلَّا من ذكر موسى(٢). وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: «فَارِغاً» من الوحي إذْ أوحى إليها حين أُمرت أن تُلقيَه في البحر «لا تخافي ولا تحْزَني» والعهد الذي عَهِدَه إليها أن يردَّه ويجعلَه من المرسلين، فقال لها الشيطان: يا أمَّ موسى، كرهتِ أن يقتُلَ فرعونُ موسى فغرَّقتيه أنت! ثم بلَغها أنَّ ولدها وقع في يد فرعون، فأنساها عِظَمُ البلاء ما كان من عهد اللهِ إليها(٣). وقال أبو عبيدة: «فارِغاً» من الغَمِّ والحزن؛ لِعلمها أنَّه لم يغرق(٤). قاله الأخفش أيضاً. وقال العلاء بن زياد: «فارِغاً»: نافراً(٥). الكسائي: ناسياً ذاهلاً(٦). وقيل: والهاً. رواه

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٦٧ - ١٦٨ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٠٥) عن ابن مسعود، و(١٦٧٠٦) و(١٦٧٠٦) عن ابن عباس.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٦٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٩٨ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ . وقول العلاء بن زياد أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٧٠٩).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠ .

سعيد بن جُبير[١]. ابن القاسم عن مالك: هو ذهابُ العقل[٢]. والمعنى: أنَّها حين سمعت بوقوعه في يدِ فرعون طارَ عقلُها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] أي: جُوَفٌ لا عقولَ لها ـ كما تقدَّم في سورة «إبراهيم» ـ وذلكَ أنَّ القلوب مراكز العقول؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦] ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ: «فَزِعاً»[٣]. النحَّاس[٤]: أصحُّ هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلَمُ بكتاب الله عزَّ وجلَّ؛ فإذا كان فارغاً من كلِّ شيءٍ إلَّا من ذكرِ موسى فهو فارغٌ من الوحي. وقول أبي عبيدة: «فارغاً من الغَمِّ» غلطٌ قبيحٌ؛ لأنَّ بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كادت تقولُ: واابناه!.

وقرأ فَضالة بن عُبيد الأنصاري ﷺ ومحمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية وابن مُحيْصِن: «فَزِعاً» بالفاء والعين المهملة من الفزع، أي: خائفةً عليه أن يُقتل[٥]. ابن عباس: «قَرِعاً» بالقاف والراء والعين المهملتين، وهي راجعةٌ إلى قراءة الجماعة «فَارِغاً»؛ ولذلكَ قيل للرأس الذي لا شعرَ عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعر. وحكى قُطرب أنَّ بعض أصحاب النبيِّ ﷺ قرأ: «فِرْغاً» بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً[٦]؛ يقال: دماؤهم بينهم فِرْغٌ أي: هدر، والمعنى: بطَلَ قلبُها وذهب، وبقيتْ لا قلبَ لها من شدَّة ما ورد عليها[٧].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٧ .

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٥) في المحتسب ٢/ ١٤٧ عن فضالة والحسن وأبي الهذيل وابن قطيب، وفي الشاذة ص١١١ عن فضالة وابن قطيب وأبي زرعة، وفي زاد المسير ٦/ ٢٠٤ عن أبي العالية وأبي رزين والضحاك وقتادة وعاصم الجحدري.

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٨ ، وهما قراءتان شاذتان.

(٧) الكشاف ٣/ ١٦٧ .

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهان: أحدهما ـ أنها ألقَتْه ليلاً، فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني ـ أنها ألقَتْه نهاراً، ومعنى: «أَصْبَحَ» أي: صار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاءُ بالأمرِ الرشيدِ وأصبحتِ المدينةُ للوليدِ[١]

﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: إنَّها كادت، فلما حذفت الكناية سكنت النون. فهي «إِنْ» المخففة؛ ولذلك دخلت اللام في ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر[٢]. قال ابن عباس: أي: تصيح عند إلقائه: واابناه. السُّدِّي: كادت تقول لما حُمِلَتْ لإرضاعه وحضانته: هو ابني. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعتِ الناسَ يقولون: موسى بن فرعون، فشقَّ عليها وضاقَ صدرُها، وكادت تقول: هو ابني[٣]. وقيل: الهاء في «به» عائدةٌ إلى الوحي، تقديره: إن كادت[٤] لَتُبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نردَّه عليها[٥]. والأوّل أظهر. قال ابن مسعود: كادَتْ تقول: أنا أمه[٦]. وقال الفرَّاء[٧]: إن كادت لَتُبدي باسمه لضيق صدرها.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ قال قتادة: بالإيمان. السُّدِّي: بالعصمة[٨]. وقيل: بالصبر. والربطُ على القلب: إلهام الصبر[٩]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥ . وقول ابن عباس في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ .

(٤) في (م): كانت، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٣ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٤ .

المُصدِّقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[١]. وقال: ﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ ولم يقل: لِتبديه؛ لأنَّ حروفَ الصفات قد تُزادُ في الكلام؛ تقول: أخذتُ الحبلَ وبالحبل. وقيل: أي: لِتُبدي القولَ به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: قالت أمُّ موسى لأخت موسى: اتبعي أثرَه حتى تعلمي خبره[٢]. واسمها مريم بنت عمران؛ وافق اسمُها اسمَ مريمَ أمِّ عيسى عليه السلام. ذكره السُّهيلي[٣] والثعلبي. وذكر الماوردي[٤] عن الضحاك: أنَّ اسمها كلثمة. وقال السُّهيلي[٥]: كلثوم؛ جاء ذلك في حديثٍ رواه الزُّبير بن بكّار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لخديجة: «أشعَرْتِ أنَّ الله زوَّجني معك في الجنة مريمَ بنتَ عمران وكلثومَ أختَ موسى وآسيةَ امرأةَ فرعون؟» فقالت: اللهُ أخبركَ بهذا؟ فقال: «نعم» فقالت: بالرِّفاءِ والبنين[٦].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: بُعدٍ. قاله مجاهد، ومنه الأجنبي؛ قال الشاعر:

فَلا تَحْرِمَنِّي نائِلاً عن جَنابةٍ ... فإِنِّي امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَريبُ

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن جانب[٧]. وقرأ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٠

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠ .

(٦) أخرجه الطبراني ٢٢/ (١١٠٠) عن ابن أبي رواد. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢١٨ : رواه الطبراني منقطع الإسناد. قلنا: وفيه محمد بن الحسن بن زَبالة قال الحافظ في التقريب: كذَّبوه.
وأخرجه الطبراني (٨٠٠٦) دون قوله: «بالرفاء والبنين» من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي: فيه خالد ابن يوسف السمتي، وهو ضعيف. قلنا: وفيه عبد النور بن عبد الله المسمعي، وهو كذاب. وفيه يونس ابن شعيب، وهو منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٧١ و٤/ ٤٨١ .
وأخرجه الطبراني (٥٤٨٥) مختصراً من حديث سعد بن جنادة ﷺ. قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٥ . والبيت قائله علقمة بن عبدة الفحل، وقد سلف ٦/ ٣٠٣ .

النعمان بن سالم: «عن جانِبٍ» أي: عن ناحية[١]. وقيل: عن شوق. وحكى أبو عَمرو ابن العلاء أنَّها لغةٌ لِجُذام؛ يقولون: جنبتُ إليكَ أي: اشتقتُ[٢]. وقيل: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن مُجانبةٍ لها منه، فلم يعرِفوا أنها أمُّه بسبيل[٣]. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه بناحيةٍ [كأنَّها] لا تريده[٤]، وكان يقرأ: «عَنْ جَنْبٍ» بفتح الجيم وإسكان النون[٥]. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أختُه، لأنَّها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: معناه من الارتضاع من قبل، أي: من قبل مجيء أمه وأخته[٧]. والْمَراضِعُ جمع مُرْضِع. ومن قال: مراضيع، فهو جمعُ مِرْضاع، ومِفعال يكون للتكثير، ولا تدخل الهاءُ فيه فرقاً بين المؤنث والمذكَّر؛ لأنه ليس بجارٍ على الفعل، ولكن من قال: مِرضاعة، جاء بالهاء للمبالغة؛ كما يُقال: مِطرابة[٨]. قال ابن عباس: لا يؤتى بمرضعٍ فيقبلها. وهذا تحريمُ منعٍ لا تحريمُ شرع؛ قال امرؤ القيس[٩]:

جَالَتْ لِتصرعَني فقلتُ لها اقْصِرِي إنِّـي امـرؤٌ صَـرْعـي عـلـيـكِ حَـرامُ

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٩ ، والشاذة ص١١٢ . ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٦ إلى ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٦ عن ابن إسحاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٨ ، والطبري ١٨/ ١٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٢٩) . وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٥) المحتسب ٢/ ١٤٩ عن قتادة والحسن والأعرج، والشاذة ص١١٢ عن قتادة وابن عباس والأعرج، وزاد المسير ٦/ ٢٠٦ عن قتادة وأبي العالية وعاصم الجحدري.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٩) في ديوانه ص١١٦ ، وقد سلف ٧/ ٤٠٢ .

أي: ممتنع. فلما رأتْ أختُه ذلك قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وما يُدريكِ؟ لعلكِ تعرفين أهلَه؟ فقالت: لا، ولكنهم يحرصون على مَسرَّة الملك، ويرغبون في ظِئْره[١]. وقال السُّدِّي وابن جُرَيج[٢]: قيلَ لها لمَّا قالت: «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» قد عرفتِ أهلَ هذا الصبيِّ فدُلِّينا عليهم. فقالت: أردتُ: وهم للملك ناصحون. فدلَّتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها، والصبيُّ على يدِ فرعون يُعلِّله شفقةً عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعَه إليها، فلمَّا وجدَ الصبيُّ ريحَ أمِّه قَبِلَ ثديَها[٣]. وقال ابن زيد: استرابوها حين قالت ذلك، فقالت: وهم للملك ناصحون[٤]. وقيل: إنَّها لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديَها فقالوا: من هي؟ فقالت: أمي. فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون ـ وكان وُلِدَ في سنةٍ لا يُقتل فيها الصبيان ـ فقالوا: صدقتِ والله. «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ»[٥] أي: فيهم شفقةٌ ونصح[٦]، فرُوي أنَّه قيل لأمِّ موسى حين ارتضع منها: كيفَ ارتضعَ منكِ ولم يرتَضِعْ من غيرك؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبةُ الريح، طيبةُ اللبن، لا أكادُ أوتى بصبيٍّ إلا ارتضع مني. قال أبو عِمران الجَوْني: وكان فرعون يُعطي أمَّ موسى كلَّ يومٍ ديناراً[٧]. قال الزمخشري[٨]: فإن قلتَ: كيف حَلَّ لها أن تأخذ الأجرَ على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذُه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مالُ حربيٍّ تأخذه على وجه

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٣) الكشاف ١/ ١٦٨

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٦٣ عن السدي.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٠٦ بنحوه.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول أبي عمران أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٣٩).

(٨) في الكشاف ٣/ ١٦٨ .

الاستباحة.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ أي: ردَدْناه وقد عَطَّفَ اللهُ قلبَ العدوِّ عليه، ووفينا لها بالوعد. ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: بفراق ولدها. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لتعلَم وقوعَه، فإنها كانت عالمةً بأنَّ ردَّه إليها سيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أكثر آل فرعون لا يعلمون، أي: كانوا في غفلةٍ عن التقدير وسِرِّ القضاء. وقيل: أي: أكثر الناس لا يعلمون أنَّ وعدَ الله في كلِّ ما وعدَ حَقٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قد مضى الكلام في الأشُدِّ في «الأنعام»[(١)]. وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النساء:٦] فإن ذلك أوّلُ الأشُدِّ، وأقصاه أربعٌ وثلاثون سنة، وهو قول سفيان الثوري[(٢)]، و«اسْتَوَى» قال ابن عباس: بلغَ أربعين سنة[(٣)]. والحُكم: الحكمة قبل النبوّة. وقيل: الفقه في الدين. وقد مضى بيانُها في «البقرة»[(٤)] وغيرِها. والعلم: الفهم في قول السدي. وقيل: النبوَّة. وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق: أي: العلم بما في دينه ودين آبائه؛ وكان له تسعةٌ من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوَّة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا أمَّ موسى لمَّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدَّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدَها إليها بالتُّحف والطُّرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة، وكذلك نجزي كلَّ محسن.

---

(١) ٩/ ١١١ - ١١٤ .

(٢) الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٢٤٠ ، وأخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره على التوالي (١٦٧٤١) و(١٦٧٤٢) و(١٦٧٤٣).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٤٠ .

(٤) ٢/ ٤٠٣ .

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لمَّا عرفَ موسى عليه السلام ما هو عليه من الحقِّ في دينه، عابَ ما عليه قومُ فرعون، وفشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً[(١)]. وقال السُّدِّي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّقِ بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يُدعى موسى ابن فرعون، فركب فرعونُ يوماً وسار إلى مدينةٍ من مدائن مصر يُقال لها: منف ـ قال مقاتل: على رأس فرسخين من مصر ـ ثم علم موسى بركوب فرعون، فركبَ بعده، ولحقَ بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة. قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمة. وقال ابن إسحاق: بل المدينةُ مصرُ نفسُها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلافَ فرعون، وعابَ عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلةٍ من أهلها[(٢)]. قال سعيد بن جُبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام[(٣)]. وقال ابن زيد: كان فرعونُ قد نابذَ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناسُ على غفلةٍ بنسيانهم لأمره،

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ دون قول مقاتل، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٦.

وبُعْدِ عهدِهم به، وكان ذلك يومَ عيد[١]. وقال الضحَّاك: طلبَ أن يدخل المدينةَ وقتَ غفلةِ أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه مِنْ قَتْلِ الرجلِ من قبل أن يؤمَرَ بقتله، فاستغفر ربَّه فغفرَ له. ويُقال في الكلام: دخلتُ المدينةَ حين غَفِلَ أهلُها، ولا يُقال: على حينِ غَفِلَ أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية؛ لأنَّ الغفلةَ هي المقصودة، فصار هذا كما تقول: جئتُ على غفلةٍ، وإن شئتَ قلتَ: جئتُ على حينِ غفلة، وكذا الآية. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ والمعنى: إذا نظرَ إليهما الناظرُ قال: هذا من شيعته، أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: من قوم فرعون[٢]. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: طلبَ نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيث به على قبطيٍّ آخر، وإنما أغاثَه لأنَّ نصرَ المظلوم دينٌ في الملل كلِّها على الأمم، وفرضٌ في جميع الشرائع[٣]. قال قتادة: أراد القبطيُّ أن يُسخِّر الإسرائيليَّ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى. قال سعيد بن جُبير: وكان خبازاً لفرعون. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة: بعصاه. وقال مجاهد: بكفِّه، أي: دفعه. والوكز واللَّكْز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد[٤]، وهو الضرب بجُمْع الكفِّ مجموعاً كعقد ثلاثةٍ وسبعين. وقرأ ابن مسعود: «فَلَكَزَهُ». وقيل: اللَّكْز في اللحى، والوكز على القلب. وحكى الثعلبيُّ أنَّ في مصحف عبد الله بن مسعود «فَنَكَزَهُ» بالنون والمعنى واحد[٥]. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللَّكزُ: الضرب بالجُمْعِ على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللَّهز: الضرب بُجْمع اليد في الصدر مثل اللَّكْز. عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللَّهازِم والرقبة، والرجل: مِلْهَز بكسر الميم. وقال الأصمعي: نَكَزه،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ .

أي: ضربَه ودفعَه. الكسائي: نَهزَه مثل نَكَزه ووكَزَه، أي: ضربه ودفعه. ولَهَده لَهْداً أي: دفعَه لذِلَّةٍ، فهو ملهود، وكذلك لَهَّده؛ قال طَرفَة يذمُّ رجلاً:

بطيءٍ عن الدَّاعي سريعٍ إلى الخنا ذَلُولٍ بأَجْماعِ الرجالِ مُلَهَّدِ[١]

أي: مُدفَّع، وإنما شدَّد للكثرة[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: فلهَدَني - تعني النبيَّ ﷺ - لَهْدةً أوجعني. خرَّجه مسلم[٣]. ففعل موسى عليه السلام ذلكَ وهو لا يريد قتله، إنَّما قصد دفْعَه فكانت فيه نفسُه، وهو معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[٤]. وكلُّ شيءٍ أتيتَ عليه وفرغتَ منه فقد قضيتَ عليه[٥]. قال:

قَدْ عَضَّهُ فَقَضى عليه الأَشْجَعُ[٦]

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من إغوائه. قال الحسن: لم يكن يحِلُّ قتلُ الكافر يومئذٍ في تلك الحال؛ لأنَّها كانت حالَ كفٍّ عن القتال[٧]. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ خبر بعد خبر[٨]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ نَدِمَ موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهابُ النفس، فحملَه ندَمُه على الخضوع لربِّه والاستغفار من ذنبه. قال قتادة: عرفَ واللهِ المخرجَ فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يُعدِّدُ ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غُفِرَ له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلِها[٩]. وإنَّما عدَّه على نفسه ذنباً وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ من أجل

---

(١) ديوان طرفة ص٤٠، وفيه: الجُلَّى بدل الداعي.

(٢) الصحاح (لكز) و(لهز) و(نكز) و(لهد).

(٣) في صحيحه (٩٧٤): (١٠٣).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٩٣.

(٦) عجز لبيت قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩١٣، وصدره: «أيُفايِشون وقد رأوا حُفَّاثهم». قال شارحه: المفايشة: المفاخرة. الحُفَّاث: حية لا سُمَّ لها. والأشجع: يريد الشجاع من الحيات القاتل.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١.

أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتى يؤمر[(١)]، وأيضاً فإنَّ الأنبياء يُشفقون مما لا يُشفِقُ منه غيرهم. قال النقَّاش: لم يقتُلْه عن عمدٍ مريداً للقتل، وإنما وكَزَه وكزةً يُريد بها دفع ظلمه. قال: وقد قيل: إنَّ هذا كان قبل النبوَّة. وقال كعب: كان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرة سنة، وكان قتلُه مع ذلك خطأً؛ فإنَّ الوكزةَ واللَّكزةَ في الغالب لا تقتل.

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق، ما أسألَكم عن الصغيرة، وأركَبَكم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بن عمر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنةَ تجيء من هاهنا - وأومأ بيده نحو المشرق - من حيثُ يطلعُ قرنا الشيطان، وأنتم بعضُكم يضرِبُ رقابَ بعضٍ، وإنما قتلَ موسى الذي قتل مِن آل فرعون خطأً، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠][(٢)]».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عوناً للكافرين. قال القشيري: ولم يقُلْ: بما أنعمتَ عليَّ من المغفرة؛ لأنَّ هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأنَّ الله غفرَ له ذلك القتل. وقال الماوردي[(٣)]: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فيه وجهان: أحدهما - من المغفرة، وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة فلَمْ تُعاقِبْني. الوجه الثاني - من الهداية.

قلت: قوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ يدلُّ على المغفرة، والله أعلم. قال الزمخشري[(٤)]: قولُه تعالى: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يجوز أن يكون قَسَماً جوابُه محذوفٌ تقديره: أُقسِمُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٠٥): (٥٠). وأخرجه أحمد (٤٩٨٠)، والبخاري (٣١٠٤) مختصراً.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٤٢.

(٤) في الكشاف ٣/ ١٦٩.

بإنعامِكَ عليَّ بالمغفرة لأتوبنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. وأن يكون استعطافا كأنَّه قال: ربِّ اعصمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إمَّا صحبةَ فرعون وانتظامَه في جملته، وتكثيرَ سوادِه، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يُسمى ابن فرعون، وإمَّا بمظاهرة مَنْ أدَّت مظاهرتُه إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليِّ المؤدِّيةِ إلى القتل الذي لم يَحِلَّ له قتلُه.

وقيل: أراد: إني وإن أسأتُ في هذا القتل الذي لم أومَرْ به فلا أتركُ نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيليُّ مؤمناً، ونصرةُ المؤمن واجبةٌ في جميع الشرائع.

وقيل في بعض الروايات: إنَّ ذلك الإسرائيليَّ كان كافراً[١]، وإنما قيل له إنه من شيعته؛ لأنَّه كان إسرائيلياً ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدين، فعلى هذا نَدِمَ؛ لأنَّه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكونُ بعدَها ظهيراً للكافرين.

وقيل: ليس هذا خبراً، بل هو دعاءٌ، أي: فلا أكونُ بعد هذا ظهيراً، أي: فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين. وهذا قول الكسائي والفرَّاء. وقال الكسائي: وفي قراءة عبد الله: «فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين»[٢]. وقال الفرَّاء: المعنى: اللهمَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين. وزعم أنَّ قولَه هذا هو قول ابن عباس. قال النحَّاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام، كما يُقال: لا أعصيكَ لأنكَ أنعمتَ عليَّ. وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفرَّاء؛ لأنَّ ابنَ عباس قال: لم يَستثْنِ فابتُليَ من ثاني يوم، والاستثناء لا يكون في الدعاء، لا يُقال: اللهمَّ اغْفِرْ لي إن شئت. وأعجبُ الأشياء أنَّ الفرَّاء روى عن ابن عباس هذا، ثم

(١) وهو قول مقاتل كما في الوسيط ٣/ ٣٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٩.

(٢) من قوله: وهذا قول الكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ) وإعراب القرآن ٣/ ٢٣٢، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٧. وقراءة عبد الله في الشاذة ص١١٣ دون قوله: يا ربِّ.

حكى عنه قوله[١].

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخَّصاً مُبيَّناً في سورة «النمل»[٢] وأنه خبرٌ لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يَستثنِ فابتُلِيَ به مرةً أخرى؛ يعني: لم يقُلْ: فلن أكونَ إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[٣] [هود: ١١٣].

الثانية: قال سلمة بن نُبيط: بعثَ عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحَّاك بعطاء أهل بُخارى وقال: أعطِهم. فقال: أعفني. فلم يزَلْ يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له: ما عليك أن تُعطيَهم وأنتَ لا ترزؤهم شيئاً؟ وقال: لا أُحِبُّ أن أُعينَ الظَّلَمةَ على شيءٍ من أمرهم[٤]. وقال عُبيد الله بن الوليد الوَصَّافي: قلتُ لعطاء بن أبي رَباح: إنَّ لي أخاً يأخذ بقلمه، وإنَّما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيالٌ، ولو تركَ ذلك لاحتاج وادَّانَ؟ فقال: مَنِ الرأس؟ قلتُ: خالد بن عبد الله القَسْري. قال: أما تقرأ ما قال العبدُ الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: فلم يَستثْنِ، فابتُلي به ثانيةً فأعانه الله، فلا يُعينهم أخوك فإنَّ اللهَ يُعينه. قال عطاء: فلا يحِلُّ لأحدٍ أن يُعينَ ظالماً ولا يكتبَ له ولا يصحبَه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صارَ مُعيناً للظالمين[٥]. وفي الحديث: «يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة: أينَ الظَّلَمةُ وأشباهُ الظَّلَمةِ وأعوانُ الظَّلَمةِ؟ حتى مَنْ لاقَ لهم دَواةً أو بَرى لهم قلماً، فيُجمَعون في تابوتٍ من حديدٍ فيُرمى به في جهنم»[٦]. ويُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ مشى مع مظلومٍ لِيُعينَه على مَظلمتِه ثبَّت اللهُ قدمَيه على الصراط يومَ القيامة يومَ تَزِلُّ فيه الأقدام، ومَنْ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٤ .

(٢) عند تفسير الآية (١٠).

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٩ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٣ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩ . وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٥٥ بطرفه الأول، يعني إلى نهاية الآية.

(٦) ذكره الإمام أحمد في الورع ص٩٣ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. والديلمي في مسند الفردوس (٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مشى مع ظالمٍ لِيُعينَه على ظلمِه أزَلَّ اللهُ قدمَيه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام»[١]. وفي الحديث: «مَنْ مشى مع ظالمٍ فقد أجرم»[٢] فالمشيُ مع الظالم لا يكون جُرْماً إلَّا إذا مشى معه لِيُعينَه؛ لأنَّه ارتكبَ نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ قد تقدَّم في «طه»[٣] وغيرها أنَّ الأنبياء صلواتُ الله عليهم يخافون؛ ردّاً على مَنْ قال غيرَ ذلك، وأنَّ الخوفَ لا يُنافي المعرفةَ بالله ولا التوكُّلَ عليه؛ فقيل: أصبحَ خائفاً من قتلِ النفس أن يُؤخَذَ بها. وقيل: خائفاً من قومه أن يُسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قال سعيد بن جُبير: يتلفَّتُ من الخوف. وقيل: ينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدَّث به الناس[٤]. وقال قتادة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يترقَّبُ الطلب[٥]. وقيل: خرج يستخبر الخبر، ولم يكن أحدٌ عَلِمَ بقتل القبطيِّ غير الإسرائيلي. و«أَصْبَحَ» يَحتمِلُ أن يكون بمعنى صار، أي: لمَّا قتلَ صارَ خائفاً. ويَحتملُ أن يكون دخل في الصباح، أي: في صباح اليوم الذي يلي يومَه. و«خَائِفاً» منصوبٌ على أنه خبر «أصبح»، وإن شئتَ على الحال، ويكون الظرفُ في موضع الخبر[٦].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: فإذا صاحِبُه الإسرائيليُّ الذي خلَّصه

(١) أخرجه ـ بطرفه الأول ـ أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٤٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وفي إسناده موسى بن محمد الموقري ـ وهو البلقاني ـ وهو كذاب. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٩ .
وذكر الديلمي في مسند الفردوس (٥٧٠٥) طرفه الأول أيضاً، ولكن عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني ٢٠/ (١١٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٨٩) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠: فيه عبد العزيز بن عبيد الله، وهو ضعيف.

(٣) ١٤/ ٦٧ - ٦٩ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨ .

(٦) البيان ٢/ ٢٣٠ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٢ .

بالأمس يُقاتِلُ قبطياً آخر أراد أن يُسَخِّره[١]. والاستصراخُ: الاستغاثة، وهو من الصُّراخ؛ وذلك لأنَّ المستغيثَ يصرخ ويُصَوِّتُ في طلب الغَوْث؛ قال:

كُـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فـزِعٌ كـانَ الـصُّـراخُ لـه قـرعَ الـظَّـنـا بِـيـبِ[٢]

قيل: كان هذا الإسرائيليُّ المستنصرُ السامريُّ استسخره طبَّاخُ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ. ذكره القشيري[٣]. و«الَّذِي» رفعٌ بالابتداء، و«يَسْتَصْرِخُهُ» في موضع الخبر. ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الحال. وأمس لليومِ الذي قبل يومك، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخلَه الألفُ واللامُ أو الإضافةُ تمكَّن فأُعرِبَ بالرَّفعِ والفتحِ عند أكثر النَّحْويين. ومنهم من يَبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيرُه أنَّ من العرب من يُجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضعِ الرَّفعِ خاصَّةً، ورُبما اضطرَّ الشاعرُ ففعل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

لـقـد رأيـتُ عـجـبـاً مُـذْ أَمْـسـا[٤]

فخفضَ بِمُذْ ما مضى، واللغة الجيدة الرفع، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ والغويُّ: الخائب، أي: لأنك تُشادُّ مَنْ لا تُطيقه[٥]. وقيل: مُضِلٌّ بَيِّنُ الضلالة، قتلتُ بسببِكَ أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر[٦]، والغَويُّ فعيلٌ مِنْ أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ، وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم. وقيل: الغويُّ بمعنى الغاوي. أي: إنَّكَ لَغَويٌّ في قتال مَنْ لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه عنك[٧]. وقال الحسن: إنما قال للقبطيِّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخار هذا الإسرائيليِّ، وهَمَّ أن يبطش به. يقال: بَطَش يَبْطُش ويبطِشُ،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨١ والبيت قائله سلامة بن جندل، وقد سلف ١٢/ ١٢٩ .

(٣) وذكره الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤) في (ظ) و(م): أمس. والرجز سلف ١٤/ ١٤٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٠ .

(٧) الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠٩ -٢١٠ .

والضمُّ أقْيَسُ؛ لأنَّه فِعْلٌ لا يتعدَّى[(١)].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ قال ابن جُبير: أرادَ موسى أن يبطش بالقبطيِّ، فتوهَّم الإسرائيليُّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمع القبطيُّ الكلامَ فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيليُّ بالقبطيِّ، فنهاه موسى، فخاف منه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾[(٢)]. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قتَّالا[(٣)]. قال عكرمة والشَّعبي: لا يكونُ الإنسان جباراً حتى يقتل نَفْسَين بغير حق[(٤)]. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي: من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون. ذكره الثعلبيّ[(٥)]. وقيل: طالوت. ذكره السُّهيليّ[(٦)]. وقال المهدويُّ عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون[(٧)]. وقيل: شمعان؛

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٣.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٧، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٩٠)، وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٨/ ١٩٧.

(٥) وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ عن الضحاك أنه مؤمن آل فرعون، وذكر عن الكلبي أنه ابن عم فرعون.

(٦) في التعريف والإعلام ص١٣١.

(٧) وذكره النحاس في معاني القرآن له ٥/ ١٦٩ دون تسميته شمعون، وقد وردت هذه التسمية عن شعيب الجبائي فيما أخرجه الطبري ١٨/ ٢٠٠.

قال الدَّارَقُطْنِيّ: لا يُعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون[١].

ورُويَ أنَّ فرعون أمر بقتل موسى، فسبقَ ذلك الرجل بالخبر[٢]، فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك بالقبطيِّ الذي قتلتَه بالأمس. وقيل: يأمر بعضُهم بعضاً. قال الأزهري[٣]: ائتمر القومُ وتآمروا أي: أمر بعضُهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٦]. وقال النَّمِر بن تَوْلَب:

أرى الناسَ قد أحدثوا شِيمةً ... وفي كلِّ حادثةٍ يُؤْتَمَرْ

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب[٤]. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقيل: الجبَّار: الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن. وقيل: المُتعظِّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لمَّا خرجَ موسى عليه السلام فارّاً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زادٍ ولا راحلةٍ ولا حذاءٍ نحو مدينَ للنَّسب الذي بينه وبنيهم ـ لأنَّ مدين من ولد إبراهيم، وموسى من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ ورأى حالَه وعدمَ معرفته بالطريق، وخُلوَّه من زادٍ وغيره، أسندَ أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر[٦].

---

(١) التعريف والإعلام ص١٣١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ ونسب القول الأول إلى الكلبي.

(٣) في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

قلت: رُوي أنه كان يتقوَّتُ ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفُّ قدميه[١]. قال أبو مالك: وكان فرعون وجَّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيات الطريق، فإنَّ موسى لا يعرف الطريق. فجاءه مَلَكٌ راكباً فرساً ومعه عَنَزة، فقال لموسى: اتبعني. فاتَّبعه فهداه إلى الطريق[٢]، فيُقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويُروى أنَّ عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. قال مقاتل والسُّدِّي: إنَّ الله بعث إليه جبريل، فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام. قاله ابن جُبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى وردَ ماءَ مدين أي: بلغَها. ووروده الماء معناه: بلغَه لا أنَّه دخلَ فيه. ولفظةُ الورود قد

(١) عرائس المجالس ص١٧٦ عن ابن عباس ﷺ.
(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧١ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٢ .

تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه[١]؛ ومنه قول زهير[٢]:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وقد تقدَّمت هذه المعاني في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. ومدين لا تنصرف؛ إذ هي بلدةٌ معروفة[٣]. قال الشاعر:

رُهبانُ مَدينَ لو رأوكِ تَنَزَّلُوا ... والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ[٤]

وقيل: قبيلةٌ من ولد مدين بن إبراهيم، وقد مضى القول فيه في «الأعراف»[٥]. والأُمَّة: الجمع الكثير. و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: ماشيتهم. و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأُمّة، ووجدهما تذودان، ومعناه: تُمنعان وتُحبسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «فَلَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي»، وفي بعض المصاحف: «امرأتين حابستين تذودان»[٦] يقال: ذادَ يذودُ إذا حُبِسَ. وذُدْتُ الشيءَ حبستُه[٧]؛ قال الشاعر:

أَبِيتُ على باب القَوافي كأنَّما ... أَذُودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعَا[٨]

أي: أحبِسُ وأمنَع. وقيل: «تَذُودانِ»: تَطْرُدان؛ قال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٢) في ديوانه ص١٣ - ١٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٤) قائله جرير، وقد سلف ٨/ ١١٢، ورُوي هناك: «شعف العقول» بدل «شعف الجبال».

(٥) ٩/ ٢٨٠.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣. والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢ ووقع في النسخ: إذا ذهب. والتصويب من معاني القرآن.

(٨) قائله سويد بن كراع، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٠١، والشعر والشعراء ٢/ ٦٣٥، وفيه: «أصادي» بدل «أذود». قال شارحه: صاديت الرجل: أي: داجيتُه وداريتُه وساترتُه.

لقد سَلبتْ عصاكَ بنو تميمٍ فما تَدْري بأيِّ عصًا تَذُودُ[(١)]

أي: تَطردُ وتَكفُّ وتَمنعُ. ابن سلاَّم: تمنعان غنمَهما لئلَّا تختلط بغنم الناس[(٢)]، فحذفَ المفعول؛ إمَّا إيهاماً على المخاطب، وإمَّا استغناءً بعلمه[(٣)]. قال ابن عباس: تذودان غنمَهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء. قتادة: تذودان الناس عن غنمهما[(٤)]. قال النحَّاس: والأوَّلُ أَوْلى؛ لأنَّ بعده ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناسَ لم تُخبِرا عن سبب تأخير سَقيِهما حتى يُصدر الرِّعاء[(٥)]. فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما[(٦)]؛ قال رؤبة:

يا عَجباً ما خَطْبُهُ وخَطبي[(٧)]

ابن عطية[(٨)]: وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شرٍّ، فأخبرتاه بخبرهما، وأنَّ أباهما شيخٌ كبير، فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يُباشر أمرَ غنمه، وأنهما لضعفهما وقلَّةِ طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأنَّ عادتَهما التأنِّي حتى يُصدِرَ الناسُ عن الماء ويخلى، وحينئذٍ تَرِدان.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» من صَدَرَ، وهو ضدُّ وَرَدَ أي: يرجع الرِّعاء. والباقون «يُصْدِرَ» بضمِّ الياء من أصدر، أي: حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم.

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.
(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٣.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.
(٧) ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب ص١٦، وتتمة الرجز: وَأَنا يُبدي للأمير قلبي.
(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

والرِّعاء جمع راع، مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب[١]. قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْمُ الناس يمنعهما، فلمَّا أراد موسى أن يسقي لهما زَحَمَ الناسَ وغلبَهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفَتْه إحداهما بالقوَّة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصَّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقيةً كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقيةٌ عطشت غنمُهما، فَرَقَّ لهما موسى، فعمدَ إلى بئر كانت مغطَّاةً والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرُها لا يرفعه إلا سبعة ـ قاله ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجَّاج: أربعون ـ فرفعه، وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وصفَتْه بالقوَّة. وقيل: إنَّ بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السُّقاة، إذ[٢] كانت عادةُ المرأتين شرب الفضلات[٣]. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لمَّا استقى الرُّعاة غطَّوا على البئر صخرةً لا يقلعها إلا عشرةُ رجال، فجاء موسى فاقتلعَها واستقى ذَنُوباً واحداً لم تحتَجْ إلى غيره، فسقى لهما[٤].

الثانية: إن قيل: كيف ساغ لنبيٍّ الله الذي هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظورٍ والدينُ لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينةٌ فيه، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوالِ العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالةُ حالةَ ضرورة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظلِّ سَمُرَة[٥]. قاله ابن مسعود. وتعرَّضَ لسؤال ما يُطعمه بقوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذُقْ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤١ . وينظر السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ .

(٢) في (م): إذا.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ سوى قوله: فإن وجدتا في الحوض... إلى قوله: فرقَّ لهما موسى، فهو في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤ .

(٥) وهي شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها برمة صفراء يأكلها الناس. اللسان (سمر).

طعاماً سبعةَ أيام، وقد لصق بطنُه بظهره، فعرَّضَ بالدعاء ولم يُصرِّحْ بسؤال، هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله[١]، فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، ويكون بمعنى القوّة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان:٣٧]، ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرَّ لونُه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويُروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطنُ قدميه. وفي هذا مُعتبرٌ وإشعارٌ بهوان الدنيا على الله[٢]. وقال أبو بكر بن طاهر[٣] في قوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لِما أنزلت[٤] من فضلك وغناك فقيرٌ إلى أن تغنيني بِكَ عمَّن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإنَّ الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في هذا الكلام اختصارٌ يدلُّ عليه هذا الظاهر؛ قدَّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدَّثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل: الصغرى ـ أن تدعوَه له، «فَجاءَتْ» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفعاً من النساء[٥]، خَرَّاجةً وَلَّاجة. وقيل: جاءته

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو عبد الله بن طاهر بن حاتم الأبهري، توفي قريباً من سنة ٣٣٠هـ حلية الأولياء ١٠/ ٣٥١ ، وطبقات الصوفية ص٣٩١ .

(٤) في (ظ): أبديت.

(٥) أي: سليطةً جريئةً. أو: بذيئةً فحاشةً قليلة الحياء. اللسان (سلفع).

ساترةً وجهها بِكُمِّ دِرعها. قاله عمر بن الخطاب[١]. ورُوِيَ أنَّ اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخي شعيب، وأنَّ شعيباً كان قد مات[٢]. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ كذا في سورة «الأعراف» [الآية: ٨٥] وفي سورة الشعراء [الآية: ١٧٦-١٧٧]: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلافُ في اسم أبيه. فرُوِيَ أنَّ موسى عليه السلام لمَّا جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبَّتْ ريحٌ فضمَّتْ قميصَها فوصفت عجيزتَها، فتحرَّج موسى من النظر إليها، فقال: ارجعي خلفي وأرشديني إلى الطريق بصوتك[٣]. وقيل: إنَّ موسى قال ابتداءً: كوني ورائي فإني رجلٌ عبرانيٌّ لا أنظر في أدبار النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً[٤]. فذلك سبب وصفها [له]. قاله ابن عباس. فوصل موسى إلى داعيةٍ فقصَّ عليه أمره من أوَّله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكانت مدينُ خارجةً عن مملكة فرعون[٥]. وقرَّبَ إليه طعاماً فقال موسى: لا آكل؛ إنَّا أهل بيتٍ لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. فقال شعيب: ليس هذا عِوَضَ السقي، ولكن عادتي وعادةُ آبائي قِرَى الضيف، وإطعامُ الطعام. فحينئذٍ أكل موسى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإجارة

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٢) التعريف والإعلام ص١٣١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ ، وما بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس عائدٌ على القول الأول، لا على القول الذي ذكره ابن العربي.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٤ .

كانت عندهم مشروعةً معلومة، وكذلك كانت في كلِّ ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافاً للأصمِّ حيث كان عن سماعها أصمَّ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرضُ الوليِّ بنتَه على الرجل، وهذه سُنَّةٌ قائمة؛ عرض صالحُ مدين ابنتَه على صالح بني إسرائيل، وعرضَ عمرُ بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكرٍ وعثمان، وعرضتِ الموهوبةُ نفسَها على النبيِّ ﷺ؛ فمن الحَسَنِ عَرْضُ الرجلِ وليَّته، والمرأةِ نفسَها على الرجل الصالح، اقتداءً بالسلف الصالح. قال ابن عمر: لمَّا تأيَّمتْ حفصةُ قال عمر لعثمان: إن شئتَ أُنكِحُكَ حفصة بنت عمر. الحديث. انفرد بإخراجه البخاري[1].

السابعة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ النكاح إلى الوليِّ لا حظَّ للمرأة فيه؛ لأنَّ صالحَ مدين تولَّاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالفَ في ذلك أبو حنيفة. وقد مضى[2].

الثامنة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ للأب أن يُزوِّجَ ابنتَه البكرَ البالغَ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتجَّ بهذه الآية، وهو ظاهرٌ قويٌّ في الباب، واحتجاجُه بها يدلُّ على أنه كان يُعوِّلُ على الإسرائيليات، كما تقدّم. وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثيرٌ من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغتِ الصغيرةُ فلا يُزوِّجها أحدٌ إلا برضاها؛ لأنها بلغتْ حدَّ التكليف، فأما إذا كانت صغيرةً فإنه يُزوِّجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذنَ لها ولا رضا بغير خلاف[3].

التاسعة: استدلَّ أصحاب الشافعي بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ على أنَّ النكاح موقوفٌ على لفظ التزويج والإنكاح[4]. وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود

---

(١) في صحيحه (٤٠٠٥)، وهو في مسند أحمد (٧٤). وأما حديث الموهوبة نفسها فأخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وهذه المسألة والتي قبلها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ - ١٤٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٤ . وقد سلف الكلام على هذه المسألة ٣/ ٤٦٢ - ٤٦٦ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٥ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٥٦ .

ومالك على اختلافٍ عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكلِّ لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكلِّ لفظٍ يقتضي التمليك على التأبيد. أما الشافعية فلا حُجَّةَ لهم في الآية؛ لأنه شَرْعُ مَنْ قبلنا، وهم لا يرونه حُجَّةً في شيءٍ في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حَيّ فقالوا: ينعقد النكاحُ بلفظ الهبة وغيرِه إذا كان قد أشهَدَ عليه؛ لأنَّ الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح. قالوا: والذي خُصَّ به النبيُّ ﷺ تَعرِّي البُضْعِ من العِوَض لا النكاحَ بلفظ الهبة. وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهبَ ابنتَه وهو يريد إنكاحَها فلا أحفَظُ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائزٌ كالبيع. قال أبو عمر: الصحيحُ أنه لا ينعقد نكاحٌ بلفظ الهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبةُ شيءٍ من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقرٌ إلى التصريح لتقع الشهادةُ عليه، وهو ضِدُّ الطلاق، فكيف يُقاس عليه؟! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أبَحْتُ لك وأحلَلْتُ لك. فكذلك الهبة. وقال ﷺ: «استحلَلْتُم فروجَهنَّ بكلمة الله» يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطالُ بعضِ خصوصيةِ النبيِّ ﷺ[1].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ يدلُّ على أنه عرضٌ لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لَعيَّنَ المعقودَ عليها له؛ لأنَّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بِعْتُكَ أحدَ عبديَّ هذين بثمنِ كذا؛ فإنهم اتَّفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيارٌ وشيءٌ من الخيار لا يُلصَقُ بالنكاح[2].

الحادية عشرة: قال مكيٌّ: في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يُعيِّنِ الزوجةَ ولا حدَّ أوَّلِ الأمد، وجعلَ المهرَ إجارةً، ودخلَ ولم يَنقُدْ شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائلَ تضمَّنَتْها المسألةُ الحاديةَ عشرة.

الأولى ـ من الأربع مسائل التعيين[3]؛ قال علماؤنا: أما التعيين فيُشبه أنه كان في

(١) التمهيد ٢١/ ١١١ - ١١٢ . والحديث سلف ٦/ ١٧٠ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٧ .

(٣) كلمة «التعيين» من (م).

أثناء(١) حال المراوضة، وإنَّما عرضَ الأمرَ مجملاً، وعيَّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوَّجه صفوريا وهي الصغرى(٢). يُروى عن أبي ذَرٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنْ سُئِلتَ: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرَهما وأوفاهما، وإن سُئِلْتَ: أيُّ المرأتين تزوَّج؟ فقل: الصغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»(٣). قيل: إنَّ الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانتِ الكبرى أحوَجَ إلى الرجال أنَّه توقَّعَ أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمِرُ غيرَه. وقيل غير هذا، والله أعلم(٤). وفي بعض الأخبار أنه تزوَّج بالكبرى. حكاه القشيري(٥).

الثانية ـ وأمَّا ذِكْرُ أوّلِ المدَّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطَه، بل هو مسكوتٌ عنه؛ فإمَّا رسماه، وإلَّا فهو من أوَّل وقت العقد.

الثالثة ـ وأمَّا النكاح بالإجارة فظاهرٌ من الآية، وهو أمرٌ قد قرَّره شرعُنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلَّا شيءٌ من القرآن(٦). رواه الأئمة، وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما تحفَظُ من القرآن؟» فقال: سورةَ البقرة والتي تليها. قال: «فعَلِّمْها عشرين آيةً وهي امرأتُكَ»(٧). واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة

---

(١) في النسخ: ثاني، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٨٤٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦). وله شاهد موقوف على ابن عباس ﷺ عند البخاري (٢٦٨٤). قال الحافظ في الفتح ٥/ ٢٩١: وهو في حكم المرفوع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨ .

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ عن وهب.

(٦) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ .

(٧) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ أبو داود (٢١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده عِسْل بن سفيان، وهو ضعيف فيما قاله الحافظ في التقريب. وقد تفرد بزيادة: «فعلِّمها عشرين آية وهي امرأتك». قلنا: والحديث دون الزيادة أخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل ابن سعد ﷺ.

أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن حبيب(١)، وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعةُ الحرِّ صَداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة: لا يصِحُّ(٢). وجوَّزَ أن يتزوَّجها بأن يَخدِمَها عبدُه سنة، أو يُسكِنَها دارَه سنة؛ لأنَّ العبدَ والدارَ مال، وليس خِدمتُها بنفسه مالاً. وقال أبو الحسن الكرخي: إنَّ عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وقال أبو بكر الرازي: لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإجارة عقدٌ مؤقت، وعقد النكاح مؤبَّد، فهما متنافيان(٣). وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويَثْبُتُ بعده. وقال أصبغ: إن نَقَدَ معه شيئاً ففيه اختلاف، وإن لم يَنقِدْ فهو أشدّ، فإن ترك مضى على كلِّ حالٍ بدليل قصة شعيب. قاله مالك وابن الموَّاز وأشهب. وعوَّل على هذه الآية جماعةٌ من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة(٤). قال ابن خوَيْزِ مَنْدَادِ: تضمَّنت هذه الآية النكاحَ على الإجارة والعقد صحيح، ويُكره أن تُجعلَ الإجارةُ مهراً، وينبغي أن يكون المهرُ مالاً كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ﴾ [النساء: ٢٤]. هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة ـ وأما قوله: «ودخل ولم يَنقُدْ» فقد اختلف الناسُ في هذا؛ هل دخل حين عقدَ أم حينَ سافر؟ فإن كان حين عقدَ فماذا نقد؟ وقد منعَ علماؤنا من الدخول حتى يَنقِدَ ولو رُبعَ دينار. قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن يَنقِدَ مضى؛ لأنَّ المتأخِّرين من أصحابنا قالوا: تعجيلُ الصَّداقِ أو شيءٍ منه مُستحَبٌّ. على أنه إن كان الصَّداقُ رعيةَ الغنم فقد نَقَدَ الشروعَ في الخدمة، وإن كان دخل حين سافر فطُولُ الانتظار في النكاح جائزٌ، وإن كان مدى العمر بغير شرط. وأمَّا إن كان بشرط(٥) فلا يجوز إلَّا أن يكون

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٤١٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٣ و٢٦٨ . ووقع في (م): ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وفي بقية النسخ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾. والمثبت من الكشاف.

(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٩ .

(٥) عبارة: وأما إن كان بشرط من (م) وأحكام القرآن.

الغرضُ صحيحاً مثل التأهُّبِ للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة. نصَّ عليه علماؤنا(١).

الثانية عشرة: في هذه الآية اجتماع إجارةٍ ونكاح، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوَّل ـ قال في ثمانية أبي زيد: يُكره ابتداءً، فإن وقع مضى. الثاني ـ قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلافِ مقاصدِها كسائر العقود المتباينة. الثالث ـ أجازه أشهب وأصبغ. قال ابن العربي(٢): وهذا هو الصحيح، وعليه تدلُّ الآية، وقد قال مالك: النكاحُ أشبَهُ شيءٍ بالبيوع، فأيُّ فرقٍ بين إجارةٍ وبيعٍ، أو بين بيعٍ ونكاح؟!.

فرع ـ وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ مباحٍ صحَّ؛ قال المزني: وذلك مثلُ قولِ الشاعر:

يقولُ العبدُ فائدتي ومالي ... وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا

وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ فيه هَجْوٌ أو فُحْشٌ كان كما لو أصدَقَها خمراً أو خِنزيراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ جرى ذِكْرُ الخدمة مطلقاً، وقال مالك: إنه جائزٌ، ويُحمَلُ على العُرف، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارةً مُطلقة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يُسمَّى؛ لأنه مجهول(٣). وقد ترجم البخاريُّ. «باب مَن استأجر أجيراً فبيَّنَ له الأجلَ ولم يُبيِّنْ له العمل»؛ لقوله تعالى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾(٤). قال المُهلَّب: ليس كما ترجح؛ لأنَّ العملَ عندهم كان معلوماً من سقيٍ وحرثٍ ورعيٍ وما شاكل أعمالَ البادية في مهنة أهلها، فهذا مُتعارَفٌ وإن لم يُبيِّنْ له أشخاصَ الأعمال

(١) أحكام القرآن. ٣/١٤٦٦ - ١٤٦٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤ ، وما قبله منه.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٠ .

(٤) صحيح البخاري قبل الحديث (٢٢٦٧).

ولا مقاديرَها؛ مثل أن يقول له: إنك تحرث كذا من السَّنة، وترعى كذا من السَّنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدَّةُ مجهولة، والعملُ مجهولٌ غيرُ معهود لا يجوز حتى يُعلَم. قال ابن العربي[١]: وقد ذكر أهل التفسير أنه عيَّنَ له رعية الغنم، ولم يُرْوَ [ذلك] من طريقٍ صحيحةٍ، ولكن قالوا: إنَّ صالح مدين لم يكن له عملٌ إلا رعية الغنم، فكان ما عُلِمَ من حاله قائماً مقامَ التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة: أجمعَ العلماءُ على أنه جائزٌ أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرةٍ معلومة، لرعايةِ غنم معدودة؛ فإن كانت معدودةً معينةً، ففيها تفصيلٌ لعلمائنا؛ قال ابن القاسم: لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي روايةٌ ضعيفةٌ جداً؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً، وإن كانت مُطلقةً غيرَ مُسمَّاةٍ ولا مُعينةٍ جازت عند علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز؛ لجهالتها، وعوَّل علماؤنا على العُرفِ حسبما ذكرناه آنفاً، وأنه يُعطَى بقَدْرِ ما تَحتَمِلُ قُوَّتُه. وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجرُ قَدْرَ قُوَّتِه، وهو صحيحٌ؛ فإنَّ صالح مدين عَلِمَ قَدْرَ قوَّةِ موسى برفع الحجر[٢].

الخامسة عشرة: قال مالك: وليس على الراعي ضمانٌ، وهو مُصدَّقٌ فيما هَلَكَ أو سُرِقَ؛ لأنه أمينٌ كالوكيل. وقد ترجم البخاري: «باب إذا أبصر الراعي أو الوكيلُ شاةً تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد» وساقَ حديثَ كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت له[٣] غنمٌ ترعى بِسَلْعٍ[٤]، فأبصرَتْ جاريةٌ لنا بشاةٍ من غنمنا موتاً، فكسرَتْ حجراً فذبحَتْها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسألَ النبيَّ ـ أو أُرسِلَ إلى

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٠ - ١٤٦١ .

(٣) في (م): لهم. والمثبت من باقي النسخ، ومن صحيح البخاري.

(٤) وهو جبل أو موضع في المدينة. معجم البلدان ٣/ ٢٣٦ .

النبيَّ ﷺ مَنْ يسألُه ـ وأنه سألَ النبيَّ ﷺ ـ أو أرسلَ إليه ـ فأمرَه بأكلها. قال عبيدالله[١]: فيُعجبني أنها أمَةٌ وأنها ذبحت[٢]. قال المُهلَّب: فيه من الفقه تصديقُ الراعي والوكيل فيما ائتُمنا عليه حتى يظهر عليهما دليلُ الخيانة والكذب. وهذا قول مالك وجماعة. وقال ابن القاسم: إذا خافَ الموتَ على شاةٍ فذبحها لم يضمَنْ، ويُصدَّقُ إذا جاء بها مذبوحة. وقال غيره: يضمَنُ حتى يُبيِّنَ ما قال.

السادسة عشرة: واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت، فقال ابن القاسم: لا ضمانَ عليه؛ لأنَّ الإنزاءَ من إصلاح المال ونمائه. وقال أشهب: عليه الضمان. وقولُ ابن القاسم أشبَهُ بدليلِ حديث كعب، وأنه لا ضمانَ عليه فيما تلِفَ عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يُعلَمُ إشفاقه على المال، وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأرادَ صاحبُ المال أن يُضمِّنَه فعل؛ لأنه لا يُصدَّقُ أنه رأى بالشاة موتاً؛ لِما عُرِفَ من فسقه.

السابعة عشرة: لم يُنقَلْ ما كانت أجرةُ موسى عليه السلام، ولكن روى يحيى بن سلَّام أنَّ صالح مدين جعل لموسى كلَّ سخلةٍ توضَعُ خلافَ لونِ أمِّها، فأوحى الله إلى موسى أن ألْقِ عصاكَ بينهنَّ يَلِدْنَ خلافَ شبههنَّ كُلِّهنَّ[٣]. وقال غير يحيى: بل جعل له كل بلقاءَ تولد له، فولَدْنَ له كلَّهُنَّ بُلْقاً[٤]. وذكر القُشيري أنَّ شعيباً لمَّا استأجَرَ موسى قال له: ادخُلْ بيتَ كذا، وخُذْ عصًا من العِصيِّ التي في البيت، فأخرجَ موسى عصًا، وكان أخرجها آدمُ من الجنة، وتوارثَها الأنبياءُ حتى صارت إلى شعيب، فأمره شعيبٌ أن يُلقِيَها في البيت ويأخُذَ عصًا أخرى، فدخل وأخرجَ تلك العصا؛ وكذلك سبعَ مراتٍ كلُّ ذلك لا تقع بيده غير تلك، فعلم شعيبٌ أنَّ له شأناً، فلمَّا أصبحَ قال

---

(١) في (د) و(ز) و(م): عبد الله. والمثبت من (ز) وصحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٠٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦١ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٩ .

له: سُقِ الأغنامَ إلى مفرق الطريق، فخُذْ عن يمينك وليس بها عشبٌ كثير، ولا تأخُذْ عن يسارك فإنَّ بها عشباً كثيراً وتِنِّيناً كبيراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذتْ نحو اليسار ولم يقدِرْ على ضبطها، فنام موسى وخرج التِّنِّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً، وحاربت التِّنِّينَ حتى قتلَتْه، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلمَّا انتبه موسى رأى العصا مخضوبةً بالدم، والتِّنِّين مقتولاً، فعاد إلى شعيب عشاءً، وكان شعيبٌ ضريراً، فمسَّ الأغنام، فإذا أثَرُ الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيبٌ وقال: كلُّ ما تَلِدُ هذه المواشي هذه السَّنة قالِبُ لونٍ ـ أي: ذاتُ لونين ـ فهو لك، فجاءت جميعُ السِّخال تلكَ السَّنةِ ذاتَ لونين، فعَلِمَ شعيبٌ أنَّ لموسى عند الله مكانة.

وروى عُيَيْنَةُ بن حِصن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أجَرَ موسى نفسَه بِشبَعِ بطنهِ وعِفَّةِ فرجه» فقال له شعيبٌ: لكَ منها ـ يعني من نتاج غنمه ـ ما جاءت به قالِبُ لونٍ ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ[(١)]. قال الهروي: العزوز: البكيئة؛ مأخوذٌ من العَزَاز: وهي الأرض الصلبة، وقد تعزَّزت الشاة. والفَشُوشُ: التي يَنْفَشُ لبنُها من غير حلبٍ، وذلك لِسَعة الإحليل، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثالهم: (لَأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي: لأخرِجَنَّ غضبَكَ وكِبْرَكَ من رأسك. ويُقال: فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرجَ منه الريح. ومنه الحديث: «إنَّ الشيطانَ يَفُشُّ بين أَلْيَتِيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث»[(٢)] أي: ينفخُ نفخاً ضعيفاً. والكَمُوشُ: الصغيرة الضرع، وهي الكميشةُ أيضاً؛ سُمِّيت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يُقال: رجلٌ كميشُ الإزار. والكَشُودُ مثل الكَموش. والضَّبُوبُ: الضيِّقةُ ثقب الإحليل. والضَّبُّ: الحَلْبُ بشِدَّة العصر. والثَّعُولُ: الشاة التي لها زيادةُ حُلمةٍ وهي الثَّعل. والثَّعلُ: زيادةُ السِّنِّ، وتلك الزيادة هي الرَّاؤول[(٣)]. ورجل أثعل. والضَّبوب: ضيقةُ مخرج

---

(١) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٨١، وابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٣.

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٤٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في النسخ: الثعل. والتصويب من تهذيب اللغة ٢/ ٣٢٩.

اللبن[١]. قال الهروي: وتفسيرُ قالِبُ لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

الثامنة عشرة: الإجارةُ بالعِوَضِ المجهول لا تجوز؛ فإنَّ ولادةَ الغنم غيرُ معلومة، إنَّ من البلاد الخصبة ما يعلم وِلادَ الغنم فيها قطعاً وِعدَّتَها وسلامةَ سِخالها كديار مصر وغيرها، بَيْدَ أنَّ ذلك لا يجوز في شرعنا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الغَرَر[٢]، ونهى عن المضامين والملاقيح. والمضامين: ما في بطون الإناث، والملاقيح: ما في أصلاب الفحول، وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

مَلْقُوحَةً في بطنِ نابٍ حامِلِ

وقد مضى في سورة «الحجر» بيانه[٣]. على أنَّ راشد بن معمَر أجاز الإجارةَ على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوبَ بنصيبٍ منه. وبه قال أحمد.[٤]

التاسعة عشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل في الدِّين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جوازُ نكاح المَوالي للعربيات والقرشيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عُرياناً، فأنكحه ابنتَه لمَّا تحقق [من دينه] ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك[٥]. وقد تقدَّمت هذه المسألة مستوعبةً والحمد لله.

الموفية عشرين: قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذِكْراً لِصَداق

---

(١) في النسخ: والثعل مخرج اللبن. والتصويب من اللسان (ثعل).

(٢) سلف ٤/٤٤٦.

(٣) ١٢/١٩٨ - ١٩٩، والرجز ينسب إلى مالك بن الريب، وتتمته: وعِدةِ العامِ وعامٍ قابلِ.

(٤) هذه المسألة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٢ - ١٤٦٣.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٦، وما بين حاصرتين منه.

المرأة، وإنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب؛ فإنها تشترط صَداق بناتِها، وتقول: لي كذا في خاصَّةِ نفسي. وتركُ المهرِ مفوَّضاً، ونكاحُ التفويض جائز. قال ابن العربي: هذا الذي تفعله الأعراب هو حُلوانٌ وزيادةٌ على المهر، وهو حرامٌ لا يليق بالأنبياء، فأمَّا إذا اشترط الوليُّ شيئاً لنفسه، فقد اختلف العلماء فيما يُخرِجُه الزَّوجُ من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما ـ أنه جائز. والآخر ـ لا يجوز. والذي يصِحُّ عندي التقسيم؛ فإنَّ المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً، فإن كانت ثيباً جاز؛ لأنَّ نكاحَها بيدِها، وإنما يكون للوليِّ مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذُ العِوَضِ عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع. وإن كانت بكراً كان العقدُ بيده، وكأنَّه عِوَضٌ في النكاح لغير الزوج، وذلك باطل؛ فإن وقعَ فُسِخَ قبل البناء، وثبتَ بعده على مشهور الرواية. والحمد لله[1].

الحادية والعشرون: لمَّا ذكرَ الشرطَ وأعقبَه بالطَّوع في العشر خرج كلُّ واحدٍ منهما على حكمه، ولم يلحقِ الآخرُ بالأوّل، ولا اشترك الفرضُ والطَّوع؛ ولذلك يُكتب في العقود الشروطُ المتَّفقُ عليها، ثم يقال: وتطوَّع بكذا، فيجري الشرطُ على سبيله، والطَّوعُ على حُكمه، وانفصل الواجبُ من التطوُّع[2].وقيل: ومِنْ لفظِ شعيبٍ حَسُنَ في لفظ العقود في النكاح: أنكِحْه إيَّاها أولى من أنكِحْها إيَّاه ـ على ما يأتي بيانُه في «الأحزاب»[3]ـ وجعل شعيبٌ الثمانيةَ الأعوام شرطاً، ووكَلَ العاشرة إلى المروءة[4].

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لمَّا فرغَ كلامُ شعيب قرَّره موسى عليه السلام وكرَّر معناه على جهة

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٦١ - ١٤٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٧ .

(٣) عند تفسير الآية (٤٩) .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ .

التوثُّقِ في أنَّ الشرطَ إنما وقع في ثمان حِجج[١].

و«أيَّمَا» استفهامٌ منصوبٌ بـ «قَضَيْتُ» و«الْأَجَلَيْنِ» مخفوضٌ بإضافةِ«أي» إليهما و«ما» صلةٌ للتأكيد، وفيه معنى الشرط، وجوابه «فَلَا عُدْوَانَ» وأنَّ «عدوانَ» منصوبٌ بـ «لا». وقال ابن كَيْسان: «ما» في موضع خَفْضٍ بإضافة «أيِّ» إليها، وهي نكرة، و«الْأَجَلَيْنِ» بدلٌ منها. وكذلك في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: رحمةٍ بدلٌ من ما؛ قال مكي: وكان يتلطَّفُ في ألَّا يجعلَ شيئاً زائداً في القرآن، ويُخرِجَ له وجهاً يُخرِجُه من الزيادة[٢].

وقرأ الحسن: «أَيْمَا» بسكون الياء. وقرأ ابن مسعود: «أَيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ». وقرأ الجمهور: «عُدْوَان» بضم العين. وأبو حَيْوة بكسرها، والمعنى: لا تَبِعةَ عليَّ ولا طلبَ في الزيادة عليه[٣]. والعدوانُ: التجاوزُ في غير الواجب. والحِجج السِّنون. قال الشاعر:

لِمَنِ الديارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ ... أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ[٤]

الواحدة حِجَّة بكسر الحاء.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى. وقيل: هو من قول والد المرأة.

فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يُشْهِدا أحداً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥. وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ١٥٢ ، وذكرها في الشاذة ص١١٢ عن العباس بن الفضل عن أبي عمرو. وقراءة ابن مسعود وأبي حيوة في الشاذة ص١١٢ . لكنه نسب الثانية إلى ابن قطيب.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٨٦ ، وسلف ١٠/ ٣٨٠ .

من الخلق، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ وهي:

الثالثة والعشرون: على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرقُ ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ[1]. وقد مضت هذه المسألة في «البقرة»[2] مستوفاةً. وفي البخاري عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل سألَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألفَ دينار فقال: ايتِني بالشهداء أُشهِدُهم. فقال: كفى بالله شهيداً. فقال: ايتني بكفيل. فقال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه... وذكر الحديث[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قال سعيد بن جُبير: سألني رجلٌ من النصارى: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدُمَ على حَبْرِ العرب فأسألَه ـ يعني ابن عباس ـ فقدمتُ عليه فسألتُه، فقال: قضى أكملَهما وأوفاهما. فأعلمتُ النصرانيَّ، فقال: صدقَ واللهِ هذا العالم. ورُويَ عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ سأل في ذلك جبريل، فأخبره أنه قضى عشر سنين. وحكى الطبري عن مجاهد أنه

---

(١) هذه المسألة وما قبلها في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٨ . وقوله: «وفرق ما بين النكاح والسفاح الدف» ورد معناه في حديث مرفوع عن محمد بن حاطب ﷺ بلفظ: «فصلُ بين الحلال والحرام الدُّفُّ والصوت في النكاح»، وهو في مسند أحمد (١٥٤٥١).

(٢) ٣/ ٤٦٥ .

(٣) صحيح البخاري (٢٠٦٣)، وهو في مسند احمد (٨٥٨٧).

قضى عشراً وعشراً بعدها. قال[١] ابن عطية[٢]: وهذا ضعيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيل: فيه دليلٌ على أنَّ الرجل يذهبُ بأهله حيث شاء؛ لما لَهُ من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلَّا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحقُّ الشروط أن يوفى به ما استحللْتُم به الفروج[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ الآية. تقدَّم القولُ في ذلك في «طه»[٤]. والجِذوة بكسر الجيم قراءةُ العامَّة، وضمَّها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزرُّ بن حُبيش[٥]. قال الجوهري[٦]: الجِذْوة والْجُذْوَة وَالْجَذْوَةُ: الجمرة الملتهبة، والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة من الجمر؛ قال: وهي بِلُغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة[٧]: والجِذْوة مثل الجِذْمة: وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نارٌ أو لم يكن. قال ابن مُقبِل:

بـاتَـتْ حَـواطِـبُ لَـيْـلَـى يَـلْـتَـمِـسْـنَ لَـهـا   جَـزْلَ الْـجِـذَا غَـيْـرَ خَـوَّارٍ ولا دَعِـرِ[٨]

وقال:

---

(١) قبلها في (م) عبارة: رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦ ، والمسألة منه، وقول ابن عباس وأثر مجاهد في تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٩ - ١٤٧٠ .

(٤) ١٤/ ١٨ .

(٥) قراءة العامة وحمزة وعاصم في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٦) في الصحاح (جذى).

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٢ - ١٠٣ .

(٨) ديوان تميم بن مقبل ص٩١ . قال شارحه: الحواطب: النساء اللواتي يجمعن الحطب. والجزل: الحطب الغليظ القوي. والجذا: أصول الشجر العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها، واحدتها جَذاة. والخوَّار: الحطب الضعيف السريع الاستيقاد. والدَّعِر: الحطب البالي النخِر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودَخِنَ كثيراً.

وألقى على قَيْسٍ من النَّار جِذْوَةً شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني: الشجرة قدَّم ضميرَها عليها. ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ﴾ «مِن» الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداءُ من شاطئ الوادي من قِبَلِ الشجرة. و«مِنَ الشَّجَرةِ»بدلٌ من قوله: «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ» بدل الاشتمال؛ لأنَّ الشجرةَ كانت نابتةً على الشاطئ[١]، وشاطئُ الوادي وشَطُّه: جانبُه، والجمع شُطَّان وشواطئ. ذكره القشيري. وقال الجوهري[٢]: ويُقال: شاطئ الأودية ولا يُجمع. وشاطأتُ الرجلَ إذا مشيتُ على شاطئٍ ومشى هو على شاطئٍ آخر. ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى[٣]. وقيل: عن يمين الجبل[٤]. ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ وقرأ الأشهب العُقيلي: «في الْبَقْعَةِ» بفتح الباء[٥]. وقولهم: بِقاع يدلُّ على بَقْعة، كما يقال: جَفْنة وجِفَان. ومن قال: بُقْعة قال: بُقَع، مثل غُرْفة وغُرَف[٦]. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من ناحية الشجرة. قيل: كانت شجرة العلِّيق: وقيل: سَمُرة[٧]. وقيل: عَوْسَج. ومنها كانت عصا. ذكره الزمخشري[٨]. وقيل: عُنَّاب[٩]، والعَوْسج إذا عظُمَ يقال له:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) في الصحاح (شطأ).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ .

(٤) ذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٢٦ بأنه لم يكن للجبل يمين ولا شمال.

(٥) الشاذة ص١١٢ عن الأشهب ومسلمة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٢٤٣ عن وهب بن منبه، والثاني أخرجه عن ابن مسعود ﷺ.

(٨) في الكشاف ٣/ ١٧٤ عن الكلبي.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ عن ابن عباس ﷺ.

الغَرْقَد[١].وفي الحديث: «إنَّه من شجر اليهود، فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدَّجَّال فلا يختفي أحدٌ منهم خلْفَ شجرةٍ إلَّا نطقَتْ وقالت: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ فاقتُلْه، إلَّا الغَرْقَد فإنَّه من شجر اليهود فلا ينطِقْ». خرَّجه مسلم[٢]. قال المهدوي: وكلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه السلام من فوقِ عرشِه، وأسمَعَه كلامَه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يُوصَفَ الله تعالى بالانتقال والزوال وشبهِ ذلِكَ من صفات المخلوقين.[٣] قال أبو المعالي: وأهلُ المعاني وأهلُ الحقِّ يقولون: مَنْ كلَّمه اللهُ تعالى وخصَّه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيُدرِكُ كلامَه القديمَ المتقدِّسَ عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات، كما أنَّ مَنْ خصَّه اللهُ بمنازل الكرامات وأكملَ عليه نعمتَه، ورزقه رؤيتَه يرى الله سبحانه وتعالى منزَّهاً عن مماثلةِ الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مِثْلَ له سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعَتِ الأمةُ على أنَّ الربَّ تعالى خصَّصَ موسى عليه السلام وغيرَه من المصطَفَين من الملائكة بكلامه. قال الأستاذ أبو إسحاق: اتَّفق أهلُ الحقِّ على أنَّ الله تعالى خلقَ في موسى عليه السلام معنًى من المعاني أدركَ به كلامَه كان اختصاصُه في سماعه، وأنه قادرٌ على مثله في جميع خلقه. واختلفوا في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام هل سمع ليلةَ الإسراء كلامَ الله، وهل سمعَ جبريلُ كلامَه على قولين؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتَّفقوا على أن سماعَ الخلق له عند قراءةِ القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارةَ التي عرفوا بها معناه دون سماعِه له في عينه. وقال عبد الله بن سعد بن كلاب: إنَّ موسى عليه السلام فهِمَ كلامَ الله القديم من أصواتٍ مخلوقةٍ أثبتَها اللهُ تعالى في بعض الأجسام. قال أبو المعالي: وهذا مردود، بل يجب اختصاصُ موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم

---

(١) إكمال المعلم ٨/ ٤٦٣ .

(٢) في صحيحه (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٣٩٨) بتمامه، والبخاري (٢٩٢٦) دون قوله: إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق.

(٣) يوصف الله بالإتيان والنزول والقرب ونحو ذلك مما ورد في النصوص الصحيحة بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل.

يُقَلْ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاصٌ بتكليم اللهِ إيَّاه. والربُّ تعالى أسمعَه كلامَه العزيز، وخلق له علماً ضرورياً، حتى علِمَ أنَّ ما سمِعَه كلامُ الله، وأنَّ الذي كلَّمه وناداه هو الله ربُّ العالمين. وقد ورد في الأقاصيص أنَّ موسى عليه السلام قال: سمعتُ كلامَ ربي بجميع جوارحي، ولم أسمَعْه من جهةٍ واحدةٍ من جهاتي. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[١] مستوفى. ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ بحذفِ الجرِّ، أي بـ «أنْ يا مُوسى»[٢]. ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ نفيٌ لربوبية غيرِه سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عزَّ وجلَّ لا من رسله؛ لأنَّه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمرُ بها إنما كان بعد هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾ عطفٌ على «أنْ يا مُوسى» وتقدَّم الكلامُ في هذا في «النمل»[٣] و«طه»[٤]. و﴿مُدْبِرًا﴾ نصبٌ على الحال، وكذلك موضع قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ نصبٌ على الحال أيضاً[٥]. ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ﴾ قال وهب: قيل له: ارجعْ إلى حيث كنت. فرجعَ فلَفَّ دُرَّاعتَه[٦] على يده، فقال له المَلِكُ: أرأيتَ إن أرادَ اللهُ أن يُصيبكَ بما تُحاذِرُ أينفعُكَ لَفُّكَ يدَك؟ قال: لا، ولكنِّي ضعيفٌ خُلِقْتُ من ضعف. وكشف يدَه فأدخلَها في فم الحية فعادت عصا. ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ أي: مما تُحاذر[٧].

---

(١) ٢/ ١١٤ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧ .

(٣) ١٦/ ١٠٧ .

(٤) ١٤/ ٤٨ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤ .

(٦) الدُّرَّاعة: ضربٌ من الثياب التي تلبس. وقيل: جبة مشقوقة المقدم. اللسان (درع).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧ .

قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ الآية؛ تقدَّم القول فيه[(١)]. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ «من» متعلقة بـ «وَلَّى» أي: ولَّى مدبراً من الرَّهب[(٢)]. وقرأ حفص والسُّلَميُّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «مِنَ الرَّهْبِ» بفتح الراء وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضمِّ الراء وجزم الهاء. الباقون بفتح الراء والهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[(٣)] [الأنبياء: ٩٠] وكلُّها لغاتٌ، وهو بمعنى الخوف. والمعنى: إذا هالَكَ أمرُ يَدِكَ وشُعاعُها فأدخِلْها في جيبك واردُدْها إليه تَعُدْ كما كانت. وقيل: أمرَه اللهُ أن يضُمَّ يدَه إلى صدره فيذهب عنه خوفُ الحيَّة. عن مجاهد وغيره، ورواه الضحَّاك عن ابن عباس؛ قال: فقال ابن عباس: ليس من أحدٍ يدخلُه رعبٌ بعد موسى عليه السلام ثم يُدخِلُ يدَه فيضعُها على صدره إلَّا ذهبَ عنه الرعب[(٤)]. ويُحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنَّ كاتباً كان يكتبُ بين يديه، فانفلتَتْ منه فلتةُ ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمِه الأرض. فقال له عمر: خُذْ قلمَكَ واضمُمْ إليك جناحَك، وليفْرَخْ[(٥)] رُوعُكَ فإني ما

---

(١) ١٤/ ٤٩ - ٥٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣ .

(٣) قراءة حفص وابن عامر والكوفيين حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ .

(٥) أي: لينكشف، وأصل الإفراخ الانكشاف. الصحاح (فرخ).

سمعتُها من أحدٍ أكثرَ ممَّا سمعتُها من نفسي[١]. وقيل: المعنى: اضمُمْ يدَكَ إلى صدرِكَ لِيُذهِبَ اللهُ ما في صدرك من الخوف[٢]. وكان موسى يرتعِدُ خوفاً إمَّا من آل فرعون وإمَّا من الثعبان. وضَمُّ الجناح هو السكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يريد الرِّفق. وكذلك قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي: ارفُقْ بهم. وقال الفرَّاء: أرادَ بالجناح عصاه. وقال بعض أهل المعاني: الرَّهب: الكُمُّ بِلُغةِ حِمْيَرٍ وبني حنيفة. قال مقاتل: سألتني أعرابيةٌ شيئاً وأنا آكل، فملأتُ الكفَّ وأومأتُ إليها فقالت: هاهنا في رهبي. تريد: في كُمِّي. وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول لآخر: أعطِني رَهْبَك. فسألتُه عن الرَّهب فقال: الكُمُّ. فعلى هذا يكون معناه: اضمُمْ إليك يدك وأخرجها من الكُم؛ لأنه تناول العصا ويدُه في كمِّه[٣]. وقوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ يدلُّ على أنها اليد اليمنى؛ لأنَّ الجيبَ على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسَّروه من ضمِّ اليدِ إلى الصَّدرِ يدلُّ على أنَّ الجيبَ موضِعُه الصدر. وقد مضى في سورة «النور»[٤] بيانُه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير أنَّ الرَّهبَ الكُمُّ بِلُغةِ حِمْير وأنَّهم يقولون: أعطني ممَّا في رَهْبِكَ، وليتَ شعري كيفَ صِحَّتُه في اللغة! وهل سمع من الأثباتِ الثقاتِ الذين تُرتَضى عربيَّتُهم، ثم ليتَ شعري كيفَ موقِعُه في الآية، وكيفَ تطبيقُه المُفصَّلُ كسائر كلمات التنزيل؛ على أنَّ موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلةَ المناجاة إلا زُرْمَانِقَةٌ[٥] من صوفٍ لا كُمَّينِ لها[٦]. قال القشيري: وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يريد اليدين إن قُلْنا: أراد الأمنَ من فزع الثعبان.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٢٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ دون قول مقاتل. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٦.

(٤) ١٥/ ٢١٦.

(٥) أي: جبة من صوف. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٧٨.

(٦) الكشاف ٣/ ١٧٥.

وقيل: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: شَمِّرْ واستَعِدَّ لتحمِلَ أعباءَ الرسالة.

قلتُ: فعلى هذا قيل: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾. قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول. وقيل: إنما صار رسولاً بقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ والبرهانان: اليد والعصا[١].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فذانِّكَ»[٢] بتشديد النون، وخففها الباقون[٣]. وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، «فَذَانِّيكَ» بالتشديد والياء. وعن أبي عمرٍو أيضاً قال: لغةُ هذيل «فَذَانِيكَ» بالتخفيف والياء[٤]. ولغةُ قريش «فَذَانِكَ» كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليله خمسةُ أقوال: قيل: شدَّدَ النونَ عِوَضاً من الألف الساقطة في ذانِكَ الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفعٌ بالابتداء، وألفُ ذا محذوفةٌ لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأنَّ أصلَه فذاانك، فحذفَ الألفَ الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل: إنْ مَنْ شدَّدَ إنَّما بناه على لغةِ مَنْ قال في الواحد ذلك، فلمَّا بنى أثبتَ اللامَ بعد نون التثنية، ثم أدغم اللامَ في النون على حُكم إدغام الثاني في الأوَّل، والأصلُ أن يُدغِمَ الأوَّلَ أبداً في الثاني، إلَّا أن يمنعَ من ذلِكَ علَّةٌ فيُدغِمَ الثاني في الأوَّل، والعِلَّةُ التي منعَتْ في هذا أن يُدغِمَ الأوَّلَ في الثاني أنَّه لو فعلَ ذلك لصار في موضع النون التي تدلُّ على التثنية لامٌ مُشدَّدة، فيتغيَّرُ لفظ التثنية، فأدغم الثاني في الأول لذلك، فصار نوناً مُشدَّدة. وقد قيل: إنه لما ثنى[٥] ذلِكَ أثبتَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ .

(٢) قوله: وأبو عمرو: «فذانِّكَ» من (ظ)، وهو ليس في باقي النسخ.

(٣) السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧ : وقرأ شبل عن ابن كثير: «فذانَيك» بياء بعد النون المخففة، وقرأ ابن مسعود: «فذانِّيك» بالياء أيضاً مع شد النون، وهي لغة هذيل. قلنا: والقراءاتان في الشاذة ص١١٣ عن ابن كثير.

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: لما تنافى.

اللامَ قبلَ النون، ثم أدغمَ الأوّلَ في الثاني على أصول الإدغام، فصار نوناً مُشدَّدة. وقيل: شُدِّدتْ فرقاً بينها وبين الظاهر التي تُسقِطُ الإضافةُ نونَه؛ لأنَّ ذانِ لا يُضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكِّنِ وبينها. وكذلك العِلَّةُ في تشديد النون في «اللذان» و«هذان»[1]. قال أبو عمرو: إنما اختصَّ أبو عمرو هذا الحرفَ بالتشديد دونَ كلِّ تثنيةٍ من جنسه؛ لقِلَّة حروفِه، فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ: «ذَانِيكَ» بياءٍ مع تخفيف النون، فالأصل عنده «فَذَانِّكَ» بالتشديد، فأبدلَ من النون الثانية ياءً كراهيةَ التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أَمَلُّه، فأبدلوا اللامَ الثانية ألِفاً[2]. ومن قرأ بياءٍ بعد النون الشديدة فوجَّهَه أنه أشبع كسرةَ النونِ فتولَّدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ يعني: مُعيناً، مُشتقٌّ من أردَأْتُه أي: أعنْتُه[3]. والرِّدْءُ: العون[4]. قال الشاعر:

ألـم تـرَ أنَّ أصْـرَمَ كـان رِدئـي وخـيـرَ الـنـاسِ فـي قُـلٍّ ومـالِ

النحَّاس[5]: وقد أردأه ورداه أي: أعانه، وترك همزَه تخفيفاً. وبه قرأ نافع[6]، وهو بمعنى المهموز. قال المهدوي: ويجوز أن يكون تركُ الهمزِ من قولِهم: أردى على المئة، أي: زادَ عليها، وكأنَّ المعنى: أَرسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي. قاله مسلم ابن جُندب. وأنشدَ قولَ الشاعر:

وأسـمـرَ خَـطِّـيّـاً كـأنَّ كُـعـوبَـهُ نوى القَسْبِ قد أردى ذراعاً على العَشْرِ

كذا أنشد الماورديُّ[7] هذا البيت: قد أردى. وأنشده الغزنويُّ والجوهريُّ في

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٢) الحجة في القراءات ٥/ ٤٢٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٨٠ .

(٦) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ .

«الصحاح»[١]: قد أرمى؛ قال[٢]: والقَسْبُ: الصَّلْبُ، والقَسْبُ: تمرٌ يابسٌ يتفتَّتُ في الفم، صَلْبُ النَّواة. قال يصف رمحاً: وأسمرَ. البيت. قال الجوهري[٣]: رَدُؤ الشيء يردؤ رَداءةً، فهو رديءٌ أي: فاسد، وأردأْتُه: أفسدْتُه، وأردأتُه أيضاً بمعنى أعنتُه؛ تقول: أردأْتُه بنفسين أي: كنتُ له رِدءاً وهو العون؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾. قال النحّاس[٤]: وقد حُكيَ رَدَأْتُه رِدْءاً، وجمعُ رِدْءٍ أَرْدَاءٌ. وقرأ عاصم وحمزة: «يُصَدِّقُني» بالرفع. وجزم الباقون[٥]، وهو اختيارُ أبي حاتم على جواب الدعاء، واختارَ الرفعَ أبو عبيدٍ على الحال من الهاء في «أَرْسِلْهُ» أي: أرسِلْه ردءاً مُصدِّقاً حالةَ التصديق، كقوله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ [المائدة: ١١٤] أي: كائنةً، حالٌ صُرِفَ إلى الاستقبال. ويجوز أن يكون صفةً؛ لقوله: «رِدْءاً»[٦]. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لي وزيرٌ ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني، فـ﴿قَالَ﴾ اللهُ جلَّ وعزَّ له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نُقوِّيكَ به، وهذا تمثيل؛ لأنَّ قوَّةَ اليدِ بالعَضُد[٧]. قال طَرَفة[٨]:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ إلَّا يداً ليسَتْ لها عَضُدُ

ويُقال في دعاء الخير: شَدَّ اللهُ عضُدَكَ. وفي ضِدِّه: فتَّ اللهُ في عضُدِكَ[٩]. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى[١٠]

---

(١) (رمى)، ونسبه إلى حاتم طيئ.

(٢) في الصحاح (قسب).

(٣) في الصحاح (ردأ).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨.

(٥) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١.

(٦) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨٠.

(٨) في ديوانه ص٤٥.

(٩) الكشاف ٣/ ١٧٦.

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: تمتنعان منهم «بِآيَاتِنا»[١] فيجوز أن يوقَفَ على «إِلَيْكُما» ويكون في الكلام تقديمٌ وتأخير[٢]. وقيل: التقدير: أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُما الْغَالِبُونَ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري[٣]. قال المهدوي: وفي هذا تقديمُ الصِّلةِ على الموصول، إلَّا أن يُقدَّر: أنتُما غالبانِ بآياتِنا أنتُما ومَنِ اتَّبعكما الغالبون. وعنى بالآيات سائِرَ معجزاته.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهراتٍ واضحاتٍ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مكذوبٌ مختلق[٤] ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وقيل: إن هذه الآيات ما احتجَّ به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية. وقيل: هي معجزاته[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قراءةُ العامَّة بالواو، وقرأ مجاهدٌ وابن كثير وابن

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ ، وزاد المسير ٦/ ٢٢٢ بنحوه.

(٣) في تفسير البغوي ١٨/ ٢٥٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٥ .

مُحَيصِن: «قالَ» بلا واو، وكذلك هو في مصحف أهل مكة[١] ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالرشاد. ﴿مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «يكون» بالياء، والباقون بالتاء. وقد تقدَّم هذا[٢]. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أي: دارُ الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمرِ والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قال ابن عباس: كان بينَها وبينَ قوله: «أنا رَبُّكُمُ الأعلى» أربعون سنة[٣]. وكذبَ عدوُّ اللهِ، بل عَلِمَ أنَّ له ثَمَّ رَبّاً هو خالِقُه وخالِقُ قومِه؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبُخْ لي الآجُرَّ. عن ابن عباسٍ ﷺ[٤]. وقال قتادة: هو أوَّلُ مَنْ صنعَ الآجُرَّ وبنى به[٥]. ولمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَه هامانَ ببناء الصَّرحِ جمعَ هامانُ العمَّالَ ـ قيل: خمسينَ ألفَ بَنَّاءٍ سوى الأتباع والأُجَراء ـ وأمَرَ بطبخِ الآجُرِّ والجَصِّ، ونَشْرِ الخشب، وضَرْبِ المسامير، فبنَوا ورفعوا البناءَ وشَيَّدوه بحيث لم يبلُغْه بنيانٌ منذ خلقَ اللهُ السماوات والأرض، فكان الباني لا يقدِرُ أن يقومَ على رأسه، حتى أرادَ الله أن يفتِنَهم فيه[٦]. فحكى السُّدِّيُّ أنَّ فرعونَ صعدَ السَّطحَ ورمى بنُشَّابةٍ نحوَ السماء، فرجعت متلطِّخةً بدماء، فقال: قد قتلتُ إله موسى[٧]. فرُويَ أنَّ جبريلَ عليه السلام بعثَه اللهُ تعالى عند مقالته، فضرب الصَّرحَ بجناحِه فقطَّعَه ثلاثَ قِطَع؛ قطعةً على عسكر فرعون قتلَتْ منهم ألفَ ألف،

---

(١) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١ دون ذكر قراءة مجاهد وابن محيصن.

(٢) المصدران السابقان، وقد سلف هذا ٩/ ٣٦.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٥٥.

(٦) عرائس المجالس ص١٩١ وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وقطعةً في البحر، وقطعةً في المغرب[١]، وهلكَ كلُّ مَنْ عَمِلَ فيه شيئاً[٢]. والله أعلمُ بصِحَّة ذلك. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الظنُّ هنا شَكٌّ، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيلُ[٣] على ذي فطرة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعظّم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: عن الإيمان بموسى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدوان، أي: لم تكن له حجةٌ تدفع ما جاء به موسى. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: توهَّموا أنه لا معاد ولا بعث.

وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي: «لَا يَرْجِعُونَ» بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمًّى الفاعل. الباقون: «يُرْجَعُونَ» على الفعل المجهول. وهو اختيار أبي عبيد، والأوَّلُ اختيار أبي حاتم[٥].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ وكانوا ألفَي ألفٍ وستَّ مئةِ ألف. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: طرحناهم في البحر المالح[٦]. قال قتادة: بحرٌ من وراء مصر يقال له: إِسَاف، أغرقهم الله فيه[٧]. وقال وهب والسُّدِّي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية الْقُلْزُم يقال له: بطن مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان. وقال مقاتل. يعني نهر النيل. وهذا ضعيفٌ، والمشهور الأوّل[٨]. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: آخرُ أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر[٩]، فيكون عليهم

(١) في النسخ: الغرب. والمثبت من المصادر.

(٢) عرائس المجالس ص١٩٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٣) أي: لا يُشكل. اللسان (خيل).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨.

(٥) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ دون ذكر قراءة ابن محيصن وشيبة وحميد.

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٠.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩ من غير نسبة.

(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وزرُهم ووِزرُ من اتَّبعهم حتى يكون عقابُهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السَّفَلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمةً يأتَمُّ بهم ذَوو العِبر ويتَّعظ بهم أهل البصائر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: إلى عمل أهل النار[١] ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أمرنا العبادَ بلعنِهم فمَنْ ذكرهم لعنَهم. وقيل: أي: ألزمناهم اللعنَ أي: البُعدَ عن الخير. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المُهلَكين الممقوتين. قاله ابن كَيْسان وأبو عبيدة[٢]. وقال ابن عباس: المشوَّهين الخِلْقة بسواد الوجوه وزُرقة العيون. وقيل: من المُبعدين[٣]. يقال: قَبحه اللهُ أي: نحَّاه من كل خير، وقَبَحه وقَبَّحه إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عمرو: قَبُحْتُ وجهَه بالتخفيف معناه: قَبَّحت[٤]؛ قال الشاعر:

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها وقَبَّحَ يَرْبوعاً وقَبَّحَ دارِما[٥]

وانتصبَ يوماً على الحمل على موضع ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ واستُغني عن حرف العطف في قوله: ﴿مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ كما استُغني عنه في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. ويجوز أن يكون العاملُ في «يوم» مُضمَراً يدلُّ عليه قوله: ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ فيكون كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. ويجوز أن يكون العامل في «يوم» قوله: ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وإن كان الظرفُ متقدِّماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السَّعة، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً يوم القيامة[٦].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٦ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٥١٨ من غير نسبة.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ . والقول الثاني في زاد المسير ٦/ ٢٢٤ ، والكشاف ٣/ ١٨١ .

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٧٥ ، ونسب القول الأول لأبي زيد.

(٥) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٠ ، وفيه: وعفَّر دارما. قال شارحه: البراجم ويربوع ودارم قبائل من تميم.

(٦) البيان ٢/ ٢٢٣ -٢٢٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة. قاله قتادة. قال يحيى بن سلَّام: هو أوَّلُ كتابٍ ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام. وقيل: الكتابُ هنا ستٌّ من المثاني السَّبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ. قاله ابن عباس، ورواه مرفوعاً[(١)]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال أبو سعيد الخدري: قال النبيُّ ﷺ: «ما أهلكَ اللهُ قوماً ولا قرناً ولا أُمَّةً ولا أهلَ قريةٍ بعذابٍ من السماء ولا من الأرض منذُ أنزل اللهُ التوراةَ على موسى غيرَ القريةِ التي مُسختْ قِردةً، ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[(٢)]» أي: من بعد قوم نوحٍ وعادٍ وثمود[(٣)]. وقيل: أي: من بعد ما أغرقنا فرعونَ وقومَه وخسفنا بقارون.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: آتيناه الكتاب بصائر. أي: ليتبصَّروا ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالة لمن عمل بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن بها[(٤)]. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليذكَّروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويثِقوا بثوابهم في الآخرة[(٥)].

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٦٠٩)، وفي تفسيره ١/ ٣٥٠، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١١٨، والطبري في تفسيره ١٤/ ١١٤ - ١١٥، والحاكم ٢/ ٢٥٧ وغيرهم موقوفاً على ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٢٢٤٨)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.
وأخرجه البزار (٢٢٤٧)، والطبري ١٨/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٢٨) عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.
ومن بداية الآية حتى هذا الموضع من النكت والعيون ٢/ ٢٥٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧، وزاد المسير ٦/ ٢٢٤.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾أي: ما كنتَ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بجانب الجبل الغربيّ[١]؛ قال الشاعر:

أعطاكَ مَنْ أعطى الهُدَى النبِيَّا نُوراً يَزِينُ المِنبرَ الغربِيَّا

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ إذ كلّفناه أمرَنا ونهيَنا، وألزمناه عهدنا[٢]. وقيل: أي: إذ قضينا إلى موسى أمرَك وذكرناك بخير ذكرٍ. وقال ابن عباس: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أي: أخبرنا أنَّ أمةَ محمدٍ خيرُ الأمم .﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من الحاضرين[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذِكْرَ الله أي: عهدَه وأمرَه[٤]. نظيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وظاهر هذا يُوجِبُ أن يكون جرى لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام ذِكْرٌ في ذلك الوقت، وأنَّ الله سيبعثه، ولكن طالت المدَّة، وغلبت القسوة، فنسيَ القومُ ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهدُ فكفروا، فأرسلنا محمداً مُجدِّداً للدين وداعياً الخلقَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم[٥]. قال العَجّاج[٦]:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٢) مجمع البيان ٩/ ٣٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٦) في ديوانه ص٣٠٣ .

فبـاتَ حيـث يـدخـلُ الـثَّـوِيُّ

أي: الضيف المقيم.

وقوله: ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: تُذكِّرهم بالوعد والوعيد. ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار، ولولا ذلك لَما عَلِمتَها[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: كما لم تحضر جانبَ المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانبَ الطور إذ نادينا موسى لمَّا أتى الميقات مع السبعين. وروى أبو زُرعة بن عمرو بن جَرير[(٢)] يرفعه قال: «نُوديَ: يا أمةَ محمدٍ، أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني» فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. وقال أبو هريرة ـ وفي رواية عن ابن عباس ـ إن الله قال: «يا أمةَ محمدٍ، قد أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتُكم قبل أن تسترحموني»[(٣)] قال وهب: وذلك أنَّ موسى لمَّا ذكرَ اللهُ له فضل محمدٍ وأمته قال: يا ربِّ أرِنيهم. فقال الله: «إنكَ لن

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٢) في النسخ: عمرو بن دينار، والتصويب من المصادر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩١ من طريق سفيان الثوري، والطبري ٨/ ٢٦٢ من طريق يحيى بن عيسى، كلاهما عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة بن عمرو.
وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣١٨)، والطبري ٨/ ٢٦٢، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٤٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ من طريق حمزة الزيات، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة.
وذكره الدارقطني في العلل ٨/ ٢٩١ وقال: عن أبي زرعة قوله، وهو أصح.
قلنا: ورواية ابن عباس ذكرها الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٥٧.

تُدرِكَهم، وإن شئتَ ناديتُهم فأسمعتُكَ صوتَهم»قال: بلى يا رب. فقال الله تعالى: «يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم، فقال: «قد أجبتُكم قبل أن تدعوني»[١] ومعنى الآية على هذا: ما كنتَ بجانب الطور إذ كلَّمنا موسى فنادينا أمَّتَك وأخبرناه بما كتبناه لكَ ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا.﴿وَلَٰكِن﴾ فعلنا ذلك ﴿رَّحْمَةً﴾ منَّا بكم.

قال الأخفش: «رَحْمَةً» نصبٌ على المصدر، أي: ولكن رحمناك رحمةً. وقال الزجَّاج: هو مفعولٌ من أجله، أي: فعل ذلك بك لأجل الرحمة[٢]. النحَّاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تُلِيتْ عليك، ولكنَّا بعثناكَ وأوحيناها إليك للرحمة[٣]. وقال الكسائي: على خبر كان، التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى: هي رحمة. الزجَّاج: الرفع بمعنى: ولكنْ فِعْلُ ذلك رحمة[٤].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني العرب، أي: لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمةً بمن أُرسِلتَ إليهم؛ لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ يريدُ قريشاً. وقيل: اليهود[٥]. ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبةٌ ونقمةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي. وخصَّ الأيدي بالذكر؛ لأنَّ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٨ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩. وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٢٧.

الغالب من الكسب إنما يقع بها. وجواب «لَوْلَا» محذوفٌ، أي: لولا أن يصيبهم عذابٌ بسبب معاصيهم المتقدِّمة ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لمَّا بعثنا الرسل. وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة[١]. وبَعْثُ الرسل إزاحةٌ لعذر الكفار كما تقدَّم في «سبحان»[٢] وآخر «طه»[٣]. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ نصبٌ على جواب التحضيض. ﴿وَنَكُونَ﴾ عطفٌ عليه. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين. وقد احتجَّ بهذه الآية من قال: إن العقل يوجِبُ الإيمانَ والشكر؛ لأنه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك موجبٌ للعقاب؛ إذ تقرَّر الوجوبُ قبل بعثة الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أنَّ المحذوفَ: لولا كذا لَما احتيجَ إلى تجديد الرسل. أي: هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذَّبناهم فقد يقول قائلٌ منهم: طال العهد بالرسل، ويظنُّ أنَّ ذلك عذرٌ ولا عذرَ لهم بعد أن بلغهم خبرُ الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم اللهُ بأنه لا يُعاقِبُ عبداً إلَّا بعد إكمال البيان والحُجَّة وبعثة الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قَالُواْ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملةً واحدةً كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد، فقال الله تعالى: ﴿أو لَمْ يَكْفروا بما أُوتيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالوا ساحِرانِ تَظَاهَرا﴾ أي: موسى ومحمد تعاونا على السحر. قال الكلبي: بعثَتْ قريشٌ إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمدٍ وشأنه فقالوا: إنَّا نجده في التوراة بنعتِه وصفتِه. فلمَّا رجع الجواب إليهم ﴿قالوا ساحِرانِ تَظَاهَرا﴾[٤]. وقال قومٌ: إنَّ اليهودَ علَّموا المشركين، وقالوا: قولوا

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ .

(٢) ١٣/٤٤ وما بعده.

(٣) ١٤/١٦٦ وما بعده.

(٤) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ - ٤٤٩ .

لمحمدٍ: لولا أوتيتَ مثلَ ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراةَ دفعةً واحدة. فهذا الاحتجاج واردٌ على اليهود، أي: أو لم يكفُرْ هؤلاء اليهود بما أوتيَ موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وإنَّا كافرون بكلِّ واحدٍ منهما.

وقرأ الكوفيون: «سِحْرانِ» بغير ألف؛ أي: الإنجيل والقرآن. وقيل: التوراة والفرقان. قاله الفرَّاء[1]. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله أبو رزين. الباقون: «ساحِرانِ» بألف. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدهما ـ موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا قول مشركي العرب. وبه قال ابن عباس والحسن. الثاني ـ موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد[2]. فيكون الكلام احتجاجاً عليهم. وهذا يدلُّ على أنَّ المحذوف في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ لما جدَّدنا بعثة الرسل؛ لأنَّ اليهود اعترفوا بالنبوَّات ولكنهم حرَّفوا وغيَّروا واستحقُّوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحةَ عُذرِهم ببعثة محمدٍ ﷺ. الثالث ـ عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة. وقيل: أو لم يكفُرْ جميعُ اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ أي: قُلْ يا

(١) في معاني القرآن له ٢/٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٤/٢٥٦، والقول الثالث الذي سيأتي منه أيضاً.

وينظر السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.

محمد إذ كفرتُم معاشرَ المشركين بهذين الكتابين ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران. أو: فأتوا بكتابٍ هو أهدى من كتابَي موسى ومحمدٍ عليهما السلام. وهذا يُقوِّي قراءةَ الكوفيين «سِحْرَانِ».

«أتَّبِعْهُ» قال الفرَّاء[1]: بالرفع؛ لأنَّه صفةٌ[2] للكتاب وكتابٌ نكرة. قال: وإذا جزمت ـ وهو الوجه ـ فعلى الشرط.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتابٍ من عند الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءَ قلوبهم وما يستحسنونه ويُحبِّبُه لهم الشيطان، وأنَّه لا حُجَّةَ لهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أتبَعْنا بعضَه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول[3]. وقرأ الحسن: «وَصَلْنَا» مخففاً[4]. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى «وصلنا»: أتممنا، كصِلَتِك الشيء[5]. وقال ابن عُيَيْنة والسُّدِّي: بيَّنَّا. وقاله ابن عباس[6]. وقال مجاهد: فصَّلنا. وكذلك كان يقرؤها[7]. وقال ابن زيد: وصَلْنا لهم خبرَ الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا[8]. وقال أهل المعاني: وَالَينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضِه بعضاً؛ وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائحَ ومواعظَ

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٧، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩.

(٢) في معاني القرآن وإعراب القرآن: صلة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦.

(٤) الشاذة ص١١٣، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٢٨ نسبتها إلى أبي المتوكل وابن يعمر.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٨، ونقلها الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٦ عن الأخفش.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ عن ابن عباس.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٩.

إرادةَ أن يتذكَّروا فيُفلحوا[١]. وأصلُها من وصل الحبال بعضِها ببعض. قال الشاعر:

فقُلْ لبني مروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ وحبلٍ ضعيفٍ ما يزالُ يُوَصَّلُ[٢]

وقال امرؤ القيس:

دريرٍ كَخُذروفِ الوليدِ أَمَرَّهُ تَقَلُّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ[٣]

والضمير في «لهم» لقريش. عن مجاهد. وقيل: هو لليهود[٤]. وقيل: هو لهم جميعاً. والآية ردٌّ على من قال: هلَّا أوتي محمدٌ القرآن جملةً واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكَّرون محمداً فيؤمنوا به. وقيل: يتذكَّرون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم. قاله علي بن عيسى. وقيل: لعلَّهم يتَّعِظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقَّاش[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر أنَّ قوماً ممَّن أوتوا الكتابَ من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن؛ كعبد الله بن سَلام وسلمان[٦]. ويدخل فيه مَنْ أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينةَ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانيةُ نفرٍ أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن

(١) الكشاف ٣/ ١٨٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤ ، وقائل البيت الأخطل، وهو في ديوانه ص١٠ ، وفيه: فسائل بني مروان.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٢١ . قال شارحه: قوله: «درير» يعني: هو درير في عدوه، أي: سريع خفيف. والخذروف: الخرَّارة التي يلعب بها الصبيان، تسمع لها صوتاً، وهي سريعة المرِّ، وجعل خيط الخذروف موصَّلاً؛ لأنه قد لعب به كثيراً حتى خفَّ وأخلَقَ وتقطَّع خيطُه فوُصل، فذلك أسرع لدورانه.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٨ ونسب القول الثاني إلى رفاعة القرظي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٧ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٨٥) عن قتادة بنحوه.

وإدريس ونافع. كذا سمَّاهم الماوردي[١]. وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها إلى قوله[٢]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قاله قتادة. وعنه أيضاً: أنها نزلت في عبد الله بن سَلَام وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية.

وعن رِفاعةَ القُرظي[٣]: نزلت في عشرة أنا أحدهم[٤]. وقال الزُّهري[٥]: نزلت في النجاشي وأصحابه، ووجَّه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيّ ﷺ، وكان أبو جهلٍ وأصحابُه قريباً منهم، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ، فلمَّا قاموا من عنده تبِعَهم أبو جهلٍ ومن معه، فقال لهم: خيَّبَكُم الله من ركب، وقبَّحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدَّقتموه، وما رأينا ركباً أحمقَ منكم ولا أجهل. فقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لم نَألُ أنفسَنا رشداً ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٦] وقد تقدَّم هذا في «المائدة» عند قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مستوفى[٧]. وقال أبو العالية: هؤلاء قومٌ آمنوا بمحمدٍ ﷺ قبل أن يُبعث وقد أدركه بعضُهم[٨]. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن. وقيل: من قبل محمدٍ عليه الصلاة والسلام[٩] ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أو بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[١٠].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: إذا قُرئ عليهم القرآن قالوا: صدَّقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله، أو: قبل بعثة محمد عليه

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٨ .

(٢) عبارة: «إلى قوله» من (ظ) والنكت والعيون.

(٣) في النسخ: بن قرظة، والتصويب من المصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٧٣)، والطبراني (٥٤٦٣).

(٥) في (م): عروة بن الزبير، والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٧) سلف هذا ٨/ ١٠٨ - ١١٠ لكن عند تفسير الآية التي قبل الآية التي ذكرها المصنف.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ .

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٢٩ .

الصلاة والسلام ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُوحِّدين، أو: مؤمنين بأنه سيُبعَثُ محمدٌ وينزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ثبتَ في «صحيح مسلم» عن أبي موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يؤتَون أجرَهُم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدركَ النبيَّ ﷺ فآمنَ به واتَّبعه وصدَّقه فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله عزَّ وجلَّ وحقَّ سيِّدِه فله أجران، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فغذَّاها فأحسنَ غذاءها ثم أدَّبها ثم أعتقَها وتزوَّجها فله أجران» قال الشَّعبيُّ للخُراساني: خُذْ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة. وخرَّجه البخاريُّ أيضاً[1]. قال علماؤنا: لمَّا كان كلُّ واحدٍ من هؤلاء مخاطَباً بأمرين من جهتين استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم أجرين، فالكتابيُّ كان مخاطَباً من جهةِ نبيِّه، ثم إنه خُوطِبَ من جهة نبيِّنا، فأجابه واتَّبعه، فله أجر المِلَّتين، وكذلك العبد هو مأمورٌ من جهة الله تعالى ومن جهة سيِّده، وربُّ الأمَةِ لمَّا قام بما خُوطِبَ به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياءَ التربية، ثم إنَّه لمَّا أعتقها وتزوَّجها أحياها إحياءَ الحرِّية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أُمِرَ فيها، فأُجِرَ كلُّ واحدٍ منهما أجرين. ثم إنَّ كلَّ واحدٍ من الأجرين مضاعفٌ في نفسه، الحسنةُ بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور. ولذلك قيل: إنَّ العبدَ الذي يقوم بحقِّ سيِّده وحقِّ الله تعالى أفضلُ من الحرِّ. وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البَرِّ وغيره. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبدِ المملوكِ المُصلحِ أجران» والذي نفسُ أبي هريرةَ بيدِه، لولا

---

(١) صحيح البخاري (٣٠١١)، وصحيح مسلم (١٥٤). وهو في مسند أحمد (١٩٦٠٢).

الجهادُ في سبيل الله والحجُّ وبِرُّ أمي لأحببتُ أن أموتَ وأنا مملوك. قال سعيد بن المسيِّب: وبَلَغَنا أنَّ أبا هريرةَ لم يكن يَحُجُّ حتى ماتت أمُّه؛ لصحبتها[١]. وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعِمَّا للمملوكِ أن يُتوفَّى يُحسِنُ عبادةَ الله وصحابةَ سيِّده، نِعِمَّا له»[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ عامٌّ في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون. درأتُ إذا دفعتُ، والدرءُ الدفع. وفي الحديث: «ادرؤوا الحدودَ بالشُّبهات»[٤]. قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب[٥]. وعلى الأوّل

---

(١) صحيح مسلم (١٦٦٥) بتمامه، وصحيح البخاري (٢٥٤٨) دون قول سعيد بن المسيب، وهو كذلك في مسند أحمد (٨٣٧٢).

(٢) صحيح مسلم (١٦٦٧)، وهو في مسند احمد (٨٢٣٣). وأخرجه البخاري (٢٥٤٩) بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ .

(٤) المثبت من (م)، وفي (د) بزيادة: ما استطعتم. وفي (ظ): ادرؤوا الحدود ما استطعتم.

وأخرجه الترمذي (١٤٢٤)، والحاكم ٤/ ٣٨٤ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ من طريق الفضل بن موسى ومحمد ابن ربيعة، عن يزيد بن زياد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرجٌ فخلُّوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» قال الترمذي: يزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث. وقال الذهبي في تعقبه على الحاكم: قال النسائي: يزيد بن زياد شامي متروك.

وأخرجه الترمذي بعد حديث (١٤٢٤) من طريق محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد... بمثل إسناده سابقه إلا أنه جعله موقوفاً على عائشة.

وأخرجه ابن ماجه (٢٥٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً» قال البوصيري في مصباح الزجاجة٢/ ٧٠: هذا إسناد ضعيف، فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي، ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي والأزدي والدارقطني.

وأخرجه البيهقي ٨/ ٢٣٨ من حديث علي ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود، ولا ينبغي للإمام أن يعطل الحدود» وفي إسناده المختار بن نافع؛ قال البيهقي: قال البخاري: المختار بن نافع منكر الحديث.

وقد روي موقوفاً بأسانيد وألفاظٍ مختلفة، قال البيهقي ٩/ ١٢٣ - ١٢٤ : وأصح الروايات فيه عن الصحابة رواية عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قوله. قلنا: وقد أخرج تلك الرواية ابن ابي شيبة ٩/ ٥٦٧ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ بلفظ: ادرؤوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ دون ذكر الحديث.

فهو وصفٌ لمكارم الأخلاق، أي: مَنْ قال لهم سوءاً لا يَنْوِه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه. فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آيةُ السيف وبقي حُكمُها فيما دون الكفر يتعاطاه أمةُ محمدٍ ﷺ إلى يوم القيامة[١]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن»[٢] ومن الخُلقِ الحسنِ دفعُ المكروه والأذى، والصبرُ على الجفا بالإعراضِ عنه ولينِ الحديث.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حَضٌّ على الصدقات[٣]. وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة. ثم مدحَهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه، أي: لم يشتغِلوا به ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: متاركةً، مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: لنا دينُنا ولكم دينُكم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أَمْناً لكم منَّا، فإنَّا لا نُحاربكم، ولا نُسابُّكم، وليس من التحية في شيء[٤]. قال الزجَّاج: وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال الزجَّاج[٦]: أجمعَ المفسِّرون[٧]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.

(٢) سلف ١٢/ ٥٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٠ بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٩.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ١٤٩.

(٧) في النسخ: المسلمون، والمثبت من معاني القرآن للزجاج.

على أنها نزلت في أبي طالب.

قلت: والصوابُ أن يُقال: أجمعَ جُلُّ المُفسِّرين على أنها نزلت في شأن أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ، وهو نصُّ حديثِ البخاري ومسلم[١]، وقد تقدَّم [الكلام في][٢] ذلك في «براءة»[٣]. وقال أبو رَوْق: قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ إشارةٌ إلى العباس. وقاله قتادة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد: لمن قدَّر له أن يهتدي[٤]. وقيل: معنى «مَنْ أَحْبَبْتَ» أي: مَنْ أَحببتَ أن يهتدي[٥]. وقال جُبير بن مُطْعِم: لم يسمَعْ أحدٌ الوحيَ يُلقى على النبيِّ ﷺ إلَّا أبا بكرٍ الصِّدِّيق؛ فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٖ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةِۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ﴾ هذا قول مشركي مكة[٦]. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريشٍ الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيُّ قال للنبيِّ ﷺ: إنَّا لنعلم أنَّ قولَكَ حَقٌّ، ولكن يمنعُنا أن نتَّبعَ الهدى معك، ونؤمِنَ بك، مخافة أن يتخطَّفَنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقةَ لنا بهم. وكان هذا من تعلُّلاتِهم، فأجاب الله تعالى عمَّا اعتلَّ به

---

(١) صحيح البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) ١٠/ ٣٩٨.

(٤) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٠، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٠٤)، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٨٦، وابن أبي حاتم (١٧٠٠٥).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨٨.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٢.

فقال[١]: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن. وذلك أنَّ العربَ كانت في الجاهلية يُغير بعضُهم على بعض، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، وأهلُ مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمَّنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوَّهم، فلا يخافون أن تستحِلَّ العربُ حُرمةً في قتالهم. والتخطُّف: الانتزاع بسرعة[٢]: وقد تقدَّم[٣]. قال يحيى بن سلَام يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي يُجمَع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد. عن ابن عباس وغيره[٤]. يقال: جبى الماء في الحوض أي: جمعه. والجابية: الحوض العظيم[٥].

وقرأ نافع: «تُجْبَى» بالتاء؛ لأجل الثمرات. الباقون بالياء؛ لقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ واختاره أبو عبيد؛ قال: لأنه حالَ بين الاسمِ المؤنثِ وبين فِعْلِه حائل[٦]، وأيضاً فإنَّ الثمرات جمع، وليس بتأنيثٍ حقيقي[٧]. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعقلون[٨]، أي: هم غافلون عن الاستدلال، وأنَّ مَنْ رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضى حالَ كفرهم يرزقُهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

و«رِزْقاً» نُصِبَ على المفعول من أجله. ويجوز نصبُه على المصدر بالمعنى؛ لأنَّ معنى «تُجْبَى»: تُرزَق. وقُرِئَ: «يُجْنَى» بالنون من الجنا، وتعديتُه بإلى كقولك: يجنى

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) ٩/ ٤٩٠ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٥) الصحاح (جبا).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٧) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

إلى فيه ويُجنى إلى الخافَة[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيَّن لمن توهَّم أنه لو آمن لقاتلَتْه العربُ أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قومٍ كفروا ثم حَلَّ بهم البوار. والبطر: الطغيان بالنعمة. قاله الزجَّاج. «مَعِيشَتَها» أي: في معيشتها، فلمَّا حذَفَ «في» تعدَّى الفعل. قاله المازني. الزجَّاج[٢]: كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. الفرَّاء: هو منصوبٌ على التفسير. قال: كما تقول: أبطَرَكَ[٣] مالُكَ وبَطِرْتَهُ. ونظيره عنده: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وكذا عنده ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] ونَصْبُ المعارف على التفسير مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى التفسير والتمييز أن يكون واحداً نكرةً يدلُّ على الجنس[٤]. وقيل: انتصب بـ«بَطِرَتْ» ومعنى: «بَطِرَتْ» جَهِلَتْ، فالمعنى: جَهِلَتْ شُكرَ معيشتها[٥]. ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم تُسكَنْ بعد إهلاك أهلِها إلَّا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب[٦]. والاستثناء يرجع إلى المساكن، أي: بعضُها يُسكن. قاله الزجَّاج، واعتُرِضَ عليه، فقيل: لو كان الاستثناءُ يرجع إلى المساكن لقال: إلا قليل؛ لأنَّكَ تقول: القومُ لم تضرِبْ إلَّا قليلٌ؛ ترفَعُ إذا كان المضروبُ قليلاً، وإذا نصبتَ كان القليلُ صفةً للضرب، أي: لم تضرب إلَّا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتِلك مساكنُهم لم يسكُنْها إلَّا المسافرون ومَنْ مرَّ بالطريق يوماً أو بعضَ يوم، أي: لم تُسْكَنْ من بعدهم إلَّا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكُنْها إلَّا المسافرُ أو

(١) الكشاف ٣/١٨٦ ، والقراءة شاذة، والخافَة: وعاء الحَبِّ؛ سُمِّيت بذلك لأنها وقاية له. النهاية (خوف).

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٠ .

(٣) في (م): أبطرت. والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٨ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٦ .

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٠ .

مارُّ الطريقِ يوماً أو ساعة[١]. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: لِما خَلَّفوا بعد هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي: القرى الكافرُ [أهلُها][٢]. ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ قُرئ بضمِّ الهمزة وكسرِها[٣] لإتباع الجر يعني مكة، و﴿رَسُولًا﴾ يعني محمداً ﷺ[٤]. وقيل: «فِي أُمِّهَا» يعني: في أعظمها «رَسُولاً» ينذرهم[٥]. وقال الحسن: في أوائلها[٦].

قلت: ومكةُ أعظمُ القرى لِحرمتها وأوَّلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] وخُصَّتْ بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأنَّ الرسلَ تُبعَثُ إلى الأشراف، وهم يسكنون المدائن وهي أمُّ ما حولها[٧]. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «يوسف»[٨]. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ «يَتْلُوا» في موضع الصفة، أي: تالياً، أي يخبرهم أنَّ العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ﴾ وسقطتِ

---

(١) من قوله: فالمعنى إذاً... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٥١، في زاد المسير ٦/ ٢٣٣.

(٢) المصدران السابقان، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) قرأ حمزة والكسائي من السبعة بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بضمِّها. السبعة ص٢٢٧ - ٢٢٨، والتيسير ص٩٤.

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٦.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦١. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠١٨)

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٨) ١١/ ٤٧٠.

النونُ للإضافة، مثل: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:٢٨]. ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: لم أُهلِكْهم إلَّا وقدِ استحقُّوا الإهلاك؛ لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم. وفي هذا بيانٌ لعدلِه وتقدُّسِه عن الظلم؛ أخبر تعالى أنه لا يُهلكهم إلاَّ إذا استحقُّوا الإهلاكَ بظلمهم، ولا يُهلكهم مع كونهم ظالمين إلَّا بعد تأكيد الحُجَّة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل عِلْمَه بأحوالهم حُجَّةً عليهم، ونزَّه ذاتَه أن يُهلِكَهم وهم غير ظالمين، كما قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فنصَّ في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ على أنه لو أهلكَهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وأنَّ حالَه في غناه وحكمتَه منافيةٌ للظلم، دلَّ على ذلك بحرف النفي مع لامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾(١) [البقرة:١٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يا أهل مكة ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: تتمتعون بها مدَّة حياتكم، أو مدَّةً في حياتكم، فإمَّا أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أفضلُ وأدوَمُ، يريد الدارَ الآخرة وهي الجنة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ الباقي أفضلُ من الفاني(٢). قرأ أبو عمرو: «يَعْقِلُونَ» بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب، وهو الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأُعطيَ منها بعضَ ما أراد. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: في النار. ونظيره قوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾(٤) [الصافات:٥٧] قال ابن عباس: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن

---

(١) من قوله: وفي هذا بيان لعدله... إلى هذا الموضع من الكشاف ٣/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ - ٤٠٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٣) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ . وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٧ .

هشام[١]. وقال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل[٢]. وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد[٣]. وقيل: في عمار والوليد ابن المغيرة. قاله السُّدِّي. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كلِّ كافرٍ مُتِّعَ في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كلِّ مؤمنٍ صبرَ على بلاء الدنيا ثقةً بوعد الله، وله في الآخرة الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ يومَ القيامة هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم. ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: حقَّتْ عليهم كلمة العذاب، وهم الرؤساء. قاله الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين[٤]. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغيِّ. فقيل لهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يعنون: أأضللناهم كما كنَّا ضالِّين. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبرَّأ بعضُنا من بعض، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٥ ولكن عن مجاهد، وكذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٤ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١١ وليس فيه عمارة بن الوليد.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٣٥ - ٢٣٦ . وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٢ ، والطبري ١٨/ ٢٩٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٠).

منهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١] [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للكفار ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: استغيثوا بآلهتكم التي عبدتُموها في الدنيا لتنصرَكم وتدفعَ عنكم. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: استغاثوا بهم. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: فلم يُجيبوهم ولم ينتفعوا بهم.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجَّاج: جواب «لَوْ» محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى، ولَما صاروا إلى العذاب. وقيل: لو أنهم كانوا يهتدون ما دَعوهم[٢]. وقيل: المعنى: ودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذابَ يوم القيامة.

قوله تعالى[٣]: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾أي: يقول اللهُ لهم: ما كان جوابُكم لِمن أُرسِلَ إليكم من النبيين لمَّا بلغوكم رسالاتي؟[٤] ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: خَفِيَتْ عليهم الحُجج. قاله مجاهد؛ لأنَّ الله قد أعذَرَ إليهم في الدنيا، فلا يكون لهم عذرٌ ولا حُجَّةٌ يوم القيامة[٥]. و«الْأَنْبَاءُ»: الأخبار؛ سَمَّى حُجَجَهم أنباءَ لأنها أخبارٌ يُخبرونها[٦]. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الحُجَج؛ لأنَّ الله تعالى أدحَضَ حُجَجهم. قاله الضحاك[٧]. وقال ابن عباس: «لا يتساءَلُونَ» أي: لا ينطقون بِحُجَّة. وقيل: «لا يتساءَلُونَ» في تلك الساعة، ولا يدرون ما يُجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يُجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب. وقيل: لا يسألُ بعضُهم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥١ .

(٣) عبارة: «قوله تعالى» من (ظ).

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٧ .

(٦) زاد المسير ٦/ ٢٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً. حكاه ابن عيسى[١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: صدّق ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائضَ وأكثرَ من النوافل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا متَّصِلٌ بذِكر الشُّركاءِ الذين عبَدوهم واختاروهم للشفاعة، أي: الاختيار إلى الله تعالى في الشُّفعاء لا إلى المشركين. وقيل: هو جوابُ الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني نفسَه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف[٢]. وقيل: هو جوابُ اليهود إذ قالوا: لو كان الرسولُ إلى محمدٍ غيرَ جبريل لآمَنَّا به.

قال ابن عباس: والمعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء من خَلْقِه ويختارُ منهم مَنْ يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلَّام: المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه ويختار مَنْ يشاء لنبوَّته. وحكى النقَّاش أنَّ المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه يعني محمداً ﷺ، ويختارُ الأنصارَ لدينه[٣].

قلتُ: وفي كتاب البزَّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر: «إنَّ اللهَ تعالى اختارَ

---

(١) قول مجاهد وابن عيسى في النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٥).

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ .

أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختارَ لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلياً ـ فجعلهم أصحابي، وفي أصحابي كلِّهم خيرٌ، واختارَ أمَّتي على سائر الأمم، واختارَ لي من أمتي أربعةَ قرون»[(١)]. وذكر سفيان بن عُيَيْنة عن عَمرو بن دينار، عن وهب بن مُنبِّه، عن أبيه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: من النَّعَمِ الضأن، ومن الطيرِ الحمام. والوقف التام «وَيَخْتَارُ»[(٢)]. وقال عليُّ بن سليمان: هذا وقفُ التمام، ولا يجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بـ«يَخْتَارُ» لأنها لو كانت في موضع نصبٍ لم يَعُدْ عليها شيء. قال: وفي هذا رَدٌّ على القدرية[(٣)]. قال النحَّاس: التمام «وَيَخْتَارُ» أي: ويختار الرسل. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس يُرسِلُ مَن اختاروه هم[(٤)]. قال أبو إسحاق: «وَيَخْتَارُ» هذا الوقف التامُّ المختار، ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ«يختار» ويكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخِيَرَة[(٥)]. قال القُشيري: الصحيح الأوَّل ؛ لإطباقهم [على][(٦)] الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل

(١) مسند البزار «كشف الأستار» (٢٧٦٣) من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح، عن نافع بن يزيد، عن زهرة بن معبد، عن سعيد بن المسيب، عن جابر مرفوعاً.
وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٣١٢ من طريق أبي صالح وسعيد بن أبي مريم، بالإسناد السابق.
قال الذهبي في السير ١٠/ ٤١٤ - ٤١٥ : قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي وأبا زرعة يقولان: حديث «إن الله اختار أصحابي» موضوع، والحمل فيه على أبي صالح.
ثم قال الذهبي: لكن قد تابعه عليه سعيد بن أبي مريم، عن نافع... فتخلَّص أبو صالح.
ثم قال: وقال أبو زرعة وغيره: هو من وضع خالد بن نجيح المصري، وكان يضع في كتب الشيوخ.
قال الذهبي: لعله أدخله على نافع بن يزيد، مع أن نافعاً صدوقٌ احتجَّ به مسلم.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٣ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١ .
(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤ .
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢ .
(٦) ما بين حاصرتين من (م).

السُّنَّة و«ما» من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفيٌ عامٌ لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيءٌ سوى اكتسابِه بقدَرِ[1] اللهِ عزَّ وجلَّ. الزمخشري[2]: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ معناه: يختارُ ما يشاء؛ ولهذا لم يدخلِ العاطفُ، والمعنى: إنَّ الخِيَرَةَ لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، أي: ليس لأحدٍ من خلقِه أن يختارَ عليه.

وأجاز الزجَّاج[3] وغيرُه أن تكون «ما» منصوبةً بـ «يَخْتارُ». وأنكر الطبريُّ[4] أن تكون «ما» نافية؛ لئلَّا يكون المعنى: إنهم لم تكُنْ لهم الخيَرةُ فيما مضى وهي لهم فيما يُستقبل، ولأنَّه لم يتقدَّم كلامٌ بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأنَّ «ما» تنفي الحالَ والاستقبالَ كَلَيسَ؛ ولذلك عمِلَتْ عملَها، ولأنَّ الآيَ كانت تنزل على النبيِّ ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مُصِرُّون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخِيَرةَ من خلقه؛ لأنَّ المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهدايةِ من خلقِه مَنْ سبقت له السعادةُ في علمه، كما اختار المشركون خيارَ أموالهم لآلهتهم، فـ «ما» على هذا لمن يعقِلُ، وهي بمعنى الذي، و«الْخِيَرَةُ» رفعٌ بالابتداء، و«لَهُم» الخبر، والجملة خبر «كان». وشبهه بقولك: «كان زيدٌ أبوه منطلقٌ» وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائدٌ يعود على اسم كان، إلَّا أن يُقَدَّرَ فيه حذفٌ فيجوز على بُعْدٍ. وقد رُوِيَ معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس[5]. قال الثعلبي: و«ما» نفي، أي: ليس لهم الاختيارُ على الله. وهذا أَصْوَبُ، كقوله تعالى:

(١) في (م): بقدرة. والمثبت من (د) و(ظ).

(٢) في الكشاف ٣/ ١٨٨.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. قال محمود الورَّاق:

توكَّلْ على الرحمنِ في كلِّ حاجةٍ ... أردتَ فإنَّ اللهَ يقضي ويَقْدِرُ
إذا ما يُرِدْ ذو العرشِ أمراً بعبدِهِ ... يُصِبْهُ وما للعبدِ ما يتخيَّرُ
وقد يهلِكُ الإنسانُ من وجهِ حِذْرِهِ ... وينجو بحمدِ الله من حيثُ يَحذرُ[1]

وقال آخر:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ ... والدَّهرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مقسومُ
والخيرُ أجمَعُ فيما اختارَ خالِقُنا ... وفي اختيار سواه اللُّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحدٍ أن يقدُمَ على أمرٍ من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخِيرَةَ في ذلك؛ بأن يُصلِّيَ ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وكلٌّ حسن. ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاريُّ في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ يُعلِّمنا الاستخارَة في الأمورِ كلِّها، كما يُعلِّمنا السورةَ من القرآن؛ يقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فليركَعْ ركعتين غيرَ الفريضةِ، ثم ليقُلْ: اللهمَّ إني أستخيرُكَ بعلمِكَ وأستقدِرُكَ بقُدرتِكَ وأسألُكَ من فضلِكَ العظيم، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلَمُ ولا أعلَمُ، وأنت علَّامُ الغيوب، اللهمَّ إن كنتَ تعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاقْدُره لي ويسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، اللهمَّ وإن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال:

---

(١) وقد نسبت هذه الأبيات إلى أبي العتاهية، وهي في ديوانه ص١٥٣ .

في عاجل أمري وآجله ـ فاصرِفْه عني واصرفني عنه، واقدُرْ ليَ الخيرَ حيثُ كان، ثم رضِّني به» قال: ويُسمِّي حاجته(١). وروَتْ عائشةُ عن أبي بكر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهمَّ خِرْ لي واخترْ لي»(٢). وروى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أنس، إذا هممتَ بأمرٍ فاستخِرْ ربَّكَ فيه سبعَ مرات، ثم انظُرْ إلى ما يسبِقُ قلبَكَ فإنَّ الخيرَ فيه»(٣). قال العلماء: وينبغي له أن يُفرِّغَ قلبَه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمرٍ من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإنَّ الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفرٍ فيتوخَّى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداءً برسول الله ﷺ(٤).

ثم نزَّه نفسَه سبحانه بقوله الحق، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تقدَّس وتمجَّد ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ يظهرون.

وقرأ ابن مُحَيصِن وحميد: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف، وقد تقدَّم هذا في «النمل»(٥).

تمدَّح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) صحيح البخاري (١١٦٢). وهو في مسند أحمد (١٤٧٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥١٦) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زَنْفَل، وهو ضعيف عند أهل الحديث، وتفرد بهذا الحديث ولا يُتابع عليه.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٨) من طريق عبيد الله بن الحميري، عن إبراهيم بن البراء، عن النضر بن مالك، عن أبيه ـ يعني أنس بن مالك بن أنس بن مالك ـ، عن أبيه ـ يعني مالكاً ـ عن أنس بن مالك مرفوعاً.

عبيد الله بن الحميري لم نقف له على ترجمة، وإبراهيم بن البراء ضعيف جداً يحدث عن الثقات البواطيل، لا يجوز الاحتجاج بحديثه. الميزان ١/ ٢١ - ٢٢.

(٤) أخرج أحمد (٢٧١٧٥)، والبخاري (٢٩٥٠) من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يحبُّ أن يخرج يوم الخميس. وفي رواية للبخاري (٢٩٤٩): لقلَّما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا خرج في سفر إلا يوم الخميس.

(٥) ص٢٠٣ من هذا الجزء، وهي قراءة شاذة.

هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقدَّم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأنَّ جميعَ المحامد إنما تجب له، وأن لا حُكم إلا له وإليه المصير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً[1]؛ ومنه قول طرفة[2]:

لعمرُكَ ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ   نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ

بيَّنَ سبحانه أنه مَهَّدَ أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: بنورٍ تطلبون فيه المعيشة[3]. وقيل: بنهارٍ تُبصرون فيه معايشكم وتُصلحُ فيه الثمرُ والنبات[4]. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقرُّون فيه من النَّصب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ في عبادة غيره[5]، فإذا أقررتم بأنه لا يقدِرُ على إيتاء الليل والنهارِ غيرُه، فلِمَ تُشركون به؟!

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤ عن مجاهد، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٢)، وأخرجه (١٧٠٦١) عن ابن عباس ﷺ.

(٢) في ديوانه ص٤٠ ، وقد سلف ١١/ ٢٤ .

(٣) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٢ .

(٥) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٨ .

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: فيهما. وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار[١]. ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا من رزقه فيه، أي: في النهار، فحذف[٢]. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعادَ هذا الضميرَ لاختلاف الحالَين، يُنادَون مرةً فيُقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيَدْعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهَرُ حَيْرَتُهم[٣]، ثم يُنادَون مرةً أخرى فيسكتون. وهو توبيخٌ وزيادةُ خزيٍ. والمناداةُ هنا ليست من الله؛ لأنَّ الله تعالى لا يُكلِّم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] لكنَّه تعالى يأمر مَنْ يُوبِّخُهم ويُبكِّتُهم، ويُقيمُ الحُجَّةَ عليهم في مقام الحساب. وقيل: يَحتمل أن يكون من الله، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يُقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: نبياً. عن مجاهد[٤]. وقيل: هم عدولُ الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا[٥]. والأوّلُ أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وشهيدُ كلِّ أمةٍ رسولُها الذي يشهد عليها[٦]. والشهيد: الحاضر. أي: أحضرنا رسولَهم المبعوثَ إليهم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٥ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤ .

(٣) في (ظ): فيظهر خزيهم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٨).

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٧ .

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣ بنحوه.

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم[١]. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: علموا صِدق ما جاءت به الأنبياء[٢]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم وبطل[٣]. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أنَّ معه آلهةً تُعبَدُ[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لمَّا قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ بيَّن أنَّ قارونَ أوتيها واغترَّ بها ولم تعصِمْه من عذاب الله كما لم تعصِمْ فرعون، ولستُم أيها المشركون بأكثرَ عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفَعْ فرعونَ جنودُه وأموالُه، ولم ينفَعْ قارونَ قرابتُه من موسى ولا كنوزُه. قال النَّخعيُّ وقتادة وغيرهما: كان ابنُ عمِّ موسى لَحّاً[٥]؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث[٦]. وقال ابن إسحاق: كان عمَّ موسى لأبٍ وأمّ[٧]. وقيل: كان ابن خالته[٨]. ولم ينصرِفْ؛ للعُجمة

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/٣٠٨ عن مجاهد، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٠) عن أبي العالية.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/١٥٣ .

(٣) الوسيط ٣/٤٠٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/٣١٧ بنحوه.

(٥) الوسيط ٣/٤٠٧ والمحرر الوجيز ٤/٢٩٨ ولَحّاً، أي: لاصق النسب. الصحاح (لحح).

(٦) الوسيط ٣/٤٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٩ .

(٨) زاد المسير ٦/ ٢٣٩ عن ابن عباس ﷺ.

والتعريف[١]. وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسُنُ فيه الألف واللام، لم ينصرِفْ في المعرفة، وانصرف في النكرة، فإن حسُنت فيه الألفُ واللامُ انصرف إن كان اسماً لمذكَّرٍ، نحو طاوس وراقود. قال الزجَّاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف[٢]. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بغيُه أنه زاد في طول ثوبه شبراً. قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث: «لا ينظرُ الله إلى مَنْ جرَّ إزاره بطَراً» وقيل: بغيُه كفرُه بالله عزَّ وجلَّ. قاله الضحَّاك. وقيل: بغيُه استخفافُه بهم بكثرة ماله وولده. قاله قتادة. وقيل: بغيُه نسبتُه ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته. قاله ابن بحر[٣]. وقيل: بغيُه قولُه: إذا كانتِ النبوَّةُ لموسى، والمَذبحُ والقُربان في هارون، فما لي؟ فرُوي أنه لمَّا جاوز بهم موسى البحر، وصارتِ الرسالةُ لموسى والحُبورة لهارون؛ يُقرِّب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجدَ قارونُ في نفسه وحسدَهما، فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على[٤] شيء إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله. قال: واللهِ لا أصدِّقنَّكَ حتى تأتي بآية. فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلُّ واحدٍ منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القُبَّة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتزُّ ولها ورقٌ أخضر ـ وكانت من شجر اللوز ـ فقال قارون: ما هو بأعجبَ ممَّا تصنع من السحر. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي: وهو الظلم[٥]. وقال يحيى بن سلَّام وابن المسيِّب: كان قارونُ غنيّاً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدَّى عليهم وظلمهم وكان منهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ دون ذكر الحديث، وقد أخرجه أحمد (٩٠٠٤)، والبخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقول شهر بن حوشب أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٨)، وأخرج قول الضحاك (١٧٠٧٧) .

(٤) في (د) و(م): وليس لي. والمثبت من (ظ) والكشاف.

(٥) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

وقول سابع: رُوي عن ابن عباس قال: لمَّا أمرَ اللهُ تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأةٍ بغيٍّ وأعطاها مالاً، وحملها على أنِ ادَّعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها، فعَظُمَ على موسى ذلك، وأحلفَها بالله الذي فلقَ البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلَّا صدقت. فتداركها اللهُ فقالت: أشهدُ أنَّكَ بريء، وأنَّ قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قُلتُ ما قُلتُ، وأنت الصادق، وقارون الكاذب(١). فجعل الله أمرَ قارون إلى موسى، وأمر الأرضَ أن تُطيعه، فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرضُ خُذيه، يا أرض خُذيه. وهي تأخذه شيئاً فشيئاً، وهو يستغيث: يا موسى! إلى أن ساخَ في الأرض هو ودارُه وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاثَ بكَ عبادي فلم ترحَمْهم، أما إنهم لو دعَوني لوجدوني قريباً مجيباً(٢). ابن جُريج: بلغنا أنه يُخسَفُ بهم كلَّ يومٍ قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة(٣). وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»: حدَّثني إبراهيم بن راشد قال: حدَّثني داود بن مِهْران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقي قارونُ يونسَ في ظلمات البحر، فنادى قارونُ يونس، فقال: يا يونس، تُبْ إلى الله، فإنك تجده عند أول قدمٍ ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعكَ من التوبة؟ فقال: إنَّ توبتي جُعلت إلى ابن عمي، فأبى أن يقبل مني(٤). وفي الخبر: إذا وصلَ قارونُ إلى قرار الأرض السابعة نفخَ إسرافيلُ في الصور. والله أعلم. قال السُّدِّي: وكان اسم البغي سبرتا، وبذل لها قارون ألفَي

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٥٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ عن ابن عباس ﷺ بنحوه. وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٥٧) عن عبد الله بن الحارث بن نوفل. وأخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٠٢ ، وابن أبي حاتم (١٧١٦٣) عن عبد الله بن عوف القاري.

(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٣٩ إلى ابن المنذر، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٦١) عن سمرة بن جندب ﷺ، و(١٧١٦٠) عن قتادة.

(٤) الفرج بعد الشدة (٣٥).

درهم[١]. قتادة: وكان قطع البحر مع بني إسرائيل[٢] وكان يُسمى: المنوَّر، من حسن صوته[٣] في التوراة، ولكن عدوَّ الله نافقَ كما نافقَ السامري[٤].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصابَ كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن زَرْوان[٥]: إنه كان يعمل الكيمياء[٦]. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ «إنَّ» واسمها وخبرها في صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتَيْنَا». قال النحَّاس: وسمعتُ علي ابن سليمان يقول: ما أقبحَ ما يقول الكوفيون في الصِّلات! إنه لا يجوز أن تكون صلةُ الذي وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفي القرآن ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾. وهو جمع مِفْتَح بالكسر: وهو ما يُفتَح به. ومن قال: مفتاح قال: مفاتيح. ومن قال: هي الخزائن، فواحدها مَفتح بالفتح. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة، أي: تُميلهم بثِقَلها[٧]، فلمَّا انفتحتِ التاء دخلت الباء. كما قالوا: هو يذهب بالبؤس، ويُذهِب البؤس. فصار ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء أي: تنهض متثاقلة، كقولك: قُمْ بنا، أي: اجعلنا نقوم[٨]. يقال: ناءَ ينوءُ نوءاً إذا نهض بثقل[٩].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥ ، وفي مطبوعه اسم البغي: شجرتا.

(٢) في (د) و(م): موسى، والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) في (م): صورته، والمثبت من (د) و(ظ) والمصادر.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٥).

(٥) في النسخ: مروان، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم. وقد ترجم له الحافظ ابن حجر في تهذيبه ٤/ ٣١٦ ، فقال: الوليد بن زَوْران الرقي ـ بتقديم الزاي على الواو ـ وكذلك ترجم له في تقريبه لكنه قال: وقيل بتأخير الواو. روى له أبو داود في سننه حديثاً واحداً في الوضوء عن أنس بن مالك ﷺ، وقال أبو داود: لا ندري سمع من أنسٍ أو لا.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥ ، وقول عطاء أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٨١)، وقول الوليد أخرجه أيضاً (١٧٠٨٢). والكيمياء اسم لعلم التحليل والتركيب، أو علم تحويل المعادن من أدنى إلى أعلى. معجم متن اللغة ٥/ ١٢٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ .

(٨) نزهة القلوب ص١٦٨ .

(٩) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٢٢٠ .

قال الشاعر:

تـنـوءُ بـأُخـراهـا فَـلأْيـاً قِـيـامُـهـا   وتَمشي الهُوَينى عن قريبٍ فتُبْهَرُ[(١)]

وقال آخر:

أخـذتُ فـلـم أملِكْ ونُؤْتُ فـلـم أقُمْ   كـأنِّـيَ مـن طـولِ الـزمـانِ مُـقـيَّـدُ

وأناءني إذا أثقلني. عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ مقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة، أي: تنهض بها. أبو زيد: نُؤْتَ بالحمل إذا نهضتَ[(٢)].قال الشاعر:

إنَّـا وجـدنـا خَـلَـفـاً بـئـس الـخَـلَـفْ   عـبـداً إذا مـا نـاءَ بـالـحـمـلِ وَقَـفْ[(٣)]

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسُّدِّي. وهو قول الفرَّاء[(٤)]، واختاره النحَّاس[(٥)]. كما يُقال: ذهبتُ به وأذهبتُه، وجِئْتُ به وأجأتُه، ونُؤْتُ به وأَنَأتُهُ، فأما قولهم: له عندي ما ساءه وناءه. فهو إتباعٌ، كان يجب أن يُقال: وأناءه. ومثله: هنأني الطعامُ ومرأني، وأخذه ما قدُمَ وما حدُثَ[(٦)]. وقيل: هو مأخوذٌ من النأي: وهو البُعد. ومنه قول الشاعر:

يَـنْـأَوْنَ عـنَّـا ومـا تَـنْـأى مـودَّتُـهـمْ   فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا[(٧)]

وقرأ بديل بن ميسرة: «لَيَنُوءُ» بالياء، أي: لينوءُ الواحدُ منها أو المذكور، فحُمِلَ على المعنى[(٨)]. وقال أبو عبيدة: قلتُ لرؤبة بن العجَّاج في قوله:

---

(١) قائله ذو الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٢٤ . قاله شارحه: فلأياً: أي: بعد بُطءٍ قيامها. وتُبهر: تعيا.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٩ . وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٠ .

(٣) في النكت والعيون وأساس البلاغة واللسان: «خضف» بدلاً من «وقف». وخضف أي: ضرط.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٩٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ .

(٨) المحتسب ٢/ ١٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩ ، وهي قراءة شاذة.

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ   كَأنّه في الجِلدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

إن كنتَ أردتَ الخطوط فقُل: كأنَّها، وإن كنتَ أردتَ السَّوادَ والبَلَقَ فقل: كأنهما. فقال: أردتُ كلَّ ذلك(١).

واختُلِفَ في العصبة: وهي الجماعة التي يتعصَّبُ بعضُهم لبعض على أحد عشر قولاً: الأوّل ـ ثلاثةُ رجال. قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: من الثلاثة إلى العشرة(٢).

وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر. وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر. وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأوَّل الثعلبي، والثاني القُشيري والماوردي(٣)، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً(٤). السُّدِّي: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً(٥). وقال عكرمة: منهم من يقول: أربعون، ومنهم من يقول: سبعون. وهو قول أبي صالح: إنَّ العُصبةَ سبعون رجلاً. ذكره الماوردي(٦). والأوَّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل: ستون رجلاً(٧). وقال سعيد بن جُبير: ستٌّ أو سبع. وقال عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة، وهو النفر. وقال الكلبي: عشرة؛ لقول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] وقاله مقاتل(٨). وقال خيثمة: وجدتُ في الإنجيل أنَّ مفاتيح خزائن قارونَ وقْرَ ستين بغلاً غرَّاء مُحجَّلة، وأنها لَتنوء بها من ثِقَلِها، ما يزيد مفتح

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٧ . والبيت في ديوان رؤبة في مجموعة أشعار العرب ص١٠٤ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٨/ ٣١٦ ، والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٠ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٦ ، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٥).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ أبي صالح والضحاك، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٢) عن الحكم.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ عن قتادة، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٤) عن السدي.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩١) .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٣١٥ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وقول سعيد أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩٧)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (١٧٠٩٦).

منها على إصبع، لكلِّ مفتحٍ منها كنزُ مال، لو قُسِمَ ذلك الكنزُ على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل. وقيل: من جلود البقر لتخِفَّ عليه، وكانت تُحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري. وقيل: على أربعين بغلاً. وهو قول الضحَّاك. وعنه أيضاً: إنَّ مفاتِحَه أوعيتُه. وكذا قال أبو صالح: إنَّ المراد بالمفاتح الخزائن. فالله أعلم[١]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل. قاله السُّدِّي. وقال يحيى بن سلَّام: القوم هنا موسى[٢]. وقال الفرَّاء[٣]. وهو جمعٌ أُريدَ به واحد، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وإنما هو نُعيم ابن مسعود على ما تقدَّم[٤]. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تأشَرْ ولا تبطَرْ[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: البَطِرين. قاله مجاهد والسُّدِّي. قال الشاعر:

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّنِي ... ولا ضارعٌ في صرفهِ المُتقلِّبِ[٦]

وقال الزجَّاج[٧]: المعنى: لا تفرَحْ بالمال فإنَّ الفرحَ بالمال لا يؤدِّي حقَّه. وقال مبشر[٨] بن عبد الله: لا تفرَحْ: لا تُفسِدْ. قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تبرَحْ تؤدِّي أمانةً ... وتحملُ أخرى أفرحَتْكَ الودائعُ[٩]

أي: أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرَحه الدَّين أثقلَه. وأنشده: إذا أنت... البيت.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣١١ ، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣ .

(٤) ٥/ ٤٢٢ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧ ، وقائل البيت هدبة بن خشرم، وهو في الكامل ٣/ ١٤٥٥ ، ومجاز القرآن ٢/ ١١١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٥٥ ، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣ .

(٨) في (د) و(ز): فهيد، وفي (ظ) غير واضحة، والمثبت من (م).

(٩) قائله بهيس العذري كما في تاج العروس (فرح).

وأفرحَه: سرَّه، فهو مشترك. قال الزجّاج: والفَرِحين والفارحين سواء. وفرَّق بينهما الفرَّاء فقال: معنى الفرحين: الذين هم في حال فرح، والفارحين: الذين يفرحون في المستقبل. وزعم أنَّ مثله طَمِعٌ وطامِعٌ وميِّتٌ ومائت. ويدلُّ على خلاف ما قالَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ولم يقُلْ: مائت[١]. وقال مجاهد أيضاً: معنى «لا تَفْرَحْ»: لا تَبْغِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: الباغين. وقال ابن بحر: لا تبخَلْ إنَّ الله لا يُحِبُّ الباخلين[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: اطلُبْ فيما أعطاك الله من الدنيا الدارَ الآخرةَ وهي الجنة[٣]، فإن من حَقِّ المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبُّر والبغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ اختُلِفَ فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تُضيِّعْ عمركَ في ألَّا تعملَ عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يُعمَلُ لها، فنصيب الإنسان عمرُه وعملُه الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شِدَّةٌ في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تُضيِّعْ حظَّكَ من دنياك في تمتُّعِك بالحلال وطلبِكَ إيَّاه، ونظرِكَ لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشيةَ النبوَّةِ من الشدَّة. قاله ابن عطية[٤].

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمرو[٥] في قوله: احرُثْ لدنياكَ كأنَّكَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٥) في (د) و(ز): أبو عمرو، وفي (ظ) و(م): ابن عمر، والمثبت من المصادر.

تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً[١]. وعن الحسن: قدِّم الفضل، وامسِكْ ما يبلُغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرَف. وقيل: أرادَ بنصيبه الكفَ، فهذا وعظٌ متصل، كأنهم قالوا: لا تنسَ أنك تتركُ جميع مالِكَ إلا نصيبَكَ هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُكَ مما تجمع الدهرَ كلَّهُ ... رداءانِ تُلْوَى فيهما وحَنُوطُ[٢]

وقال آخر:

وهي القناعةُ لا تبغي بها بدَلاً ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدَنِ

انظُرْ لمن ملَكَ الدنيا بأجمَعِها ... هل راحَ منها بغيرِ القُطنِ والكفَنِ

قال ابن العربي[٣]: وأبدع ما فيه عندي قولُ قتادة: ولا تنسَ نصيبَكَ الحلال، فهو نصيبُكَ من الدنيا، ويا ما أحسن هذا!

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أطِعِ اللهَ واعبُدْه كما أنعَمَ عليك. ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه»[٤] وقيل: هو أمرٌ بصلة المساكين[٥]. قال ابن العربي: فيه أقوالٌ كثيرةٌ جِماعُها استعمال نِعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو[٦] الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكاً أرادَ الرَّدَ على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يحِبُّ الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشِّواء، ويشربُ الماءَ البارد[٧]. وقد مضى هذا المعنى في غير

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (١٠٩٣)، وابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ٨١ و٢/ ١٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٠.

(٤) سلف ٢/ ١٣١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٦) كلمة هو ليست في (م)، وهي من باقي النسخ.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧١.

موضع[١]. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تعمَلْ بالمعاصي[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يعني علم التوراة[٣]. وكان فيما رُوِيَ من أقرأ الناسِ لها، ومن أعلَمِهم بها. وكان أحدَ العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيتُه لِعلْمِه بفضلي ورضاه عني. فقوله: «عِنْدي» معناه: إنَّ عندي أنَّ الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علمٍ منه باستحقاقي إيَّاها لفضلٍ فيَّ. وقيل: أوتيتُه على علمٍ من عندي بوجوه التجارة والمكاسب. قاله علي بن عيسى[٤]. ولم يعلم أنَّ الله لو لم يُسهِّلْ له اكتسابَها لَما اجتمعَتْ عنده. وقال ابن عباس: على علمٍ عندي بصنعة الذهب[٥]. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقَّاش: أنَّ موسى عليه السلام علَّمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهارون الثلث، فخدعهما قارون ـ وكان على إيمانه ـ حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثُرتْ أموالُه[٦]. وقيل: إنَّ موسى علَّم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع ابن نون، وكالب بن يوفنا[٧]، وقارون[٨]. واختار الزجَّاج القول الأول، وأنكر قولَ

(١) ٢/ ١٥٢ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨ ، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٢٤).

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٤٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨ .

(٧) في النسخ الخطية: «وطالوت» بدل «وكالب بن يوفنا»، والمثبت من (م) والمصادر.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ ، والكشاف ٣/ ١٩١ .

من قال: إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطِلٌ لا حقيقةَ له[١]. وقيل: إنَّ موسى علَّم أختَه علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلَّمتْ أختُ موسى قارونَ. والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: بالعذاب[٣]. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: الأمم الخالية الكافرة[٤]. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: للمال، ولو كان المال يدلُّ على فضلٍ لَما أهلكهم[٥]. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ﴾.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يُسألون سؤال استعتاب، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥] ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[٦] [فصلت: ٢٤] وإنما يُسألون سؤال تقريعٍ وتوبيخٍ؛ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. قاله الحسن[٧]. وقال مجاهد: لا تسألُ الملائكةُ غداً عن المجرمين؛ فإنهم يُعرَفون بسيماهم، فإنهم يُحشرون سُودَ الوجوه زُرْقَ العيون[٨]. وقال قتادة: لا يُسألُ المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النارَ بلا حساب[٩]. وقيل: لا يُسألُ مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عُذِّبوا في الدنيا[١٠]. وقيل: أهلك من أهلك من

---

(١) نقله عن ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٢ . وهو في معاني القرآن له ٤/ ١٥٦ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٩١ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٦ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ عن ابن بحر.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .

(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣٠).

(٩) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٢٦).

(١٠) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ عن مقاتل.

القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتجْ إلى مسألتهم عن ذنوبهم[١].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: على بني إسرائيل فيما رآه زينةً من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمُّل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت. ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوبُ القومِ طارَتْ مخافةً ... من الموتِ أرسَوا بالنفوسِ المواجدِ[٢]

أي: مع النفوس. كان خرجَ في سبعين ألفاً مِن تَبَعه، عليهم المُعصفَرات، وكان أوّل من صُبغَ له الثيابُ المعصفَرة. قال السُّدِّي: مع ألف جوارٍ بيضٍ، على بغالٍ بيضٍ، بسروجٍ من ذهب، على قُطُفِ الأُرْجُوان[٣]. قال ابن عباس: خرج على البغال الشُّهب[٤]. مجاهد: على براذينَ بيضٍ، عليها سروجُ الأُرْجُوان، وعليهم المُعصفَرات، وكان ذلك أوّلَ يومٍ رُؤيَ فيه المُعصفَر. قال قتادة: خرجَ على أربعة آلاف دابةٍ عليهم ثيابٌ حمر، منها ألفُ بغلٍ أبيضٍ عليها قُطُفٌ حمر[٥]. قال ابن جُريج: خرج على بغلةٍ شهباءَ عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلاث مئة جارية على البغال الشُّهب عليهنَّ الثياب الحمر[٦]. وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ بمعناه عن السدي.

(٢) نسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٠٠ إلى قيس بن ثعلبة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ . وقول ابن زيد أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣٨)، وقول السدي أخرجه أيضاً (١٧١٣٤).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ ولكن عن مقاتل.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٣ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٩ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣١).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٤١).

المُعصفَرات[١]. الكلبي: خرجَ في ثوبٍ أخضر كان اللهُ أنزله على موسى من الجنة، فسرقَه منه قارون. وقال جابر بن عبد الله ﷺ: كانت زينتُه القِرْمز[٢]. قلت: القِرْمِز: صِبغٌ أحمرُ مثلُ الأُرْجُوان، والأُرْجُوان في اللغة: صِبغٌ أحمر. ذكره القشيري.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيبٍ وافرٍ من الدنيا. ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت[٣]، تمنَّوا مثلَ مالِه رغبةً في الدنيا[٤]. وقيل: هو من قول أقوامٍ لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل، للذين تمنَّوا مكانَه ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة. ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرُها؛ لأنها المعنيةُ بقوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابنَ عمه أخي أبيه،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٣٨).

(٢) أخرجه الطبري ١٨/٣٢٨ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٤/٢٦٩ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/٣٢٤ .

(٦) الوسيط ٣/٤٠٩ ، وزاد المسير ٦/٢٤٣ - ٢٤٤ .

فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام[١]، فأوحى الله إلى موسى: إني لا أُعيدُ طاعة الأرض إلى أحدٍ بعدكَ أبداً[٢]. يقال: خَسَفَ المكانُ يخسِفُ خُسوفاً ذهب في الأرض، وخَسَفَ اللهُ به الأرض خَسْفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِفَ به. وخسوفُ القمر: كسوفُه. قال ثعلب: كَسَفَتِ الشمسُ وخَسفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخَسْفُ: النقصان؛ يقال: رضي فلانٌ بالخسفِ أي: النقيصة[٣]. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعةٍ وعصابةٍ. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ لنفسِه أي: الممتنعين فيما نزلَ به من الخسف[٤]. فيُروى أنَّ قارون يَسفُلُ كلَّ يومٍ بَقْدرِ قامة، حتى إذا بلغ قعرَ الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور. وقد تقدّم[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: صاروا يتندَّمون على ذلك التمني[٦] و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [وي][٧] حرف تندّم. قال النحّاس[٨]: أحسنُ ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي: إن القومَ تَنبَّهوا أو نُبِّهوا، فقالوا: وَيْ، والمتندِّمُ من العرب يقول في خلال تندُّمه: وَيْ. قال الجوهري[٩]: «وَيْ» كلمةُ تعجُّب، ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل «وَيْ» على كأنَّ المخففة والمشدّدة؛

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٠ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٠ عن أبي عمران الجوني.

(٣) الصحاح (خسف).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ .

(٥) عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٧) ما بين حاصرتين من (م).

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ .

(٩) في الصحاح (وي) و(يك).

تقول: ويكأنَّ الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: «وَيْ» ثم تبتدئ فتقول: «كَأَنَّ».

قال الثعلبي: وقال الفرَّاء: هي كلمة تقرير، كقولك: أما ترى إلى صُنعِ الله وإحسانه. وذكر أنَّ أعرابيةً قالت لزوجها: أين ابنُكَ وَيْك؟ فقال: وَيْ كأنَّه وراء البيت، أي: أما ترَيْنَه. وقال ابن عباس والحسن: ويكَ كلمة ابتداءٍ وتحقيقٍ تقديره: إنَّ الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيهٌ بمنزلة ألا[1] في قولك: أمَّا بعد. قال الشاعر:

سَـألَـتَـانـي الـطـلاقَ إذ رَأَتَـانـي ... قَـلَّ مـالـي قـد جِـئْـتُـمـانـي بِـنُـكْـرِ

وَيْ كَـأَنْ مَـنْ يَـكُـنْ لـه نَـشَـبٌ يُـحْـ ... ـبَبْ ومَـنْ يَـفـتـقِـرْ يَـعِـشْ عـيـشَ ضُـرِّ[2]

وقال قُطْرُب: إنما هو ويلك، وأُسقِطَت لامُه وضُمَّتِ الكافُ التي هي للخطاب إلى وَيْ. قال عَنترة:

ولـقـد شَـفَـى نـفـسـي وأبـرأ سُـقْـمَـهـا ... قَـوْلُ الـفـوارسِ وَيْـكَ عَـنْـتَـرُ أَقْـدِمِ[3]

وأنكره النحَّاس وغيره، وقالوا: إنَّ المعنى لا يصح عليه؛ لأنَّ القوم لم يُخاطِبوا أحداً فيقولوا له: ولك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر. وأيضاً فإنَّ حذف اللام من ويلك لا يجوز[4]. وقال بعضهم: التقدير: ويلَكَ اعلم أنَّه؛ فأضمرَ اعلم[5]. ابن الأعرابي: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اعلم. وقيل: معناه: ألم ترَ أنَّ الله[6]. وقال القُتبي[7]: معناه: رحمةً لك بِلُغة حِمْير. وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ . وكلام الفراء في معاني القرآن له٢/ ٣١٢ ، وقول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ .

(٢) قائلهما زيد بن عمرو بن نفيل، وهما في الكتاب ٢/ ١٥٥ ، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، والبيت في شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٥٢ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٤٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ ، والبيان ٢/ ٢٣٧ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٨ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ ، ونسبة ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ إلى ابن عباس ﷺ.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠١ ، ونسب القول الذي قبله إلى الكسائي.

ويروى عنه أيضاً الوقفُ على وَيْ وقال: كلمة تفجُّع. ومن قال: ويك فوقف على الكاف فمعناه: أعجِبْ لأنَّ اللهَ يبسط الرزق، وأعجِبْ لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطابٍ لا اسماً؛ لأنَّ وَيْ ليست ممَّا يُضاف. وإنما كُتبت متصلةً؛ لأنها لمَّا كثُرَ استعمالُها جُعِلتْ مع ما بعدها كشيءٍ واحد.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1].

وقرأ الأعمش: «لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا»[2]. وقرأ حفص: «لَخسفَ بِنَا» مسمَّى الفاعل. الباقون: على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[3]، وهو اختيار أبي عبيد. وفي حرف عبد الله: «لَانْخُسِفَ بِنَا» كما تقول: انطُلِقَ بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف[4]. واختار قراءةَ الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. والثاني قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهو بأن يُضاف إلى الله تعالى لِقُربِ اسمِه منه أولى. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عند الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها. يعني: تلكَ التي سمعت بذكرها، وبلغَكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رفعةً وتكبُّراً على الإيمان والمؤمنين[5] ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٨ .

(٢) الشاذة ص١١٤ ، والمحرر الوجيز ٤/٣٠٢ .

(٣) السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٤) المحتسب ٢/١٥٧ ، وفي معاني القرآن للفراء ٢/٣١٣ ، والشاذة ص١١٤ عن عبد الله، وفي المحرر الوجيز ٤/٣٠٢ عن الأعمش وطلحة.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٨ .

بالمعاصي. قاله ابن جُريج ومقاتل[١]. وقال عِكْرمة ومسلم البَطين: الفساد: أخذُ المال بغير حق[٢]. وقال الكلبي: الدعاء إلى غير عبادة الله[٣]. وقال يحيى بن سلّام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين[٤]. ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ قال الضحَّاك: الجنة[٥]. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علوّاً هو من لم يجزَعْ من ذلِّها ولم ينافِسْ في عِزِّها، وأرفعهم عند الله أشدُّهم تواضعاً، وأعزُّهم غداً ألزَمُهم لذلِّ اليوم[٦]. وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرَّ عليُّ بن الحسين وهو راكبٌ على مساكينَ يأكلون كِسَراً لهم، فسلَّم عليهم، فدعَوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتُكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرَّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدَّثني أبي، قال: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة . . . فذكره[٧] وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد: إنما ينتفع بتلك الدار من اتَّقى، ومن لم يتَّقِ فتِلكَ الدارُ عليه لا له؛ لأنَّها تضرُّه ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ تقدَّم في «النمل»[٨]. وقال عكرمة: ليس شيءٌ خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى: من جاء بلا إله إلا الله فله منها

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٢٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٠ ، وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧١ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٨ عن مسلم البطين، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٤). وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ عن عكرمة.

(٣) الوسيط ٣/ ٤١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٨ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧١ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٤ عن قتادة.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٧١ ، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٧٩).

(٧) مكارم الأخلاق للطبراني (١٧٣).

(٨) عند تفسير الآية (٨٩) منها.

خير[١]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُعاقَبُ بما يليقُ بعمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ختم السورة ببشارة نبيِّه محمدٍ ﷺ بردِّه إلى مكة قاهراً لأعدائه. وقيل: هو بشارةٌ له بالجنَّة. والأوّل أكثر، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم[٢]. قال القُتبي: مَعادُ الرجل بلده؛ لأنَّه ينصرف ثم يعود[٣]. وقال مقاتل: خرجَ النبيُّ ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافةَ الطلب، فلمَّا رجع إلى الطريق ونزل الجَحفةَ عرف الطريقَ إلى مكة فاشتاق إليها، فقال له جبريل: إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة ظاهراً عليها[٤]. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالجَحْفة ليست مكية ولا مدنية[٥]. وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى الموت[٦]. وعن مجاهدٍ أيضاً وعكرمة والزُّهري والحسن: إن

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٣) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٨/ ٣٥٠ - ٣٥١ عنه وعن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٢٠٤) عن مجاهد.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٢٩.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥ لكن نسبه إلى ابن سلام وغيره، وفي النكت والعيون ٤/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٥٠ من غير نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٩، وابن أبي حاتم (١٧١٩٩).

المعنى: لَرادُّكَ إلى يوم القيامة[(١)]. وهو اختيار الزجّاج[(٢)]. يُقال: بيني وبينك المعاد، أي: يوم القيامة؛ لأنَّ الناسَ يعودون فيه أحياء[(٣)]. و«فَرَضَ» معناه أنزل[(٤)]. وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي صالح: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: إلى الجنة. وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً[(٥)]؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء. وقيل: لأنَّ أباه آدمَ خرجَ منها[(٦)]. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أي: قُلْ لكفار مكة إذا قالوا: إنَّكَ لفي ضلالٍ مبين: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنا أم أنتم[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: ما علمتَ أنَّنا نُرسِلُكَ إلى الخلق ونُنزِلُ عليك القرآن[(٨)]. ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ قال الكسائي: هو استثناءٌ منقطع بمعنى لكن[(٩)]. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم ومساعداً. وقد تقدَّم في هذه السورة[(١٠)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفِتْ نحوَهم وامْضِ لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنْكَ» مجزوم النون[(١١)]. وقرئ: «يُصِدُّنَّكَ» من أصدَّه، بمعنى: صدَّه، وهي لغةٌ في كلب؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٨/٣٤٦ - ٣٤٧، وابن أبي حاتم (١٧٢٠١) عن مجاهد.

(٢) في معاني القرآن له ٤/١٥٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٠٧.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٦٤.

(٥) أخرجه عنهم الطبري ١٨/٣٤٦ - ٣٤٧.

(٦) تفسير الطبري ١٨/٣٥١.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٩.

(٨) الوسيط ٣/٤١١.

(٩) نقله البغوي في تفسيره ٣/٤٥٩ وغيره عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٢/٣١٣.

(١٠) عند الآية (١٧).

(١١) المحرر الوجيز ٤/٣٠٣ - ٣٠٤. وهذه القراءة ليست مشهورة عن يعقوب، وإنما المشهور عنه مثل قراءة الجمهور.

أُنَاسٌ أصدُّوا الناسَ بالسيفِ عنهمُ   صُدُودَ السَّوَاقي عن أنوفِ الحَوَائِمِ[١]

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى التوحيد[٢]. وهذا يتضمَّنُ المهادنةَ والموادعة. وهذا كلُّه منسوخٌ بآية السيف. وسبب هذه الآية ما كانت قريشٌ تدعو رسولَ الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطانُ في أمنيته أمر الغَرَانيق[٣] على ما تقدَّم[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: لا تعبُدْ معه غيرَه فإنه لا إلهَ إلا هو. نفيٌ لكل معبودٍ وإثباتٌ لعبادته. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال مجاهد: معناه: إلَّا هو[٥]. وقال الصادق: دِينُه. وقال أبو العالية وسفيان: أي: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه[٦]؛ أي: ما يُقصَدُ إليه بالقربة. قال:

أستغفِرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ   ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ[٧]

وقال محمد بن يزيد: حدَّثني الثوري قال: سألتُ أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فقال: إلَّا جاهَه، كما تقول: لفلانٍ وجهٌ في الناس أي: جاه[٨]. ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال الزجَّاج: «وَجْهَهُ» منصوبٌ على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان إلَّا وجهُه بالرفع، بمعنى: كلُّ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٤، والقراءة في الشاذة ص١١٤. والبيت هكذا أنشده الجوهري في الصحاح (صدد) من غير نسبة. ونقله عنه صاحب اللسان ونسبه لذي الرمة، ونقل عن ابن بري أنه قال: صواب إنشاده: صدود السواقي عن رؤوس المخارمِ. قلنا: وقد جاء على الصواب في ديوان ذي الرمة ٢/ ٧٧١.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٤.

(٤) ١٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٥١ عن الضحاك وأبي عبيدة.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧، والنكت والعيون ٤/ ٢٧٣ عن سفيان الثوري، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ عن أبي العالية.

(٧) سلف ٢/ ٣٣١.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧.

شيءٍ غيرُ وجهِه هالِكٌ كما قال:

وكـــلُّ أخٍ مُـــفـــارِقُـــهُ أخـــوهُ لَـــعَـــمْـــرُ أبـــيـــكَ إلّا الْـــفَـــرْقَـــدانِ

والمعنى: كلُّ أخٍ غيرُ الفرقَدين مُفارِقُه أخوه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى تُرجعون إليه[١].

تمَّتْ سورةُ القَصصِ والحمدُ لله

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٨، والبيت سلف ١١/ ٥٤.

سُورَةُ القَصَصِ

مكيَّةٌ، وقيل: إلَّا قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الآية: ٥٢] إلى قوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الآية: ٥٥]. وهي ثمانٌ وثمانونَ آيةً(١).

---

(١) وهذه الآيات مدنية، انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٣٤).

واستُثني منها أيضاً قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥] على أنها جُحْفيَّة ليست بمكيةٍ ولا مدنية، وقد وقفتُ فيه على بعض الأخبار المنقطعة:

منها: ما رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٦١٣) فقال: (بَلَغني أنَّ النَّبيَّ ﷺ وهو مُوَجَّهٌ من مكة إلى المدينة حين هاجَرَ نَزَل عليه جبريلُ وهو بالجحْفَةِ فقال: أتشتاقُ يا محمدُ إلى بلادك التي وُلِدْتَ بها؟ فقال: «نَعم»، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾: إلى مولِدكَ الذي خرجْتَ منه، ظاهِرًا على أهلِه). وهكذا رواه الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠١) عن يحيى بن سلام، وكذا ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٣٥٩) دون سند أيضاً. وسيأتي في آخر هذه السورة.

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٦) من طريق مقاتل عن الضحاك قال: لَمَّا خَرَج النَّبيُّ ﷺ مِن مكة فبلغ الجُحْفَةَ اشتاق إلى مكة، فأنزَل اللهُ تباركَ وتعالى عليه القرآنَ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾: إلى مكةَ.

وزاد الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٦٧) في سنده ابن عباس فقال: قال مقاتل: قال الضحاك: قال ابن عباس: (إنّما نزلت بالجحفة ليس بمكة ولا المدينة)، وهو منقطع فالضحاك لم يسمع من ابن عباس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾: نقرؤُه بقراءةِ جبريلَ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بمَعنى: ننزلُه، مَجازًا.

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾: بعضَ نبَئِهمَا، مَفعولُ ﴿نَتۡلُواْ﴾.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: مُحقِّينَ ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأَنَّهُم المنتفعونَ بهِ.

(٤) ـ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافٌ مُبينٌ لذلكَ البَعضِ، والأرضُ أَرْضُ مِصرَ.

﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾: فِرَقًا يشيِّعونَهُ فيما يريدُ، أو يشيِّعُ بعضُهُم بعضًا في طاعتِه.

أو: أصنافًا في استخدامِه، استَعمَلَ كلَّ صنفٍ في عملٍ.

أو: أحزابًا، بأَنْ أغرى بينَهُم العداوةَ كَيْ لا يتَّفِقُوا عليه.

﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ وهُم بَنُو إسرائيلَ، والجملةُ حالٌ مِن فاعلِ (جعلَ)، أو صِفَةٌ لـ﴿شِيَعٗا﴾، أو استئنافٌ.

وقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ بدلٌ منها.

كان ذلك لأنَّ كاهِنًا قال لهُ: يولَدُ مَولودٌ في بني إسرائيلَ يَذهَبُ ملكُكَ على يدِه، وكان ذلك مِن غايةِ حُمقهِ، فإنَّه لو صَدَقَ لم يَندَفِعْ بالقتلِ، وإن كَذَبَ فما وَجهُه[1]؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فلذلكَ اجترأَ على قتلِ خلقٍ كثيرٍ مِن أَولادِ الأَنبِيَاءِ لتَخيُّلٍ فاسِدٍ.

---

(١) قوله: «فما وجهه»؛ أي: وجه القتل. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٣٧).

(٥) ـ ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: أن نتفضَّلَ عليهم بإنقاذِهم مِن بَأسِه، و﴿نُريدُ﴾ حِكايَةُ حالٍ ماضيَةٍ[١] معطوفَةٌ على ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ مِن حيثُ إنَّهما واقعانِ تفسيرًا للـ﴿نَّبَإِ﴾، أو حالٌ مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾[٢]، ولا يلزمُ مِن مُقارنَةِ الإرادةِ للاستضعافِ مُقارنَةُ المُرادِ له؛ لجوازِ أَنْ يكونَ تَعلُّقُ الإرادةِ به حينئذٍ تَعلُّقًا استقباليًّا، مع أنَّ منَّةَ اللهِ بخَلاصِهِم لَمَّا كانَتْ قَرِيبَةَ الوُقوعِ منه جازَ أَنْ تَجرِيَ مجرى المُقارَنِ.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾: مُقَدَّمينَ في أمرِ الدَّارَيْنِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ لِمَا كانَ في مَلَكَةِ[٣] فِرعونَ وقومِه.

(٦) ـ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مِصرَ والشَّامِ، وأصلُ التَّمكينِ: أَنْ تجعلَ للشَّيءِ مَكانًا يَتمكَّنُ فيه، ثمَّ استُعِيرَ للتَّسليطِ وإطلاقِ الأمرِ.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾: مِن بَنِي إسرائيلَ ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ مِن ذَهابِ مُلكِهِم وهَلاكِهِم على يدِ مولودٍ منهم.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ويَرى﴾ بالياءِ و﴿فرعونُ وهامانُ وجنودُهُما﴾ بالرَّفعِ[٤].

---

(١) قوله: «﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضِيَةٍ» يشير به إلى وجه الإتيان بالمضارع في ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ مع أن المراد به الماضي، ومع أنه عطف على قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [فاطر: ٩]. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٢٣٩ب).

(٢) قوله: «أو حال من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾»؛ أي: من فاعله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٣٨).

(٣) المَلَكة؛ بفتح الميم واللام: التملُّك مطلقًا هنا. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) والباقون بالنُّون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الأسماء الثلاثة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٠).

(٧) - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهامٍ أو رُؤيَا: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكنكِ إخفاؤُه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يُحَسَّ به ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ في البَحرِ - يريدُ النِّيلَ - ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعةً ولا شدَّةً ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ لفراقِه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قَريبٍ بحيث تأمَنين عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

رُوِيَ: أنَّها لَمَّا ضربَها الطَّلْقُ دعَتْ قابلَةً مِن الموكَّلاتِ بحُبَالى بني إسرائيلَ فعالَجَتْها، فلَمَّا وقعَ مُوسى على الأرضِ هالَها نورٌ بينَ عينيهِ، وارتعَشَتْ مَفاصِلُها، ودخلَ حُبُّهُ قلبَها بحيثُ منعَها مِن السِّعايَةِ، فأرضعَتْهُ ثلاثةَ أشهُرٍ ثمَّ ألحَّ فِرعونُ في طَلَبِ المَواليدِ واجتهدَ العُيونُ في تَفحُّصِها، فأخذَتْ له تابوتًا فقذَفَتْه في النِّيلِ[١].

(٨) - ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لالتقاطِهِم إيَّاهُ بما هو عاقِبَتُه ومؤدَّاهُ تَشبيهًا له بالغرضِ الحاملِ عليه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿وحُزْنًا﴾[٢].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كلِّ شَيءٍ، فليسَ ببِدْعٍ مِنْهُم أن قَتلوا أُلوفًا لأجلِه، ثمَّ أَخذوهُ يُرَبُّونَه ليَكبرَ ويَفعلَ بهم ما كانوا يحذرونَ، أو: مُذنبينَ فعَاقَبَهُم اللهُ بأَنْ رَبَّى عدوَّهُم على أيديهِمْ، فالجُملَةُ اعتراضٌ لتَأكيدِ خَطئِهِم، أو لبيانِ الموجِبِ لِمَا ابتُلُوا بهِ.

وقُرِئَ: ﴿خَاطِينَ﴾[٣] تخفيفُ ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾، أو: خاطِينَ[٤] الصَّوابَ إلى الخطأ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عنه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٧)، وفيه إسحاق بن بشر، وهو متروك.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣) هي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (١/ ٣٩٧).

(٤) في هامش نسخة الخيالي: «في نسخة: من الخطو». وفي «حاشية الخفاجي»: قوله: «أو خاطين =

(٩) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: لفرعونَ حينَ أخرجَتْهُ مِن التَّابوتِ: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾: هو قُرَّةُ عينٍ لنا؛ لأنَّهما لَمَّا رأَيَاهُ أُخرِجَ مِن التَّابوتِ أحبَّاهُ، أو لأنَّه كانَتْ لها ابنةٌ بَرْصاءُ وعالجَهَا الأطبَّاءُ بريقِ حَيوانٍ بَحريٍّ يشبهُ الإنسانَ فلطخَتْ برصَهَا بريقِهِ فبرِئَتْ[1].

وفي الحديثِ أنَّه قال: «لكِ لا لي، ولو قال: لي كما هو لكِ؛ لهداهُ اللهُ كما هَداهَا»[2].

= الصواب» فليس مبدلاً [أي: ليس بإبدال الهمزة ياء ثم حذفها تخفيفاً كما في الوجه الأول من هذه القراءة] بل هو من خطا يخطو بمعنى: تخطَّى؛ لتخطيه الصواب إلى ضدّه فهو مجاز، وهو يؤول إلى معنى القراءة الأولى، لكن الوجه الأوّل أوفق لها لفظاً ومعنى.

(١) قطعة من خبر طويل ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٥) عن وهب وفيه: (... فلما أخرجوا الصبيَّ من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخَتْ به برصها فبرأت، فقبَّلته وضمته إلى صدرها...).

(٢) قطعة من حديث الفتون، وهو خبر طويل جدًّا رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأورده بتمامه ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ [طه: ٤٠] ثم قال: (وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه).

قلت: وهذه القطعة منه هي مما صرح ابن عباس برفعه في هذا الخبر، وكذا رواه مقتصراً على هذا الجزء مرفوعاً الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٦٤)، وكلهم رووه من طريق يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾ فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي، فقال رسول الله ﷺ: (والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرةَ عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرَمه ذلك). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٦): رجاله رجال الصحيح غير الأصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان. =

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطابٌ بلَفظِ الجَمعِ للتَّعظيم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مخايِلَ اليُمنِ ودَلائلَ النَّفعِ، وذلك لِمَا رأَتْ مِن نُورٍ بينَ عَينَيْهِ، وارتضاعِه إبهامَه لبنًا، وبرءِ البَرْصاءُ بريقِهِ.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أو نتبنَّاهُ فإنَّه أهلٌ له.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ من الملتقطِينَ، أو من القائلَةِ والمقولِ لَهُ؛ أي: وهُم لا يَشعرونَ أَنَّهُم على الخطأِ في التقاطِهِ أو في طمعِ النَّفعِ منه والتَّبنِّي له، أو مِن أَحَدِ ضَمِيرَيْ ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ على أنَّ الضَّميرَ؛ أي: وهُمْ لا يَشعرونَ أَنَّه لغَيْرِنا وقد تَبَنَّيْنَاه.

(١٠) - ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾: صِفـرًا مِن العَقـلِ لِمَا دَهَمَها مِن الخَوفِ والحيـرَةِ حينَ سَـمِعَت بوقوعِه في يَدِ فِرعونَ، كقولِـه: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]؛ أي: خَـلاءٌ لا عقـولَ فيهـا، ويؤيِّدُه أنَّه قُـرِئَ: (فِرْغًـا)[1] من قولِهـمِ: (دِماؤُهُـم بينَهُم فِـرْغٌ)؛ أي: هَدَرٌ.

أو: من الهمِّ؛ لفَرطِ وُثوقِها بوعدِ اللهِ، أو لسَماعِهَا أنَّ فِرعونَ عطفَ عليه وتبنَّاهُ.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: إنَّها كادَتْ لتُظْهِرُ بمُوسى[2] - أي: بأمرِهِ وقِصَّتِه - من فرطِ الضَّجَرِ أو الفرحِ بتَبنِّيهِ.

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٦٣) عن ابن عباس موقوفاً.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٩٦): والأشبه، والله أعلم، أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقًى من الإسرائيليات، وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك.

(١) حكاها قطرب عن بعض أصحاب النبي ﷺ. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٤٧).

(٢) أي: الإبداء: إظهار الشيء؛ لأنه من البدوّ وهو الظهور، وتعديته هنا بالباء لتضمينه معنى: تصرّح، أو

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصَّبرِ أو الثَّباتِ[١] ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مِن المُصدِّقينَ بوَعدِ اللهِ، أو الواثقينَ بحِفظِه، لا بتَبنِّي فِرعونَ وعَطفِه.

وقُرِئَ: (مُؤْسَى)[٢] إجراءً لضمَّةِ جارِ الواوِ مُجرى ضَمَّتِهَا في استدعاءِ همزِها همزَ واوِ «وُجوهٍ»[٣].

وهوَ عِلَّةُ الرَّبطِ أو الثَّباتِ[٤]. وجوابُ ﴿لَوْلَآ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(١١) ـ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريمَ: ﴿قُصِّيهِ﴾: اتَّبعي أثرَهُ وتتبَّعِي خبرَهُ.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾: عن بعدٍ. وقُرِئَ: (عن جانبٍ) و: (عن جَنْبٍ)[٥] وهو بمعناهُ.

= هي زائدة. انظر: «حاشية الخفاجي».

وفسره في «الكشاف» (٦/ ٣٩٨) بقوله: «لَتُصْحِرُ به»؛ ومعناه: أن ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ هو مِن البَدْوِ وهو البَرِّيَة، لا مِنَ البُدُوِّ بمعنى الظهور. قاله الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ١٨) ثم نقل عن الزمخشري قوله في «الأساس»: ومِن المجاز: أَصْحَرَ بالأمرِ وأَصْحَرَه: أظْهَرَه.

قلت: فالمعنى واحد سواء كان من البَدْو أو من البُدُو، وهو: الإظهار، والله أعلم.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «والثبات».

(٢) حكاها قطرب. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٤٨)، وعزاها ابن خالويه في «إعراب القرآن» (ص: ٦٤) إلى الكسائي، وقال: وهذا حرف غريب.

(٣) قوله: «إجراءً لضمة»؛ أي: ضمة الميم «جار الواو»؛ أي: المجاورة لها «مجرى ضمتها»؛ أي: ضمة الواو «في استدعاء همزها»؛ أي: همز الواو. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٤١).

وفي «حاشية الخفاجي»: الهمزة المضمومة تبدل واواً باطراد كوجوه وأجوه، وهذه لضم ما قبلها أجريت مجرى المضمومة. وعبارة «الكشاف» (٦/ ٣٩٨): جُعِلَتِ الضَّمةُ في جارةِ الواو ـ وهي الميمُ ـ كأنَّها فيها، فهُمِزَتْ كمَا تُهمَزُ واوُ (وُجُوهٍ).

(٤) «أو الثبات» من نسخة الفاروقي، وقوله: «وهو علة الربط»؛ أي: قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ﴾... إلخ علة لربط القلب؛ أي: تقويته. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٣)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٨). الأولى عن =

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تَقُصُّ، أو أنَّها أختُه.

(١٢) ـ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾: ومَنعناه أن يَرتَضِعَ مِن المُرضِعاتِ، جمعُ مُرضِعٍ، أو مَرضَعٍ وهو الرَّضاعُ، أو موضعُهُ يعني: الثَّديَ.

﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ قصِّها أثَرَهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾: لأجلِكُم ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لا يُقصِّرونَ في إرضاعِه وتَربيتِه.

رُوِيَ أنَّ هامانَ لَمَّا سَمِعَه قال: إنَّها لتَعرِفُه وأهلَه فخُذوهَا حتَّى تخبرَ بحالِه، فقالَت: إنَّما أَرَدْتُ وهُم للمَلكِ ناصِحُونَ، فأمرَهَا فِرعونُ بأَنْ تأتيَ بمَن يكفلُه، فأَتَتْ بأُمِّهَا ومُوسَى على يدِ فِرعونَ يَبْكِي وهو يُعلِّلُه، فلَمَّا وجدَ رِيحَها استأنَسَ والتقَمَ ثَديَهَا، فقالَ لها: مَن أنتِ منه؟ فقَدْ أبى كلَّ ثَديٍ إلَّا ثديَكِ، فقالت: إنِّي امرأَةٌ طيِّبَةُ الرِّيحِ طيِّبَةُ اللبنِ لا أُوتَى بصَبِيٍّ إلا قَبِلَنِي، فدفعَهُ إليها وأَجرى عليها، فرَجَعت به إلى بيتِها مِن يَومِها وهوَ قولُه:

(١٣) ـ ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولَدِها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقِه.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ عِلْمَ مُشاهدَةٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ وعدَه حَقٌّ فيرتابونَ فيه، أو أنَّ الغرضَ الأَصليَّ مِن الرَّدِّ عِلمُها بذلك وما سواه تبعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَطَ مِنْهَا حينَ سَمِعَت بوُقوعِه في يَدِ فِرعونَ.

(١٤) ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: مَبلغَهُ الذي لا يزيدُ عليه نَشْؤُه، وذلك مِن ثلاثينَ إلى أربعينَ سنةً؛ فإنَّ العقلَ يَكمُلُ حينئذٍ، ورُوِيَ أنَّه لم يُبعَثْ نَبيٌّ إلا على رَأسِ الأربعينَ[1].

= النعمان بن سالم، والثانية عن ابن عباس وقتادة والحسن والأعرج.

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٧): غريب.

﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ قَدُّهُ، أو عقلُه.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾: نبوَّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدِّينِ، أو عِلمَ الحُكَماءِ والعُلماءِ وسَمْتَهُم قبل استِنبائِه، فلا يقولُ ولا يَفعَلُ ما يُستجهلُ فيه، وهو أوفَقُ لنَظمِ القِصَّةِ لأنَّ استِنباءَهُ بعدَ الهِجرةِ في المُراجعَةِ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الذي فَعَلنا بمُوسَى وأُمِّه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسَانِهم.

(١٥) ـ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾: ودخلَ مِصرَ آتيًا مِن قَصرِ فِرعونَ، وقيل: مَنْفَ[٢]، أو حابينَ[٣]، أو عينَ شمسٍ مِن نواحيهَا.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: في وقتٍ لا يُعتادُ دُخولُها ولا يتوقَّعونَهُ فيه، قيل: كانَ في وقت القيلولَةِ، وقيل: بينَ العِشاءَيْنِ.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: أحدُهُما ممَّنْ شايَعَهُ على دِينِه وهُمْ بَنُو إسرائيلَ، والآخَرُ مِن مُخالِفيهِ وهم القِبْطُ، والإشارةُ على الحكايَةِ.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فسألَهُ أن يُغيثَهُ بالإعانةِ، ولذلك عُدِّيَ بـ(على). وقُرِئَ: (استعانَهُ)[٤].

---

(١) قوله: «بعد الهجرة في المراجعة»؛ أي: في الأحكام. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٤٣).

(٢) هو قول السُّدِّي، انظر: «تفسير البغوي» (٦/ ١٩٦).

(٣) في نسخة الخيالي: «خابين»، وفي نسخة التفتازاني: «جابين»، والمثبت من نسخة الفاروقي، وهو الموافق لما في «تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٤٠٤)، و«درج الدرر» للجرجاني (٢/ ٤١٨) عن مقاتل قال: قرية تدعى حابين، وهي على فرسخين من مصر. اهـ.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن سيبويه، وعزاها أبو القاسم الهذلي في «الكامل» (ص: ٦١٣) إلى ابن مقسم والزعفراني.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾: فضربَ القِبطيَّ بجُمْعِ كفِّهِ، وقُرِئَ: (فلكزَهُ)؛ أي: فضربَ بهِ صَدْرَه[1].

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتلَهُ، وأصلُه: أَنْهى حياتَهُ، مِن قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنَّه لَمْ يُؤمَرْ بقتلِ الكُفَّارِ، أو لأنَّه كانَ مَأمونًا فيهم فلَمْ يَكُن له اغتيالُهُم، ولا يقدَحُ ذلك في عِصمَتِه لكونِه خَطأً، وإنَّما عَدَّه مِن عَملِ الشَّيطانِ وسَمَّاهُ ظُلمًا واستغفرَ عنه على عادَتِهم في استعظامِ مُحقَّراتٍ فرطَتْ مِنْهُم.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهرُ العَداوَةِ.

(١٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقَتلِه ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ ذَنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ لاستغفارِه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذُنوبِ عِبادِه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قسمٌ مَحذوفُ الجوابِ؛ أي: أُقسِمُ بإنعامِكَ عليَّ بالمغفرةِ وغيرِها لأَتوبَنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

أو استعطافٌ؛ أي: بحقِّ إنعامِكَ عليَّ اعْصِمْني فلَنْ أكونَ مُعينًا لِمَن أدَّتْ مُعاونَتُه إلى جُرمٍ.

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنهُما: لم يَستثنِ فابتُلِيَ بهِ مَرَّةً أُخرَى[2].

وقيل: معناه: بما أنعَمْتَ عليَّ مِن القُوَّةِ أُعينُ أولياءَكَ فلَنْ أَستعمِلَها في مُظاهَرَةِ أَعدائِكَ.

---

(١) هي قراءة ابنِ مسعود. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤).

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٠٤)، والنحاس في «معاني القرآن» (١/ ٥٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤١٣). ومعنى (لم يستثنِ): لم يقل: إن شاء الله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٤٤).

(١٨) ـ ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: يَترصَّدُ الاستقادةَ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: يَستَغيثُهُ، مُشتَقٌّ مِن الصُّراخِ.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾: بَيِّـنُ الغوايـةِ؛ لأنَّـكَ تَسـبَّبْتَ لقتلِ رَجُـلٍ وتقاتِلُ آخرَ.

(١٩) ـ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾: لِمُوسى والإسرائيليِّ؛ لأنَّه لم يَكُن على دِينِهما، ولأنَّ القِبْطَ كانوا أعداءَ بَنِي إسرائيلَ.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ قالَهُ الإسرائيليُّ لأنَّهُ لمَّا سَمَّاهُ غَوِيًّا ظنَّ أنَّه يبطِشُ عليه، أو القبطيُّ، وكأنَّه توهَّمَ مِن قولِه أنَّه الذي قتلَ القِبطيَّ بالأمسِ لهذا الإسرائيليِّ.

﴿إِن تُرِيدُ﴾: مـا تريدُ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطاوُلُ عـلى النَّاسِ ولا تنظرُ العواقِبَ ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بينَ النَّاسِ، فتدفعَ التَّخاصُمَ بالتي هي أحسَنُ.

ولَمَّا قالَ هذا انتشَرَ الحَديثُ وارتقَى إلى فِرعونَ ومَلَئِهِ، فهَمُّوا بقتلِه، فخرجَ مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ وهو ابنُ عمِّهِ[١] ليُخبِرَه كما قال:

(٢٠) ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾: يُسـرِعُ، صفـةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حالٌ منه إذا جُعِـلَ ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ صِفـةً لـه لا صِلَةً لـ﴿جاء﴾؛ لأنَّ تَخصيصَهُ بهـا يُلحِقُه بالمَعارفِ.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾: يَتَشاورونَ بسَببِكَ ـ وإنَّما سُمِّيَ التَّشاوُرُ ائتِمارًا لأنَّ كُلًّا مِن المُتشاورينَ يأمرُ الآخرَ ويأتَمِرُ ـ ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ

---

(١) «ابن عمه»؛ أي: ابن عمّ فرعون، وقد اشتهر بمؤمن آل فرعون حتى صار كالعلم له. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ اللامُ للبَيَانِ وليسَ صِلَةً لـ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ لأنَّ مَعمولَ الصِّلَةِ لا يتقدَّمُ المَوصولَ(١).

(٢١) ـ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾: مِن المَدينةِ ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ طَالبٍ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: خَلِّصْني مِنْهُم واحفَظْني مِن لُحوقِهم.

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾: قبالةَ مَدْينَ قريةِ شُعَيبٍ، سُمِّيَتْ باسمِ مديَنَ بنِ إبراهيمَ، ولم تكُن في سُلطانِ فِرعَوْنَ، وكانَ بينَها وبينَ مِصْرَ مَسيرَةُ ثمانٍ.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توَكُّلًا على اللهِ وحسنَ ظنٍّ به، وكانَ لا يَعرِفُ الطُّرُقَ، فعنَّ له ثلاثُ طرقٍ فأخذَ في أوسَطِها، وجاءَ الطُّلَّابُ عَقِيبه فأخذُوا في الآخرَيْنِ.

(٢٣) ـ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾: وصلَ إليه وهو بئرٌ كانوا يسقونَ مِنْها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾: وجدَ فوقَ شَفيرِها ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جماعةً كثيرةً مُختَلِفينَ ﴿يَسْقُونَ﴾ مَواشِيَهُم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾: في مكانٍ أسفَلَ مِن مَكانِهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾: تمنعانِ أغنامَهُما عن الماءِ كيلا تَختَلِطَ بأغنامِهِم.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: ما شأنُكُما تَذودانِ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾:

---

(١) قوله: «اللامُ للبَيَانِ وليسَ صِلَةً للنَّاصِحينَ لأنَّ مَعمولَ الصِّلَةَ لا يتقدَّمُ المَوصولَ» يعني: اللام في ﴿لَكَ﴾ للبيان كما في (سقياً لك)، فيتعلق بمحذوف هو: (أعني)، ولم يجوِّز الجمهور تعلقه بـ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ لأن (أل) فيه اسم موصول، ومعمول الصلة لا يتقدم الموصولَ كما ذكر المصنّف، ولا يجوز أيضاً تعلقه بمحذوف مقدم يفسره المذكور؛ لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً، أما عند مَن جوَّز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول (أل) خاصة لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه، أو قال: إن (أل) هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت= يجوز أن يكون ﴿لَكَ﴾ متعلقاً بـ﴿ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ أو بمحذوف يفسره ذلك. انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ١٤١)

يصرفَ الرُّعاةُ مَواشِيَهُم عن الماءِ حذرًا عن مُزاحمةِ الرِّجالِ، وحُذِفَ المَفعولُ لأنَّ الغرضَ هو بيانُ ما يدلُّ على عِفَّتِهما ويَدعوهُ إلى السَّقْيِ لَهُما ثَمَّ دونَهُ[١].

وقرأ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿يَصدُرَ﴾[٢]؛ أي: ينصرِفَ.

وقُرِئَ: (الرُّعاءُ) بالضَّمِّ[٣]، وهو اسمُ جمعٍ كالرُّخالِ.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾: كبيرُ السنِّ لا يَستَطِيعُ أَنْ يخرُجَ للسَّقيِ، فيرسِلُنا اضطِرارًا.

(٢٤) - ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مَواشِيَهُما رحمةً عَلَيْهِما.

قيل: كانَتِ الرُّعاةُ يضعونَ على رأسِ البئرِ حجرًا لا يُقِلُّهُ إلا سبعةُ رِجالٍ أو أكثرُ، فأقلَّهُ وحدَهُ مع ما كانَ به من الوَصَبِ والجُوعِ وجِراحَةِ القَدمِ[٤].

وقيل: كانَتْ بئرٌ أُخرى عليها صخرَةٌ فرفعَهَا واستَقى منها[٥].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾: لأيِّ شَيءٍ أنزلتَ إليَّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كَثيرٍ، وحملَهُ الأكثرونَ على الطَّعامِ ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاجٌ سائلٌ، ولذلك عُدِّيَ باللامِ.

---

(١) قوله: «ثَم دونه» بالثاء المثلثة المفتوحة؛ أي: في الفعل دون المفعول، وفي بعض النسخ: «تَمّ» بنقطتين؛ أي: حصل بدون المفعول، وعلى النسختين فذكره زائد لا حاجة إليه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) بفتحِ الياءِ وضمّ الدال، انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣) بضم الراء ذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن بعضهم، ونسبها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٨٠) لعكرمة وسعيد بن جبير وابن يعمر وعاصم الجحدري.

(٤) «مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم» في نسخة الفاروقي بعد قوله: «فسقى لهما مواشيهما رحمة عليهما»، وهو هنا أنسب، وانظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٧٤).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٢٤) عن ابن عباس.

وقيل: معناه: إنِّي لِمَا أنزلْتَ إليَّ مِن خَيرِ الدِّينِ صرتُ فَقيرًا في الدُّنيَا(١)؛ لأنَّه كانَ في سَعةٍ عندَ فِرعونَ، والغرضُ مِنْه إظهارُ التَّبجُّحِ والشُّكرِ على ذلك.

(٢٥) ـ ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أي: مُسْتَحْيِيَةً(٢) مُتخفِّرَةً، قيل: كانتِ الصُّغرَى منهما، وقيل: الكُبرَى، واسمُها: صَفُوراءُ أو صَفْرَاءُ، وهي التي تزوَّجها مُوسى.

﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ﴾: ليكافِئَكَ ﴿أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾: جزاءَ سَقْيِكَ لنا.

ولعَلَّ مُوسى إنَّما أَجابَها ليتبرَّكَ برُؤيَةِ الشَّيخِ ويَستَظهِرَ بمعرفَتِه لا طمعًا في الأجرِ، بل رُوِيَ أنَّهُ لَمَّا جاءَهُ قَدَّمَ إليه طعامًا، فامتنعَ عنه وقال: إنَّا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ دينَنا بالدُّنيا، حتى قال شُعَيبٌ: هذه عادَتُنا مَع كلِّ مَن يَنزِلُ بنا(٣).

هذا، وإنَّ مَن فعلَ مَعروفًا فأُهدِيَ بشيءٍ؛ لم يَحْرُمْ أَخذُهُ.

---

(١) قولُه: «إنِّي لِمَا أنزلْتَ إليَّ مِن خَيرِ الدِّينِ صرتُ فَقيرًا في الدُّنيَا»، (ما) على هذا الوجه موصولةٌ، واللام أَجْلية؛ أي: لِأَجْلِ ما أنزَلْتَ، و﴿مِنۡ﴾ بيان، والتنكيرُ في ﴿خَيۡرٖ﴾ للنوعِ والتعظيم؛ ولذلكَ أضافَهُ إلى الدِّين، وعلى الوجه الأوَّلِ: (ما) موصوفة، والتنكيرُ للشيوعِ؛ ومن ثَم قدَّرَ أوَّلاً: «لأيِّ شيء»، وثانيًا «قليلٍ أو كثير». انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٥)، وعبارة الزمخشري: ﴿إِنِّي﴾ لأيِّ شَيْءٍ ﴿أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ قَليلٍ أو كَثيرٍ غَثٍّ أو سَمينٍ لـ﴿فَقِيرٞ﴾، ويَحْتَمِلُ أَنْ يُريدَ: إنِّي فقِيرٌ منَ الدُّنيا لِأَجْلِ ما أنزَلْتَ إليَّ مِن خيْرِ الدِّينِ. انظر: «الكشاف» (٦/ ٤١١)، وعليه شرح الطيبي، فنقلناه مع بعض تصرف.

(٢) في نسخة التفتازاني: «مستحية»، وكلاهما صواب.

(٣) قطعة من خبر طويل رواه الدارمي في «سننه» (٦٤٧)، والدينوري في «المجالسة» (٣٤٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٣٤)، عن رجل من التابعين يدعى: أبا حازم، واسمه: سلمة بن دينار، وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٤١٣)، وتابعه عليه مَن بعده كالمؤلف والرازي وأبي البركات النسفي وأبي حيان وابن عادل والنيسابوري وأبي السعود في تفاسيرهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريدُ فِرعونَ وقومَه.

(٢٦) ـ ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ يعني: التي استدعَته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ للرَّعيِ ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ تعليلٌ شائعٌ يجري مجرى الدَّليلِ على أنَّه حقيقٌ بالاستئجارِ، وللمُبالغَةِ فيه جُعِلَ ﴿خَيۡرَ﴾ اسمًا، وذُكرَ الفعلُ بلفظِ الماضي للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مجرَّبٌ مَعروفٌ.

رُوِيَ أنَّ شُعيبًا قالَ لها: وما أَعلَمَكِ بقُوَّتِه وأمانَتِه؟ فذكرَتْ إقلالَ الحجرِ، وأنَّه صَوَّبَ رأسَهُ حتى بلَّغَتْهُ رِسالَتَه، وأمرَهَا بالمشيِ خَلفَهُ[1].

(٢٧) ـ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾؛ أي: تأجرَ نفسَكَ مني، أو: تكونَ لي أجيرًا، أو: تُثيبَنِي، مِن: أَجرَكَ اللهُ.

﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ظرفٌ على الأوَّلَيْنِ، ومَفعولٌ به على الثَّالثِ بإضمارِ مُضافٍ، أي: رِعيةَ ثَماني حجَجٍ.

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾: عملَ عشرِ حجَجٍ ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾: فإتمامُه مِن عندِكَ تَفضُّلًا، لا مِن عندِي إلزامًا عليك، وهذا استدعاءُ العقدِ لا نفسُه، فلعلَّهُ جرى على مُعيَّنَةٍ وبمهرٍ آخرَ، أو برِعْيةِ الأَجَلِ الأوَّلِ ووعدَ له أن يوفيَ الآخرَ إن تيسَّرَ له قبلَ العقدِ، وكانَتِ الأغنامُ للمُزوَّجةِ[2]، مع أنَّه يُمكِنُ اختلافُ الشَّرائعِ في ذلك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٢٥) وما بعدها عن ابن عباس وجمع. وهو قطعة من حديث الفتون الطويل وقد تقدم قريباً.

(٢) قوله: «وهذا استدعاء العقد...»؛ أي: دعاه وواعده على عقدٍ سيقع، أي: هذا الكلام وهو قول شعيب: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ هو استدعاء عقد النكاح من موسى لا عقد النكاح نفسه بدليل قوله: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ ولو كان غرضه من هذا الكلام =

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بإلزامِ إتمامِ العشرِ، أو المناقشةِ في مراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ، واشتقاقُ المشقَّةِ من الشَّقِّ(١)، فإنَّ ما يصعُبُ عليك يَشُقُّ عليك اعتقادَكَ في إطاقَتِه ورأيَكَ في مُزاولَتِه.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسنِ المُعاملَةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالمُعاهدَةِ.

(٢٨) ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾؛ أي: ذلك الذي عاهدْتَني فيه قائمٌ بينَنا لا نخرجُ عَنْه.

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أطوَلَهُما أو أقصرَهُما ﴿قَضَيۡتُ﴾ وفيتُكَ إيَّاه ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ

= العقد لقال: قد أنكحتك بنتي هذه، فلا يَرِدُ عليه أنّ الإبهام في المرأة المزوَّجة غير صحيح، وأيضاً غير صحيح النكاح على الخدمة ومنافعِ الحرّ عند الحنفية خصوصاً ومدتها غير معيَّنة هنا، وأيضاً الخدمة ليست لها بل لأبيها فكيف صح كونها مهراً؟ وحاصله: أنّ هذا الكلام طلب العقد لا نفسه.
وقوله: «فلعلَّهُ جرى على مُعيَّنَةٍ وبمهرٍ آخرَ»؛ أي: فلعل العقد جرى بعد تلك المواعدة على بنت معينة من بنتيه وبمهر آخر غير الرِّعية، وهذا تصحيح العقد على المذهبين.
وقوله: «أو برِعْيةِ الأَجَل الأوَّل... » جواب آخر عن الإيراد الثاني، وهو تصحيح العقد عند الشافعي، فإن التزوّج على الرعي جائز عنده، أما عند الحنفية فيفهم من «الهداية» الجواز أيضاً، والخلاف في الخدمة غير الرعية فإنها مستثناة لأنها قيام بأمر الزوجية لا خدمة صرفة، وقوله: «ووعد له..» الجملة حالية بتقدير (قد)، أو معطوف على «جرى»، وفاعله ضمير موسى عليه السلام.
وقوله: «وكانَتِ الأغنامُ للمُزوَّجةِ» فيه الجواب عن الإيراد الثالث؛ فإن هذا من شرائط صحة عقد النكاح، فإن رعية الغنم لا يجوز أن تقع مهراً إلا إذا كانت الأغنام للبنت التي زوجها شعيب من موسى لا لشعيب عليهما السلام. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٤/ ٥٠١ ـ ٥٠٢)، و«حاشية الخفاجي».

(١) قوله: «من الشق... » «الشق» بفتح الشين، وهو فصل الشيء شقين، يعني: أنه يشق الاعتقاد والرأي لتردّده في تحمله وعدمه. انظر: «حاشية الخفاجي».

عَلَيَّ﴾: لا يُعتَدَى عليَّ بطَلَبِ الزِّيادَةِ، فكما لا أُطالَبُ بالزِّيادَةِ على العشرِ لا أُطالَبُ بالزِّيادةِ على الثَّماني.

أو: فلا أكونُ مُعتَدِيًا بتركِ الزِّيادَةِ عليه، كقولِك: لا إِثمَ عَلَيَّ، وهذا أبلغُ في إثباتِ الخِيرةِ وتَساوي الأجلَينِ في القضاءِ مِنْ أَنْ يقال: إنْ قضيتُ الأقصرَ فلا عدوانَ عَلَيَّ.

وقُرِئَ: (أَيْمَا)[1]، كقولِه:

تَنظَّرْتُ نَصْرًا والسِّماكَيْنِ أَيْهُمَا ... عَلَيَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهْ[2]

و: (أيَّ الأجلينِ ما قَضَيْتُ)[3] فتكونُ (ما) مزيدةً لتأكيدِ الفعلِ؛ أي: أيَّ الأجلينِ جرَّدتُ عَزْمِي لقَضائِه.

و: (عِدْوان) بالكسرِ[4].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن المُشارطَةِ ﴿وَكِيلٌ﴾: شاهدٌ حَفِيظٌ.

(٢٩) - ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: بامرأتِه، رُوِيَ أنَّه قَضَى أَقْصَى الأجَلَينِ[5]، ومكثَ بعدَ ذلك عندَهُ عَشْرًا أُخَرَ ثمَّ عزَمَ على الرُّجوعِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن العباس بن الفضل عن أبي عمرو، و«المحتسب» (٢/ ١٥٠) عن الحسن.

(٢) البيت للفرزدق في «ديوانه» (١/ ٢٨١). وانظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٢)، و«مغني اللبيب» (ص: ١٠٧).

(٣) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٥)، و«الكشاف» (٦/ ٤١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٨٥).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤)، و«الكشاف» (٦/ ٤١٩)، عن يزيد بن قطيب.

(٥) رواه البخاري (٢٦٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه بلفظ: (أكثرهما =

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾: أبصرَ مِن الجِهةِ التي تَلِي الطُّورَ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾: بخبرِ الطَّريقِ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾: عودٍ غليظٍ سواءٌ كانَتْ فيه[1] نارٌ أو لم تَكُن، قالَ كُثَيِّرٌ[2]:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزْلَ الجِذَى غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ[3]

وقال:

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً شَدِيدًا عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالْتِهَابُهَا[4]

= وأطيبهما)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٥/ ٢٩١): وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب.

ورواه البزار في «مسنده» (٣٩٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٣٠)، من طريق عوبد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أن النبي ﷺ سئل: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما»، قال: وسئل: أيَّ المرأتين تزوج؟ قال: «الصغرى منهما».

قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٦): (عوبد ضعيف). ثم ذكر عن ابن مردويه نحوه من حديث أبي هريرة رفعه وقال: (وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف)..

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «سواء كان في رأسه».

(٢) قوله: «كثير»: ليس في نسخة الفاروقي والخيالي، والمثبت من باقي النسخ، ومثله في «الكشاف» (٦/ ٤٣٣)، ولم أجد من نسبه لكثير، والصواب أنه لابن مقبل. انظر التعليق الآتي.

(٣) البيت في «ديوان تميم بن أبيٍّ بن مقبل» (ص: ٩١). وورد منسوبا إليه في «مجاز القرآن» (٢/ ١٠٣)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٦٩٥)، و«الكامل» للمبرد (٢/ ١١٤)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٢٣٩)، و«تهذيب اللغة» (٢/ ١٢٠)، و«الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤١٤)، و«الصحاح» (مادة: جذى)، و«مقاييس اللغة» (٢/ ٢٨٣)، و«الأفعال» للمعافري (٣/ ٣٣٤)، و«المخصص» لابن سيده (٣/ ١٦٢)، و«البسيط» للواحدي (١٧/ ٣٨١)، وكذا نسبه لابن مقبل الزمخشري في «أساس البلاغة» (مادة: جذى).

(٤) البيت في «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٠)، و«باهر البرهان» للغزنوي (٢/ ١٠٧٢)، و«الكشاف» =

ولذلك بيَّنَه بقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

وقرأ عاصِمٌ بالفَتحِ، وحَمْزَةُ بالضَّمِّ، وكُلُّهَا لُغَاتٌ[1].

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: تستَدْفِئُونَ بِهَا.

(٣٠) ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أتاهُ النِّداءُ مِن الشَاطِئِ الأيمنِ لِمُوسى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ مُتَّصِلٌ بالشَّاطِئِ أو صِلَةٌ لـ﴿نُودِيَ﴾.

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ مِن ﴿شَٰطِيِٕ﴾ بدلَ الاشتمالِ لأنَّها كانَتْ نابِتَةً على الشَّاطِئِ.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾: أي يا مُوسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا وإن خالفَ ما في (طه) والنَّملِ لفظًا فهو طِبْقُه في المقصودِ.

(٣١) ـ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ أي: فألْقَاهَا فصارَتْ ثُعبانًا واهتزَّتْ فلمَّا رَآها تهتزُّ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في الهيئةِ والجثَّةِ أو في السُّرعةِ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: مُنهزِمًا من الخَوْفِ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: ولم يرجعْ.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نُودِيَ: يا مُوسى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ عن المُخاوفِ، فإنَّه لا يخافُ لَدَيَّ المُرسَلُونَ.

= (٦/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٧٤)، و«البحر» (١٧/ ٦)، و«الدر المصون» (٨/ ٦٦٩)، و«اللباب» لابن عادل (١٥/ ٢٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٧/ ١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٢)، وعندهم جميعاً عدا «الكشاف» و«البحر»: «.. شديداً عليها.. »، وهي كذلك في نسخة الطبلاوي، وعليها شرح الخفاجي فقال: (وقيس فيه اسم قبيلة، ولذا قال: «عليها»، وهو استعارة لما لحقها من الفتنة التي كأنها نار متوقدة).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣٢) ـ ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾: أَدخِلْها ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾: عيبٍ ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾: يدَيْكَ المَبْسوطَتينِ تتَّقِي بهما الحيَّةَ كالخائفِ الفَزِعِ بإدخالِ اليُمنَى تحتَ عَضُدِ اليُسرَى وبالعكسِ، أو بإدخالِها في الجَيبِ فيكونُ تكريرًا لغرضٍ آخرَ، وهو أنْ يكونَ ذلك في وَجهِ العَدُوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأً لظهورِ مُعجِزَةٍ.

ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالضَّمِّ: التَّجلُّدَ والثَّباتَ عندَ انقلابِ العَصا حيَّةً، استعارةً مِن حالِ الطَّائرِ؛ فإنَّه إذا خافَ نَشَرَ جَناحَيْهِ وإذا أَمِنَ واطمَأَنَّ ضَمَّهُما إليهِ.

﴿من الرَّهَبِ﴾: مِن أَجْلِ الرَّهبِ؛ أي: إذا عراكَ الخَوْفُ فافعَلْ ذلك تَجلُّدًا وضَبْطًا لِنَفْسِك.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ بضمِّ الرَّاءِ وسكونِ الهاءِ، وقُرِئَ بضَمِّهِما، وقرأَ حفصٌ بالفَتْحِ والسُّكونِ[1]، والكلُّ لُغَاتٌ.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارةٌ إلى العَصا واليدِ، وشدَّدَه ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ[2].

﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾: حُجَّتانِ، وبُرهانٌ: فُعْلانٌ؛ لقولِهِم: (أَبْرَهَ الرَّجُلُ): إذا جاءَ بالبُرْهانِ، مِن قَوْلِهِم: بَرِهَ الرَّجُلُ: إذا ابيَضَّ، ويقالُ: بَرْهاءُ وبَرَهْرَهَةٌ للمرأةِ البيضاءِ، وقيلَ: فُعْلَالٌ لقَوْلِهِم: بَرْهَنَ.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُرسَلًا ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ فكانوا أَحِقَّاءَ بأَنْ يُرسَلَ إليهِم.

---

(١) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عَمْرو بفتحهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١). أما القراءة بضمتين فشاذة نسبت لعيسى بن عمر والجحدري وقتادة والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤)، و«البحر» (١٧/ ٤٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٣٣) ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بها.

(٣٤) ـ ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾: مُعِينًا، وهو في الأصلِ اسمُ ما يُعانُ به كالدِّفءِ.

وقرأ نافعٌ: ﴿رِدًا﴾ بالتَّخفيفِ[١].

﴿يُصَدِّقْني﴾ بتخليصِ الحقِّ وتقريرِ الحُجَّةِ وتَزييفِ الشُّبهَةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يُطاوِعُني عند المُحاجَّةِ.

وقيل: المرادُ تَصديقُ القَوْمِ لتَقريرِه وتَوضيحِه[٢]، لكنَّه أُسنِدَ إليه إسنادَ الفعلِ إلى السَّببِ.

وقرأ عاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرَّفعِ[٣] على أنه صِفَةٌ والجَوابُ مَحذوفٌ.

(٣٥) ـ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾: سنُقَوِّيك به، فإنَّ قُوَّةَ الشَّخصِ بشِدَّةِ اليَدِ على مُزاولةِ الأُمورِ، ولذلك يُعبَّرُ عنه باليَدِ، وشِدَّتِها بشِدَّةِ العَضُدِ.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾: غلبَةً أو حُجَّةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ أو حِجَاجٍ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ مُتَعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: اذهَبَا بآياتِنَا، أو بـ﴿نجعل﴾؛ أي: نُسَلِّطُكُما بها، أو بمعنى: (لا يَصِلُونَ)؛ أي: تَمتَنِعُونَ مِنْهُم، أو قسمٌ جوابُه: (لا يَصِلُونَ)[٤]، أو بيانٌ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١). وقرأ أبو جعفر (رِدًا) بالنقل، ويبدل التنوين ألفًا وصلًا ووقفًا. انظر: «النشر» (١/ ٤١٤).

(٢) قولـه: «وقيـل: المـراد تصديـق القـوم»؛ أي: والأصـل: يصدقونـي. انظـر: «حاشـية الأنصـاري» (٤/ ٣٥٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٤) قولُه: «قَسَم جوابُه: لَا يَصِلُونَ»، فيهِ تساهُل؛ لأنّ جوابَ القَسَمِ لا يتقدَّمُ عليه، ولا يكونُ فيهِ فاء، ولعلّ مُرادَهُ أنّ ما قبلَهُ يَدُلُّ على الجواب، وأما الجواب فمحذوف. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ٥٦).

لـ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ في قولِه: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى: أنه صِلَةٌ لِمَا بيَّنَه[1]، أو صِلَةٌ له على أنَّ اللامَ فيه للتَّعريفِ لا بمعنى (الذي).

(٣٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾: سحرٌ تَختَلِقُه لم يُفعَلْ قبلُ مثلُه، أو: سِحرٌ تعملُه ثمَّ تَفترِيه على اللهِ، أو: سحرٌ مَوصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ يَعْنون: السِّحرَ، أو ادعاءَ النبوَّة ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كائناً في أيَّامِهم.

(٣٧) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فيَعلمُ أنِّي مُحِقٌّ وأنتُمْ مُبطِلُونَ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿قال﴾ بغيرِ واوٍ[2]، لأنَّه قال ما قاله جوابًا لِمَقالِهم، ووجهُ العَطفِ: أنَّ المرادَ حكايةُ القَوْلَينِ ليوازنَ النَّاظرُ بينَهُما فيُميِّزَ صَحيحَهُما مِن الفاسدِ.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: العاقبَةُ المحمودةُ، فإنَّ المرادَ بالدَّارِ: الدُّنيا، وعاقِبَتُها الأصليَّةُ هي الجنَّةُ؛ لأنَّها خُلقَت مَجازًا إلى الآخرةِ، والمقصودُ منها بالذَّاتِ هو الثَّوابُ، والعِقابُ إنَّما قُصِدَ بالعَرَضِ.

---

(١) أي: الغالب إنما يكون غالباً بسبب شيء، فقوله: ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ هنا فيه إبهام من حيث إنه لم يذكر ما تحصل الغلبة بسببه وهو ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ فيكون بياناً، فكأنه قيل: (الغالبون بآياتنا) لكن لا يجوز أن يكون ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ معمولاً لـ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول فيكون عامله محذوفاً، والتقدير: تغلبون بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٢٤٥ب).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿يكونُ﴾ بالياءِ[1].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: لا يَفوزونَ بالهُدَى في الدُّنيا وحسنِ العاقبَةِ في العُقْبَى.

(٣٨) ـ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نَفى علمَه بإلهٍ غيرِهِ دونَ وُجودِهِ إذْ لم يَكُن عندَه ما يَقتَضِي الجزمَ بعدَمِه، ولذلك أمرَ ببناءِ الصَّرحِ ليصعدَ إليه ويتطلَّعَ على الحالِ بقولِه: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنَّه توهَّمَ أنَّه لو كانَ لكانَ جسمًا في السَّماءِ يمكنُ التَّرقِّي إليهِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أو أرادَ أَنْ يَبنيَ له رَصَداً يترصَّدُ منها أَوضاعَ الكواكبِ فيرى: هَلْ فيها ما يدلُّ على بعثةِ رسولٍ وتبدُّلِ دولةٍ؟

وقيل: المرادُ بنفْيِ العلمِ نَفْيُ المَعلومِ كقولِه: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٨]، فإنَّ مَعناه: بما ليسَ فيهِنَّ، وهذا مِن خواصِّ العلومِ الفِعليَّةِ فإنَّها لازمَةٌ لتحقُّقِ مَعلوماتِها، فيلزمُ مِن انتفائِها انتِفاؤُها[2]، ولا كذلكَ العلومُ الانفِعاليَّةُ.

قيل: أوَّلُ مَن اتَّخذَ الآجُرَّ فِرعونُ[3]، ولذلك أمرَ باتِّخاذِه على وجهٍ يَتضمَّنُ تَعليمَ الصَّنعةِ مع ما فيهِ مِن تَعظُّمٍ، ولذلك نادى هامانَ باسمِه بـ(يا) في وسطِ الكَلامِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٢) قوله: «وهذا»؛ أي: ما ذكر من أن المرادَ بالعلم المعلومُ، وقوله: «فيلزم من انتفائها انتفاؤها»؛ أي: من انتفاء العلوم الفعلية انتفاءُ المعلومات. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٥٥) عن ابن جريج.

(٣٩) ـ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: بغيرِ استحقاقٍ ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالنُّشورِ.

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ(١).

(٤٠) ـ ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ كما مرَّ بيانُه، وفيهِ فخامةٌ وتعظيمٌ لشأنِ الآخذِ، واستحقارٌ للمأخوذينَ؛ كأنَّه أخذَهُم مع كثرتِهم في كفٍّ فطرَحَهُم في اليمِّ، ونظيرُه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمَّدُ ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وحذِّرْ قومَكَ عن مِثْلِها.

(٤١) ـ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: قدوةً للضُّلَّالِ بالحملِ على الإضلالِ.

وقيل: بالتَّسمِيَةِ كقولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، أو بمنعِ الألطافِ الصَّارِفَةِ عنه(٢).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٧١).

(٢) قوله: «الصارفة عنه»؛ أي: عن الإضلال. وهذان القولان من قوله: «بالتسمية كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ...﴾» والقول الذي بعده ذكرهما الزمخشريُّ في «الكشاف» (٦/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) لصرف الآية عن ظاهرها، وهما مبنيان على مذهب المعتزلة من وجوب مراعاة ما يتوهمونه صلاحاً أو أصلح على الله تعالى في أفعاله، ولا يجوز عليه خلق الشر، أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء، قال أبو حيان في «البحر» (١٧/ ٥٠) في تعقبه على كلام الزمخشري: وإنما فسر (جعلناهم) بمعنى: دعوناهم ـ أي سميناهم ـ لا بمعنى: صيرناهم، جرياً على مذهبه من الاعتزال؛ لأن في تصييرهم أئمة خلقَ ذلك لهم، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوِّزون ذلك من الله ولا ينسبونه إليه. وقد رده ابن المنير في «الانتصاف» (٣/ ٤١٦) فقال: لا فرق عند أهل السنة بين قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] وبين هذه الآية، فمَن حمل الجعل =

﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾: إلى موجِباتِها مِن الكفرِ والمَعاصِي.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العَذابِ عَنْهُم.

(٤٢) ـ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾: طَرْدًا عن الرَّحمَةِ، أو لعنَ اللاعنينَ، يَلعَنُهم المَلائكةُ والمؤمنونَ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾: مِن المَطرودينَ، أو ممَّنْ قبِّحَ وُجوهَهُم.

(٤٣) ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: التَّوراةَ ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾: أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهِم السَّلامُ ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾: أنوارًا لقُلوبِهِم تَتبصَّرُ بها الحقائقُ، وتُميِّزُ بينَ الحقِّ والباطلِ.

﴿وَهُدًى﴾ إلى الشَّرائعِ التي هي سُبُلُ[1] اللهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأَنَّهُم لو عَمِلُوا بها نالوا رحمةَ اللهِ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ليكونوا على حالٍ يُرْجَى مِنْهُم التَّذكُّرُ، وقد فُسِّرَ بالإرادةِ وفيه ما عرفتَ.

(٤٤) ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ يريدُ: الواديَ أو الطُّورَ، فإنَّه كانَ في شقِّ الغربِ مِن مَقامِ مُوسَى، أو الجانبِ الغربيِّ منه[2].

= على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية هناك فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفي كل مخلوق.

قلنا: وتقديم المصنف لهذين القولين بـ«قيل» تضعيف لهما، وهذا كما قال الخفاجي في «الحاشية»: إشارة إلى الرد على الزمخشري.

(١) في نسخة التفتازاني: «سبيل».

(٢) قوله: «أو الجانب الغربي منه»؛ أي: من الوادي أو الطور، ومغايرته للأوّل: أنه مجموع الوادي والطور على الأوّل، وعلى هذا بعضه، وهو على كل حال من إضافة الموصوف للصفة. انظر: «حاشية الخفاجي».

والخِطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ أي: ما كنتَ حاضِرًا ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾: إذ أوحينَا إليه الأمرَ الذي أرَدْنا تَعريفَه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ للوَحيِ إليهِ، أو على الموحَى إليهِ وهُم السَّبعونَ المُختارونَ للمِيقاتِ، والمرادُ: الدَّلالةُ على أنَّ إِخبارَهُ عن ذلكَ مِن قَبيلِ الإخبارِ عن المغيَّباتِ التي لا تُعرفُ إلا بالوحيِ، ولذلك استدركَ عَنْهُ بقولِه:

(٤٥) ـ ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾؛ أي: ولكنَّا أَوْحيناهُ إليك لأنَّا أنشأنَا قُرونًا مُختلِفَةً بعدَ مُوسى، فتطاولَت عليهِمْ المُدَدُ فحُرِّفَت الأَخبارُ وتَغيَّرَت الشَّرائعُ واندرَسَتِ العُلومُ، فحَذَفَ المُستدرَكَ وأقامَ سببَهُ مُقامَه(١).

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾: مُقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: شُعَيبٍ والمؤمنينَ(٢) به ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ تقرأُ عليهِم تَعلُّمًا مِنْهُم ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ التي فيها قِصَّتُهُم ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيَّاكَ ومُخبرينَ لكَ بها.

(٤٦) ـ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعلَّ المرادَ به وقتُ ما أعطاهُ التَّوراةَ، وبالأوَّلِ حينَما استنبأَهُ؛ لأنَّهما المذكورانِ في القِصَّةِ.

﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن علَّمناكَ رحمةً. وقُرِئَت بالرَّفعِ(٣) على: هذِهِ رَحمَةٌ.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ مُتعلِّقٌ بالفعلِ المحذوفِ ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾

---

(١) قوله: «فحذف المستدرك»؛ أي: وهو «أوحيناه»، «وأقام سببه»؛ أي: وهو الإنشاء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٧).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «شعيب والمؤمنون».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن ابن أبي عبلة.

لِوُقوعِهِم في فترةٍ بينَكَ وبينَ عِيسى، وهي خمسُ مئةٍ وخمسونَ سنةً[١]، أو بينكَ وبين إسماعيلَ على أنَّ دعوةَ مُوسى وعيسَى كانت مُختَصَّةً ببني إسرائيلَ وما حَوالَيْهِم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: يَتَّعِظُونَ.

(٤٧) ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ (لولا) الأُولى امتِناعِيَّةٌ، والثَّانيَةُ تَحضيضيَّةٌ واقعةٌ في سِياقِها؛ لأنَّها ممَّا أُجيبَت بالفاءِ تَشبيهًا لها بالأمرِ، مَفعولُ ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ المعطوفِ على ﴿تُصِيبَهُم﴾ بالفاءِ المعطيةِ معنى السَّببيَّةِ المنبِّهةِ على أنَّ القولَ[٢] هو المقصودُ بأن يكونَ سببًا لانتفاءِ ما تُجابُ به، وأنَّه لا يصدرُ عَنْهُم حتَّى تُلجِئَهُم العقوبةُ، والجوابُ مَحذوفٌ والمعنى: لولا قولُهم إذا أصابَتْهُم عقوبةٌ بسببِ كُفرِهِم ومَعاصيهِم: ربنا هَلَّا أرسلتَ إلينا رَسُولًا يبلِّغُنا آياتِكَ فنتَّبعَها ونكونَ مِن المُصدِّقينَ ما أرسلناكَ؛ أي: إنَّما أرسلناكَ قطعًا لعُذرِهِم وإلزامًا للحجَّةِ عليهِم.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ يعني: الرَّسولَ المصدَّقَ بنوعٍ مِن المعجزاتِ[٣] ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٤٨) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ مِن الكتابِ جملةً واليَدِ والعَصا وغيرِهما؛ اقتراحًا وتَعنُّتًا[٤].

---

(١) وهذا مخالف لما رواه البخاري (٣٩٤٨) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه من قوله: (فترةُ بَيْنَ عيسى ومحمدٍ صلواتُ الله عليهما ستُّ مئةِ سنة).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «المقول».

(٣) قوله: «بنوع من المعجزات»؛ أي: وهو الكتاب كما هو مصدَّق بسائر المعجزات. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٨).

(٤) قوله: «جملة» حال من الكتاب، و«اقتراحاً» مفعول له لـ﴿قَالُوا۟﴾ أو حالٌ من فاعله. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ يعني: أبناءَ جِنْسِهِم في الرَّأيِ والمذهبِ، وهُم كفرةُ زمانِ مُوسَى عليهِ السَّلامُ، وكان فِرعونُ عَربيًّا مِن أولادِ عادٍ.

﴿قالوا ساحِرَانِ﴾ يعنونَ: مُوسى وهارونَ، أو: مُوسَى ومحمَّدًا عليهِمَا السَّلامُ.

﴿تَظَٰهَرَا﴾: تعاونَا بإظهارِ تلك الخوارقِ، أو بتوافُقِ الكتابينِ.

وقرأ الكوفيُّونَ: ﴿سِحۡرَانِ﴾[1] بتقديرِ مُضافٍ، أو جَعْلِهما سِحرَيْنِ مبالغَةً، أو إسنادِ تَظاهُرِهما إلى فعلِهِما[2] دلالةً على سببِ الإعجازِ.

وقُرِئَ: (اظَّاهرَا) على الإدغامِ[3].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: بكُلٍّ مِنهما، أو: بكلِّ الأنبياءِ.

(٤٩) - ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾: ممَّا أُنزِلَ على مُوسَى وعَلَيَّ، وإضمارُهُما لدلالةِ المعنى، وهو يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالسَّاحِرَينِ مُوسى ومحمَّدٌ عليهِما السَّلامُ.

﴿أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّا ساحرانِ مُختَلِقانِ، وهذا[4] مِن الشُّروطِ التي يرادُ بها الإلزامُ والتَّبكيتُ، ولعلَّ مَجيءَ حرفِ الشَّكِّ للتَّهكُّمِ بهم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢). والكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي.

(٢) قوله: «بتقدير مضاف»؛ أي: ذوا سحرين، أو صاحبا سحرين «أو جعلهما»؛ أي: موسى وهارون، أو موسى ومحمد «أو إسناد» بالجر عطف على ضمير (جعلهما)؛ أي: أو جعل إسناد تظاهرهما «إلى فعلهما»؛ أي: فعلي الرسولين، وهو السحر، والمعنى: تظاهَرَ سحراهما. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٥٩).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٤) عن ابن مسعود وطلحة والأعمش.

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «فهذا».

(٥٠) - ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ دُعاءكَ إلى الإتيانِ[1] بالكتابِ الأهدى، فحُذِفَ المفعولُ للعلمِ به، ولأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعدَّى بنفسِهِ إلى الدُّعاءِ وباللامِ إلى الدَّاعِي، فإذا عُدِّيَ إليه حُذِفَ الدُّعاءُ غالبًا كقوله[2]:

وَدَاعٍ دَعَـا يَـا مَـنْ يُجِيـبُ إِلَـى النَّدَى ... فَلَـمْ يَسْتَـجِبْهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيـبُ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لَوْ اتَّبعوا حُجَّةً لأَتَوْا بها ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفيِ ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في مَوضعِ الحالِ للتَّوكيدِ أو التَّقييدِ، فإنَّ هوى النَّفسِ قَدْ يُوافِقُ الحقَّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الذيـن ظَلَمُوا أنفُسَـهُم بالانهمـاكِ في اتِّباعِ الهوى.

(٥١) - ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾: أَتبَعْنا بعضَهُ بعضًا في الإنزالِ ليتَّصِلَ التَّذكيرُ، أو: في النَّظمِ لتتقرَّرَ الدَّعوةُ بالحُجَّةِ، والمواعظُ بالمواعيدِ، والنَّصائحُ بالعِبَرِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيُؤمِنُونَ ويُطيعونَ.

(٥٢) - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلَـتْ فـي مُؤمنـي أهـلِ الكتـابِ[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «دعاءك بالإتيان».

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٦٧ و١١٢ و٢٤٥ و٣٢٦) و(٢/ ١٠٧)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ٤٣٦)، وقال القالي: بعضهم يرويها لسهم الغنوي، وهو من قومه وليس بأخيه. انظر: «أمالي القالي» (٢/ ١٤٨). وتقدم البيت في تفسير الآية (٩٥) من سورة آل عمران.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٨)، عن ابن عباس بإسناد ضعيف. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٩٣)، عن مجاهد.

وقيل: في أربعينَ مِن أهلِ الإنجيلِ: اثنانِ وثلاثونَ جاؤوا مع جعفرٍ مِن الحبشَةِ، وثمانيةٌ من الشَّامِ[١].

والضَّميرُ في ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ للقرآنِ؛ كالمستكِنِّ في:

(٥٣) ـ ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ أي: بأنَّه كلامُ اللهِ

﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استئنافٌ لبيانِ ما أوجبَ إيمانَهُم به.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ استئنافٌ آخرُ للدلالةِ على أنَّ إيمانَهُم به ليسَ ممَّا أحدَثُوه حينئذٍ، وإنَّما هو أمرٌ تقادمَ عهدُه لَمَّا رَأَوا ذكرَه في الكتبِ المتقدِّمَةِ، وكونُهم على دينِ الإسلامِ قبلَ نُزولِ القُرآنِ أو تِلاوته عليهِم باعتِقادِهِم صِحَّتَهُ في الجملَةِ.

(٥٤) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾: مرَّةً على إيمانِهم بكتابِهم ومرَّةً على إيمانِهم بالقُرآنِ.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بصَبرِهِم وثَباتِهِم على الإيمانَينِ، أو على الإيمانِ بالقُرآنِ قبلَ النُّزولِ وبعدَه، أو على أذى مَنْ هاجرَهُم مِن أهلِ دينِهِم ومن المشركين.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: ويَدفعونَ بالطَّاعةِ المعصيَّةَ؛ لقولِه[٢] عليه السَّلامُ: «أَتْبِعِ الحسنَةَ السَّيِّئَةَ تَمْحُهَا»[٣].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في سَبيلِ الخيرِ.

(٥٥) ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ تكرُّمًا ﴿وَقَالُواْ﴾ للَّاغينَ: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٧).

(٢) في نسخة التفتازاني: «كقوله».

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٤٠٣)، والترمذي (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ مُتاركَةً لهم وتَوديعًا، أو دعاءً لهم بالسَّلامَةِ عمَّا هم فيه ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾: لا نطلبُ صُحبتَهم ولا نريدُها.

(٥٦) ـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: لا تَقدِرُ أَنْ تُدخِلَهُ في الإسلامِ ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فيدخلُه في الإسلامِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾: بالمستعدِّينَ لذلك.

والجمهورُ على أنَّها نَزلَتْ في أبي طالبٍ؛ فإنَّه لَمَّا احتُضِرَ جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ وقال: «يا عم، قل: لا إلهَ إلا اللهُ كلمةٌ أحاجُّ بها لك عندَ اللهِ» قال: يا ابنَ أخِي قد عَلِمتُ إنَّكَ لصادقٌ، ولكنِّي أكرَهُ أنْ يُقالَ: جزعَ[1] عندَ الموتِ[2].

(٥٧) ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾: نُخرَجُ مِنْها، نزلَتْ في الحارثِ بنِ عثمانَ بنِ نوفَلِ بنِ عبدِ مَنافٍ، أتى النَّبيَّ عليهِ السَّلامُ فقال: نحنُ نَعلَمُ أنَّكَ على الحقِّ، ولكنَّا نَخافُ إِن اتَّبعناكَ وخالَفْنَا العربَ وإنما نحنُ أَكَلةُ رأسٍ أن يَتخطَّفونَا مِن أَرضِنَا[3]، فردَّ اللهُ عليهِمْ بقولِه:

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «خرع». وهما روايتان في الحديث. ومعنى (خرع): ضعُفَ، ومعنى (جزع): خافَ. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: خرع).

(٢) ذكره بهذا السياق دون سند مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٣٥٠)، وابن إسحاق في «سيرته» (٣٢٥)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ١٨١)، بلفظ: «خرع»، وهما روايتان كما سيأتي، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٦): لم أجده، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبيه بغير هذا السياق أو أخصر منه. قلت: رواه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه. ورواه مسلم (٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه بنحوه مختصراً النسائي في «الكبرى» (١١٣٢١)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره بهذا اللفظ مقاتل في «تفسيره» (١/ ٥٥٨)، لكن في نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٣٣] وقال مقاتل: نظيرها في القصص: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾. وقوله: «أكلة رأس»: جمع آكِلٍ، وهو مثَل في القلة، وأصله: =

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾: أولم نجعَلْ مكانَهُم حرَمًا ذا أمنٍ بحُرمةِ البَيتِ الذي فيه، يَتناحَرُ العربُ حولَهُ وهُم آمِنونَ فيه.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾: يُحمَلُ إليه ويُجمَعُ فيه. وقرأ نافعٌ ويعقوبُ في روايةٍ بالتَّاءِ[1].

﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن كلِّ أَوْبٍ ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كانَ هذا حالَهم وهم عَبدَةُ الأصنامِ، فكيفَ يعرِّضُهُم للتَّخوُّفِ[2] والتَّخطُّفِ إذا ضمُّوا إلى حرمةِ البيتِ حُرمةَ التَّوحيدِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلةٌ لا يَتفطَّنُونَ له ولا يَتفكَّرُونَ ليَعلَمُوا.

وقيل: إنه مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: قليلٌ مِنْهُم يَتدبَّرُونَ فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ مِن عندِ اللهِ؛ إذ لو عَلِمُوا لَمَا خافُوا غيرَه.

وانتصابُ ﴿رِّزْقًا﴾ على المصدرِ مِن مَعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ أو الحالِ مِن الثَّمراتِ لتَخصُّصِها بالإضافَةِ.

ثمَّ بيَّنَ أنَّ الأمرَ بالعكسِ، فإنَّهم[3] أَحِقَّاءُ بأن يخافُوا مِن بأسِ اللهِ على ما هُم عليهِ بقوله:

(٥٨) - ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ أي: وكَمْ مِن أهلِ قَريَةٍ كانَتْ حالُهم كحَالِكُم في الأمنِ وخَفْضِ العَيْشِ حتى أَشِرُوا فدمَّرَ اللهُ عَلَيهِم وخرَّبَ دِيارَهُم.

= ناسٌ قليلون يكفيهم إذا أكلوا رأسٌ واحدة من رؤوس الحيوان المطبوخة، ويصح أن يراد بالرأس حيوان واحد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٧٢)، عن نافع. وهي رواية رويس عن يعقوب وقرأ بها أيضاً أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٢).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «للخوف».

(٣) في نسخة الفاروقي: «بأنهم».

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةً ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن السُّكنَى؛ إذ لا يَسكنُها إلا المارَّةُ يومًا أو بعضَ يومٍ، أو لا يبقى مَن يَسكُنُها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِن شُؤمِ مَعاصِيهِمْ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ مِنْهُم؛ إذ لم يَخلُفْهم أحدٌ يَتصرَّفُ تصرُّفَهُم في ديارِهِم وسائرِ مُتصرَّفاتِهِم.

وانتصابُ ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزعِ الخافضِ، أو بجعلِها ظرفًا بنَفْسِها كقولك: زيدٌ ظنِّي مُقيمٌ، أو بإضمارِ زمانٍ مُضافٍ إليه[1]، أو مفعولًا على تضمينِ ﴿بَطِرَتْ﴾ مَعنى كَفَرَت.

(٥٩) ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾: وما كانَتْ عادتُه ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾: في أصلِها التي هي أَعمالُها[2]؛ لأنَّ أهلَها يَكونُ[3] أفطنَ وأنبَلَ.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لإلزامِ الحُجَّةِ وقطعِ المَعذِرَةِ.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيبِ الرُّسُلِ والعُتُوِّ في الكُفرِ.

(٦٠) ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ مِن أَسبابِ الدُّنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تَمتَّعونَ وتَزيَّنونَ[4] به مدَّةَ حياتِكُم المنقضِيَةِ.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابُه ﴿خَيْرٌ﴾ خيرٌ في نَفسِهِ مِن ذلك؛ لأنَّه لذَّةٌ خالِصَةٌ

---

(١) قوله: «كقولك: زيد ظني مقيم»؛ أي: في ظني، وقوله: «أو بإضمار زمان يضاف إليه» الأولى: (إليها)؛ أي: إلى معيشتها؛ أي: بطرت أيامَ معيشتها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٣).

(٢) قوله: «التي هي»؛ أي: القرى «أعمالها»؛ أي: أعمالُ أُمِّ القرى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٣).

(٣) «يكون» ليس في نسخة الطبلاوي.

(٤) في نسخة الطبلاوي: «تتمتعون فتتزينون».

وبهجةٌ كاملةٌ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنَّه أَبَدِيٌّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدِلُونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ.

وقرأ أبو عمرو بالياءِ[1]، وهو أبلَغُ في المَوعِظَةِ[2].

(٦١) ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾: وعدًا بالجنَّةِ، فإنَّ حُسنَ الوَعدِ بحُسنِ المَوعودِ ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾: مُدرِكُه لا مَحالَةَ؛ لامتناعِ الخُلفِ في وَعْدِه، ولذلكَ عطَفَهُ بالفَاءِ المعطيَةِ مَعنى السَّببيَّةِ.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مَشوبٌ بالآلامِ، مُكدَّرٌ بالمَتاعبِ، مُستعقِبٌ للتَّحسُّرِ على الانقطاعِ.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحِسابِ أو العَذابِ، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي في الزَّمانِ أو الرُّتبةِ.

وقرأَ نافِعٌ في رِوايَةٍ والكِسائيُّ: ﴿ثمَّ هْوَ﴾ بسُكونِ الهاءِ[3] تَشبيهًا للمُنفَصِلِ بالمُتَّصلِ.

وهذه الآيةُ كالنَّتيجَةِ للَّتي قبلَها ولذلك رُتِّبَ عليها بالفاءِ.

(٦٢) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو مَنصوبٌ بـ(اذكر).

﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: الذينَ كُنتُم تزعُمونَهم شُركائِي، فحُذِفَ المَفعولانِ لدَلالةِ الكَلامِ عليهِمَا.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٢). وذكر في «السبعة» (ص: ٤٩٥) عن أبي عمرو القراءة بالوجهين: بالتاء وبالياء.

(٢) قوله: «وهو أبلغ في الموعظة»؛ لاشتماله على الالتفات؛ للإعراض به عن خطابهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٣).

(٣) وهي قراءة قالون بخلف عنه والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ١٥١ ـ ١٥٢)، و«التيسير» (ص: ٧٢).

(٦٣) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بثُبوتِ مُقتضاهُ وحُصولِ مُؤدَّاه ـ وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وغيرُه من آياتِ الوَعيدِ ـ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ أي: هؤلاء هم الذين أَغْويناهُم، فحُذِفَ الرَّاجِعُ إلى المَوصولِ.

﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾؛ أي: أَغْويناهُم فغَوَوا غَيًّا مثلَ ما غوينَا، وهو استئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّهُم غوَوا باختيارِهِم، فإنَّهُم[1] لم يفعلوا بِهِمْ إلا وسوسَةً وتَسويلًا.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفَةً و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبرَ؛ لأجلِ ما اتَّصلَ به فأفادَهُ زيادةً على الصِّفَةِ، وهو وإن كانَ فَضْلةً لكنَّه صارَ مِن اللوازمِ.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنْهُم وممَّا اختاروهُ مِن الكُفرِ هَوًى مِنْهُم، وهي تقريرٌ للجُملَةِ المُتقدِّمَةِ، ولذلك خلَتْ عن العاطِفِ، وكذا: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما كانوا يَعبدونَنا، وإنَّما كانوا يعبدونَ أهواءَهُم.

وقيل: ﴿مَا﴾ مَصدريَّةٌ متصلةٌ بـ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾؛ أي: تبرَّأْنا مِن عِبادَتِهم إيَّانَا.

(٦٤) ـ ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ مِن فَرطِ الحيرةِ ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعجزِهِم عن الإجابةِ والنُّصرةِ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ لازبًا بهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجهٍ مِن الحِيَلِ يدفعونَ به العذابَ، أو: إلى الحقِّ لَمَّا رَأَوا العَذابَ.

وقيل: ﴿لَوْ﴾ للتَّمنِّي؛ أي: تمنَّوا أنَّهم كانوا مُهتَدينَ.

(٦٥) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ علـى الأوَّلِ، فإنَّه تعالى يسألُ أوَّلًا عن إشراكِهِم به ثمَّ عن تكذيبِهِم الأنبياءَ.

(٦٦) ـ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾: فصارَت الأنباءُ كالعُمْي عَليهم لا تهتَدِي إليهم، وأصلُه: فعَمُوا عن الأنباءِ، لكنَّه عكسَ مُبالغَةً، ودلالةً على أنَّ ما يحضرُ الذِّهنَ إنَّما يَفيضُ ويَرِدُ عليه من خارجٍ، فإذا أخطأَهُ لم يَكُن له حِيلَةٌ إلى استحضارِهِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وأنهم».

والمرادُ بالأنباءِ: ما أجابُوا بهِ الرُّسُلَ أو ما يَعُمُّها، وإذا كانَت الرُّسلُ يتتعتعونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك مِن الهَولِ[1]، ويُفوِّضونَ إلى علمِ اللهِ تَعالى، فما ظَنُّكَ بالضُّلَّالِ مِن أُمَمِهم، وتَعدِيَةُ الفعلِ بـ(على) لتَضمُّنِهِ مَعنى الخفاءِ.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: لا يسألُ بعضُهُم بعضًا عن الجوابِ؛ لفرطِ الدَّهشَةِ أو العلمِ بأنَّه مثلُه[2].

(٦٧) ـ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشِّركِ ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: وجمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عندَ اللهِ، و(عسى) تحقيقٌ على عادةِ الكرامِ، أو ترجٍّ من التَّائبِ بمعنى: فليتوقَّعْ أن يُفلِحَ.

(٦٨) ـ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا مُوجِبَ عليه ولا مانعَ له ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: التَّخيُّرُ؛ كالطِّيَرةِ بمَعنى التَّطيُّرِ، وظاهرُه: نَفيُ الاختيارِ عَنهُم رأسًا، والأمرُ كذلك عندَ التَّحقيقِ، فإنَّ اختيارَ العِبادِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ مَنوطٌ بدواعٍ لا اختيارَ لهم فيها.

وقيل: المرادُ أنَّهُ ليسَ لأَحَدٍ مِن خَلقِهِ أَنْ يختارَ علَيْه، ولذلك خَلا عن العاطفِ، ويُؤَيِّدُه ما رُوِيَ أنَّه نزلَ في قَولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][3].

---

(١) قوله: «وإذا كانت الرسل يتتعتعون في الجواب»؛ أي: وهو قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٦).

(٢) قوله: «أو العلم بأنه مثله»؛ أي: أو لعلم السائل بأن المسؤول مثلُه في العجز عن الجواب. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٦).

(٣) وهو قول الوليدِ بن المغيرةِ، ذكره المفسرون دون عزوٍ لقائل ولا سند. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥٣)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٦١٦)، و«تفسير الثعلبي» (٢٠/ ٤٨٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٣٩).

وقيل: ﴿مَا﴾ مَوصولةٌ[1]؛ مفعولٌ لـ﴿يختار﴾ والرَّاجعُ إليه مَحذوفٌ، والمعنى: ويختارُ الذي كان لهم فيهِ الخيرةُ؛ أي: الخيرُ والصَّلاحُ.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: تنزيهًا له أن يُنازِعَه أحدٌ أو يزاحِمَ اختيارهُ اختِيارٌ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: عن إشراكِهم، أو مشاركةِ ما يُشرِكُونَه به.

(٦٩) ـ ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ كعَداوةِ الرَّسولِ وحقدِه ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ كالطَّعنِ فيه.

(٧٠) ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحقُّ للعِبادَةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا أحدَ يَستَحِقُّها إلا هوَ ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأنَّه المُوْلِي للنِّعَمِ كلِّها عاجلِها وآجلِها، يحمَدُه المُؤمِنُونَ في الآخرةِ كما حَمِدُوهُ في الدُّنيا بقولِهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] ابتهاجًا بفضلِه والتذاذًا بحَمْدِه.

﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾: القَضاءُ النَّافِذُ في كلِّ شيءٍ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بالنُّشورِ.

---

(١) قوله: «وقيل: (ما) موصولة»، قائل هذا القول وقف عند قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ثم يبدأ: ﴿وَيَخۡتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ ويكون ﴿مَا﴾ اسماً موصولاً. انظر: «التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي عند هذه الآية.

واختار هذا الوجه الطبري، فقد ذهب إلى أن ﴿مَا﴾ موصولة منصوبة بـ﴿يختار﴾؛ أي: ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس، لا كما يختارون هم ما ليس إليهم، ويفعلون ما لم يؤمروا به، وأنكر أن تكون ﴿مَا﴾ نافية؛ لئلا يكون المعنى: إنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى، وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدّم كلام يُنفَى.

هكذا لخص أبو حيان كلام الطبري ثم قال: وقد رُد هذا القول بعدم العائد على الموصول، وأجيب بأن التقدير: ما كان لهم فيه الخيرة، وحذف لدلالة المعنى.

انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٢٩٩ ـ ٣٠٢)، و«البحر» (١٧/ ٧٣).

(٧١) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾: دائمًا، مِن السَّردِ وهو المتابعَةُ، والميمُ مزيدَةٌ كميمِ دُلَامِص[١].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكانِ الشَّمسِ تحتَ الأرضِ، أو تحريكِها حولَ[٢] الأفقِ الغائرِ.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ كان حَقُّه: هَل إلهٌ؟ فذُكِرَ بـ﴿مَنْ﴾ على زَعمِهِم أنَّ غيرَهُ آلهةٌ، وعن ابنِ كثيرٍ: ﴿بضِئَاءٍ﴾ بهمزتينِ[٣].

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَدبُّرٍ واستِبصارٍ.

(٧٢) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكانِها في وسطِ السَّماءِ، أو تحريكِهَا على مدارٍ فوقِ الأَرضِ ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً عن مَتاعبِ الأشغَالِ.

ولعلَّه لم يَصِفِ الضِّياءَ بما يقابلُهُ لأنَّ الضَّوءَ نِعمَةٌ في ذاتِه مَقصودٌ بنَفسِهِ ولا كذلك الليلُ، ولأنَّ مَنافِعَ الضَّوءِ أكثَرُ ممَّا يُقابِلُه ولذلك قُرِنَ بهِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وبالليلِ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ مِن السَّمعِ أكثَرُ مِن استفادَتِه مِن البَصرِ.

(٧٣) ـ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾: في الليلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النَّهارِ بأنواعِ المَكاسبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تَعرِفُوا نعمةَ اللهِ في ذلك فتَشكروهُ عليها.

---

(١) الدُّلامِص: البَرَّاقُ، وهو من الدِّلاص: الليِّن البَرَّاق؛ يُقال: دِرعٌ دِلاص، وأَدْرُعٌ دِلاص، انظر: «الصحاح» (مادة: دلص).

(٢) في نسخة الخيالي: «فوق». وفي نسخة الطبلاوي: «تحت».

(٣) انظر: «السبعة» (١/ ٤٩٥).

(٧٤) ـ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريعٌ[١] بعدَ تَقريعٍ للإشعارِ بأنَّه لا شيءَ أجلَبُ لغضبِ اللهِ مِن الإشراكِ به، أو الأولُ لتَقريرِ فَسادِ رَأيِهِم، والثاني لبَيانِ أنَّه لم يَكُن عن سندٍ وإنَّما كانَ مَحضَ تَشَهٍّ وهوًى.

(٧٥) ـ ﴿وَنَزَعْنَا﴾: وأخرَجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نَبيُّهُم يشهدُ عليهِم بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأُمَمِ: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صِحَّةِ ما كنتُم تَدينونَ به ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهيَّةِ لا يشارِكُه فيها أحدٌ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وغابَ عَنْهُم غيبةَ الضَّائعِ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن الباطلِ.

(٧٦) ـ ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كانَ ابنَ عمِّه يَصْهَرَ بنَ قاهَث[٢] بنِ لاوَى، وكان ممَّنْ آمَن به.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: فطلبَ الفَضْلَ عليهِم وأَنْ يَكونُوا تحتَ أَمْرِه، أو تكبَّرَ عَلَيهِم، أو ظَلَمَهُم.

قيل: وذلك حين ملَّكَه فرعونُ على بني إسرائيلَ.

أو حسدَهُم؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه قالَ لِمُوسى: لك الرِّسالَةُ، ولهارونَ الحُبُورَةُ[٣]، وأنا في غيرِ شَيءٍ، إلى مَتى أَصبِرُ[٤]؟

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾: مِن الأَموالِ المُدَّخرَةِ ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾: مفاتيحَ صناديقِهِ، جمعُ مِفْتَحٍ بالكسرِ، وهو ما يُفتَحُ به.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «تقرير».

(٢) في نسخة الخيالي و«تفسير الثعلبي» (٢/ ٤٨٩): «فاهث»، والمثبت من بقية النسخ و«الكشاف» (٦/ ٤٦٢)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٣٠٩).

(٣) الحُبورة؛ بالضمِّ: الإمامة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٦٩).

(٤) ذكره بنحوه المطهر بن طاهر المقدسي في «البدء والتاريخ» (٣/ ٨٦-٨٧)، والسمرقندي في «بحر العلوم» (٢/ ٦١٨).

وقيل: خَزائِنُه، وقِياسُ واحدِها: المَفْتَحُ[١].

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، والجملةُ صِلةُ ﴿مَآ﴾ وهو ثاني مَفعولَيْ (آتى)، وناءَ به الحمْلُ: إذا أثقلَهُ حتَّى أمالَهُ، والعُصْبَةُ والعِصابَةُ: الجماعَةُ الكَثِيرَةُ، واعصَوْصَبُوا: اجتمَعُوا[٢].

وقُرِئَ: (لَيَنُوءُ) بالياءِ[٣] على إعطاءِ المُضافِ حُكمَ المُضافِ إليه.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ منصوبٌ بـ﴿تنوء﴾: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾: لا تبطَرْ، والفرحُ بالدُّنيَا مَذمومٌ مُطلقًا؛ لأنَّه نَتيجَةُ حُبِّهَا والرِّضَا بها والذُّهولِ عن ذهابِها، فإنَّ العِلمَ بأنَّ ما فيها مِن اللذَّةِ مُفارِقُه لا محالةَ يُوجِبُ التَّرَحَ كمَا قال:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيقَّنَ عنه صاحِبُه انتِقَالَا[٤]

ولذلك قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٣].

وعَلَّلَ النَّهيَ هاهنا بكونِه مانِعًا مِن مَحبَّةِ اللهِ تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ أي: بزَخارِفِ الدُّنيا.

(٧٧) - ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغِنَى ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بصَرْفِه فيما يُوجِبُهَا لك، فإنَّ المَقصودَ منه أن يكونَ وُصلةً إليها ﴿وَلَا تَنسَ﴾: ولا تترُكْ تركَ المنسيِّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو أن تحصِّلَ بها آخرتَكَ، أو تأخذَ منها ما يَكْفيكَ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والخيالي: «وقياسه الفتح»؛ أي: بفتح الميم في مَفْتَح؛ لأنه اسم مكانٍ وليس باسم آلة. والمثبت ما في نسخة الطبلاوي وهامش نسخة الفاروقي، وهو الذي في «الكشاف» (٦/ ٤٦٣)، وعليه الشرح في الحواشي.

(٢) انظر: «الصحاح» مادة: (عصب).

(٣) هي قراءة بديل بن ميسرة، انظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٣).

(٤) البيت للمتنبي في «ديوانه - تحقيق: عبد الوهاب عزام» (ص: ١٢٩).

﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عبادِ اللهِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعمَ عليكَ.

وقيل: أَحْسِن بالشُّكرِ والطَّاعةِ كما أحسنَ إليك بالإنعامِ.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأمرٍ يكونُ عِلَّةً للظُّلمِ والبَغْيِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوءِ أفعالِهم.

(٧٨) - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فُضِّلتُ به على النَّاسِ، واستوجبتُ به التَّفوُّقَ عليهم بالجاهِ والمالِ، و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضعِ الحالِ، وهو علمُ التَّوراةِ، وكانَ أعلمَهُم بها.

وقيل: علمُ الكيمياءِ(١).

وقيل: علمُ التِّجارَةِ والدَّهقنَةِ وسائرِ المكاسبِ(٢).

وقيل: علمٌ بكُنوزِ يوسُفَ(٣).

و﴿عِندِىٓ﴾ صفةٌ له، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ كقولِك: جازَ هذا عندي؛ أي: في ظَنِّي واعتقادِي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٢٢)، وعزاه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٦٨) للنقاش. ورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية بقوله: وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر عليها أحد إلا الله عز وجل.
قلت: أراد ابن كثير بعلم الكيمياء ما كان شائعاً في الأزمنة السابقة من تعلقه بالسحر والشعوذة وادعاء قلب الأعيان، وليس مراده العلم القائم على التجربة المعروف في يومنا هذا.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠٢) من غير نسبة، وعزاه القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٣١٥) لعلي بن عيسى.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٧) عن كعب.

تَعجُّبٌ وتَوبيخٌ على اغترارِهِ بقُوَّتِه وكثرةِ مالِه مع علمِه بذلك[١]؛ لأنَّه قرأَهُ في التَّوراةِ وسَمِعَه من حُفَّاظِ التَّواريخِ.

أو: ردٌّ لادِّعائِهِ العلمَ وتعظُّمِه به بنفيِ هذا العلمِ مِنْه؛ أي: أعِنْدَهُ مثلُ ذلك العلمِ الذي ادَّعَى[٢] ولم يَعْلَمْ هذا[٣] حتى يَقِيَ به نفسَهُ مَصارِعَ الهالكينَ.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلامٍ؛ فإنَّه تَعالى مُطَّلِعٌ عليهَا، أو مُعاتبةٍ فإنَّهُم يعذَّبونَ بها بغتةً، كأنَّه لَمَّا هدَّدَ قارونَ بذكرِ إهلاكِ مَن قبلَهُ ممَّنْ كانوا أقوَى مِنه وأَغْنى أكَّدَ ذلك بأَنْ بيَّنَ أنه لم يَكُن مطَّلِعاً على ما يَخُصُّهم، بل اللهُ مُطَّلِعٌ على ذنوبِ المجرمينَ كلِّهم مُعاقِبُهم عليها لا محالةَ.

(٧٩) ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ كما قيلَ: إنَّه خرجَ على بغلةٍ شَهباءَ عليه الأُرْجُوانُ[٤]، وعليها سرجٌ مِن ذَهبٍ، ومعَهُ أربعَةُ آلافٍ على زِيِّهِ[٥].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادَةُ النَّاسِ من الرَّغبةِ:

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ تمنَّوْا مِثلَهُ لا عينَهُ حَذرًا عن الحَسدِ ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ مِن الدُّنيا.

---

(١) قوله: «مع علمه بذلك»؛ أي: بأن الله قد أهلك من القرون قبله مَن هو أقوى منه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٧١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «ادعاه».

(٣) قوله: «ولم يعلم هذا»؛ أي: بأن الله قد أهلك من القرون قبله مَن هو أقوى منه.

(٤) الأرجوان؛ معرَّبُ أرغوان، ومعناه الحُمرة أو الأحمر، والمقصودُ به هنا: القطيفة الحمراء، انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٧١)، «حاشية الخفاجي».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٥٦).

(٨٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوالِ الآخرةِ للمُتمنِّينَ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهَلاكِ استُعمِلَ للزَّجرِ عمَّا لا يُرتَضى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرةِ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ممَّا أُوتِيَ قارونُ بل مِن الدُّنيا وما فيهَا.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ الضَّميرُ فيه للكَلِمَةِ التي تكلَّمَ بها العلماءُ، أو للثَّوابِ فإنَّه بمعنى المثوبَةِ أو الجنَّةِ، أو للإيمانِ والعملِ الصَّالحِ فإنَّهُما في مَعنى السِّيرةِ والطريقةِ.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطَّاعاتِ وعن المعاصِي.

(٨١) ـ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوِيَ أنَّه كانَ يؤذِي موسى عليه السَّلامُ كلَّ وَقتٍ، وهو يداريهِ لقَرابتِه، حتى نزلَتِ الزَّكاةُ فصالَحَهُ عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ، فحَسَبهُ فاستكثَرَهُ، فعَمَدَ إلى أنْ يفضَحَ مُوسى بين بني إسرائيلَ ليَرفُضوهُ، فبرطلَ[1] بَغِيَّةً لترميَهُ بنفسِها، فلَمَّا كان يومُ العيدِ قامَ مُوسى خطيبًا فقال: مَن سرَقَ قطَعْناهُ، ومَن زنَى غيرَ مُحْصَنٍ جلَدْناهُ، ومَن زنَى مُحصَنًا رَجَمناهُ، فقال قارونُ: ولو كنتَ؟ قال: ولو كنتُ، قال: إنَّ بني إسرائيلَ يَزعمونَ أنَّكَ فَجَرْتَ بفُلانَةَ، فأُحضِرَت فناشدَها موسى باللهِ أن تَصْدُقَ، فقالَتْ: جعلَ لي قارونُ جُعْلًا على أنْ أَرمِيَكَ بنَفسِي، فخرَّ موسَى شاكِيًا عنه إلى ربِّهِ، فأوحى إليه أن مُرِ الأرضَ بما شئتَ، فقال: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذَتْهُ إلى رُكْبتِه، ثمَّ قال: خذيهِ، فأخذَتْهُ إلى وسطِهِ، ثمَّ قال: خُذِيهِ، فأخذَتْهُ إلى عنقِهِ، ثمَّ قال: خُذيهِ، فخَسفَتْ بهِ، وكان قارونُ يتضرَّعُ إليه في هذه الأحوالِ فلَمْ يرحَمْهُ، فأوحى الله إليه: ما أفظَّكَ! اسْتَرْحَمَكَ مِرارًا فلَمْ ترحَمْهُ، وعِزَّتِي لو دَعاني مرَّةً لأجَبْتُه، ثم قالَ بنو إسرائيلَ: إنَّما فعلَهُ ليَرِثَهُ، فدَعا الله حتى خَسَفَ بدارِه وأموالِه[2].

---

(١) قوله: «بَرْطَلَ»؛ أي: أعطي البِرْطيلَ، وهو الرِّشوة ونحوها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣٦) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا. وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٦) عزوه لابن المنذر وابن مردويه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ، مُشتقَّةٌ مِن فأَوْتُ رأسَهُ: إذا ميَّلتَهُ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيدفعونَ عنهُ عذابَه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: المُمتَنِعينَ مِنه[١]، مِن قَولِهِم: نصرَهُ مِن عَدوِّهِ فانتصرَ: إذا منعَه مِنه فامتنعَ.

(٨٢) ـ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾: مَنزِلَته ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: منذ زمانٍ قريبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾: يبسطُ ويقدرُ بمُقتضى مَشيئَتِه، لا لِكرامةٍ تَقتَضِي البَسْطَ ولا لهوانٍ يُوجِبُ القَبضَ.

و﴿وَيْكَأَنَّ﴾ عند البصريِّينَ مُركَّبةٌ مِن (وي) للتَّعجُّبِ و(كأنَّ) للتَّشبيهِ، والمعنى: ما أشبهَ الأمرَ أنَّ اللهَ يبسطُ[٢]!

وقيل: مِن (ويك) بمعنى: ويلكَ و(أنَّ) وتقديره: ويكَ اعلَمْ أنَّ اللهَ[٣].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلَمْ يُعطِنا ما تَمنَّيْنا ﴿لَخَسِفَ بنا﴾ لتَوْليدِهِ فينا ما وُلِدَ فيه فخَسَفَ به لأجلِه، وقرأ حفصٌ بفتحِ الخاءِ والسِّين[٤].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ اللهِ، أو: المكذِّبونَ برُسُلِه وبما وَعَدوا لهم من ثوابِ الآخرةِ[٥].

(٨٣) ـ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارةُ تَعظيمٍ كأنَّه قال: تلكَ التي سمعتَ خبرَهَا وبلغكَ وَصفُها و﴿ٱلدَّارُ﴾ صفةٌ، والخبرُ: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: غلبةً وقَهْرًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: ظُلمًا على النَّاسِ كما أرادَ فِرعونُ وقارونُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «من الممتنعين عنه». والمقصود: من عذابِ الله، أو مِن موسى. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٧٣).

(٢) انظر: «الكتاب» (٢/ ١٥٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٥).

(٣) انظر: «غريب القرآن» لابن عزيز السجستاني (ص: ٤٨٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٥).

(٥) في نسخة الطبلاوي: «من الثواب في الآخرة».

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يَرضاهُ اللهُ.

(٨٤) ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتًا وقَدْرًا ووَصْفًا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ تهجينًا لحالِهم بتكريرِ إسنادِ السَّيِّئَةِ إليهم.

﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلَّا مثلَ ما كانوا يعملونَ، فحَذَفَ المثلَ وأقامَ مقامَه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مبالغةً في المُماثلَةِ.

(٨٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أوجبَ عليكَ تِلاوتَهُ وتبليغَهُ والعملَ بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ مَعادٍ، وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدَكَ أنْ يبعثَكَ فيه، أو مكَّةُ التي اعتَدْتَ بها، على أنَّه مِن العادةِ، ردَّهُ إليها يومَ الفتحِ، كأنَّه لمَّا حَكَمَ بأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ، وأكَّدَ ذلك بوعدِ المُحسنينَ ووعيدِ المُسيئينَ، وعدَهُ بالعاقبةِ الحُسْنَى في الدَّارَيْنِ.

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا بلغَ جُحْفَةَ في مُهاجَرِه اشتاقَ إلى مولِدِه ومولِدِ آبائِه فنزَلَتْ[1].

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يَستَحِقُّه من الثَّوابِ والنَّصرِ، و﴿مَن﴾ مُنتَصِبٌ بفعلٍ يُفسِّرُه ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقَّهُ مِن العذابِ والإذلالِ، يَعني به نفسَهُ والمشركينَ، وهو تقريرٌ للوَعدِ السَّابقِ، وكذا قولُه:

(٨٦) ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ أي: سيردُّكَ إلى مَعادِكَ[2] كما أُلقَى إليكَ الكِتابَ وما كنتَ ترجوهُ.

---

(١) انظر ما ورد فيه من أخبار في مطلع هذه السورة.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «معاد».

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: ولكنْ ألقاهُ رحمةً منه، ويجوزُ أنْ يكونَ استثناءً محمولًا على المَعنى كأنَّه قال: وما أُلقيَ إليك الكتابُ إلا رحمةً.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمداراتِهم والتَّحمُّلِ عنهم والإجابةِ إلى طَلِبتِهم.

(٨٧) - ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: عن قراءتِها والعملِ بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقُرِئَ: (يُصِدُّنَّكَ) مِن أصَدَّ[1].

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: إلى عبادتِه وتَوحيدِه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمُساعدَتِهم.

(٨٨) - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبلَهُ للتَّهييجِ وقطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مُساعدَتِه لهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: إلا ذاتَه، فإنَّ ما عَداهُ ممكنٌ هالِكٌ في حدِّ ذاتِه مَعدومٌ.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القَضاءُ النافِذُ في الخلقِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجَزاءِ بالحَقِّ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأ ﴿طسٓمٓ﴾ القصصَ كانَ لَه مِن الأجرِ بعَددِ مَن صدقَ مُوسى وكذَّبَ، ولم يبقَ ملكٌ في السَّماواتِ والأرضِ إلا شَهِدَ له يومَ القِيامَةِ أنَّهُ كانَ صادقًا»[2].

***

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥) وفيه: حكاه أبو زيد عن رجل من كلب وقال: هي لغة قومه.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٣) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٩٤)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة القصص[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الآية، هذه السورة مكية كلها وقيل غير ذلك. ومناسبة أوّل هذه السورة لآخر ما قبلها أنه أمره تعالى. بحمده ثم قال: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۝٩٣﴾ [النمل] وكان ممّا فسّر به آياته تعالى معجزات الرسول عليه السلام، وأنه أضافها تعالى إليه، إذ كان هو المجري[2] بها على يديه، فقال ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ فأضافها إلى «الكتاب» إذ كان الكتاب هو أعظم المعجزات وأكثر الآيات البيّنات و«الكتاب» هو القرآن.

﴿نَتْلُوا۟﴾ أي نقرأ[3] عليك بقراءة جبريل عليه السلام. ومفعول «نتلو»:

(١) مكية وآياتها ثمان وثمانون.

(٢) ق: مجري.

(٣) ق: يقرأ.

«من نبأ» أي: بعض نبأ. و«بالحق» متعلق «بنتلو» أي: محقّين، أو في موضع الحال من «نبأ» أي: ملتبساً بالحقّ. وخصّ المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالتلاوة.

﴿ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: تجبّر واستكبر حتى ادّعى الربوبية والألوهية. و«الأرض» أرض مصر. والشّيع: الفرق. ملك القبط واستعبد بني إسرائيل.

﴿ وَنُرِيَ ﴾ حكاية حال ماضية. والجملة معطوفة على قوله ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] لأن كلتيهما تفسير للنّبأ.

و﴿ أَن نَّمُنَّ ﴾ أي: بخلاصهم من فرعون وإغراقه.

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ [1] أَئِمَّةً ﴾ أي: مقتدى بهم في الدين والدنيا.

﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أي: يرثون فرعون وقومه: ملكهم وما كان لهم.

والتمكين: التوطئة في الأرض وهي أرض مصر والشام بحيث ينفذ أمرهم ويتسلّطون على من سواهم [٤٢٨/أ].

وقرىء: ونُري، مضارع أرينا ونصب ما بعده. ويَرى، مضارع رأى ورفع ما بعده. «وهامان» وزير فرعون.

و﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ [أي]: من زوال ملكهم وإهلاكهم على يدي مولود من بني إسرائيل.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ

(١) مكررة في ق.

فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ
خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ
أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ
لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ
لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ
ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ
نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ
ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا
وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ الآية، الظاهر أن الإيحاء هنا هو إرسال ملك إليها لقوله بعد ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ أجمعوا على أنها لم تكن نبيّةً.

والظاهر أن هذا الإيحاء هو بعد الولادة فيكون ثَمَّ جملة محذوفة أي: وضعت موسى أمّه في زمن الذّبح وخافت عليه فأوحينا. و«أن» تفسيرية أو مصدرية.

﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأولاد فألقيه في اليّم. «اليم» هنا نيل مصر. «ولا تخافي» أي: من غرقه وضياعه ومن التقاطه فيُقتل. «ولا تحزني» لمفارقتك[١] إياه. «إنا رادوه إليك» وعد صادق بتسكين قلبها وتبشيرها بحياته وجَعْله رسولاً. وقد تقدّم طرف من هذا الكلام في طه[٢].

واستفصح الأصمعي إمرأة من العرب أنشدت شعراً فقالت: أبعد قوله تعالى ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ - الآية - فصاحة؟. وقد جمع بين أمرين

(١) ق: لمفارتك.

(٢) انظر تفسير الآيات ٣٨-٤٠ من طه.

ونهيَيْن وخبرين وبشارتين.

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ﴾ في الكلام حذف تقديره: ففعلت ما أُمرت به من إرضاعه ومن إلقائه في اليمّ. واللام في «ليكون» للتعليل المجازي، لما كان مآل التقاطه وتربيته إلى كونه عدوّاً لهم وحزناً، وإن كانوا لم يلتقطوه إلا للتّبنّي وكونه حبيباً يكون لهم[1]. ويُعبَّر عن هذه اللام بلام العاقبة وبلام الصيرورة.

و«قرة» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو قرّة. وتقدّم شرح القرّة[2].

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ جملة حالية أي: لا يشعرون أنه الذي يفسد ملكهم على يديه.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ﴾ جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم.

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ الآية، أي: صار فارغاً من الصبر، وذلك حين بلغها أنه وقع في يد فرعون، فدهمها الأمر، فطاش لبّها، وغلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم، ثم استكانت بعد ذلك لموعود الله تعالى. وجواب «لولا» محذوف تقديره: لأبدت به. والظاهر أن الضمير في «به» عائد على «موسى»، فالباء زائدة أي: لتظهره. وقيل: مفعول «تبدي» محذوف أي: لتبدي القول به أي: بسببه وأنه ولدها.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ أي: اتّبعي أثره وتتبّعي[3] خبره. فروي أنها

(١) ق: لهم يكون.
(٢) انظر تفسير الآية ٧٤ من الفرقان.
(٣) ق: أي ابتغي أثره وتبتغي.

خرجت في سكك المدينة مختفية، فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون، يتطلّبون له امرأة ترضعه حين لم يقبل المراضع. وفي الكلام حذف تقديره: فقصّت أثره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ أي[1]: أبصرته. ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ أي: عن بُعد. ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٤٢٨/ب] بطلبها إياه ولا بإبصارها. و«عن جنب» عن شوق إليه.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ﴾ التحريم هنا بمعنى المنع أي منعناه أن يرضع ثدي امرأة.

و«المراضع» جمع مرضعة وهي المراة التي تُرضع.

﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ تقدّم الكلام عليه[2]. والظاهر أن الضمير في «له» عائد على موسى. ولما قالت [لهم]: هل أدلكم؟ فقالوا لها: إنك قد عَرَفْته، فأخبرينا مَنْ هو. فقالت: ما أردتُ إلا أنهم ناصحون للملك. فتخلّصت منهم بهذا التأويل. وفي الكلام حذف تقديره: فمرَّتْ بهم إلى أمّه وكلّموها في إرضاعه.

ولمّا أنجز تعالى وعده في الرّد، ثبت عندها أنه سيكون رسولاً نبيًّا. ﴿ وَلِتَعْلَمَ[3] أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فعلنا ذلك.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ تقدم الكلام عليه في يوسف[4].

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن

(١) مكررة في ق.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٠ من طه.
(٣) ق: وليعلم.
(٤) انظر تفسير الآية ٢٢ من يوسف.

شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ
بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ
عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ
جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ الآية، «المدينة» قال ابن عباس هي منف[1]، ركب فرعون يوماً، وسار إليها، فعلم موسى بركوبه، فلحق بتلك المدينة في وقت القائلة.

﴿يَقْتَتِلَانِ﴾ في الدين؛ إذا أحدهما إسرائيلي مؤمن والأخر قبطي كافر.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ وهو الإسرائيلي.

﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهو القبطيّ، وقيل اسمه فاتون. وهذا حكاية حال ماضية. والظاهر أن فاعل «فقضى» ضمير عائد على موسى.

وكان موسى لم يتعمّد قتله، ولكن وافقت وكزته الأجل، فندم موسى عليه السلام وقال ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهو ما لحقه من الغضب حتى أدّى إلى الوكزة التي قضت على القبطي، وجعله من عمل الشيطان، وسمّاه ظلماً

(١) مدينة مصرية مما يلي جبل المقطم. انظر الروض المعطار ص ٥٥١.

لنفسه، واستغفر منه، لأنه أدّى إلى قَتْل من لم يؤذن له في قتله.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: من قَتْل القبطيّ أن يؤخذ به. «يترقب» وقوع المكروه به.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: الإسرائيلي الذي كان قتل القبطيّ بسببه[1]. و«إذا» هنا للمفاجأة. و«بالأمس» يعني اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ. «يستصرخه» يصيح به مستغيثاً من قبطيّ آخر. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ الظاهر أن الضمير في «له» عائد على الإسرائيلي. ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ﴾ لكونك كنت سبباً في قتل القبطي بالأمس. قال له ذلك على سبيل العتاب والتأنيب.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ الظاهر أنّ الضمير في «أراد» و«يبطش» هو لموسى. ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: للمستصْرِخ وموسى، وهو القبطي. قال الإسرائيلي[2] ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ دفعاً لما ظنّه منه.

﴿جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وشأن الجبار أن يقتل بغير حق.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل هو مؤمن آل فرعون، وكان ابن عمّ فرعون. قال الكلبي: واسمه جبريل بن شمعون «يسعى» أي: يشتدّ في مشيته. ولمّا أمر فرعون بقتله، خرج الجلاوزة من الشارع الأعظم لطلبه، فسلك [٤٢٩/أ] هذا الرجل طريقاً أقرب إلى موسى. و«من أقصى» و«يسعى» صفتان. ومعنى «يأتمرون» يتشاورون.

﴿فَأَخْرُجْ﴾ امتثل موسى عليه السلام ما أمره به ذلك الرجل وعلم صدقه

---

(١) ق: تسببه.

(٢) ق: القبطي.

ونُصْحه، وخرج وقد أقبل طالبوه[١] فلم يجدوه. وكان موسى لا يعرف ذلك الطريق، ولم يصحب أحداً، فسلك مجهلاً واثقاً بالله تعالى داعياً راغباً إلى ربه في تنجيته من الظالمين.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ الآية، «توجّه» ردّ وجهه. «تلقاء» تقدم الكلام عليه في يونس[٢]، أي: ناحية وَجِهة، استعمل المصدر استعمال الظرف. وكان هناك ثلاث طرق فأخذ موسى في أوسطها وأخذ طالبوه في الآخرَيْن وقالوا: المريب لا يأخذ في أعظم الطرق ولا يسلك إلا في بُنيّاتها[٣]. فبقي في الطريق ثماني ليالٍ وهو خافٍ لا يطعم إلا ورق الشجر.

---

(١) ق: وقد اقتلت طالبيه.

(٢) انظر تفسير الآية ١٥ من يونس. ولم يشرحها ثَمَّةَ.

(٣) بُنيّات الطرق: هي الطرق الصغار تتشعّب من الجادّة.

والظاهر من قوله ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ أنه كان لا يعرف الطريق فسأل ربّه أن يهديه أقصد الطريق بحيث إنه لا يضلّ، إذ لو سلك ما لا يوصله إلى المقصود لتاه. وعن ابن عباس: قصد مدين، وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: وصل إليه. والورود يكون بمعنى الوصول إلى الشيء وبمعنى الدخول فيه. قيل: وكان هذا بئراً. والأمّة: الجمع الكثير. ومعنى «عليه» أي: شفيره وحاشيته. ﴿يَسْقُونَ﴾ يعني مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: [من] الجهة التي وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمّة. ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ قال ابن عباس: تذودان[1] غنمهما عن الماء خوفاً من الرّعاة الأقوياء، وكانتا تكرهان المزاحمة على الماء. واسم الصغرى عبرا والكبرى صبورا. ولمّا رآهما موسى واقفتين لا تتقدّمان للسّقي، سألهما[2] فقال ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾. والسؤال بالخَطْبِ إنما يكونُ في مصاب أو مضطهد[3] [أو من يشفق عليه أو يأتي بمكروه من الأمر]. وفي سؤاله عليه السلام دليل على جواز مكالمة الأجنبية فيما يَعِنّ. ولم يكن لأبيهما[4] أجير فكانتا تسوقان الغنم إلى الماء، ولم يكن لهما قوة الاستسقاء وكان الرعاة يستقون[5] من البئر، فيسقون مواشيهم، فإذا صدروا فإن بقي في الحوض شيء سقتا. فوافى موسى عليه السلام ذلك اليوم، وهما تمنعان غنمهما عن الماء، فرقّ

(١) ق: يذودان.

(٢) ق: لا يتقدمان للسقي بنتا لهما.

(٣) ق: مضطهرد.

(٤) ق: ولم يكون بيهما.

(٥) ق: يسقون.

عليهما وقال «ما خطبكما».

وقرىء: يَصْدر، من صدر، وقرىء: يُصْدر من أصدر و«الرعاء» فاعل. فالتقرير فيمن قرأ: يَصْدر أن يكون المعنى: حتى يَصْدر الرعاء عن الماء بغنمهم. والمعنى على من قرأ: يُصدر، أي: يُصدر الرّعاء عن الماء غنمهم. وجَمْع راعٍ على رعاء شاذ في القياس وبابه أن يُجمع فُعَلَه كقاضٍ وقُضَاة، خلافاً للزمخشري[١] إذا زعم أن جمع راعٍ على فِعالٍ قياس. وقرىء: الرُّعاء، بضم الراء. وهو اسم جمع كالرجال. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ اعتذار لموسى عن مباشرتهما السّقي بأنفسهما وتنبيه على أنّ أباهما لا يقدر على السّقي لشَيَخِه وكِبَره، واستعطاف [٤٢٩/ب] لموسى عليه السلام في إعانتهما.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي: سقى غنمهما لأجلهما. وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يُقلّه إلا عدد من الرجال، فأقلّه هو وحده. وقيل: كانت لهم دلو لا ينزع بها إلا أربعون رجلاً فنزع بها وحده وروي أنه زاحمهم على الماء حتى سقى لهما[٢]، كل ذلك رغبة في الثواب، على ما كان به من نصب السّفر وشدّة الجوع، حتى كانت تظهر الخضرة في بطنه من البقل.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: ظل شجرة، قيل: كانت سَمُرَة[٣].

﴿فَقَالَ[٤] رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال المفسرون: تعرض لمن

---

(١) انظر الكشاف ٣: ١٧٠.

(٢) ق: حتى زاحمهما.

(٣) ق: سحرة. والسَّمُرة: من شجر الطلح.

(٤) ق: قال.

يطعمه[١] لِما ناله من الجوع، ولم يصرّح بالسؤال. و«أنزلت» هنا بمعنى تُنزل. وفي الكلام حذف تقديره: فذهبتا إلى أبيهما من غير إبطاء في السقي، وقصّتا[٢] عليه أمر السّقي لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له.

﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ «إحداهما» مبهم فقيل الكبرى وقيل الصغرى.

و﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ في موضع الحال أي: مستحية متخفّرة. قال عمر بن الخطاب: قد سترت وجهها بكمّ درعها[٣].

﴿ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ في ذلك ما كان [عليه] شعيب عليه السلام من الإحسان والمكافأة لمن عمل له عملاً، وإن لم يقصد المكافأة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي: فذهب معها إلى أبيها. وفي هذا دليل على اعتماد أخبار المرأة، إذ ذهب موسى عليه السلام معها كما يُعتمد على أخبارها في باب الرواية .

﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: ما جرى له من خروجه من مصر وسبب ذلك.

﴿ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قَبِل الله دعاءك في قولك ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص] ولمّا أخبره[٤] بنجاته منهم آنسه بقوله «لا تخف» وقرّب إليه طعاماً فقال له موسى: إنّا أهل بيت لا نبيع ديننا

(١) ق: لما يَطعمه. وهو وجه.

(٢) ق: وقصّا.

(٣) درع المرأة: قميصها.

(٤) ق: وأخبره.

بملء الأرض ذهباً. فقال له شعيب: ليس هذا عوض السّقي، ولكن هذه[(١)] عادتي وعادة آبائي: قِرى الضيف وإطعام الطعام. فحينئذ[(٢)] أكل موسى عليه السلام.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أبهم القائلة. قيل وهي الذاهبة والقائلة والمتزوجة. «يا أبت استأجرة» أي: لرعي الغنم وسقيها. ووصفته بالقوة لكونه رفع الصخرة عن البئر وحده، وانتزع بتلك الدلو وزاحمهم حتى غلبهم على الماء. وبالأمانة لأنها حين قام يتبعها هبّت الرّيح فلفّت ثيابها فوصفَتْها، فقال لها: ارجعي خلفي ودلّيني على الطريق. وقولها كلام حكيم جامع، لأنه إذا اجتمعت الأمانة والكفاية في القائم بأمر، فقد تمّ المقصود، وهو كلام جرى مجرى المثل وصار مطروقاً للناس، وكان ذلك تعليلاً للاستئجار، وكأنها قالت: استأجره لأمانته وقوّته، وصار الوصفان[(٣)] منبِّهَيْن عليه.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾.

قال الزمخشري[(٤)]: «هاتين» فيه دليل على أنه كانت له غيرهما انتهى.

لا دليل في ذلك، لأنهما كانتا اللتين رآهما تذودان [٤٣٠/أ] وجاءته إحداهما، فأشار إليهما، والإشارة إليهما لا تدلّ على أنّ له غيرهما. رغب شعيب في مصاهرته لما وصفَتْه به، ولما رأى فيه من عزوفه عن الدنيا وتعلّقه بالله تعالى، وفراره من الكفر.

---

(١) ق: هذا.

(٢) ق: بحسد.

(٣) ق: الوصفين.

(٤) الكشاف ٣: ١٧٢.

وظاهر قوله ﴿أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أنّ الإنكاح إلى الوليّ لا حقّ للمرأة فيه خلافاً لأبي حنيفة في بعض [صوره] بأن تكون بالغة عالمة بمصالح نفسها، فإنها تعقد على نفسها بمحضر من الشهود.

و﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ مبهم، وهذا عرض لا عَقْد، ألا ترى إلى قوله «إني أريد»؟. وحين العقد يعيّن من شاء منهما، وكذلك لم يحدّ أول أمد الإجارة.

والظاهر من الآية جواز النكاح بالإجارة وبه قال الشافعي وأصحابه.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ في موضع الحال من ضمير «أنكحك» إما الفاعل وإما المفعول. و«تأجرني» من أَجَرْته: [كنت له أجيراً] كقولك: أبَوْته: كنت له أباً. ومفعول «تأجرني» الثاني محذوف تقديره: نفسك.

و«ثماني حجج» ظرف. «عشراً» تقديره: عشر حجج. «فمن عندك» خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالإتمام إحسان من عندك.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وعد صادق مقرون بالمشيئة، من الصالحين في حسن المعاملة ووطاءة[1] الخُلق.

ولما فرغ شعيب ممّا حاور[2] به موسى قال موسى ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ على جهة التقرير والتوثّق في أن الشّرط إنما وقع في ثماني حجج. و«ذلك» مبتدأ خبره «بيني وبينك» أشار إلى ما عاهده عليه، أي: ذلك الذي عاهدتني وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه. ثم قال «أيما الأجلين» أي:

---

(١) ق: ووطأة. ووطاءة الخلق: لينه ودماثته.

(٢) ق: جاور.

الثماني[١] أو العشر. و«ما» زائدة، و«أي» شرطية منصوبة «بقضيت».

«فلا عدوان» جواب الشرط. «والله على ما نقول» أي: على ما تعاهدنا عليه وتواثقنا. «وكيل» أي: شاهد.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ جاء عن النبي ﷺ أنه وفّى أطول الأجلين وهو العشر[٢]. وثَمَّ[٣] محذوف تقديره: زوّجه ابنته، وسار بأهله، أي: نحو مصر بلده وبلد قومه. والخلاف فيمن تزوّج: الكبرى أم الصغرى، وكذلك في اسميهما. وتقدّم كيفية مسيره وإيناسه النار في طه[٤].

---

(١) ق: اليماني.

(٢) رواه ابن جرير ٢٠: ٤٣ من حديث ابن عباس.

(٣) ق: ثمّ.

(٤) انظر تفسير الآية ٩ وما بعدها من طه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تسخنون بها إذ كانت ليلة باردة، وقد أضلّوا الطريق.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ الآية، «مِن» في «من شاطىء» لابتداء الغاية. و«من الشجرة» كذلك؛ إذ هي بدل من الأولى أي من قبل الشجرة. و«الأيمن» يحتمل أن يكون صفة «للشاطىء» و«للوادي»، على معنى اليمن والبركة. ووصفت البقعة بالبركة لما خُصّت به من آيات الله تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام. ويتعلق «في البقعة» «بنودي»، أو يكون في موضع الحال من «شاطىء». و«الشجرة» عنّاب وقيل غير ذلك. و«أن» يحتمل أن تكون تفسيرية وأن تكون مخفّفة من الثقيلة. وجاء في طه ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴿١٢﴾﴾، وفي النمل ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾، وهنا ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ﴾. ولا منافاة إذ [٤٣٠/ب] حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

والجمهور على أنه تعالى كلّمه في هذا المقام من غير واسطة.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ تقدّم الكلام عليه[1]. و﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ تقدّم الكلام عليه[2] أيضاً.

والظاهر حَمْل ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ على الحقيقة وهو الخوف. وقرىء: الرَّهَب والرَّهْب والرُّهْب. قال الثوري: خاف موسى أن يكون حدث به سوء، فأمره تعالى أن يعيد يده إلى جيبه لتعود على حالتها الأولى، فيعلم موسى أنّه لم يكن سوءاً بل آية من الله تعالى.

---

(١) انظر تفسير الآية ١١٧ من الأعراف.

(٢) انظر تفسير الآية ٢٢ من طه.

﴿فَذَانِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد وهما مؤنثتان، ولكن ذكّر لتذكير الخبر.

﴿بُرْهَانَانِ﴾ حجتان نيّرتان.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ هو القبطي الذي وكزه فمات، فطلب من ربّه ما يزداد به قوة، وذكر أخاه والعلّة التي تكون[1] له زيادة في التبليغ. و«أفصح» [يدلّ] على أن فيه فصاحة ولكنْ أخوه أفصح.

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ وقرىء: ردءاً، بالهمز. ورِداً، بحذف الهمزة[2] ونقل حركتها إلى الدّال. وقرىء: يصدّقْني، بالجزم على أنه جواب الأمر. وبالرفع على أنه صفة لقوله «ردءاً».

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ المعنى فيه: سنقوّيك بأخيك. ويقال في الخير: شدّ الله عضدك، وفي الشّر: فتّ الله في عضدك. والسلطان: الحجة والغلبة والتسلّط.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: بسوء، أو إلى أذيّتكما.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أن يتعلّق بقوله «ونجعل»[3] أو «بيصلون».

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ

(١) ق: يكون.

(٢) ق: الهمز.

(٣) ق: ويجعل.

مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا
لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ
وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ
ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية، «بآياتنا» هي العصا واليد.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات الدّلالة على صدقه، وأنه أمر خارق كفّوا عن مقاومته، ورجعوا إلى البهت والكذب على عادتهم، ونفوا أنهم سمعوا[1] بهذا في آبائهم الأوّلين، وقد كذبوا في ذلك لأن الرسل جاءتهم قبل.

ولمّا رأى موسى ما قابلوه به من انتفاء السّماع في الزمان السابق، قال موسى ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ يعني بذلك نفسه.

ونفى فرعون علمه بإله غيره للملأ، ويريد بذلك نفي وجوده، أي: ما لكم من إله غيري. واستمرّ فرعون في مخرقته، ونادى وزيره هامان، وأمره أن يوقد النار على الطين. قيل: وهو أول من عمل الآجرّ، ولم يقل: اطبخ الآجرّ لأنه لم يتقدم لهامان علم بذلك، ففرعون هو الذي يعلّمه[2] ما يصنع. ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي: ابنِ لي.

(١) ق: ما سمعوا.

(٢) ق: يعمله.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أوهمَ قومَهُ أنَّ إله موسى يمكن الوصول إليه والقدرة عليه، وهو عالم متيقّن أن ذلك لا يمكن. واطّلع في معنى طلع؛ يقال: طلع إلى الجبل واطّلع بمعنى واحد.

و«الأرض» هنا أرض مصر.

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ كناية عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا؛ شُبّهوا بحصيات قذفها الرامي من يده، ومنه: نبذ النّواة.

وجعل هنا بمعنى صيّر [٤٣١/أ] أي: صيّرناهم أئمة، أي: قدوة للكفّار، يقتدون بهم في ضلالاتهم، اشتهروا بذلك وبقي حديثهم.

وعطف «ويوم القيامة» على «في هذه الدنيا» و«من المقبوحين» قال ابن عباس: من المشوَّهين الخِلْقة بسوادِ الوجوه وزرقة العيون.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، وهو أول كتاب أنزلت فيه الفرائض والأحكام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط. ويقال: لم تهلك قرية بعد نزول التوراة غير القرية التي مُسخ أهلها قردة.

وانتصب «بصائر» على الحال أي: طرائق هدى يُستبصر بها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا
فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ
بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن
نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ

أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ
أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ
كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ
ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ
نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ۞.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ الآية، لمّا قصّ تعالى من أنباء موسى وغرائب ما جرى له، وأوحى[1] تعالى بجميع ذلك إلى محمد رسوله عليه السلام، ذكّره بإنعامه عليه بذلك، وبما قصّه من الغيوب التي كان لا يعلمها لا هو ولا قومه، فقال[2] «وما كنت بجانب الغربيّ».

و«الأمر» قيل: الحكم والنبوّة الذي آتاه الله موسى. وبدأ أوّلاً بنفي شيء خاص وهو أنه لم يحضر وقت قضاء الله لموسى الأمر، ثم ثنّى بكونه لم

(١) ق: أوحى.

(٢) ق: يقال.

يكن من الشاهدين والمعنى - والله أعلم - من الشاهدين لجميع ما أعلمناك به، فهو نفي لشهادته جميع ما جرى لموسى عليه السلام فكان عموماً بعد خصوص. و«بجانب الغربي» من إضافة الموصوف إلى صفته عند قوم، ومن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه عند قوم. [فعلى القول الأول] أصله[١]: بالجانب الغربي، وعلى الثاني أصله: بجانب المكان الغربي.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مقيماً. ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هم شعيب والمؤمنون.

﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ تقرأ عليهم تعلّماً منهم - يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه - ولكنّا أرسلناك وأخبرناك بها وعلّمناكها.

﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه، ولكن أعلمناك رحمة وأرسلناك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ العرب.

﴿وَلَوْلَآ﴾ الأولى حرف امتناع لوجود. و﴿أَن تُصِيبَهُم﴾ في موضع المبتدأ كأنه قال: لولا إصابتهم. ﴿فَيَقُولُواْ﴾[٢] معطوف على «أن تصيبهم». و﴿لَوْلَآ﴾ الثانية للتحضيض، جوابها ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾[٣]. وجواب «لولا» الأولى محذوف تقديره: ما أرسلناك منذراً لهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ هو محمد ﷺ والظاهر أنه عائد على قريش الذين قالوا: لولا أوتي - أي: محمد - ما أوتي موسى. وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيب لموسى عليه السلام، ونسبتهم السّحر للرسول نسبة

(١) ق: تقديره أصله.

(٢) ق: فيقول.

(٣) ق: فنكون.

السحر لموسى؛ إذ الأنبياء عليهم السلام هم من وادٍ واحد، فمن نسب إلى واحد من الأنبياء ما لا يليق، كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء. وتتناسق الضمائر[١] كلها في هذا وفي قوله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] وإن كان [٤٣١/ب] الظاهر من القول أنه النّطق اللساني، فقد ينطلق على الاعتقاد، وهم من حيث إنكار النبوّات معتقدون أن ما ظهر على أيدي الأنبياء من الآيات إنما هو من باب السحر.

وقرىء: ساحران. وسحران. والضمير في «جاءهم» عائد على العرب.

﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي: بكلّ من السّاحرين أو من السّحرين.

ثم أمره تعالى أن يصدع بهذه الآية وهي قوله ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ أي: أنتم أيها المكذّبون بالكتب الإلهية التي تضمّنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق، ونهت عن الكفر والنقائص، ووعد الله عليها الثواب الجزيل، إن كان تكذيبكم لمعنى «فأْتوا بكتاب من عند الله» يهدي أكثر من هذه أتّبعه معكم. والضمير في «منهما»[٢] عائد على ما أُنزل على موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وتعليق إتيانهم بشرط الصدق أمر متحقّق متيقّن أنه لا يكون ولا يمكن صدقهم، كما أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب من عند الله أهدى من الكتابين. ويجوز أن يراد بالشرط التهكّم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ قال ابن عباس: يريد: فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج، ولم يمكنهم أن يأتوا بكتاب هو أفضل. والاستجابة تقتضي[٣]

---

(١) ق: ويتناسق الضمير.

(٢) ق: منها.

(٣) ق: يقتضي.

دعاءً وهو صلى الله عليه وسلم يدعوهم دائماً إلى الإيمان.

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الآية، الضمير في «لهم» عائد على قريش. وقال رفاعة القرظي[١]: نزلت في عشرة من اليهود هو أحدهم. ومعنى «وصّلنا» تابعنا القرآن موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزّجر والدّعاء إلى الإسلام. وفي الحديث[٢] «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي» الحديث.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي: لا تقدر[٣] على خلق الهداية فيه. ولا تنافي[٤] بين هذا وبين قوله ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] لأن معنى هذا: وإنك لترشد. وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب. وحديثه مع رسول الله ﷺ حالة أن مات مشهور[٥].

والضمير في ﴿ وَقَالُوٓا۟ ﴾ عائد على قريش. وقيل [القائل] الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف: إنك على الحق فنخاف[٦] من اتّباعك. ومعنى ﴿ يُجْبَىٰٓ ﴾ يساق.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ

(١) ق: القرطبي.
(٢) رواه مسلم ١: ١٣٤ من حديث أبي بردة عن أبيه بلفظ آخر.
(٣) ق: يقدر.
(٤) ق: ينافي.
(٥) انظر مثلاً صحيح مسلم. ١: ٥٥.
(٦) ق: فيخاف.

فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا
ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا
غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ
يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ
أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا
يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ
ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ
عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا
تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن
رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾
وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ ﴾ الآية، هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم، كانوا في مثل حالهم، من إنعام الله تعالى عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فغمطوا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فدمّرهم الله تعالى، وخرّب ديارهم.

و«معيشتها» منصوب على التميز على مذهب الكوفيين، أو مشبّه بالمفعول على مذهب بعضهم، أو مفعول به على تضمن «بطرت» [معنى فعل متعدٍّ] أي: خسرت [٤٣٢/أ] معيشتها، أو على إسقاط «في» أي: في معيشتها، أو على الظرف على حذف مضاف أي: أيام معيشتها. وتقدم ذكر المساكن[١].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ تقدّم الكلام عليه[٢]

لمّا ذكر تعالى تفاوت ما بين ما أُوتوا من المتاع والزينة وما عند الله من الثواب قال: أبعد هذا التفاوت الظاهر يُسوّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا. والفاء في «فهو لاقيه» للتّسبب لأنّ لقاء الموعود مسبّب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير. و«ثم» لتراخي حال الإحضار عن حال التّمتع بتراخي وقته عن وقته. وقرىء: ثم هو، بضم الهاء وبسكونها، أجري مجرى الفاء والواو، فكما سكّنوا هاء هو وهي نحو: فهْو وهْي، فكذلك سكنوها بعد ثمّ.

ومعنى ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: المحضرين العذاب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الآية، نداؤه تعالى يحتمل أن يكون بواسطة أو بغير واسطة ﴿فَيَقُولُ[٣] أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أي: على زعمكم. وهذا الاستفهام على جهة التوبيخ والتقريع. والشركاء: هم من عُبدوا من دون الله تعالى من ملك أو غيره. ومفعولا «تزعمون»[٤] محذوفان أحدهما العائد على الموصول والتقدير:

---

(١) انظر تفسير الآية ١٢٨ من طه.

(٢) انظر تفسير الآية ١٣١ من الأنعام.

(٣) ق: فنقول.

(٤) ق: يزعمون.

تزعمونهم[١] شركاء.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي: الشياطين وأئمة الكفر ورؤوسه. و«حق» وجب عليهم القول أي: مقتضاه و«هؤلاء» مبتدأ. و«الذين» صفة له. و«أغوينا» صلة «للذين» والعائد محذوف تقديره: أغويناهم. و«أغويناهم» خبر المبتدأ. وتقيّد بقوله «كما غوينا» فاستفيد من الخبر ما لم يُستفد من الصلة.

ويجوز أن يكون «هؤلاء» مبتدأ، و«الذين أغوينا» خبر المبتدأ، و«أغويناهم» استئناف إخبار مقيّد[٢] بقوله «كما غوينا».

﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ﴾ لمّا سئلوا: أين شركاؤكم؟ وأجابوا بغير جواب، سئلوا ثانياً فقيل «ادعوا شركاءكم». وأضاف الشركاء إليهم، أي: الذين جعلتموهم شركاء لله. وقوله «ادعوا» على سبيل التهكّم بهم، لأنه يعلم أنه لا فائدة في دعائهم.

﴿ فَدَعَوۡهُمۡ ﴾ هذا لسخافة عقولهم في ذلك الموطن أيضاً؛ إذ لم يعلموا أنّ من كان موجوداً منهم في ذلك الموطن لا يجيبهم. والضمير في «ورأوا» قيل للتّابع والمتبوع. وجواب «لو» محذوف، والظاهر أن يُقدَّر مما يدلّ عليه ما يليه أي: لو كانوا مؤمنين ما رأوا العذاب في الآخرة.

﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ ﴾ حكى أوّلاً ما يوبّخهم به من اتّخاذ الشركاء [ثم] باستعانتهم بشركائهم [ثم] بما يبكّتون[٣] به من الاحتجاج عليهم بإرسال

(١) ق: يزعمونهم.
(٢) ق: مقيداً.
(٣) ق: ينكثون.

الرسل وإزالة العلل.

ومعنى ﴿فَعَمِيَتْ﴾ أظلمت عليهم الأمور فلم يستطيعوا أن يخبروا بما فيه نجاة لهم. وأتى بلفظ الماضي لتحقّق[١] وقوعه.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً فيما يتخلّصون به إذ أيقنوا أنهم لا حجّة لهم [٤٣٢/ب] فهم في عمىً وعجز عن الجواب. والمراد بالنّبأ الخير عمّا أجاب به المرسل إليه رسوله.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ نزلت[٢] بسبب ما تكلّمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ، وقول بعضهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف] وقائل ذلك الوليد بن المغيرة.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [«مِن»] هنا للسبب أي: وسبب رحمته إياكم جعل لكم الليل والنهار. ثم علّل جَعْل كل واحد منهما، فبدأ بعلّة الأول وهو الليل وهو «لتسكنوا فيه»، ثم بعلّة الثاني وهو [النهار وهو] «ولتبتغوا من فضله»، ثم بما يشبه العلّة لجعل هذين الشيئين وهو «ولعلكم تشكرون» أي: هذه الرحمة والنعمة.

وهذا النّوع من علم البديع يسمّى التفسير، وهو أن تسمّي أشياء ثم تفسّرها[٣] بما يناسبها.

---

(١) ق: ليحقق.

(٢) انظر أسباب النزول ص٢٢٩.

(٣) ق: يسمي.. يفسّرها.

والضمير في «فيه» عائد على «الليل». و«من[1] فضله» يجوز أن يكون عائداً على الله تعالى والتقدير: من فضله، أي: من فضل الله فيه، أي: في النهار. وحذف لدلالة المعنى عليه، ولدلالة لفظ «فيه» السابق عليه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الآية، تقدّم الكلام[2] عليها. وكرّر هنا على جهة الإبلاغ والتأكيد.

﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

(١) ق: وفي.

(٢) انظر تفسير الآية ٦٢ من القصص.

و«قارون» اسم أعجمي امتنع من الصرف للعلمية والعجمة. قيل: ومعنى كان من قومه: أي ممّن آمن به، وهو إسرائيلي بإجماع. واختُلف في قرابته من موسى عليه السلام اختلافاً كثيراً؛ قال ابن عباس إنه ابن عمّه، وهو قارون بن يصهر[1] بن قاهث جدّ موسى، لأن النّسابين ذكروا نسبه كذلك. وكان يسمّى المنوّر لحسن صورته، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، فنافق كما نافق السامريّ.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ذكروا من أنواع بغيه الكفر والكبر وحسده لموسى عليه السلام على النبوّة، ولهارون على الذّبح والقربان وظُلْمه لبني إسرائيل حين ملّكه فرعون عليهم، ودسّه بغيًا، تكذب عليه أنه تعرّض لها، وتفضحه بذلك بين ملأ بني إسرائيل. ومن تكبّره أنه زاد في ثيابه شبراً.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قيل: أظفره الله بكنز من كنوز يوسف عليه السلام. وقيل: سمّيت أمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أداء الزّكاة، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أوّل عدواته. و«ما» موصولة صلتها «إنّ» ومعمولاها.

وتقدّم الكلام على مفاتح[2] في سورة الأنعام.

و«لَتَنُوءُ» أي: لتثقل. الصحيح أن الباء للتعدية أي: لتُنيء العصبة.

﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ تقدم تفسيره[3].

والمراد: وآتيناه من الكنوز ما إنّ حفظها والاطّلاع عليها يثقل على العصبة،

(١) ق: يصر.

(٢) ق: مفاتيح. وانظر تفسير الآية ٥٩ من الأنعام.

(٣) انظر تفسير الآية ٨ من يوسف.

أي: هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها يُتعب حفظها القائمين عليها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ نهوه عن الفرح المطغي الذي هو انهماك وانحلال النفس وأشر وإعجاب. وإنما يفرح بإقبال الدنيا [٤٣٣/أ] عليه من اطمأنّ إليها وغفل عن أمر الآخرة.

قال الزمخشري[١]: ومحلّ «إذ» منصوب بـ«تنوء» انتهى.

هذا ضعيف جدّاً، لأن إثقال المفاتيح العصبة ليس مقيّداً بوقت قول قومه له: لا تفرح.

قال ابن عطية: وهو متعلق بقوله «فبغى عليهم» انتهى.

هذا ضعيف أيضاً، لأن بغيه عليهم لم يكن مقيّداً بذلك؟.

وقال أبو البقاء[٢]: «إذ قال له قومه» ظرف «لآتيناه».

وهذا ضعيف أيضاً، لأن الإيتاء لم يكن وقت ذلك القول.

وقال أيضاً[٣]: ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل محذوف دلّ عليه الكلام، أي: بغى عليهم إذ قال له قومه[٤] انتهى.

ويظهر لي أن يكون تقديره[٥]: فأظهر التفاخر والفرح، بما أوتي من الكنوز، إذ قال له قومه لا تفرح.

(١) الكشاف ٣: ١٩٠.
(٢) إملاء ٢: ١٨٠.
(٣) إملاء ٢: ١٨٠.
(٤) ق: قال لقومه.
(٥) ق: تقديرية.

ولمّا نهوه[١] عن الفرح المطغي أمروه بأن يطلب فيما آتاه الله من الكنوز وسعة الرزق ثواب[٢] الدار الآخرة بأن يفعل فيه أفعال البرّ ويجعله زاداً إلى الأخرة.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: معناه: ولاتضيّع عمرك في أن لا تعمل صالحاً.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قيل هي الكيمياء، وقيل هي غير ذلك.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ قيل: كان يوم السبت، أي: أظهرَ ما يقدر عليه من الملابس والمراكب وزينة الدنيا. قيل: في ثياب حمر، وقيل: هو وحشمه في ثياب معصفرة، وقيل: في ثياب الأرجوان، وقيل: على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيّه، وقيل: عليهم وعلى حيوانهم الديباج الأحمر وعلى يمينه ثلاث مئة غلام وعلى يساره ثلاث مئة جارية بيض عليهم الحليّ والديباج، وقيل: في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات. وهو أول يوم رئي فيه المعصفر، وقيل غير ذلك من الكيفيّات والله[٣] أعلم بصحة ذلك.

﴿وَيْكَأَنَّ﴾ هي كاف التشبيه الداخلة على أنّ. وكتبت وي متّصلة بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال، وأنشد سيبويه[٤]: [من الخفيف]

وَيْ كـأنْ من يكـن لـه نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ ومَن يفتقرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

(١) ق: نهاه.

(٢) ق: وثواب.

(٣) ق: الله.

(٤) الكتاب ٢: ١٥٥. والبيت منسوب فيه لزيد بن عمرو بن نفيل.

وحكى الفرّاء[١] أن امرأة قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: ويكأنّه وراء البيت.

وقال الأخفش: هي ويك. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب فلا موضع له من الأعراب، والوقف عليه ويك، ومنه قول عنترة[٢]: [من الكامل]

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

﴿وَلَا فَسَادًا﴾ جاء النفي بلا، فدلّ على أنّ كلّ واحد من العلوّ والفساد مقصود لا مجموعهما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قيل: العمل به.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قيل: مكّة أراد ردّه إليها يوم الفتح. وقيل غير ذلك.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ[٣]﴾ هو محمد ﷺ [٤٣٣/ب].

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هم المشركون.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣١٢.

(٢) ديوانه ص ٢١٩.

(٣) ق: بمن جاء بالهدى من عنده.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ تذكير لنعمه تعالى على رسوله وأنه تعالى رحمه رحمة لم يتعلّق بها رجاؤه.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى دين ربك. وهذه المناهي كلّها ظاهرها أنها لرسول الله ﷺ، وهي في الحقيقة لأتباعه.

والهلاك يُطلق بإزاء العدم المحض، فالمعنى أن الله يعدم كل شيء سواه، وبإزاء نفي الانتفاع به إما للإماتة أو لتفريق الأجزاء، وإن كانت باقية؛ يقال: هلك الثوب، لايريدون فناء أجزائه، ولكن خروجه عن الانتفاع به.

ومعنى ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا إياه ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: فصل القضاء. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى جزائه.

مفرداتُ سورة القصص*(١)

الوَكْزُ: الضَّربُ باليدِ مجموعاً، كعقد ثلاثة وسبعين. وقيل: بجُمْعِ كفِّه. وقيل: الوكزُ والنَّكزُ واللَّهزُ واللَّكْزُ: الدفع بأطرافِ الأصابع[٢]. وقيل: الوكزُ على القلبِ واللكزُ على اللِّحى[٣]. وقيل: الوكزُ بأطراف الأصابع.

ذاد: طردَ ودفع. وقال الفراء: حبس[٤].

جَذَوتُ الشيءَ جَذْواً: قطعتُه، والجَذْوةُ عودٌ فيه نارٌ بلا لهب، قال ابنُ مقبل:

باتتْ حَوَاطِبُ ليلى يَلْتَمِسْنَ لها ... جَزْلَ الجِذَا غيرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ[٥]

الخوَّارُ: الذي يتقصَّفُ. والدعِرُ: الذي فيه تعبٌ[٦]. وقال آخر:

---

* تفسير سورة القصص من تحقيق فادي المغربي، وباقي الجزء من تحقيق عمار ريحاوي.

(١) في (ح): المفردات. وليست في (ت) و(ع). والمثبت من (يه).

(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٦.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٥. وخصه الفراء بحبس الغنم، فقال: ولا يجوز أن تقول: ذُدْتُ الرجل: حبسته، وإنما كان الذياد حبساً للغنم لأن الغنم والإبل إذا أراد شيءٌ منها أن يشذَّ ويذهب فرددته فذلك ذود، وهو الحبس.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦، والبيت في ديوان تميم بن أبي بن مقبل ص٩١. الحواطب جمع حاطبة، وهي الجارية التي تجمعُ الحطب. والجَزْلُ: الحطبُ اليابس. والجِذَا ـ بكسر الجيم ـ: جمع جذوة. حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

(٦) وفسر شارح ديوان تميم الدَّعِر بأنه الحطب البالي النخر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد، ودخن كثيراً. وفسَّره الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٧٢ بأنه الرديء الكثيرُ الدخان.

وألقى على قيسٍ من النارِ جِذْوةً شديدٌ[١] عليه حَمْيُها[٢] والتهابُها[٣]

وقيل: الجذوة مثلَّثُ الجيم: العودُ الغليظُ، كانتْ في رأسِه نارٌ أو لم تكن[٤].

وقال السلميُّ[٥] يصفُ الصَّلَى:

حمى حبُّ هذي النارِ حبُّ خليلتي وحبُّ الغواني فهو دونَ الحبائب

وبُدِّلتُ بعد البانِ والمِسْكِ شِقْوةً دخان الجِذا في رأسِ أشمطَ شاحبِ[٦]

الشاطئ والشطُّ: ضفَّةُ[٧] الوادي.

الفصاحةُ: بسطُ اللِّسان في إيضاحِ المعنى المقصود، ومقابلُه اللَّكَنُ.

الرِّدْء: المُعِينُ الذي يُسْنَدُ به في الأمر، فِعْلٌ بمعنى مفعول، فهو اسمٌ لما يُعَان به، كما أن الدِّفءَ اسمٌ لما يُدَفَّأ به، قال سلامةُ بن جندل:

ورِدْئي كلُّ أبيضَ مَشْرَفيٍّ شحيذِ الحدِّ عَضْبٍ ذي فُلُولِ[٨]

ويقال: ردأت الحائطَ أردؤه، إذا دعمتَه بخشبةٍ لئلَّا يسقط[٩]. وقال أبو عبيدة[١٠]: العون، ويقال: ردأتُه على عدوِّه: أعَنْتُه.

(١) كذا في النسخ، وفي الكشاف ٣/ ١٧٥، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٤، وروح المعاني ٢٠/ ١٧٢: شديداً.
(٢) في الكشاف وروح المعاني: حرها.
(٣) قال الشهاب الخفاجي في حاشيته ٧/ ٧٢: قيس فيه اسم قبيلة، ولذا قال: عليها، وهو استعارة لما لحقها من الفتنة التي كأنها نارٌ متوقدة.
(٤) الكشاف ٣/ ١٧٤.
(٥) هو أشجع بن عمرو السلمي، أبو الوليد الشاعر، من أهل الرقة، قدم البصرة فتأدب بها، ثم ورد بغداد، ومدح الرشيد، فتمكنت حاله عنده، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه. انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٧/ ٥١١-٥١٢، والأعلام ١/ ٣٣١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦.
(٧) في (ح) والمطبوع: حفة. وفي (ع): حافة. والمثبت من (ت) و(يه) والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦-٢٨٧.
(٨) الكشاف ٣/ ١٧٦، ولم أقف عليه في ديوان سلامة بن جندل.
(٩) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٤٩.
(١٠) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٤.

المَقْبوح: المَطْرود، وقال الشاعر:

ألا قَبَّحَ اللهُ البَراجِمَ كلَّها وجَدَّعَ يربوعاً وعفَّر دارِما(١)

ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً: أقام، قال الشاعر:

لقد كانَ في حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُهُ تَقَضِّي لُباناتٍ ويَسْأَمُ سائِمُ(٢)

وقال العجَّاج:

فباتَ حيث يَدخُلُ الثَّوِيُّ

أي: الضَّيفُ المُقيم.

البَطَر: الطُّغيان.

السَّرْمَد: الدائمُ الذي لا ينقطع.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ
بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ
مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾.

التفسير

هذه السورةُ مكيَّة كلُّها، قاله الحسن وعطاء وعكرمة(٣). وقال مقاتل: فيها من المدنيّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ [الآية: ٥٢] إلى قوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(٤) [الآية: ٥٥]. وقيل: نزلت بين مكَّة والجحفة. وقال ابن عباس:

---

(١) هو لامرئ القيس، ديوانه ص١٣٠. قال شارحه: البراجم ويربوع ودارم: قبائل من تميم.

(٢) هو للأعشى، ديوانه ص٧٧، وسلف عند تفسير الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٣، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٢٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥.

بالجُحْفَة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة[١]. وقال ابنُ سلام: نزل ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بالجُحْفَة وقتَ الهجرة إلى المدينة[٢].

ومناسبةُ أول هذه السورة لآخر السورة قبلها أنَّه أمرَهُ تعالى بحمدِه، ثمَّ قال: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [النمل: ٩٣]. وكان مما فُسِّر به آياتُه تعالى: معجزاتُ الرسول ﷺ، وأنَّه أضافَها تعالى إليه، إذ كان هو المجريها[٣] على يديه[٤]، فقال: «تلك آياتُ الكتاب المبين»، فأضافها إلى «الكتاب»[٥]، إذ كان الكتابُ هو أعظم المعجزات[٦] وأكبرَ الآياتِ البيِّنات.

والظاهرُ أنَّ الكتابَ هو القرآن. وقيل: اللوحُ المحفوظ.

«نتلو» أي: نقرأُ عليكَ بقراءة جبريل، أو نقصُّ، ومفعولُ «نتلو»: «من نبأ»، أي: بعضَ نبأ[٧]، و«بالحق» متعلِّقٌ بـ «نتلو» أي: محقِّين، أو في موضع الحال من «نبأ»، أي: متلبساً بالحقِّ. وخَصَّ المؤمنين لأنَّهم هم المنتفعون بالتلاوة.

---

(١) قول ابن عباس هذا هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [الآية: ٨٥]، النكت والعيون ٤/ ٢٣٣، وزاد المسير ٦/ ٢٠٠، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٢٨، ونسبه الماوردي والقرطبي أيضاً لقتادة. وأخرج الطبراني في الأوسط (٧٦٦٢) عن ابن عباس أنها نزلت في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا أحداً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢١: فيه من لم أعرفهم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥.

(٣) كذا في (ت) و(يه)، وفي (أ) و(ح) و(ع) والمطبوع: المخبر بها. وانظر ما سلف في آخر سورة النمل.

(٤) في (ح) والمطبوع: على قدمه. وفي (ت): على قدرته. والمثبت من (يه).

(٥) قوله: المبين فأضافها إلى الكتاب. من (ت) و(يه).

(٦) من قوله: على يديه... إلى هنا ساقط من (ع).

(٧) هو قول الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٦٤، ونقله عنه البيضاوي. قال الشهاب في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٦٢: جَعْلُ الحرف مفعولاً لا يوافق القواعد النحوية، فإما أن يكون هذا ميلاً مع المعنى، أو يكون المراد أن مفعول «نتلو» محذوف وهو: شيئاً، ولما كان الجار والمجرور صفة له قائمة مقامه سماه مفعولاً تسمُّحاً، كما جعلوا الظرف حالاً، والحال في الحقيقة متعلَّقه.

«علا في الأرض» أي: تجبَّر واستكبرَ حتى ادَّعى الربوبيَّة والإلهيَّة. و«الأرض» أرضُ مصر، والشيعُ: الفرقُ، مَلَكَ القبط، واستعبدَ بني إسرائيل، أو[1] يشيعونه على ما يريد، أو يُشَيِّعُ بعضُهم بعضاً في طاعته، أو ناساً في بناءٍ وناساً في حَفْرٍ، وغيرِ ذلك من الحرفِ المُمْتَهَنة، ومَنْ لم يستخدمْهُ ضَرَبَ عليه الجزيةَ، أو أغرى بعضَهم ببعضٍ؛ ليكونوا له أطوعَ. والطائفةُ المستضعفةُ بنو إسرائيل[2].

والظاهر أنَّ «يَسْتَضْعِفُ» استئنافٌ يبيِّنُ حالَ بعضِ الشِّيَع، ويجوزُ أن يكونَ حالاً من ضمير «وجَعَلَ»، وأن يكون صفة لـ «شيعاً».

و«يذبِّحُ» تبيينٌ للاستضعاف وتفسير، أو في موضع الحال من ضمير «يَسْتَضْعِف»، أو في موضع الصفة لـ «طائفة».

وقرأ الجمهور: «يُذَبِّحُ» مضعَّفاً، وأبو حيوة وابنُ محيصن بفتح الياء والباء وسكون الذال[3].

«إنَّه كان من المفسدين» علَّةٌ لتجبُّره ولتذبيحِ[4] الأبناء، إذ ليس في ذلك إلَّا مجرَّد الفساد.

«ونريدُ» حكايةُ حالٍ ماضية، والجملةُ معطوفةٌ على قوله: «إنَّ فرعون» لأنَّ كلتيهما تفسيرٌ للنَّبأ، ويضعفُ أن يكون حالاً من الضمير في «يَسْتَضْعِفُ»؛ لاحتياجه إلى إضمار مبتدأ، أي: ونحن نريد. وهو ضعيفٌ، وإذا كانت حالاً فكيف يجتمعُ استضعافُ فرعونَ وإرادةُ المنَّةِ من الله، ولا يمكنُ الاقتران؟! فقيل: لمَّا كانت المنَّةُ بخلاصِهم من فرعونَ قريبةَ[5] الوقوعِ، جُعِلت إرادةُ وقوعِها كأنَّها مقارِنَةٌ لاستضعافهم.

---

(١) في (ح) و(ع): أن، وفي المطبوع: أي. والمثبت من (ت) و(يه).
(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٦٥.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.
(٤) في (ت) و(يه): وتذبيح.
(٥) في (ع) والمطبوع ومطبوع الكشاف ٣/ ١٦٥: قرينة والمثبت من (ت) و(ح) و(يه) ومخطوط الكشاف ٢/ ورقة (١٤٤).

«وأنْ نَمُنَّ» أي: بخلاصِهم من فرعون وإغراقه. «ونجعلهم أئمَّةً» أي: مقتدًى بهم في الدين والدنيا. وقال مجاهد: دعاةً إلى الخير. وقال قتادة: ولاة، كقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠][(١)]. وقال الضحَّاك: أنبياء[(٢)].

«ونَجْعَلَهم الوارثين» أي: يرثونَ فرعونَ وقومَه مِلكَهُم وما كان لهم. وعن عليّ: الوارثون: هم يوسفَ عليه السلام وولده[(٣)]. وعن قتادةَ أيضاً: ورثوا أرضَ مصر والشام[(٤)].

وقرأ الجمهور: «ونمكِّنَ» عطفاً على «نمنَّ». وقرأ الأعمش: «ولنمكِّن»[(٥)] بلام كي، أي: وأردنا ذلكَ لنمكّن، أو: ولنمكِّنَ فعلنا ذلك.

والتَّمكين: التَّوطئةُ في الأرض - هي أرضُ مصر والشام - بحيث ينفذُ أمرُهم ويتَسلَّطون على مَنْ سواهم.

وقرأ الجمهور: «ونُري» مضارع: أَرَيْنا، ونصب ما بعده، وعبد الله وحمزةُ والكسائيُّ: «ويرى» مضارع رأى ورفع ما بعده[(٦)].

وهامان وزيرُ فرعون وأحدُ رجاله، وذُكر لنباهتِه[(٧)] في قومه ومحلِّه من الكفر، ألا ترى إلى قوله له: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦].

(١) قولا مجاهد وقتادة في تفسير الثعلبي ٤/ ٥٢٠، والكشاف ٣/ ١٦٥. وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٣.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٣٤.
(٣) بعدها في (يه): ما مل. ولم أتبينها.
وأخرج ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٤١ (١٦٦٧٨) عن علي في تفسير ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: يوسف وولده.
(٤) نسبة هذا القول لقتادة انتقال بصرٍ من المؤلف رحمه الله وهو ينقل عن المحرر الوجيز. وهذا نصُّ الكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦ قال ابن عطية: والأئمة: ولاة الأمور. قاله قتادة. «ونجعلهم الوارثين» يريد أرض مصر والشام.
فقول قتادة في تفسير الأئمة بولاة الأمور، وما بعده من كلام ابن عطية.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.
(٦) قراءة حمزة والكسائي وبقية السبعة في السبعة ص٤٩٢، والتيسير ص١٧٠.
(٧) في (ت) و(يه): لتناهيه.

ومَحْذورُهم[١]: زَوالُ ملكهم وإهلاكُهم على يدي مولودٍ من بني إسرائيل[٢].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾.

إيحاءُ الله إلى أمِّ موسى إلهامٌ وقَذْفٌ في القلب، قاله ابن عباس وقتادة، أو منامٌ، قاله قوم، أو إرسالُ مَلَكٍ، قاله قطرب وقوم[٣]. وهذا هو الظاهر لقوله: «إنَّا رادوه إليك وجاعلوه من المُرْسَلين».

وأجمعوا على أنَّها لم تكن نبيَّةً، فإن كان الوحيُ بإرسالِ مَلَكٍ ـ كما هو الظاهر ـ فهو كإرساله للأقرع والأبرص والأعمى[٤]، وكما رُويَ من تكليم الملائكة للناس[٥].

والظاهرُ أنَّ هذا الإيحاءَ هو بعد الولادة، فيكون ثَمَّ جملةٌ محذوفةٌ، أي: ووضعتْ موسى أمُّه في زَمن الذَّبحِ وخافت عليه وأوحينا، و«أنْ» تفسيريَّةٌ أو مصدريَّةٌ. وقيل: كان الوحيُ قبل الولادة[٦].

(١) في المطبوع: ويحذرون. بدل: ومحذورهم.
(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٦٥.
(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٣).
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦. كما في تسليم الملائكة على عمران بن حصين، قال القرطبي في تفسيره ١٦/ ٢٣٢: فلم يكن بذلك نبيًّا. انتهى. وخبر تسليم الملائكة على عمران أخرجه أبو داود (٣٨٦٥).
(٦) هو قول مجاهد كما في النكت والعيون ٤/ ٢٣٥.

وقرأ عمرو بن عبد الواحد وعمرُ بن عبد العزيز: «أنِ ارْضِعيه» بكسر النون بعد حذف الهمزة[١] على غير قياس؛ لأنَّ القياسَ فيه نقلُ حركة الهمزة وهي الفتحةُ إلى النون، كقراءة ورش[٢].

«فإذا خِفْتِ عليه» من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يَقْتلونَ الأولاد «فألقيه في اليمِّ». قال الجنيد: إذا خفتِ حفظَه بواسطةٍ، فسلِّميه إلينا بإلقائه في البحر، واقطعي عنه[٣] شفقتَك وتدبيرَك. وزمانُ إرضاعِه ثلاثةُ أشهر أو أربعة أو ثمانية. أقوال.

واليَمُّ هنا: نيلُ مصر.

«ولا تخافي» أي: مِن غَرَقِه وضياعه، ومن التقاطِه فيقتل «ولا تحزني» لمفارقتك إيَّاه «إنَّا رادُّوه إليك» وعدٌ صادقٌ يُسَكِّنُ قلبَها، ويبشِّرُها بحياته وجعله رسولاً.

وقد تقدَّم في سورة «طه» طرفٌ من حديث التابوت ورميِه في اليَمِّ وكيفيَّةِ التقاطه، فأغنى عن إعادته. واستفصحَ الأصمعيُّ امرأةً من العرب أنشدَتْ شعراً، فقالت: أبعدَ قوله تعالى: «وأوحينا إلى أمِّ موسى» الآية فصاحةٌ، وقد جَمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[٤]؟!

«فالتقطَهُ آلُ فرعونَ» في الكلام حذفٌ تقديرُه: ففَعَلَتْ ما أُمِرَت به من إرضاعه ومن إلقائه في اليَمِّ.

واللام في «ليكونَ» للتعليل المجازيِّ، لمَّا كان مآل التقاطه وتربيتِه إلى كونهِ عدوًّا لهم وحزناً وإن كانوا لم يلتقطوهُ إلَّا للتبنِّي، وكونِهِ يكونُ حبيباً لهم، ويعبَّرُ عن هذه اللام بلام العاقبة وبلام الصيرورة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٧ لعمرو بن عبد الواحد فقط. وعمرو بن عبد الواحد لم أعرفه.
(٢) التيسير ص٣٥.
(٣) في (ت) و(ع) والمطبوع: عنك.
(٤) انظر خبر الأصمعي والأعرابية والشعر الذي قالته في النكت والعيون ٤/ ٢٣٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٤.

وقرأ الجمهور: «وحَزَناً» بفتح الحاء والزاي، وهي لغة قريش، وقرأ ابنُ وثَّاب وطلحةُ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وابنُ سعدان بضمِّ الحاء وإسكان الزاي[١].

والخاطئُ: المتعمِّد الخطأ، والمخطئ: الذي لا يتعمَّده. واحتملَ أن يكون في الكلام حذفٌ، وهو الظاهر، أي: فكان لهم عدوًّا وحزناً، أي: لأنَّهم كانوا خاطئين لم يرجعُوا إلى دينه وتعمَّدوا الجرائمَ والكفرَ بالله.

وقال المبرِّد: خاطئين على أنفسهم بالتقاطه. وقيل: بقتل أولاد بني إسرائيل. وقيل: في تربية عَدوِّهم[٢].

وأضيف الجندُ هنا وفيما قبل إلى فرعون وهامان وإن كان هامان لا جنودَ له؛ لأنَّ أمرَ الجنود لا يستقيمُ إلَّا بالمَلِكِ والوزير، إذ بالوزير تُحَصَّلُ الأموال، وبالمَلِكِ وقهره يُتوصَّلُ إلى تحصيلِها، ولا يكونُ قِوَامُ الجند إلَّا بالأموال.

وقرئ: «خاطين»[٣] بغير همز، فاحتمل أنْ يكونَ أصلُه الهمز، وحُذِفت، وهو الظاهر. وقيل: من خطا يخطو، أي: خاطين الصوابَ.

ولمَّا التقطُوه هَمُّوا بقتلِه، وخافوا أنْ يكونَ المولودَ الذي يَحْذَرون زوالَ مُلْكِهم على يديه، فألقى الله محبَّتَه في قلب آسية امرأة فرعون، ونقلوا أنَّها رأت نوراً في التابوت، وتسهَّل عليها فتحُه بعد تعسُّر فتحه على يدَي غيرها، وأنَّ بنتَ فرعون أحبَّته أيضاً؛ لبُرْئها من دائها الذي كان بها، وهو البَرَص، بإخبار مَنْ أخبر أنَّه لا يبرئُها إلَّا ريقُ إنسانٍ يوجد في تابوتٍ في البحر.

و«قُرَّةُ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو قرَّة، ويبعدُ أنْ يكونَ مبتدأً والخبر «لا تقتلوه».

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ دون ذكر ابن سعدان، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٤٩٢، والتيسير ص١٧١، وهي قراءة خلف من العشرة. النشر ٢/ ٣٤١.

(٢) في (ت): في تربيته وهو عدوهم. بدل: في تربية عدوهم.

(٣) في (ح) و(ع) و(يه) والمطبوع: خاطيين والمثبت من (ت) والكشاف ٣/ ١٦٦، وهي قراءة أبي جعفر، وقرأ حمزة وقفاً بالحذف والتسهيل. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص٢٣٩.

وتقدَّم شرحُ «قُرَّةُ» في آخر الفرقان[١]. وذُكِر أنَّها لمَّا قالت لفرعون: «قُرَّةُ عينٍ لي ولك» قال: لك لا لي[٢]. وروِيَ أنَّها قالت له: لعلَّه من قومٍ آخرين ليسَ من بني إسرائيل[٣]، وأتبَعَت النهيَ عن قتله برجائها أنْ ينفعَهم؛ لظهور مخايل الخيرِ فيه من النور الذي رأتهُ، ومن بُرْء البرص، أو يتخذوه ولداً فإنَّه أهلٌ لذلك.

«وهم لا يشعرون» جملةٌ حاليَّةٌ، أي: لا يشعرونَ أنَّه الذي يَفْسُدُ ملكُهم على يديه، قاله قتادة[٤]، أو أنَّه عدوٌّ لهم، قاله مجاهد[٥]، أو أنِّي أفعلُ ما أريدُ لا ما يريدون، قاله محمدُ بن إسحاق[٦].

والظاهر أنَّه من كلام الله تعالى، وقيل: هو من كلام امرأةِ فرعون، أي قالت ذلك لفرعون، والذينَ[٧] أشاروا بقتلهِ لا يشعرونَ بمقالتها له واستعطافِ قلبه عليه؛ لئلَّا يُغْروهُ بقتله.

وقال الزمخشريُّ: تقدير الكلام: فالتقطَهُ آلُ فرعون ليكونَ لهم عدوًّا وحَزَناً، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنَّهم على خطأ عظيمٍ في التقاطه ورجاء النَّفْع منه وتَبَنِّيه، وقوله: «إن فرعون» الآية جملةٌ اعتراضيَّةٌ واقعةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكِّدةٌ لمعنى خطئهم. انتهى[٨].

ومتى أمكنَ حملُ الكلامِ على ظاهره من غير فَصْلٍ كان أحسن.

(١) عند تفسير الآية (٧٤) منها.

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، وأبو يعلى (٢٦١٨) عن ابن عباس موقوفاً. وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٤٠) من سورة طه، ثم قال: وهو موقوف من كلام ابن عباس ﷺ، وليس فيه مرفوع إلا قليل، وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره. انتهى.

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٥.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٥.

(٦) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٧) في (ح) و(ع) و(به): والذي. بدل: والذين.

(٨) الكشاف ٣/ ١٦٧.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑪ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ ⑫ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ⑬ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ⑭﴾.

«وأصبح» أي: صارَ فارغاً من العقل، وذلك حين بلغَها أنَّه وقعَ في يد فرعون، فدهمَها أمرٌ مثلُه لا يثبتُ معه عقلٌ، لاسيما عقلُ امرأةٍ خافَتْ على ولدِها حتَّى طرحتهُ في اليمِّ رجاءَ نجاتِهِ من الذَّبحِ، هذا مع الوحي إليها أنَّ الله يردُّه إليها ويجعلُه رسولاً، ومع ذلك فطاشَ لبُّها وغلبَ عليها ما يغلبُ على البشرِ عند مفاجأة الخطبِ العظيم، ثمَّ استكانَت بعد ذلك لموعود الله.

وقرأ أحمد بن موسى عن أبي عمرو: «فواد» بالواو(١).

وقال ابن عباس: فارغاً من كلِّ شيءٍ إلا من ذِكْرِ موسى. وقال مالك: هو ذهاب العقل. وقالت فرقةٌ: فارغاً من الصبر(٢). وقال ابنُ زيد: فارغاً مِنْ وعدِ الله ووَحْيِهِ إليها، تناسَتْهُ من الهمِّ(٣). وقال أبو عبيدة: فارغاً مِنَ الحُزْنِ إذ لم يَغْرَقْ(٤). وهذا فيه بعدٌ(٥)، وتبعدُه القراءات الشواذ التي في هذه اللفظة.

وقرأ فضالةُ بن عبيد(٦) والحسنُ ويزيد بن قُطَيب وأبو زُرعة بن عمرو بن جرير:

---

(١) مختصر في شواذ القرآن ص١١١. وهي قراءة ورش من طريق الأصبهاني، وبها قرأ حمزة وقفاً، والمشهور القراءة بالهمز. النشر ١/ ٣٩٥، والبدور الزاهرة ص٢٣٩.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٧.
(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٩٨ بنحوه.
(٥) واستبعده أيضاً ابن قتيبة في غريب القرآن ص٣٢٨ فقال: وهذا من أعجب التفسير، كيف يكون فؤادها من الحزن فارغاً في وقتها ذاك والله يقول: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؟! وهل يُرْبَطُ إلا على قلب الجازع والمحزون؟ والعرب تقول للخائف والجبان: فؤاده هواء؛ لأنه لا يعي عزماً ولا صبراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].
(٦) هو أبو محمد الأنصاري الأوسي الصحابي، من أهل بيعة الرضوان، ولي الغزو لمعاوية، ثم

«فَزِعاً» بالزاي والعين المُهْمَلة من الفَزَع[1]، وهو الخوفُ والقلق.

وابنُ عباس «قرِعاً» بالقاف وكسر الراء وإسكانها[2]، من قَرِعَ رأسُه، إذا انحسرَ شعرُه، كأنَّه خلا من كلِّ شيءٍ إلَّا من ذكر موسى. وقيل: «قَرْعاً» بالسكون مصدرٌ، أي: يُقْرَعُ قَرْعاً من القارعة، وهي الهمُّ العظيم.

وقرأ بعض الصحابة: «فرغاً» بالفاء مكسورة وسكون الراء[3] والغين المنقوطة[4]، ومعناهُ ذاهباً هدراً تالفاً[5] من الهمِّ والحزن، ومنه قولُ طليحة الأسديّ في أخيه حبال:

فإنْ يكُ قتلى قد أصيبتْ نفوسُهم فلن يذهبوا فِرْغاً[6] بقتلِ حبالِ[7]

أي: بقتل حبالٍ فِرْغاً، أي: هَدَراً لا يُطْلَبُ له بثأرٍ ولا يُؤْخَذ.

وقرأ الخليلُ بن أحمد: «فُرُغاً» بضمِّ الفاء والراء[8].

«إنْ كادت لتُبدِيَ به» هي «إن» المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. وقيل: «إن» نافية، واللام بمعنى «إلّا»، وهذا قولٌ كوفيٌّ.

= ولي له قضاء الشام، توفي سنة (٥١) أو (٥٣) أو (٥٩). سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٣-١١٧.

(١) القراءة في مختصر في شواذ القرآن ص١١١ عن فضالة ويزيد وأبي زرعة، وفي المحتسب ٢/ ١٤٧ عن فضالة والحسن وأبي الهذيل ويزيد بن قطيب. ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٤ لأبي رزين وأبي العالية والضحاك وقتادة وعاصم الجحدري، ونسبها القرطبي ١٦/ ٢٣٩ لفضالة وابن السميفع وأبي العالية وابن محيصن.

(٢) هي في المحتسب ٢/ ١٤٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨ بالكسر فقط، وذكرها ابن خالويه في مختصره ص١١١ بالكسر والسكون لكن دون نسبة.

(٣) في (ح) و(ع) والمطبوع، وروح المعاني ٢٠/ ١٢٠ تبعاً لبعض نسخ البحر: الزاي. والمثبت من (ت) و(يه) والمصادر.

(٤) المحتسب ٢/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٩.

(٥) في (ت) و(ع) و(يه): بالغاً.

(٦) في (ح) و(ع): فزعاً في هذا الموضع والذي بعده. والمثبت من (ت) و(يه) والمصادر.

(٧) كذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨. وهو في العين ٤/ ٤٠٩، وتهذيب اللغة ١٨/ ١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٨، ولسان العرب (فرغ) برواية:

فإن تك أذواد أصبن ونسوةٌ

(٨) انظر العين ٤/ ٤٠٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨.

والإبداء: إظهارُ الشيء.

والظاهرُ أنَّ الضميرَ في «به» عائدٌ على موسى عليه السلام، فقيل: الباءُ زائدةٌ، أي: لتظهره. وقيل: مفعولُ «تبدي» محذوفٌ، أي: لتبدي القولَ به، أي: بسببه وأنَّه ولدها.

وقيل: الضمير في «به» للوحي، أي: لتبدي بالوحي(١).

وقال ابن عباس: كادتْ تصيحُ عند إلقائهِ في البحر: وا ابناه(٢).

وقيل: عند رؤيتها تلاطمَ الأمواج به.

«لولا أنْ ربَطْنَا على قلبها» قال قتادة: بالإيمان. وقال السُّدِّيُّ: بالعصمة(٣). وقال الصادق: باليقين. وقال ابنُ عطاء: بالوحي.

«ولتكون من المؤمنين» فعلنا ذلك، أي: المصدِّقين بوعد الله وأنَّه كائنٌ لا محالة. والربط على القلب كنايةٌ عن قرارِه واطمئنانه، شُبِّهَ بما يُرْبَطُ مخافةَ الانفلات.

وقال الزمخشريُّ: ويجوزُ وأصبح فؤادُها فارغاً من الهمِّ حين سمعتْ أنَّ فرعونَ عطفَ عليه وتبنَّاه، «إن كادت لتبدي» بأنَّه ولدُها؛ لأنَّها لَم تملك نفسَها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنَّا طأمنَّا قلبَها، وسكَّنا قلقَهُ الذي حدث به من شدَّة الفرح والابتهاج، «لتكون من المؤمنين» الواثقين بوعدِ الله، لا بتبنِّي فرعونَ وتعطُّفه. انتهى(٤).

وما ذهبَ إليه الزمخشريُّ من تجويز كونهِ فارغاً من الهمِّ إلى آخرِه خلافُ ما فهمَه المفسِّرون من الآية.

وجواب «لولا» محذوفٌ تقديره: لكادت تُبدي به، ودلَّ عليه قولُه: «إن كادت لتُبْدِي به»، وهذا شبيهٌ(٥) بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٠.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٧١.
(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وقولا قتادة والسدي أخرجهما الطبري ١٨/ ١٧٢-١٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ١٦٧.
(٥) في (ع) والمطبوع: تشبيه.

«وقالت لأخته» طمعاً منها في التعرُّف بحاله: «قُصِّيه» أي: اتَّبعي أثَرَهُ وتتبَّعي خبرَه، فروي أنَّها خرجَتْ في سكك المدينة مختفيةً، فرأتهُ عندَ قومٍ من حاشية امرأة فرعون يتطلَّبونَ له امرأةً ترضعُهُ حين لم يقبل المراضع(١). واسمُ أخته مريم، وقيل: كلثمة، وقيل: كلثوم(٢). وفي الكلام حذفٌ، أي: فقصَّت أثرَه.

«فبصُرَت به» أي: أبصرتهُ «عن جُنُبٍ» أي: عن بُعْدٍ «وهم لا يشعرون» بتطلُّبها له ولا بإبصارها.

وقيل: معنى «عن جُنُب» عن شوقٍ إليه. حكاهُ أبو عمرو بن العلاء، وقال: هي لغةُ جُذَام، يقولون: جَنُبْتُ إليك، أي: اشتقت(٣).

وقال الكرمانيّ: «جُنُب» صفةٌ لموصوفٍ محذوف، أي: عن مكان جُنُب، يريد بعيد.

وقيل: عن جانب؛ لأنَّها كانت تمشي على الشطِّ وهم لا يشعرون أنَّها تقصُّ. وقيل: لا يشعرون أنَّها أختُه. وقيل: لا يشعرون أنَّه عدوٌّ لهم، قاله مجاهد(٤).

وقرأ الجمهور: «عن جُنُب» بضمَّتين. وقرأ قتادةُ: «فبَصَرت» بفتح الصاد، وعيسى بكسرها(٥). وقرأ قتادةُ والحسن والأعرج وزيدُ بن عليّ: «عن جَنْبٍ» بفتح الجيم وسكون النون(٦)، وعن قتادة بفتحهما أيضاً، وعن الحسن بضمِّ الجيم وإسكان النون، وقرأ النعمانُ بن سالم: «عن جانب»(٧).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨.
(٢) انظر التعريف والإعلام للسهيلي ص١٣٠، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٤١.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٢.
(٤) زاد المسير ٨/ ٢٠٦.
(٥) ذكر قراءة عيسى ابن خالويه في مختصره ص١١٢.
(٦) المحتسب ٢/ ١٤٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٩ عن قتادة والحسن والأعرج، وهي في مختصر في شواذ القرآن ص١١٢ عن ابن عباس وقتادة والأعرج، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٦ لقتادة وأبي العالية وعاصم الجحدري.
(٧) قراءة النعمان في مختصر في شواذ القرآن ص١١٢، والمحتسب ٢/ ١٤٩. وانظر ترجمة النعمان بن سالم في التهذيب وفروعه.

والجَنْب والجانبُ والجنابةُ والجَنَابُ[١] بمعنًى واحد.

وقال قتادة: معنى «عن جنب» أنَّها تنظرُ إليه كأنَّها لا تريدُه[٢].

والتحريمُ هنا بمعنى المنع، أي: منعناهُ أن يرضعَ ثديَ امرأةٍ. والمَراضعُ جمع مُرْضِع، وهي المرأةُ التي تُرْضِعُ، أو جمع مَرْضَع، وهو موضعُ الرَّضاع، وهو الثديُ، أو الإرضاع[٣].

«من قبلُ» أي: من أوَّل أمره. وقيل: من قبل قصِّها أثرَه وإتيانه[٤] على مَنْ هو عندَه.

«فقالت هل أدلُّكم» أي: أرشدُكم إلى «أهل بيتٍ يكفلُونَهُ لكم وهم له ناصحون» لكونِهم فيهم شفقةٌ ورحمةٌ لمن يكفلونَه وحسنُ تربيةٍ، ودلَّ قولُه: «وحرَّمنا عليه المراضع» أنَّه عُرِض عليه جملةٌ من المُرْضِعات.

والظاهرُ أنَّ الضميرَ في «له» عائدٌ على موسى، قيل: ويحتملُ أنْ يعودَ على المَلِك الذي كان الطفلُ في ظاهر أمرِه مِنْ جملته. وقال ابن جريج: تأوَّلَ القومُ أنَّ الضميرَ للطفل، فقالوا لها: إنَّك قد عرفتيه، فأخبرينا مَنْ هو؟ فقالت: ما أردت إلَّا أنَّهم ناصحون للملك، فتخلَّصت منهم بهذا التأويل[٥].

وفي الكلام حذفٌ تقديرُه: فمرَّت بهم إلى أمِّه، فكلَّموها في إرضاعه، أو فجاءت بأمِّه إليهم فكلَّموها في شأنه، فأرضعتهُ، فالتقمَ ثديَها. ويُروى أنَّ فرعونَ قال لها: ما سببُ قَبول هذا الطفلِ ثديَك وقد أَبى كلَّ ثديٍ، فقالت: إنِّي امرأةٌ طيبةُ الريح، طيِّبةُ اللبن، لا أوتى بصبيٍّ إلَّا قبلَني، فدفعَه إليها، وذهبت به إلى بيتها، وأجرى لها كلَّ يومٍ ديناراً. وجاز لها أخذُه؛ لأنَّه مالُ حربيٍّ، فهو مباحٌ، وليس ذلك أجرةَ رضاعٍ[٦].

(١) وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٦ أن أبياً وأبا مجلز قرأا: «عن جَنَابٍ».
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٩، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٧٦.
(٣) في الكشاف ٣/ ١٦٧: أو الرضاع.
(٤) في (ت): وإتيانها.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٩، وقول ابن جريج أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٩.
(٦) الكشاف ٣/ ١٦٨.

«فرددناه إلى أمِّه»، كما قال تعالى: «إنَّا رادُّوه إليك».

ودمعُ الفرحِ باردٌ، وعينُ المهمومِ حرَّى سُخْنةٌ[١]، وقال أبو تمام:

فأمَّا عيونُ العاشقين فأُسْخِنَتْ وأمَّا عيونُ الشامتينَ فقرَّتِ[٢]

ولمَّا أنجزَ تعالى وعدَه في الردِّ ثبتَ عندها أنَّه سيكونُ نبيًّا رسولاً[٣].

«ولتعلمَ أنَّ وعدَ الله حقٌّ» فعلنا ذلك و«لا يعلمون» أي: أنَّ وعدَ الله حقٌّ، فهم مرتابون فيه، أو لا يعلمون أنَّ الردَّ إنَّما كان لعلمِها بصدقِ وعد الله، «ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون» بأنَّ الردَّ كان لذلك.

وفي قوله: «ولتعلم أنَّ وعدَ الله حقٌّ» دلالةٌ على ضعف مَنْ ذهبَ إلى أنَّ الإيحاءَ إليها كان إلهاماً أو مناماً؛ لأنَّ ذلك يبعدُ أن يقالَ فيه وعدٌ[٤]، وقوله: «ولتعلمَ» وقوعَ ذلك فهو علمُ مشاهدةٍ، إذ كانت عالمةً أنَّ ذلك سيكونُ.

و«أكثرهم» هم القبط، و«لا يعلمونَ» سرَّ القضاء. وقال الضحاك: لا يعلمونَ مصالحَهم وصلاحَ عواقبِهم. وقال الضحَّاك أيضاً ومقاتل: لا يعلمونَ أنَّ الله وعدَها ردَّهُ إليها.

وتقدَّم تفسيرُ «ولما بلغ أشدَّه» إلى «المحسنين» في سورة يوسفَ عليه السلام [الآية: ٢٢].

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٩.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٧٤) من سورة الفرقان.
(٣) الكشاف ٣/ ١٦٨.
(٤) انظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٩.

أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

المدينةُ قال ابن عباس: هي مُنْف[1]، ركبَ فرعونُ يوماً وسار إليها، فعلمَ موسى عليه السلام بركوبه، فلحقَ بتلكَ المدينة في وقت القائلة[2]، وعنه: بينَ العشاء والعتمة[3].

وقال ابن إسحاق: المدينةُ: مصر بنفسها، وكان موسى قد بدتْ منه مجاهرةٌ لفرعون وقومِه بما يكرهون، فاختفى وخافَ، فدخلها متنكِّراً حذراً متغفِّلاً للناس[4].

وقال ابنُ زيد: كان فرعون قد أخرجَهُ من المدينة، فغابَ عنها سنين فنُسِيَ، فجاء والناسُ في غفلةٍ بنسيانهم له وبُعْدِ عهدهم به[5].

وقيل: كان يوم عيدٍ، وهم مشغولون[6] بلهوهم.

وقيل: خرجَ من قصرِ فرعون ودخل مصرَ.

وقيل: المدينةُ عين شمس[7].

(١) كذا ضبطت في (ح)، وقال الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٦٧: هي بضم الميم، وفتحُها ـ وإن ذكره بعضهم ـ لا يوثقُ به، والنون ساكنة، وهي ممنوعة من الصرف، والمعروف فيها منوف بالواو. انتهى. قلت: والفتح هو قول ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٢١٣، قال: بالفتح ثم السكون وفاء، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ.

(٢) هذا الذي ذكره عن ابن عباس هو قول السدي، كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، وتفسير الطبري ١٨/ ١٨٣، وفي آخر قول السدي عند ابن عطية قولُ ابن عباس وهو في تحديد وقت دخول موسى المدينة بوقت القائلة. فتوهم المصنف أن القول من أوله منسوب لابن عباس. وأخرج الطبري ١٨/ ١٨٥ عن ابن عباس ﵄ قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: نصف النهار.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٨٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٨٤-١٨٥.

(٦) في (ت) والكشاف ٣/ ١٦٨: مشتغلون.

(٧) هو قول الضحاك، كما في النكت والعيون ٤/ ٢٤١.

وقيل: قريةٌ على فرسخَين من مصر، يقال لها: حابين[(١)].

وقيل: الإسكندرية.

وقرأ أبو طالب القارئ: «على حينَ غفلةٍ»[(٢)] بنصب نون «حين»، ووجهُه أنَّه أجريَ المصدرُ مُجْرَى الفعل، كأنَّه قال: على حينَ غفل أهلُها، فبناهُ كما بناهُ حين أضيفَ إلى الجملة المصدَّرَةِ بفعلٍ ماضٍ، كقوله:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا[(٣)]

وهذا توجيهُ شذوذ.

وقرأ نعيمُ بن ميسرة: «يَقَتِّلان» بإدغام التاء في التاء، ونقل فتحتها إلى القاف[(٤)].

قيل: كانا يقتتلان في الدِّين، إذ أحدُهما إسرائيليٌّ مؤمنٌ والآخرُ قبطيٌّ كافر[(٥)]. وقيل: يقتتلان في أنْ كُلِّفَ القبطيُّ حملَ الحطبِ إلى مطبخ فرعون على ظهر الإسرئيليّ[(٦)].

و«يقتتلان» صفةٌ لـ «رجلين». وقال ابنُ عطية: «يقتتلان» في موضع الحال. انتهى[(٧)].

---

(١) في (ت): جابين. وفي تفسير الثعلبي ٤/ ٥٢٧: خانين. ونسبه الثعلبي لمقاتل. وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته ٧/ ٦٧: وحابين، بحاءٍ مهملة وباء موحدة في النسخ، (يعني نسخ البيضاوي) وهي وعين شمس أسماء بلدتين من نواحي مصر.

(٢) مختصر في شواذ القرآن ص١١٢.

(٣) صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزه:

فقلت ألمَّا تَصْحُ والشيبُ وازعُ

وهو في ديوان النابغة ص٣٢ (طبعة دار المعارف)، والكتاب ٢/ ٣٣٠. وسلف الشطر الأول منه عند تفسير الآية (٦) من سورة البقرة، وسلف بتمامه عند تفسير الآية (٥) من سورة هود.

(٤) مختصر في شواذ القرآن ص١١٢ من رواية نعيم بن ميسرة عن أبي عمرو.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٨ عن ابن إسحاق.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ من حكاية ابن سلام.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

والحال من النكرة أجازَهُ سيبويهِ من غيرِ شرطٍ[١].

«هذا من شيعته» أي: ممَّن شايعَهُ على دينِه، وهو الإسرائيليّ. قيل: وهو السامري «وهذا من عدوِّه» أي: من القبط. وقيل: اسمه قانون[٢].

«وهذا» حكايةُ حالٍ، وقد كانا حاضرَين حالةَ وجدان موسى لهما، ولحكاية الحال عبَّر عن غائبٍ ماضٍ[٣] باسم الإشارة الذي هو موضوعٌ للحاضر. وقال المبرد: العربُ تشيرُ بـ «هذا» إلى الغائب، قال جرير:

هذا ابنُ عمِّي في دمشقَ خليفةً   لو شئتُ ساقَكُم إليَّ قَطِينا[٤]

وقرأ الجمهور: «فاستغاثه» أي: طلب غَوْثَه ونَصْرَه على القبطيِّ. وقرأ سيبويه وابنُ مقسم والزعفرانيُّ بالعين المهملة والنون بدل الثاء[٥]، أي: طلب منه الإعانةَ على القبطيِّ. قال أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة: والاختيارُ قراءةُ ابنِ مقسم؛ لأنَّ الإعانةَ أولى في هذا الباب. وقال ابنُ عطيَّة: ذكرَها الأخفشُ، وهي تصحيفٌ لا قراءة. انتهى[٦].

وليست تصحيفاً، فقد نقلَها ابنُ خالويه عن سيبويه، وابنُ جبارة عن ابنِ مقسم والزعفرانيّ[٧].

ورويَ أنَّه لمَّا اشتدَّ التناكرُ بينهما، قال القبطيُّ لموسى: لقد هممتُ أنْ أحملَه عليك ـ يعني الحطب ـ فاشتدَّ غضبُ موسى، وكان قد أوتيَ قوَّةً، فوكزَه فمات[٨].

---

(١) الكتاب ٢/ ٥٢ و١١٢.
(٢) كذا في النسخ الخطية، وتفسير الثعلبي ٤/ ٥٢٨، وفي المطبوع والكشاف ٣/ ١٦٨: فاتون.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.
(٤) ديوان جرير ١/ ٣٨٨. قال شارحه: القطين: الرقيق، والقطين: الحشم، والقطين: أهل الدار، والقطين: السكان.
(٥) ذكرها ابن خالويه في مختصره ص١١٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٦٨ عن سيبويه.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.
(٧) قال السمين في الدر المصون ٨/ ٦٥٧: نسبة التصحيف إلى هؤلاء غير محمودة، كما أن تعاليَ الهذليّ (يعني ابن جبارة) في اختيار الشاذ غيرُ محمود.
(٨) انظر تفسير الثعلبي ٤/ ٥٢٨.

وقرأ عبد الله: «فلكزه» باللام(١)، وعنه: «فنكزه» بالنون(٢).

قال قتادة: وكزَه بعصاه(٣). وغيرُه قال: بجُمْعِ كفِّه(٤).

والظاهرُ أنَّ فاعل «فقضى» ضميرٌ عائدٌ على «موسى»، وقيل: يعودُ على الله، أي: فقضى اللهُ عليه بالموت، ويحتملُ أنْ يعودَ على المصدرِ المفهوم من «وكزه» أي: فقضى الوكزُ عليه.

وكان موسى لم يتعمَّد قتله، ولكن وافقَتْ وكزتُه الأجلَ، فندمَ موسى(٥). ورويَ أنَّه دفنَه في الرمل، و«قال: هذا من عملِ الشيطان» وهو ما لحقَه من الغضب حتَّى أدَّى إلى الوكزة التي قَضَتْ على القبطيِّ، وجعلَهُ من عمل الشيطان وسمَّاه ظلماً لنفسه واستغفرَ منه؛ لأنَّه أدَّى إلى قتلِ مَنْ لم يُؤذَنْ له في قتله. وعن ابن جريج: ليسَ لنبيٍّ أنْ يقتلَ ما لم يُؤْمر(٦).

وقال كعب: كان موسى إذ ذاك ابن اثنتي عشرةَ سنةً، وكان قتلُه خطأً، فإنَّ الوَكْزةَ في الغالب لا تقتلُ. وقال النَّقَّاش: كان هذا قبلَ النبوَّة(٧).

وقد انتهجَ موسى عليه السلام نهجَ آدم عليه السلام، إذ قال: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

والباءُ في «بما أنْعَمْتَ» للقَسَم، والتقدير: أُقْسِمُ بما أنعمتَ به عليَّ من المغفرةِ، والجوابُ محذوفٌ، أي: لأتوبنَّ فلن أكون، أو متعلِّقَةٌ بمحذوفٍ تقديره: اعصمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة، فلن أكون إنْ عصمتني ظهيراً للمجرمين(٨).

---

(١) مختصر في شواذ القرآن ص١١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، والكشاف ٣/ ١٦٨.
(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ٥٢٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.
(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢.
(٤) هو قول مجاهد، أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.
(٦) الكشاف ٣/ ١٦٩، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٩١.
(٧) قولا كعب والنقاش في تفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٨.
(٨) الكشاف ٣/ ١٦٩.

وقيل: «فلن أكون» دعاءٌ لا خبر، و«لن» بمعنى «لا» في الدعاء. والصحيح أنَّ «لن» لا تكونُ في الدعاء، وقد اسْتُدِلَّ على أنَّ «لن» تكون في الدعاء بهذه الآية، وبقول الشاعر:

لَـنْ تَـزالـوا كَـذاكُـم ثـمَّ لا زِلْـ ـتَ لـهـم خـالـداً خـلـودَ الـجـبـالِ[١]

والمظاهرةُ إمَّا بصحبتِه لفرعون وانتظامِه في جملته وتكثيرِ سوادِه، حيث كان يركبُ بركوبه، كالولد مع الوالد، وكان يسمَّى ابنَ فرعون، وإما أنَّه أدَّت المظاهرةُ إلى القتل الذي جَرى على يده[٢]. وقيل: «بما أنعمتَ» عليَّ من القوَّة[٣] فلن أستعملَها إلَّا في مظاهرةِ أوليائك، ولا أدعُ قبطيًّا يغلبُ إسرائيليًّا.

واحتجَّ أهلُ العلم بهذه الآية على منعِ معونةِ أهلِ الظُّلم وخدمتهم، نصَّ على ذلك عطاءُ بن أبي رباح وغيرُه. وقال رجلٌ لعطاء: إنَّ أخي يضربُ[٤] بقلمِه، ولا يعدو رزقَه، قال: فمَنِ الرأسُ؟ يعني: مَنْ يكتب له؟ قال: خالد بن عبد الله القَسْريّ. قال: فأين قولُ موسى؟ وتلا الآية[٥].

«فأصبح في المدينة خائفاً» أي: من قتل[٦] القبطيِّ أن يُؤخَذَ به «يترقَّبُ» وقوعَ المكروه به، أو الإخبارَ، هل وَقفوا على ما كانَ منه. وقيل: خائفاً من الله، يترقَّبُ المغفرةَ. وقيل: «خائفاً يترقَّبُ» نُصْرَةَ ربِّه، أويترقَّبُ هدايةَ قومِه، أو ينتظرُ أنْ يُسْلِمَهُ قومُه.

«فإذا الذي استنصرَهُ بالأمس» أي: الإسرائيليُّ الذي كانَ قتلَ القبطيَّ بسببه.

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٣.
وقال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٦٥٨: وليس فيهما (يعني الآية وبيت الشعر) دلالةٌ ظاهرةٌ لظهور النفي فيهما من غير تقدير دعاء، وإن كان في البيت أقوى.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٩.

(٣) في (ح) و(ع) والمطبوع: النبوة. والمثبت موافق لما في الكشاف ٣/ ١٦٩.

(٤) في (يه): يكتب. وموضعها في (ت) بياض.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩. والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٦ (١٦٧٧٦). وخالد بن عبد الله القسري هو الأمير أبو الهيثم، أمير العراقين لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد، توفي سنة (١٢٦هـ). انظر أخباره في سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢٥-٤٣٢.

(٦) في المطبوع: قبل. وليست في (ع) و(يه) والمثبت من (ت) و(ح).

و«إذا» هنا للمفاجأة، و«بالأمس» يعني اليومَ الذي قبلَ يوم الاستصراخ، وهو مُعْرَبٌ، فحركةُ سينِه حركةُ إعراب؛ لأنَّهُ دخلتهُ «أل» بخلاف حاله إذا عريَ منها، فالحجاز تبنيهِ إذا كانَ معرفةً، وتميمٌ تمنعُهُ الصرفَ حالةَ الرفعِ فقط، ومنهم من يمنعُه الصرفَ مطلقاً، وقد يُبْنَى مع «ال» على سبيل الندور، قال الشاعر[1]:

وإنِّي حُبِسْتُ اليومَ والأمسِ قبلَهُ ... إلى الشمس[2] حتَّى كادتِ الشمسُ تَغْرُبُ[3]

«يستصرخُه» يَصيحُ به مستغيثاً مِنْ قبطيٍّ آخر، ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ... كانَ الصُّراخُ لهُ قرعَ الظَّنابيبِ[4]

«قال له موسى» الظاهرُ أنَّ الضميرَ في «له» عائدٌ على «الذي».

«إنَّك لغويٌّ مبين» لكونِكَ كنتَ سبباً في قتل القبطيِّ بالأمس، قال له ذلك على سبيل العتاب والتأنيب. وقيل: الضميرُ في «له» والخطابُ للقبطيِّ، ودلَّ عليه قولهُ: «يَستصرِخُهُ»، ولم يفهمِ الإسرائيليُّ أنَّ الخطابَ للقبطيِّ[5].

«فلمَّا أن أرادَ أن يَبْطِشَ» الظاهرُ أنَّ الضميرَ في «أرادَ» و«يَبْطِشَ» هو لموسى. «بالذي هو عدوٌّ لهما» أي: للمستصرِخِ وموسى، وهو القبطيُّ، تَوهَّمَ الإسرائيليُّ أنَّ قولَه: «إنَّك لغويٌّ مبينٌ» هو على سبيل إرادة السوء به، وظنَّ أنَّه يسطو عليه «قال» أي: الإسرائيليُّ: «يا موسى أتريدُ أنْ تقتلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس» دفعاً لمَا ظنَّه من سَطْوِ موسى عليه، وكان تعيين القاتلِ[6] للقبطيِّ قد خفيَ على الناس، فانتشرَ في

(١) في (ت): في قول. بدل: قال الشاعر.
(٢) في (يه) والمطبوع: الليل. بدل: الشمس.
(٣) البيت لنصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٦٢، وفي الخصائص ١/ ٣٩٤ و٣/ ٥٧، والإنصاف ١/ ٣٢٠. وعجزه في الخصائص والإنصاف:
ببابك حتى كادت الشمس تغرب
(٤) هو لسلامة بن جندل، ديوانه ص١٢٥. قال شارحه: قال الأصمعي: ضرب لهذا الأمر ظنبوبه، إذا هو جدَّ فيه. فأراد أن يقول: ساقاً، فقال: ظنبوباً. والظنبوب: الساق. ويقال: عظم الساق.
(٥) هو قول ابن عباس، كما في النكت والعيون ٤/ ٢٤٣، ونسبه القرطبي ١٦/ ٢٥٢ للحسن.
(٦) في (ع) والمطبوع: القائل.

المدينةِ أنَّ قاتلَ القبطيِّ هو موسى[١]، ونُميَ ذلك إلى فرعون، فأمرَ بقتلِ موسى.

وقيل: الضميرُ في «أراد» و«يبطشَ» للإسرائيليّ، فنهاهُ موسى عن ذلك بعد أن قال له: «إنَّك لغويٌّ مبين» ففزع الإسرائيليُّ[٢] عند ذلك من موسى، وخاطبَه بما يَقْبُح.

و«أنْ» بعد «لمَّا» يطَّردُ زيادتُها، وقبلَ[٣] «لو» إذا سبقَ قسمٌ، كقوله:

فأُقْسِمُ أنْ لو التقينا وأنْتُمُ لكانَ لَكُم يومٌ من الشرِّ مُظْلِمُ[٤]

وقرأ الجمهور: «يَبْطِشَ» بكسر الطاء، والحسن وأبو جعفر بضمِّها[٥].

«إن تريدُ إلَّا أن تكونَ جَبَّاراً في الأرض» وشأنُ الجبَّار أنْ يقتلَ بغيرِ حقٍّ. وقال الشعبيُّ: مَنْ قتلَ رجلين فهو جبَّارٌ[٦]، يعني بغيرِ حقٍّ. ولمَّا أثبتَ له الجبروتيَّة نَفى عنه الصَّلاح.

«وجاء رجلٌ من أقصى المدينة» قيل: هو مؤمنُ آل فرعون، وكان ابنَ عمِّ فرعون[٧]. قال الكلبيُّ: واسمُه جبريل بن شمعون[٨]. وقال الضحَّاك: شمعون بن إسحاق. وقيل: هو غيرُ مؤمنِ آل فرعون. «يَسْعى» يشتدُّ في مشيهِ.

(١) في هذا السياق اختصار مخل، وسياق الخبر في زاد المسير ٦/ ٢١٠ أنهم لم يعلموا من قاتل القبطي، إلَّا أنهم أتوا إلى فرعون فقالوا: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً منَّا، فخذ لنا بحقنا، فقال: أبغوني قاتله ومَن يشهد عليه لآخذ لكم حقكم، فبينما هم يطوفون ولا يدرون مَن القاتل، وقعت هذه الخصومة بين الإسرائيلي والقبطي في اليوم الثاني، فلما قال الإسرائيلي لموسى: «أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس»، انطلق القبطي إلى فرعون فأخبره أن موسى هو الذي قتل الرجل، فأمر بقتل موسى.

(٢) من قوله: فنهاه موسى... إلى هنا. من (ت) و(يه).

(٣) في (ت) و(ع) والمطبوع: قيل. بدل: قبل. وهو تحريف.

(٤) سلف عند تفسير الآية (٣١) من سورة الرعد.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨١، وقراءة أبي جعفر ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢٧٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨١. وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٨/ ١٩٧.

(٧) الكشاف ٣/ ١٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٤/ ٢٤٤: حزقيل بن شمعون.

ولـمَّا أمرَ فرعونُ بقتلِه، خرج الجلاوزةُ من الشارع الأعظم لطلبه، فسلك هذا الرجلُ طريقاً أقربَ إلى موسى[(١)].

و«مِنْ أقصى المدينة» و«يسعى» صفتان، ويجوزُ أن يكونَ «يسعى» حالاً، ويجوز أنْ يتعلَّق «مِنْ أقصى» بـ «جاء».

قال الزمخشريُّ: وإذا جعل - يعني «من أقصى» - صلةً[(٢)] لـ «جاء»، لم يجز في «يسعى» إلَّا الوصفُ. انتهى.

يعني أنَّ «رجلاً» يكونُ نكرةً لم توصف، فلا يجوز منها الحالُ، وقد أجازَ ذلك سيبويه في «كتابه» من غيرِ وصفٍ[(٣)].

«قال إنَّ الملأ» وهم وجوهُ أهل دولةِ فرعون «يأتمرون» يتشاورونَ، قال الشاعر، وهو النَّمِرُ بن تَوْلب:

أرى الناسَ قد أحدثُوا شيمةً   وفي كلِّ حادثةٍ يُؤْتَمَرْ[(٤)]

وقال ابنُ قتيبة: يأمرُ بعضُهم بعضاً بقوله، من قوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾[(٥)] [الطلاق: ٦].

«فاخرج إنِّي لك من الناصحين» و«لك» متعلِّقٌ إمَّا بمحذوفٍ، أي: ناصحٌ لك من الناصحين، أو بمحذوفٍ على جهة البيان، أي: لك أعني، أو بـ «الناصحين»،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٢.
(٢) في (ح) و(ع) والمطبوع: حالاً. والمثبت من (ت) و(يه) والكشاف ٣/ ١٦٩.
(٣) الكتاب ٢/ ٥٢ و١١٢، وسلف عند تفسير الآية (١٥) من هذه السورة.
(٤) ديوان النمر بن تولب ص٦٤ (طبعة دار صادر)، ومجاز القرآن ٢/ ١٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٢.
(٥) كذا ذكره المصنف عن ابن قتيبة، وتابعه السمين في الدر المصون ٨/ ٦٦١، والصواب أنه قول الزجاج، كما في معاني القرآن له ٤/ ١٣٨، وقولا ابن قتيبة والزجاج في زاد المسير ٦/ ٢١١، في ثلاثة أقوال. وهذا نص زاد المسير: «يأتمرون بك» ثلاثة أقوال: أحدها: يتشاورون فيك ليقتلوك، قاله أبو عبيدة. والثاني: يهمون بك، قاله ابن قتيبة. والثالث: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، قاله الزجاج. انتهى، فنسب المصنف قول الزجاج لابن قتيبة؟! وانظر قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص٣٣١.

وإن كان في صلة «ال»؛ لأنَّه يُتَسامحُ في الظرف والمجرورِ مالا يُتَسامَحُ في غيرهما، وهي ثلاثةُ أقوالٍ للنحويين فيما أشبه هذا.

فامتثلَ موسى ما أمرَهُ به ذلك الرجلُ وعلمَ صدقَهُ ونصحَهُ، وخرجَ وقد أفلت[1] طالبيهِ فلم يجدوهُ، وكان موسى لا يعرفُ ذلك الطريقَ، ولم يصحبْ أحداً، فسلكَ مَجْهَلاً واثقاً بالله تعالى، داعياً راغباً إلى ربِّه في تنجيتِه من الظالمين.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ
مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا
خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى
ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ
ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى
ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ
نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

«تَوجُّهَ» ردَّ وَجْهَهُ و«تلقاء» تقدَّمَ الكلامُ عليه في «يونس»[2]، أي: ناحية وَجْهِه، استعملَ المصدرَ استعمال الظرف، وكان هناك ثلاثُ طرقٍ، فأخذَ موسى في أوسطها، وأخذَ طالبوه في الآخرَين، وقالوا: المريبُ لا يأخذُ في أعظم الطُّرُق، ولا يسلكُ إلَّا بُنَيَّاتِها، فبقي في الطريق ثماني ليالٍ، وهو حافٍ لا يَطْعَمُ إلَّا ورقَ الشجر.

والظاهرُ من قوله: «عسى ربي أن يهديني سواءَ السبيل» أنَّه كان لا يعرفُ

(١) في (ح): فات: بدل: أفلت.
(٢) عند تفسير الآية (١٥) منها.

الطريقَ، فسأل ربَّه أنْ يهديَه أقصدَ الطُّرقِ، بحيثُ إنَّه لا يضلُّ، إذ لو سلكَ ما لا يوصلُه إلى المقصود لتاهَ. وعن ابن عباس: قصدَ مدينَ وأخذَ يمشي من غير معرفةٍ، فأوصَلَه اللهُ إلى مدين[١]. وقيل: هداه جبريل عليه السلام إلى مدين. وقيل: مَلَكٌ غيره. وقيل: أخذ طريقاً يأمنُ فيه، فاتفقَ ذهابُه إلى مدين.

والظاهرُ أنَّ «سواءَ السبيل» وسطُ الطريق الذي يسلكُه إلى مكان مأمنِه. وقال مجاهد: «سواء السبيل» طريق مدين. وقال الحسن: هو سبيلُ الهدى[٢].

فمشى موسى عليه السلام إلى أنْ وصلَ إلى مدين، ولم تكن في طاعة فرعون.

«ولما وردَ ماء مدين» أي وصلَ إليه، والورود يكونُ بمعنى الوصول إلى الشيء وبمعنى الدخول فيه. قيل: وكان هذا الماء بئراً. والأمَّةُ: الجمعُ الكثيرُ، ومعنى «عليه» أي: على شفيره وحاشيته. «يسقون» يعني مواشيهم.

«ووجد من دونهم» أي: من الجهة التي وصلَ إليها قبل أن يصل إلى الأُمَّة، فهما من دونهم بالإضافة إليه. قاله ابن عطية[٣]. وقال الزمخشريُّ: في مكان أسفلَ من مكانهم[٤].

«تذودان» قال ابنُ عباس وغيره: تذودان غنمَهما عن الماء خوفاً من السُّقاةِ الأقوياء. وقال قتادة: تذودان الناسَ عن غنمهما[٥]. قال الزجَّاج: وكأنَّهما تكرهانِ المزاحمةَ على الماء[٦]. وقيل: لئلَّا تختلطَ غنمُهما بأغنامهم. وقيل: تذودان عن وجوهِما نظرَ الناظر لتستُّرِهما[٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٠، وأخرج نحوه الطبري ١٨/ ٢٠٣.
(٢) قولا مجاهد والحسن أخرجهما الطبري ١٨/ ٢٠٥.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.
(٤) الكشاف ٣/ ١٧٠.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣، وقولا ابن عباس وقتادة أخرجهما الطبري ١٨/ ٢٠٨-٢٠٩.
(٦) ذكره الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ١٧٠ دون نسبة، ولم أقف على هذا النص في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٩، ونص كلامه فيه: أي تذودان غنمهما عن أن يقرب الماء، لأنها يطردها عن الماء من هو على السقي أقوى منهما.
(٧) الكشاف ٣/ ١٧٠.

وقال الفرَّاء: تحبسانها عن أن تتفرَّق[١].

واسمُ الصغرى: عبرا، واسمُ الكبرى: صبورا[٢].

ولمَّا رآهما موسى عليه السلام واقفتين[٣] لا تتقدَّمان للسقي، سألَهُما فقال: «ما خطبُكما»؟ قال ابن عطية: والسؤال بالخَطْبِ إنَّما هو في مصابٍ أو مضطهد، أو مَنْ يُشْفَقُ عليه، أو يأتي بمنكرٍ من الأمر[٤]. قال الزمخشريُّ: وحقيقته: ما مخطُوبُكما، أي: ما مطلوبكما مِن الذياد؟ سُمِّيَ المخطوبُ خطباً، كما سُمِّي المَشْؤون[٥] شأناً في قولك: ما شأنك؟ يقال: شأنْتُ شأنه، أي: قَصَدْتُ قصده. انتهى.

وفي سؤاله عليه الصلاة والسلام دليلٌ على جواز مكالمةِ الأجنبيَّة فيما يَعِنُّ.

ولم يكن لأبيهما أجيرٌ، فكانتا تسوقان الغنم إلى الماء، ولم تكن لهما قوَّةُ الاستقاءِ، وكان الرعاةُ يستقونَ من البئر، فيسقونَ مواشيهم، فإذا صدروا، فإن بقيَ في الحوض شيءٌ سقتا، فوافى موسى عليه السلام ذلك اليوم، وهما يمنعانِ غنمهما عن الماء، فرقَّ عليهما، وقال: «ما خطبكما».

وقرأ شمر بكسر الخاء، أي: من زوجكما، ولم لا يستقي[٦] هو؟ وهذه قراءةٌ شاذَّةٌ نادرةٌ.

«قالتا لا نسقي» وقرأ ابنُ مصرِّف: «لا نُسْقَى» بضم النون[٧].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٥.
(٢) وقيل في اسميهما غير ذلك، وفيه خلاف لا طائل من ذكره، فانظره إن شئت في تفسير الثعلبي ٤/ ٥٣٤، والنكت والعيون ٤/ ٢٤٧-٢٤٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٠، وروح المعاني ٢٠/ ١٤٣.
(٣) من هنا خرم في (ح) ينتهي في تفسير الآية (٦٤) من هذه السورة.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.
(٥) في (ع) والمطبوع ومطبوع الكشاف ٣/ ١٧٠: الشؤون. والمثبت من (ت) و(يه) ومخطوط الكشاف ٢/ ورقة (١٤٧).
(٦) في (ع): تسقي. وفي المطبوع: يسقي.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢١٢ لابن مسعود وأبي الجوزاء وابن يعمر وابن السميفع.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسنُ وقتادة والعربيَّان: «يَصْدُرَ» بفتح الياء وضم الدال[١]، أي: يَصْدُرونَ بأغنامهم، وباقي السبعة والأعرج وطلحة والأعمش وابن أبي إسحاق وعيسى بضمِّ الياء وكسر الدال، أي: يُصْدِرونَ أغنامَهُم[٢].

وقرأ الجمهور: «الرِّعاء» بكسر الراء جمع تكسير. قال الزمخشريُّ: وأما «الرِّعاء» بالكسر فقياسٌ، كصِيام وقيام. انتهى[٣]. وليس بقياسٍ؛ لأنَّه جمعُ راعٍ، وقياسُ «فاعل» الصفة التي للعاقل أنْ يُكَسَّر على فُعَلَة كقاضٍ وقضاة، وما سوى جمعِه هذا فليس بقياسٍ.

وقرئ: «الرُّعاء» بضمِّ الراء[٤]، وهو اسمُ جمعٍ، كالرُّخال والثُّناء[٥]. قال أبو الفضل الرازيّ: وقرأ عبَّاس[٦] عن أبي عمرو: «الرَّعاء» بفتح الراء، وهو مصدرٌ أقيم مُقامَ الصفة، فاستوى لفظُ الواحد والجماعة فيه، وقد يجوزُ أنَّه حُذِفَ منه المضاف.

«وأبونا شيخٌ كبيرٌ» اعتذارٌ لموسى عن مباشرتهما السقيَ بأنفسهما، وتنبيهٌ على أنَّ أباهما لا يقدرُ على السقي لشِيْخِهِ وكِبَرِه، واستعطافٌ لموسى في إعانتهما.

«فسقى لهما» أي: سقى غنمَهما لأجلهما.

ورُوِي أنَّ الرعاةَ كانوا يضعونَ على رأس البئرِ حجراً لا يقلُّهُ إلَّا عددٌ من الرجال، واضطربَ النقلُ في العدد، فأقلُّ ما قالوا سبعة، وأكثره مئة، فأقلَّهُ وحدَه.

---

(١) القراءة عن المذكورين ـ عدا شيبة ـ في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣، وقراءة العربيان أبي عمرو وابن عامر في السبعة ص٤٩٢، والتيسير ص١٧١، وعنهما وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٤١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣-٢٨٤. وانظر التعليق السابق.

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٠.

(٤) مختصر في شواذ القرآن ص١١٢ عن بعضهم، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢١٢-٢١٣ لعكرمة وسعيد بن جبير وابن يعمر وعاصم الجحدري.

(٥) الرُّخال: جمع رِخل، وهو الأنثى من ولد الضأن، ويجمع أيضاً على: رِخال وأرخُل. والثُّناء جمع ثِني، يقال: ناقةٌ ثِنيٌ إذا ولدت اثنين. لسان العرب (رخل)، (ثني).

(٦) في (ت): ابن عباس، وفي (ع) والمطبوع: عياش. والمثبت من (يه). وهو عباس بن الفضل قرأ القرآن وجوده على أبي عمرو، توفي سنة (١٨٦هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٣٣٧-٣٣٨.

وقيل: كانت لهم دلوٌ لا ينزعُ بها إلّا أربعون، فنزعَ بها وحدَه. ورويَ أنَّه زاحمَهم على الماء حتَّى سقَى لهما، كلُّ ذلك رغبةً في الثواب[١]، على ما كان به من نَصَبِ السفر وكثرةِ الجوع، حتى كانت تظهرُ الخضرةُ في بطنِه من البقل[٢]. وقيل: إنَّه مشى حتَّى سقطَ أصله[٣]، وهو باطنُ القدم، ومع ذلك أغاثَهما وكفاهما أمرَ السقي.

وقد طابقَ جوابهما لسؤاله، سألهما عن سببِ الذَّود، فأجاباه بأنَّا امرأتانِ ضعيفتانِ مستورتان، لا نقدرُ على مزاحمةِ الرجال، فنؤخِّرُ السقيَ إلى فراغهم. ومباشرتُهما ذلك ليس بمحظورٍ، وعادةُ العربِ وأهلِ البدو في ذلك غيرُ عادةِ أهل الحضر والأعاجم، لاسيما إذا دَعَت إلى ذلك ضرورةٌ[٤].

«ثم تولَّى إلى الظل» قال ابنُ مسعود: ظلّ شجرةٍ[٥]، قيل: كانت سَمُرة[٦]. وقيل: إلى ظلِّ جدارٍ لا سقفَ له. وقيل: جعلَ ظهرَهُ يلي ما كان يلي وجهه من الشمس.

«قال ربِّ إنِّي لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير» قال المفسِّرون: تعرَّض لما يَطْعَمُه، لما نالَهُ من الجوع، ولم يصرِّح بالسؤال. و«أَنْزَلْتَ» هنا بمعنى: تُنَزِّلُ. وقال الزمخشريُّ: وعُدِّيَ باللام «فقير»[٧]؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى سائلٍ وطالبٍ، ويحتملُ أن يريد: إنيِّ فقيرٌ من الدنيا لأجلِ ما أنزلتَ إليَّ من خير الدين، وهو النجاةُ من الظالمين؛ لأنَّه كان عند فرعونَ في مُلْكٍ وثروةٍ، قال ذلك رضاً بالبدلِ السنيِّ وفرحاً به وشكراً له[٨]. وقال الحسن: سأل الزيادةَ في العلم والحكمة.

---

(١) هذه الرواية والروايتان التي قبلها في الكشاف ٣/ ١٧٠.
(٢) أخرجه الطبري ١٨/٢١٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦١ (١٦٨٠٩) من قول ابن عباس ﷺ.
(٣) في (ت) لظله. وفي (ع): أظله. وفي (يه): أطله. وعبارة المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤: حتى سقط قدمه. انتهى. قلت: والإطلُ: الخاصرة. ولكنه يتنافى مع ما شرحه به المصنف من أنه باطن القدم.
(٤) الكشاف ٣/ ١٧١.
(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٢١٥.
(٦) هو قول السدي، أخرجه عنه الطبري ١٨/ ٢١٤. والسمرة: شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها بَرَمَةٌ صفراءُ يأكلها الناس. اللسان (سمر).
(٧) من هنا سقط في (يه) ينتهي ص٣٦ من هذا الجزء.
(٨) الكشاف ٣/ ١٧١.

«فجاءته إحداهما تمشي على استحياء» في الكلام حذف، والتقدير: فذهبتا إلى أبيهما من غير إبطاءٍ في السقي، وقصَّتا عليه أمرَ الذي سقى لهما، فأمرَ إحداهُما أن تدعوه له.

«فجاءته إحداهما» قرأ ابنُ محيصن: «فجاءتهُ حْدَاهُما» بحذف الهمزةِ تخفيفاً[(١)] على غيرِ قياس، مثل: وَيْلُمِّهِ. في ويلُ أُمِّه، ويا با فلان. والقياسُ أن يجعل بين بين. و«إحداهما» مبهمٌ، فقيل: الكبرى. وقيل: كانتا توأمتين، ولدتِ الأولى قبلَ الأخرى بنصف نهار[(٢)].

و«على استحياءٍ» في موضع الحال، أي: مستحييةً متخفِّرة. قال عمر بن الخطاب: قد سترتْ وجهَها بكمِّ دِرْعِها[(٣)].

والجمهورُ على أنَّ الداعي أباهما هو شعيبٌ عليه السلام، وهما ابنتاه. وقال الحسن: هو ابنُ أخي شعيب، واسمه مروان[(٤)]. وقال أبو عبيدة: هارون[(٥)]. وقيل: هو رجلٌ صالحٌ ليسَ من شعيبٍ بنسب وقيل: كان عمُّهما صاحبَ الغنم، وهو المزوِّج، عبَّرت[(٦)] عنه بالأب إذ كان بمثابته[(٧)].

«ليجزيَكَ أجرَ ما سقيتَ لنا» في ذلك ما كان عليه شعيبٌ من الإحسان والمكافأةِ لمن عَمِلَ له عملاً، وإن لم يقصد العاملُ[(٨)] المكافأةَ.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٥٠.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ عن النقاش.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤. وأخرجه الطبري ١٨/ ٢١٨.

(٤) كذا في (ت) و(ع) والمطبوع. وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤: ثروان.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤، وقول أبي عبيدة أخرجه الطبري ١٨/ ٢٢٣، وفيهما: يثرون. بدل: هارون.
وأبو عبيدة هو عامر بن عبد الله بن مسعود الهذلي. انظر ترجمته في تهذيب الكمال ١٤/ ٦١.

(٦) في (ت): عبر.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤. وقال الإمام الطبري في تفسيره ١٨/ ٢٢٤: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجبُ حجَّتُه.

(٨) في (ع) والمطبوع: العالم.

«فلمَّا جاءَهُ» أي: فذهبَ معها إلى أبيها، وفي هذا دليلٌ على اعتماد إخبارِ المرأة؛ إذ ذهبَ معها موسى، كما يُعْتَمدُ على إخبارها في باب الرواية.

«وقصَّ عليه القصص» أي: ما جرى له مِنْ خروجِه من مصر وسببِ ذلك، «قالَ لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين» أي: قبلَ الله دعاءك في قولك: «ربِّ نجِّني من القوم الظالمين» أو أخبرَهُ بنجاتِه منهم، آنسه[1] بقوله: «لا تخف»، وقرَّب إليه طعاماً، فقال له موسى: إنَّا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ ديننا بملءِ الأرضِ ذهباً، فقال له شعيب: ليس هذا عِوَضَ السقي، ولكن عادتي وعادةُ آبائي قِرَى الضيف وإطعامُ الطعام، فحينئذٍ أكلَ موسى عليه السلام[2].

«قالت إحداهما» أبهمَ القائلة، وقيل[3]: هي الذاهبةُ والقائلةُ والمتزوِّجة «يا أبتِ استأجرهُ» أي: لرعي الغنم وسقيها، ووصفتهُ بالقوَّة؛ لكونهِ رَفَعَ الصخرةَ عن البئر وحدَه، وانتزعَ بتلك الدلو[4]، وزاحمَهم حتَّى غلبَهم على الماء، وبالأمانةِ، لأنَّها حينَ قام يتبعُها هبَّتِ الريحُ، فلفَّت ثيابها، فوصفتها، فقال: ارجعي خلفي ودُلِّيني على الطريق.

وقولُها كلامٌ حكيمٌ جامعٌ؛ لأنَّه إذا اجتمعت الكفايةُ والأمانةُ في القائم بأمرٍ، فقد تمَّ المقصودُ، وهو كلامٌ جرى مجرى المثلِ، وصارَ مطروقاً للناس، وكان ذلك تعليلاً للاستئجار، وكأنَّها قالت: استأجره لأمانته وقوَّته، وصار الوصفان منبِّهين عليه، ونظيرُ هذا التركيب قول الشاعر[5]:

ألا إنَّ خيرَ النَّاسِ حيًّا وهالكاً   أَسيرُ ثقيفٍ عندَهُم في السلاسِلِ

جعلَ «خير من استأجرت» الاسم اعتناءً به[6]، وحَكَمت عليه بالقوَّة والأمانة،

---

(١) في المطبوع: فآنسه.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٠.
(٣) لفظ: قيل. من (ت).
(٤) بعدها في (ت): وحده.
(٥) هو أبو الشَّغب العبسيّ، قاله في خالد بن عبد الله القسري، وكان سجيناً في يد يوسف بن عمر الثقفي والي العراق. شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١٩٦.
(٦) انظر الكشاف ٣/ ١٧٢.

ولمَّا وصفتهُ بهذين الوصفين قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا؟ فذكرت إقلالَه الحجرَ وحدَهُ، وتحرُّجَهُ من النظر إليها حينَ وصفتها الريح، وقاله ابنُ عباس وقتادةُ وابنُ زيد وغيرهم[١].

وقيل: قال لها موسى ابتداءً: كوني ورائي، فإنِّي رجلٌ لا أنظر إلى أدبار النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً. وقال ابن مسعود: أفرسُ الناس ثلاثة: بنتُ شعيب، وصاحبُ يوسف في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر في عمر[٢].

وفي قولها: «استأجِرْهُ» دليلٌ على مشروعيَّةِ الإجارة عندهم، وكذا كانت في كلِّ ملَّةٍ، وهي من ضرورة الناس ومصلحةِ الخلطةِ، خلافاً لابن عُلَيَّة والأصمّ، حيث كانا لا يجيزانها[٣]، وهذا ممَّا انعقدَ عليه الإجماع، وخلافُهما خرقٌ[٤].

«قال إنِّي أُريدُ أنْ أنكِحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتين» رغبَ شعيبٌ في مُصاهرته لمَا وصفتهُ به، ولمَا رأى فيه مِنْ عزوفه عن الدنيا، وتعلُّقه بالله، وفرارِه من الكَفَرَة.

وقرأ ورش وأحمدُ بن موسى عن أبي عمرو: «أن انكحكَ» بحذف الهمزة ونقل حركتها، وأحمدُ بن موسى عن أبي عمرو «انكحك حْدى» بحذف الهمزة[٥].

وظاهرُ قوله: «أنْ أُنْكِحك» أنَّ الإنكاحَ إلى الوليِّ[٦]، لا حقَّ للمرأةِ فيه، خلافاً

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥. لكن أقوالهم المخرجة في تفسير الطبري ١٨/ ٢٢٥، ٢٢٨ تدل على أنه أمرها ابتداء بالسير خلفه. أما خبر وصف الريح لها فأخرجه الطبري ١٨/ ٢٢٦-٢٢٧، عن عبد الرحمن بن أبي نُعم وشريح.

(٢) الكشاف ٣/ ١٧٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦١، وليس فيه ذكر قول ابن علية. وانظر بداية المجتهد ٢/ ٢٢٠ (طبعة دار المعرفة).

(٤) بعدها في (ت): له، وهنا نهاية السقط في (يه).

(٥) اضطربت النسخ في هذه العبارة، فوقع في (ع): وقرأ ورش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو: «أنكحك حدى ابنتيَّ» بحذف الهمزة.
وفي (ت): وقرأ ورش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو: «انكحك حدى» بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى النون. والمثبت من (يه).
وانظر القراءة في مختصر ابن خالويه ص١١٢.

(٦) في (ت): النكاح للولي.

لأبي حنيفة[١] في بعض صوره بأنْ تكونَ بالغةً عالمةً بمصالحِ نفسها، فإنَّها تعقدُ على نفسها بمحضرٍ من الشهود.

وفيه دليلٌ على عرضِ الوليِّ وليَّته على الزوج، وقد فعلَ ذلكَ عمر، ودليلٌ على تزويج ابنتِه البكرِ مِنْ غيرِ استئمار، وبه قال مالكٌ والشافعيُّ، وقال أبو حنيفة: إذا بلغتِ البكرُ، فلا تُزَوَّجُ إلَّا برضاها[٢].

قيل: وفيه دليلٌ على قول من قال: لا ينعقدُ إلَّا بلفظ التزويج أو الإنكاح، وبه قال ربيعة والشافعيُّ[٣] وأبو ثور وأبو عبيد وداود.

و«إحدى ابنتيَّ» مبهمٌ، وهذا عرضٌ لا عقد، ألا ترى إلى قوله: «إني أريدُ»، وحينَ العقدِ يعيِّنُ مَنْ شاءَ منهما، وكذلك لم يحدَّ أولُ أمدِ الإجارة، والظاهرُ من الآيةِ جوازُ النكاحِ بالإجارة، وبه قال الشافعيُّ وأصحابُه وابنُ حبيب[٤].

وقال الزمخشريُّ: «هاتين» فيه دليلٌ على أنَّه كانت له غيرهما. انتهى[٥]. ولا دليلَ في ذلك؛ لأنَّهما كانتا هما اللتين رآهما تذودان، وجاءته إحداهما، فأشار إليهما، والإشارةُ إليهما لا تدُل على أنَّ له غيرهما.

«على أنْ تأجُرَني» في موضع الحال من ضمير «أُنْكِحَك» إمَّا الفاعل وإمَّا المفعول و«تأجرني» من أَجَرْتُه؛ كنتَ له أجيراً، كقولكَ: أبوته، كنتَ له أباً، ومفعولُ «تأجرني» الثاني محذوفٌ، تقديره: نفسَك، و«ثمانيَ حِجَج» ظرفٌ. وقاله أبو البقاء[٦].

وقال الزمخشريُّ: «ثماني حجج» مفعولٌ به، ومعناه: رعية ثماني حجج[٧].

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦١.
(٢) تفسير القرطبي ٦/ ٢٦١.
(٣) لكن الشافعية لم يستدلوا بهذه الآية؛ لأنها من شرع من قبلنا، ولم يحتجوا به. انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦١.
(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٤.
(٥) الكشاف ٣/ ١٧٢.
(٦) الإملاء ٢/ ١٧٧.
(٧) الكشاف ٣/ ١٧٢.

«فإن أتممتَ عشراً فمن عندك» أي: تبرُّعٌ وتفضُّلٌ لا اشتراط. «وما أريدُ أن أشقَّ عليك» بإلزام أتمِّ[١] الأجلين ولا في المعاشرة، والمناقشةُ في مراعاةِ الأوقات وتكليفِ الرُّعاةِ أشياءَ من الخِدَمِ خارجةٌ عن الشَّرط.

«ستجدني إن شاءَ اللهُ من الصالحين» وَعْدٌ صادقٌ مقرونٌ بالمشيئة «من الصالحين» في حُسْنِ المعاملةِ ووَطاءةِ الخُلُق، أو «من الصالحين» على العموم، فيدخلُ تحتَه حسنُ المعاملة[٢].

ولمَّا فرغَ شعيبٌ مما حاورَ به موسى، قال موسى: «ذلك بيني وبينك» على جهة التقرير والتوثُّقِ في أنَّ الشرطَ إنَّما وقعَ في ثماني حجج[٣]. و«ذلك» مبتدأ خبرُه «بيني وبينك» أشار[٤] إلى ما عاهدَهُ عليه، أي: ذلك الذي عاهدتني وشارطتني قائمٌ بيننا جميعاً، لا نخرجُ عنه، ثم قال: «أيَّما الأجلين» أي: الثماني أو العشر «فلا عدوانَ عليَّ» أي: لا يُعْتَدى عليَّ في طلب الزيادة. و«أيما»[٥] شرطٌ، و«ما» زائدة. وقرأ الحسن والعباسُ بن الفضل عن أبي عمرو. «أيما» بحذف الياء الثانية[٦]، كما قال الشاعر:

تنظَّرْتُ نصراً والسِّماكينِ أَيْهُما عليَّ من الغيثِ استهلَّتْ مَواطِرُه[٧]

وقرأ عبد الله: «أيَّ الأجلينِ ما قضيت»[٨] بزيادة «ما» بينَ «الأجلين» و«قضيت».

---

(١) في (ع) والمطبوع: أيم.
(٢) الكشاف ٣/ ١٧٣.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥.
(٤) في (ع) والمطبوع: إشارة.
(٥) في (ع) والمطبوع: أي.
(٦) هي عن الحسن في المحتسب ٢/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥، وعن العباس عن أبي عمرو في مختصر في شواذ القرآن ص١١٢.
(٧) هو للفرزدق يمدح نصر بن سيار، ديوانه ١/ ٢٨١. قوله: تنظَّرت بمعنى: انتظرت، والسماكان: كوكبان أحدهما أعزل والآخر رامح، وهما من الأنواء. واستهلَّ بمعنى: انصبَّ. والمواطر: جمع ماطرة، وهي السحابة. يعني أنه انتظر الممدوح وجوده وأحدَ الأنواء الماطرة، ولم يفرق بينها. حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٧٢.
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥، والكشاف ٣/ ١٧٤.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت ما الفرقُ بين موقعي «ما» المزيدة في القراءتين؟ قلت: وقَعَتْ في المستفيضةِ مؤكِّدَةً لإبهام «أي»، زائدةً في شياعها، وفي الشاذِّ تأكيداً للقضاء، كأنَّه قال: أيَّ الأجلين صمَّمتُ على قضائه، وجرَّدتُ عزيمتي له[1].

وقرأ أبو حيوة وابن قطيب: «فلا عِدْوان» بكسر العين[2].

قال المبرد: قد عَلِم أنَّه لا عدوانَ عليه في أتمِّهما، ولكن جمعَهما ليجعلَ الأوَّل كالأتمِّ في الوفاء.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: تصوُّرُ العدوان إنَّما هو في أحدِ الأجلين الذي هو الأقصر، وهو المطالبةُ بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوانِ بهما جميعاً؟ قلت معناه: كما أنِّي إن طُولبت بالزيادةِ على العشر كان عدواناً لا شكَّ فيه، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثماني، أراد بذلك تقرير الخيار، وأنه ثابتٌ مستقرٌّ، وأنَّ الأجلينِ على السواء، إمَّا هذا وإمَّا هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء، وأما التتمَّةُ فموكولةٌ إلى رأيي، إن شئتُ أتيتُ بها وإلَّا لم أجبر عليها. وقيل: معناه: فلا أكونُ متعدِّياً، وهو في نفي العدوان عن نفسه كقولك: لا إثمَ عليَّ ولا تبعة. انتهى[4]. وجوابُه الأوَّلُ فيه تكثيرٌ.

«واللهُ على ما نَقُولُ» أي: على ما تعاهدنا عليه وتوافقنا[5] «وكيلٌ» أي: شاهد. وقال قتادة: حفيظ. وقال ابن شجرة: رقيب[6]. والوكيل: الذي وُكِلَ إليه الأمرُ[7]، فلمَّا ضُمِّنَ معنى شاهد ونحوِه عُدِّيَ بـ «على».

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٤.

(٢) هي عن أبي حيوة في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥، وعن ابن قطيب في مختصر ابن خالويه ص١١٢، والكشاف ٣/ ١٧٤.

(٣) قوله: فإن قلت. من (ت).

(٤) الكشاف ٣/ ١٧٤.

(٥) في (ع) والمطبوع: وتواثقنا.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٤٩.

(٧) الكشاف ٣/ ١٧٤.

«فلما قَضى موسى الأجلَ» جاء عن النبي ﷺ أنَّه وَفَّى أطولَ الأجلين، وهو العشر[١]. وعن مجاهد: وفى عشراً وعشراً بعدها. وهذا ضعيف[٢].

«وسار بأهله» أي: نحوَ مصر بلدِهِ وبلدِ قومِه. والخلافُ فيمن تزوَّجَ، الكبرى أم الصغرى؟ وكذلك في اسمها؟ وتقدَّم كيفيَّةُ مسيره وإيناسِهِ النار في سورة طه وغيرها.

وقرأ الجمهور: «جذوة» بكسر الجيم، والأعمش وطلحة وأبو حيوة وحمزة بضمِّها، وعاصم غير[٣] الجعفي بفتحها[٤].

«لعلكم تصطلون» أي تتسخنون[٥] بها، إذ كانت ليلةً باردةً وقد أضلُّوا الطريقَ.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

«مِن» في «من شاطئ» لابتداء الغاية، و«من الشجرة» كذلك، إذ هي بدلٌ مِنَ الأولى، أي: من قبل الشجرة. و«الأيمن» يحتمل أن يكون صفةً للشاطئ وللوادي، على معنى اليمن والبركة، أو الأيمن يريد المعادل للعضو الأيسر،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٣٦، ٢٣٧، وتوسع الإمام ابن كثير في طرقه في تفسيره لهذه الآية ورأى أن بعضها يعضد بعضاً.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٣٧.
(٣) في (ت): عن.
(٤) القراءة عن حمزة وعاصم وجمهور السبعة في السبعة ص٤٩٣، والتيسير ص١٧١.
(٥) في (ت): تسجرون. وفي (يه): تنسحبون. والمثبت من (ع) والمطبوع.

فيكونُ ذلكَ بالنسبة إلى موسى لا للشاطئ ولا للوادي، أي: أيمن موسى في استقباله حين[١] يهبطُ الوادي، أو بعكس ذلك، وكلُّ هذه الأقوال في «الأيمن» مقولٌ.

وقرأ الأشهبُ العقيليُّ ومسلمة: «في البَقعة» بفتح الباء[٢] قال أبو زيد: سمعتُ من العرب: هذه بَقعةٌ طيبةٌ، بفتح الباء[٣].

ووصِفَتِ البقعةُ بالبركة لمَا خُصَّت به من آيات الله وأنوارِه وتكليمه لموسى عليه السلام[٤]، أو لمَا حَوَت من الأرزاق والثمارِ الطيِّبة، ويتعلَّق «في البقعة» بـ «نودي» أو يكون في موضع الحال من «شاطئ». والشجرة عُنَّابٌ أو عُلَّيق أو سَمُرة أو عَوْسَجُ. أقوالٌ[٥].

و«أن» يحتمل أنْ تكونَ حرفَ تفسيرٍ، وأن تكونَ مخفَّفةً من الثقيلة. وقرأت فرقةٌ: «أنِّي أنا» بفتح الهمزة[٦]. وفي إعرابه إشكالٌ؛ لأنَّ «أن» إن كانت تفسيريَّةً فينبغي كسرُ «إني» وإن كانت مصدريَّةً ـ وهي المخففةُ من الثقيلة ـ فاسمُها المحذوفُ ضمير الشأن و«أني» المفتوحة الهمزة[٧] تتقدَّرُ بالمفرد، والمفردُ لا يكونُ خبراً لضميرِ الشأن، فتخريجُ هذه القراءة على أنْ تكونَ «أن» تفسيريَّةً، و«أنِّي» معمولٌ لمضمرٍ تقديره: أي[٨] يا موسى اعْلَمْ أنِّي أنا الله.

وجاء في «طه»: ﴿نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [الآية: ١١-١٢]، وفي «النمل»: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الآية: ٨] وهنا «نودي من شاطئ»، ولا منافاةَ؛

---

(١) في (ت) و(ع) والمطبوع: حتى.
(٢) مختصر في شواذ القرآن ص١١٢.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٤.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧. وذكر الدكتور أحمد الخراط في تعليقه على الدر المصون ٨/ ٦٧٠ أن الصفراوي في «التقريب» نسبها لابن كثير من طريق الطرسوسي عن شبل عنه.
(٧) من قوله: وهي المخففة من... إلى هنا من (ت) و(يه).
(٨) في (ع) والمطبوع: اني، وفي الدر المصون ٨/ ٦٧٠: أن. والمثبت من (ت) و(يه)، وأصل روح المعاني، وغيره محققه ٢٠/ ١٧٤ إلى مثل ما في الدر المصون.

إذ حكى في كلِّ سورةٍ بعضَ ما اشتملَ عليه ذلك النداءُ[١].

والجمهورُ على أنَّه تعالى كلَّمه في هذا المقام مِنْ غيرِ واسطةٍ. وقال الحسن: ناداهُ نداءَ الوحي لا نداء الكلام[٢].

وتقدَّمَ الكلامُ على نظير قوله: «وأنْ ألقِ عصاكَ فلمَّا رآها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ ولَّى مدبراً ولم يعقِّب»، ثمَّ أمرَهُ فقال: «اسلكْ يدكَ في جيبك» أي: أدخل يدك في جيبك[٣]، وهو فتح الجبَّة من حيث يخرجُ الرأس، وكان كُم الجبَّةِ في غاية الضيق[٤].

وتقدَّمَ الكلامُ على «تَخرُج بيضاءَ من غير سوء».

وفُسِّرَ الجناحُ هنا باليد، وبالعَضُد، وبالعِطَاف، وبما أسفل[٥] العَضُد إلى الرُّسُغ، وبجيبِ مِدْرَعتِه. و«الرَّهَبُ» الخوفُ، وتأتي القراءات فيه. وقيل: بفتح الرَّاء والهاء: الكمُّ بلغة بني حنيفة وحمير، وسَمعَ الأصمعيُّ قائلاً يقول: أعطني ما في رَهَبِك، أي: في كمِّك[٦].

والظاهرُ حملُ «واضمم إليكَ جناحَكَ من الرَّهَب» على الحقيقة. قال الثوري: خافَ موسى أنْ يكونَ حَدَث به سوءٌ، فأمرَهُ تعالى أنْ يُعيدَ يدَهُ إلى جيبه لتعودَ إلى حالتها الأولى، فيعلم موسى أنَّه لم يكن سوءاً، بل آيةً من الله.

وقال مجاهد وابن زيد: أمرَهُ بضمِّ عضُدِه وذراعِه ـ وهو الجناح ـ إلى جنبِه، ليخفَّ بذلك فزعُه، ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقتِ فزعه أنْ يقوى قلبُه[٧].

وقيل: لمَّا انقلبت العصا حيَّةً فزعَ موسى واضطربَ، فاتَّقاها بيدِه كما يفعلُ

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٤٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٤٥. قال الإمام الآلوسي في روح المعاني ٢٠/ ١٧٥: ولم يرتضِ ذلك العلماءُ الأعلام؛ لما فيه من مخالفة الظاهر، وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء عليهم السلام.
(٣) قوله: أي أدخل يدك في جيبك. من (ت) و(يه).
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧.
(٥) بعدها في المطبوع: من.
(٦) تفسير الثعلبي ٤/ ٥٣٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٨.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧، وقولا مجاهد وابن زيد أخرجهما الطبري ١٨/ ٢٤٦.

الخائفُ من الشيء، فقيل له: أَدخل يدكَ تحتَ عضُدكَ مكان اتِّقائك بها، ثمَّ أخرجها بيضاءَ لتظهرَ معجزةٌ أخرى، وهذا القولُ بسطَهُ الزمخشريُّ؛ لأنَّه كالتكرار لقولِه: «اسلك يدك في جيبك»، وقد قال هو: والجناح هنا اليد، قال: لأنَّ يدَي الإنسان بمنزلة جناحَي الطائر، وإذا أدخلَ يدَهُ اليمنى تحت عضُده اليسرى، فقد ضمَّ جناحَهُ إليه. انتهى[١].

وقيل: المعنى: إذا هالكَ أمرٌ لما يغلبُ من شعاعِها فاضممها إليك تسكن[٢].

وقالت فرقة: هو مجازٌ، أمرَه بالعزم على ما أمرَهُ به، كما تقول العرب: اشدد حيازيمَك[٣] واربط جأشَك، أي: شمِّر في أمرِك ودع الرَّهَبَ، وذلك لمَّا كثُرَ تخوُّفُه وفزَعُه في غير موطن، قاله أبو علي[٤]، وكأنَّه طيَّرَهُ الفزعُ، وآلةُ الطيرانِ الجناح، فقيل له: اسكن ولا تخف، وضمَّ منشورَ جناحِك مِنَ الخوفِ إليك، وذكرَ هذا القولَ الزمخشريُّ، فقال: والثاني أنْ يُرَاد بضمِّ جناحِه إليه تجلُّدُه وضبطُه نفسَه وتشدُّده عندَ انقلابِ العصا حيَّةً حتى لا يضطربَ ولا يرهبَ، استعارَه مِنْ فعلِ الطائر؛ لأنَّه إذا خاف نشر جناحَيه وأرخاهُما، وإلَّا فجناحاهُ مضمومان إليه مشمَّران.

ومعنى «من الرَّهَب» من أجلِ الرهب، أي: إذا أصابَكَ الرهبُ عندَ رؤية الحيَّة فاضمم إليك جناحك، وجُعِلَ الرَّهبُ الذي كان يصيبُه سبباً وعلَّةً فيما أُمِرَ به من ضمِّ جناحه إليه، ومعنى: «واضمم إليك جناحَك» وقوله: «اسلكْ يدكَ في جيبك» على أحد التفسيرين واحدٌ، ولكن خُولِفَ بين العبارتين، وإنَّما كرَّرَ المعنى الواحدَ لاختلافِ الغرضَين، وذلك أنَّ الغرضَ في أحدهما خروجُ اليدِ بيضاء، وفي الثاني إخفاءُ الرَّهب.

فإن قلت: قد جُعِلَ الجناحُ وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً، وفي الآخر مضموماً إليه، وذلك قوله: «واضمم إليك جناحك»، ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]، فما التوفيق بينهما؟ قلت: المرادُ بالجناح المضموم هو اليدُ اليمنى، وبالمضموم إليه اليدُ اليسرى، وكلُّ واحدةٍ من يمنى اليدين ويسراهُما جناحٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٧.
(٣) الحيزوم: وسط الصدر وما يضمُّ إليه الحزام. مختار الصحاح (حزم).
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧، وانظر كلام أبي علي في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤١٥-٤١٦.

ومن بِدَعِ التفاسير أنَّ الرهبَ الكُمُّ بلغةِ حمير، وأنَّهم يقولون: أعطني ما في رَهَبِك. وليتَ شعري كيف صحَّتُه في اللغة، وهل سُمِعَ من الأثبات الثقات الذين[1] تُرْضَى عربيَّتُهم؟! ثمَّ ليتَ شعري، كيفَ موقعُهُ في الآية؟! وكيف يُطْبِقهُ[2] المِفْصَلُ كسائرِ كلماتِ التنزيل، على أنَّ موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلةَ المناجاة إلَّا زُرْمانِقَةٌ[3] مِنْ صوفٍ لا كمّي[4] لها. انتهى.

أمَّا قوله: وهل سُمِعَ من الأثبات. فهذا مرويٌّ عن الأصمعيّ، وهو ثقةٌ ثبتٌ، وأمَّا قوله: كيف موقعه من الآية. فقالوا: معناه: أخرج يدكَ من كمِّك، وكان قد أخذ العصا بالكمِّ.

وقرأ الحِرْمِيَّان وأبو عمرو: «من الرَّهَب» بفتح الراء والهاء، وحفص بفتح الرَّاء وسكون الهاء، وباقي السبعة بضمِّ الراء وإسكان الهاء[5].

وقرأ قتادة والحسن وعيسى والجحدري بضمِّهما[6].

«فذانك» إشارةٌ إلى العصا واليد، وهما مؤنَّثتان، ولكن ذُكِّرا لتذكير الخبر، كما أنَّه قد يؤنَّثُ المذكَّرُ لتأنيث الخبر، كقراءة من قرأ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٣] بالتاء في «تكن»[7].

«بُرْهانان» حُجَّتان نيِّرتان. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «فذانِّكَ» بتشديد النون وباقي السبعة بتخفيفها[8]. وقرأ ابنُ مسعود وعيسى وأبو نوفل وابنُ هرمز وشبل:

---

(١) في (ع) و(يه) والمطبوع: التي. والمثبت من (ت) والكشاف.

(٢) في (ت) والمطبوع: يطيعه. وفي الكشاف: تطبيقه.

(٣) الزرمانقة: جبة من صوف، معرَّب: أُشْتُرْبانَهْ، أي: متاع الجمال. القاموس (زرق).

(٤) كذا في النسخ الخطية، ومخطوط الكشاف ٢/(ورقة ١٤٩) ومطبوعه ٣/ ١٧٥. وفي مطبوع البحر: كمين.

(٥) السبعة ص٤٩٣، والتيسير ص١٧١. والحرميان نافع وابن كثير.

(٦) القراءة في مختصر في شواذ القرآن ص١١٢ عن عيسى بن عمر والجحدري، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧ عن الجحدري وفي زاد المسير ٦/ ٢٢٠ عن أبيِّ بن كعب والحسن وقتادة.

(٧) هي قراءة عاصم ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. انظر التيسير ص١٠١.

(٨) السبعة ص٤٩٣، والتيسير ص١٧١.

«فذانِيكَ» بياءٍ بعد النونِ المكسورة، وهي لغةُ هذيل، وقيل: بل لغةُ تميم، ورواها شبلٌ عن ابنِ كثير[(١)]، وعنه أيضاً: «فذانَيك» بفتح النون قبل الياء[(٢)]، على لغة من فتَح نونَ التثنية، نحو قوله:

على أحْوَذيَّيْنَ استقلَّت عليهما[(٣)]

وقرأ ابنُ مسعود بتشديد النون مكسورةً بعدها ياءٌ. قيل: وهي لغةُ هذيل. وقال المهدويُّ: بل لغتُهم تخفيفها[(٤)].

و«إلى فرعون» يتعلَّقُ بمحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، تقديره: اذهب إلى فرعون.

«قال ربِّ إنِّي قتلتُ منهم نفساً» هو القبطيُّ الذي وكزَهُ فماتَ، فطلب مِنْ ربِّه ما يزدادُ به قوَّة، وذكرَ أخاهُ والعلةَ التي تكون له زيادة في التبليغ. و«أفصح» يدلُّ على أنَّ فيه فصاحةً ولكن أخوه أفصح.

«فأَرْسِلْهُ معيَ ردءاً» أي: معيناً يصدِّقني، ليس المعنى أنَّه يقولُ لي: صدقت؛ إذ يستوي في قول هذا اللفظِ العييُّ والفصيحُ، وإنَّما المعنى أنَّه لزيادةِ فصاحتِه يبالغُ في التبيانِ وفي الإجابة عن الشبهات وفي جدالِه الكفَّار[(٥)].

وقرأ الجمهور: «ردءاً» بالهمز، وأبو جعفر ونافع والمدنيُّون[(٦)] بحذفِ الهمزةِ ونقلِ حركتِها إلى الدال، والمشهورُ عن أبي جعفر بالنقلِ ولا همز ولا تنوين[(٧)]، ووجهُه أنَّه أجرى الوصلَ مُجرى الوقف.

---

(١) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٤٩٣.
(٢) مختصر في شواذ القرآن ص١١٣.
(٣) في (ت): عليها. وفي المطبوع والمصادر: عشية. والبيتُ لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص٥٥ في وصف قطاة. والأحوذيُّ: الخفيف في الشيء لحذقه، وأراد الشاعر بالأحوذيين هنا جناحي قطاة، يصفهما بخفتهما. المقاصد النحوية ١/ ١٨٠ (بهامش خزانة الأدب طبعة دار صادر).
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧.
(٥) انظر الكشاف ٣/ ١٧٦.
(٦) في (ت): والداني، وفي (ع) والمطبوع: والمدنيان. والمثبت من (يه) وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٨.
(٧) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١ عن نافع. وقراءته وقراءة أبي جعفر في النشر ١/ ٤١٤ وفيه أن نافعاً وافق أبا جعفر في الوقف.

وقرأ عاصم وحمزة: «يُصَدِّقُني» بضمِّ القاف، فاحتملَ الصفة لـ «ردءاً» والحالَ، واحتملَ الاستئناف. وقرأ باقي السبعة: بالإسكان(١).

وقرأ أبيّ وزيدُ بن علي: «يصدقوني» والضميرُ لفرعونَ وقومِه، قال ابنُ خالويه: هذا شاهدٌ لمن جزمَ؛ لأنَّه لو كان رفعاً لقال: يصدقونني. انتهى(٢). والجزمُ على جوابِ الأمر، والمعنى في «يصدقوني» أرجو تصديقَهم إيَّاي، فأجابَهُ تعالى إلى طِلْبَتِه و«قال: سنشدُّ عَضُدَك بأخيك». وقرأ زيد بن عليّ والحسن: «عُضُدك» بضمتين(٣). وعن الحسن بضمِّ العين وإسكان الضاد. وعن بعضِهم بفتحِ العينِ وكسرِ الضاد وفتحها(٤) وفتحهما قرأ به عيسى(٥). ويقال فيه: عَضْد، بفتح العين وسكون الضاد، ولا أعلمُ أحداً قرأ به. والعضدُ: العضوُ المعروف، وهي قِوَامُ اليدِ، وبشدَّتها تشتدُّ، قال الشاعر:

أبني لُبينى لستما بيدٍ إلَّا يداً ليستْ لها عَضُدُ(٦)

والمعنى فيه: سنقوِّيكَ بأخيكَ، ويقال في: الخير شَدَّ اللهُ عضدَك، وفي الشرِّ: فتَّ الله في عضدك.

والسلطان: الحجَّةُ والغلبةُ والتسلُّط(٧).

«فلا يصلون إليكما» أي بسوءٍ، أو إلى إذايتكما. ويحتملُ «بآياتنا» أنْ يتعلَّقَ بقوله: «ونجعل» أو بـ «يصلون»، أو بـ «الغالبون» وإنْ كان موصولاً على مذهب من يَجوزُ عنده أنْ يتقدَّمَ الظرفُ والجارُّ والمجرور على صلة «أل» وإن كان عنده

---

(١) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١.
(٢) مختصر في شواذ القرآن ص١١٤. والقراءة فيه عن أبيّ ﷺ. وقال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٦٧٧: وهذا سهوٌ من ابن خالويه؛ لأنه متى اجتمعت نون الرفع مع نون الوقاية جازت أوجه: أحدها، الحذف، فهذا يجوز أن يكون مرفوعاً.
(٣) القراءة عن الحسن في المحتسب ٢/ ١٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٨.
(٤) لفظة: وفتحها. من (ع) و(يه). غير أن العبارة في (ع) بتقديم: وفتحهما على: وفتحها.
(٥) قراءة عيسى في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٨.
(٦) البيت لطرفة، وهو في ديوانه ص١٤٧ (طبعة مجمع اللغة العربية) وفيه وفي الكشاف ٣/ ١٧٦: لستم. بدل: لستما.
(٧) في (ت) والمطبوع: والتسليط.

موصولاً على سبيل الاتّساع، أو بفعلٍ محذوفٍ، أي: اذهبا بآياتنا، كما علق ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ [النمل: ١٢] بـ: اذهب، أو على البيان، فالعاملُ محذوفٌ. وهذه أعاريبُ منقولةٌ.

وقال(١) الزمخشريُّ: ويجوزُ أن يكونَ قسماً جوابُه: «فلا يصلون» مقدَّماً عليه، أو من لغو القسم. انتهى(٢).

أما أنَّه قسمٌ جوابُه «فلا يصلون» فإنَّه لا يستقيمُ على قول الجمهور؛ لأنَّ جوابَ القسمِ لا تدخلُه الفاء، وأمَّا قولُه: أو من لغو القسم، فكأنَّه يريدُ - والله أعلم - أنَّه لم يُذْكَر له جوابٌ، بل حذفَ للدلالة عليه، أي: بآياتِنا لتغلبنّ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

«بآياتنا» هي العصا واليد «بيِّنات» أي: واضحاتِ الدلالة على صدقِه وأنَّه أمرٌ خارقٌ معجزٌ، كفُّوا عن مقاومته ومعارضته، فرجعوا إلى البَهْتِ والكذبِ، ونسبوه إلى أنَّه سحرٌ؛ لأنَّهم يرونَ الشيء على حالةٍ، ثمَّ يرونَه على حالةٍ أخرى، ثم يعودُ إلى الحالة الأولى، فزعموا أنه سحرٌ يفتعلُه موسى ويفتريه على الله، فليس بمعجزٍ، ثمَّ مع دعواهم أنَّه سحرٌ مفترى وكذبِهم في ذلك، زادوا في الكذب أنَّهم ما سمعُوا

(١) في (ت): في. بدل: وقال.
(٢) الكشاف ٣/ ١٧٦.

بهذا في آبائهم، أي: في زمان آبائهم وأيَّامهم. و«في آبائنا» حالٌ أي: بهذا، أي[١] بمثل هذا كائناً في أيام آبائنا، وإذا نفوا السماع لمثل هذا في الزمان السابق، ثبتَ أنَّ ما ادَّعاه موسى هو بدعٌ لم يُسْبق إلى مثلِه، فدلَّ على أنَّه مُفترًى على الله، وقد كذَبوا في ذلك، وطرقَ سمعَهم أخبارُ الرسلِ السابقينَ موسى في الزمان، ألا ترى إلى قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤].

ولمَّا رأى موسى ما قابلوه به من كونِ ما أتى به سحراً وانتفاءِ سماعِ مثله في الزمان السابق «قال موسى: ربِّي أعلمُ بمن جاء بالهدى من عنده» حيثُ أهَّلَهُ للرسالة وبعثَهُ بالهدى، ووعدَهُ حُسْن العقبى، ويعني بذلك نفسَه، ولو كان كما يزعمون لم يرسله[٢].

ثمَّ نبَّه على العلَّة الموجبة لعدم الفلاح وهي الظلم؛ وضعُ الشيء غير موضعه، حيث دُعوا إلى الإيمان بالله وأُتُوا بالمعجزات، فادَّعوا الألوهيَّة، ونسبوا ذلك المُعْجِزَ إلى السحر.

و«عاقبةُ الدار» وإن كانت تصلحُ للمحمودةِ والمذمومة، فقد كثُر استعمالها في المحمودة، فإذا لم تقيَّد حُمِلَت عليها، ألا ترى إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ... جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٣]، وقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقرأ ابنُ كثير: «قال موسى» بغير واو، وباقي السبعة بالواو[٣].

ومناسبةُ قراءة الجمهور أنَّه لمَّا جاءهم بالبينات قالوا كيت وكيت، وقال موسى كيت وكيت، فيتميَّزُ الناظرُ فصلَ ما بين القولين وفسادَ أحدهما، إذ قد تقابلا، فيعلم يقيناً أنَّ قولَ موسى هو الحقُّ والهدى، ومناسبةُ قراءةِ ابن كثير أنَّه موضع جوابٍ، لمَّا قالوا كيتَ وكيت، قال موسى كيت وكيت[٤].

ونفى فرعونُ علمَه بإله غيره للملأ، ويريدُ بذلك نفيَ وجودِه، أي: ما لكم من

---

(١) قوله: بهذا أي. ليس في (يه).
(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٧٧.
(٣) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١.
(٤) انظر الكشاف ٣/ ١٧٨.

إلهٍ غيري. ويجوزُ أنْ يكون غيرَ معلومٍ عنده إلهٌ لهم، ولكنَّه مظنونٌ، فيكون النفيُ على ظاهره، ويدلُّ على ذلك قولُه: «وإنِّي لأظنُّه من الكاذبين» وهو الكاذبُ في انتفاءِ علمِه بإله غيره وفي قوله: «وإنِّي لأظنُّه»؛ لقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وإنَّما هو مباهِتٌ مُظْهِرٌ نفيَ الصانع[١]، ألا تَرى إلى قوله حالةَ غرقه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢] [يونس: ٩٠].

واستمرَّ فرعونُ في مخرَقته، ونادى وزيرَه هامان، وأمرَهُ أن يوقدَ النار على الطين، قيل: وهو أوَّلُ من عمل الآجرَّ، ولم يقل: اطبخ الآجرَّ؛ لأنَّه لم يتقدَّم لهامانَ علمٌ بذلك، ففرعونُ هو الذي يعلِّمُه ما يصنع[٣].

«فاجعل لي صَرْحاً» أي: ابنِ لي «لعلِّي أَطَّلِعُ إلى إله موسى» أوهمَ قومَه أنَّ إلهَ موسى يمكنُ الوصولُ إليه والقدرةُ عليه، وهو عالمٌ متيقِّنٌ أنَّ ذلك لا يُمكنُ له، وقومُه لغباوتهم وجهلِهم وإفراط عمايتِهم يمكنُ ذلك عندَهم، ونفسُ إقليم مصر يقتضي لأهله تصديقَهم بالمستحيلات وتأثُّرهم للموهمات والخيالات، ولا يُشَكُّ أنَّه كان في قوم فرعون مَنْ يعتقدُ أنَّه مبطلٌ في دعواه، ولكن يوافقُه مخافةَ سطوِهِ واعتدائِهِ، كما رأيناه يَعْرِضُ لكثيرٍ من العقلاء إذا حَدَّثَ رئيسٌ بحضرتِه بحديثٍ مستحيل، يوافقُه على ذلك الحديث.

ولا يدلُّ الأمرُ ببناء الصَّرح على أنَّه بُنِيَ، وقد اختُلِفَ في ذلك، فقيل: بناه، وذكرَ من وَصْفِهِ ما الله أعلمُ به. وقيل: لم يبن.

واطلع في معنى اطلع[٤]؛ يقال طلعَ إلى الجبل واطَّلع بمعنًى واحد، أي: صعد، فـ: افتعل فيه بمعنى الفعلِ المجرد.

و«بغير الحق» إذ ليس لهم ذلك، فهم مبطلونَ في استكبارهم، حيث ادَّعى الإلهيَّة ووافقوه على ذلك، والكبرياءُ في الحقيقة إنَّما هي لله.

---

(١) من قوله: وفي قوله: وإني... إلى هنا، من (ت) و(يه).
(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٧٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) كذا، ولعلها: طلع. وعبارة الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٨٠: والطلوع والاطلاع: الصعود.

وقرأ حمزة والكسائي ونافع: «لا يرجعون» مبنيًّا للفاعل والجمهور مبنيًّا للمفعول[(١)].

والأرض هنا أرضُ مصر.

«فنبذناهم في اليم» كنايةٌ عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا، شُبِّهوا بحصياتٍ قَذفها الرامي من يده، ومنه نبذُ النواة، وقول الشاعر:

نـظـرتَ إلـى عُـنْـوَانِـهِ فـنَـبَـذْتَـه كـنَبْذِكَ نَعْـلاً من نِعَـالـكَ بـالـيـا[(٢)]

وقومُ فرعونَ وفرعون وإن ساروا إلى البحر باختيارهم في طلب بني إسرائيل، فإنَّ ما ضمَّهم من القَدَرِ السابق وإغراقهم في البحر هو نبذُ اللهِ إيَّاهم[(٣)].

و«جعل» هنا بمعنى صيَّر، أي: صيَّرناهم أئمةً، أي: قدوةً للكفَّار يقتدونَ بهم في ضلالتهم، كما أنَّ للخيرِ أئمَّةً يُقْتَدى بهم اشتُهِروا بذلك، وبقيَ حديثُهم.

وقال الزمخشريُّ: «وجعلناهم»: دعوناهم أئمَّةً دعاةً إلى النار، وقلنا: إنَّهم أئمةٌ دعاةٌ إلى النار [كما يدعى خلفاءُ الحقِّ أئمَّةً دعاةً إلى الجنَّة]، وهو من قولك: جعلَهُ بخيلاً وفاسقاً، إذا دعاهُ فقال: إنَّه بخيلٌ وفاسقٌ، ويقول أهل اللغة في تفسير فَسَّقهُ وبَخَّلهُ: جعله بخيلاً وفاسقاً، ومنه قوله عز وعلا: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]. ومعنى دعوتِهم إلى النار دعوتُهم إلى موجباتها من الكفر. انتهى[(٤)].

وإنَّما فسَّر «جعلناهم» بمعنى دعوناهم، لا بمعنى: صَيَّرناهم؛ جرياً على مذهبه من الاعتزال؛ لأنَّ في تصييرهم أئمةً خَلْقُ ذلك لهم، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوِّزون ذلك مِن الله، ولا ينسبونَهُ إليه.

---

(١) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩، والبيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص١٠٦، ٢٥٨، ٤٤٥ وعجزه فيه:

كـنـبـذك نَـعْـلاً أَخْـلَـقَـتْ مـن نـعـالـكـا

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩.

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٠.

قال: ويجوزُ خذلناهم حتَّى كانوا أئمَّة الكفر، ومعنى الخذلان منعُ الألطاف، وإنَّما يَمْنَعُها مَنْ عَلِمَ أنَّه لا ينفع فيه، وهو المصمِّمُ على الكفرِ الذي لا تغني عنه الآياتُ والنذر. انتهى[١]. وهو على طريقة الاعتزال أيضاً.

«لعنةً» أي: طرداً وإبعاداً، وعطف «ويومَ القيامة» على «في هذه الدنيا».

«من المقبوحين» قال أبو عبيدة: من الهالكين[٢]. وقال ابن عباس: من المُشَوَّهين الخِلْقَةَ بسوادِ[٣] الوجوهِ وزُرْقة العيون[٤]. وقيل[٥]: من المُبْعَدين.

ولمَّا ذكرَ تعالى ما آلَ إليه فرعونُ وقومُه مِنْ غضبِ الله عليهم وإغراقه، ذكر ما امتنَّ به على رسوله موسى عليه السلام، فقال: «ولقد آتينا موسى الكتابَ»، وهو التوراة، وهو أوَّلُ كتابٍ أُنْزِلت فيه الفرائض والأحكام[٦].

«من بعد ما أهلكنا القرون الأولى» قوم نوح وهود وصالح ولوط، ويقال: لم تُهْلَك قريةٌ بعد نزولِ التوراة غيرَ القريةِ التي مُسِخَ أهلُها قردة[٧].

وانتصب «بصائر» على الحال، أي: طرائقَ هُدًى يُسْتَبصَرُ بها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ

(١) الكشاف ٣/ ١٨٠-١٨١.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٠٦. ونصه فيه: المهلكين.
(٣) في (ع) والمطبوع: لسواد.
(٤) تفسير الثعلبي ٤/ ٥٤٠، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٥.
(٥) من قوله: من المشوهين.. إلى هنا. ساقط من (يه).
(٦) هو قول يحيى بن سلام، كما في تفسير القرطبي ١٦/ ٢٨٦.
(٧) بعدها في (ت): وخنازير. والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩.

يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

لمَّا قصَّ اللهُ تعالى مِنْ أنباءِ موسى وغرائبِ ما جرى له من الحَمْلِ به في وقت ذبحِ الأبناء، ورميهِ في البحر في تابوت، وردِّه إلى أمِّه، وتبنِّي فرعونَ له، وإيتائه الحكم والعلم، وقتله القبطيَّ، وخروجِه من منشئه فارًّا، وتصاهرِهِ مع شعيبٍ، ورعيهِ لغنمِه السنينَ الطويلة، وعودِه إلى مصر، وإضلاله الطريقَ، ومناجاة الله له، وإظهار تلك المعجزتين العظيمتين على يديه، وهي العصا واليد، وأمرِه بالذهابِ إلى فرعونَ، ومحاورتهِ معه، وتكذيبِ فرعون، وإهلاكه وإهلاك قومه، والامتنانِ على موسى بإيتائه التوراةَ، وأوحى تعالى بجميعِ ذلك إلى محمدٍ رسوله ﷺ = ذكَّره بإنعامه عليه بذلك، وبما خصَّه من الغيوب التي كان لا يعلمُها لا هو ولا قومُه، فقال: «وما كنتَ بجانبِ الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمر».

و«الأمر» قيل: النبوَّةُ والحكم الذي آتاهُ الله موسى. وقيل: الأمرُ أمر محمد ﷺ إذ رأى من فضله وفضل أمَّته ما تمنَّى موسى[1] عليه السلام أنْ يكون من أمَّته، وهذا التأويلُ يلتئمُ معه ما بعدَه من قوله: «ولكنَّا أنشأنا قروناً»[2]. وقيل: «الأمرُ» هلاكُ فرعونَ بالماء.

ويحمل «بجانب الغربي» على اليمّ، وبدأ أوَّلاً بنفي شيءٍ خاصٍّ، وهو أنَّه لم يحضر وقتَ قضاءِ الله لموسى الأمر، ثم ثنَّى بكونهِ لم يكن من الشاهدين، والمعنى والله أعلم: من الشاهدين لجميع[3] ما أعلمناكَ به، فهو نفيٌ لشهادته جميعَ ما جرى لموسى، فكان عموماً بعد خصوص[4].

---

(١) من قوله: إذ رأى من فضله... إلى هنا من (يه)، وهو في (ت) لكن دون قوله: وفضل أمته.

(٢) انظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠.

(٣) في (ع) والمطبوع: بجميع.

(٤) من قوله: ثم ثنى بكونه... إلى هنا ليس في (ت).

و«بجانب الغربيّ» من إضافة الموصوفِ إلى صفته عند قوم، ومن حَذْفِ الموصوف وإقامة الصفةِ مقامَه عند قوم. فعلى القولِ الأول، أصْله: بالجانبِ الغربيِّ، وعلى الثاني أصلُه: بجانب المكان الغربي، والترجيحُ بين القولين مذكورٌ في النحو.

و«الغربيّ» قال قتادة: غربيّ الجبل[١]. وقال الحسن: بعثَ اللهُ موسى بالغربِ. وقال أبو عبيدة: حيث تغربُ الشمسُ والقمرُ والنجوم[٢]. وقيل: هناك[٣] جبل غربيّ. وقيل: الغربي من الوادي. وقيل: من البحر.

قال ابن عطية: المعنى: لم تحضُرْ يا محمدُ هذه الغيوبَ التي تُخبِرُ بها، ولكنَّها صارتْ إليك بوحينا، أي: فكان الواجبُ أنْ يسارَعَ إلى الإيمان بكَ، ولكن تطاولَ الأمرُ على القرون التي أنشأناها زمناً زمناً، فعَزَبتْ حلومُهم، واستحكمَتْ جهالتُهم وضلالتُهم[٤].

وقال الزمخشريُّ: «الغربيّ» المكانُ الواقعُ في شقِّ الغربِ، وهو المكانُ الذي وقع فيه ميقاتُ موسى مِنَ الطُّور، وكتبَ اللهُ له في الألواح. والأمرُ المقضيُّ إلى موسى الوحيُ الذي أُوحيَ إليه، والخطابُ لرسول الله ﷺ يقول: وما كنتَ حاضراً المكانَ الذي أوحينا فيه إلى موسى، ولا كنتَ من جملة الشاهدينَ للوحي إليه، أو على الوحي إليه، وهم نقباؤُه الذينَ اختارَهم للميقاتِ حتَّى تقفَ من جهة[٥] المشاهدةِ على ما جرى مِنْ أمرِ موسى في ميقاته وكِتْبةِ التوراةِ له في الألواح وغير ذلك. فإن قلت: كيف يتَّصلُ قولُه: «ولكنَّا أنشأنا قروناً» بهذا الكلام، ومِنْ أيِّ جهةٍ يكون استدراكاً له؟ قلت: اتّصالُه به وكونُه استدراكاً مِنْ حيث إنَّ معناه: ولكنَّا أنشأنا بعدَ عهدِ الوحي إلى عهدكَ قروناً كثيرةً، «فتطاولَ» على آخرِهم، وهو القرنُ الذي أنتَ فيهم «العمرُ» أي: أمدُ انقطاعِ الوحي، واندرسَتِ العلومُ، فوجبَ

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٦٠، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٢ (١٦٩٣١).
(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٠٦.
(٣) في (ت) والمطبوع: هنا.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩-٢٩٠.
(٥) في (ع) والمطبوع: جملة. وفي (يه): جهته. والمثبت من (ت) والكشاف.

إرسالُكَ إليهم، فأرسلناكَ وكَسَبْنَاكَ[1] العلمَ بقَصص الأنبياء وقصَّةِ موسى، كأنَّه قال: وما كنتَ شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنَّا أوحيناهُ إليك، فذكرَ سببَ الوحي الذي هو إطالةُ الفترة[2]، ودلَّ به على المسبِّبِ على عادة الله في اختصاره، فإذن هذا الاستدراكُ شبيهُ الاستدراكين بعدَه، «وما كنت ثاوياً» أي: مقيماً في أهل مدين، هم شعيب والمؤمنون «تتلو عليهم آياتنا» تقرأ عليهم تعلماً منهم؛ يريدُ الآياتِ التي فيها قصَّةُ شعيبٍ وقومه، ولكنَّا أرسلناكَ وأخبرناكَ بها وعلَّمناكَها، «إذ نادينا» يريدُ مناداةَ موسى ليلة المناجاة وتكليمه، ولكن علمناك رحمةً. انتهى[3].

وقيل: «فتطاولَ عليهم العمرُ» وفترتِ النبوَّةُ ودَرَستِ الشرائعُ، وحُرِّفَ كثيرٌ منها، وتمامُ الكلامِ مضمرٌ تقديره: وأرسلناكَ مجدِّداً لتلك الأخبار، مميِّزاً للحقِّ ممَّا[4] اختُلِفَ فيه منها؛ رحمةً منا.

وقيل: يحتملُ أنْ يكون المعنى: وما كنتَ من الشاهدين في ذلك الزمان، وكانت بينَك وبينَ موسى قرونٌ تطاولَت أعمارُهم، وأنت تخبرُ الآنَ عن تلك الأحوال إخبارَ مشاهدةٍ وعيانٍ بإيحائنا معجزةً لك.

وقيل: «تتلو» حال. وقيل: مستأنف، أي أنتَ الآنَ تتلو قصَّة شعيب، ولكنَّا أرسلناك رسولاً، وأنزلنَا عليك كتاباً فيه هذه الأخبارُ المنسيَّةُ تتلوها عليهم، ولولاه ما أخبرتَهم بما لم تشاهده[5].

وقال الفرَّاء: «وما كنت ثاوياً في أهل مدين» مع موسى فتراهُ وتسمعَ كلامه، وها أنتَ تتلو عليهم آياتنا، أي: على أمَّتك. فهو منقطع. انتهى.

وقيل: وإذا لم يكن حاضراً في ذلك المكان فما معنى «وما كنت من الشاهدين»؟ فقال ابن عباس: التقديرُ: لم تحضر ذلكَ الموضعَ، ولو حضرتَ

---

(١) في (ت) ومطبوع الكشاف: كسيناك. والمثبت من (ع) و(يه) ومخطوط الكشاف (٢/الورقة ١٥١).
(٢) في (ت) و(ع): الفطرة. وفي (يه): العمر. والمثبت من الكشاف.
(٣) الكشاف ٣/ ١٨١-١٨٢.
(٤) في (ت) و(ع) والمطبوع: بما. والمثبت من (يه).
(٥) في (ع) والمطبوع: يشاهدوه.

فما شاهدتَ تلك الوقائعَ، فإنَّه يجوز أنْ يكونَ هناك ولا يشهد ولا يرى.

وقال مقاتل: لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكَّةَ خبرَهم، ولكنَّا أرسلناكَ إلى أهلِ مكَّة وأنزلنا إليك هذه الأخبار، ولولا ذلكَ ما علمت.

وقال الضحاك: يقول إنَّك يا محمدُ لم تكن الرسولَ إلى أهل مدين تتلو عليهم آياتِ الكتاب، وإنَّما كان غيرُك «ولكنا كنا مرسلين» في كلِّ زمانٍ رسولاً، فأرسلنا إلى مدينَ شعيباً، وأرسلناكَ إلى العرب لتكون خاتمَ الأنبياء. انتهى[١].

وقال الطبري: «إذ نادينا» بأن ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية[٢] [الأعراف: ١٥٦]. وعن أبي هريرة أنَّه نوديَ من السماء حينئذٍ: يا أمَّةَ محمدٍ استجبتُ لكم قبل أنْ تدعوني، وغفرتُ لكم قبلَ أنْ تسألوني، فحينئذٍ قال موسى عليه السلام: اللهمَّ اجعلني من أمَّة محمد. فالمعنى «إذ نادينا» بأمرك وأخبرنا بنبوَّتِك[٣].

وقرأ الجمهور: «رحمةً» بالنصب، فقُدِّرَ: ولكن جعلناك رحمةً، وقُدِّر: أعلمناك ونبَّأناك[٤] رحمة. وقرأ عيسى وأبو حيوة بالرفع[٥]، وقُدِّرَ: ولكن هو رحمةٌ، أو: هو رحمة[٦]، أو: أنتَ رحمةٌ.

«لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير» أي: في زمن الفترة بينَك وبين عيسى، وهو خمس مئةٍ وخمسون عاماً ونحوه[٧]. وجوابُ «لولا» محذوفٌ، والمعنى: لولا أنَّهم قائلون إذا عوقبوا بما قدَّموا من الشركِ والمعاصي: هلا أرسلتَ إلينا رسولاً، محتجِّين بذلك علينا، ما أرسلنا إليهم، أي: إنَّما أرسلنا الرُّسُل إزالةً لهذا العذر،

(١) أقوال ابن عباس ومقاتل والضحاك في تفسير الرازي ٢٤/ ٢٥٧.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٦١.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠. وقول أبي هريرة ﷺ أخرجه الطبري ١٨/ ٢٦٢.
(٤) في (ع): وأنبأناك. وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠، فالكلام منه.
(٥) القراءة عن عيسى في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠، وعن أبي حيوة في مختصر في شواذ القرآن ص١١٣.
(٦) قوله: أو هو رحمة. ليس في (ت) و(يه).
(٧) كذا، والعبارة مبتورةٌ عن سياقها، وتمامها كما في الكشاف ٣/ ١٨٢ ـ والكلام منه ـ: ونحوه قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس: ٦].

كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[1] [المائدة: ١٩]، وتقديرُ الجواب: ما أرسلنا إليهم الرُّسُل: هو قول الزجاج[2].

وقال ابن عطية: تقديرُه: لعاجلناهُم بما يستحقُّونه[3].

والمصيبةُ: العذاب. ولمَّا كان أكثرُ الأعمال تزاولُ بالأيدي، عبَّر عن كلِّ عملٍ باجتراح الأيدي حتَّى عن أعمال القلوب؛ اتِّساعاً في الكلام، وتصيير الأقلِّ تابعاً للأكثر وتغليبِ الأكثرِ على الأقلّ[4].

والفاء في «فيقولوا» للعطف على «تصيبهم»، و«لولا» الثانية للتحضيض، و«فنتبع» الفاءُ فيه جوابُ التحضيض.

وقال الزمخشريُّ: فإن قلت: كيف استقامَ هذا المعنى، وقد جُعِلت العقوبةُ هي السبب في الإرسال لا القول؛ لدخولِ حرف الامتناع عليها دونه؟ قلت: القولُ هو المقصودُ بأنْ يكونَ سبباً لإرسال الرسل، ولكنَّ العقوبةَ لمَّا كانت هي السبب للقول[5]، وكان وجودُه بوجودِها، جُعلت العقوبة كأنَّها سببُ الإرسال بواسطة القول، فأدخلت عليها «لولا»، وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطيةِ معنى السببيَّة، ويَؤولُ معناها إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبةٌ لما أرسلنا، ولكن اختيرت هذه الطريقةُ لنكتةٍ، وهي أنَّهم لو لم يُعَاقبوا مثلاً على كفرهم، وقد عاينوا ما أُلجِئوا به إلى العلم اليقين؛ لم يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً، وإنَّما السببُ في قولهم هذا هو العقاب لا غير، لا التأسُّفُ على ما فاتَهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا مِن الشهادةِ القويَّة على استحكامِ كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى، كقوله ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. انتهى[6].

(١) الكشاف ٣/ ١٨٣.
(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٤٧.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠.
(٤) الكشاف ٣/ ١٨٣.
(٥) من هنا سقط طويل في النسخة (يه) ينتهي في الصفحة ٥٩.
(٦) الكشاف ٣/ ١٨٣.

و«الحقُّ» هو الرسولُ محمدٌ ﷺ جاء بالكتابِ المعجزِ الذي قَطَعَ معاذيرهم[١]. وقيل: القرآن.

«مثلَ ما أوتيَ موسى من قبل» أي: منْ قبل: الكتابُ المنزَّل جملةً واحدةً، وانقلابُ العصا حيَّةً، وفلقُ البحر، وغيرُها من الآيات، اقترحوا ذلك على سبيل التعنُّتِ والعناد، كما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: ١٢] وما أشبهَ ذلك من المقترحاتِ لهم[٢]، وهذه المقالةُ التي قالوها هي من تعليمِ اليهود لقريش، قالوا لهم: ألا يأتي بآيةٍ باهرةٍ كآيات موسى؟ فردَّ اللهُ عليهم بأنَّهم كفروا بآياتِ موسى، وقد وقعَ منهم في آياتِ موسى ما وقعَ من هؤلاءِ في آيات الرسولِ، فالضميرُ في «أولم يكفروا» لليهود. قاله ابن عطية[٣].

وقيل: قائلُ ذلك العربُ بالتعليم كما قلنا. وقيل: قائلُ ذلك اليهود. ويظهرُ عندي أنَّه عائدٌ على قريش الذين قالوا: لولا أوتي ـ أي محمدٌ ـ ما أوتي موسى، وذلك أنَّ تكذيبَهم لمحمدٍ ﷺ تكذيبٌ لموسى عليه السلام، ونسبتُهم السحرَ للرسول نسبةُ السحر لموسى؛ إذ الأنبياءُ هم من وادٍ واحد، فمن نسبَ إلى أحدٍ من الأنبياءِ ما لا يليقُ، كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياءِ، وتتناسقُ الضمائرُ كلُّها في هذا.

وفي قوله: «قل فأتوا بكتابٍ من عند الله» وإن كان الظاهر مِن القول أنَّه النطقُ اللسانيُّ؛ فقد ينطلقُ على الاعتقادِ، وهم من حيث إنكارُ النبوَّاتِ معتقدونَ[٤] أنَّ ما ظهر على أيدي الأنبياءِ من الآياتِ إنَّما هو من باب السحر.

وقال الزمخشري: «أولم يكفروا» يعني آباء[٥] جنسهم ومَنْ مذهبُهم مذهبُهم وعنادُهم عنادُهم، وهم الكفرةُ في زمنِ موسى «بما أوتي موسى» وعن الحسن: قد كان للعرب أصلٌ في أيام موسى، فمعناه على هذا: أولم يكفر آباؤهم «قالوا» في موسى وهارون: «ساحران تظاهرا» أي: تعاونا. انتهى.

و«من قبل» يحتملُ أنْ يتعلَّقَ بـ «يكفروا» وبـ «أوتي».

(١) الكشاف ٣/ ١٨٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠.
(٤) في (ت): يعتقدون.
(٥) في الكشاف ٣/ ١٨٣: أبناء. بدل: آباء.

وقرأ الجمهور: «ساحران»، قال مجاهد: موسى وهارون. وقال الحسن: موسى وعيسى. وقال ابن عباس: موسى ومحمد ﷺ. وقال الحسن أيضاً: عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام[١].

وقرأ عبدُ الله وزيدُ بن علي والكوفيُّون: «سِحْران»[٢]. قال ابنُ عباس: التوراة والقرآن. وقيل: التوراةُ والإنجيل[٣]، أو موسى وهارون جُعِلا سحرين على سبيل المبالغة.

«تظاهرا» تعاونا. قرأ الجمهور: «تظاهرا» فعلاً ماضياً، على وزن تفاعل. وقرأ طلحةُ والأعمشُ «اظَّاهرا» بهمزة الوصل وشدِّ الظاء، وكذا هي في حرف عبد الله[٤]، وأصلُه تظاهرا، فأدغم التاء في الظاء، فاجتلبت همزةُ الوصل لأجل سكون التَّاء المدغمة.

وقرأ محبوب عن الحسن ويحيى بن الحارث الذماري وأبو حيوة وأبو خلَّاد عن اليزيدي: «تَظَّاهرا» بالتاء وتشديد الظاء. قال ابن خالويه[٥]: وتشديدُه لحنٌ؛ لأنَّه فعلٌ ماضٍ، وإنَّما يُشدَّد في المضارع. وقال صاحب «اللوامح»: ولا أعرفُ وجهَه. وقال صاحب «الكامل في القراءات»: ولا معنى له. انتهى.

وله تخريجٌ في اللسان، وذلك أنَّه مضارعٌ حُذِفت منهُ النون، وقد جاء حذفُها في قليلٍ من الكلام وفي الشعر، و«ساحران» خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديره: أنتما ساحران تتظاهران، ثمَّ أُدغِمت التاءُ في الظاء، وحُذِفت النون، وروعيَ ضميرُ الخطاب. ولو قرئ: يظَّاهرا، بالياء حملاً على مراعاة «ساحران» لكان له وجهٌ، أو على تقدير: هما ساحران تظاهرا.

«وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرون» أي: بكلٍّ من الساحرين، أو السحرين.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠. وأخرج أقوالهم الطبري ١٨/ ٢٦٦-٢٦٨.

(٢) قراءة الكوفيين عاصم وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٠-٢٩١، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٢٦٨.

(٤) مختصر ابن خالويه ص١١٣. وهي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١ عن ابن مسعود وطلحة والضحاك.

(٥) في مختصره ص١١٣ ـ والقراءة فيه عن يحيى الذماري.

ثمَّ أمرَهُ تعالى[١] أنْ يصدَعَ بهذه الآية، وهي قولُه: «قل فأتوا» أي: أنتم أيُّها المكذِّبونَ بهذهِ الكتبِ التي تضمَّنت الأمرَ بالعباداتِ ومكارمِ الأخلاق، ونهَت عن الكفرِ والنقائصِ، ووعدَ الله عليها الثوابَ الجزيلَ إن كان تكذيبكم[٢] لمعنى «فأتوا بكتابٍ من عند الله» يهدي أكثرَ من هدي هذه أتَّبِعْهُ معكم.

والضميرُ في «منهما» عائدٌ على ما أنزل على موسى وعلى محمدٍ صلى الله عليهما وسلم.

وتعليق إتيانهم بشرطِ الصدقِ أمرٌ متحقِّقٌ متيقَّنٌ أنَّه لا يكون، ولا يمكنُ صدقُهم، كما أنَّه لا يمكنُ أنْ يأتوا بكتابٍ من عند الله يكونُ أهدى من الكتابين، ويجوزُ أنْ يُرَاد بالشرطِ التهكُّم بهم[٣].

وقرأ زيدُ بن علي: «أتَّبِعُه» برفع العين على الاستئناف[٤]، أي: أنا أتَّبِعُه.

«فإن لم يستجيبوا لك» قال ابنُ عباس: يريد فإن لم يؤمنوا بما جئتَ به من الحُجَج[٥]، ولم يمكنهم أن يأتوا بكتابٍ هو أفضل[٦].

والاستجابةُ تقتضي دعاءً، وهو ﷺ يدعوهم دائماً إلى الإيمان، أي[٧]: فإن لم يستجيبوا لك بعد ما وضحَ لهم مِنَ المعجزاتِ التي تضمَّنها كتابُك الذي أنزل إليك، أو يكونُ قوله: «فأتوا بكتابٍ» هو الدُّعاء، إذ هو طلبٌ منهم ودعاءٌ لهم أنْ[٨] يأتوا به، ومعلومٌ أنَّهم لا يستجيبون لأن يأتوا بكتابٍ من عند الله، فاعلم أنَّه ليس لهم إلا اتِّباعُ هوًى مجردٍ، لا اتباعُ دليلٍ. واستجابَ بمعنى أجاب ويعدَّى للداعي باللام ودونَها، كما قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [يوسف: ٣٤]. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

(١) هنا نهاية السقط في (يه).
(٢) في (ت) والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩١ ـ والكلام منه: تكذيبهم.
(٣) انظر الكشاف ٣/ ١٨٤.
(٤) ذكرها الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٧ دون نسبة.
(٥) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٦١.
(٦) هو قول مقاتل كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٢٦١.
(٧) لفظ: أي. ليس في (ت) و(يه).
(٨) في (ع) والمطبوع: بأن.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤]، وقال الشاعر:

فلم يَسْتَجِبْهُ عندَ ذاكَ مجيبُ[(١)]

فعدَّاهُ بغير لام.

وقال الزمخشريُّ: هذا الفعلُ يتعدَّى إلى الدُّعاء وإلى الداعي باللام، ويحذفُ الدُّعاءُ إذا عُدِّيَ إلى الداعي في الغالب، فيقال: استجاب اللهُ دعاءَه، واستجابَ له، فلا يكاد يقال: استجابَ له دعاءه، وأما البيتُ فمعناه: فلم يستجب دعاءَه على حذفِ المضاف[(٢)]. انتهى.

«ومن أضل» أي: لا أحدَ أضلُّ، و«بغير هدى» في موضع الحال، وهذه الحالُ قيدٌ في اتِّباعِ الهوى؛ لأنَّه قد يتَّبعُ الإنسان ما يهواهُ، ويكونُ ذلك الذي يهواهُ فيه هدًى مِن الله؛ لأنَّ الأهواءَ كلَّها تنقسمُ إلى ما يكون فيه هدًى وما لا يكون فيه هدى، فلذلك قيِّدَ بهذه الحال.

وقال الزمخشريُّ: يعني مخذولاً مخلًّى بينَه وبين هواه. انتهى[(٣)]. وهو على طريق الاعتزال.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

(١) هو لكعب بن سعد الغنوي، وسلف عند تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة.
(٢) الكشاف ٣/ ١٨٤.
(٣) الكشاف ٣/ ١٨٤.

قرأ الجمهور: «وَصَّلنا» مشدَّد الصاد، والحسنُ بتخفيفِها[١]، والضميرُ في «لهم» لقريش.

وقال رفاعة القرظيّ: نزلت في عشرةٍ من اليهود أنا أحدهم[٢].

قال الجمهور: «وصَّلنا» تابعنا القرآنَ موصولاً بعضُه ببعضٍ في المواعظِ والزجرِ والدُّعاء إلى الإسلام. وقال الحسن: وفي ذكر الأُمم المهلَكة. وقال مجاهد: جعلناهُ أوصالاً من حيث كان أنواعاً من القول في معانٍ مختلفةٍ[٣]. وقال ابن زيد: وصَّلنا لهم خبرَ الآخرةِ بخبر الدنيا، حتَّى كأنهم عاينوا الآخرة[٤]. وقال الأخفش: أتممنا، كوصلك الشيءَ بالشيء[٥]، وأصل التوصُّل[٦] في الحبل؛ يوصَلُ بعضُه ببعض، وقال الشاعر:

فقل لبني مروان ما بال ذِمَّتي بحبلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يوصَّلُ[٧]

وهذه الأقوالُ معناها توصيلُ المعاني فيه بها إليهم.

وقالت فرقةٌ: التوصيلُ بالنسبةِ إلى الألفاظ، أي وصَّلنا لهم قولاً معجِزاً دالًّا على نبوَّتك[٨].

وأهلُ الكتاب هنا جماعةٌ من اليهود أسلمت، وكان الكفَّار يؤذونَهم، أو بحيرا الراهب، أو النجاشيّ، أو سلمان الفارسي وابنُ سلام[٩]، أو أبو رفاعة وابنه[١٠]

(١) مختصر في شواذ القراءات ص١١٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩١. وزاد ابن الجوزي نسبتها في زاد المسير ٦/ ٢٢٨ لأبي المتوكل وابن يعمر.
(٢) الكشاف ٣/ ١٨٤، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٧-٢٩٨٨ (١٦٩٧٣).
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١.
(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٤-٢٧٥.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٩٢.
(٦) في (يه): التوصيل.
(٧) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ١/ ٣٢ (صنعة السكري)، وفيه: فسائل بني مروان ما بال ذمةٍ.
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١.
(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١-٢٩٢.
(١٠) في ذكر ابن أبي رفاعة نظر، فالخبر ـ كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢، وتفسير الطبري

في عشرةٍ من اليهود أسلموا، أو أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول قبل مبعثِه: اثنانِ وثلاثونَ من الحبشة أقبلُوا مع جعفر بن أبي طالب، وثمانيةٌ قَدِموا من الشام[١]؛ بحيرا وأبرهة وأشرف وأربد وتمَّام وإدريس ونافع وراد، أو ابن سلَّام وتميم الداري والجارود العبديّ وسلمان. سبعةُ أقوالٍ، آخرها لقتادة[٢]. والظاهرُ أنَّها أمثلةٌ لمن آمنَ منهم.

والضميرُ في «به» عائدٌ على القول، وهو القرآن. وقال الفرَّاء: عائدٌ على الرسول، وقال أيضاً: إنْ عادَ على القرآنِ كان صواباً؛ لأنَّهم قد قالوا: «إنَّه الحقُّ من ربِّنا». انتهى[٣].

«إنه الحقُّ من ربنا» تعليلٌ للإيمان به؛ لأنَّ كونَه حقًّا ومِنَ الله حقيقٌ بأنْ نؤمنَ[٤] به.

«إنَّا كنَّا من قبله مسلمين» بيانٌ لقوله: «آمنا به» أي: إيمانُنا به متقادِمٌ، إذ كان الآباءُ الأقدمونَ إلى آبائنا قرؤوا ما في الكتبِ الأُوَلِ، وأعلموا بذلكَ الأبناء، فنحن مسلمونَ من قبلِ نزوله وتلاوتِهِ علينا. والإسلامُ صفةُ كلِّ موحِّدٍ مُصَدِّق بالوحي.

وإيتاءُ الأجر مرَّتين لكونه آمنَ بكتابهِ وبالقرآن، وعُلِّلَ ذلك بصبرِهم، أي: على تكاليف الشريعة السابقة لهم وهذه الشريعة، وما يلقونَ من الأذى، وفي الحديث: «ثلاثةٌ يؤتيهمُ اللهُ أجرَهم مرَّتين؛ رجلٌ مِنْ أهل الكتاب، آمنَ بنبيِّه وآمنَ بي» الحديث[٥].

= والقول مخرج فيه ١٨/ ٢٧٧ ـ عن علي بن أبي رفاعة يذكر فيه إسلام أبيه في عشرة من أهل الكتاب، ولم يذكر نفسه فيهم.

(١) الكشاف ٣/ ١٨٤.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٥٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٩٣-٢٩٤، وفيهما: عامر وأعين. بدل: أربد وتمام. ولم يذكر فيهما: راد.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٧. وقول الفراء هذا هو في الهاء التي في قوله: «من قبله» لا في (به).

(٤) في (يه): يؤمن.

(٥) أخرجه أحمد (١٩٦٠٢)، والبخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

و«يدرؤون» يدفعونَ «بالحسنة» بالطَّاعة «السيئةَ» المعصيةَ المتقدمة، أو بالحلمِ الأذى[١]، وذلك من مكارم الأخلاق. وقال ابنُ مسعود: يدفعونَ بشهادة أنْ لا إله إلَّا الله الشركَ[٢]. وقال ابنُ جبير: بالمعروفِ المنكرَ[٣]. وقال ابنُ زيد: بالخيرِ الشرَّ. وقال ابن سلام: بالعلم[٤] الجهل، وبالكظم الغيظَ. وفي وصيةِ الرسول ﷺ لمعاذٍ: «أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن»[٥].

واللغو: سَقَطُ القول. وقال مجاهد: الأذى والسبّ. وقال الضحَّاك: الشرك. وقال ابن زيد: ما غيَّرتهُ اليهودُ من وَصْفِ الرسول ﷺ، سمعَهُ قومٌ منهم، فكرهوا ذلك وأعرضوا[٦].

«ولكم أعمالكم» خطابٌ لقائلِ اللغو المفهومِ ذلك من قولِه: «وإذا سمعوا اللغوَ أعرضوا عنه».

«سلامٌ عليكم» قال الزَّجَّاج: سلام متاركةٍ لا سلام تحية[٧].

«لا نبتغي الجاهلين» أي: لا نطلبُ مخالطَتَهم.

«إنَّك لا تهدي من أحببتَ» أي: لا تقدرُ على خلقِ الهدايةِ فيه. ولا تَنافي بين هذا وبين قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] لأنَّ معنى هذا: وإنَّك لترشدُ.

وقد أجمعَ المسلمونَ على أنَّها نزلت في أبي طالب، وحديثُه مع رسول الله ﷺ حالةَ أن مات مشهور[٨].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٥.
(٢) ذكره البغوي في تفسير ٦/ ٢١٤ (طبعة دار طيبة) لكن عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرج ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩١ (١٦٩٨٩) قوله: يعني: يردون معروفاً على من يسيءُ إليهم.
(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٨: بالحلم. وأقوال ابن جبير وابن زيد وابن سلام منه.
(٥) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٢١٩٨٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وأوله: «اتَّقِ الله حيثما كنت»، وسلف نحوه عند تفسير الآية (٢٢) من سورة الرعد.
(٦) زاد المسير ٦/ ٢٣٠.
(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٩.
(٨) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيّب بن حَزْن.

وقال الزمخشريُّ: لا تقدرُ أنْ تُدْخِل في الإسلام كلَّ مَنْ أحببتَ أن يدخلَ فيه من قومِك وغيرهم[١]؛ لأنَّك عبدٌ[٢] لا تعلمُ المطبوعَ على قلبه من غيره، ولكنَّ الله يُدْخِلُ في الإسلام مَنْ يشاء، وهو الذي علم أنَّه غيرُ مطبوع على قلبه، وأنَّ الألطافَ تنفعُ فيه، فيَقرنُ به ألطافَهُ حتَّى يَدْعوَه إلى القَبول، «وهو أعلم بالمهتدين» بالقابلين مِنَ الذين لا يقبلون. انتهى[٣]. وهو على طريقةِ الاعتزال في أمرِ الألطاف.

«وقالوا» الضميرُ في «وقالوا» لقريش. وقيل: القائلُ الحارثُ بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف: إنَّكَ على الحقّ، ولكنَّا نخافُ إن اتَّبعناكَ وخالفنا العربَ بذلك[٤]، وإنما نحنُ أَكَلَةُ رأسٍ - أي: قليلونَ ـ أن يتخطفونا مِنْ أرضنا[٥].

وقولهم: «الهدى معك» أي: على زعمك، فقطعَ الله حجَّتهم، إذ كانوا وهم كفَّارٌ بالله عبَّادَ أصنامٍ قد أمِنوا في حَرمِهم، والناسُ في غيره يتقاتلونَ، وهم مقيمونَ في بلدٍ غيرِ ذي زرعٍ يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا، فهو تعالى يمهِّدُ لهم الأرضَ، ويُمَلِّكُهم الأرضَ كما وَعَدهم تعالى. ووَقعَ ما وعدَ به.

ووصفُ الحرم بالأمنِ مجازٌ، إذ الآمنونَ فيه هم ساكنوه.

و«ثمراتُ كلِّ شيء» عامٌّ مخصوصٌ يُرَادُ به الكثرة.

وقرأ المنقريُّ: «نتخطفُ» برفعِ الفاء[٦]، مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ﴾ برفع الكاف[٧]، أي: فيدرككم أي: فهو يدرككم، وقولِهِ:

---

(١) قوله: أن يدخل فيه من قومك وغيرهم. من (ت).

(٢) قوله: عبد. من (ت).

(٣) الكشاف ٣/ ١٨٥.

(٤) في (ع) والمطبوع: فذلك.

(٥) انظر الكشاف ٣/ ١٨٥.

(٦) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٣ أن هذه القراءة رويت عن أبي عمرو، والمنقري أحد رواته، بل هو كما ذكر الجزري في طبقات القراء ١/ ٤٣٩: قيِّمٌ بحرف أبي عمرو ضابطٌ له.

(٧) هي قراءة طلحة بن سليمان كما تقدم عند تفسير الآية، وهي الآية (٧٨) من سورة النساء.

مَنْ يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرُها[(١)]

أي: فنتخطفُ، وفاللهُ يشكرُها. وهو تخريجُ شذوذ.

وقرأ نافعُ وجماعةٌ عن يعقوب وأبو حاتم عن عاصم: «تجبى» بتاءِ التأنيث[(٢)]، والباقونَ بالياء.

وقرأ الجمهور: «ثَمَرات» بفتحتين، وأبان بن تغلب بضمَّتين[(٣)]، وبعضُهم بفتح الثاء وإسكانِ الميم[(٤)].

وانتصب «رزقاً» على أنَّه مصدرٌ من المعنى؛ لأنَّ قولَه: «يجبى[(٥)] إليه ثمراتُ» أي: برزقِ ثمرات، أو على أنَّه مفعولٌ له، وفاعلُ الفعل المعلِّلُ محذوفٌ، أي: نسوقُ إليه ثمراتِ كلِّ شيء، وإن كانَ الرزقُ ليس مصدراً، بل بمعنى المرزوق، جازَ انتصابُه على الحال من «ثمرات»، ويُحَسِّن ذلك تخصيصُها[(٦)] بالإضافة.

«وأكثرهُم لا يعلمون» أي: جهلةٌ بأنَّ ذلك الرزقَ هو من عندنا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

هذا تخويفٌ لأهل مكَّة من سوءِ عاقبة قومٍ كانوا في مثل حالهم من إنعام الله

(١) سلف عند تفسير الآية (١٨٠) من سورة البقرة.
(٢) السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧١ عن نافع، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر ويعقوب في رواية رويس عنه كما في النشر ٢/ ٣٤٢.
(٣) المحتسب ٢/ ١٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٣.
(٤) الكشاف ٣/ ١٨٥.
(٥) في (ت) و(يه): تجبى.
(٦) في (ع) والمطبوع: تخصيصاً. وانظر الكشاف ٣/ ١٨٦.

عليهم بالرُّقودِ في ظلال الأمن وخفض العيش، فغَمِطُوا[١] النعمةَ، وقابلوها بالأشَر والبطَر، فدمَّرَهُم الله، وخرَّب ديارَهم.

و«معيشتَها» منصوبٌ على التمييز، على مذهب الكوفيين، أو مشبَّهٌ بالمفعول، على مذهب بعضِهم، أو مفعولٌ به على تضمين «بطرت» معنى فعلٍ متعدٍّ، أي: خسرت معيشتَها، على مذهب أكثر البصريين، أو على إسقاط «في» أي: في معيشتها، على مذهب الأخفش[٢]، أو على الظرف على تقدير: أيام معيشتها، كقولك: جئتُ خفوقَ النجمِ، على قول الزجاج[٣].

«فتلك مساكنُهم» أشارَ إليها، أي: ترونَها خراباً، تمرُّون عليها، كحجر ثمود، هلكوا وفَنَوا. وتقدَّم ذكرُ المساكن و«تسكن»، فاحتملَ أن يكون الاستثناءُ في قوله: «إلَّا قليلاً» من المساكن، أي: إلَّا قليلاً منها سُكِنَ، واحتمل أن يكون مِن المصدر المفهوم من قوله: «لم تسكن» أي: إلَّا سكنى قليلاً، أي: لم يسكنها إلَّا المسافرُ ومارُّ الطريق[٤].

«وكنَّا نحنُ الوارثين» أي: لتلك المساكن وغيرها، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] خلت من ساكنيها فخربت، وقولِ الآخر[٥]:

تتخلَّفُ الآثارُ عن أصحابِها حيناً ويُدْرِكُها الفناءُ فَتَتْبَعُ[٦]

والظاهرُ أنَّ «القرى» عامَّةٌ في القُرى التي أهلكَت[٧]، فالمعنى أنَّه تعالى لا يهلكُها في كلِّ وقتٍ حتى يبعثَ في أمِّ تلك القُرى، أي: كبيرتِها التي ترجعُ[٨]

(١) في (ع) والمطبوع: فعظموا. وفي (ت): فعطنوا. وفي (يه): فعبطوا. والمثبت من الكشاف ٣/ ١٨٦ والكلام منه.
(٢) قول الأخفش ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٣.
(٣) قول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٠ مطابقٌ لما ذكره المصنف عن الأخفش.
(٤) هو قول ابن عباس، كما في الكشاف ٣/ ١٨٦.
(٥) قوله: وقول الآخر. من (ت).
(٦) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ١٣ (بشرح البرقوقي).
(٧) في (ع) والمطبوع: هلكت.
(٨) في (يه): مرجع.

تلك القرى إليها، ومنها يمتارونَ، وفيها عظيمُهم الحاكم على تلك القرى، حتَّى يبعثَ في أمِّها رسولاً لإلزام الحجَّة وقطعِ المعذرةِ، ويحتملُ أنْ يُرَادَ «القرى» القرى التي في عصر رسول الله ﷺ، فيكون أمُّ القرى مكَّة، ويكونُ الرسولُ محمداً ﷺ خاتمَ الأنبياء. وظلمُ أهلِها هو بالكفر والمعاصي.

«وما أوتيتم من شيء» أي: حسنٍ يسرُّكم وتفخرونَ به «فمتاعُ الحياةِ الدنيا وزينتُها» تمتعونَ به أياماً قلائلَ «وما عندَ الله» من النعيم الدائم الباقي المعدُّ للمؤمنين «خيرٌ» من متاعكم.

«أفلا تعقلونَ» توبيخٌ لهم. وقرأ أبو عمرو: «يعقلون» بالياء[١]، إعراضٌ عن خطابهم وخطابٌ لغيرهم، كأنَّه قال: انظروا إلى هؤلاء وسخافةِ عقولهم، وقرأ الجمهورُ بالتَّاء من فوق على خطابهم وتوبيخِهم في كونِهم أَهمَلُوا العقلَ في العاقبة، ونسبَ هذه القراءةَ أبو عليٍّ في «الحجَّة» إلى أبي عمرو وحدَه[٢]، وفي «التحرير والتحبير» بينَ الياء والتاء عن أبي عمرو.

وقرئ: «متاعاً الحياةَ الدنيا»[٣] أي: يمتَّعون متاعاً في الحياة الدنيا، فانتصبَ «الحياةَ الدنيا» على الظرف.

«أفمن وعدناهُ» يذكرُ تفاوتَ ما بين الرجلين، مَنْ وُعِدَ وعداً حسناً، وهو الثواب فلاقاهُ، ومَنْ مُتِّعَ في الحياة الدنيا ثمَّ أُحضِرَ إلى النار.

وظاهرُ الآيةِ العمومُ في المؤمن والكافر، قيل: ونزلَتْ في الرسول ﷺ وأبي جهل. وقيل: في حمزة وأبي جهل. وقيل: في عليٍّ وأبي جهل. وقيل: في عمَّار والوليد بن المغيرة[٤]. وقيل: نزلت في المؤمنِ والكافر[٥]، وغَلَبَ لفظ المُحْضَرِ في المُحْضَرِ إلى النَّار، كقوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧].

---

(١) السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.
(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٢٤، نقله الفارسيُّ عن السبعة لمجاهد ص٤٩٥.
(٣) مختصر في شواذ القرآن ص١١٣.
(٤) الكشاف ٣/ ١٨٧.
(٥) هو قول قتادة كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٣.

والفاء في «أفمن» للعطف، لمَّا ذكرَ تفاوتَ ما بينَ ما أوتوا من المتاع والزينةِ وما عندَ الله من الثواب، قال: أفبعدَ هذا التفاوتِ الظاهرِ يُسوَّى[١] بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا. والفاء في «فهو لاقيه» للتسبيب؛ لأنَّ لقاءَ الموعودِ مسبَّبٌ عن الوعد الذي هو الضمانُ في الخير. و«ثُمَّ» للتراخي حالَ الإحضار عن حال التمتُّع، لا لتراخي[٢] وقتِه عن وقته.

وقرأ طلحة: «أمَّن وعدناهُ» بغير فاء[٣].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

لمَّا ذكرَ أنَّ الممتَّعينَ في الدنيا يُحْضَرونَ إلى النار، ذَكر شيئاً مِنْ أحوال يوم القيامة، أي: واذكرْ حالَهم يومَ يناديهم اللهُ، ونداؤه إيَّاهم يَحتمِلُ أنْ يكون بواسطةٍ أو بغير واسطة.

«فيقول أين شركائي» أي: على زعمكم. وهذا الاستفهامُ على جهةِ التوبيخ والتقريع، والشركاء هم مَنْ عبدوهُ من دون الله من مَلَكٍ أو جِنٍّ أو إنسٍ أو كوكبٍ أو صنمٍ أو غير ذلك.

(١) في (ت): فسوى. وفي (ع) و(يه): يستوي. والمثبت من المطبوع والكشاف ٣/ ١٨٧.
(٢) في (ت) و(ع) والمطبوع: بتراخي. بدل: لا لتراخي. والمثبت من (يه) والكشاف.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤.

ومفعولا «تزعمون» محذوفان، أحدهما العائدُ على الموصول، والتقديرُ: تزعمونَهم شركاء.

ولمَّا كان هذا السؤالُ مسكتاً لهم، إذ تلك الشركاءُ التي عبدوها مفقودون هم، أُوجِدوا لهم[1] في الآخرة، حَادُوا عن الجواب إلى كلامٍ لا يجدي.

«قال الذين حقَّ عليهم القول» أي: الشياطين وأئمَّةُ الكفرِ ورؤوسُه. و«حقَّ» أي: وجبَ عليهم القول، أي: مقتضاهُ، وهو قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

و«هؤلاء» مبتدأ و«الذين أغوينا» صفته، و«أغويناهم كما غوينا» الخبر، و«كما غوينا» صفةٌ لمطاوعِ «أغويناهم» أي: فغووا كما غوينا، أي: تسببنا لهم في الغيِّ فقبلوا منَّا. وهذا الإعرابُ قالهُ الزمخشريُّ[2].

وقال أبو عليّ[3]: ولا يجوزُ هذا الوجهُ؛ لأنَّه ليسَ في الخبر زيادةٌ على ما في صفة المبتدأ، قال: فإن قلت: قد وُصِلَت بقوله: «كما غوينا» وفيه زيادة. قيل: الزيادةُ بالظرف لا تصيِّرُهُ أصلاً في الجملة؛ لأنَّ الظروفَ صِلَات. وقال هو: «الذين أغوينا» هو الخبر، و«أغويناهم» مستأنَفٌ. وقال غير أبي عليّ: لا يمتنعُ الوجهُ الأول؛ لأنَّ الفَضْلات في بعضِ المواضع تلزمُ، كقولك: زيدٌ عمروٌ قائمٌ في داره[4]. انتهى[5].

والمعنى: هؤلاءِ أتباعُنا آثروا الكفرَ على الإيمان كما آثرناهُ نحن، ونحن كنَّا السببَ في كفرِهم، فقبلوا[6] منَّا.

(١) كذا في (ت) و(ع)، وفي (يه): مفقودون هو الجواب أوحداهم. وفي المطبوع: مفقودون هم أو جدواهم.
(٢) في الكشاف ٣/ ١٨٧.
(٣) في التذكرة، كما نقله عنه العكبري في الإملاء ٢/ ١٧٩.
(٤) في الإملاء ٢/ ١٧٩، والدر المصون ٨/ ٦٨٩: زيدٌ عمروٌ في داره.
(٥) قال الشيخ زاده في حاشيته على تفسير البيضاوي ٣/ ٥١٩: فإن: «في داره» وإن كان ظرفاً لكنه لا بد منه ليعود من الجملة ضمير إلى المبتدأ، فصار بذلك كأحد شطري الجملة.
(٦) في (ت): فقبلوه.

وقرأ أبانُ عن عاصم وبعضُ الشاميين: «كما غَوِينا» بكسر الواو. قال ابنُ خالويه[١]: وليس ذلك مختاراً؛ لأنَّ كلامَ العرب: غَوَيْتُ من الضَّلالة، وغَوِيْتُ من البشَم.

ثمَّ قالوا: «تبرأنا إليك» منهم، ما كانوا يعبدوننا إنَّما عبدُوا غيرنا. و«إيَّانا» مفعولُ «يعبدون» لمَّا تقدَّمَ انفصلَ، وانفصالُه لكونِ «يعبدون» فاصلة، ولو اتصل به[٢] لم تكن فاصلة.

وقال الزمخشريُّ: إنَّما كانوا يعبدون أهواءَهم، ويطيعونَ شهواتِهم، وإخلاءُ الجملتين من العاطف؛ لكونهما مُقَرِّرتين[٣] لمعنى الجملةِ الأولى. انتهى.

«وقيل ادعوا شركاءَكم» لمَّا سُئِلوا: أينَ شركاؤكم؟ وأجابوا بغيرِ جوابٍ، سُئِلوا ثانياً، فقيل: ادعُوا شركاءَكم. وأضاف[٤] الشركاءَ إليهم، أي: الذين جعلتموهم شركاءَ لله. وقوله: «ادعوا شركاءَكم» على سبيل التهكُّم بهم؛ لأنَّه يعلمُ أنَّه لا فائدة في دعائهم، فدَعْوُهم هذا لسخافةِ عقولهم في ذلك الموطن أيضاً؛ إذ لم يعلموا أنَّ مَنْ كان موجوداً منهم في ذلك الموطن لا يجيبُهم.

والضميرُ في «ورأوا» قال الضحَّاكُ ومقاتل: هو للتَّابع والمتبوع[٥]. وجواب «لو» محذوفٌ، والظاهرُ أنْ يقدَّر ممَّا يدلُّ عليه ما يليه، أي: لو كانوا مؤمنين في الدنيا ما رأوا العذابَ في الآخرة. وقيل: التقدير: «لو أنَّهم كانوا مهتدين» لوجهٍ من وجوه الحيلِ لدفعوا به العذاب. وقيل: لعلموا أن العذابَ حقٌّ[٦]. وقيل: لتحيَّروا عند رؤيتِه من فظاعتِه وإن لم يُعذَّبوا به. وقيل: ما كانوا في الدنيا عابدين الأصنام.

(١) في مختصر في شواذ القرآن ص١١٣ والقراءة فيه، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤ أنها مروية عن ابن عامر وعاصم. والمتواتر عنهما كقراءة الجمهور.
(٢) في (ع) والمطبوع: ثم. بدل: به.
(٣) في (ع) والمطبوع: مقرونين. وهو تحريف. والمثبت من (ت) و(يه) وهو الموافق للكشاف ٣/ ١٨٨.
(٤) هنا نهاية الخرم في (ح).
(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ٨.
(٦) المصدر السابق.

وقال أبو عبد الله الرازي: وعندي أنَّ الجوابَ غير محذوف، وفي تقديره[(١)] وجوه: أحدُها: أنَّ الله إذا خاطبَهم بقوله: «ادعوا شركاءكم» اشتدَّ خوفُهم، ولحقَهم شيءٌ بحيثُ لا يبصرون شيئاً، لا جرمَ ما رأوا العذاب. وثانيها: لمَّا ذكرَ الشركاءَ، وهي الأصنام وأنَّهم لا يجيبون الذينَ دَعَوهم قال في حقِّهم: «ورأوا العذاب» لو كانوا من الأحياء المهتدين، ولكنَّها ليست كذلك، فلا جرمَ ما رأت العذاب. والضميرُ في «رأوا» وإن كان للعقلاء، فقد قال: «فدعوهم» و«هم» للعقلاء. انتهى.

وفيه بعضُ تلخيصٍ، وقد أثنى على هذا الذي اختارَه وليس بشيءٍ؛ لأنَّه بناهُ على أنَّ الضميرَ في «رأوا» عائدٌ على المدعوين، قال: وهم الأصنام، والظاهرُ أنَّه عائدٌ على الدَّاعين، كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، ولأنَّ حملَ مهتدين على الأحياء في غاية البعد، ولأنَّ ما قدَّره هو جواب، ولا يشعر به أنَّه جوابٌ؛ إذ صار التقدير عنده: لو كانوا من الأحياء رأوا العذابَ، لكنَّها ليست من الأحياء، فلا ترى العذابَ، ألا ترى إلى قوله: فلا جرمَ ما رأت العذاب.

«ويوم يناديهم» هذا النداءُ أيضاً قد يكونُ بواسطةٍ من الملائكة أو بغير واسطة، حكى أوَّلاً ما يوبِّخُهم به من اتِّخاذِهم له شركاءَ، ثم ما يقوله رؤوسُ الكفر عند توبيخهم، ثمَّ استغاثتهم[(٢)] بشركائهم وخذلانهم لهم وعجزِهم عن نُصْرَتهم، ثم ما يُبَكَّتونَ به من الاحتجاجِ عليهم بإرسال الرُّسُلِ وإزالةِ العلل[(٣)].

وقرأ الجمهور: «فعَمِيت» بفتح العين وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش وأبو زرعة بن عمرو بن جرير بضمِّ العين وتشديدِ الميم[(٤)]، والمعنى: أظلمَتْ عليهمُ الأمورُ فلم يستطيعوا أنْ يخبروا بما فيه نجاةٌ لهم، وأتى بلفظ الماضي لتحقُّقِ وقوعه.

---

(١) في المطبوع وتفسير الرازي ٢٥/٨: وتقريره.
(٢) في (ح) و(ع) والمطبوع: استعانتهم.
(٣) الكشاف ٣/ ١٨٨.
(٤) القراءة في مختصر في شواذ القرآن ص١١٣ عن جناح وأبي زرعة، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٥ عن الأعمش.

«فهم لا يتساءلون» وقرأ طلحة: «يَسّاءلون» بإدغام التّاء في السين[(١)]، أي: لا يسألُ بعضُهم بعضاً فيما يتخلّصون[(٢)] به، إذ أيقنوا أنّه لا حجّةَ لهم فهم في عمى وعجزٍ عن الجواب. والمرادُ بالنبأ الخبرُ عمّا أجابَ به المرسلُ إليه رسولَه[(٣)].

ولمّا ذكر تعالى أحوالَ الكفّار يومَ القيامة وما يكونُ منهم فيه، أخبرَ بأنَّ مَنْ تابَ من الشركِ وآمنَ وعمل صالحاً، فإنّه مرجوٌّ له الفلاحُ والفوزُ في الآخرة، وهذا ترغيبٌ للكافر في الإسلام، وضمانٌ له الفلاح. ويقال: إنَّ «عسى» من الله واجبةٌ.

«وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختار» نزلتْ بسببِ ما تكلّمت به قريشٌ من استغرابِ أمر النبيِّ ﷺ وقولِ بعضهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[(٤)] [الزخرف: ٣١]، وقائلُ ذلك الوليدُ بن المغيرة[(٥)].

قال القرطبيُّ: هذا متّصِلٌ بذكرِ الشركاءِ الذين دعوهم واختاروهم للشفاعة، أي: الاختيارُ إلى الله تعالى في الشفعاء، لا إلى المشركين. وقيل: هو جوابٌ لليهود إذ قالوا: لو كان الرسولُ إلى محمدٍ غير جبريل لآمنّا به[(٦)].

ونصَّ الزجاجُ وعليُّ بن سليمان والنحّاس على أنَّ الوقفَ على قوله: «ويختار» تامٌّ[(٧)].

والظاهرُ أنَّ «ما» نافية أي: ليسَ لهم الخيرة، إنّما هي لله تعالى، كقوله[(٨)]: «ما كان لهم الخيرة من أمرهم»[(٩)].

(١) مختصر في شواذ القرآن ص١١٣.
(٢) في (ح) و(ع) والمطبوع: يتحاجون.
(٣) انظر الكشاف ٣/ ١٨٨.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٥.
(٥) انظر الكشاف ٣/ ١٨٨.
(٦) تفسير القرطبي ١٦/ ٣٠٥.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤١، وكلام علي بن سليمان فيه، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥١.
(٨) في (ت): لقوله.
(٩) كذا، وهو يريد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٥.

وذهب الطبريُّ إلى أنَّ «ما» موصولةٌ منصوبةٌ بـ«يختار» أي: ويختار مِنَ الرُّسُل والشرائع ما كان خيرةً للناس لا كما يختارون هم ما ليس إليهم، ويفعلونَ ما لم يؤمروا به[١]. وأنكر أن تكون «ما» نافيةً لئلَّا يكون المعنى: إنَّه لم تكن لهم الخيرةُ فيما مضى، وهي لهم فيما يُستقبلُ، ولأنَّه لم يتقدَّم كلامٌ ينفي[٢]. ورُويَ عن ابن عباس معنَى ما ذهب إليه الطبريُّ[٣].

وقد رُدَّ هذا القولُ بعدم[٤] العائدِ على الموصول. وأجيب بأنَّ التقديرَ: ما كان لهم فيه الخيرةُ، وحُذِف لدلالة المعنى.

قال الزمخشريُّ: كما حذف من قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٥] [الشورى: ٤٣]. يعني أنَّ التقدير: إنَّ ذلك منه[٦] لمن عزمِ الأمور. وأنشدَ القاسم بنُ معن بيت عنترة:

أمِنْ سميَّةَ دمعُ العَيْنِ تَذْرِيفُ ... لو كان ذا مِنْكِ قبلَ اليومِ معروفُ[٧]

وقرن الآيةَ بهذا البيتِ، والروايةُ في البيت: لو أنَّ ذا، ولكن على ما رواهُ القاسم[٨] يتَّجِهُ في بيت عنترة أنْ يكون في «كان» ضميرُ الشأن، فأمَّا في الآية فقال ابنُ عطية: تفسيرُ الأمر والشأن لا يكون بجملةٍ فيها محذوف. قال ابنُ عطية: ويتَّجهُ عندي أن تكونَ «ما» مفعولةً إذا قدرنا «كان» تامَّةً، أي: إنَّ الله تعالى يختارُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩-٣٠٢.
(٣) أخرج الطبري ١٨/ ٢٩٩ وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٠١-٣٠٠٢ (١٧٠٥٣) عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ قال: كانوا يجعلون خير أموالهم لآلهتهم في الجاهلية.
(٤) في (ح) بتقدم. وفي (ع) والمطبوع: تقدم. والمثبت من (ت) و(يه).
(٥) الكشاف ٣/ ١٨٩.
(٦) في (ح) و(ع) والمطبوع: فيه. والمثبت من (ت) و(يه) ومثله في الدر المصون ٨/ ٦٩٠. وهو الأوفق لنظم الآية.
(٧) ديوان عنترة ص٢٧٠ وفيه: لو أن. بدل: لو كان. وذكر محققه أن في إحدى النسخ: لو كان.
(٨) رواها الفراء عن القاسم كما في تفسير الطبري ١٨/ ٣٠٠. وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦.

كلَّ كائنٍ ولا يكونُ شيءٌ إلَّا بإذنه، وقوله: «لهم الخيرة» جملةٌ مستأنفةٌ معناها تعديد النعمةِ عليهم في اختيارِ الله لهم لو قبلوا وفهموا. انتهى[١].

يعني والله أعلم: خيرةُ الله لهم، أي: لمصلحتهم، والخيَرةُ من التخيُّر، كالطيَرة من التطيُّر[٢]، ويستعملان بمعنى المصدر. والجملُ التي بعد هذا تقدَّم الكلامُ عليها.

والحمد في الآخرة قولُهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، والتحميدُ هنالك على سبيل اللَّذةِ لا التكليف، وفي الحديث: «يُلْهَمون التسبيحَ والتقديس»[٣].

وقرأ ابنُ محيصن: «ما تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف[٤].

«وله الحكمُ» أي: القضاءُ بين عبادِه والفصلُ.

و«أرأيتم» بمعنى أخبروني، وقد يُسلَّط على «الليل»: «أرأيتُم» و«جَعَلَ»، إذ كلٌّ منهما يقتضيه، فأُعملَ الثاني، وجملة «أرأيتم» الثانية هي جملةُ الاستفهام، والعائدُ على «الليل» محذوفٌ تقديره: مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياءٍ بعدَه، ولا يَلْزَمُ في باب التنازع أنْ يستويَ المتنازعان في جهةِ التعدِّي مطلقاً، بل قد يختلفُ الطلب، فيطلبُه هذا على جهةِ الفاعليَّة وهذا على جهة المفعوليَّة، وهذا على جهةِ المفعول وهذا على جهةِ الظرف، وكذلك «أرأيتم» ثاني مفعولَيْهِ جملةٌ استفهاميَّةٌ غالباً، وثاني «جَعَلَ» إن كانت بمعنى صيَّر، لا يكونُ استفهاماً، وإن كانت بمعنى خلق وأوجدَ، وانتصبَ ما بعد مفعولها، كان ذلكَ المنتصبُ حالاً.

و«سرمداً» قيل: من السرمَد، فميمُه زائدةٌ، ووزنه: فعمل، ولا يُزَادُ وسطاً ولا آخراً بقياس، وإنَّما هي ألفاظٌ تُحْفَظُ مذكورةً في علم التصريف.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦.

(٢) في (ت) والدر المصون: التخير.... التطير.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣٤) من حديث جابر ﷺ بلفظ: «يلهمون التسبيح والتحميد»، و(٢٨٣٥): (١٨): «يلهمون التسبيح والحمد».

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦.

وأتى «بضياءٍ» وهو نورُ الشمس، ولم يجئ التركيب: بنهارٍ يتصرَّفون فيه، كما جاء: «بليلٍ تسكنون فيه» لأنَّ منافعَ الضياء متكاثرةٌ ليس التَّصرُّفُ في المعاش وحدَه، والظلامُ ليس بتلك المنزلةِ، ومن ثَمَّ قَرَنَ بالضياء «أفلا تسمعون»؛ لأنَّ السمعَ يُدْرِكُ ما يُدْرِكُه البصرُ من ذكر منافعِه ووصفِ فوائده، وقَرَنَ بالليل «أفلا تبصرون»؛ لأنَّ غيركَ يبصرُ من منفعةِ الظلام ما تبصرُه أنتَ من السكون ونحوه. قاله الزمخشريُّ[١].

«ومن رحمتِه» «مِنْ» هنا للسبب، أي: وبسببِ رحمته إيَّاكم «جعلَ لكم الليلَ والنَّهار» ثم علَّل جعلَ كلٍّ واحدٍ منهما، فبدأ بعلَّةِ الأوَّل وهو الليل، وهو «لتسكنوا فيه»، ثمَّ بعلة الثاني وهو «ولتبتغوا من فضله» ثمَّ بما يشبهُ العلَّة لجعلِ هذين الشيئين[٢]، وهو «لعلَّكم تشكرون» أي: هذه الرحمةَ والنعمة، وهذا النوعُ من علم البديع يسمَّى التفسيرَ[٣]، وهو أن تذكرَ أشياء ثمَّ تفسرَها بما يناسبُها، ومنه قول ابن حَيُّوس:

ومُقَرْطَقٍ يَغْنَى النديمُ بوجهه عَنْ كأسِه الملأى وعَنْ إبريقِهِ
فعلُ المُدَامِ ولونُها ومذاقُها في مُقْلَتَيْهِ ووَجْنَتَيْهِ ورِيْقِهِ[٤]

والضمير في «فيه» عائدٌ على «الليل»، وفي «فضله» يجوزُ أنْ يكون عائداً على الله، والتقدير: «من فضله» أي: من فضل الله فيه، أي: في النهار، وحُذف لدلالة المعنى ولدلالة لفظِ «فيه» السابق عليه، ويحتملُ أن يعودَ على «النهار»، أي: من فضلِ النهار، ويكونُ أضافَه إلى ضمير «النهار» على سبيل المجاز[٥]، لمَّا كان الفضلُ حاصلاً فيه أضيف إليه، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ

(١) في الكشاف ٣/ ١٨٩.
(٢) في (يه): السببين.
(٣) ويسمى أيضاً اللف والنشر.
(٤) البديع في نقد الشعر ص٧٤، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٧٥.
(٥) قال الآلوسي في روح المعاني ٢٠/ ٢٤٧: وهو خلاف الظاهر.

قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ
ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ
ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن
ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ
لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ
ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ
ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ
لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

تقدَّم الكلامُ على قوله: «ويوم يناديهم»، وكرَّر هنا على جهةِ الإبلاغ والتأكيد.

«ونزعنا» أي: ميَّزنا وأخرجنَا بسرعةٍ «منْ كلِّ أمَّةٍ» من الأمم «شهيداً» وهو نبيُّ تلك الأمَّة؛ لأنَّه هو الشهيدُ عليها، كما قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] وقيل: عدولاً وخياراً[1]. والشهيدُ على هذا اسمُ الجنس. والشهيد يشهدُ على تلك الأمَّة بما صدرَ منها وما أجابتْ به لمَّا دُعِيت إلى التوحيد، وأنَّه قد بلَّغهُم رسالةَ ربِّهم.

«فقلنا» أي: للأمم: هاتوا برهانكم، أي: حجَّتكم فيما كنتم عليه في الدنيا مِنَ الكفرِ، ومخالفةِ هذا الشهيدِ «فعلموا أنَّ الحق لله» لا لأصنامهم وما عَبدوا من دون الله «وضلَّ عنهم» أي: وغابَ عنهم غيبةَ الشيءِ الضائع «ما كانوا يفترون» من الكذبِ والباطل[2].

و«قارون» أعجمي[3] مُنِعَ الصرفَ للعُجْمةِ والعلميَّةِ. قيل: ومعنى «كان من

(١) الأول قول مجاهد، والثاني قول الرماني، كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٧.
(٢) انظر الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٣) في (ح): اسم أعجمي.

قومه» أي: ممَّن آمنَ به. قال ابنُ عطيَّة: وهو إسرائيليٌّ بإجماع. انتهى[١].

واختلفَ في قرابته من موسى عليه السلام اختلافاً مضطرباً متكاذباً، وأولاها ما قالهُ ابنُ عباس: إنَّه ابن عمِّه[٢]. وهو قارونُ بن يصهر بن قاهث جدِّ موسى؛ لأنَّ النسَّابين ذكروا نسبه كذلك، وكان يسمَّى المنوَّر؛ لحُسْنِ صورتِه، وكان أحفظَ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، فنافقَ كما نافقَ السامريُّ[٣].

«فبغى عليهم» ذكروا من أنواع بغيهِ الكفرَ، والكبرَ، وحسدَه لموسى على النبوَّة، ولهارون على المذبح[٤] والقُرْبان، وظلمَهُ لبني إسرائيل حينَ ملَّكه فرعونُ عليهم، ودسَّه بغيًّا تكذبُ على موسى أنَّه تعرَّضَ لها، وتفضحُه بذلكَ في ملأٍ من بني إسرائيل، ومن تكبُّرِه أن زادَ في ثيابه شبراً[٥].

«وآتيناه من الكنوز» قيل: أظفرَه اللهُ بكنزٍ من كنوزِ يوسفَ عليه السلام[٦]. وقيل: سمِّيت أموالُه كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أداءِ الزكاة، وبسببِ ذلك عادى موسى عليه السلام أوَّل عداوتِه[٧]. و«ما» موصولةٌ صلتها «إن» ومعمولاها. وقال النحاس: سمعتُ عليَّ بن سليمان ـ يعني الأخفش الصغير ـ يقول: ما أقبحَ ما يقوله الكوفيُّون في الصِّلات: إنَّه لا يجوزُ أن تكون صلةُ «الذي» «إن» وما عَمِلَتْ فيه، وفي القرآن: «ما إنَّ مفاتحَه» انتهى[٨].

وتقدَّمَ الكلامُ في «مفاتح» في سورة الأنعام[٩]. وقالوا هنا: مقاليد خزائنه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٠٥ (١٧٠٧٤). وهو قول أكثر أهل العلم، كما قال الطبري ١٨/ ٣١٠.
(٣) الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٤) في النسخ: الذبح. والمثبت من الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٥) هو قول شهر بن حوشب، كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١١.
(٦) قاله عطاء، كما في النكت والعيون ٤/ ٢٦٥.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢.
(٩) عند تفسير الآية (٥٩) منها.

وقال السُّدِّيُّ: هي الخزائنُ نفسُها[١]. وقال الضحَّاك: ظروفُه وأوعيته[٢].

وقرأ الأعمش: «مفاتيحه» بياء، جمع مفتاح[٣].

وذكروا من كثرةِ مفاتحِه ما هو كذبٌ أو يُقَارِبُ الكذب، فلم أكتبه.

قال أبو زيد: نُؤْتَ بالعملِ، إذا نهضتَ به[٤]، قال الشاعر:

إنَّا وجدنا خلفاً بئسَ الخَلَفْ   عبداً إذا ما ناءَ بالحِمْلِ وقَفْ[٥]

ويقال: ناءَ ينوءُ، إذا نهضَ بثقل، قال الشاعر:

تنوءُ بأُخْرَاها فلأياً قيامُها   وتَمشي الهُوينا عن قَريبٍ فَتُبْهَرُ[٦]

وقال أبو عبيدة[٧]: هو مقلوب، وأصلُه: لتنوءُ بها العصبةُ، أي: تنهضُ. والقلبُ عند أصحابنا بابُه الشعرُ. والصحيحُ أنَّ الباء للتعدية، أي: لتنيء العصبةَ، كما تقول: ذهبتُ به وأذهبتُه، وجئتُ به وأجأتُه. ونُقِلَ هذا عن الخليل وسيبويه[٨] والفرَّاء[٩]، واختارَهُ النحّاس[١٠]. ورويَ معناهُ عن ابنِ عباس وأبي صالح والسُّدِّيّ[١١]. وتقول العرب: ناء الحِمْلُ بالبعيرِ، إذا أثقلَه. قال ابنُ عطية: ويمكنُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦، وزاد المسير ٦/ ٢٤٠.
(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣١٤.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.
(٤) أورد قول أبي زيد النحاس في معاني القرآن له ٥/ ١٩٩، والزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٥. وفيهما: بالحمل. بدل: بالعمل.
(٥) صواب الرواية: خضف بدل: وقف؛ كما في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦، وأساس البلاغة (خضف) وغيرها. وخضف، يعني: ضرط. وسلف البيت عند مفردات الآية (١٦٩). من سورة الأعراف.
(٦) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٢٤. قال شارحه: فلأياً، أي: بعد بطءٍ قيامُها. وتُبْهَرُ: تعيا.
(٧) في مجاز القرآن ٢/ ١١٠.
(٨) نقله عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠.
(١٠) في معاني القرآن له ٥/ ١٩٩.
(١١) تفسير القرطبي ١٦/ ٣١٦.

أن يسندَ «تنوء» إلى المفاتح؛ لأنَّها تنهضُ بتحاملٍ إذا فعلَ ذلك الذي يَنهضُ بها، وذا مطَّردٌ في: ناءَ الحملُ بالبعير ونحوه، فتأمله[1].

وقرأ بُدَيْل بن مَيْسَرة: «لِيَنُوء» بالياء وتذكيرِه[2]، راعى المضافَ المحذوف، التقدير: ما إنَّ حمل مفاتحِه، أو مقدارها، أو نحو ذلك.

وقال الزمخشريُّ: ووجهُه أن يُفَسَّر المفاتح بالخزائن، ويعطيها حكمَ ما أُضيفَ إليه للملابسة والاتصال، كقوله: ذَهَبَتْ أهلُ اليمامة. انتهى[3]. يعني أنَّه اكتسبَ المفاتحُ التذكيرَ من الضمير الذي لقارون، كما اكتسبَ (أهل) التأنيثَ من إضافته إلى (اليمامة)، فقيل فيه: ذهبت.

وذكر أبو عمرو الداني أنَّ بديل بن ميسرة قرأ: «ما إنَّ مفتاحَه» على الإفراد، فلا تحتاج قراءته «لينوء» بالياء من تحت[4] إلى تأويل.

وتقدَّمَ تفسيرُ «العصبة» في سورة يوسف عليه السلام[5]، وتقدم قبلُ تفسيرُ المفاتح، أهي المقاليدُ، أو الخزائن نفسُها أو الظروف والأوعية؟

وعن ابن عباس والحسن أنَّ المفاتحَ هي الأموال، قال ابن عباس: كانت خزائنُه يحملها أربعون أقوياء، وكانت أربع مئة ألف، يحملُ كلُّ رجلٍ عشرة آلاف. وقال أبو مسلم: المرادُ من المفاتح العلمُ والإحاطةُ، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، والمراد: وآتيناهُ من الكنوز ما إنَّ حفظَها والاطِّلاع عليها، ليثقلُ على العصبة، أي: هذه الكنوزُ لكثرتها واختلافِ أصنافها يُتعب حفظُها[6] القائمينَ على حفظها[7].

«إذ قال له قومُه لا تفرح» نَهَوهُ عن الفرحِ المُطْغي الذي هو انهماكٌ وانحلالُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٢) المحتسب ٢/ ١٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩، والكشاف ٣/ ١٩٠.
(٣) الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٤) قوله: من تحت. من (ح). وانظر الكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٥) عند تفسير الآية (٨) منها.
(٦) في (ت): حفظتها.
(٧) تفسير الرازي ٢٥/ ١٥.

نفسٍ وأَشَرٌ وإعجابٌ[(١)]. وإنَّما يَفرحُ بإقبال الدنيا عليه من اطمأنَّ إليها وغفلَ عن أمرِ الآخرة، ومَن جعل من باله أنَّه مفارقٌ زهرةَ الدنيا عن قريبٍ، فلا يفرحُ بها، وقال أبو الطيب[(٢)]:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ تيقَّنَ عنه صاحبُه انتِقالا

قال الزمخشريُّ: ومحلُّ «إذ» منصوبٌ بـ «تنوء» انتهى[(٣)]. وهذا ضعيفٌ جدًّا؛ لأنَّ إثقالَ المفاتح العصبةَ ليس مقيَّداً بوقتِ قول قومه له: لا تفرح.

وقال ابن عطية: متعلِّق بقوله: «فبغى عليهم»[(٤)]. وهو ضعيفٌ أيضاً؛ لأنَّ بغيَه عليهم لم يكن مقيَّداً بذلك الوقت. وقال الحَوفيُّ الناصبُ له محذوفٌ تقديره: اذكر.

وقال أبو البقاء: «إذ قال له» ظرفٌ لـ «آتيناه». وهذا ضعيفٌ أيضاً؛ لأنَّ الإيتاءَ لم يكن وقتَ ذلك القول. وقال أيضاً: ويجوزُ أن يكونَ ظرفاً لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه الكلام، أي: بغى عليهم إذ قال له قومه. انتهى[(٥)].

ويظهرُ أن يكون تقديرُه: فأظهرَ التفاخرَ والفرحَ بما أوتي من الكنوز إذ قال له قومه: لا تفرح، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣]، والعربُ تَمْدَحُ بتركِ الفَرحِ عند إقبال الخير، وقال الشاعر:

ولستُ بمِفْراحٍ إذا الدَّهرُ سَرَّني ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المتحوِّلِ[(٦)]

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٢) في (ح): ولله در أبي الطيب قال. والبيت في ديوانه ٣/ ٣٤١ (بشرح البرقوقي).
(٣) الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٥) الإملاء ٢/ ١٨٠، وقال السمين في الدر المصون ٨/ ٦٩٤: وهذا ينبغي أن يردَّ بما رُدَّ به قول ابن عطية.
(٦) اختلف في نسبة هذا البيت، فنسبه المبرد في الكامل ٣/ ١٤٥٥، وأبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١١، والبصري في الحماسة البصرية ١/ ١١٥ لهدبة بن خشرم.
وذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار مرتين، فنسبه مرة ١/ ٢٧٦ للبعيث، ومرة ١/ ٢٨١ لتأبط شراً، وهو في ديوانه ص١٧٨.
=

وقال الآخر:

إنْ تُلاقِ مُنْفِساً لا تَلْقَنا فُرُحَ الخيرِ ولا نَكْبُو لِضُرّ[١]

وقرئ: «الفارحين» حكاهُ عيسى بن سليمان الحجازي[٢].

و«لا يحبُّ» صفةُ فعلٍ لا صفةُ ذات، بمعنى الإرادة؛ لأنَّ الفرحَ أمرٌ قد وقعَ، فالمعنى: لا يظهرُ عليهم بركتُه ولا يَهبهم رحمتَه.

ولمَّا نَهوه عن الفرح المُطْغي، أمروه بأنْ يطلبَ فيما آتاهُ الله من الكنوزِ وسَعَة الرزقِ ثوابَ الدار الآخرة، بأنْ تفعلَ فيه أفعالَ البرِّ وتجعله زادكَ إلى الآخرة.

«ولا تنس نصيبك من الدنيا» قال ابن عباس والجمهور: معناه: ولا تضيِّعْ عمركَ في أنْ لا تعملَ صالحاً في دنياك، إذ الآخرةُ إنَّما يُعملُ لها في الدنيا فنصيبُ الإنسان عمره وعملُه الصالح فيها. وهذا التأويل فيه عظةٌ.

وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تضيِّع حظَّك من الدنيا في تمتُّعك بالحلال وطلبكَ إيَّاه ونظرِكَ لعاقبة دنياك. وفي هذا التأويل بعضُ رفقٍ.

وقال الحسن: معناهُ: قَدِّم الفضلَ وأمسكْ ما تَبْلُغُ به. وقال مالك: هو الأكلُ والشربُ بلا سرف. وقيل: أرادوا بنصيبه الكَفَنَ. فهذا وعظٌ متَّصِلٌ، كأنَّهم قالوا: تترك جميعَ مالك، لا يكونُ نصيبُك منه إلَّا الكفن[٣]، كما قال الشاعر:

نصيبُكَ ممَّا تجمعُ الدهرَ كلَّه رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوطُ[٤]

= وذكره أيضاً ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٦٩٤ لهدبة، ثم قال: أخذه من تأبط شراً. وروايته في المصادر السابقة: المتقلب. بدل: المتحول.

(١) هو لطرفة، وهو في ديوانه ص٧٠ ولفظه فيه: إن نصادف. بدل: إن تلاق. قال شارحه الشنتمري: إن نلنا مالاً أو أصبنا خيراً لم نفرح عند ذلك، وإن أصابنا ضر لم نستكن له ولم نذل؛ لعلمنا أن الأحوال تتعاقب من خير وشر.

(٢) مختصر في شواذ القرآن ص١١٤، وفيه: عيسى بن سليمان الجحدري. ولعلها تحرفت عن الحجازي.

(٣) الكلام من قوله: قال ابن عباس والجمهور... إلى هنا استفاده المصنف من المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩. وأقوال ابن عباس والحسن وقتادة أخرجها الطبري ١٨/ ٣٢٢-٣٢٤.

(٤) هو لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٢٤٥ (طبعة دار بيروت)، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩، =

وقال الزمخشريُّ: أن تأخذَ منه ما يكفيكَ ويُصْلِحُك[1]. وهذا قريبٌ من قول الحسن «وأحسن» إلى عباد الله، أو بشكركَ وطاعتكَ لله. «كما أحسن الله إليك» بتلك النعم التي خوَّلَكَها.

والكاف للتشبيه وهو يكون في بعضِ الأوصاف؛ لأنَّ مماثلةَ إحسان العبدِ لإحسان الله مِنْ جميع الصفات يمتنعُ أنْ يكون، فالتشبيهُ وقعَ في مطلق الإحسان، أو تكونُ الكافُ للتعليل، أي: أحسن لأجل إحسانِ الله إليك.

«ولا تبغِ الفسادَ» أي: ما أنتَ عليه من البغي والظُّلم.

«على علم» «علم» مصدرٌ يحتملُ أن يكون مضافاً إليه، ومضافاً إلى الله، فقال الجمهور: ادَّعى أنَّ عندَه علماً استوجبَ به أن يكونَ صاحبَ تلكَ الكنوز، فقيل: علم التوراة وحفظها، وكان أحدَ السبعينَ الذين اختارَهم موسى للميقات، وكانت هذه مغالطةً. وقال أبو سليمان الداراني: أي علم التجارةِ ووجوهَ المكاسبِ، أي: أوتيتُه بإدراكي وسعيي. وقال ابن المسيَّب: علم الكيمياء[2]. قال ابنُ المسيَّب: وكان موسى عليه السلام يعلمُ الكيمياءَ، وهي جعل الرَّصاص والنُّحاسِ ذهباً[3]. وعن ابن عباس: «على علمٍ» لصنعة الذهب[4].

ولعلَّ ذلك لا يصحُّ عنه ولا عن ابن المسيَّب، وأنكرَ الزجَّاجُ علم الكيمياء، وقال: باطلٌ لا حقيقةَ له. انتهى[5].

وكثيراً ما تولَّعَ أهلُ مصرَ بطلب أشياء من المستحيلات والخرافات، مِن ذلك تغويرُ الماء، وخدمةُ الصورِ الممثَّلة في الجُدُر خطوطاً، وادِّعائهم أنَّ تلكَ

= وروايته في الديوان:

نصيبكَ ممَّا صرتَ تجمعُ دائباً فثوبان من قبطيةٍ وحَنوطُ

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٣) الكشاف ٣/ ١٩١، وفيه أن موسى عليه السلام أفاد يوشع بن نون ثلثه، وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٦.

الخطوط تتحرَّكُ إذا خُدِمت بأنواعٍ من الخدم لهم والكيمياء، حتى إنَّ مشايخَ العلم عندهم الذين هم عندهم بصورةِ الولاية يتطلَّب ذلك مِنْ أجهل واردٍ من المغاربة.

وقال ابنُ زيد وغيره: أرادَ: أوتيتُه على علمٍ من الله وتخصيصٍ من لدنه قصدني به، أي: فلا يلزمني فيه شيءٌ ممَّا قلتم، ثم جعل قوله: «عندي» كما تقول: في معتقدي، وعلى ما أراه[١].

وقال مقاتل: «على علم» أي: على خيرٍ علمَه الله عندي[٢].

والظاهرُ أنَّ قولَه: «أولم يعلم» تقريرٌ لعلمه ذلك وتنبيهٌ على خطئه في اغتراره، أي: قد علم أنَّ اللهَ قد أهلكَ من القرون قبلَه مَنْ هو أقوى منه وأغنى؛ لأنَّه قد قرأَهُ في التوراة، وأخبرَ به موسى، وسمعَه في التواريخ، كأنَّه قيل: أولم يعلم في جملة ما عندَه من العلم هذا، حتَّى لا يغترَّ بكثرة ماله وقوَّته.

قال الزمخشريُّ[٣]: ويجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك؛ لأنَّه لمَّا قال: «أوتيته على علم عندي» فتنفَّجَ[٤] بالعلم وتعظَّم به، قيل: أعندَهُ مثلُ ذلك العلم الذي ادَّعاه ورأى نفسَه به مستوجبةً لكلِّ نعمةٍ، ولم يعلم هذا العلمَ النافعَ حتى يقي نفسَه مصارعَ الهالكين. انتهى.

و«أكثر جمعاً» إمَّا للمال، أو جماعة يحوطونَه ويخدمونَه.

قال ابن عطية: أولم يعلم برجح أن قارون تَشَبَّعَ بعلمِ نفسِه على زعمه[٥].

وقرأ الجمهور: «ولا يُسْأَلُ» مبنيًّا للمفعول، و«المجرمون» رفع به، وهو متَّصِلٌ بما قبله، قاله محمد بن كعب. والضميرُ في «ذنوبهم» عائدٌ على من أهلكَ من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠. وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٤٢.

(٣) في الكشاف ٣/ ١٩١، وما قبله منه.

(٤) في (ت): فنفح. وفي (ح): فتبجح. وفي (ع) و(يه): فتنفخ. والمتنفج الذي يفخر بما ليس عنده. المعجم الوسيط (نفج).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

القرون[١]، أي: لا يُسأل غيرُهم ممَّن أجرمَ ولا ممَّن لم يجرم عمَّن أهلكَه اللهُ، بل كلُّ نفسٍ بما كسَبت رهينةٌ.

وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علمٍ منه بذنوبهم، فلم يحتج إلى مسألتهم عنها.

وقيل: هو مستأنَفٌ عن حال يوم القيامة، قال قتادة: لا يُسأَلون عن ذنوبهم؛ لظهورِها وكثرتها؛ لأنَّهم يدخلون النار بغير حساب. وقال قتادةُ أيضاً ومجاهد: لا تسألهم الملائكةُ عن ذنوبهم؛ لأنَّهم يعرفونَهم بسيماهم من السوادِ والتشويهِ، كقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾[٢] [الرحمن: ٤١]. وقيل: لا يُسأَلونَ ليقعَ العلمُ بها، بل يُسْأَلون[٣] سؤالَ توبيخ وتقريع.

وقرأ أبو جعفر في رواية: «ولا تسألْ» بالتاء والجزم «المجرمين» نصب[٤].

وقرأ ابنُ سيرين وأبو العالية كذلك في «ولا تُسْأَلْ» على النَّهي للمُخاطَب، وكان ابنُ أبي إسحاق[٥] لا يجوِّزُ ذلك إلا أن يكون «المجرمين» بالياء في محلِّ النصب بوقوعِ الفعلِ عليه.

قال صاحب «اللوامح»: الظاهرُ ما قاله، ولم يبلغني في نصبِ «المجرمين» شيءٌ، فإنْ تركاه على رفعِه فله وجهان، أحدُهما: أن تكون الهاءُ والميم في «عن ذنوبهم» راجعةً إلى ما تقدَّم من القرون، وارتفاع «المجرمين» بإضمار المبتدأ، وتقديره: هم المجرمون، أولئك المجرمون، ومثله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ في «التوبة» [الآية: ١١٢]، والثاني: أن يكون بدلاً من أصل الهاء والميم في «ذنوبهم»؛ لأنَّها وإن كانت في محلِّ الجرِّ بالإضافة إليها، فإنَّ أصلَها الرفع؛ لأنَّ الإضافةَ إليها بمنزلة إضافة المصدر إلى اسم الفاعل، فعلى ذلك «المجرمون» محمولٌ على الأصل على ما تقدَّم لنا من أنَّ بعضهم قرأ: «أن يضرب مثلاً ما بعوضةٍ» [البقرة: ٢٦] بالجرِّ حملاً على أصل المثل. انتهى.

---

(١) المصدر السابق. وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠، وقول قتادة الأول وقول مجاهد أخرجهما الطبري ١٨/ ٣٢٧.
(٣) قوله: ليقع العلم بها، بل يسألون. من (ت) و(يه).
(٤) ذكرها العكبري في الإملاء ٢/ ١٨٠ دون نسبة.
(٥) في (ت): أبو إسحاق، وفي (يه): ابن إسحاق.

وكان قد ذكرَ في «البقرة» ما نصُّه: وقد سمعت فيها «ما بعوضةٍ» بالجرّ[(١)]، على أنَّها بدلٌ من أصل المثل، و«ما» زائدة فيه، وتقديره: لا يستحيي بضربِ مثلٍ بعوضةٍ، أي: بضرب بعوضةٍ. ففي ذلك فُسِّر «أن» مع الفعل[(٢)] بالمصدر، فأُضيف[(٣)] إلى المفعول به، ثم أُبْدِل منه البعوضة، من غير أن أعرفَ فيها أثراً بحال.

فأمَّا قوله: في ذنوبهم، فذنوب جمعٌ، فإن كان جمعَ مصدرٍ، ففي إعماله خلافٌ.

وأمَّا قوله: على ما تقدَّم لنا مِن أنَّ بعضَهم قرأ، فقد ذكرَ في «البقرة» أنَّه سَمِعَ ذلك، ولا يَعرِفُ فيها أثراً، فينبغي أنْ لا يجعلَها قراءةً.

ولمَّا ذكر تعالى قارونَ وبَغْيَهُ، وما آتاهُ من الكنوزِ، وفرحَهُ بذلك فرحَ البطِرين، وادعاءَه أنَّ ما أوتي من ذلك إنَّما أوتيَه على علم، ذكر ما هو ناشئٌ عن التكبُّر والسرور بما أوتي، فقال: «فخرجَ على قومه في زينته» وكانَ يومَ السبت، أي أظهرَ ما يقدرُ عليه من الملابس والمراكبِ وزينة الدنيا. قال جابر ومجاهد: في ثيابٍ حُمْرٍ. وقال ابن زيد: هو وحشَمُه في ثياب مُعَصفرة. وقيل: في ثياب الأرجوان[(٤)]. وقيل: على بغلةٍ شهباءَ عليه[(٥)] الأرجوان، وعليها سرجٌ من ذهبٍ ومعه أربعة آلاف على زِيِّهِ. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباجُ الأحمر، وعلى يمينه ثلاث مئة غلام، وعلى يساره ثلاث مئة جاريةٍ بيضٍ، عليهم الحليُّ والديباجُ. وقيل: في تسعين ألفاً عليهم المُعَصْفرات، وهو أوَّلُ يومٍ رؤيَ فيه المُعَصْفَر[(٦)]. وقيل غيرُ ذلك من الكيفيات.

«قال الذين يريدونَ الحياةَ الدُّنيا» قيل: كانوا مؤمنين. قال قتادة: تمنَّوهُ ليتقرَّبوا

---

(١) من قوله: حملاً على أصل... إلى هنا من (ت) و(يه).
(٢) في (ع) والمطبوع: الفصل. بدل الفعل.
(٣) في (ت) و(ح) و(ع) والمطبوع: ناصب بدل: فأضيف، والمثبت من (يه).
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠-٣٠١. وأخرج أقوال جابر ومجاهد وابن زيد الطبريُّ ١٨/ ٣٢٨-٣٣٠.
(٥) في (يه) والمطبوع ومطبوع الكشاف ٣/ ١٩١: عليها. والمثبت من (ت) و(ح) و(ع) ومخطوط الكشاف (٢/ ورقة ١٥٥).
(٦) الكشاف ٣/ ١٩١.

به إلى الله. وقيل: رغبةً في اليسار والثَّرْوَة. وقيل: كانوا كفاراً. وتمنَّوا مثلَ ما أوتي قارونُ، ولم يذكروا زوالَ نعمته، وهذا من الغبطة[١].

«إنَّه لذو حظٍّ عظيم» أي: درجةٍ عظيمةٍ، قاله الضحاك[٢]. وقيل: نصيب كثيرٍ من الدُّنيا.

والحظُّ: البَخْتُ والسَّعْد، يقال: فلانٌ ذو حظٍّ وحَظيظٌ ومحظوظٌ[٣].

«وقال الذين أوتوا العلم» منهم يوشع، و«العِلْم» معرفةُ الثواب والعقاب، أو التوكُّل، أو الأخبار[٤]، أقوال.

«ويلكم» دعاءٌ بالشرِّ. «ثوابُ الله» وهو ما أعدَّهُ في الآخرة للمؤمن «خيرٌ» ممَّا أوتي قارون.

«ولا يلقَّاها» أي: هذه الحكمة، وهي معرفةُ ثوابِ الله. وقيل: الجنة ونعيمها. وقيل: هذه المقالة، وهي قولهم: «ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً» وعنهم تصْدُرُ[٥]. «إلَّا الصابرون» على الطاعات وعلى قمعِ أنفسِهم عن الشهوات.

تقدَّم طرفٌ من خبر قارون وحسدِه لموسى، ومِن حسدِه أنَّه جعلَ لبغيٍّ جُعْلاً على أن ترميَ موسى بطلبها وبزناه بها، وأنَّها تابت إلى الله، وأقرَّت أنَّ قارون هو الذي جعلَ لها جُعْلاً على رمي موسى بذلك، فأمرَ الله الأرضَ أن تطيعَهُ، فقال: يا أرضُ، خذيه وأتباعَهُ، فخُسِفَ بهم في حكايةٍ طويلةٍ[٦] الله أعلمُ بها.

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ١٩١.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩.
(٣) الكشاف ٣/ ١٩١.
(٤) في (ت): الاختيار. وفي (ح): الاحبار. وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٣ عن ابن عباس ﷺ أنه فسر «الذين أوتوا العلم» بالأحبار من بني إسرائيل.
(٥) في (ت): وغيرهم أعده. وفي (ح): وهل يصبر، وفي (ع): ويحهم يصدر، وفي المطبوع: وبخهم بها. والمثبت من (يه).
(٦) أخرجها ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٨ (١٧١٥٦)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٠٨-٤٠٩ عن ابن عباس.

ولمَّا خُسِفَ بقارون ومَنْ معه قال بنو إسرائيل: إنَّما دعا موسى على قارون ليستبدَّ بدارِهِ وكنوزِه، فدعا الله حتى خسفَ بداره وأمواله[١].

و«من» زائدة في «من فئة»[٢]، أي: من جماعة تفيدُ استغراقَ الفئات، وإذا انتفتِ الجماعةُ[٣] ولم تقدر على نصره، فانتفاءُ الواحدِ عن نُصْرته أبلغ.

«وما كان من المنتصرين» أي: لم يكن في نفسِه ممَّن يمتنعُ من عذاب الله.

«وأصبحَ الذين تمنَّوا مكانَهُ بالأمس» يَدُلُّ «وأصبح» إذا حُمِل على ظاهره أنَّ الخسفَ به وبداره كان ليلاً، وهو أفظعُ العذاب، إذ الليلُ مقرُّ الراحةِ والسكون، و«الأمس» يحتملُ أن يُرادَ به الزمان الماضي، ويحتملُ أن يرادَ به ما قبلَ يومِ الخسفِ، وهو يوم التمنِّي[٤]، ويدلُّ عليه العطفُ بالفاء التي تقتضي التعقيبَ في قوله: «فخسفنا» فيكونُ فيه اعتقابُ العذابِ خروجَهُ في زينته، وفي ذلك تعجيلُ العذاب.

و«مكانه» منزلتُه في الدنيا من الثروةِ والحشَم والأتباع.

و«وَيْ» عند الخليل وسيبويه اسمُ فعل، مثل: صَهْ ومَهْ، ومعناها: أعْجَبُ. قال الخليل: وذلك أنَّ القومَ ندموا فقالوا مُتَنَدِّمين على ما سلف منهم: وي[٥]. وكلُّ مَنْ ندمَ فأظهرَ ندامتَهُ قال: وي، و«كأن» هي كافُ التشبيه الداخلة على «أنْ»، وكتبت «وي» متَّصلةً بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال، وأنشد سيبويه:

وَيْ كأنْ مَنْ يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومَنْ يَفْتَقِرْ يعِشْ عيشَ ضُرِّ

والبيتُ لزيدِ بن عمرو بن نُفيل[٦].

(١) الكشاف ٣/ ١٩٢.
(٢) قوله: في من فئة. من (ت) و(به).
(٣) في (ح) و(ع) والمطبوع: الجملة، بدل: الجماعة.
(٤) في (ت): التزين.
(٥) انظر الكتاب ٢/ ١٥٤، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٧، وزاد المسير ٦/ ٢٤٧.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢، وهو في الكتاب ٢/ ١٥٥، والمحتسب ٢/ ١٥٥، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٠.

وحكى الفرَّاء أنَّ امرأةً قالت لزوجها: أين ابنكَ؟ فقال: ويكأنَّه وراءَ البيت[١]. وعلى هذا المذهب يكون الوقف على «وي».

وقال الأخفش: هي «وَيْكَ»، وينبغي أنْ تكونَ الكافُ حرفَ خطابٍ، ولا موضعَ له من الإعراب، والوقف عليه «وَيْكْ»[٢]، ومنه قول عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقْمَها قِيلُ الفوارسِ وَيْكَ عنترَ أقدمِ[٣]

قال الأخفش: و«أنَّ» عندهُ مفتوحٌ بتقديرِ العلم، أي: اعلم أنَّ الله. وقال الشاعر:

ألا ويكَ المضرَّةَ لا تدومُ ولا يبقى على البؤسِ النعيمُ[٤]

وذهب الكسائيُّ ويونس وأبو حاتم وغيرهم إلى أنَّ أصله: «ويلَك» فحُذِفَتِ اللام، والكافُ في موضع جرٍّ بالإضافة[٥].

فعلى المذهبِ الأول قيل: تكونُ الكافُ خاليةً من معنى التشبيه، كما قيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وعلى المذهب الثاني فالمعنى: أعجبُ لأنَّ الله، وعلى المذهب الثالث تكونُ «ويلك» كلمةَ تحزُّنٍ، والمعنى أيضاً: لأنَّ الله.

وقال أبو زيد وفرقةٌ معه: «ويكأنَّ» حرفٌ واحدٌ بجملتِه، وهو بمعنى: ألم تر[٦]. وقاله ابنُ عبَّاس والكسائيُّ وأبو عبيد[٧].

وقال الفرَّاء: «ويك» في كلام العرب، كقول الرجل: أما ترى إلى صنع الله[٨].

وقال ابنُ قتيبة عن بعض أهل العلم أنَّه قال: معنى «ويك»: رحمةً لك، بلغةِ حمير[٩].

---

(١) قال الفراء: معناه: أما ترينه وراء البيت. معاني القرآن ٢/ ٣١٢.
(٢) انظر المحتسب ٢/ ١٥٥.
(٣) ديوان عنترة ص٢١٨.
(٤) ذكره ابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة ص١٧٦، وفيه: على الدهر. بدل: على البؤس.
(٥) ذكره عن الكسائي ابن جني في المحتسب ٢/ ١٥٦، وعن يونس الرازيُّ في تفسيره ٢٥/ ٢١٩، وعن أبي حاتم ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢.
(٦) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ عن فرقة من النحويين.
(٧) زاد المسير ٦/ ٢٤٦ وفيه: أبو عبيدة. بدل: أبو عبيد.
(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢.
(٩) تأويل مشكل القرآن ص٥٢٧.

ولمَّا صدر منهم تمنِّي حالِ قارون، وشاهدوا الخسفَ، كان ذلك زاجراً لهم عن حُبِّ الدنيا، وداعياً إلى الرضا بقدر الله، فتنبَّهوا لخطئهم، فقالوا: «وي»، ثمَّ قالوا: «كأنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده» بحسب مشيئته وحكمته، لا لكرامتِه عليه، ويضيِّق على من يشاء، لا لهوانه، بل لحكمته وقضائه ابتلاءً.

وقرأ الأعمش: «لولا مَنَّ اللهُ» بحذف «أن» وهي مزادة، وروي عنه: «منُّ اللهِ» برفع النون والإضافة(١).

وقرأ الجمهور: «لَخُسِفَ» مبنيًّا للمفعول، وحفص وعصمة وأبان عن عاصم وابنُ أبي حماد عن أبي بكر مبنيًّا للفاعل(٢)، وابن مسعود وطلحة والأعمش: «لانْخُسِفَ بنا»(٣)، كقولك: انْقُطِعَ بنا، كأنَّه فعل مطاوعٌ، والمُقَامُ مقامَ الفاعل هو «بنا»، ويجوزُ أن يكون المصدر، أي: لانخسفَ الانخسافُ، ومطاوعُ فعلٍ لا يتعدَّى إلى مفعول به، فلذلك بُني إمَّا لبناءٍ وإمَّا للمصدر.

وعن ابن مسعود أيضاً: «لَتُخُسِّفَ بنا» بتاءٍ وشدِّ السين(٤) مبنيًّا للمفعول.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

لمَّا كان من قول أهل العلم والإيمان: «ثوابُ اللهُ خيرٌ» ذكرَ محلَّ الثواب، وهو الدارُ الآخرة، والمعنى: تلك التي سمعتَ بذكرِها وبلغكَ وصفُها الدارُ الآخرة،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢.

(٢) قراءة الجمهور وحفص عن عاصم في السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢. وذكر مجاهد في السبعة أيضاً رواية أبان عن عاصم.

(٣) المحتسب ٢/ ١٥٧، والقراءة عن ابن مسعود في مختصر في شواذ القرآن ص١١٤، وعن الأعمش وطلحة في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢.

(٤) مختصر في شواذ القرآن ص١١٤.

أي: نعيمُ الدار الآخرة، وهي الجنة، والبقاءُ فيها سرمداً، وعلَّق حصولها على مجرد الإرادة، فكيفَ بمن باشر العلوَّ والفساد. ثم جاء التركيب بـ «لا» في قوله: «ولا فساداً»، فدلَّ على أنَّ كلَّ واحدٍ من العلوّ والفسادِ مقصودٌ، لا مجموعهما.

قال الحسن: العلوُّ: العزُّ والشرف إنْ جرَّ البغيَ. الضحَّاك: الظلم[1]. والفسادُ يعمُّ أنواع الشر. وعن عليٍّ كرم الله وجهه: إنَّ الرجلَ ليعجبُه أنْ يكون شراكُ نعلِه أجودَ من شِرَاك نعلِ صاحبه. فيدخلُ تحتها. وعن الفُضَيْل أنَّه قرأها ثم قال: ذهبتِ الأماني. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردِّدُها حتَّى قُبِض[2].

«فله خيرٌ منها» يحتملُ أن يكونَ «خير» أفعل التفضيل، وأنْ يكون واحدَ الخيورِ، أي: فله خيرٌ بسببِ فعلها. ووضع الظاهرَ موضعَ المُضمَرِ في قوله: «فلا يُجْزى الذين عملوا السيئات» تهجيناً لحالهم وتبغيضاً للسيئةِ إلى قلوب السامعين، ففيه بتكرارِه ما ليس فيه لو كان: فلا يجزون، بالضمير.

و«ما كانوا» على حذف مثل، أي: إلَّا مثلَ ما كانوا يعملون؛ لأنَّ جزاءَ السيئة سيئةٌ مثلها، والحسنةُ بعشر أمثالها.

«إنَّ الذي فرضَ عليك القرآن» قال عطاء: العملَ به. ومجاهد: أعطاكَه. ومقاتل: أنزلَهُ عليكَ، وكذا قال الفراءُ وأبو عبيدة[3].

وقال الزمخشريُّ: أوجبَ عليكَ تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه، يعني إنَّ الذي حمَّلكَ صعوبةَ هذا التكليف ليثيبُك عليها ثواباً لا يحيطُ به الوصف[4].

والمَعاد، قال الجمهور: في الآخرة، أي: باعثُك بعدَ الموت، ففيه إثباتُ الجزاء والإعلامُ بوقوعِه. وعن ابن عباس وأبي سعيد الخدريُّ: المعاد:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧١.

(٢) الكشاف ٣/ ١٩٣. وقول علي أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٤، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٣ (١٧١٨١). قال الآلوسي في روح المعاني ٢٠/ ٢٨٤: ولعلَّ هذا إذا أحب ذلك ليفتخر على صاحبه ويستهينه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٩-٢٥٠. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٣، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٢.

(٤) الكشاف ٣/ ١٩٣.

الموت[١]. وقيل: بيت المقدس. وقيل: الجنة. وكان دخلها ليلةَ المعراج.

وقال ابنُ عباس أيضاً ومجاهد: المعاد: مكّة[٢]. أراد ردَّه إليها يومَ الفتح، ونكَّره والمقصودُ التعظيم، أي: مَعادٍ أيِّ مَعاد، أي: له شأنٌ؛ لغلبة الرسول ﷺ عليها، وقهرِهِ لأهلها، ولظهور عزِّ الإسلام وأهله، فكأنَّ اللهَ وعده وهو بمكّة أنَّه يهاجر منها، ويعودُ إليها ظافراً ظاهراً.

وقيل: نزلت عليه حينَ بلغَ الجُحْفَة في مُهاجَرِه، وقد اشتاقَ إليها، فقال له جبريل: أتشتاق إليها؟ قال: نعم، فأوحاها إليه[٣].

و«مَن» منصوبٌ بإضمار فعلٍ، أي: يَعلمُ مَنْ جاء بالهدى، ومن أجاز أن يأتي «أفْعَل» بمعنى فاعل، وأجاز مع ذلك أن يُنْصَبَ به، جاز أنْ ينتصبَ به؛ إذ يُؤوِّله بمعنى عالم، ويعطيه حكمَه من العمل.

ولمَّا وعدَه تعالى أنَّه يردُّهُ إلى معاد، وأنَّه تعالى فرضَ عليه القرآن، أمرَه أنْ يقول للمشركين ذلك، أي: هو تعالى عالمٌ بمن جاء بالهدى، وهو محمدٌ ﷺ، وبما يستحقُّه من الثواب في مَعاده، وهذا إذا عنى بالمعادِ ما بعد الموت، ويعني بقوله: «ومن هو في ضلالٍ مبين» المشركينَ الذين أمرَه الله بأنْ يبلِّغَهم ذلك، فهو عالمٌ بهم وبما يستحقونَه من العقاب في معادهم، وفي ذلك متاركةٌ للكفار وتوبيخ.

«وما كنت ترجو أن يُلقَى إليك الكتاب» هذا تذكيرٌ لنعمه تعالى على رسوله، وأنه تعالى رَحِمهُ رحمةً لم يتعلَّق بها رجاؤه. وقيل: بل هو معلَّقٌ بقوله «إنَّ الذي فرضَ عليك القرآن» وأنت بحالِ مَنْ لا يرجو ذلك[٤].

وانتصبَ «رحمةً» على الاستثناء المنقطع، أي: لكن رحمةً من ربك سبقت، فألقى إليك الكتاب.

وقال الزمخشريُّ: هذا كلامٌ محمولٌ على المعنى، كأنَّه قيل: وما ألقيَ عليك

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٨/ ٣٤٩.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣. وأخرج قوليهما الطبري ١٨/ ٣٥٠.
(٣) الكشاف ٣/ ١٩٤.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣.

الكتابُ إلَّا رحمةً من ربِّك. انتهى[١]. فيكون استثناء متَّصِلاً، إمَّا من الأحوال، وإمَّا من المفعول له.

وقرأ الجمهور: «يَصُدُّنَّك» مضارع صَدَّ، وشدُّوا النونَ، ويعقوبُ كذلك إلَّا أنَّه خفَّفها[٢].

وقرئ: «يُصِدُّنَّكَ» مضارع أَصَدَّ، بمعنى صدَّ، حكاه أبو زيد عن رجلٍ من كلب، قال: وهي لغةُ قومه[٣]. وقال الشاعر:

أناسٌ أصَدُّوا الناسَ بالسيفِ عنهم صُدودَ السَّواقي عن أُنوفِ الحَوائمِ[٤]

«بعد إذ أُنْزِلَتْ إليك» أي: بعدَ وقت إنزالها، و«إذ» تضاف إليها أسماءُ الزمان، كقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، و«يومئذٍ» و«حينئذٍ». قال الضحَّاك: وذلك حين دعوه إلى دين آبائه[٥]، أي: لا تلتفتْ إلى هؤلاء، ولا تركن إلى قولهم فيصدُّوك عن اتِّباعِ آيات الله. «وادع إلى ربك» أي: إلى دين ربك.

وهذه المناهي كلُّها ظاهرُها أنَّها للرسول ﷺ، وهي في الحقيقة لأتباعِه.

والهَلاكُ يُطلَقُ بإزاء العَدَم المَحْض، فالمعنى أنَّ الله يَعْدَمُ كلُّ شيءٍ سواه، وبإزاء نفي الانتفاع به، إمَّا بالإماتة[٦] أو بتفريقِ الأجزاء وإن كانت باقية، يقال: هَلَك الثوبُ، لا يريدون فناءَ أجزائه، ولكن خروجَه عن الانتفاع به.

(١) الكشاف ٣/ ١٩٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣.
(٣) مختصر في شواذ القرآن ص١١٤، والكشاف ٣/ ١٩٤.
(٤) البيت لذي الرمة، وهو بهذا اللفظ في الصحاح (صدد) والكشاف ٣/ ١٩٤، ولسان العرب (صدد)، ونقل صاحب اللسان عن ابن بري قال: وصواب إنشاده:

صدودَ السواقي عن رؤوس المخارمِ

وكذا جاء على الصواب في ديوان ذي الرمة ٢/ ٧٧١.
والسواقي: مجاري الماء، والمَخْرِم: منقطع أنف الجبل، يقول: صدوا الناس عنهم بالسيف كما صُدَّت هذه الأنهار عن المخارم فلم تستطع أن ترتفع إليها. اللسان (صدد).
(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٢.
(٦) في النسخ: للإماتة. والمثبت من تفسير الرازي ٢٥/ ٢٢.

ومعنى «إلا وَجْهَه» أي: إلَّا إياه. قاله الزجاج[١]. وقال مجاهد والسُّدِّيّ: هالكٌ بالموت إلَّا العلماء، فإنَّ علمهم باقٍ. انتهى[٢]. ويريدون: إلَّا ما قُصِد به وجهُه من العلم فإنَّه باقٍ.

وقال الضحاك: إلَّا الله عز وجل، والعرشُ والجنَّةُ والنَّار. وقيل: ملكه، ومنه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

وقال أبو عبيدة: المرادُ بالوجه جاهه الذي جعله في الناس[٣]. وقال سفيان الثوري: «إلا وجهه»: ما عُمِلَ لذاته ومن طاعتِه، وتُوُجِّه به نحوَه، ومنه قولُ الشاعر:

ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعَمَلُ[٤]

وقولُه: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

«له الحكم» أي: فصلُ القضاءِ. «وإليه ترجعون» أي: إلى جزائه. وقرأ عيسى «تَرْجِعون» مبنيًّا للفاعل[٥]، والجمهور مبنيًّا للمفعول[٦].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٨.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧٣ عن مجاهد.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٣١. وقال الآلوسي في روح المعاني ٢٠/ ٢٩٧: وهو كما ترى لا وجه له.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٤. وهو عجز بيت صدره:

أستغفر الله ذنباً لستُ مُحْصِيَه

وسلف عند تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٤. وهي قراءة يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٢٠٨.
(٦) بعدها في (يه): والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢٨) سورة القصص مكية
وآياتها ثمان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم ﴿١﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿٢﴾ نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴿٣﴾
إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان
من المفسدين ﴿٤﴾ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴿٥﴾
ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقوله: ﴿تلك﴾ أي هذه ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن، وقوله: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر، ثم قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي تكبر وتجبر وطغى، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، وقوله تعالى: ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض – إلى قوله – يحذرون﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون – إلى قوله – يعرشون﴾، وقال تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الإله العظيم الذي لا يخالف أمره ولا يغلب، بل نفذ حكمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم، القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: أنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قبحهم الله تعالى، فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، قال تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها ونفث في روعها، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر، وذهلت أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري، فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ الآية، قال محمد بن إسحاق: اللام هنا (لام العاقبة) لا (لام التعليل) لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، قال تعالى: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾، وقوله تعالى: ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك﴾ الآية، يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته (آسية بنت مزاحم) تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قرة عين لي ولك﴾، فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه، وقوله: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه، وقوله: ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه، وذلك أنه لم يكن

لها ولد منه، وقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد ﴿إن كادت لتبدي به﴾: أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه﴾ أي أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها ﴿قصيه﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿فبصرت به عن جنب﴾ قال ابن عباس: عن جانب، وقال مجاهد: بصرت به عن بعيد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل ثدياً وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، قال الله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي تحريماً قدرياً وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديها، فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عز وجاه ورزق دارّ، ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة، فسبحان من بيده الأمر، يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ أي به ﴿ولا تحزن﴾ أي عليه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ أي فيما وعدها من رده إليها

وجعله من المرسلين، وقوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، قال مجاهد: يعني النبوة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾، ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ قال ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء، وقال ابن المنكدر عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار[1]، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي يتضاربان ويتنازعان، ﴿هذا من شيعته﴾ أي إسرائيلي ﴿وهذا من عدوه﴾ أي قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ قال مجاهد: فوكزه أي طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي كان فيها حتفه فمات، ﴿قال﴾ موسى ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليّ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فلن أكون ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للمجرمين﴾ أي الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي إنه أصبح ﴿في المدينة خائفاً﴾ أي من معرة ما فعل ﴿يترقب﴾ أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى: ﴿إنك لغوي

(١) وهو قول سعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة.

مبين﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه ﴿يا موسى﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿وجاء رجل﴾ وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى، فقال له يا موسى ﴿إن الملأ يأتمرون بك﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ليقتلوك فاخرج﴾ أي من البلد ﴿إني لك من الناصحين﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ أي يتلفت ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي من فرعون وملئه، فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً فرح بذلك، ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً، ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي جماعة يسقون ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، ﴿قال ما خطبكما﴾؟ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء، ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ أي فهذا الحال الملجيء لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿فسقى لهما﴾. روى عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم

لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم[1]. وقوله تعالى: ﴿ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقوله: ﴿إلى الظل﴾ جلس تحت شجرة، قال السدي: كانت الشجرة من شجر السمر، وقال عطاء: لما قال موسى ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ أسمع المرأة.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ أي مشي الحرائر، جاءت مستترة بكم درعها، قال عمر رضي الله عنه جاءت ﴿تمشي على استحياء﴾ قائلة بثوبها على وجهها ليست بسَلْفَع من النساء ولّاجة خرّاجة[2]. ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، بل قالت: ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا، ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ يقول: طب نفساً وقر عيناً فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نجوت من القوم الظالمين﴾. وقد اختلف المفسرون في الرجل من هو؟ **على أقوال**: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين[3]، **وقال آخرون**: بل كان ابن أخي شعيب، **وقيل**: رجل مؤمن من قوم شعيب، **وقال آخرون**: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾، وعن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى (يثرى) صاحب مدين رواه ابن جرير، **ثم قال: الصواب** أن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي قالت

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم واسناده صحيح، ومعنى السلفع: الجريئة من النساء السليطة الجسور كما أفاده الجوهري.

(٣) هذا هو المشهور عند كثير من العلماء وهو قول الحسن البصري.

إحدى ابنتي هذا الرجل قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها: ﴿يا أبت استأجره﴾ أي لرعية هذه الغنم، ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه[1]. وقال ابن مسعود: **أفرس الناس ثلاثة**: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾، ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ أي طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى بنتيه.

وقوله تعالى: ﴿على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية، ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ أي لا أشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك. وفي الحديث: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه»[2]، وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام ﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾ يقول: إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما، فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ أي فلا حرج عليّ، وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما. روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت على (ابن عباس) رضي الله عنه فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما»[3].
وروى ابن جرير عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فرفع حبالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.

* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ

(١) روي هذا القول عن عمر وابن عباس وشريح القاضي وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه عن (عتبة بن المنذر السلمي) مرفوعاً.
(٣) أخرجه البزار عن أبي ذر رضي الله عنه.

﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تقدم أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما[1]. قوله: ﴿وسار بأهله﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أو جذوة من النار﴾ أي قطعة منها ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء، في لحف الجبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو ﴿رب العالمين﴾ الفعال لما يشاء، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات، في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، وقوله: ﴿وأن ألق عصاك﴾ أي التي في يدك، كما في قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى؟ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾، والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿ألقها فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿فلما رآها تهتز﴾ أي تضطرب، ﴿كأنها جان ولى مدبراً﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها واتساع فمها، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فيها، تتقعقع كأنها حادرة في واد، فعند ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي ولم يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال ﴿من غير سوء﴾: أي من غير برص. وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب مما حصل لك من خوفك من الحية؛ **والظاهر** أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده. عن مجاهد قال: كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: «اللهم إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره» فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام، وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار[2]. وقوله تعالى: ﴿فذانك

(١) هو عشر سنين على رأي الجمهور وقال مجاهد: عشر سنين وبعدها عشر أخر رواه عنه ابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد.

برهانان من ربك﴾ يعني جعل العصا حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ يعني ذلك القبطي، ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ أي إذا رأوني، ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ ﴿فأرسله معي ردءاً﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عزَّ وجلَّ، لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾، وقال محمد بن إسحاق: ﴿ردءاً يصدقني﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، فلما سأل ذلك موسى، قال الله تعالى: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من (موسى) على (هارون) عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً، ولهذا قال تعالى في حق موسى ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾، وقوله تعالى: ﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة قاهرة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس﴾، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية .

۞ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عزَّ وجلَّ، من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أي مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، وقوله:

﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يعني مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي المشركون بالله عزَّ وجلَّ.

۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه، وافترائه في دعواه الإلٰهية لعنه الله، كما قال الله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ الآية، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلٰهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾، وقال تعالى إخباراً عنه ﴿فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى﴾ يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك، فقال: ﴿لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وقوله: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إلٰه موسى﴾ يعني أمر وزيره (هامان) مدير رعيته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إلٰه موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ الآية. وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إلٰه غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي في قوله إن ثَمَّ رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال: ﴿وما رب العالمين﴾؟ وقال: ﴿لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وقال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾ وهذا قول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد، ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أهلكناهم

فلا ناصر لهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك، ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ قال قتادة: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾.

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه، وقوله تعالى: ﴿من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ۝ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾، وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى، ثم قرأ: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾[1] الآية، وقوله: ﴿بصائر للناس وهدى ورحمة﴾ أي من العمى والغي، ﴿وهدى﴾ إلى الحق، ﴿ورحمة﴾ أي إرشاداً إلى العمل الصالح، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم، قال تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، ولما أخبره عن نوح وإغراق قومه، قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ الآية. وقال بعد ذكر قصة يوسف ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ الآية، وقال في سورة طه: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، ورواه البزار من طريق آخر عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى ثم قرأ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى﴾.

قد سبق﴾ الآية، وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلّم الله موسى من الشجرة على شاطىء الوادي، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، وقوله تعالى: ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قاله لقومه وما ردوا عليه، ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك إلى الناس رسولاً، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ قيل: المراد أمة محمد، نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني[1]، وقال قتادة: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وهذا أشبه بقوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾، ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾، وقال تعالى: ﴿إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى﴾، وقال تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا﴾، وقوله تعالى: ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم، ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عزَّ وجلَّ، ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ الآية، أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾، وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾ والآيات في هذه كثيرة.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم أنه لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول، فلما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد، والكفر والإلحاد: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ الآية، يعنون مثل العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، حجة وبرهاناً

---

(١) أخرجه النسائي في سننه عن أبي هريرة موقوفاً، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم أيضاً.

له على فرعون وملئه، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿ أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾، وقال تعالى: ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ أي تعاونا، ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أي بكل منهما كافرون، قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا ﴾ قال: يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿ تظاهرا ﴾ أي تعاونا وتناصرا وصدق كل منها الآخر؛ وهذا قول جيد قوي، وعن ابن عباس: ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ قال: يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصري، وأما من قرأ ﴿ سحران تظاهرا ﴾ فروي عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن، قال السدي: يعني صدّق كل واحد منهما الآخر، وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل واختاره ابن جرير، والظاهر أنهم يعنون التوراه والقرآن لأنه قال بعده: ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ﴾، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس - إلى أن قال - وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾، وقال في آخر السورة ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن ﴾ الآية، وقال: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾.

وقد علم بالضرورة لذوي الألباب، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء - فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه - أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف، من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومحلا لبعض ما حرم على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ أي بلا دليل ولا حجة، ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول، وقال السدي: بيّنا لهم القول، وقال قتادة، يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب

يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾، وقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له، قال الله تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول، ثم بالثاني، ولهذا قال: ﴿بما صبروا﴾ أي على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أَمَة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها»، وفي الحديث: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا»[1]، وقوله تعالى: ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في الزكاة المفروضة، وصدقات النفل والقربات، وقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق أعرضوا عنه، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، وقالوا: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها. قال محمد بن إسحاق: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم (أبو جهل بن هشام) في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، قال ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران وفيهم نزلت هذه الآيات ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾، إلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في (النجاشي) وأصحابه رضي الله عنهم، والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

* إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد عن القاسم بن أبي أمامة.

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إنك يا محمد ﴿لا تهدي من أحببت﴾ أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في (أبي طالب) عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً، فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة، روى الزهري عن المسيب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده (أبا جهل بن هشام) و(عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة) فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان عليه بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾(١)، وعن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك، لا أقولها إلا لأقر بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾(٢)

وقوله تعالى: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رزقاً من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي.

يقول تعالى معرّضاً بأهل مكة: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي طغت وأشرت، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان – إلى قوله – فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم، وقوله تعالى: ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد، ثم قال تعالى مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها﴾ وهي مكة ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾، وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ الآية، فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود» ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة، وقيل المراد بقوله: ﴿حتى يبعث في أمها رسولا﴾ أي أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم[1]

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾، وقال: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾، وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه»[2]، وقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة، وقوله تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾، يقول تعالى: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾؟ قال مجاهد: من المعذبين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾.

۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ

(١) حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس ببعيد كما قال ابن كثير.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ
مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؟ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرأوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال الخليل عليه السلام لقومه ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ الآية، وقال الله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب﴾، أي وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، وقوله: ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً * ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا﴾، وقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ النداء الأول سؤال عن التوحيد، وهذا عن إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، ولهذا قال تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب، وقوله: ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي في الدنيا ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي يوم القيامة، و (عسى) من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وربك يخلق

ما يشاء ويختار﴾ أي ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه، وقوله: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾، ولهذا قال: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً، ثم قال تعالى: ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقوله: ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ أي هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب سواه، ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته، ﴿وله الحكم﴾ أي الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته، ﴿وإليه ترجعون﴾ أي جميعكم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أفلا تسمعون﴾؟ ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار ﴿سرمداً﴾ أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾؟ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أفلا تبصرون؟ * ومن رحمته﴾ أي بكم ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل، ﴿ولتبتغوا من فضله﴾[1] أي في النهار بالأسفار والترحال والحركات والأشغال، وقوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ والآيات في هذا كثيرة.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس

(١) هذا النوع يسمى في علم البديع (اللف والنشر المرتب) حيث جمعهما في اللفظ (الليل والنهار) ثم أعاد ما يتعلق بهما الأول على الأول، والثاني على الثاني.

الأشهاد فيقول: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي في دار الدنيا، ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً، ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فعلموا أن الحق لله﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم.

* إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قال: كان ابن عمه[1]، وقال ابن جريج: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث، وزعم محمد بن إسحاق أن قارون كان عم موسى ابن عمران عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم، وقال قتادة: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله، وقوله: ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي الأموال ﴿ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة﴾ أي ليثقل حملها الفِئام من الناس لكثرتها، قال الأعمش: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا، وقيل غير ذلك والله أعلم، وقوله: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾. قال ابن عباس: يعني المرحين، وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه، ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾

(١) وهو قول إبراهيم النخعي وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم.

أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾ أي على علم من الله بي، وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ أي أنه كان يعاني علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليه إلا الله عزَّ وجلّ[1]، وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه، **والصحيح** المعنى الأول، ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾؟ أي قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لكثرة ذنوبهم، قال قتادة ﴿على علم عندي﴾ على خير عندي، وقال السدي: على علم أني أهل لذلك، وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ الآية، وهكذا يقول من قلَّ علمه إذا رأى من وسع الله عليه، لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه، في زينة عظيمة وتجمل باهر، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾»، وقوله: ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ قال السدي: ولا يُلَقَّى الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم، وقال ابن جرير: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة، وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك وجعله من كلام الله عزَّ وجلَّ وإخباره بذلك.

۞ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) ردّ ابن كثير على هذا القول وبيّن أن من ادعى أنه يُحيل ماهية ذات إلى ماهية أُخرى فإنما هو كذب وجهل وضلال، وزغل وتمويه على الناس ثم قال: فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يردّه مؤمن، وقد أجاد رحمه الله في هذا المقام وأفاد.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام، وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه، فدعاه موسى عليه السلام وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا، فاستوت بهم الأرض، وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة، وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره، وقوله تعالى: ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي الذين لما رأوه في زينته: ﴿قالوا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي ليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»، ﴿لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا﴾ أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله، ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد اختلف في معنى قوله ههنا ﴿ويكأن﴾ فقال بعضهم: معناه ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقيل ويك، ودل فتح أن على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة و يكأن، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم. وقيل: معناها ﴿ويكأن﴾ أي ألم تر أن، قاله قتادة: وقيل معناها وي كأن ففصلها، وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن، والله أعلم.

۞ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون ﴿علواً في الأرض﴾ أي ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم، قال عكرمة: العلو: التجبر، وقال سعيد بن جبير: العلو البغي، وقال سفيان الثوري: العلو في الأرض التكبر بغير حق، والفساد أخذ المال بغير حق، وقال ابن جرير ﴿لا يريدون علواً في الأرض﴾ تعظماً وتجبراً، ﴿ولا فساداً﴾ عملاً بالمعاصي. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال»، وقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي يوم القيامة ﴿فله خير منها﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ وهذا مقام الفضل والعدل.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾

أي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ وقال: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾. وقال ابن عباس: ﴿لرادك إلى معاد﴾ يقول: لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن، وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة، وقال الحسن البصري: إي والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة، وقد روي عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخاري في التفسير عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله ﴿لرادك إلى معاد﴾: إلى مولدك بمكة، وعن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ إلى مكة، وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ أنه أجل رسول

الله ﷺ نعي إليه، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لرادك إلى معاد﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله، وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق، وقوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي يتزل عليك، ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فلا تكونن ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للكافرين﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم، ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك، فإن الله معلٍ كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وادع إلى ربك﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿ولا تكونن من المشركين﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا تدع مع الله إلٰهاً آخر لا إلٰه إلا هو﴾ أي لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلٰهية إلا لعظمته، وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ إخبارٌ بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان ٭ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا إياه، وقد ثبت في الصحيح: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد ٭ ألا كل شيء ما خلا الله باطل ٭»[1]، وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا ما أريد به وجهه، وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين: فيقول أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[2]، وقوله: ﴿له الحكم﴾ أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

[آخر تفسير سورة القصص، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار.

[بسم الله الرحمن الرحيم . رب يسر بفضلك] (١)

تفسير سورة القصص

[وهى مكية] (٢) .

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وَكِيع ، عن أبيه ، عن أبى إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسٓمٓ﴾ المائتين ، فقال : ما هى معى ، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله ﷺ : خَبَّاب بن الأرَت . قال : فأتينا خَبّاب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضى الله عنه (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أى : هذه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]أى: نذكر لك الأمر على ما كان عليه،كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال :﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تكبر وتجبر وطغى ،﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى : أصنافاً،قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم.هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ،ويكُدُّهُم ليلا ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقارا ، وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ،

---

(١) زيادة من ت . (٢) زيادة من ف .

(٣) المسند (١ / ٤١٩) .

يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها (١) بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته مَن يكون هلاك مَلك مصر على يديه ، فكانت القبط تَتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وقال : ﴿ **كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك ، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه ، وحتفك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم ، العزيز القوى الشديد المحال ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾ .

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل (٢) ، فَيَلُون(٣) هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك ـ إن استمر هذا الحال ـ أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يَدُرْنَ على النساء ، فمن رأينها قد حملت

(١) فى ف ، أ : « ومنعها منه » .
(٢) فى ف : « أن تفنى بنو إسرائيل » ، وفى أ : « أن يفنى بنو إسرائيل » .
(٣) فى أ : « فيكون » .

أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط ، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبَّاحون ، بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا قَبَّحَهُم الله . فلما حملت أم موسى به ، عليه السلام ، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً ، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى ، عليه السلام ، لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه : ٣٩]. فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها ، وألقى في خلدها ،ونفث في روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً ، ومهدَت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته فى ذلك التابوت ، وسيرته [(١)] فى البحر ، وربطته [(٢)] بحبل عندها . فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت ، وأرسلته فى البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله ، حتى مر به [(٣)] على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملنه ، فذهبن به إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يفتتّن عليها فى فتحه دونها . فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ،فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا [وَحَزَنًا] [(٤)] ﴾ .

قال محمد بن إسحاق وغيره : « اللام » هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى[(٥)] اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية ، فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق : وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى :﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ،وقلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً ، والله يقول : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقوله تعالى :﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاجُّ عنه وتَذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت:﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال: أما لك فَنَعَم ، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه ، وقد تقدم فى حديث الفتون فى سورة « طه » هذه القصة بطولها ، من رواية ابن عباس مرفوعاً عن النسائى وغيره.

---

(١) فى ت : « وأرسلته » .
(٢) فى أ : « وأوثقته » .
(٣) فى أ : « حتى قربه » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٥) فى ت : « يعنى » .

وقوله : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه . وقولها : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي : أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه.

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى ، حين ذهب ولدها فى البحر ، أنه أصبح فارغاً ، أى : من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لَتُظهر أنَّه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها ، لولا أن الله ثَبَّتها وصبَّرها ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أى : أمرت ابنتها ـ وكانت كبيرة تعى ما يقال لها ـ فقالت لها : ﴿قُصِّيهِ﴾ أى : اتبعى أثره ، وخذى خبره ، وتَطَلَّبى شأنه من نواحى البلد . فخرجت لذلك ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ ـ قال ابن عباس : عن جانب .

وقال مجاهد :﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾: عن بعيد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسى ، عليه السلام ، بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك . فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم (١) يشعروا بها ، قال الله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أى : تحريماً قَدَريا ، وذلك لكرامة الله له صانه (٢) عن أن يرتضع غير ثدى أمه ؛ ولأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهى آمنة، بعدما كانت خائفة. فلما رأتهم [أخته] (٣) حائرين فيمن يرضعه قالت :﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ (٤) لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ .

---

(١) فى ت ، ف : « فلم » .
(٢) فى ت : « صيانة » .
(٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت : «يرضعونه » .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكوا فى أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظُؤُورة [(١)] الملك ورجاء منفعته . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به [(٢)] على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديداً . وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاءً جزيلا ، وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها . ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمنا ، فى عز وجاه ورزق دَار . ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضِع ولدها وتأخذ أجرها» ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو نحوه ، والله [سبحانه] [(٣)] أعلم، فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً ، وبعد كل ضيق [(٤)] مخرجاً . ولهذا قال تعالى :﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** ﴾ أى : به ، ﴿ **وَلا تَحْزَنَ** ﴾ أى: عليه ، ﴿**وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين. فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً .

وقوله : ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ أى : حُكْمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس ، وعاقبته محمودة فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٩].

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آتاه الله حكماً وعلماً ـ قال مجاهد : يعنى النبوة ، ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ .

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « صهر » ، والمثبت من حديث الفتون . انظر : الجزء الخامس ، تفسير سورة طه .
(٢) فى ت : « بها » . (٣) زيادة من أ . (٤) فى ت : « ضيقة » .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطى، الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المنْكَدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعَكْرمة ، والسُّدِّى ، وقتادة .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ، ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أى : من بنى إسرائيل[1] ، ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى : قبطى ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلى بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطى ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ .

قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجُمْع[2] كفه .

وقال قتادة : وكزه بعصا كانت معه .

﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ، ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى: بما جعلت لى من الجاه والعزة والمنعة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أى : معينا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى: الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى ، عليه السلام[3] ، لما قتل ذلك القبطى أنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ أى : من مَعَرّة ما فعل ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أى : يتلفت ويتوقع[4] ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذاك[5] الذى استنصره بالأمس على ذلك القبطى يقاتل آخر ، فلما مر موسى، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أى : ظاهر الغواية كثير الشر. ثم عزم على البطش بذلك القبطى ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم

(١) فى ت : « أى إسرائيلى » .
(٢) فى ت : « بجميع » .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى هـ ،ت : « أى يتقلب أى يتوقع » والمثبت من ف ، أ .
(٥) فى ت ، ف : « ذلك » .

يعلم به إلا هو وموسى ، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطى لقفَها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ ، وصفه بالرّجُولية لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : ياموسى ، ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى : يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أى : من البلد ، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أى : يتلفت ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى :من فرعون وملئه . فذكروا أن الله ، سبحانه وتعالى ، بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فالله أعلم .

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مَهْيَعا فرح بذلك ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة ، فجعله هادياً مهدياً .

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر تَرِده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي : جماعة ﴿ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا . فلما رآهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى: لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى. قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عَمْرو (١)

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عروة بن ميمون » والمثبت من مصنف ابن أبى شيبة .

ابن ميمون الأوْدى ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ،ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم . إسناد صحيح (١) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ـ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل مَدْيَنَ حتى سقطت نعل قدمه . وجلس (٢) فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : ﴿ إِلَى الظِّلِّ ﴾: قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثنى الحسين بن عمرو العَنْقَزِىّ (٣) ، حدثنا أبى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال :حَشَتُ (٤) على جمل ليلتين، حتى صَبَّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملى ـ وكان جائعا ـ فأخذها جملى فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى ، عليه السلام ، ثم انصرفت (٥) .

وفى رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها لموسى ، كما سيأتى والله(٦) أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السَّمُر .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى:﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، أسمعَ المرأةَ.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ .

لما رجعت المرأتان سِرَاعاً (٧) بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن

---

(١) المصنف لابن أبى شيبة (١١ / ٥٣٠) .

(٢) فى هـ ، أ : « ولما جلس » . (٣) فى ف : « عمير العنقزى » ، وفى أ : « عمير القفقرى » . (٤) فى ف ، أ : « أخببت » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠ / ٣٧) .

(٦) فى ف : « فالله » . (٧) فى أ : « سريعا » .

خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ** ﴾ أى : مشى الحرائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مستَتِرَة بكم درْعها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا [أبى ، حدثنا] (١) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق، عن عمر بن ميمون قال : قال عمر ، رضى الله عنه : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع (٢) خرَّاجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهرى : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿ **قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾ ، وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت: ﴿ **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾ يعنى : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا . ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ** ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ، ﴿ **قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ يقول : طب نفسا وقَرّ عينا ، فقد خرجتَ من مملكتهم فلا حُكْم لهم فى بلادنا . ولهذا قال: ﴿ **نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبى ، عليه السلام (٣) ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد . ورواه ابن أبى حاتم .

حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا مالك بن أنس ؛ أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص ، قال : ﴿ **لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾.

وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنَزَى أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : « مرحبا بقوم شعيب وأخْتان موسى ، هُديت » (٤) .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه (٥) السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ **وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ** ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام (٦) ، بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف : « تستلفع » .
(٣) فى ف : « صلى الله عليه وسلم » ، وفى أ : « صلى الله عليه » .
(٤) المعجم الكبير (٧/ ٥٥) من طريق حفص بن سلمة عن شيبان بن قيس عن سلمة بن سعد به ، وقال الهيثمى : « فيه من لم أعرفهم».
(٥) فى ت : « عليهما » .
(٦) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

ذكره غير واحد. وما قيل : إن شعيبا عاش مدة طويلة ، إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى[1] بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى [2] ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريبا إن شاء الله . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: « ثبرون»، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون [3] وهو ابن أخى شعيب ، عليه السلام .

وعن أبى حمزة [4] ، عن ابن عباس : الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين . رواه ابن جرير ، ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك .

وقوله : ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ** ﴾ أى : لرعْية هذه [5] الغنم .

قال عمر ، وابن عباس ، وشُريح القاضى ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت: إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمتُ أمامهُ ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت [6] الطريق فاحذفى [لى [7]] بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدّى[8] إليه .

قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس فى عُمَر ، وصاحب يوسف حين قال :﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾ [يوسف :٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾.

قال : ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه [9] ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائى : وهما صفوراً ، وليّا .

وقال محمد بن إسحاق : صفوراً وشرقاً ، ويقال : ليا. وقد استدل أصحاب أبى حنيفة [رحمه الله تعالى] [10] بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : « بعتك أحد هذين العبدين بمائة . فقال : اشتريت » أنه يصح ، والله أعلم .

---

(١) فى ت : « من » .
(٢) فى أ : « لموسى » .
(٣) فى أ : « يثرون » .
(٤) فى ف ، أ : « أبى هريرة » .
(٥) فى أ : « رعية هذا » .
(٦) فى أ : « اختلفت » .
(٧) زيادة من أ .
(٨) فى أ : « لأهتدى » .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « غنمه » .
(١٠) زيادة من ت ، ف .

وقوله : ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أى : على أن ترعى علىّ ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك (١) ، وإلا ففى ثمان كفاية ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : لا أشاقك ، ولا أؤاذيك ، ولا أماريك .

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى ، فيما إذا قال : « بعتك هذا بعشرة نقداً ، أو بعشرين نسيئة » أنه يصح ، ويختار المشترى بأيهما أخذه صح . وحُمل الحديث المروى فى سنن أبى داود : « من باع بيعتين فى بيعة ، فله أوكسهما أو الربا » (٢) على هذا المذهب . وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، فى صحة (٣) استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا فى ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن، حيث قال : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » : حدثنا محمد بن المصفّى الحِمْصى ، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ، عن مسلمة (٤) بن على ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن رَبَاح قال : سمعت (٥) عُتبةَ بن النُّدَّر (٦) يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ ﴿طسم﴾ (٧) ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجَّرَ نفسه ثمانى سنين ـ أو : عشر (٨) سنين ـ على عفة فرجه وطعام بطنه (٩) .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف (١٠) ؛ لأن مسلمة (١١) بن على وهو الخُشَنى الدمشقى البلاطىّ ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد رُوى من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال (١٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رَبَاح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر السلمى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه، وطعمة بطنه » (١٣) .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلهما [فقد] (١٤) برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أى : فلا

(١) فى ت : « لك » .
(٢) سنن أبى داود برقم (٣٤٦١) .
(٣) فى أ : « حجة » .
(٤) فى أ : « سلمة » .
(٥) فى ت : « ثم روى بإسناده عن » .
(٦) فى هـ، ت : « المنذر » ، والمثبت من ف ، وسنن ابن ماجه .
(٧) فى ت : « طس » .
(٨) فى ت : « أو عشرة » .
(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٤٤) وضعفه البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٠) لتدليس بقية بن الوليد .
(١٠) فى ت : « وهذا الحديث فيه ضعف من هذا الوجه » .
(١١) فى أ : « سلمة » .
(١٢) فى أ : « فقال » .
(١٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٤٩٥) « كشف الأستار » من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة بأطول منه ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .
(١٤) زيادة من أ .

حرج على مع أن الكامل ـ وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال [الله][(١)] تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] .

وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمى ، رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم فى السفر ـ فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر» [(٢)] ، مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ قال البخارى :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مَرْوان بن شُجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدَمَ على حَبْر العرب فأسألَه . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه البخارى [(٣)] ، وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع فى « حديث الفُتُون » ، من رواية القاسم ابن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ؛ أن الذى سأله رجل من أهل النصرانية . والأول أشبه ، والله أعلم ، وقد رُوِى من [(٤)] حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطوسى ، حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إبراهيم بن يحيى ابن أبى يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «سألت جبريل : أىّ الأجلين قضى موسى قال : أكملهما وأتمهما » [(٥)] .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدى ، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ حدثنى إبراهيم ابن يحيى بن أبى يعقوب ـ وكان من أسنانى أو أصغر منى ـ فذكره .

قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ ، فذكره . ثم قال : لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه [(٦)] .

وقال [(٧)] ابن أبى الحاتم : قُرِئَ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الحضرمى ، عن يوسف بن تيرح : أن رسول الله ﷺ سئل : أىّ

---

(١)زيادة من ف ، أ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٩٣) والنسائى فى السنن (٤/ ١٨٥) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٤) .

(٤) فى ت : « روى طرق مرسلة من » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٠/ ٤٤)

(٦) قال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (١/ ١٢٤) : « إبراهيم بن يحيى العدنى عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة ، وحديثه عن الحميدى ومتنه : سأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام أى الأجلين قضى موسى، انتهى . وهذا الرجل ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الأزدى : لا يتابع فى حديثه ، وأخرج الحاكم حديثه المذكور فى المستدرك » .

(٧) فى ف : « ثم قال » .

الأجلين قضى موسى؟قال: «لا علم لى». فسأل رسول الله ﷺ جبريل، فقال جبريل: لا علم لى، فسأل جبريل ملكا فوقه فقال: لا علم لى. فسأل (١) ذلك المَلَك ربه ـ عز وجل ـ عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد ﷺ فقال الرب سبحانه وتعالى: «قضى أبرهما وأبقاهما ـ أو قال: أزكاهما » (٢) .

وهذا مرسل ، وقد جاء مرسلا من وجه آخر ، وقال (٣) سُنَيد : حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيْج قال : قال مجاهد : إن النبى ﷺ سأل جبريل : « أىّ الأجلين قضى موسى ؟ » فقال : سوف أسأل إسرافيل . فسأله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فسأله فقال : « أبرهما وأوفاهما » (٤).

طريق أخرى مرسلة أيضا : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن محمد بن كعب القُرظى قال : سُئِل رسول الله ﷺ : أىّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : «أوفاهما وأتمهما » (٥) .

فهذه طرق متعاضدة ، ثم قد (٦) روى [هذا] (٧) مرفوعاً من رواية أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عَوْبَد بن أبى عمران الجَوْنى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبى ذر : أن النبى ﷺ سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما » ، قال : « وإن سئلتَ أىّ المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » .

ثم قال البزار : لا نعلم يروى عن أبى ذر إلا بهذا الإسناد (٨) .

وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث عَوبَد بن أبى عمران ـ وهو ضعيف ـ ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن الندر (٩) بزيادة غريبة جدا ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا عمر بن الخطاب السجستانى ، حدثنا يحيى بن بُكَيْر ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النّدر(١٠) يقول : إن رسول الله ﷺ سُئِل : أىّ الأجلين قَضَى موسى؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » . ثم قال النبى ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، لما أراد فراق شعيب، عليه السلام ، أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به . فأعطاها ما ولدت غنمه فى ذلك العام من قالِب لَون . قال : فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قَوالب ألوان كلها ، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فَشُوش ولا ضبُوب ، ولا كَميشة تُفَوّت الكف ، ولا ثَعُول » . وقال رسول الله ﷺ : « إذا (١١) افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها، وهى السامرية » (١٢).

---

(١) فى ف ، أ : « عز وجل » .
(٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٥) « كشف الأستار » .
(٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤، ٥) تفسير الطبرى (٢٠/٤٤).
(٦) فى ف : « وقد » .
(٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) مسند البزار برقم (٢٢٤٤) « كشف الأستار » .
(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : « المنذر » .
(١١) فى أ : « إنكم إذا » .
(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٦) « كشف الأستار» .

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبى حاتم بأبسط من هذا (١) ، فقال :

حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير ، حدثنى عبد الله بن لهيعة (ح)وحدثنا أبوزرعة، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمى ، عن على بن رباح اللخمى قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر (٢) السلمى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى ، عليه السلام (٣) ، آجر نفسه بعفة فرجه وطُعمة بطنه. فلما وفى الأجل ـ قيل : يارسول الله ، أىّ الأجلين ؟ قال ـ : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب (٤) لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى ، عليه السلام، إلى عصاه فَسَمَّاها من طرفها ، ثم وضعها فى أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال :« فأتأمت وأثلثت ، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ـ قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبُوب . قال أبو زرعة : الصواب ضَبُوب ـ ولا عزُوز ولا ثَعُول ولا كميشة تُفَوّت الكف » . قال النبى ﷺ : « فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » .

وحدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لَهيعة : ماالفشوش ؟ قال : التى تَفُشّ بلبنها واسعة الشَّخب . قلت : فما الضبوب ؟ قال: الطويلة الضرع تجره . قلت : فما العَزُوز ؟ قال : ضيقة الشَّخب . قال فما الثَعُول ؟ قال : التى ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال : التى تُفَوّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لَهيعة المصرى ـ وفى حفظه سوء ـ وأخشى أن يكون رفعه خطأ ، والله أعلم . وينبغى أن يُرْوَى ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبوب ولا ثعول ولا كميشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من (٥) كلام أنس بن مالك ـ موقوفا عليه ـ ما يقارب بعضه بإسناد جيد (٦) ، فقال : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لما دعى نبى الله موسى ، عليه السلام ، صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها لك . فعمد فرفع حبالاً على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة ، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام (٧).

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)

(١) فى ت : « بزيادة غريبة » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المنذر » . (٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٤) فى ت : « قابله » . (٥) فى ت : « عن » .
(٦) فى ت : « ما يقارب هذا » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٠/٤٤) .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ .

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله (١) : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ** ﴾ أى : الأكمل منهما ، والله (٢) أعلم .

قال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : قضى عشر سنين ، وبعدها عشرا أخر . وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والله (٣) أعلم .

وقوله : ﴿ **وَسَارَ بِأَهْلِهِ** ﴾ : قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زَنده لا يُضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك [إذ] (٤) ﴿ **آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا** ﴾ أى : رأى نارا تضىء له على بعد ، ﴿ **قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** ﴾ أى : حتى أذهب إليها ، ﴿ **لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ** ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ **أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ** ﴾ أى : قطعة منها (٥) ، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ أى : تَتَدفؤون بها من البرد. قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ** ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى (٦) : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ** ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحُف الجبل مما يلى الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناداه ربه: ﴿ **مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يتهم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العُلّيق ، وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج .

وقال قتادة : هى من العوسج ، وعصاه من العوسج .

وقوله تعالى : ﴿ **أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى

---

(١) فى أ : « حيث قال » . (٢) فى ت : « فالله » . (٣) فى ف : « فالله » .

(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « قطعة من النار » . (٦) فى ت : « قال الله تعالى » .

ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي : التي في يدك .كما قرره على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٧، ١٨]. والمعنى : أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ، فعرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشىء : كن ، فيكون . كما تقدم بيان ذلك فى سورة « طه » .

وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خَلْق قوائمها [١] واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتنحدر فى فيها تتقعقع ، كأنها حادرة فى واد . فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ : قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شىء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يَخف ، إن شاء الله، وبه الثقة .

قال [٢] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال [٣] : كان موسى ، عليه السلام ، قد مُلئ قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ،إنى أدرأ بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره، ففرّغ [٤] الله ما كان فى قلب موسى ، عليه السلام ، وجعله فى قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعنى : إلقاءه العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ـ دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لدين الله ، [والله

---

(١) فى ت : « عظم خلقها » ، وفى ف : « عظم خلقتها » .

(٢) فى ت : « روى » .

(٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) فى ت ، ف ، أ : « فنزع » .

أعلم] (١).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾ .

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعنى : ذلك القبطى ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أى : إذا رأونى . ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ ، وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدرّة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٧ ـ ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا [يُصَدِّقُنِي] (٢) ﴾ ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أنجع فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم [عنى](٣) .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منَّةً على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولا معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال [الله تعالى] (٤) فى حق موسى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة قاهرة ، ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى [لرسوله محمد ﷺ] (٥) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ [وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ] (٦) وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ، كما قال

---

(١) زيادة من ف . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من أ .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من ت ، أ . (٦) زيادة من ت ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله » .

تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١، ٥٢].

ووجه ابن جرير على أن المعنى: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾، ثم يبتدئ فيقول: ﴿ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾، تقديره: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا (١).

ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره. فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي: مفتعل مصنوع. وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد معهم ذلك.

وقوله (٢): ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر (٣) الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى. فقال موسى، عليه السلام، مجيباً لهم: ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ ﴾ يعني: مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أي: النصرة والظفر والتأييد، ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي: المشركون بالله.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٤٨).

(٢) في ت، ف: «وقولهم».

(٣) في ف: «وما نرى».

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة ـ لعنه الله ـ كما قال تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ، [و] (١) قال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ ـ ٢٦] يعنى: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصَرِّحا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجُرّا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع ـ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن (٢) فرعون بنى هذا الصرح الذى لم يُرَ فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثَمّ رباً غيرى ، لا أنه كذبه فى أن الله أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ،فإنه قال:﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير .

وقوله :﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ أى : طغوا وتجبروا ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة (٣) ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٣ ، ١٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أى : أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ أى : فاجتمع عليهم خزى الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[محمد : ١٣] .

وقوله : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ (٤) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى : وشرع الله لعنتهم ولعنة مَلِكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ .قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

---

(١) زيادة من ت ، ف .

(٢) فى ت : « أن » .

(٣) فى ت : « لا قيامة ولا معاد » .

(٤) فى ت : « فأتبعناهم » .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعنى : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا : حدثنا عوف ، عن أبى نَضْرَة ، عن أبى سعيد الخُدْرى قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التى مسخوا قردة ، ألم تر أن الله يقول : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ (١) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث عوف بن أبى جَميلة (٢) الأعرابى ، بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن يحيى القَطَّان ، عن عوف ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد موقوفاً (٣) . ثم رواه عن نصر بن على ، عن عبد الأعلى ، عن عوف ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد ـ رفعه (٤) إلى النبى ﷺ ـ قال : « ما أهلكَ الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ، ثم قرأ :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾(٥).

وقوله : ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أى : من العمى والغى ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أى : إرشادا إلى الأعمال الصالحة ،﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

---

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٥٠) .
(٢) فى أ : « حبلة » .
(٣) مسند البراز برقم (٢٢٤٧) « كشف الأستار » .
(٤) فى ت : « مرفوعا » .
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٤٨) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٨٨) : « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح » .

رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى :﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى: ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك .وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى :﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة :﴿ **ذلك من أنباء** (١) **القرى نقصه عليك**﴾ [هود: ١٠٠] ، وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه :﴿**كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا ـ بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له ـ : ﴿ **وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ يعنى : يامحمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿ **وما كنت من الشاهدين**﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله : ﴿ **وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا**﴾ أى : وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، ﴿ **ولكنا كنا مرسلين**﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ ـ قال أبو عبد الرحمن النسائى ، فى التفسير من سننه : أخبرنا على بن حُجْر ، أخبرنا عيسى ـ وهو ابن يونس ـ عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن على ابن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَة ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**﴾، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى، وأجبتكم قبل أن تدعونى .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث جماعة،عن حمزة ـ وهو ابن حبيب الزيات ـ عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن على بن مُدْرِك ، عن أبى زُرْعَة ـ وهو ابن عمرو بن جرير (٢) ـ أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم.

وقال مُقاتِل بن حَيَّان :﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**﴾: أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا

---

(١) فى ت ، ف : « الغيب » وهو خطأ .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠/٥١) والذى فيه من طريق سفيان ويحيى بن عيسى .

بك إذا بعثت .

وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا ـ والله أعلم ـ أشبه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ﴾.

ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى :﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال :﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات : ١٦] ، وقال: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : ٥٢] .

وقوله :﴿ وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم ، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَن تَقُولُوا (١) إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾[الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧]، وقال :﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥]،وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة :١٩]،والآيات فى هذا كثيرة [والله أعلم] (٢).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول : أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٣) ، قالوا على

---

(١) فى ت ، ف : « يقولوا » .

(٢) زيادة من ف ،أ .

(٣) فى أ : « صلى الله عليه وسلم ».

وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿ **لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ** ﴾ ، يعنون ـ والله أعلم ـ : من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقص [١] الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما : ﴿ **أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ** ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿ **قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ ،أى تعاونا ، . ﴿ **وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ** ﴾ أى : بكل منهما كافرون . ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسى وهارون ، دل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر :

فَمَا أدْرِى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً ... أريدُ الخَيْرَ أيهُمَا يَلِينْى

أى : فما أدرى أيلينى الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ قال : يعنى : موسى وهارون ﷺ [٢] ﴿ **تَظَاهَرَا** ﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد ابن جبير وأبو رَزين فى قوله: ﴿ **سَاحِرَانِ** ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قَوىّ ،والله أعلم .

وقال مسلم بن يَسَار ، عن ابن عباس ﴿ **قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ يعنى : موسى ومحمداً ، صلوات الله وسلامه عليهما [٣] . وهذا رواية عن الحسن البصرى .

وقال الحسن وقتادة : يعنى : عيسى ومحمداً ، صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجر له ذكر هاهنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿ **سِحْرَانِ تَظَاهَرَا** ﴾ ، فقال على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس . يعنون: التوراة والقرآن . وكذا قال عاصم الجَندَىّ ، والسُّدِّىُّ ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى: يعنى صَدّق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . وهو رواية عن أبى زُرْعَة ، واختاره ابن جرير [٤] .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . والله ، سبحانه ، أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة : ﴿ **سِحْرَانِ** ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ** ﴾ ،وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما فى قوله تعالى ﴿ **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ إلى أن قال: ﴿ **وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** ﴾ [الأنعام: ٩١ ، ٩٢] ،

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « تنقيص » .   (٢) فى ف ، أ : « عليهما السلام » .   (٣) فى ف : « عليهما وسلم » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٠/٥٣).

وقال في آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، وقالت الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] (١) ﴾ [الأحقاف : ٣٠] وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل [الله] (٢) على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد، ﷺ (٣) ، وهو القرآن، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمما للتوراة ومُحلا لبعض ما حُرِّم على بنى إسرائيل . ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل.

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ ، قال مجاهد : فصلنا لهم القول .

وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صُنع بمن مضى وكيف هو صانع،﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد وغيره : ﴿وَصَّلْنَا لَهُم﴾ يعنى : قريشا . وهذا هو الظاهر ، لكن قال حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى بن جَعْدَة ، عن رفاعة ـ رفاعة هذا هو ابن قَرَظَة القُرَظى ، وجعله ابن منده : رفاعة بن سموال ، خال صفية بنت حيى ، وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير (٤) ـ قال : نزلت : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه (٥) .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ .

(١) زيادة من أ . (٢) زيادة من ف .
(٣) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٢/ ٢٢٨) .
(٥) تفسير الطبرى (٢٠/ ٥٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٥٣) من طريق حماد بن سلمة به

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء (١) من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] .

قال سعيد بن جبير : نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يسٓ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ ، حتي ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

قال الله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى[يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثانى] (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على اتباع الحق ؛ فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين من حديث عامر الشعبى ، عن أبى بُرْدَة ، عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤتَونَ أجرهم مرّتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعَبْد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورَجُل كانت له أمَة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيلَحينى ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن سليمان (٤) بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : إنى لتحتَ رَاحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولا حسناً جميلا ، وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا] (٥) » (٦) .

وقوله ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى : لا يقابلون السيئ (٧) بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خَلْق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات .

---

(١) فى ت ، ف : « الألباء » وفى أ : « الألباب » .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .
(٤) فى ، أ : « سليم » .
(٥) زيادة من ف ، أ ، ومسند أحمد .
(٦) المسند (٥/٢٥٩) .
(٧) فى ت ، ف ، أ : « يقابلون على السيئ » .

وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفه عليهم سَفيه ، وكَلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه ، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب . ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نُحبها .

قال محمد بن إسحاق فى السيرة ، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين [(١)] بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ـ ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ـ فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا [(٢)] لهم : خَيَّبَكُم الله مِنْ ركب .بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم [(٣)] بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؛ ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا لهم .فقالوا [لهم][(٤)]: سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نَألُ أنفسَنا خيرا[(٥)] .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران ، فاللّه أعلم أىّ ذلك كان [(٦)] .

قال : ويقال ـ واللّه أعلم ـ إن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال : وقد سألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن أنْزلْن [(٧)] ، قال : مازلتُ أسمع من علمائنا أنهن أنزلن [(٨)] فى النجاشى وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التى [(٩)] فى سورة المائدة :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢، ٨٣] .

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ .

---

(١) فى أ : « حتى » .
(٢) فى أ : « فقال » .
(٣) فى ت : « فتأتونهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٢) .
(٦) فى أ : « كما » .
(٧) فى ت : « نزلت » ، وفى ف ، أ : « نزلن » .
(٨) فى أ : « نزلن » .
(٩) فى أ : «اللاتى» .

يقول تعالى لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه : إنك يامحمد ﴿ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى :﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة :٢٧٢] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغَوَاية، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عَمّ رسول الله ﷺ ، وقد كان يَحوطُه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً [شديداً] (١) طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة (٢) التامة .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيَّب ، عن أبيه ـ وهو المسيب بن حَزْن المخزومى ، رضى الله عنه ـ قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ :« ياعم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب،أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » .فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ .

أخرجاه (٣) من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه (٥) مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، من حديث يزيد بن كَيْسَان ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيْرَةَ قال : لما حَضَرَتْ وفاةُ أبى طالب أتاه رسولُ الله ﷺ فقال : « يا عمَّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تُعَيِّرنى (٦) بها قريش ، يقولون : ما حمله عليه إلا جَزَع الموت ، لأقررْتُ بها عينَك ، لا أقولها إلا لأُقرَّ بها عينك . فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. وقال الترمذى : حسن غريب (٧) ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان (٨) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثنى أبو حازم ، عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٩).

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) فى أ : « الحجة » .
(٣) فى ت : « البخارى ومسلم » .
(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) فى ف : « يعيرنى » .
(٧) فى ت : « رواه الترمذى وقال :حسن صحيح » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٨٨) .
(٩) المسند (٢/ ٤٣٤) .

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبى ، وقتادة : إنها نزلت فى أبى طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ﷺ أن يقول : « لا إله إلا الله » ، فأبى عليه ذلك ، وقال [١] : أىْ ابن أخى ، ملةَ الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب .

وقال [٢] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم [٣] ، عن سعيد بن أبى راشد قال : كان رسول قيصر جاء [٤] إلىَّ قال : كتب معى قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه فى حجره ، ثم قال : « ممن الرجل؟ » قلت : من تنوخ[٥] . قال : « هل لك فى دين أبيك إبراهيم الحنيفية ؟ » قلت : إنى رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم . فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال [٦] : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾[٧].

وقوله : ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ : [يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع [٨] الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾][٩] ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيبا لهم : ﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا** ﴾ يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحَرَم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

وقوله : ﴿ **يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أى : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ **رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ أى : من عندنا ، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا .

وقد قال [١٠] النسائى : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جُرَيْج ، أخبرنى ابن أبى مُلَيْكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه - : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذى قال : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ [١١] .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ

---

(١) فى أ : « وكان » . (٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) فى أ : « جاراً » . (٥) فى هـ : « تيرح » والمثبت من ف ، أ .
(٦) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .
(٧) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٤١) من طريق حماد بن سلمة بنحوه .
(٨) فى أ : « اتباعهم » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « وقد روى » . (١١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٥) .

آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾ .

يقول تعالى مُعَرِّضاً بأهل مكة فى قوله : ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا**﴾ أى : طغت وأشرت وكفرت نعمة الله (١) ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [النحل : ١١٢، ١١٣] ولهذا قال : ﴿**فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ أى : دَثَرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : ﴿**وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقد ذكر ابن أبى حاتم [هاهنا] (٢) عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر : إن سليمان ، عليه السلام (٣) ، قال للهامة ـ يعنى البومة ـ : ما لك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فما لك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أغرق قوم نوح به . قال : فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله عز وجل ، ثم تلا : ﴿**وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾ .

ثم قال الله (٤) مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا**﴾ وهى مكة ﴿ **رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**﴾ .فيه دلالة على أن النبى الأمى ، وهو محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٥) ، المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجام ، كما قال تعالى : ﴿ **لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى :﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقال :﴿**لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام : ١٩]، وقال : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ [هود : ١٧] . وتمام الدليل [قوله] (٦) : ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى (٧) أمها وأصلها التى ترجع إليها. وثبت فى الصحيحين عنه ، صلوات الله وسلامه عليه (٨) ، أنه قال:« بعثت إلى الأحمر والأسود» . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد بقوله : ﴿**حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا**﴾ أى : أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم. حكاه الزمخشرى وابن الجوزىّ ، وغيرهما ، وليس ببعيد .

---

(١) فى ف : « بنعم الله » ، وفى أ : « نعم الله » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .

(٤) فى ت ، ف : « تعالى » .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٧) فى ت ، ف ، أ : « فى » .

(٨) فى ف ، أ : « صلى الله عليه وسلم » .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا (١) ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦]، وقال : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقال : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٦، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة ، إلا كما يَغْمِس أحدكم إصبعه فى اليم ، فَلْيَنظُر ماذا يرجع إليه » (٢).

[وقوله] (٣) : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ أى : أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ : يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ، ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين .

ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٥٨] .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿ أَيْنَ

---

(١) فى ت : « عن الحياة الدنيا وحقارتها » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « تعقلون » .

شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

وقوله :﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعنى : من الشياطين والمَرَدَة والدعاة إلى الكفر ،﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم : ٨١، ٨٢] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥ ،٦] ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله (١) :﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة : ١٦٦، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [أى] (٢) : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أى : وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله :﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا. وهذا كقوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا. وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣] .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك (٣) ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله (٤) ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه . . هاه .لا أدرى ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

وقال مجاهد: فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾

---

(١) فى ت ، ف : « تعالى » ، وفى أ : « الله تعالى » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى أ : « من نبيكم وما دينكم » .

(٤) فى ف ، أ : « عبده »

أى: يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه.

وقوله : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة. وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فإن المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى : يعلم ما تكن [1] الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] .

وقوله :﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ،﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى [2] كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

---

(١) فى هـ ، أ : « مكتمة » والمثبت من ت ، ف .

(٢) فى ت ، ف : « فيجزى » .

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا قوامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ﴾ أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي : بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي : خلق هذا وهذا ،﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي : في الليل ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر .

وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات في هذا كثيرة (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ .

وهذا أيضاً نداء [ثان] (٢) على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر،يناديهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ على رؤوس الأشهاد فيقول :﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي:في الدار الدنيا .

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ : قال مجاهد : يعني : رسولا . ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ،﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي : لا إله غيره ، أي : فلم ينطقوا ولم يحيروا (٣) جوابا ،﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ .

---

(١) بعدها في ت ، ف :

« فصل : فانظر إلى هذه الآيات وما تضمنته من العبرة والدلالة على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً ؟ يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت من النفوس راحتها وثباتها ، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها . جاء فالق الإصباح سبحانه بالنهار ، فقدم حيثه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق ، وأزالها وكشفها عن العالم ، فإذا هم مبصرون ،فانتشر الحيوان ، وتصرف في معايشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها ، فيا له من ميعاد ! ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ومشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً ، منعها من الاعتبار والاستدلال به على النشأة الثانية ، وإحياء الخلق بعد موتهم، كما وردت السنة بذلك ، أنه يستجاب للعبد إذا قام من نومه يقول : الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا وإليه النشور » .

(٢) زيادة من أ . (٣) في ت : « فلم يجيبوا » .

قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ** ﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النَّخَعى ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام (١) .

قال ابن جُرَيْج : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يَسَار : أن قارون كان عم موسى (٢)، عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دِعَامة : كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى ، فأهلكه البغى لكثرة ماله.

وقال شَهْر بن حَوْشَب : زاد فى ثيابه شبراً طولا ، ترفعاً على قومه .

وقوله : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ** ﴾ أى : [من] (٣) الأموال ﴿ **مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾ أى : ليُثْقِلُ حملُها الفئامَ من الناس لكثرتها .

قال الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حُملت على ستين بغلا أغر محجلا . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال(٤) ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ أى : مما أباح الله فيها (٥) من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك

---

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) فى ف ، أ : « موسى بن عمران » .
(٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت ، ف ، أ : « المال » .
(٥) فى ت ، ف : « لك » .

حقاً ، ولزورك عليك حقا ، فآت كل ذى حق حقه .

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ،﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض (١) ، وتسىء إلى خلق الله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ،﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ أى : أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولمحبته لى فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فىّ أنى أهل له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا(٢) مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الزمر : ٤٩] . أى : على علم من الله بى ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت : ٥٠] أى : هذا أستحقه .

وقد رُوى عن بعضهم أنه أراد : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ أى : إنه كان يعانى علم الكيمياء: وهذا القول ضعيف ؛ لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل ؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ، قال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، وفى الصحيح عن النبى (٣) ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » (٤) . وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل وتمويه ، وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله تعالى (٥) من خَرْق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات ، واختياره وفعله ، كما روى عن حَيْوة بن شُرَيح المصرى ، رحمه الله ، أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ، ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار [فى هذا] (٦) كثيرة جداً يطول ذكرها .

(١) فى أ : « فى الأرض » .
(٢) فى ت ، أ : « وإذا » وهو خطأ .
(٣) فى ف : « رسول الله » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١) .
(٥) فى ت ، ف : « سبحانه » .
(٦) زياة من ت ، ف ، أ .

وقال بعضهم : إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به ، فتموّل بسببه .والصحيح المعنى الأول ؛ولهذا قال الله تعالى ـ راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ـ: ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ : على خير عندى .

وقال السدى : على علم أنى أهل لذلك .

وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ،وقرأ : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى] (١) .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قارون :إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زُخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون.

[كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾] (٢) [السجدة : ١٧] » (٣) .

وقوله : ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ : قال السدى : وما يلقى الجنة (٤) إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى (٥) هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة .وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) .

(٤) فى أ : « وما يلقاها أى الجنة » .

(٥) فى أ : « وما يلقاها » .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح ـ عند البخارى من حديث الزهرى ، عن سالم ـ : أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به (١) ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، نحوه (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعمش ، عن عطية(٣)، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله (٤) ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج فى بُرْدَيْن أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد (٥)، وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خَيْثَمَةَ ، حدثنا أبو معلى بن منصور (٦) ، أخبرنى محمد بن مسلم ، سمعت زياداً النميرى يحدث عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن (٧) كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٨) .

وقد ذكر [الحافظ] (٩) محمد بن المنذر ـ شكَّر ـ فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً فى مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إلى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب .

وقد ذُكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبى الله موسى ، عليه السلام (١٠) . واختلف فى سببه، فعن ابن عباس والسدى : أن قارون أعطى امرأة بَغيّاً مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ، فتقول : ياموسى ، إنك فعلت بى كذا وكذا . فلما قالت فى الملأ ذلك (١١) لموسى ، عليه السلام ، أرْعدَ من الفَرَق ، وأقبل عليها (١٢) وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فَرَق البحر ، وأنجاكم منَ فرعون ، وفعل كذا و [فعل] (١٣) كذا،

---

(١) فى ت : « خسف الله به » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٧٩٠) .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » . (٤) فى ت : « النبى » .
(٥) المسند (٣/ ٤٠) .
(٦) فى هـ : « أبو يعلى بن منصور » والصواب ما أثبتناه من مسند أبى يعلى . (٧) فى ف ، أ : « ممن ».
(٨) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٧٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٢٦) : « فيه زياد بن عبد الله النميرى وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان وقال : يخطئ » .
(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » . (١١) فى أ : « بذلك » .
(١٢) فى أ : « بعد ما » . (١٣) زيادة من ف ، أ .

لما أخبرتني بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نَشَدْتَنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا ، على أن أقول لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خَرّ موسى لله عز وجل ساجداً ، وسأل الله فى قارون . فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان (١) ذلك .

وقيل : إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك ، وهو راكب على البغال الشّهب ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصّبّغة (٢) ، فمر فى جَحْفَله ذلك على مجلس نبى الله موسى ، عليه السلام ، وهو يذكرهم بأيام الله . فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه . فدعاه موسى ، عليه السلام ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى ، أما لئن كنت فُضِّلتَ عَلَيَّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لنخرجن ، فلتدعون عليّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى (٣) : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى (٤) : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، مُر الأرض أن تطيعنى (٥) اليوم . فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال : خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم .ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى (٦) فاستوت بهم الأرض .

وعن ابن عباس أنه قال : خُسف بهم إلى الأرض السابعة .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ،فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات [غريبة] (٧) أضربنا عنها صفحًا .

وقوله : ﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ أى : ما أغنى عنه مالُه وما جَمَعه ، ولا خدمه و [لا] (٨) حشمه . ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله [به] (٩) ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له [لا] (١٠) من نفسه ،ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ** ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينته ﴿ **قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ **وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى : ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه [وعن عباده] (١١) ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (١٢) .

﴿ **لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** ﴾ أى : لولا لُطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف

---

(١) فى ف ، أ : « وكان » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « المصبغة » .
(٣) فى ت : « صلى الله عليه وسلم »، وفى ف ، أ : « عليه السلام » . (٤) فى ف ، أ : « قال : ياموسى » .
(٥) فى ت : « فلتطعنى » . (٦) فى أ : « اذهبوا به لا أرى » . (٧، ٨) زيادة من ت ، ف .
(٩ ـ ١١) زيادة من أ .
(١٢) المسند (١/٣٨٧) .

به ، لأنا وَدِدْنا أن نكون مثله .

﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُون ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد اختلف النحاة فى معنى قوله تعالى [هاهنا] (١) : ﴿ وَيْكَأَن ﴾ ، فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلم أن » ، ولكن خُفِّفت فقيل : « ويك » ودل فتح « أن » على حذف « اعلم » . وهذا القول ضعَّفه ابن جرير (٢) ، والظاهر أنه قوى ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة «ويكأن » . والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم .

وقيل : معناها : ويكأن ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كأن » ، ففصلها وجعل حرف « وى » (٣) للتعجب أو للتنبيه ، و « كأن » بمعنى « أظن وأحسب » . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى : ألم تر أن ، واستشهد بقول الشاعر (٤) :

سَأَلَتَانى الطَّلاق أنْ رَأَتَانى ... قَلَّ مَا لى ، قَدْ جِئْتُمَانى بنُكر
وَيْكأنْ مَنْ يكُن له نَشَب يُحْـ ... ـبَب، ومن يَفْتقِرْ يَعشْ عَيشَ ضُرّ

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علواً فى الأرض ، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر .

وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى .

وقال سفيان بن سعيد الثورى ، عن منصور ، عن مسلم (٥) البطين : العلو فى الأرض : التكبر بغير حق . والفساد : أخذ المال بغير حق .

وقال ابن جُرَيْج : ﴿ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ﴾ تعظماً وتجبراً (٦) ، ﴿ وَلا فَسَادًا ﴾ : عملا بالمعاصى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان (٧) ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل (٨) فى قوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) تفسير الطبرى (٢٠/٧٧) .
(٣) فى أ : « أى » .
(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، والبيت فى تفسير الطبرى (٢٠/٧٧) .
(٥) فى أ : « سالم » . (٦) فى ف : « ولا تجبرا » . (٧) فى أ : « أشعب السماك » .
(٨) فى أ : « فدخل » .

وهذا محمول على ما إذا أراد [بذلك] [(١)] الفخر [والتطاول] [(٢)] على غيره ؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت فى الصحيح ، عن النبى ﷺ [أنه قال] [(٣)] : « إنه أوحى إلى أن تَواضَعُوا ، حتى لا يفخَرَ أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » [(٤)] ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ردائى حسناً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحبّ الجمال » .

وقال [(٥)] : ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا** ﴾ أى : ثواب الله خير من حَسَنَة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة فهذا [(٦)] مقام الفضل .

ثم قال : ﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام الفصل العدل .

﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)** ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسولَه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ، ﴿ **لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأعراف : ٦]، وقال : ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ [قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ]** [(٧)] ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، [وقال] [(٨)] : ﴿ **وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال السدى عن أبى صالح ، عن [(٩)] ابن عباس : ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾، يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد مثلها .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، [و] [(١٠)] عن ابن عباس ، رضى الله عنهما :﴿ **لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ قال : إلى يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهرى .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه .
(٥) فى ت ، ف : « وقوله » . (٦) فى ف : « وهذا » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) زيادة من ت ، أ . (٩) فى ت : « وقال » . (١٠) زيادة من ت

وقال الثورى ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس (١) : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى الموت .

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .

وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبى قَزَعَةَ ، وأبى مالك ، وأبى صالح .

وقال الحسن البصرى : أى والله ، إن له لمعاداً (٢) ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد رُوى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه (٣) :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العُصْفُرىّ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى مكة .

وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى ـ وهو ابن عبيد الطَّنَافسىّ ـ به(٤) . وهكذا روى العَوْفىّ ، عن ابن عباس : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

[وحدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة ، عن الضحاك] (٥) قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة ، فبلغ الجُحْفَة ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيا ، والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا مَعْمَر ، عن قتادة فى قوله :﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : هذه مما كان ابن عباس يكتمها، وقد رَوَى ابنُ أبى حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال فى قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : إلى بيت المقدس .

وهذا ـ والله أعلم ـ يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله ، صلوات الله وسلامه عليه (٦) ، كما فسره ابن عباس

---

(١) فى ت : « وعنه » . (٢) فى ت : « إنه لمعاد » .

(٣) فى ت : « كما روى البخارى بإسناده » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٦) وتفسير الطبرى (٢٠/ ٨٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « أجل النبى صلى الله عليه وسلم » .

بسورة ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ أنه أجَلُ رسول الله ﷺ نُعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله :﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح [١] خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله :﴿ **قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين** ﴾ أى : قل ـ لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ـ قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم :﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب** ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحى [٢] إليك أن الوحى ينزل عليك ، ﴿ **إلا رحمة من ربك** ﴾ أى : إنما نزل [٣] الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ **فلا تكونن ظهيرا** ﴾ أى : معيناً ﴿ **للكافرين** ﴾ ، [أى][٤]: ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

﴿ **ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك** ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك [٥] لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتك ، ومؤيدٌ دينك ، ومظهر ما أرسلت[٦] به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿ **وادع إلى ربك** ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، ﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو** ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته .

وقوله :﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى:﴿ **كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أى : إلا إياه .

وقد ثبت فى الصحيح ، من طريق أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر [كلمة] [٧] لَبيد :

ألا كلُّ شىء مَاخلاَ اللهَ بَاطِلُ » [٨] .

وقال مجاهد والثورى فى قوله : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ،

---

(١) فى أ : « وأنصح » . (٢) فى أ : « الذكر » .
(٣) فى ت ، أ : « أنزل » . (٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « طريقتك » . (٦) فى أ : « ما أرسلك » . (٧) زيادة من ف ، أ ، وصحيح البخارى .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٤١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٥٦) .

وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ   رَبَّ العبَاد ، إلَيه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله (١) عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية(٢) وهالكة وزائلة إلا ذاته (٣) تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .

قال (٤) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب « التفكر والاعتبار » : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال: كان (٥) ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها ، فينادى بصوت حزين فيقول: أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾** .

وقوله : **﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾** أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ، **﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** أى : يوم معادكم ، فيجزيكم (٦) بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، [والله أعلم .

آخر تفسير سورة « القصص »] (٧)

---

(١) فى ف : « به وجه الله » ، وفى أ : « به وجهه » .
(٢) فى ت : « تفنى » .
(٣) فى ت : « وجهه » .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) فى ت : « بسنده أن » .
(٦) فى ت : فيجازيكم » .
(٧) زيادة من ف ، أ .

تفسير سورة القصص

وهي مكية

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: حدثنا يحيىٰ بن آدم ، حدثنا وكيع ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن معد يكرب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿ طسم ﴾ المائتين ، فقال : ما هي معي ، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : خبّاب بن الأرَت[١] . قال : فأتينا خبّاب بن الأرت[٢] ، فقرأها علينا رضي الله عنه(١) .

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ
أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ **تلك** ﴾ ، أي : هذه ﴿ **آيات الكتاب المبين** ﴾ ، أي : الواضح الجليّ الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

وقوله : ﴿ **نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾ أي : نذكر [الأمر كما][٣] كان عليه كأنك شاهد وكأنك

(١) المسند (٤١٩/١) ، ومعدي كرب هو الهمداني ، ويقال : العبدي . ترجمه البخاري في التاريخ الكبير (٤١/٨) ، وابن أبي حاتم (٣٩٨/٨) ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا ، وذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ٤٥٨) . وأبو إسحاق مدلس وقد عنعن .

[١] - في ز ، خ : « الأرث » . [٢] - في ز ، خ : « الأرث » .

[٣] - ما بين المعكوفين في ت : «لك الأمر على ما» .

حاضرة .

ثم قال : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض** ﴾ ، أي : تكبّر وتجبّر وطغىٰ ، ﴿ **وجعل أهلها شيعًا** ﴾ ، أي : أصنافًا ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته .

وقوله : ﴿ **يستضعف طائفة منهم** ﴾ ، يعني : بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، هذا ، وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد ، يستعملهم في أخس الأعمال ، ويَكُدُّهُم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم ؛ إهانة لهم واحتقارًا ، وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من[١] أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته علىٰ يديه ، وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرىٰ له مع جبارها ما جرىٰ ، حين أخذ سارة ليتخذها جارية ، فصانها اللّٰه منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه ، فبشر إبراهيم - عليه السلام - ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مَلك مصر علىٰ يديه ، وكانت[٢] القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكر[٣] بني إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل اللّٰه إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ، ولهذا قال : ﴿ **ونريد أن نمن علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ ، وقد فعل تعالىٰ بهم ذلك ، كما قال : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنىٰ علىٰ بني إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ وقال : ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسىٰ ، فما نفعه ذلك مع[٤] قَدَر الملك العظيم الذي لا يُخالف أمره القدري ، بل نفذ حكمه وجرىٰ قلمه في القِدَم[٥] بأن يكون إهلاك فرعون علىٰ يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلتَ بسببه ألوفًا من الولدان إنما[٦] منشؤه ومرباه علىٰ فراشك ، وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه[٧] ، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك علىٰ يديه ، لتعلم أن رب السموات العُلا هو القاهر الغالب العظيم ، العزيز القويّ الشديد المحال ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا

[١] - في ز ، خ : « منه » .

[٢] - في ت : « فكانت » .

[٣] - في ت : « ذكور » .

[٤] - في ز ، خ : « من » .

[٥] - في ز ، خ : « القدر » .

[٦] - في ز ، خ : « وإنما » .

[٧] - في ز ، خ : « تنفذه » .

تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل ، خافت القبط أن يُفْني بني إسرائيل ، فَيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك ؛ فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا ، فولد هارون - عليه السلام - في السنة التي يتركون فيها الولدان[١] ، وولد موسىٰ - عليه السلام - في السنة التي يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلين[٢] بذلك ، وقوابل يَدُرْنَ[٣] علىٰ النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت[٤] ولادتها لا يَقْبَلُها إلا نساء القبط ، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذباحون ، بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا قبَّحَهُمُ الله . فلما حملت أم موسىٰ به - عليه السلام - لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن[٥] لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا ، وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًّا زائدًا ، وكان موسىٰ - عليه السلام - لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعًا وشرعًا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **وألقيت عليك محبة مني**﴾ فلما ضاقت ذرعًا به أُلْهِمَتْ في سِرِّها ، وأُلقِيَ في خَلَدِها ، ونُفِثَ في رُوعِها ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ **وأوحينا إلىٰ أم موسىٰ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ . وذلك أنه كانت دارها علىٰ حافة النيل ، فاتخذت تابوتًا ، ومَهَدت فيه مهدًا ، وجعلت [ترضع ولدها][٦] ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه جعلته في ذلك التابوت ، وسيرته في البحر ، وربطته[٧] بحبل عندها . فلما كان [في بعض الأيام][٨] دخل عليها [أحد ممن][٩] تخافه ، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته

---

[١] - سقط من : خ ، ز .
[٢] - في ت : « موكلون » .
[٣] - في ز : « يدورون » .
[٤] - سقط من : خ ، ز .
[٥] - في ز ، خ : « يفطن » .
[٦] - ما بين المعكوفين في ز ،خ :« ترجع ولدًا » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .
[٨] - ما بين المعكوفتين في ت : « ذتن يوك ».
[٩] - ما بين المعكوفتين في ز : « من » .

في البحر وذهلت عن أن تربطه ، فذهب مع الماء واحتمله ، حتىٰ مر به علىٰ دار فرعون ، فالتقطه الجواري فاحتملنه ، وذهبن[١] به إلىٰ امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، وخشين أن يَفْتَتِنَ عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ، فأوقع اللّٰه محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد اللّٰه[٢] من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا** ﴾ .

قال محمد بن إسحاق وغيره : « **اللام** » ههنا[٣] لام العاقبة ، لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك . ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلىٰ معنىٰ السياق فإنه تبقىٰ اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله - تعالىٰ - قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا ، فيكون أبلغ [في إبطال][٤] حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ .

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتابًا إلىٰ قوم من القدرية ، في تكذيبهم بكتاب اللّٰه وبأقداره النافذة في علمه السابق : وموسىٰ في علم اللّٰه السابق لفرعون عدو وحزن ، قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **ونري[٥] فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ ، وقلتم أنتم : لو شاء فرعون أن يكون لموسىٰ وليًّا وناصرًا ، واللّٰه يقول : ﴿ **ليكون لهم عدوًّا وحزنًا** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قُرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون** ﴾ ، يعني أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل، فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحَاجّ[٦] عنه وتَذِبُّ دونه ، وتحببه إلىٰ فرعون ، فقالت : ﴿ **قرة عين لي ولك** ﴾ ، فقال : أمّا لكِ فنَعَم ، وأما لي فلا . فكان كذلك ؛ فهداها[٧] اللّٰه به ، وأهلكه اللّٰه علىٰ يديه . وقد تقدم في حديث الفتون في « **سورة طه** » هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعًا عند النسائي وغيره .

وقوله : ﴿ **عسىٰ أن ينفعنا** ﴾ ، وقد حصل لها ذلك ، وهداها اللّٰه به ، وأسكنها الجنة بسببه .

وقولها : ﴿ **أو نتخذه ولدًا** ﴾ ، أي : أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه[٨] ، وذلك أنها[٩] لم

---

[١] - في ت : « فذهبن » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « ههنا » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « لنري » .
[٦] - في ز ، خ : « تحاجج » .
[٧] - في ت : « وهداها » .
[٨] - في خ ، ز : « وتثبت له » .
[٩] - في ز ، خ : « أنه » .

يكن لها ولد منه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ، أي : لا يدرون ما أراد اللَّه منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة [البالغة ، والحجة القاطعة][١] .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فؤاد أم موسىٰ ، حين ذهب ولدها في البحر : إنه أصبح فارغًا ، أي : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسىٰ ؛ قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو عبيدة ، والضحاك ، والحسن البصري ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ ، أي : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لَتُظهر أنَّه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها ، لولا أن اللَّه ثبَّتها وصبَّرها ؛ قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **لولا أن ربطنا علىٰ قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصّيه** ﴾ ، أي : أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعي ما يقال لها - فقالت لها : ﴿ قصّيه ﴾ ، أي : اتبعي أثره ، وخذي خبره ، وتَطَلَّبي شأنه من نواحي البلد . فخرجت لذلك ، ﴿ **فبصُرتْ به عن جُنُب** ﴾ ، قال ابن عباس : عن جانب .

وقال مجاهد : ﴿ **فبصرت به عن جنب** ﴾ عن بعيد .

وقال قتادة :جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وذلك أنه لما استقر موسىٰ - عليه السلام - بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه ، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم ، فلم يقبل منها ثديًا ، وأبىٰ أن يقبل شيئًا من ذلك .

---

[١] - في خ ، ز : « والحجة البالغة » .

فخرجوا به إلىٰ سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ ، أي : تحريمًا قَدَريًّا ، وذلك لكرامة اللَّه له ، صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سببًا إلىٰ رجوعه إلىٰ أمه ، لترضعه وهي آمنة ، بعد ما كانت خائفة . فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿ **قالت هل أدلكم علىٰ أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ .

قال ابن عباس : لما قالت ذلك أخذوها ، وشكُّوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُئُورة[١] الملك ورجاء منفعته . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به علي أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا .

وذهب البشير إلىٰ امرأة الملك ، فاستدعت أم موسىٰ ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاءً جزيلًا ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها . ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلًا وأولادًا ، ولا أقدر علىٰ المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلىٰ ذلك ، وأجْرَتْ عليها النفقة والصلات[٢] والكساوي والإحسان الجزيل. فرجعت أم موسىٰ بولدها راضية مرضية، قد أبدلها اللَّه من بعد خوفها أمنًا ، في عز وجاه ورزق دارٍّ؛ ولهذا جاء في الحديث : « **مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير ، كمثل أم موسىٰ ترضع ولدها وتأخذ أجرها** » . ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل : يوم وليلة ، أو[٣] نحوه ، واللَّه أعلم ، فسبحان من بيده الأمر ! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجًا ، وبعد كل ضيق مخرجًا ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فرددناه إلىٰ أمه كي تقر عينها** ﴾ ، أي : به ، ﴿ **ولا تحزن** ﴾ ، أي : عليه ، ﴿ **ولتعلم أن وعد اللَّه حق** ﴾ ، أي : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا .

وقوله : ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ، أي : حُكْمَ اللَّه في أفعاله وعواقبها المحمودة ، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريهًا إلىٰ النفوس ، وعاقبته محمودة في نفس الأمر ، كما قال تعالىٰ : [﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسىٰ أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم** ﴾ ، وقال تعالى][٤] : ﴿**فعسىٰ أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا**﴾ .

---

[١] - في خ ، ز : « صهر » .
[٢] - في ز : « الصلاة » .
[٣] - في ز ، خ : « أي » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن
شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ
بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالىٰ مبدأ أمر موسىٰ - عليه السلام - ذكر أنه لما بلغ أشده واستوىٰ ، آتاه اللّٰه حكمًا وعلمًا . قال مجاهد : يعني النبوة : ﴿ **وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ .

ثم ذكر تعالىٰ سبب وصوله إلىٰ ما كان تعالىٰ قَدّر له من النبوة والتكليم : قضية قتله ذلك القبطيّ ، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلىٰ بلاد مدين ، فقال تعالىٰ : ﴿ **ودخل المدينة علىٰ حين غفلة من أهلها** ﴾ ، قال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء .

وقال ابن المنكدر ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدي ، وقتادة .

﴿ **فوجد فيها رجلين يقتتلان** ﴾ ، أي : يتضاربان ويتنازعان ، ﴿ **هذا من شيعته** ﴾ ، أي : من بني إسرائيل ، ﴿ **وهذا من عدوه** ﴾ ، أي : قبطي ؛ قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلي موسىٰ[١] عليه السلام ، ووجد موسىٰ فرصة ، وهي[٢] غفلة الناس ، فعمد إلىٰ القبطي ﴿ **فوكزه موسىٰ فقضىٰ عليه** ﴾ .

[قال][٣] مجاهد : وكزه ، أي : طعنه بجُمعِ[٤] كفّه .

وقال قتادة : وكزه بعصا[٥] كانت معه .

﴿ **فقضىٰ عليه** ﴾ ، أي : كان فيها حتفه فمات ، ﴿ **قال**[٦] ﴾ موسىٰ : ﴿ **هذا من عمل**

---

[١] - في ت : « بموسى » .
[٢] - في ز ، خ : « وهو » .
[٣] - في ت : « وقال » .
[٤] - في خ ، ز : « بجميع » .
[٥] - في ز ، خ : « بعصاه » .
[٦] - في ز ، خ : « فقال » .

الشيطان ، إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليّ ﴾ ، أي : بما جعلت لي من الجاه والعز[١] والمنعة **﴿ فلن أكون ظهيرًا ﴾** ، أي : معينًا : **﴿ للمجرمين ﴾** ، أي : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ - عليه السلام - لما قتل ذلك القبطي : إنه أصبح **﴿ في المدينة خائفًا ﴾** ، أي : من مَعَرة ما فعل **﴿ يترقب ﴾** ، أي : يتلفت[٢] و[٣]يتوقع ما يكون من هذا الأمر ، فمر في بعض الطرق ، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس علىٰ ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر موسىٰ استصرخه علىٰ الآخر ، فقال له موسىٰ : **﴿ إنك لغويّ مبين ﴾** ، أي : ظاهر الغواية كثير الشر . ثم عزم علىٰ البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسىٰ إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : **﴿ يا موسىٰ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس ﴾** ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسىٰ عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلىٰ باب فرعون فألقاها عندهم[٤] ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم علىٰ قتل موسىٰ ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قال تعالىٰ : **﴿ وجاء رجل ﴾** ، وصفه بالرّجُولية ؛ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه ، فسبق إلىٰ موسىٰ ، فقال له : يا موسىٰ ، **﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾** ، أي : يتشاورون فيك **﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾** ، أي : من البلد ، **﴿ إني لك من الناصحين ﴾** .

---

[١] - في ت : « العزة » .
[٢] - في ز ، خ : « يتقلب » .
[٣] - في ز ، خ : « أي » .
[٤] - في ت : « عنده » .

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله ، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ، ﴿ **فخرج منها خائفًا يترقب** ﴾ ، أي : يتلفت ، ﴿ **قال رب نجني من القوم الظالمين** ﴾ ، أي : من فرعون وملئه . فذكروا أن الله - سبحانه وتعالىٰ - بعث له ملكا علىٰ فرس ، فأرشده إلىٰ الطريق ، فالله أعلم .

﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ أي : أخذ طريقًا سالكًا مَهْيَعًا. فرح بذلك ، ﴿ **قال عسىٰ ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾ ، أي : إلىٰ الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك ، وهداه إلىٰ الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة ، فجعله هاديًا مهديًا .

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ أي : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء .

﴿ **وجد عليه أمة من الناس** ﴾ أي : جماعة ﴿ **يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان** ﴾ ، أي : تكفكفان غنمهما أن[١] ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا . فلما رآهما موسىٰ - عليه السلام - رق لهما ورحمهما ، ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ ، أي : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ **قالتا لا نسقي حتىٰ يُصْدِرَ الرِّعاء** ﴾ ، أي : لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ، ﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾ ، أي : فهذا الحال الملجئ لنا إلىٰ ما ترىٰ . قال الله تعالىٰ : ﴿ **فسقىٰ لهما** ﴾ .

قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو[٢] ابن ميمون الأودي ، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن موسىٰ - عليه السلام - لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة علىٰ البئر ،

---

[١] - في ز : « أي » .
[٢] - في خ ، ز : « عروة » .

ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه[١] ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم . إسناد صحيح (٢) .

وقوله : ﴿ ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلتَ[٢] إليَّ من خير فقير ﴾ ، قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا فما وصل [إلى][٣] مَدْيَنَ حتى سقطت نعل قدمه و[٤]جلس في الظل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

وقوله : ﴿إلى الظل﴾ قال ابن عباس وابن مسعود والسدى : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير(٣) : حدثني الحسين بن عمرو العنقزي ، حدثنا أبي ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : حَثَثْتُ على جمل ليلتين ، حتى صَبَّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي - وكان جائعًا - فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى - عليه السلام - ثم انصرفتُ . وفي رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها موسى ، كما سيأتي ، والله أعلم .

وقال السدى : كانت من شجر السَّمُر .

و[٥]قال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾ ؛ أَسْمَعَ المرأة .

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (١١/٥٣٠) .
(٣) تفسير الطبري (٢٠/٣٧) .

[١] - في ز ، خ : « فحدثاه » .
[٢] - في ز ، خ : « أنزل » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٤] - في ز : « ولما » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .

تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سِراعًا بالغنم إلىٰ أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعًا ، فسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسىٰ عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلىٰ أبيها . قال الله تعالىٰ : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي علىٰ استحياء ﴾ ، أي : مَشْيَ الحرائر ؛ كما روي عن أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - أنه قال : كانت مستترة بكم درعها .

وقال ابن أبي حاتم : [حدثنا أبي][١] ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عمر - رضي الله عنه - : جاءت تمشي علىٰ استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع خرّاجة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهري : السلفع[٢] من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ ، وهذا تأدب في العبارة[٣] ، لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ ، يعني : ليثيبك ويكافئك علىٰ سقيك لغنمنا . ﴿ فلما جاءه وقصّ عليه[٤] القصص ﴾ ، أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرىٰ له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ، ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ . يقول : طب نفسًا وقَرّ عينًا ، فقد خرجتَ من مملكتهم فلا حُكم لهم في بلادنا ؛ ولهذا قال : ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل : من هو ؟ علىٰ أقوال ؛ أحدها : أنه شعيب النبيّ - عليه السلام - الذي أرسل إلىٰ أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا ابن عبد العزيز الأويسي[٥] ، حدثنا مالك بن أنس : أنه بلغه أن شعيبًا هو الذي قصّ عليه موسىٰ القصص ، قال : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ز : « العيادة » [٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « الأودي » . وهو تحريف . وما أثبتناه من تفسير ابن ابي حاتم . وهو الصواب . وانظر ترجمته في تهذيب الكمال [١٨/ ١٦٠] .

وقد روىٰ الطبراني(٤) عن سلمة بن سعد العَنَزي ، أنه وفد علىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال له : « **مرحبًا بقوم شعيب وأَخْتَانِ موسىٰ ، هُدِيت** » .

وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسىٰ - عليه السلام - بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه[١] : ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ . وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل - عليه السلام - بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسىٰ والخليل - عليهما السلام - مدة طويلة تزيد علىٰ أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد . وما قيل : إن شعيبًا عاش مدة طويلة ، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال . ثم من المقوّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص علىٰ اسمه في القرآن هاهنا ، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسىٰ ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريبًا إن شاء الله . ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه : « **ثيرون**[٢] » ، والله أعلم .

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون هو ابن أخي شعيب عليه السلام .

وعن أبي حمزة[٣] ، عن ابن عباس : الذي استأجر موسىٰ يثري[٤] [صاحب مدين][٥] . رواه ابن جرير ، ثم قال : والصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ، و لا خبر[٦] تجب به[٧] الحجة في ذلك .

وقوله : ﴿ **قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويُّ الأمين** ﴾ ، أي : قالت إحدىٰ ابنتي هذا الرجل - قيل : هي التي ذهبت وراء موسىٰ عليه السلام - قالت لأبيها : ﴿ **يا أبت استأجره** ﴾ ، أي : لرعْية[٨] هذه الغنم .

قال عمر ، وابن عباس ، وشُريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : ﴿ **إن خير من استأجرت القويُّ الأمين** ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اجتنبتُ الطريق فاحذفي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأتهدى إليه .

---

(٤) المعجم الكبير (٧/٥٥) من طريق حفص بن سلمة عن شيبان بن قيس عن سلمة بن سعد به ، وقال الهيثمي : « فيه من لم أعرفهم » .

---

[١] - في ز ، خ : « لقوم » .
[٢] - في ب : « ثبرون » .
[٣] - في خ ، ز : « سمرة » .
[٤] - في ز : « يتري » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - في ز ، خ : « فيه » .
[٨] - في ز : « رعية » .

قال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي عُبيدة ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عُمر ، وصاحب يوسف حين قال : ﴿ **أكرمي مثواه** ﴾ ، وصاحبة موسىٰ حين قالت : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويُّ الأمين** ﴾ .

قال : ﴿ **إني أريد أن أنكحك إحدىٰ ابنتيّ هاتين** ﴾ ، أي : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعىٰ عنه ، ويزوجه إحدىٰ ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجبائي : وهما صفورا وليا .

وقال محمد بن إسحاق : صفورا وشرقا ، ويقال : ليا .

وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية [علىٰ صحة][١] البيع فيما إذا قال : بعتك أحد[٢] هذين العبدين بمائة . فقال[٣] : اشتريت أنه يصح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **علىٰ أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك** ﴾ ، أي : علىٰ أن ترعىٰ عليّ ثماني سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي ثمان كفاية ، ﴿ **وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين** ﴾ أي : لا أشاقك ، ولا أؤاذيك[٤] ، ولا أماريك .

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي فيما إذا قال : بعتك هذا بعشرة نقدًا ، أو بعشرين نسيئة ، أنه يصح ، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح ، وحَمِلَ الحديث المروي في سنن أبي داود : « **من باع بيعتين في بيعة ، فله أوكسهما أو الربا** »(٥) . علىٰ هذا المذهب . وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث علىٰ هذا المذهب - نظرٌ ، ليس هذا موضع بسطه لطوله ، والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في كتابه السنن ، حيث قال : باب استئجار الأجير علىٰ طعام بطنه : حدثنا محمد بن المصفّىٰ الحمْصي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة بن عليّ ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن عليّ ابن رَبَاح ، قال[٥] : سمعت عُتبة بن النُّدَّر[٦] يقول : كنا عند رسول الله صلىٰ الله عليه

(٥) سنن أبي داود برقم (٣٤٦١) .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « بصحة »

[٢] - في ز ، خ : « إحدى » .

[٣] - في ز ، خ : « قال » .

[٤] - في ت : « أؤذيك » .

[٥] - في ز ، خ : « يقول » .

[٦] - في ز ، خ : « المنذر » .

وسلم فقرأ ﴿ **طسم** ﴾ ، حتىٰ إذا بلغ قصة موسىٰ قال : « **إن موسىٰ آجر نفسه ثماني سنين - أو : عشر[١] سنين - علىٰ عفة فرجه وطعام بطنه** »(٦) .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف ؛ لأن مسلمة بن عليّ - وهو الخُشَني الدمشقي البلاطيّ - ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد رُوي من وجه آخر ، وفيه نظر أيضًا .

فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد اللّٰه بن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن عليّ بن رَبَاح اللخمي ، قال : سمعت عتبة بن النُّدَّر[٢] السلمي صاحب رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يحدث أن رسول اللّٰه - صلىٰ اللّٰه عليه وسلم - قال : « **إن موسىٰ آجر نفسه بعفة فرجه ، وطعمة بطنه** »(٧) .

وقوله تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ -عليه السلام- : ﴿ **قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ واللّٰه علىٰ ما نقول وكيل** ﴾ ، يقول : إن موسىٰ قال لصهره : الأمر علىٰ ما قلت من أنك استأجرتني علىٰ ثماني سنين ، فإن أتممت عشرًا فمن عندي ، فأنا متىٰ فعلت أقلهما برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ، ولهذا قال : ﴿ **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ** ﴾ ، أي : فلا حرج عليّ مع أن الكامل - وإن كان مباحًا - لكنه فاضل من جهة أخرىٰ ، بدليل من خارج ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه** ﴾ .

وقال رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، لحمزة بن عمرو الأسلمي - رضي اللّٰه عنه - وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر فقال : « **إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر** »(٨) . مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر. هذا، وقد دل الدليل علىٰ أن موسىٰ - عليه السلام - إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ، قال البخاري(٩) :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شُجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير [قال][٣] : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضىٰ موسىٰ ؟ فقلت : لا أدري حتىٰ أقدمَ علىٰ حَبْر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن

---

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٤٤٤) ، وضعفه البوصيري في الزوائد (٢/٢٦٠) لتدليس بقية بن الوليد .

(٧) ورواه البزار في مسنده برقم (١٤٩٥) « كشف الأستار » من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة بأطول منه ، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٨) رواه أحمد في مسنده (٣/٤٩٣) ، والنسائي في السنن (٤/١٨٥) .

(٩) صحيح البخاري برقم (٢٦٨٤) .

---

[١] - في ز ، خ : « عشرة » .

[٢] - في ز ، خ : « المنذر » .

[٣] - ما بين المعكوفتين مكررة في ز ، خ .

عباس - رضي اللَّه عنه - فقال : قضىٰ أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول اللَّه إذا قال فعل . هكذا رواه البخاري ، وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع في « **حديث الفُتُون** » ، من رواية القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير : أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية ، والأول أشبه ، واللَّه أعلم . وقد رُوي من حديث ابن عباس مرفوعًا :

قال ابن جرير(١٠) : حدثنا أحمد بن محمد الطوسي ، حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثني إبراهيم بن يحيىٰ بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **سألت جبريل : أيّ الأجلين قضىٰ موسىٰ ؟ قال : أكملهما وأتمهما** » . ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدي ، عن سفيان - وهو ابن عيينة - حدثني إبراهيم بن يحيىٰ بن أبي يعقوب - وكان من أسناني أو أصغر مني - فذكره .

قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه البزار(١١) عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عيينة [ ][١]، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فذكره ، ثم قال : لا نعرفه مرفوعًا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : قُرئَ علىٰ يونس بن عبد الأعلىٰ ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيىٰ بن ميمون الحضرمي ، عن يوسف بن [سَرْح][٢] ، أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم سئل : أيّ الأجلين قضىٰ موسىٰ ؟ قال : « **لا علم لي** » . [فسأل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم جبريل ، فقال جبريل : لا علم لي][٣]. فسأل جبريل ملكًا فوقه فقال : لا علم لي . فسأل ذلك الملك ربه - عز وجل - عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - فقال الرب سبحانه وتعالىٰ : « **قضىٰ[٤] أبرهما وأبقاهما - أو قال :**

(١٠) تفسير الطبري (٢٠/٤٤) .

(١١) قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (١/١٢٤) : « إبراهيم بن يحيى العدني عن الحكم بن أبان وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة ، وحديثه عن الحميدي ومتنه : سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - جبريل عليه السلام أي الأجلين قضى موسى ، انتهى . وهذا الرجل ذكره ابن حبان في الثقات . وقال الأزدي : لا يتابع في حديثه ، وأخرج الحاكم حديثه المذكور في المستدرك » .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « عن إبراهيم » .

[٢] - في ز ، خ ، ت : « تيرح » . وهو تحريف وتشويه . والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم . وترجمته في الجرح والتعديل [٩/ ٢٢٣] ولكنه لم يصرح بتحديث يحيى بن ميمون عنه ، وقد صرح بذلك الدارقطني فقال في المؤتلف والمختلف [٣/ ١٢٢٥] : يوسف بن سرح ، مصري ، روى عنه يحيى بن ميمون الحضرمي .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٤] - سقط من : ز ، خ .

أزكاهما - »(١٢) .

وهذا مرسل: وقد جاء مرسلًا من وجه آخر، قال[١] سُنَيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: قال مجاهد: إن النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم سأل جبريل: « **أيّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ فقال: سوف أسأل إسرافيل. فسأله فقال: سوف أسأل الرب عز وجل. فسأله فقال: أبرهما وأوفاهما** »(١٣) .

(طريق أخرىٰ مرسلة أيضًا) قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: سُئل رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم: أيّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: « **أوفاهما وأتمهما** »(١٤) .

فهذه طرق متعاضدة، ثم قد روي مرفوعًا من رواية أبي ذر - رضي اللّه عنه -: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو عبيد اللّه يحيىٰ بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عَوْبَدْ بن أبي عمران الجوني[٢]، عن أبيه، عن عبد اللّه بن الصامت، عن أبي ذر: أن النبي - صلىٰ اللّه عليه وسلم - سُئل: أيّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: « **أوفاهما وأبرهما** ». قال: « **وإن سُئلتَ**[٣]: **أيّ المرأتين تزوّجَ؟ فقل: الصغرىٰ منهما** ».

ثم قال البزار: لا نعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد(١٥) .

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عوْبَدْ بن أبي عمران - وهو ضعيف - ثم قد روي أيضًا نحوه من حديث عتبة بن النُّدَّر[٤] بزيادة غريبة جدًا، فقال أبو بكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني، حدثنا يحيىٰ بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن عليّ بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّدَّر[٥] يقول: إن رسول الله صلىٰ اللّه عليه وسلم سُئل: أيّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: « **أبرهما وأوفاهما** ». ثم قال النبي، صلىٰ اللّه عليه وسلم: « **إنّ موسىٰ - عليه السلام - لما أراد فراق شعيب - عليه السلام - أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالِب لَون** ». قال: « **فما مرت شاة إلا ضرب [جنبها موسى]**[٦] **بعصاه، فولدت**

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٤٥) « كشف الأستار ».
(١٣) (١٤) تفسير الطبري (٤٤/٢٠).
(١٥) مسند البزار برقم (٢٢٤٤) « كشف الأستار ».

[١] - في ز، خ: « وقال ».
[٢] - في ز، خ: « الحري ».
[٣] - في ز، خ: « سألت ».
[٤] - في ز، خ: « المنذر ».
[٥] - في ز، خ: « المنذر ».
[٦] - في ز: « موسى جنبها ».

قَوَالب ألوان(*)[١] **كلها ، وولدت ثنتين وثلاثًا كل شاة ليس فيها فَشُوش ولا ضَبُوب ولا كميشة**[٢] **تُفَوِّت الكف ، ولا ثَعُول**(**) » . وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها ، وهي السامرية** »(١٦) .

هكذا أورده البزار . وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا فقال :

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيىٰ بن عبد الله بن بكير ، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن عليّ بن رباح اللخمي، قال: سمعت عتبة بن النُّدَّر[٣] السلمي صاحب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **إن موسىٰ – عليه السلام – آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه . فلما وفّى الأجل** » . قيل : يا رسول الله ؛ أي الأجلين ؟ – قال : « **أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولد**[٤] **من غنمه من قالب**[٥] **لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسىٰ – عليه السلام – إلىٰ عصاه فسملها**[٦] **من طرفها ، ثم وضعها في أدنىٰ الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسىٰ بإزاء الحوض ، فلم تصدر**[٧] **منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال : [فأتأمت وأثلثت]**[٨] **، ووضعت كلها قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش**[٩] – قال يحيىٰ : **ولا ضبون**[١٠] . وقال صفوان : **ولا ضبوب**[١١] . قال أبوزرعة : الصواب **ضَبُوب – ولا عَزُوز ولا ثَعُول ولا كميشة تُفَوِّت الكف** » .

قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية** » .

---

(١٦) مسند البزار برقم (٢٢٤٦) « كشف الأستار » .

(*) قال ابن الأثير : « تفسيره في الحديث : أنها جاءت على غير ألوان أُمّهاتها ؛ كأنَّ لونها قد انقلب » . النهاية [٤/ ٩٧] .

[١] – في ز : « ألوانًا » . [٢] – في خ : « كمشة » .

(**) الفشوش : هي التي ينفش لبنها من غير حَلْب : أي يجري ؛ وذلك لسعة الإحليل . والضبوب : ضيّقة ثقب الإحليل . والكميشة : الصغيرة الضرع . والثعول : الشاة التي لها زيادة حلمة ، وهو عيب .

[٣] – في خ ، ز : « المنذر » .

[٤] – في ز ، خ : « ولدت » . [٥] – في خ ، ز : « قابلة » .

[٦] – في خ : « فسلمها » . [٧] – في ز ، خ : « يصدر » .

[٨] – في خ ، ز : « فأتمت واثنتيت » . [٩] – في خ ، ز : « قنوش » .

[١٠] – في خ ، ز : « ضيوب » . [١١] – في ز : « صبوب » .

وحدثنا أبو زُرعة ، حدثنا صفوان ، قال : سمعت الوليد قال : فسألت ابن لهيعة : ما الفشوش ؟ قال : التي تَفُشّ بلبنها واسعة الشخب . قلت : [فما الضبوب ؟ قال : الطويلة الضرع تجره . قلت : فما العَزُوز ؟ قال : ضيقة الشخب . قلت][١] : فما الثعُول ؟ قال : التي ليس لها ضرع إلا[٢] كهيئة حلمتين . قلت : فما الكميشة ؟ قال[٣] : التي تفوّت الكف ، كميشة الضرع ، صغير لا يدركه الكف .

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري - وفي حفظه سوء - وأخشى أن يكون رفعه خطأ[٤] ، والله أعلم . وينبغي أن يُرْوَى : ليس فيها فشوش ولا عزوز ، ولا ضبوب ولا ثَعول ولا كميشة[٥] لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك - موقوفًا عليه - ما يقارب بعضه بإسناد جيد فقال :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا[٦] أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : لما دعا نبيّ الله موسى - عليه السلام - صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير[٧] لونها ذلك[٨] ولدها لك . فعمد فرفع حبالًا على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة ، فولدن كلهن بلقا إلّا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام(١٧) .

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن

(١٧) تفسير الطبري (٢٠/٤٤) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « قلت » .
[٤] - في خ ، ز : « حقا » .
[٥] - في خ ، ز : « كمشة » .
[٦] - في ز ، خ : « عن » .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - في ت : « فذلك » .

﴿رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسىٰ - عليه السلام - قضىٰ أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما[١] ، وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة من قوله : ﴿ **فلما قضىٰ موسىٰ الأجل** ﴾ ، أي : الأكمل منهما[٢] والله أعلم .

قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : قضىٰ عشر سنين وبعدها عشرًا أخر . وهذا القول لم أره لغيره ، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وسار بأهله** ﴾ ، قالوا : كان موسىٰ قد اشتاق إلىٰ بلاده وأهله ، فعزم علىٰ زيارتهم في خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره ، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلًا فجعل كلما أورى زنده لا يُضيء شيئًا ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك [إذ][٣] : ﴿ **آنس من جانب الطور نارًا** ﴾ ، أي : رأىٰ نارًا تضيء له علىٰ بعد ، ف ﴿ **قال لأهله امكثوا إني آنست نارًا** ﴾ أي : حتىٰ أذهب إليها ، ﴿ **لعلي آتيكم منها بخبر** ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿ **أو جذوة من النار** ﴾ ، أي : قطعة منها ، ﴿ **لعلكم تصطلون** ﴾ ، أي : تتدفئون بها من البرد . قال الله تعالىٰ : ﴿ **فلما أتاها نودي من شاطئ الوادِ الأيمن** ﴾ أي : من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلىٰ موسىٰ الأمر** ﴾ ، فهذا مما يرشد إلىٰ أن موسىٰ قصد النار إلىٰ جهة القبلة ، والجبل الغربيّ عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لِحُف(*) الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتًا في أمرها ، فناداه ربه : ﴿ **من شاطىء الوادي الأيمن[٤] في البقعة المباركة من الشجرة** ﴾ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله ؛ قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسىٰ - عليه السلام - سمرة خضراء ترف . إسناد[٥] مقارب

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض من لا يُتَّهَمُ ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من العُلّيق وبعض أهل الكتاب يقول : من العوسج

[وقال قتادة : هي من العوسج ، وعصاه من العوسج][٦] .

---

[١] - في ز ، خ : « أتقاهما » .
[٢] - في ز ، خ : « بينهما » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
(*) اللّحف : أصل الجبل .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ت : « إسناده » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **أنْ يا موسىٰ إني أنا الله رب العالمين** ﴾ ، أي : الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ولا رب سواه ، تعالىٰ وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته ، وأقواله[١] وأفعاله سبحانه .

وقوله : ﴿ **وأن ألق عصاك** ﴾أي : التي في يدك . كما قرره علىٰ ذلك في قوله : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسىٰ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأَهُشُّ بها علىٰ غنمي ولي فيها مآرب أخرىٰ** ﴾ . والمعنىٰ : أما هذه عصاك التي تعرفها ؟ ﴿ **ألقها فألقاها فإذا هي حية تسعىٰ** ﴾ فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول للشيء : كن ، فيكون . كما تقدم بيان ذلك في « **سورة طه** » وقال هاهنا : ﴿ **فلما رآها تهتز** ﴾ ، أي : تضطرب ﴿ **كأنها جان** ﴾ ، أي : في حركتها السريعة مع عظم خِلْقة[٢] قوائمها واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، فتنحدر في فيها تقعقع[٣] كأنها حادرة في واد . فعند ذلك ﴿ **ولّىٰ مُدْبِرًا ولم يُعَقِّب** ﴾ . أي : ولم [يلتفت][٤] ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿ **يا موسىٰ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ ، رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿ **اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء** ﴾ . أي : إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ ، كأنها قطعة قمر في لمعان البرق . ولهذا قال : ﴿ **من غير سوء** ﴾ ، أي : من غير برص[٥] .

وقوله : ﴿ **واضمم إليك جناحك من الرهب** ﴾ ، قال مجاهد : من الفزع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن جرير : مما[٦] حصل لك من خوفك من الحية .

والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر - عليه السلام - إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهي يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما إذا استعمل أحد ذلك علىٰ سبيل الاقتداء فوضع يده علىٰ فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يَخف إن شاء الله ، وبه الثقة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عليّ بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال : كان موسىٰ - عليه السلام - قد مُلئ قلبه رعبًا من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم إني أدرأ بك في نحره ، وأعوذ بك من

---

[١] - سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ت : « خلق » .

[٣] - في ت : « تتقعقع » .

[٤] - ما بين المعكوفين في ت : « يكن يلتفت » .

[٥] - في خ : « مرض » .

[٦] - في ز : « ما » .

شره ، ففرّغ اللّه ما كان في قلب موسىٰ - عليه السلام - وجعله في قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وقوله : ﴿ **فذانك برهانان من ربك** ﴾ ، يعني : إلقاءه العصا وجعلها حية تسعىٰ ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان علىٰ قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرىٰ هذا الخارق علىٰ يديه ؛ ولهذا قال : ﴿ **إلىٰ فرعون وملئه** ﴾ أي : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ **إنهم كانوا قومًا فاسقين** ﴾ أي : خارجين عن طاعة اللّه ، مخالفين لدين اللّه .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمره اللّه تعالىٰ بالذهاب إلىٰ فرعون ، الذي إنما خرج من ديار مصر فرارًا منه وخوفًا من سطوته ، ﴿ **قال رب إني قتلت منهم نفسًا** ﴾ ، يعني ذلك القبطي ﴿ **فأخاف أن يقتلون** ﴾ أي : إذا رأوني . ﴿ **وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا** ﴾ ، وذلك أن موسىٰ - عليه السلام - كان في لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خُير بينها وبين التمرة أو الدرّة [فأخذ الجمرة][١] فوضعها علىٰ لسانه ، فحصل فيه[٢] شدة في التعبير ، ولهذا قال : ﴿ **واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيرًا من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري . وأشركه في أمري** ﴾ أي : يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلىٰ هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ؛ ولهذا قال : ﴿ **وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا فأرسله معي ردءًا** ﴾ أي[٣]: وزيرًا ومعينًا ومقويًا لأمري ، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن اللّه عز وجل ، لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿ **إني أخاف أن يكذبون** ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ **ردءًا يصدقني** ﴾ أي : يبين[٤] لهم عني ما أكلمهم به فإنه يفهم مالا يفهمون .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٢] - في ز ، خ : « منه » .
[٣] - سقط من : ز ، خ . [٤] - في ز ، خ : « يتبين » .

فلما سأل ذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ **سنشد عضدك بأخيك** ﴾ ، أي[١] : سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبيًا معك ؛ كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسىٰ** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿**ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا**﴾ ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم مِنَّة علىٰ أخيه من موسىٰ علىٰ هارون - عليهما السلام - فإنه شفع فيه حتىٰ جعله الله نبيًا ورسولًا معه إلى فرعون وملئه [ولهذا][٢] قال في حق موسى : ﴿**وكان عند الله وجيهًا**﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ **ونجعل لكما سلطانًا** ﴾ ، أي : حجة قاهرة ﴿ **فلا يصلون إليكما بآياتنا** ﴾ أي : لا سبيل لهم إلىٰ الوصول إلىٰ أذاكم[٣] بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله وكفى بالله حسيبًا**﴾ أي : وكفىٰ بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا . ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قويّ عزيز** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ ووجه ابن جرير علىٰ أن المعنىٰ : ﴿ **ونجعل لكما سلطانًا فلا يصلون إليكما** ﴾ ، ثم يبتدئ فيقول : ﴿ **بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ ، تقديره : أنتما ومن اتّبعكما الغالبون بآياتنا(١٨) .

ولا شك أن هذا المعنىٰ صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلىٰ هذا ، والله أعلم .

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالىٰ عن مجيء موسىٰ وأخيه هارون إلىٰ فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة ، علىٰ صدقهما فيما أخبرا عن الله - عز وجل - من توحيده واتباع أوامره ، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم[٤] إلىٰ العناد والمباهتة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا :

(١٨) تفسير الطبري (٢٠/٤٨) .

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ت : « لهذا » .
[٣] - في ت : « أذاكما » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .

﴿ **ما هذا إلا سحر مفترىٰ** ﴾ أي : مفتعل مصنوع . أرادوا معارضته بالحيلة[١] والجاه فما صعد معهم ذلك وقوله : ﴿ **وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾ ، يعنون عبادة اللَّه وحده لا شريك له ، يقولون[٢] : ما رأينا أحدًا من آبائنا علىٰ هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع اللَّه آلهة أخرىٰ . فقال موسىٰ - عليه السلام - مجيبًا لهم : ﴿ **ربي أعلم بمن جاء بالهدىٰ من عنده** ﴾ ، يعني : مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ؛ ولهذا قال : ﴿ **ومن تكون له عاقبة الدار** ﴾ ، أي : النصرة والظفر والتأييد ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ أي : المشركون باللَّه .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالىٰ عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوىٰ الإلٰهية لنفسه القبيحة - لعنه اللَّه - كما قال تعالىٰ : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين** ﴾ ، [وذلك][٣] لأنه دعاهم إلىٰ الاعتراف له بالإلٰهية ، فأجابوه إلىٰ ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ، ولهذا قال : ﴿ **يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ ، [وقال][٤] تعالىٰ إخبارًا عنه : ﴿ **فحشر فنادىٰ * فقال أنا ربكم الأعلىٰ * فأخذه اللَّه نكال الآخرة والأولىٰ * إن في ذلك لعبرة لمن يخشىٰ** ﴾ . يعني : أنه جمع قومه ونادىٰ فيهم بصوته العالي مُصَرِّحًا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين ؛ ولهذا انتقم اللَّه تعالىٰ منه[٥] فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة ، وحتىٰ إنه واجه موسىٰ الكليم بذلك قال[٦] : ﴿ **لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فأوقد لي يا هامان علىٰ الطين فاجعل لي صرحًا لعلي أطّلع إلىٰ إله موسىٰ** ﴾

---

[١] - في ز ، خ : « بالحلية » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ت : « ذلك » .
[٤] - في ت : « قال » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ت : « فقال » .

أي : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له[١] علىٰ الطين ، ليتخذ له آجُرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع - كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطّلع إلىٰ إله موسىٰ وإني لأظنه كاذبًا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في**[٢] **تباب** ﴾ ، وذلك لأن فرعون بنىٰ هذا الصرح الذي لم يُرَ في الدنيا بناء أعلىٰ منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسىٰ فيما زعمه من دعوىٰ إله غير فرعون ؛ ولهذا قال : ﴿ **وإني لأظنه من الكاذبين** ﴾ . أي : في قوله إنّ ثَمّ ربًا[٣] غيري ، لا أنه كذبه في أن اللّٰه أرسله ، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ، فإنه قال : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ وقال : ﴿ **لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾ وقال : ﴿ **يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ وهذا قول ابن جرير وقوله : ﴿ **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون** ﴾ ، أي : طغوا وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة ، ﴿ **فصب عليهم ربك سَوْطَ عذاب إن ربك لبالمرصاد** ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم** ﴾ ، أي : غرقناهم[٤] في البحر في صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾ ، أي : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿ **ويوم القيامة لا ينصرون** ﴾ أي : فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالىٰ : ﴿**أهلكناهم فلا ناصر لهم**﴾ وقوله : ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة** ﴾ ، أي : وشرع اللّٰه لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون علىٰ ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله ، وكما أنهم في الدنيا ملعونون علىٰ ألسنة[٥] الأنبياء وأتباعهم ، وكذلك ﴿ **يوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ ، قال قتادة : وهذه الآية الكريمة[٦] كقوله تعالىٰ : ﴿ **وأتبِعُوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالىٰ عما أنعم به علىٰ عبده ورسوله موسىٰ الكليم - عليه من ربه الصلاة والتسليم - من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه .

وقوله : ﴿ **من بعد ما أهلكنا القرون الأولىٰ** ﴾ يعني : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء اللّٰه من المشركين ، كما قال : ﴿ **وجاء فرعون ومن**

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « رب » .
[٤] - في ت : « أغرقناهم » .
[٥] - في ز ، خ : « لسان » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .

قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ .

وقال ابن جرير(١٩) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا : حدثنا عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التي مسخوا قردة ، ألم تر أن الله يقول : **﴿ ولقد آتينا موسىٰ الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولىٰ ﴾** .

ورواه ابن أبي حاتم من حديث عوف بن أبي جميلة[١] الأعرابي بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده عن عمرو بن علي الفلاس ، عن يحيىٰ القطان ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد موقوفًا (٢٠) .

ثم رواه عن نصر بن عليّ ، عن عبد الأعلىٰ ، عن عوف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد - رفعه إلىٰ النبي - صلىٰ الله عليه وسلم - قال : « **ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسىٰ** » ، ثم قرأ : **﴿ ولقد آتينا موسىٰ الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولىٰ ﴾**(٢١) .

وقوله : **﴿ بصائر للناس ﴾** أي : من العمىٰ والغيّ ، **﴿ وهدىً ﴾** إلىٰ الحق ، **﴿ ورحمة ﴾** أي : إرشادًا[٢] إلىٰ الأعمال الصالحة ، **﴿ لعلهم يتذكرون ﴾** أي : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ
مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ
مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ

(١٩) تفسير الطبري (٢٠/٥٠) .

(٢٠) مسند البزار برقم (٢٢٤٧) « كشف الأستار » .

(٢١) مسند البزار برقم (٢٢٤٨) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٨٨) : « رواه البزار موقوفًا ومرفوعًا ورجالهما رجال الصحيح » .

[١] - في خ ، ز : « حميد » .
[٢] - في ز ، خ : « إرشاد » .

أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالىٰ منبها علىٰ برهان نبوة محمد - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبرًا كأن سامعه شاهد ورَاءٍ[١] لما تقدم ، وهو رجل أميٌّ لا يقرأ شيئًا من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالىٰ : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ . أي : ما كنت حاضرًا لذلك ، ولكنّ اللَّه أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره[٢] عن نوح وقومه ، وما كان من[٣] إنجاء اللَّه له وإغراق قومه .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ ، وقال في آخر السورة : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك** ﴾ وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ وقال في سورة طه : ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾ ، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسىٰ من أولها إلىٰ آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء اللَّه إليه وتكليمه له : ﴿ **وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلىٰ موسىٰ الأمر** ﴾ ، يعني : يا محمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربيّ الذي كلم اللَّه موسىٰ من الشجرة التي هي شرقية علىٰ شاطئ الوادي ﴿ **وما كنت من الشاهدين** ﴾ لذلك ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهانًا علىٰ قرون قد تطاول عهدها ، ونسوا حجج اللَّه عليهم وما أوحاه إلىٰ الأنبياء المتقدمين .

وقوله : ﴿ **وما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا** ﴾ أي : وما كنت مقيمًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخْبرتَ عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، ﴿ **ولكنا كنا مرسلين** ﴾ ، أي : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا .

﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ . قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه : أخبرنا علي بن حُجْر ، أخبرنا عيسىٰ - وهو ابن يونس - عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن عليّ بن مدرك ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ ، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وأجبتكم قبل أن تدعوني .

---

[١] - في ز ، خ : « ورائي » .
[٢] - في ز ، خ : « أخبر » .
[٣] - في ز ، خ : « بين » .

وهكذا رواه ابن جرير(٢٢) ، وابن أبي حاتم ، من حديث جماعة ، عن حمزة - وهو ابن حبيب الزيات - عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيىٰ بن عيسىٰ ، عن الأعمش ، عن عليّ بن مدرك ، عن أبي زرعة - وهو ابن عمرو بن جرير - أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان : ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**﴾ : أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت .

وقال قتادة : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ : موسىٰ . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالىٰ : ﴿ **وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلىٰ موسىٰ الأمر** ﴾ .

ثم أخبر هاهنا بصيغة[١] أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى : ﴿**وإذ نادى ربك موسى**﴾ وقال : ﴿**إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى**﴾ وقال : ﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيًا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولكن رحمة من ربك** ﴾ ، أي : ما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك ، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم ، ﴿ **لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾ ، أي : لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين** ﴾ ، أي : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا[٢] جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ؛ كما قال تعالىٰ بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ **أنْ تقولوا[٣] إنما أنزل الكتاب علىٰ طائفتين من قبلنا وإنْ كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا[٤] لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدىٰ منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة** ﴾ ، وقال : ﴿**رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم علىٰ فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله علىٰ كل شيء قدير** ﴾ والآيات في هذا[٥] كثيرة .

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ

(٢٢) تفسير الطبري (٢٠/٥١) والذي فيه من طريق سفيان ويحيى بن عيسى .

[١] - في خ ، ز : « بقصة » .
[٢] - في ز ، خ : « إذ » .
[٣] - في ز : « يقولوا » .
[٤] - في ز : « يقولوا » .
[٥] - في ت : « ذلك » .

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول -: إنهم لما جاءهم الحق من عنده علىٰ لسان محمد - صلوات اللَّه وسلامه عليه - قالوا علىٰ وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿ **لولا أوتي مثل ما أوتي موسىٰ أو لم يكفرو بما أوتي موسىٰ من قبل** ﴾ يعنون - واللَّه أعلم - من الآيات الكثيرة مثل العصا ، واليد والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، وتنقص الزروع والثمار، بما[١] يضيق علىٰ أعداء اللَّه، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوىٰ ، إلىٰ غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة ، التي أجراها اللَّه علىٰ يدي موسىٰ - عليه السلام - حجة وبراهين له علىٰ فرعون وملئه وبني إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه ، بل كفروا بموسىٰ وأخيه هارون ، كما قالوا لهما[٢] : ﴿ **أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فكذبوهما فكانوا من المهلكين** ﴾ ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ **أو لم يكفروا بما أوتي موسىٰ من قبل** ﴾ ، أي : أو لم [يكفر البشر][٣] بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ : أي تعاونا . ﴿ **وقالوا إنّا بكل كافرون** ﴾ ، أي : بكل منهما كافرون . ولشدة التلازم والتصاحب والمقارنة بين موسىٰ وهارون ، دل ذكر أحدهما علىٰ الآخر ، كما قال الشاعر :

فَمَا أدري إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا أُرِيدُ الخيرَ أَيُّهُمَا يَلِيني

أي : فما أدري أيليني الخير أو الشر . قال مجاهد بن جبر[٤] : أمرت اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمد ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ذلك ، فقال اللَّه : ﴿ **أو لم يكفروا بما أوتي موسىٰ من قبل قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ ، قال : يعني موسىٰ وهارون صلىٰ اللَّه عليهما وسلم ﴿ **تظاهرا** ﴾ ، أي : تعاونا وتناصرا وصدّق كل منهما الآخر ، وبهذا[٥] قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله :

---

[١] - في ت : « مما » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في ز : « يكفروا ببشر » .
[٤] - في ز ، خ : « جبير » .
[٥] - في ز ، خ : « هذا » .

﴿ ساحران ﴾ . يعنون : موسىٰ وهارون . وهذا قول جيد قَوي ، واللَّه أعلم .

وقال مسلم بن يسار[١] ، عن ابن عباس ﴿ **قالوا ساحران تظاهرا** ﴾ ، يعني : موسىٰ ومحمدًا - صلوات اللَّه وسلامه عليهما - وهذه[٢] رواية عن الحسن البصري .

[وقال الحسن][٣] وقتادة : يعني عيسىٰ ومحمد - صلى اللَّه عليهما وسلم - وهذا فيه بعد ، لأن عيسىٰ لم يجر له ذكر هاهنا ، واللَّه أعلم .

وأما من قرأ : (**سحران تظاهرا**)(*) ، فقال عليّ بن أبي طلحة والعوفي ، عن ابن عباس : يعنون التوراة والقرآن . وكذا قال عاصم الجَنَديّ ، والسّديّ ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدي : يعني صَدّق كل واحد منهما الآخر .

وقال عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل ، وهو رواية عن أبي زرعة ، واختاره ابن جرير(٢٣) .

وقال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن . واللَّه سبحانه أعلم بالصواب .

والظاهر علىٰ قراءة : (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند اللَّه هو أهدىٰ منهما أتبعه** ﴾ . وكثيرًا ما يقرن اللَّه بين التوراة والقرآن ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ نورًا وهدى للناس** ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ ، وقال في آخر السورة : ﴿ **ثم آتينا موسىٰ الكتاب تمامًا علىٰ الذي أحسن** ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون** ﴾ وقالت الجن : ﴿ **إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى** ﴾ وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذي أنزل علىٰ موسىٰ . وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن اللَّه لم ينزل كتابًا من السماء - فيما أنزل من الكتب المتعددة علىٰ أنبيائه - أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل علىٰ محمد - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله علىٰ موسىٰ ابن عمران - عليه السلام - وهو التوراة التي قال اللَّه تعالىٰ فيها : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللَّه وكانوا عليه شهداء** ﴾والإنجيل إنما نزل متممًا للتوراة ومحلًا لبعض ما حرم علىٰ بني إسرائيل ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند اللَّه هو أهدىٰ منهما أتبعه إن كنتم صادقين** ﴾ ، أي : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

(٢٣) تفسير الطبري (٢٠/٥٣) .

[١] - في ز : « بشار » .

[٢] - في ز ، خ : « هذا » . [٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

(*) وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي . وقرأ عبد اللَّه بن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « ساحران » بإثبات الألف .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ ، أي : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ، ﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ ، أي : بلا دليل ولا حجة ، ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللَّه** ﴾ ، أي : بغير حجة مأخوذة من كتاب[١] اللَّه ﴿ **إن اللَّه لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولقد وصلنا لهم القول** ﴾ قال مجاهد : فصلنا لهم القول . وقال السدى : بينا لهم القول .

وقال قتادة : يقول تعالىٰ : أخبَرَهم كيف صُنع بمن مضىٰ وكيف هو صانع ، ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ قال مجاهد وغيره : ﴿ **وصلنا لهم** ﴾ ، يعني : قريشًا . وهذا هو الظاهر . لكن قال حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن يحيىٰ بن جعدة ، عن رفاعة - رفاعة هذا هو ابن قَرَظَة القُرَظِي ، وجعله ابن مندة : رفاعة بن سموال ، خال صفية بنت حييّ ، وهو الذي طلق تميمة بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير(٢٤) .

[قال : نزلت : ﴿ **ولقد وصلنا لهم القول** ﴾ في عشرة أنا أحدهم .رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم في حديثه][٢](٢٥) .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالىٰ عن العلماء الألباء[٣] من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به** ﴾ وقال : ﴿ **وإن من أهل الكتاب**

---

(٢٤) أسد الغابة لابن الأثير (٢/٢٢٨) .

(٢٥) تفسير الطبري (٢٠/٥٦) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٥/٥٣) من طريق حماد بن سلمة به .

---

[١] - في ز ، خ : « كتب » . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - في ت : « الأولياء » .

لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ وقال : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم**[١] **من قبله إذا يتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سجدًا ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لمفعولاً** ﴾ وقال : ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ .

قال سعيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا علىٰ النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم قرأ عليهم : ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ ، حتىٰ ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرىٰ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلىٰ عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنا من قبله مسلمين** ﴾ ، يعني : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أي[٢] :موحدين مخلصين مستجيبين له .

قال اللّه : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾ ، أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ، ولهذا قال : ﴿ **بما صبروا** ﴾ ، أي : علىٰ اتباع الحق ؛ فإن تجشم مثل هذا شديد علىٰ النفوس . وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشعبي ، عن أبي بُرْدَةَ ، عن أبي موسىٰ الأشعري - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه - صلىٰ اللّه عليه وسلم - : « **ثَلاثَة يُؤْتَون أجْرَهُم مَرّتَيْنِ : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدىٰ حق اللّه وحق مواليه ، ورَجُل [كانت]**[٣] **[له]**[٤] **أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها** »(٢٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيىٰ بن إسحاق السَّيْلَحيني ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إني لَتَحْتَ راحلة رسول اللّه - صلىٰ اللّه عليه وسلم - يوم الفتح ، فقال قولًا حسنًا جميلًا وقال فيما قال : « **من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، [ومن أسلم من المشركين ، فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا]**[٥] »(٢٧) .

وقوله ﴿ **ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ ، أي : لا يقابلون السيئ[٦] بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ؛ ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أي : ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون[٧] علىٰ خَلْق

---

(٢٦) صحيح البخاري برقم (٩٧) ، وصحيح مسلم برقم (١٥٤) .
(٢٧) المسند (٥/٢٥٩) .

---

[١] - في ز ، خ : « الكتاب » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في خ ، ز : « كان » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ز : « على الشيء » .
[٧] - سقط من : خ ، ز .

الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات .

وقوله : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ ، أي : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم[١] بل كما قال تعالىٰ : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كرامًا ﴾ .

﴿ **وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين** ﴾ أي : إذا سَفه عليهم سَفيه ، وكلَّمهم بما لا يَليق بهم الجوابُ عنه ، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين** ﴾ أي[٢] : لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نحبّها .

قال محمد بن إسحاق في السيرة : ثم قدم على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة عشرون رجلًا ، أو قريب من ذلك ، من النصارىٰ ، حين بلغهم خبره من الحبشة ؛ فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه - و[٣]رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلىٰ الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! بعثكم مَنْ وراءكم مِنْ أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم[٤] بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتىٰ فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبًا أحمق منكم - أو كما قالوا لهم - فقالوا : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نَألُ أنفسنا خيرًا (٢٨) .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم ، أيّ ذلك كان . قال : ويقال - والله أعلم - : إنّ فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ .

قال : وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أُنزلن[٥] ؟ فقال[٦] : ما زلتُ أسمع من علمائنا أنهنّ أُنزلنَ في النجاشي وأصحابه - رضي الله عنهم - والآيات التي في سورة المائدة : ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾

(٢٨) السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٢/١) .

[١] - في ز ، خ : « يحاشرونهم » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ز ، خ : « فتأتوهم » .
[٥] - في ز ، خ : « نزل » .
[٦] - في ت : « قال » .

[﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلىٰ الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾][١]

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالىٰ لرسوله - صلىٰ الله عليه وسلم - : إنك يا محمد ﴿ **لا تهدي مَنْ أحببت** ﴾ أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ وقال : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ .

وهذه الآية أخص من هذا كله فإنه قال : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغَوَاية ، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عَمّ رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - وقد كان يَحُوطه وينصره ، ويقوم في صفه يحبه حبًّا طَبَعِيًّا لا شرعيًّا ، فلما حضرته الوفاة وحان أجله ، دعاه رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - إلىٰ الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه ، واختُطف من يده ، فاستمر علىٰ ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة[٢] التامة .

قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب ، عن أبيه - وهو المسيب بن حَزْن المخزومي - رضي الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله** » . فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أبي[٣] أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتىٰ قال آخر ما قال : هو علىٰ ملة عبد المطلب . وأبىٰ أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك** » . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ** ﴾ ، [وأنزل][٤] في أبي طالب : ﴿ **إنك لا تهدي من**

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - في خ ، ز : « الحجة » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ت : « وأنزل الله » .

أحببت ، ولكن اللّه يهدي من يشاء ﴾ .

أخرجاه(٢٩) من حديث الزهري . وهكذا رواه مسلم في صحيحه ، والترمذي من حديث يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه ، قال : لما حَضَرَتْ وفاة أبي طالب؛ أتاه رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم فقال : « **يا عمَّاه ، قل : لا إله إلا اللّه ، أشهد لك بها يوم القيامة** » . فقال : لولا أن يُعَيِّرني[١] بها قريش ، يقولون : ما حمله عليه إلا جزع الموت ، لأقررتُ بها عينَك ، لا أقولها إلا لأُقرَّ بها عينك . فأنزل اللّه : **﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾** . وقال الترمذي : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان(٣٠) .

ورواه الإِمام أحمد ، عن يحيىٰ بن سعيد القطان ، عن يزيد بن كيسان ، حدثني أبو حازم ، عن أبي هريرة ... فذكره بنحوه(٣١) .

وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عَرَض عليه رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم أن يقول : « **لا إله إلا اللّه** » ، فأبىٰ عليه ذلك ، وقال : أيْ ابن أخي ، ملّة الأشياخ . وكان آخر ما قال : هو علىٰ ملة عبد المطلب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عبد اللّه ابن عثمان بن خُثيم ، عن سعيد بن أبي راشد ، قال : كان رسول قيصر جاء إليَّ قال : كتب معي قيصر إلىٰ رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، كتابًا ، فأتيته فدفعت الكتاب ، فوضعه في حجره ثم قال : « **ممن الرجل ؟** » قلت : من تنوخ[٢] . قال : « **هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفية ؟** » قلت : إني رسول قوم[٣] وعلىٰ دينهم حتىٰ أرجع إليهم . فضحك رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم ونظر إلىٰ أصحابه فقال[٤] : « **﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء ﴾** »(٣٢) .

وقوله : **﴿ وقالوا إنْ نتبع الهدىٰ معك نتخطف من أرضنا ﴾** ، [يقول تعالىٰ مخبرًا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدىٰ حيث قالوا لرسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : **﴿ إنْ نتبع الهدىٰ معك نتخطف من أرضنا ﴾**][٥] أي : نخشىٰ إِنِ اتبعنا[٦] ما جئت به من الهدىٰ ،

(٢٩) صحيح البخاري برقم (١٣٦٠) ، وصحيح مسلم برقم (٢٤) .

(٣٠) صحيح مسلم برقم (٢٥) ، وسنن الترمذي برقم (٣١٨٨) .

(٣١) المسند (٤٣٤/٢) .

(٣٢) رواه أحمد في المسند (٤٤١/٣) من طريق حماد بن سلمة بنحوه .

[١] - في ت : « تعيرني » .

[٢] - في خ ، ز : « تبرح » .

[٣] - في ز ، خ : « قومي » .

[٤] - في ت : « وقال » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٦] - في ز : « اتبعت » .

وخالفنا مَنْ حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذىٰ والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال اللّٰه تعالىٰ مجيبًا لهم : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرمًا آمنًا** ﴾ يعني : هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل؛ لأن اللّٰه جعلهم في بلد أمين وحَرَم معظم آمن[١] منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا [لهم][٢] في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ !

وقوله : ﴿ **يُجبىٰ إليه ثمرات كل شيء** ﴾ ، [أي : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة][٣] ﴿ **رزقًا من لدنّا** ﴾ ، أي : من عندنا ، ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ فلهذا قالوا ما قالوا .

وقد قال النسائي : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا حجاج[٤] ، عن ابن جُريج ، أخبرني ابن أبي مُليكة ، قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمعه منه - : إن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال : ﴿ **إن نتبع الهدىٰ معك نتخطف من أرضنا** ﴾(٣٣) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالىٰ مُعَرِّضًا بأهل مكة في قوله : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها** ﴾ ، أي : طغت وأشرت[٥] وكفرت نعمة اللّٰه ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **وضرب اللّٰه مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم اللّٰه فأذاقها اللّٰه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾ ولهذا قال : ﴿ **فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا** ﴾ أي : دثرت ديارهم ، فلا ترى إلا مساكنهم .

وقوله : ﴿ **وكنا نحن الوارثين** ﴾ أي : رجعت خرابًا ، ليس فيها أحد . وقد ذكر ابن أبي

---

(٣٣) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٨٥) .

---

[١] - في ز ، خ : « أمين » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٤] - في ت : « الحجاج » .

[٥] - في خ ، ز : « وأصرت » .

حاتم ، عن ابن مسعود ، أنه سمع كعبًا يقول لعمر : إن سليمان - عليه السلام - قال للهامة - يعني : البومة - : ما لك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسببه من الجنة . قال : فما لك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن اللَّه أغرق قوم نوح به . قال : فما لك لا تأوين إلا إلىٰ الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث اللَّه - عز جل - ثم تلا : ﴿ **وكنا نحن الوارثين** ﴾ .

ثم قال اللَّه مخبرًا عن عدله ، وأنه لا يهلك أحدًا ظالمًا له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **وما كان ربك مهلك القرىٰ حتىٰ يبعث في أمها** ﴾ وهي مكة ﴿ **رسولًا يتلو عليهم آياتنا** ﴾ ، فيه دلالة علىٰ أن النبي الأمي - وهو محمد صلىٰ اللَّه عليه وسلم - المبعوثَ من أم القرىٰ - رسولٌ إلىٰ جميع القرىٰ من عرب وأعجام ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **لتنذر أم القرىٰ ومن حولها** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ وقال : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ . وقال : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ وتمام الدليل : ﴿ **وإنْ من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابًا شديدًا . كان ذلك في الكتاب مسطورًا** ﴾ فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا** ﴾ . فجعل تعالىٰ بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرىٰ، لأنه مبعوث إلىٰ أمها وأصلها[١] التي ترجع إليها. وثبت في الصحيحين عنه - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - أنه قال : « **بعثت إلىٰ الأحمر والأسود** » . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلىٰ يوم القيامة .

وقيل المراد بقوله : ﴿ **حتى يبعث في أمها** ﴾ أي : أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم . حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما ، وليس ببعيد .

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن حقارة الدنيا ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلىٰ ما أعده اللَّه لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ؛ كما قال : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند اللَّه باق** ﴾ وقال : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾ وقال : ﴿ **وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع** ﴾ وقال : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾ وقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **واللَّه ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِس أحدكم إصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه ؟** » (٣٤) .

(٣٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه .

[١] - في ز ، خ : « وأهلها » .

﴿ **أفلا تعقلون[١]** ﴾ أي : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة .

وقوله : ﴿ **أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين** ﴾ .

يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أيامًا قلائل ، ﴿ **ثم هو يوم القيامة من المحضرين** ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين .

ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي أبي جهل . وقيل : في حمزة ، وعليّ ، وأبي جهل ، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو في الدرجات وذاك في الدركات : ﴿ **ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون** ﴾ .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبرًا[٢] عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿ **أين شركائي الذين كنتم تزعمون** ﴾ يعني : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد ؛ كما قال : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ .

---

[١] - في ز ، خ : « يعقلون » . [٢] - سقط من : خ ، ز .

وقوله : ﴿ **قال الذين حَقَّ عليهم القول** ﴾ ، يعني : من الشياطين والـمَرَدَة[١] والدعاة إلىٰ الكفر ﴿ **ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم[٢] ، ثم تبرءوا من عبادتهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ وقال : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلىٰ يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ ، وقال الخليل لقومه : ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا مَودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾ وقال الله : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾ ؛ ولهذا قال : ﴿ **وقيل ادعوا شركاءكم** ﴾ ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب** ﴾ أي : [وتيقنوا][٣] أنهم صائرون إلىٰ النار لا محالة .

وقوله : ﴿ **لو أنهم كانوا يهتدون** ﴾ أي : فودوا[٤] حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ **ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقًا * ورأىٰ المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول[٥] ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ ، النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ كيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن : فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ، ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه ... هاه ... لا أدري ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضل سبيلًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون** ﴾ .

وقال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب .

وقوله : ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحًا** ﴾ ، أي : في الدنيا ، ﴿ **فعسىٰ أن يكون من**

---

[١] - في ت : « المردة » .
[٢] - في خ، ز : « فيما يتبعوهم » .
[٣] - في ت : « تيقنوا » .
[٤] - في ز ، خ : « فردوا » .
[٥] - سقط من : ز .

المفلحين ﴾ ، أي : يوم القيامة . « وعسىٰ » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومَنّهِ لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب فقال : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء [ويختار** ﴾ ، أي : ما يشاء][١]، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه .

وقوله : ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾ ، نفيٌ علىٰ أصح القولين ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ وقد اختار ابن جرير أن (ما) هاهنا بمعنىٰ « **الذي** » ، تقديره : ويختار الذي لهم فيه خيرة . وقد احتج بهذا المسلك[٢] طائفة المعتزلة علىٰ وجوب مراعاة الأصلح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضًا ، فإن المقام في بيان انفراده تعالىٰ بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ **سبحان الله وتعالىٰ عما يشركون** ﴾ ، أي : من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا .

ثم قال : ﴿ **وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون** ﴾ أي : يعلم [مكتمة][٣] الضمائر وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو** ﴾ ، أي : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لارب يخلق ويختار سواه ﴿ **له الحمد في الأولىٰ والآخرة** ﴾ ، أي : في جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿ **وله الحكم** ﴾ ، أي : الذي لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ، ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ ، أي : جميعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفىٰ عليه منهم خافية في سائر الأعمال .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ. [٢] - في خ : « الملك » .
[٣] - في ت : « ما تكنه » .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ عبادِهِ بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا قَوَام لهم بدونهما ، وبين أنه لو جعل الليل دائمًا عليهم سرمدًا إلىٰ يوم القيامة ، لأضرّ ذلك بهم ، ولسئمته[١] النفوس وانحصرت منه ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **مَنْ إله غير اللّه يأتيكم بضياء** ﴾ ، أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ ؟.

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمدًا [دائمًا مستمرًا][٢] إلىٰ يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال : ﴿ **مَنْ إله غير اللّه يأتيكم بليل تسكنون فيه** ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ، ﴿ **أفلا تبصرون ومن رحمته** ﴾ ، أي : بكم ﴿ **جعل لكم الليل والنهار** ﴾ ، أي : خلق هذا وهذا ، ﴿ **لتسكنوا فيه** ﴾ أي : في الليل ، ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ ، أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر .

وقوله : ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ ، أي : تشكرون اللّه بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل[٣] استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا** ﴾ والآيات في هذا[٤] كثيرة .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[١] - في خ ، ز : « ولساء منه » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : م .

[٣] - في ز ، خ : « من الليل » .

[٤] - في ت : « ذلك » .

وهذا أيضًا نداء على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهًا آخر يناديهم الرب - تبارك وتعالى - على رءوس الأشهاد فيقول : ﴿ **أين شركائي الذين كنتم تزعمون** ﴾ . أي : في الدار الدنيا .

﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيدًا** ﴾ قال مجاهد : يعني رسولًا ﴿ **فقلنا هاتوا برهانكم** ﴾ أي : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، ﴿ **فعلموا أن الحق لله** ﴾ أي : لا إله غيره ، أي : فلم ينطقوا ولم[١] يحيروا جوابًا ، ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ . أي : ذهبوا فلم ينفعوهم[٢] .

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

قال الأعمش : عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ؛ قال : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسىٰ** ﴾ ، [ ][٣]: كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخعي ، وعبد الله ابن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب ، وقتادة ومالك بن دينار ، وابن جريج ، وغيرهم : إنه كان ابن عم[٤] موسىٰ عليه السلام .

قال ابن جريج : هو قارون بن [يصهر بن قاهث][٥] ، وموسىٰ بن عمران بن قاهث .

وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى عليه السلام .

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وقال قتادة بن دعامة : كنا نُحدّث أنه كان ابن عم موسىٰ ، وكان يسمىٰ المنوّر لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله .

---

[١] - في ز ، خ : « ولا » . [٢] - في ز ، خ : « ينفعهم » .
[٣] - ما بين المعكوفين في ت : « قال » . [٤] - في ز : « عمه » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « يعمر بن فاهت » ، و في ز : « يعهر بن قاهت » .

وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبرًا طولًا ترفعًا على قومه.

وقوله: ﴿ **وآتيناه من الكنوز** ﴾، أي: الأموال ﴿ **ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة** ﴾، أي: لَيثقُل حملُها الفئام من الناس لكثرتها[١].

قال الأعمش: عن خيثمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حملت على ستين بغلًا[٢] أغر محجلًا[٣]، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ أي: وعظه فيما هو فيه صالحو[٤] قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من الأموال ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين** ﴾.

قال ابن عباس: يعني المرحين، وقال مجاهد يعني[٥]: الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

وقوله: ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾، أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها[٦] الثواب في الدار الآخرة، ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾، أي: مما[٧] أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقًّا ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزَوْرك [عليك حقًّا][٨] فآت كل ذي حق حقه.

﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾، أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ﴿ **ولا تبغ الفساد في الأرض** ﴾، أي: لاتكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في[٩] الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿ **إن الله لا يحب المفسدين** ﴾.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

---

[١] - في ت: « لكثرتهم ».

[٢] - في ز: « بغل ».

[٣] - في ز، خ: « محجل ».

[٤] - في ت: « صالح ».

[٥] - سقط من: ز، خ.

[٦] - سقط من: ز، خ.

[٧] - في ز، خ: « ما ».

[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من: ت.

[٩] - سقط من: خ، ز.

﴿الْمُجْرِمُونَ ٧٨﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلىٰ الخير ، ﴿ **قال إنما أوتيته علىٰ علم عندي** ﴾ أي : أنا لا أفتقر إلىٰ ما تقولون ، فإن اللّٰه تعالىٰ إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديره[1] : إنما أعطيته لعلم اللّٰه فيّ أنّي أهل له ، [وهذا][2] كقوله تعالىٰ : ﴿ **فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته علىٰ علم** ﴾ ، [أي : علىٰ علم من اللّٰه بي][3] ، وكقوله تعالىٰ : ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي** ﴾ أي : هذا أستحقه .

وقد رُوي عن بعضهم أنه أراد : ﴿ **إنما أوتيته علىٰ علم عندي** ﴾ ، أي : إنه كان يعاني علم الكيمياء . وهذا القول ضعيف ، لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل ، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا اللّٰه عز وجل ، قال اللّٰه : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون اللّٰه لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له** ﴾ .

وفي الصحيح عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « **يقول اللّٰه تعالىٰ ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة** » (٣٥) . وهذا ورد في المصورين[4] الذين يشبهون بخلق اللّٰه في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلىٰ ماهية ذات أخرىٰ ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون علىٰ الصبغ في الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل وتمويه ، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر ، وليس كذلك قطعًا لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون ، فأما ما يجريه اللّٰه - تعالىٰ - من خرق العوائد علىٰ يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبًا أو فضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرده مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات ، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات ، واختياره وفعله ، كما روي عن حَيوة بن شُريح المصري - رحمه اللّٰه - أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه ورأىٰ ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه ، ثم ألقاها إلىٰ ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر . والأحاديث والآثار كثيرة جدًّا يطول ذكرها .

وقال بعضهم :إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم ، فدعا الله به[5] فتموّل بسببه . والصحيح

---

(٣٥) صحيح البخاري برقم (٥٩٥٣) ، وصحيح مسلم برقم (٢١١١) .

---

[١] - في ز ، خ : « فتقدير » .
[٢] - في ت : « هذا » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٤] - في خ ، ز : « المتصورين » .
[٥] - سقط من : خ ، ز .

المعنىٰ الأول ؛ ولهذا قال الله - تعالىٰ - رادًّا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا** ﴾ ، أي : قد كان من هو أكثر منه مالًا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ ، أي : لكثرة ذنوبهم .

قال قتادة : ﴿**علىٰ علم عندي**﴾ على خيرٍ عندي : وقال السديُّ : على علم أني أهل لذلك .

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال في قوله : ﴿ **قال إنما أوتيته علىٰ علم عندي** ﴾ قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفته بفضلي ، ما أعطاني هذا المال ، وقرأ : ﴿ **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قارون : إنه خرج ذات يوم علىٰ قومه في زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلىٰ خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلىٰ زخرفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ، ﴿ **قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ ، أي : ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ **ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا** ﴾ ، أي : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون .

[كما في الحديث الصحيح : « **يقول الله تعالىٰ : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر . واقرءوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾** »][1](36) .

---

(٣٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وقوله : ﴿ ولا[١] يلقاها إلا الصابرون ﴾ ، قال السدي : وما يلقىٰ الجنة إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، قال ابن جرير : وما يلقىٰ هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون[٢] في الدار الآخرة . وكأنه جعل ذلك مقطوعًا[٣] من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله - عز وجل - وإخباره[٤] بذلك .

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر - تعالىٰ - اختيال قارون في زينته ، وفخره علىٰ قومه ، وبغيه عليهم - عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت في الصحيح - عند البخاري من حديث الزهري ، عن سالم ، أن أباه حدثه ، أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **بينا رجل يجر إزاره إذ خُسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلىٰ يوم القيامة** » .

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، نحوه (٣٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاصّ ، حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة** » . تفرد به أحمد وإسناده حسن (٣٨) .

وقال الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا [مُعَلَّىٰ][٥] بن منصور ، أخبرني محمد بن مسلم ، سمعت زيادًا النميري يحدث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال :

(٣٧) صحيح البخاري برقم (٥٧٩٠) .
(٣٨) المسند (٣/٤٠) .

[١] - في ز ، خ : « ما » .
[٢] - في ز ، خ : « الراغبين » .
[٣] - في ز ، خ : « معطوفًا » .
[٤] - في ز ، خ : « اختاره » .
[٥] - في خ ، ز : « أبو معلى » . وفي ت : « أبو يعلى » . والأولى تحريف . والثانية كنية معلى . وقد أثبتنا الموجود في مسند أبي يعلى .

قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **بينا رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين فاختال فيهما ، فأمر اللَّه الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة** »(٣٩) .

وقد ذكر محمد بن المنذر -شَكَّر- في كتاب « **العجائب الغريبة**[١] » بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شابًا في مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إليّ ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن اللَّه ليعجب مني . قال : فما زال ينقص وينقص حتىٰ صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته في كمه وذهب .

وقد ذُكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبي اللَّه موسىٰ -عليه السلام- واختلف في سببه : فعن ابن عباس والسدي : أن قارون أعطىٰ امرأة بغيًا مالًا علىٰ أن تبهت موسىٰ بحضرة الملإ من بني إسرائيل ، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب اللَّه ، فتقول : يا موسىٰ ، إنك فعلت بي كذا وكذا ، فلما قالت في الملإ ذلك لموسىٰ - عليه السلام - أرْعَدَ من الفَرَق ، وأقبل عليها ، وصلىٰ ركعتين ثم قال : أنشدك باللَّه الذي فرق البحر ، وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لما أخبرتني بالذي حملكِ علىٰ ما قلتِ ؟ فقالت : أما إذ نَشَدتني فإنّ قارون أعطاني كذا وكذا ، علىٰ أن أقول لك ، وأنا أستغفر اللَّه وأتوب إليه . فعند ذلك خرّ موسىٰ لله - عز وجل - ساجدًا ، وسأل اللَّه في قارون . فأوحىٰ اللَّه إليه أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسىٰ الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك .

وقيل : إن قارون لما خرج علىٰ قومه في زينته تلك ، وهو راكب علىٰ البغال الشُّهب ، وعليه وعلىٰ خدمه الثياب الأرجوان الصّبغة[٢] ، فمر في جَحفَله ذلك علىٰ مجلس نبي اللَّه موسىٰ - عليه السلام - وهو يذكرهم بأيام اللَّه ، فلما رأىٰ الناس قارون انصرفت وجوه الناس حوله ، ينظرون إلىٰ ما هو فيه ، فدعاه موسىٰ - عليه السلام - وقال : ما حملك علىٰ ما صنعت ؟ فقال : يا موسىٰ ، أما لئن كنت فُضِّلت عليّ بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لنخرجن ، فلتدعونّ عليّ وأدعو عليك . فخرج وخرج قارون في قومه فقال موسىٰ : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو . فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسىٰ : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسىٰ : اللهم ، مر الأرض أن تطيعني اليوم . فأوحىٰ اللَّه إليه أني قد فعلت ، فقال موسىٰ : يا أرض ، خذيهم . فأخذتهم إلىٰ أقدامهم . ثم قال : خذيهم . فأخذتهم إلىٰ ركبهم ، ثم إلىٰ مناكبهم . ثم قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم . قال : فأقبلت بها حتىٰ نظروا إليها . ثم أشار موسىٰ بيده فقال : اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض .

---

(٣٩) مسند أبي يعلى (٢٧٩/٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٢٦/٥) : « فيه زياد بن عبد الله النميري وهو ضعيف ، وقد وثقه ابن حبان وقال : يخطىء » .

---

[١] - في ز : « العربية » . [٢] - في خ : « الصنعة » .

وعن ابن عباس أنه قال : خُسِفَ بهم إلى الأرض السابعة . وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة . فهم[١] يتجلجلون فيها إلىٰ يوم القيامة وقد ذُكر هاهنا إسرائيليات أضربنا عنها صفحًا .

وقوله : ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون اللّه وما كان من المنتصرين** ﴾ ، أي : ما أغنىٰ عنه ماله وما جَمَعه ، ولا خدمه وحشمه . ولا دفعوا عنه نقمة اللّه وعذابه ونكاله [به][٢] ، [ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس** ﴾ ، أي : الذين لما رأوه في زينته ﴿ **قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم** ﴾ ، فلما خسف][٣] به أصبحوا يقولون : ﴿ **ويكأنّ اللّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر** ﴾ أي : ليس المال بدالّ علىٰ رضا اللّه عن صاحبه ؛ فإن اللّه يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسع ، [ويخفض ويرفع][٤] ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « **إنّ اللّه قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن اللّه يعطي المال من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب** » (٤٠) .

﴿ **لولا أن منَّ اللّه علينا لخسف بنا** ﴾ ، أي : لولا لُطف اللّه بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به ، لأنّا وَددْنا أنّا[٥] نكون مثله .

﴿ **ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ ، يعنون أنه كان كافرًا ، ولا يفلح الكافرون عند اللّه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وقد اختلف النحاة في معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **ويكأنّ** ﴾ فقال بعضهم : معناها : « **ويلك**[٦] **اعلم أن** » ولكن خُفّفت فقيل : « **ويك** » ودل فتح « **أن** » علىٰ حذف « **اعلم** » . وهذا القول ضَعفه ابن جرير (٤١) ، والظاهر أنّه قوي ، ولا يشكل علىٰ ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة « **ويكأن** » . والكتابة أمر وضعي[٧] اصطلاحي ، والمرجع إلىٰ اللفظ العربي ، واللّه أعلم .

(٤٠) المسند (١/٣٨٧) .

(٤١) تفسير الطبري (٢٠/٧٧) .

[١] - سقط من : خ ، ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٥] - في ت : « أن » .

[٦] - في ز ، خ : « ويك » .

[٧] - في ز ، خ : « وضع » .

وقيل: معناها: ويكأن، أي: ألم تر أن؛ قاله قتادة. وقيل: معناها: «**وي كأن**»، ففصلها وجعل حرف «وي[١]» للتعجب أو للتنبيه، و«**كأن**»: بمعنىٰ: أظنّ وأحسب. قال ابن جرير: وأقوىٰ الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنىٰ: «**ألم تر أن**»، واستشهد بقول الشاعر

سَأَلَتَانِي الطَّلاقَ أَنْ رَأَتَانِي ... قَلَّ مالي، قَدْ[٢] جِئْتُمَانِي بنُكرِ[٣]
وَيْكَأَنْ مَنْ يَكُن له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ، ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيشَ ضُرِّ

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالىٰ أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، أي: ترفعًا علىٰ خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبرًا بهم، ولا فسادًا فيهم. كما قال عكرمة: العلو: التجبر.

وقال سعيد بن جبير: العلو: البغي.

وقال سفيان بن سعيد الثوري: عن منصور، عن مسلم البطين: العلو في الأرض: التكبر بغير حق. والفساد: أخذ المال بغير حق.

وقال ابن جُريج: ﴿**لا يريدون علوًّا في الأرض**﴾. تعظمًا وتجبرًا ﴿**ولا فسادًا**﴾: عملًا[٤] بالمعاصي.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أشعث[٥] السمان عن أبي سلام الأعرج، عن عليٍّ، قال: إنّ الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين**﴾.

وهذا محمول علىٰ ما إذا أراد الفخر علىٰ غيره، [فإنّ ذلك مذموم كما ثبت في الصحيح، عن النبي، صلىٰ الله عليه وسلم: «**أنه أوحي إليّ أن تَوَاضعُوا، حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ**

[١] - في ز، خ: «أي».
[٢] - في خ، ز: «أن».
[٣] - في ز، خ: «بيكر».
[٤] - في ز، خ: «عمل».
[٥] - في ز، خ: «أشعب».

أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »(٤٢)][١] ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلًا ، قال : يا رسول اللّه ، إني أحب أن يكون ردائي حسنًا ونعلي [حسنة][٢] أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « **لا ، إن اللّه جميل يحب الجمال** » .

وقوله : ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ ، أي : يوم القيامة ﴿ **فله خير منها** ﴾ ، أي : ثواب اللّه خير من حَسَنَة العبد ، فكيف واللّه يضاعفه أضعافًا كثيرة ! فهذا مقام الفضل .

ثم قال : ﴿ **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ وهذا مقام الفصل العدل .

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله - صلوات اللّه وسلامه عليه - بيلاغ الرسالة وتلاوة القرآن علىٰ الناس ، ومخبرًا له بأنه سيرده إلىٰ معاد وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ، ولهذا قال : ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلىٰ معاد** ﴾ أي : افترض عليك أداءه إلىٰ الناس ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ ، أي : إلىٰ يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ وقال : ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾ ، وقال : ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾ .

وقال السدي : عن أبي صالح ، عن ابن عباس : ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلىٰ معاد** ﴾ يقول : لرادك إلىٰ الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . قال السدي : وقال أبو سعيد مثلها .

(٤٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٢] - في ت : « حسنًا » .

وقال الحكم بن أبان : عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ قال : إلىٰ يوم القيامة . ورواه مالك ، عن الزهري .

وقال الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ : إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وفي بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة .

وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روي عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وأبي قَزَعَة ، وأبي مالك ، وأبي صالح . وقال الحسن البصري : إي واللَّه ، إن له لمعادًا يبعثه[١] اللَّه يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

وقد روي عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا[٢] يعلىٰ ، حدثنا سفيان العُصفُري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ ، قال : إلىٰ مكة .

وهكذا رواه النسائي(٤٣) في تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلىٰ - وهو ابن عبيد الطنافسي - به . وهكذا روىٰ العَوفي ، عن ابن عباس : ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ ، أي : لرادك إلىٰ مكة كما أخرجك منها . وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ : إلى مولدك بمكة .

قال ابن أبي حاتم : وقد روي عن ابن عباس ، ويحيىٰ بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

[وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، قال : قال سفيان : وسمعناه من مقاتلٍ منذ سبعين سنة عن الضحاك][٣] ، قال : لما خرج النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم من مكة فبلغ الجُحفة اشتاق إلىٰ مكة فأنزل اللَّه عليه : ﴿ **إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادك إلىٰ معاد** ﴾ إلىٰ مكة .

وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكيًا ، والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ ، قال : هذه مما كان [ابن عباس][٤] يكتمها ، وقد روىٰ ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القارئ[٥] أنه

(٤٣) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٨٦) ، وتفسير الطبري (٢٠/٨٠) .

[١] - في ز ، خ : « ابتعثه » .
[٢] - في ز ، خ : « أبا » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٥] - في ز ، خ : « القاهري » .

قال في قوله : ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ قال : إلىٰ بيت المقدس .

وهذا - والله أعلم - يرجع إلىٰ قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر ، والله الموفق للصواب .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلىٰ مكة ، وهو الفتح الذي هو[١] عند ابن عباس أمارة علىٰ اقتراب أجله - صلىٰ الله عليه وسلم - كما فسره ابن عباس بسورة : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا** ﴾ : أنه أجَلُ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم نُعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر علىٰ ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرىٰ قوله : ﴿ **لرادك إلىٰ معاد** ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره علىٰ أداء رسالة الله ، وإبلاغها إلىٰ الثقلين الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح خلق الله ، وأشرف خلق الله علىٰ الإطلاق .

وقوله : ﴿ **قل ربي أعلم من جاء بالهدىٰ ومن هو في ضلال مبين** ﴾ أي : قل لمن خالفك وكذبك[٢] يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم علىٰ كفرهم - قل : ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالىٰ مذكرًا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلىٰ العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقىٰ إليك الكتاب** ﴾ أي : ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ، ﴿ **ولكن رحمة من ربك** ﴾ ، أي : إنما نزل عليك الوحي من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذ[٣] منحك هذه النعمة العظيمة ﴿ **فلا تكونن ظهيرًا** ﴾ ، أي : معينًا ﴿ **للكافرين** ﴾ ، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

﴿ **ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك** ﴾ أي : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، و[٤]لا تلوي علىٰ ذلك ولا تباله ؛ فإن الله معْلٍ[٥] كلمتك ، ومؤيد[٦] دينك ، ومظهر ما أرسلت به علىٰ سائر الأديان ، ولهذا قال : ﴿ **وادع إلىٰ ربك** ﴾ ، أي : إلىٰ عبادة ربك وحده لا شريك له ، ﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾ .

وقوله : ﴿**ولا تدعُ مع الله إلهًا آخر لا إله إلّا هو**﴾ أي : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز ، خ : « كذلك » .

[٣] - في ت : « فإذا » .

[٤] - سقط من : ز ، خ .

[٥] - في ز ، خ : « معك » .

[٦] - في ز ، خ : « مؤيدك » .

الإلهية إلا لعظمته .

وقوله : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **كل من عليها فان * ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أي : إلا إياه وقد ثبت في الصحيح ، من طريق أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **أصدق كلمة قالها الشاعر[١] كلمة لبيد** :

ألا كُـلُّ شـيءٍ مـا خـلا اللَّهُ باطـلُ(٤٤)

قال مجاهد والثوري في قوله : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أي : إلا ما أريد به وجهه وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرِّر له .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر .

أستغفرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبّ العبَاد ، إلَيه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهذا القول لا ينافي القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله - عز وجل - من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته - تعالىٰ - فإنه الأول و[٢]الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب « **التفكر والاعتبار** » : حدثنا أحمد ابن محمد بن أبي بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمرو بن سليم الباهلي ، حدثنا أبو الوليد ، قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتي الخربة فيقف علىٰ بابها ، فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلُكِ ؟ ثم يرجع إلىٰ نفسه فيقول : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ .

وقوله : ﴿ **له الحكم** ﴾ ، أي : الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ . أي : يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إنْ خيرًا فخير ، وإنْ شرًا فشر .

☆ ☆ ☆

---

(٤٤) صحيح البخاري برقم (٣٨٤١) ، وصحيح مسلم برقم (٢٢٥٦) .

---

[١] - في ز : « شاعر » . [٢] - سقط من : ز .

/ سورة القَصص [٢٦٩و]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥]،[١] وهي ثمان وثمانون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾

﴿طسٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قد مرّ ما يتعلّق به مِن الكلام بالإجمال والتفصيل في أشباهه.

﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾ أي: نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، ويجوز أن يكون "التلاوة" مجازًا مِن التنزيل. ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ مفعول ﴿نَتۡلُواْ﴾، أي: بعضَ نبئهما ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿نَتۡلُواْ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمصدره، أي: نتلو عليكَ بعضَ نبئِهما ملتبسين، أو ملتبسًا بالحقّ، أو تلاوةً ملتبسةً بالحقّ ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتۡلُواْ﴾، وتخصيصُهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكلّ لأنّهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التفسير للمُجمل المَوعودِ. وتصديرُه بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده، أي: أنّه تجبّر وطغا في أرض مصر، وجاوَز الحدودَ المعهودة في الظلم والعدوان.

---

[١] ط س - وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥].

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا يُشَيِّعونه في كلّ ما يريده مِن الشرّ والفساد، أو يشيّع بعضُهم بعضًا في طاعته، أو أصنافًا في استخدامه يستعمِل كلّ صنفٍ في عمل، ويتسخّرُه فيه؛ مِن بناءٍ وحَرْثٍ وحَفرٍ وغير ذلك مِن الأعمال الشاقّة، ومَن لم يستعمله ضرَب عليه الجزية، أو فِرَقًا مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاء؛ لئلّا تتّفق كلمتُهم.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿جَعَلَ﴾، أو صفة لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئناف، وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدل منها.

وكان ذلك لِما أنّ كاهنًا قال له: يُولَد في بني إسرائيل مولود يذهبُ مُلكُك على يده، وما ذاك إلّا لِغاية حُمقه، إذ لو صدق فما فائدةُ القتل، وإن كذب فما وجهه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجتَرأَ على مثل تلك العظيمة مِن قتل المَعصومين مِن أولاد الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

[٢٦٩ظ] / ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي: نتفضّلَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم مِن بأسه. وصيغة المضارع في ﴿نُرِيدُ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية، وهو معطوف على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾... إلخ؛[١] لتناسُبِهما في الوقوع في حيّزِ التفسير للنبأ، أو حال مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ بتقدير المبتدأ، أي: يَستضعفُهم فرعونُ ونحن نريد أن نمُنّ عليهم.

وليس مِن ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنةُ المراد له، لِما أنّ تعلّق الإرادة للمَنّ تعلّق استقبالي، على أنّ منّة الله تعالى عليهم بالخلاص لمّا كانت في شرَف الوقوع جاز إجراؤها مُجرى الواقع المقارِن له. ووضعُ الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة في المنّة بذِكر حالتهم السابقة المباينة لها.

---

[١] في الآية السابقة.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ يُقتَدَى بهم في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعًا مُسخَّرين لآخرين، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لجميع ما كان منتظِمًا في سِلك مُلك فِرعونَ وقومه وِراثةً معهودةً فيما بينهم، كما يُنبئ عنه تعريف ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾. وتأخير ذكر وِراثتهم له عن ذكر "جعلهم أئمّةً" مع تقدّمها عليه زمانًا لانحطاط رتبتها عن الإمامة، ولئلّا ينفصل عنه ما بعده مع كونه مِن رَوادفه، أعني: قولَه تعالى:[١] ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ، أي: نسلِّطهم على مصر والشام يتصرّفون فيهما كيفما يشاءون. وأصل التمكين أن يجعل للشيء مكانًا يتمكّن فيه.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: مِن أولئك المستضعَفين ﴿مَا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه مِن ذهابِ مُلكهم وهُلْكِهم على يد مولودٍ منهم. وقُرئ: "يَرَى" بالياء ورفعِ ما بعده على الفاعِليّة.[٢]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكنكِ إخفاؤه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحسّ به الجيرانُ عند بكائه ويَنُمُّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، وهو النيل، ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضيعةً بالغرَق ولا شدّة، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ / إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب بحيث تأمَنين عليه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحَزَن. وإيثار الجملة الاسميّة وتصديرُها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إنّا فاعلون لردّه وجعلِه مِن المرسلين لا محالةَ. [٢٧٠و]

رُوي أنّ بعض القوابل الموكَّلات مِن قِبَل فرعونَ بحَبالى بني إسرائيل كانت مُصافيةً لأمّ موسى عليه السلام، فقالت لها: «لِيَنفعني حبُّكِ اليوم»، فعالَجتْها، فلمّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عينَيه، وارتعش كلّ مَفصِل منها، ودخل حُبّه في قلبها، ثمّ قالت: «ما جئتكِ إلّا لأقتلَ مولودكِ، وأُخبِرَ فرعونَ،

---

[١] م - تعالى.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

ولكنّي وجدت لابنكِ في قلبي محبّةً ما وجدت مثلها لأحدٍ، فاحفَظِيه، فلمّا خرجَتْ جاء عيون فرعون، فلَفَّتْه في خِرقة فألقَتْه في تنّورٍ مَسجور، لم تعلم ما تصنع لِما طاشَ مِن عقلها، فطلبوا فلَمْ يُلْفُوا[1] شيئًا، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمِعَتْ بكاءه مِن التنّور، فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردًا وسلامًا، فلمّا أَلَحَّ فرعون في طلب الوِلدان أَوحى الله تعالى إليها ما أوحى.[2] وقد رُوي أنّها أرضَعَتْه ثلاثة أشهر في تابوتٍ مِن بَرْدِيّ[3] مَطليّ بالقار مِن داخله.[4]

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحة مُفصِحة عن عطفه على جملةٍ مترتّبةٍ على ما قَبلها مِن الأمر بالإلقاء، قد حُذفَت تَعويلًا على دلالة الحال، وإيذانًا بكمال سرعة الامتثال، أي: فألْقَتْه في اليَمّ بعد ما جعلَته في التابوت حسبما أُمِرَت به، فالتقطه آل فرعونَ، أي: أخذوه أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضياع.

[٢٧٠ظ] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: «كانَ لفرعونَ يومئذ بنت، لم يكن له ولد غيرها، وكانت مِن أكرم الناس إليه، وكان بها برَص شديد، عجزت الأطبّاء عن علاجه، فقالوا: "لا تَبرأ إلّا مِن قِبَل البحر، يؤخذ منه شِبه الإنس يومَ كذا وساعةَ كذا مِن شهر كذا حين تشرق الشمس، فيؤخذ مِن ريقه، فيُلطَّخُ به بَرَصُها فتَبرَأ"، فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل، ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد الذي كان فرعونَ مِصر في زمن يوسف الصدّيق عليه السلام -وقيل: كانت مِن بني إسرائيل مِن سبط موسى. وقيل: كانت عمّتَه، حكاه السهيلي-[5] وأقبلت بنت فرعونَ في جواريها حتّى جلستْ على شاطئ النيل، فإذا بتابوت في النيل تضربه الأمواج، فتعلّق بشجرة، فقال فرعون: "ائتوني به"، فابتدروا بالسُّفُن فأحضروه بين يديه،

---

[1] وفي هامش م: أي: لم يصادِفوا. «منه».

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.

[3] وفي هامش م: البَردي: نبات معروف. «منه».

[4] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.

[5] التعريف والإعلام للسهيلي، ص ٩٦.

فعالَجُوا فتحَه فلم يقدروا عليه، وقصدوا كسرَه فأعياهم، فنظرَت آسيةُ فرَأتْ نورًا في جوف التابوت لم يَرَه غيرها، فعالَجَته ففتَحَته، فإذا هو بصبيّ صغير في مَهدِه، وإذا نور بين عَينَيه وهو يمُصّ إبهامَه لبنًا، فألقى الله تعالى محبّته في قلوب القوم، وعمَدَت ابنةُ فرعون إلى رِيقه فلَطَّخَت به برَصَها فبرَأت مِن ساعته. وقيل: لمّا نظرتْ إلى وجهه برَأَت، فقالت الغُواة مِن قوم فرعون: "إنّا نظنّ أنّ هذا هو الذي نحذَر منه، رُمِي في البحر فَرَقًا منك، فاقتله"، فهَمّ فرعون بقتله، فاستوهبَته آسية، فتركه»[1] كما سيأتي.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ / لام العاقبة، أُبرِزَ مَدخولها في مَعرض العلّة لالتقاطهم تشبيهًا له في الترتيب عليه بالغرَض الحامل عليه. وقُرئ: "حُزنًا"،[2] وهما لغتان، كـ"السُّقْم" و"السَّقَم". جُعِلَ عليه السلام نفسَ الحَزَن إيذانًا بقوّة سببيّته لحَزَنهم. [٢٧١و]

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي: في كلّ ما يأتون وما يذَرون، فلا غَرْوَ في أن قَتلوا لأجله أُلوفًا، ثمّ أخذوه يُربّونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون. رُوي أنّه ذُبِحَ في طلبه عليه السلام تسعون ألف وليدٍ.[3] أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن رَبّى عدوّهم على أيديهم، فالجملة اعتراضيّة لتأكيد خطئهم، أو لبيان الموجِب لِما ابتُلُوا به. وقُرئ: "خَاطِينَ"[4] على أنّه تخفيف "خَاطِئِينَ"، أو على أنّه بمعنى: متعدّين الصوابَ إلى الخطأ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعونَ حين أَخرجته مِن التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي: هو قرّة عين لنا، لِما أنّهما لمّا رَأياه أحبّاه، أو لِما ذُكِر مِن بَرء بنته

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.

[4] قرأ بها أبو جعفر، وهو أحد وجهين لحمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

مِن البرَص بريقِه. وفي الحديث: «أنّه قال: "لكِ لا لي"، ولو قال: "لي كما هو لكِ" لهداه الله تعالى كما هداها».[١]

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبَتْه بلفظ الجمع تعظيمًا ليساعدها فيما تريده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخائل اليُمن، ودلائلَ النجابة، وذلك لِما رأت فيه مِن العلامات المذكورة. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنّاه فإنّه خليق بذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾،[٢] والتقدير: فالتقطه آل فرعونَ ليكون لهم عَدُوًّا وحَزَنًا، وقالت امرأته له: كَيت وكَيت، وهم لا يشعرون بأنّهم على خطأ عظيم فيما صنعوا مِن الالتقاط ورجاءِ النفع منه والتبنّي له.

[٢٧١ظ] / وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ،[٣] اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم، وقيل: حال مِن أحد ضميرَي ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ على أنّ الضمير للناس، أي: وهم لا يعلمون أنّه لغيرنا وقد تَبنَّيناه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صُفرًا مِن العقل، لِما دَهِمها مِن الخوف والحَيرة حين سَمِعَت بوقوعه في يد فرعون، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم، ٤٣/١٤]، أي: خلاءٌ لا عقولَ فيها، ويعضُده أنّه قُرئ: "فِزِغًا"،[٤] مِن قولهم: "دماؤهم بينهم فِزغٌ"، أي: هَدْر. وقيل: فارغًا مِن الهمّ والحُزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، أو لسماعها أنّ فرعون عطَف عليه وتبنّاه. وقُرئ: "مُؤْسَى" بالهمز[٥] إجراءً للضمّة في جارة الواو مُجرى ضمّتها فهُمِزت كما في "وُجوه".[٦]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٣. وهو جزء من حديث طويل أخرجه النسائي في السنن الكبرى، ١٧٢/١٠ (١١٢٦٣)، بلفظ: «لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكنّ الله حرّمه ذلك».

٢ في الآية السابقة.

٣ القصص، ٤/٢٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكر ابن جنّي أنّ قُطرب حكاها عن بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٤٨/٢.

٥ س - بالهمز. | قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطرب وبعض القرّاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٦ عبارة ابن جنّي: «إنّ ضمّة الميم في "الموقدان" >

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ أي: إنّها كادت لَتُظهر بموسى، أي: بأمره وقصّته مِن فرط الحَيرة والدهشة، أو الفرحِ لتبنّيه، ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ بالصبر والثبات ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: المصدّقين بوعد الله تعالى، أو مِن الواثقين بحفظه، لا بتبنّي فرعون وتعطّفه، وهو علّة الربط. وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ﴾ مريم، والتعبيرُ عنها بأخوّته عليه السلام دون أن يقال: "لِبِنتها" للتصريح بمَدار المحبّة الموجبة للامتثال بالأمر: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتّبِعي أثرَه وتتبّعي خبره، ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَته ﴿عَن جُنُبٖ﴾ عن بُعد. وقُرِئ بسكون النون،[1] و"عَن جَانِبٍ"،[2] والكلّ بمعنًى.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنّها تقصّه وتتعرّف حاله، أو أنّها أختُه.

﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه أن يرتضع مِن المرضعات. و﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ جمع "مُرْضِع"، وهي المرأة التي تُرضع، أو "مَرْضَع"، وهو الرضاع أو موضِعه، أعني: الثديَ. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبل قصِّها أثرَه.

﴿فَقَالَتۡ﴾ عند رؤيتها لِعدم قبوله الثديَ، واعتناءِ فرعونَ / بأمره، وطلبِهم مَن يَقبل ثديَها: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ أي: لأجلكم ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصّرون في إرضاعه وتربيته. [٢٧٣و]

< و"موسى" لمّا جاورت الواوَ الساكنة صارت كأنّها فيها، والواو إذا انضمّت ضمًّا لازمًا هُمزت؛ نحو: "أُجوه" و"أُقِّتت"». الخصائص لابن جنّي، ١٥٠/٣.

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن النعمان بن سالم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٥.

رُوي أنّ هامان لمّا سمعه منها قال: «إنّها لَتعرفُه وأهلَه، فخذوها حتّى تخبِر بحاله»، فقالت: «إنّما أردتُ: وهُم لِلملِك ناصِحون»، فأمرها فرعون بأن تأتي بمَن يكفُله، فأتت بأمّه وموسى على يد فرعونَ يبكي، وهو يعلّله، فدفعه إليها فلمّا وجد ريحَها استأنس والتقَم ثديَها، فقال: «مَن أنتِ منه؟ فقد أبى كلّ ثدي إلّا ثديكِ»، فقالت: «إنّي امرأة طيّبة الريح طيّبة اللبن، لا أُوتَى بصبيّ إلّا قَبِلني»، فقرّره في يدها، وأجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها مِن يومها.[1]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وعده مِن ردّه وجعلِه مِن المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلفَ فيه بمشاهدة بعضِه، وقياس بعضه عليه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيرتابون فيه، أو أنّ الغرض الأصلي مِن الردّ علمُها بذلك، وما سواه تَبَع. وفيه تعريض بما فرَط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا[2] بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغ الذي لا يزيد عليه نَشؤُه، وذلك مِن ثلاثين إلى أربعين سنةً، فإنّ العقل يكمل حينئذ. ورُوي أنّه لم يُبعث نبيّ إلّا على رأس الأربعين.[3] ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: اعتدل قدّه أو عقله. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: نبوّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو علمَ الحكماء والعلماء وسَمْتَهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل فعلًا يُستجهل فيه، وهو أوفق لنظم القصّة؛ لأنّه تعالى استنبأه بعد الهجرة في المراجعة.
﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ / ذلك الذي فعلنا بموسى وأمّه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم. [٢٧٣ظ]

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٣/٤.
[2] س: فلمّا.
[3] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٣/٤.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي: مِصرَ مِن قصر فرعون. وقيل: مَنْف،[١] أو حايين،[٢] أو عينَ الشمس،[٣] مِن نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت لا يُعتاد دخولها، أو لا يتوقّعونه فيه. قيل: كان وقتَ القيلولة. وقيل: بين العشاءَين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه على دينه، وهم بنو إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: مِن مخالفيه دينًا، وهم القِبط. والإشارة على الحكاية.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: سأله أن يغيثه بالإعانة، كما يُنبئ عنه تعديته بـ﴿عَلَى﴾. وقُرئ: "استعانه".[٤] ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضرَب القِبطيَّ بجمعِ كفِّه. وقُرئ: "فلَكزَهُ"،[٥] أي: فضرَبَ به صَدرَه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتلَه، وأصلُه أنهى حياته، مِن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنّه لم يكن مأمورًا بقتل الكفّار، أو لأنّه كان مأمونًا فيما بينهم، فلم يكن له اغتيالهم. ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأً، وإنّما عدّه مِن عمل الشيطان وسمّاه ظلمًا واستغفر عنه جَريًا على سَنن المقرّبين في استعظام ما فرَط منهم، ولو كان مِن محقَّرات الصغائر. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ توسيطه بين كلامَيه عليه السلام لإبانة ما بينهما مِن المخالفة مِن حيث إنّه مناجاة ودعاء، بخلاف الأوّل. ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: بقتله

---

١ مَنْف: مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: «أصلها بلغة القبط "مافه"، فعرّبت فقيل: مَنْف». وهي أوّل مدينة عمّرت بعد غرق فرعون. بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستّة فراسخ. معجم البلدان للحموي، ٢١٤/٥.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوع معالم التنزيل للبغوي، ١٩٦/٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٨: "حابين" بـ"الباء". وفي مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٧؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٥٣/١٧: "خانين" بـ"الخاء" المعجمة والنون.

٣ عَين الشمس: مدينة فرعون بمصر ممّا يلي جبل المقطّم، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، بينه وبين بَلبيس مِن ناحية الشام قرب المطريّة، وليست على شاطئ النيل. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٧٨/٤؛ والروض المِعطار للحميري، ص ٤٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأخفش وسيبويه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣٩٨/٣.

﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ ذلك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المبالِغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتِهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ إمّا قسَم محذوف الجواب، أي: أُقسِم بإنعامك
[٢٧٤و] عليّ بالمغفرة / لأتوبنّ، ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد هذا أبدًا ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وإمّا استعطاف، أي: بحقّ إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معينًا لِمَن يؤدّي معاونته إلى الجُرم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لم يستَثْنِ فابتُلِي به مرّة أخرى، وهذا يؤيّد الأوّل. وقيل: معناه: بما أنعمتَ عليّ مِن القوّة أُعِين أولياءك، فلن استعمِلَها في مظاهرة أعدائك.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يترصّد الاستقادة أو الأجنادَ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثه برفع الصوت، مِن "الصُّراخ"، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّنُ الغواية، تسبّبتَ لقتل رجلٍ وتقاتل آخَر.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: لموسى وللإسرائيلي، إذ لم يكن على دينهما، ولِأنّ القِبط كانوا أعداءً لبني إسرائيل على الإطلاق. وقُرِئ: "يَبطُش" بضمّ "الطاء".[١]

﴿قَالَ﴾ أي: الإسرائيلي ظانًّا أنّه عليه السلام يَبطِش به حسبما يوهمه تسميته إيّاه غويًّا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قالوا: لمّا سمع القبطي قولَ الإسرائيلي علم أنّ موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني،

---

[١] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، وأمر فرعونُ بقتل موسى عليه السلام. وقيل: قاله القبطي.

﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو الذي يفعل كلّ ما يريده مِن الضرب والقتل، ولا ينظر في العواقب. وقيل: المتعظّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: كائن مِن آخرها، أو جاءَ مِن آخرها ﴿يَسۡعَىٰ﴾ أي: يسرع، صفة لـ﴿رَجُلٞ﴾، أو حال منه على أنّ الجارّ والمجرور صفة له، لا متعلِّق بـ﴿جَآءَ﴾، فإنّ تخصّصه يُلحِقه بالمعارف. / قيل: هو مؤمن آلِ فرعونَ، واسمه حزقيل، وقيل: شمعون، وقيل: شمعان. [٢٧٤ظ]

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، فإنّ كلًّا مِن المتشاوِرَين يأمر الآخرين ويأتَمِر، ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ أي: مِن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ "اللام" للبيان، لِما أنّ معمول الصلة لا يتقدّمها.

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا﴾ أي: مِن المدينة ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلّصني منهم، واحفظني مِن لحوقهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أي: نحوَ مَديَن، وهو قرية شعيب عليه السلام، سمّيت باسم مَديَن بن إبراهيم، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيّام، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ[1] أَن يَهۡدِيَنِي[2] سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكّلًا على الله تعالى،

---

[1] ط س - ربّي.

[2] ط س + ربّي. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

وثِقةً بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرُق، فعَنَّ له ثلاثُ طرائق، فأخذ في الوسطى، وجاء الطلّاب فشرعوا في الأُخريَين. وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلّا بورَق الشجر، فما وصل حتّى سقط خُفّ[1] قدميه. وقيل: جاء مَلَك على فرس وبيده عَنَزة،[2] فانطلق به إلى مَديَن.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أي: وصل إليه، وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ﴾ أي: فوقَ شفيرها ﴿أُمَّةٗ﴾ جماعةً كثيفة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ أي: مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في موضعٍ أسفلَ منهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تَمنعان ما معهما مِن الأغنام عن التقدّم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم مع عدم الفائدة في التقدّم.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه مِن التأخر والذَّود: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ ما شأنُكما فيما أنتما عليه مِن التأخّر والذَّود؟ ولِمَ لا تباشرانِ السقي كدأب هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا / لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: عادتنا أن لا نسقي [٢٧٥و]
حتّى يَصرف الرُّعاةُ مواشيَهم بعد رِيِّها عن الماء عجزًا عن مُساجَلَتهم، وحذَرًا عن مخالطة الرجال، لا أنّا لا نسقي اليومَ إلى تلك الغاية.

وحُذف مفعول السقي والذود والإصدار لِما أنّ الغرض هو بيان تلك الأفعالِ أنفسِها، إذ هي التي دَعَتْ موسى عليه السلام إلى ما صنع في حقّهما مِن المعروف، فإنّه عليه السلام إنّما رحمهما لكونهما على الذِّياد للعجز والعِفّة، وكونِهم على السقي غيرَ مبالين بهما، وما رحمهما لكون مَذودِهما غنمًا ومَسقيِّهم إبِلًا مثلًا.

وقُرئ: "لَا نُسۡقِي"[3] مِن "الإسقاء"، و"يَصۡدُرَ"[4] مِن "الصُّدور"، و"الرُّعَاءُ"

---

[1] س: حف.
[2] العَنَزَة -بالتحريك-: أطول مِن العصا، وأقصرُ مِن الرمح. الصحاح للجوهري، «عنز».
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة السمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.
[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

بضمّ "الراء"،[١] وهو اسم جمع كـ"الرُّخال"، وأمّا ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ فجمعٌ قياسي كـ"صِيام" و"قِيام".

وقوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ إبلاءٌ منهما للعذر إليه عليه السلام في تَوَلِّيهما للسقي بأنفسهما، كأنّهما قالتا: إنّا امرأتان ضعيفتان مستورتان، لا نقدر على مُساجَلة الرجال ومزاحمتهم، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ كبير السنّ، قد أضعفه الكِبَر، فلا بدّ لنا مِن تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارَهم مِن الماء.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمةً عليهما، والكلام في حذف مفعوله كما مرّ آنفًا. رُوي أنّ الرُّعاة كانوا يَضَعون على رأس البئر حجَرًا لا يُقِلّه إلّا سبعة رجال، وقيل: عشرة، وقيل: أربعون، وقيل: مائة، فأَقَلّه وحدَه مع ما كان به مِن الوَصَب[٢] والجراحة والجوع،[٣] ولعلّه عليه السلام زاحَمَهم في السقي لهما، فوضعوا الحجَر على البئر لتعجيزه عليه السلام عن ذلك، فإنّ الظاهر أنّه عليه السلام غِبّما شاهد حالهما سارع إلى السقي لهما، وقد رُوي أنّه دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما.[٤] وقيل: كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة.[٥]

ورُوي أنّه عليه السلام سألهم دلوًا مِن ماء، فأعطَوْه دَلوَهم، وقالوا: استَقِ بها، وكان لا ينزعها إلّا أربعون، فاستقى بها وصبّها في الحوض ودعا بالبركة، ورَوّى غنمهما وأصدَرهما.[٦]

/ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان هناك، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ أي: أيّ شيء أنزلته إليّ ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ جَلَّ أو قَلَّ. وحمَله الأكثرون على الطعام بمعونة المَقام. [٢٧٥ظ]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

٢ الوَصَبُ: المرض. **الصحاح** للجوهري، «وصب».

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٩٧/٨.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠١/٣.

﴿فَقِيرٌ﴾ أي: محتاج. ولتضمّنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدِّعامة؛ لتقوية العمل. وقيل: المعنى: لِما أنزلتَ إليّ مِن خير عظيمٍ هو خير الدارين صِرتُ فقيرًا في الدنيا؛ لأنّه كان في سَعة مِن العيش عند فرعون، قاله عليه السلام إظهارًا للتبجّح[١] والشكر على ذلك.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل: هي كُبراهما، واسمها صَفوراء، أو صَفراء، وقيل: صُغراهما، واسمها صُفيراء، أي: جاءته عَقيب ما رجعتا إلى أبيهما. رُوي أنّهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامُهما حُفَّلٌ بِطان، قال لهما: «ما أعجلَكما؟» قالتا: «وجدنا رجلًا صالحًا رَحِمَنا فسَقى لنا»، فقال لإحداهما: «اذهبي فادْعيهِ لي».[٢]

وقوله تعالى: ﴿تَمْشِي﴾ حال مِن فاعل ﴿جَآءَتْ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن ضمير ﴿تَمْشِي﴾، أي: جاءته تمشي كائنةً على استحياء، فمعناه: أنّها كانت على استحياء حالتَي المشي والمجيء معًا، لا عند المجيء فقط. وتنكير ﴿ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ للتفخيم. قيل: جاءته مُتَخَفِّرةً، أي: شديدةَ الحياء. وقيل: قد استَتَرَتْ بِكُمّ دِرعها.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية مجيئها إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل: قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاءَ سقيكَ لنا. أسندَت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء لئلّا يوهِم كلامها ريبةً. وفيه مِن الدلالة على كمال العقل والحياء والعفّة ما لا يخفى.

رُوي أنّه عليه السلام أجابها، فانطلقا وهي أمامَه، فألزقت الريحُ ثوبها بجسدها فوَصفَتْه، فقال لها: «امشي خَلفِي، وانْعَتِي لي الطريق»، ففعلَتْ حتّى أتيا دار شعيب عليهما السلام.[٣]

---

١ التبجّح: الفرح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بجح».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: ما جرى عليه، مِن "الخبر المقصوص"، فإنّه مصدر سمّي به المفعول كـ"العَلَلِ".[1]

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ / الذي يلوح مِن ظاهر النظم الكريم [٢٧٦و] أنّ موسى عليه السلام إنّما أجاب المستدعيةَ مِن غير تَلَعْثُم ليتبرّك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهرَ برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجرًا حسبما صرّحت به. ألا يُرى إلى ما رُوي أنّ شعيبًا لمّا قَدّم إليه طعامًا قال: «إنّا أهلُ بيت لا نبيع ديننا بطِلاع الأرض ذهَبًا، ولا نأخذ على المعروف ثمنًا»، ولم يتناول حتّى قال شعيب عليهما السلام: «هذه عادتُنا مع كلّ مَن ينزل بنا»،[2] فتناول بعد ذلك على سبيل التقبّل لمعروف مبتَدأ، كيف لا، وقد قَصّ عليه قَصَصه، وعرّفه أنّه مِن بيت النبوّة مِن أولاد يعقوب عليهم السلام، ومثله حقيق بأن يُضَيَّف ويُكرَّم، لا سيّما في دار نبيّ مِن أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام.[3]

وقيل: ليس بمُستنكَر منه عليه السلام أن يقبل الأجرَ لاضطرار الفقر والفاقة. وقد رُوي عن عطاء بن السائب[4] أنّه عليه السلام رفع صوته بدعائه لِيُسمِعَها،[5] ولذلك قيل له: ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾... إلخ، ولعلّه عليه السلام إنّما فعله ليكون ذريعةً إلى استدعائه، لا إلى استيفاء الأجر.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ وهي التي استدعَتْه إلى أبيها، وهي التي زوّجها مِن موسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ أي: لرَعي الغنم، والقيام بأمرها،

---

١ وفي هامش م: وهو الشرب الثاني، سمّى به ما يُعَلّ به. «منه».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٣ ط س: عليهم السلام.

٤ هو عطاء بن السائب الثقفي مولاهم، الكوفي، أبو السائب، وقيل: أبو زيد (ت. ١٣٦هـ/٦٥٦م)، الإمام، الحافظ، محدّث الكوفة. رَوى عن أبيه السائب بن زيد، وعن أنس بن مالك، وعن عبد الله بن أبي أوفى، وخلق كثير. قال أحمد بن حنبل: «عطاء ثقة ثقة، رجل صالح». وقال: «مَن سمع منه قديمًا كان صحيحًا، ومَن سمع منه حديثًا لم يكن بشيء». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١١١/٦.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢١٧/١٨.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل جارٍ مَجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جُعِل ﴿خَيْرَ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾، وذُكِر الفعل على صيغة الماضي للدلالة على أنّه أمين مجرَّب.

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام قال لها: «وما أَعلَمَكِ بقوّته وأمانته؟»، فذكرَتْ ما شاهدَتْ منه عليه السلام مِن إقلال الحجَر، ونزعِ الدلْو، وأنّه صوَّبَ رأسه حتّى بلَّغَتْه رسالته، وأَمَرَها بالمشي خلفَه.[١]

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ / أي: تكونَ أَجِيرًا [٢٧٦ظ]
لي، أو تُثِيبَني، مِن "أَجَرتُه كذا" إذا أثبتَه إيّاه. فقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ على الأوّل ظرف، وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف، أي: رِعْيَةَ ثماني حِجج.

ونُقل عن المبرّد: أنّه يقال: "أَجَرْتُ داري ومَملوكي" غيرَ ممدود، و"آجَرْتُ" ممدودًا،[٢] والأوّل أكثر. فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفًا، والمعنى: على أن تأجرني نفسَك. وقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرف كالوجه الأوّل.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾[٣] في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فهو مِن عندك بطريق التفضّل، لا مِن عندي بطريق الإلزام عليك. وهذا مِن شعيب[٤] عرضٌ لرأيه على موسى عليهما السلام، واستدعاء منه للعقد، لا إنشاءٌ وتحقيق له بالفعل.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر، أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال. واشتقاق "المَشقّة" مِن "الشَّقّ"، فإنّ ما يصعب عليك يشُقّ عليك اعتقادك في إطاقته، ويوزّع رأيك في مُزاولته.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.
٢ تحرير ألفاظ التنبيه للنووي، ص ٢١٩.
٣ س: عشر.
٤ س + عليه السلام.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسن المعاملة، ولينِ الجانب، والوفاءِ بالعهد. ومراده عليه السلام بالاستثناء التبرّكُ به، وتفويضُ أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته تعالى.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ذلك الذي قلتَه وعاهدتني فيه وشارطتَني عليه قائمٌ وثابتٌ بيننا جميعًا، لا يخرج عنه واحد منّا، لا أنا عمّا شَرطتَ عليّ، ولا أنت عمّا شَرطتَ على نفسك.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي: أكثرَهما، أو أقصرَهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: وَفَّيْتُكَهُ بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ تصريح بالمراد، وتقريرٌ لِأمرِ الخِيَرة، أي: لا عدوانَ عليّ بطلب الزيادة على ما قضيتُه مِن الأجلَين.

وتعميم انتفاء العدوان لكِلا الأجلَين بصَدَد المشارطة مع عدم تحقّق العدوان في أكثرهما رأسًا للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء، أي: كما لا أُطالَب بالزيادة على العشر، لا أُطالَب بالزيادة على الثماني، أو أيّما الأجلَينِ قضيتُ فلا إثمَ عليّ،[1] يعني كما لا إثمَ عليّ في قضاء الأكثر، لا إثمَ عليّ في قضاء الأقصَر فقط.

/ وقُرِئ: "أَيَّ الأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ"،[2] فـ"مَا" مزيدة لتأكيد القضاء، كما أنّها [٢٧٧و]
في القراءة الأُولى مزيدة لتأكيد إبهامِ "أيِّ" وشياعِها.

وقُرِئ: "أَيْمَا" بسكون الياء،[3] كقول مَن قال:

تنظَّرتُ نصرًا والسِّماكَين أيْهُمَا   عليّ مِن الغيثِ استَهلّت مَواطِرُه[4]

---

[1] س - عليّ.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٣٠٠/٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٧.

[4] للفرزدق في ديوانه، ٤٦٢/١. "تَنظَّرت": انتظرت في مُهلة. و"نَصْر": اسم رجل. و"السِّماكين": كوكبان، يقال لأحدهما: الأعزَل، وهو مِن منازل القمر، ويقال للآخر: السِّماك الرامح، وليس مِن المنازل. و"أيْهُما": مخفَّف "أيّهما"، وهو محلّ الاستشهاد. و"استَهلّت": صبّت. | و"المَواطر": جمع ماطِرة، صفةٌ للسحائب، أي: صبّت سحائبه المَواطر. شرح شواهد المغني للسيوطي، ٢٣٦/١.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد وحفيظ، فلا سبيلَ لأحدٍ منّا إلى الخروج عنه أصلًا. وليس ما حُكي عنهما عليهما السلام تمامَ ما جرى بينهما مِن الكلام في إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة وإيقاعِهما؛[1] بل هو بيان لِما عزَما عليه واتّفقا على إيقاعه حسبما يتوقّف عليه مَساق القصّة إجمالًا مِن غير تعرّض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلًا.

رُوي أنّهما لمّا أتمّا العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام: «ادخُل ذلك البيت، فخذ عصًا مِن تلك العِصِيّ»، وكانت عنده عِصيّ الأنبياء عليهم السلام، فأخذَ عصًا هبط بها آدم عليه السلام مِن الجنّة، ولم يزَل الأنبياء يتوارثونها حتّى وقعت إلى شعيب عليه السلام، فمسّها وكان مكفوفًا، فضَنَّ[2] بها، فقال: «غيرَها»،[3] فما وقع في يده إلّا هي سبعَ مرّات، فعَلِم أنّ له شأنًا.[4]

وقيل: أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام، فكانت معه حتّى لقي بها موسى ليلًا.[5]

وقيل: أودعها شعيبًا مَلَكٌ في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصًا، فأتَتْه بها، فردّها سبع مرّات، فلم يقع في يدها غيرُها، فدفعها إليه، ثمّ ندِم؛ لأنّها وديعة، فتَبِعه فاختصما فيها، ورضيا أن يَحكم بينهما أوّلُ طالع، فأتاهما المَلَك فقال: / «ألقِياها، فمَن رفعها فهي له»، فعالجها الشيخ فلم يُطِقها، ورفعها موسى عليهما السلام.[6] [٢٧٧ظ]

وعن الحسَن رحمه الله:[7] «ما كانت إلّا عصًا مِن الشجر اعترَضها اعتراضًا».[8] وعن الكلبي رحمه الله: «الشجرة التي منها نودي شجرة العوسَج، ومنها كانت عصاه».[9]

---

١ ط س م - وإيقاعِهما. ["صح" في هامش م].
٢ وفي هامش م: أي: بَخِل بها. «منه».
٣ وفي هامش م: أي: خُذ غيرها. «منه».
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٣٣/١٨.
٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣.
٦ ط س: عليه السلام. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣.
٧ ط س: رضي الله عنه.
٨ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣؛ تفسير الرازي، ٥٩٥/٢٤. قال الرازي: «أي: أخذَها مِن عرض الشجر، يقال: "اعترَض" إذا لم يتخيّر».
٩ التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٤/١٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٦/٣.

ولمّا أصبح قال له شعيب صلوات الله عليهما: «إذا بلغتَ مَفرِق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإنّ الكلأ وإن كان بها أكثر إلّا أنّ فيها تِنّينًا أخشاه عليك وعلى الغنم»، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفّها، ومشى على أثرها، فإذا عُشب وريف لم يُرَ مثله، فنام فإذا بالتنّين قد أقبل، فحارَبَتْه العصا حتّى قتَلَتْه، وعادت إلى جنب موسى عليه السلام داميةً، فلمّا أبصرها داميةً والتنّينَ مقتولًا ارتاح لذلك، ولمّا رجع إلى شعيب عليه السلام مسّ الغنمَ فوجدها مَلأى البطون، غزيرةَ اللبن، فأخبره موسى عليهما السلام بالشأن، ففرِح وعلِم أنّ لموسى والعصا شأنًا، وقال له: «إنّي وهبت لك مِن نِتاج غنمي هذا العامَ كلَّ أَدْرَع ودَرْعاء»،[1] فأُوحي إليه في المنام: أنِ اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثمّ سقى، فما أخطأَتْ واحدة إلّا وضَعَتْ أَدْرَعَ ودَرْعاء، فوفّى له بشرطه.[2]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فصيحة، أي: فعقَدَ العقدين، وباشرَ موسى ما التزمه، فلمّا أتمّ الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ نحو مِصر بإذنٍ مِن شعيب عليهما السلام.[3] رُوي أنّه عليه السلام قضى أبعدَ الأجلَين، ومكَثَ عنده بعد ذلك عشر سنين، ثمّ عزم على العود إلى مِصر، فاستأذنه في ذلك فأذِن له، فخرج بأهله.

/ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: أبصرَ مِن الجهة التي تلي الطور ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخَبرِ الطريق، وقد كانوا ضلّوه، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عُود غليظ، سواء كانت في رأسه نارٌ أو لا، قال قائلهم: [٢٧٨و]

باتَت حَواطب ليلى يلتمِسْن لها جزل الجِذَى غيرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ[4]

---

[1] الأدْرَعُ مِن الخيل والشاء: ما اسودّ رأسه وابيضّ سائره، والأنثى درعاء. الصحاح للجوهري، «درع».

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٧/٣.

[3] س: عليه السلام.

[4] لابن مُقبِل في ديوانه، ص ٨٠. "الحَواطِب": الجواري اللّاتي يطلُبنَ الحطَب. و"الجَزل": الحطَب اليابس العظيم، و"الخَوّار": الضعيف، يقال: "رُمحٌ خَوّار"، و"رَجلٌ خَوّار". و"الدعَر": مصدرُ دَعَرَ دَعَرًا؛ فهو عودٌ دَعِر: رديءٌ كثيرُ الدخان. فتوح الغيب للطيبي، ٤٧/١٢.

وقال:

وألقى على قَبسٍ مِن النار جَذوة شديدًا عليها حرّها والتهابها[١]

ولذلك بيِّن بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وقُرئ بكسر الجيم[٢] وبضمّها،[٣] وكلُّها لغات. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي: تستدفِئون.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النارَ التي آنَسها ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ[٤] ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: أتاه النداء مِن الشاطئ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام، ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ متّصل بـ"الشاطئ"، أو صلة لـ﴿نُودِيَ﴾. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿شَٰطِيِٕ﴾؛ لأنّها كانت نابتة على الشاطئ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا وإن خالَف لفظًا لِما في طه[٥] والنمل[٦] لكنه موافق له في المعنى المراد.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾،[٧] وكلاهما مفسِّر لـ﴿نُودِيَ﴾.[٨] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ فصيحة مفصِحة عن جُمَل قد حُذفت تعويلًا على دلالة الحال عليها، وإشعارًا بغاية سرعة تحقّق مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت ثعبانًا فاهتزّت، فلمّا رَآها تهتزّ ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي: في سرعة الحركة مع غاية عِظَم جُثّتها ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ أي: منهزِمًا مِن الخوف ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾

---

[١] بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٦/٤. و"الجَذْوة": القَبْسة مِن النار، والمراد بها النميمة؛ أي: ألقى على قبسٍ جَذوة مِن النميمة اشتدّ عليه حرُّها والتهابُها؛ لأنّها هَيّجَت نار العداوة والفتنة بين القوم. فتوح الغيب للطيبي، ٤٧/١٢.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[٣] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

[٤] م ط س: الوادي.

[٥] طه، ١١/٢٠-١٢.

[٦] النمل، ٩/٢٧.

[٧] في الآية السابقة.

[٨] في الآية السابقة.

أي: لم يرجع. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: قيل: يا موسى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ عن المخاوف، فإنّه لا يخاف لديّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي: أدخِلها فيه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: عيب، / ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: يديكَ المبسوطتين لتتّقي بهما الحيّة [٢٧٨ظ] كالخائف الفَزِع، بإدخال اليمنى تحت العَضُد الأيسر، واليسرى تحت الأيمن، أو بإدخالهما في الجَيب، فيكون تكريرًا لِغرضٍ آخر، هو أن يكون ذلك في وجه العدوّ إظهارَ جرأة، ومبدأً لِظهور معجزة.

ويجوز أن يُراد بالضمّ التجلّد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانًا، استعارةً مِن حال الطائر، فإنّه إذا خاف نشَرَ جناحَيه، وإذا أمِن واطمأنّ ضمّهما إليه.

﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: مِن أجل الرهب، أي: إذا عراكَ الخوف فافعل ذلك تجلّدًا وضبطًا لنفسك. وقُرئ بضمّ "الراء" وسكون "الهاء"،[١] وبضمّهما،[٢] والكلُّ لغات.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد. وقُرئ بتشديد "النون"،[٣] فالمخفّف مثنّى "ذاك"، والمشدّد مثنّى "ذلك". ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ حُجّتان نيّرتان. و"بُرهان" "فُعلان"، لقولهم: "أَبْرَهَ الرجلُ" إذا جاء بالبرهان، مِن قولهم: "بَرِهَ الرجلُ" إذا ابيضَّ، ويقال للمرأة البيضاء: "بَرْهاء"، و"بَرَهْرَهة"، ونظيرُه تسمية الحُجّة "سلطانًا" مِن "السَّلِيط"، وهو الزيت، لإنارتها. وقيل: هو "فُعلال"، لِقولهم: "بَرْهَنَ".

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، أي: كائنان منه تعالى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ واصِلان ومنتهيان إليهم.

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: "الرَهَب" بفتح الراء والهاء. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والمفضّل والجحدري وابن عبيد وقتادة وعيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٧.

٣ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحِقّاءَ بأن نُرسلك إليهم بهاتين المعجزتَين الباهِرتين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا / فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابَلتها. [٢٧٩و]

﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ أي: مُعِينًا، وهو في الأصل اسم ما يُعان به، كـ"الدِّفْء". وقُرئ: "رِدًا" بالتخفيف.[١] ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بتلخيص الحقّ، وتقرير الحُجّة، بتوضيحها وتزييف الشبهة. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعني عند المُحاجّة. وقيل: المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه، لكنّه أُسنِد إليه إسنادَ الفعل إلى السبب. وقُرئ: "يُصَدِّقْنِي" بالجزم[٢] على أنّه جواب الأمر.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝٣٥﴾

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقوّيك به، فإنّ قوّة الشخص بشِدّة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبّر عنه باليد، وشدّتِها بشِدّة العَضُد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي: تسلّطًا وغلبةً. وقيل: حُجّة،[٣] وليس بذاك. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ، أو مُحاجّةٍ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ متعلّق بمحذوف قد صُرّح به في مواضع أُخَر، أي: اذهبا بآياتنا، أو بـ﴿نَجْعَلُ﴾، أي: نسلّطكما بآياتنا، أو بمعنى ﴿لَا يَصِلُونَ﴾، أي: تمتنعون منهم بها. وقيل: هو قسَم، وجوابه ﴿لَا يَصِلُونَ﴾. وقيل: هو بيان لـ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنّه صلة لِما يُبيّنه، أو صلة له على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي".

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر، إلّا أنّ أبا جعفر أبدل مِن التنوين ألفًا في الحالين، ووافقه نافع في الوقف. النشر لابن الجزري، ١/٤١٤.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٧.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على صحّة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى. والمراد بها العصا واليد؛ إذ هما اللّتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك. / والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مرّ سرّه في سورة طه.[1] [٢٧٩ظ]

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ أي: سِحرٌ مُختَلَق لم يُفعل قبلَ هذا مثله، أو سِحرٌ تعمله ثمّ تفتريه على الله تعالى، أو سِحرٌ موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر. ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ أي: السحر، أو ادّعاء النبوّة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: واقعًا في أيّامهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ يريد به نفسه. وقُرِئ: "قَالَ" بغير "واو"؛[2] لأنّه جواب عن مَقالهم. ووجه العطف أنّ المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميّز صحيحَهما مِن الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة المحمودة في الدار، وهي الدنيا، وعاقبتها الأصليّة هي الجنّة؛ لأنّها خلقت مَجازًا إلى الآخرة، ومزرعةً لها، والمقصودُ بالذات منها الثواب، وأمّا العقاب فمِن نتائج أعمال العصاة وسيّئات الغُواة. وقُرِئ: "يَكُونُ" بالياء التحتانيّة.[3]

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجُون عن محذور.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾

---

١ طه، ٢٠/٤٢.

٢ قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٣.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ قاله اللعين بعدما جَمع السحرة وتصدّى للمعارضة، فكان مِن أمرهم ما كان. ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اصنع آجُرًا ﴿فَٱجْعَل لِّى﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي: قصرًا رفيعًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنّه توهّم أنّه لو كان لكان جسمًا في السماء يمكن الرُقِيّ إليه. ثمّ
[٢٨٠و] قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، / أو أراد أن يبني له رَصَدًا يترصّد منه أوضاع الكواكب، فيرى هل فيها ما يدلّ على بعثة رسولٍ وتبدّل دولةٍ.

وقيل: المراد بنفي العلم نفيُ المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى[1] ٱلْأَرْضِ﴾[2] [يونس، ١٨/١٠]، فإنّ معناه: بما ليس فيهنّ، وهذا مِن خواصّ العلوم الفعليّة، فإنّها لازمة لتحقّق معلوماتها، فيلزم مِن انتفائها انتفاءُ معلوماتها، ولا كذلك العلوم الانفعاليّة.

قيل: أوّل مَن اتّخذ الآجرَ فرعونُ، ولذلك أمرَ باتّخاذه على وجه يتضمّن تعليم الصنعة، مع ما فيه مِن تَعَظّم، ولذلك نادى هامانَ باسمه بـ"يا" في وسط الكلام.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغيرِ استحقاقٍ، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للجزاء. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "الجيم"،[3] مِن "رَجَع رُجوعًا"، والأوّل مِن "رَجَعَ رَجْعًا"، وهو الأنسب بالمقام.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عَقيبَ ما بلغوا مِن الكفر والعتوّ أقصى الغايات، ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قد مرّ تفصيله. وفيه مِن تفخيم شأن الأخذ وتهويلِه واستحقارِ المأخوذين المَنبوذين ما لا يخفى، كأنّه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كفٍّ

---

[1] م ط س - ولا في.
[2] م ط س: والأرض.
[3] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.

وطرحهم في البحر. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر، ٦٧/٣٩].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبيِّنْها للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: صيّرناهم في عهدهم ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ﴾ الناسَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى ما يؤدّي إليها مِن الكفر والمعاصي، أي: قدوةً يقتدي بهم أهل الضلال، لِما صَرفوا اختيارَهم إلى تحصيل تلك الحالة. وقيل: سمَّيناهم أئمّةً دعاةً إلى النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، فالأنسب حينئذ أن يكون الجَعلُ بَعدَهم فيما بين الأمم، ويكون الدعوة إلى نفس النار. وقيل: معنى الجَعل منعُ الألطاف الصارفة عن ذلك. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طَردًا وإبعادًا مِن الرحمة، ولعنًا مِن اللاعنين، حيث لا يزال يلعنُهم الملائكة عليهم السلام والمؤمنون خلفًا عن سلَف.

/ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المطرودين المُبعَدين. وقيل: مِن الموسومين بعلامةٍ مُنكَرة، كزُرقة العيون، وسوادِ الوجه، قالَه ابن عبّاس.[1] يقال: "قبَحه الله وقبّحه" إذا جعله قبيحًا. وقال أبو عبيدة:[2] «﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المُهلَكين».[3] و﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي"، أو بمحذوف يفسّره ذلك، كأنّه قيل: وقبّحوا يوم القيامة، نحو: ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء، ١٦٨/٢٦]. [٢٨٠ظ]

---

١ ط س + رضي الله عنهما. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

٢ م: وقيل ["صح" في هامش م].

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام. والتعرّض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيدًا لِما يعقُبه مِن بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ إهلاك القرون الأولى مِن موجِبات اندراس مَعالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدّيَين إلى اختلال نظام العالَم وفساد أحوال الأمم المستدعيَين للتشريع الجديد، بتقرير الأصول الباقية على مرّ الدهور، وترتيبِ الفروع المتبدّلة بتبدّل العصور، وتذكيرِ أحوال الأمم الخالية الموجِبة للاعتبار، كأنّه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجةٍ إلى إيتائها.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنوارًا لِقلوبهم تُبصِر بها الحقائق، وتُمَيِّز بين الحقّ والباطل، حيث كانت عُميًا عن الفهم والإدارك بالكلّيّة، فإنّ البصيرة نور القلب الذي به يَستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تُبصِر.

﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً إلى الشرائع والأحكام التي هي سبُل الله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال مَن عمِل به رحمةَ الله تعالى. وانتصاب الكلّ على الحاليّة مِن الكتاب على أنّه نفس البصائر والهدى والرحمة، أو على حذف المضاف، أي: ذا بصائر... إلخ. وقيل: على العلّة، أي: آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرجى منهم التذكّر، وقد مرّ تحقيق القول في ذلك عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مِن سورة البقرة [البقرة، ٢/٢١].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أنّ إنزال القرآن الكريم أيضًا واقع في زمان شدّة مَساس الحاجة إليه، واقتضاءِ الحكمة له البتّة، وقد صُدِّر بتحقيق كونِه وحيًا صادقًا مِن عند الله عزّ وجلّ ببيان أنّ الوقوف على ما فصّل مِن الأحوال لا يتسنّى إلّا بالمشاهدة، أو التعلّمِ ممّن شاهدها،

وحيث انتفى كلاهما تبيّن أنّه بوحيٍ مِن علّام الغيوب لا محالةَ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية [آل عمران، ٣/٤٤]، أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه[١] الميقات، / على حذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، أو الجانب الغربي على إضافة الموصوف إلى الصفة، كـ"مَسْجِدِ الجامِعِ". [٢٨١و]

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عَهِدنا إليه، وأحكَمْنا أمرَ نبوّته بالوحي وإيتاء التوراة، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مِن جملة الشاهدين للوحي، وهم السبعون المختارون للميقات، حتّى تشاهد ما جرى مِن أمر موسى في ميقاته وكَتبة التوراة له في الألواح، فتخبره للناسِ.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: ولكنّا خَلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتَمادَى الأمَدُ فتغيّرت الشرائع والأحكام، وعَمِيت عليهم الأنباء لا سيّما على آخرهم، فاقتضى الحالُ التشريع الجديد، فأوحينا إليك. فحُذف المستدرَك اكتفاءً بذكر ما يوجبه ويدلّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ نفيٌ لاحتمال كون معرفته عليه السلام للقصّة بالسماع ممّن شاهَدها، أي: وما كنتَ مُقيمًا في أهل مدين مِن شعيب والمؤمنين به.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأ على أهل مدين بطريق التعلّم منهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالقصّة؛ إمّا حال مِن المستكِنّ في ﴿ثَاوِيًا﴾، أو خبر ثان لـ﴿كُنتَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيّاك، ومُوحين إليك تلك الآيات ونظائرَها.

---

١ س – فيه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ ندائنا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[1] واستنبائِنَا إيّاه، وإرسالِنا له إلى فرعون. ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر بغيره لرحمةٍ عظيمةٍ كائنة منّا لك وللناس. وقيل: علّمناك. وقيل: عرّفناك ذلك،[2] وليس بذاك كما ستعرفه.

والالتفات إلى اسم الربّ للإشعار بعلّة الرحمة، وتشريفِه عليه السلام بالإضافة، وقد اكتُفِي عن ذكر المستدرَك ههنا بذِكر ما يوجبه مِن جهته تعالى، كما اكتُفِي عنه[3] في الأوّل بذِكر ما يوجبه مِن جهة الناس، وصُرِّح به فيما بينهما تنصيصًا على ما هو المقصود، وإشعارًا بأنّه المراد فيهما أيضًا، ولله درُّ شأن التنزيل.

[٢٨١ظ] وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلّق بالفعل / المعلَّل بالرحمة، فهو ما ذكرنا مِن إرساله عليه السلام بالقرآن حتمًا، لِما أنّه المعلَّل بالإنذار، لا تعليمُ ما ذُكر. وقُرئ: "رَحْمَةٌ" بالرفع[4] على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، أي: لم يأتِهم نذير لوقوعهم في فترة بينكَ وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنةً، أو بينكَ وبين إسماعيل، بناءً على أنّ دعوة موسى وعيسى كانت مختصّة ببني إسرائيل.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون بإنذارك.

وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر والثَّواءِ في أهل مدين والنداءِ للتنبيه على أنّ كلًّا مِن ذلك برهان مستقِلّ على أنّ حكايته عليه السلام للقصّة بطريق الوحي الإلهي، ولو ذُكر أوّلًا نفي ثَوائه عليه السلام في أهل مدين،

---

[1] القصص، ٣٠/٢٨.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤١٨/٣؛ تفسير الرازي، ٦٠٤/٢٤.

[3] ط س - عنه.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

ثمّ نفيُ حضوره عليه السلام عند النداء، ثمّ نفيُ حضوره عند قضاء الأمر، كما هو الموافق للترتيب الوقوعي، لَربّما توهّم أنّ الكلّ دليل واحدٌ على ما ذُكر، كما مرّ في قصّة البقرة.[1]

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما اقترفوا مِن الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُواْ﴾ عطفٌ على ﴿تُصِيبَهُم﴾، داخل في حيّز ﴿لَوْلَا﴾ الامتناعيّة على أنّ مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه، لا امتناعُ المعطُوف عليه، وإنّما ذِكرُه في حيّزها للإيذان بأنّه السبب المُلجئ لهم إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولًا مؤيّدًا مِن عندك بالآيات، ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرة على يده، وهو جواب ﴿لَوْلَا﴾ الثانية.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ الأولى محذوف ثِقةً بدلالة الحال عليه، والمعنى: لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التي قدّموها ما أرسلناك، لكن لمّا كان قولهم ذلك محقّقًا لا مَحيدَ عنه أرسلناك قطعًا لمَعاذيرهم بالكلّيّة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ٤٨ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٤٩﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن المنزَّل عليه عليه الصلاة والسلام[2] ﴿قَالُواْ﴾ تعنّتًا واقترا حًا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يَعنونه عليه السلام ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ مِن الكتاب المنزّل جملةً. وأمّا اليد والعصا فلا تعلُّق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه السلام.

---

[1] البقرة، ٢/٧٣.

[2] س: عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكونِ ما قالوه تعنّتًا مَحضًا، لا طلَبًا لِما يرشدهم إلى الحقّ، أي: ألَم يكفروا مِن قبلِ هذا القول بما أوتي موسى مِن الكتاب كما كفروا بهذا الحقّ؟

[٢٨٢و] وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ استئناف مَسوق لتقرير كفرهم المستفادِ / مِن الإنكار السابق وبيانِ كيفيّته. وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما -يَعنون: ما أوتي محمّد وما أوتي موسى عليهما السلام- سِحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا بتصديق كلّ واحد منهما الآخرَ، وذلك أنّهم بَعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود في عيدٍ لهم، فسألوهم عن شأنه عليه السلام، فقالوا: إنّا نجده في التوراة بنَعته وصفته، فلمّا رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بكلّ واحد مِن الكتابَين ﴿كَٰفِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وتأكيد لكفرهم المفهوم مِن تسميتهما سِحرًا، وذلك لغاية عتوّهم وتماديهم في الكفر والطغيان.

وقُرئ: "سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا"،[٢] يعنون موسى ومحمّدًا صلّى الله تعالى[٣] عليهما وسلّم. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الجليل، فتأمّل، ودَعْ عنك ما قيل وقيل.

ألا تَرى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ ممّا أوتياه مِن التوراة والقرآن وسمّيتموهما "سِحرين"؛ فإنّه نصّ فيما ذكر. وقوله تعالى: ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي: إن تأتوا به أتّبِعه. ومثلُ هذا الشرط ممّا يأتي به مَن يُدِلّ بوضوح حجّته، وسُنُوح[٤] مَحجّته؛ لأنّ الإتيان بما هو أهدى مِن الكتابين أمرٌ بيّن الاستحالة، فيوسّع دائرةَ الكلام للتبكيت والإفحام.

---

١ قاله الكلبي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ١٣/٨١٠؛ واللباب لابن عادل، ١٥/٢٦٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٣ س - تعالى.

٤ السُّنُوح مصدر "سَنَح" بمعنى "عَرَض"، يقال: "سنَحَ لي رأي في كذا"، أي عَرَض. انظر: الصحاح للجوهري، «سنح».

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّهما سِحران مختلَقان. وفي إيراد كلمة ﴿إن﴾ مع امتناع صدقهم نوع تهكّم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما كلّفتَهم مِن الإتيان بكتابٍ أهدى منهما، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، وإنّما عُبّر عنه بالاستجابة إيذانًا بأنّه عليه السلام على كمال أَمْنٍ مِن أمره، كأنّ أمره عليه السلام لهم بالإتيان بما ذُكِر دعاءٌ لهم إلى / أمرٍ يريدُ وقوعَهُ. و"الاستجابة" تتعدّى إلى الدعاء بنفسه، وإلى الداعي [٢٨٢ظ] بـ"اللام"، فيُحذف الدعاء عند ذلك غالبًا، ولا يكاد يقال: استجاب الله له دعاءه.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغةَ مِن غير أن يكون لهم متمسَّك ما أصلًا، إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي: لا أضلّ ممّن اتّبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو أضلّ مِن كلّ ضالّ، وإن كان ظاهرَ السَّبك لنفي الأضَلّ، لا لنفي المساوي كما مرّ في نظائره مرارًا. وتقييد اتّباع الهَوَى بعدم الهدى مِن الله تعالى لزيادة التقرير، والإشباعِ في التشنيع والتضليل، وإلّا فمقارنته لهدايته تعالى بيّنة الاستحالة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتّباع الهوى، والإعراضِ عن الآيات الهادية إلى الحقّ المبين.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[١] أي: أنزلنا القرآن عليهم متواصلًا بعضه إثرَ بعض حسبَما يقتضيه الحكمة والمصلحة، أو متتابعًا وعدًا ووعيدًا، قصصًا وعِبَرًا ومواعظ ونصائح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون بما فيه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل إيتاء القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أربعون مِن أهل الإنجيل، اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر مِن الحبشة، وثمانية مِن الشام.[١]

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: الحقّ الذي كنّا نعرف حقّيّته. وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نزوله ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمرًا متقادِم العهد، لِما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدّمة، / وأنّهم [٢٨٣و] على دين الإسلام قبل نزول القرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ مرّةً على إيمانهم بكتابهم، ومرّةً على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانَين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى مَن هاجرهم مِن أهل دينهم ومِن المشركين.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالطاعة المعصيةَ، لقوله عليه السلام: «أَتبِعِ الحسنةَ السيّئةَ تَمحُها».[٢]

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨١/٤.

٢ سنن الترمذي، ٣٥٥/٤ (١٩٨٧)؛ المستدرك للحاكم، ١٢١/١ (١٧٨).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ مِن اللاغين ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ عن اللغو تكرّمًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان، ٧٢/٢٥]. ﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتاركة والتوديع، ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتَهم، ولا نريد مخالطتَهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هدايةً موصِلةً إلى البُغية لا محالةَ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مِن الناس، ولا تقدر على أن تُدخله في الإسلام، وإن بذلتَ فيه غاية المجهود، وجاوزتَ في السعي كلَّ حدّ معهود، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، فيدخله في الإسلام.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدّين لذلك. والجمهور على أنّها نزلت في أبي طالب، فإنّه لمّا احتضر جاءه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «يا عمّ؛ قل: "لا إله إلّا الله" كلمةً أحاجّ بها لك عند الله». قال: «يا ابن أخي؛ قد علمتُ إنّك لصادق؛ ولكنّي أكره أن يقال: خَرِعَ[1] عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي لَقلتُها، ولَأقررتُ بها عينك عند الفراق، لِما أرى / مِن شدّة وَجدِك ونصيحتك، ولكنّي سوف أموت على مِلّة الأشياخ: [٢٨٣ظ]
عبد المطّلب، وهاشم، وعبد مناف».[2]

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ[3] نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نزلت في الحارث بن عثمان بن نَوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال:

---

١ وفي هامش م: الخَرَع: الجُبن. «منه».

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٥٠/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٢١/١٧. ونحوه في صحيح مسلم، ٥٥/١ (٢٥).

٣ س – معك.

«نحن نعلم أنّك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتّبعناك وخالَفْنا العربَ وإنّما نحن أكَلةُ رأس أن يتخطّفونا مِن أرضنا»،[١] فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرمًا ذا أمْنٍ لحُرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ وقُرئ: "تُجْبَى"،[٢] أي: يُجمع ويُحمل إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن كلّ أوب. والجملة صفة أخرى لـ﴿حَرَمًا﴾، دافِعةٌ لِما عَسَى يُتوهّم مِن تَضرّرهم بانقطاع المِيرة،[٣] ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكِر -وهم عبدةُ أصنام- فكيف يخافون التخطّفَ إذا ضمّوا إلى حرمة البيت حرمةَ التوحيد؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: جهَلة لا يتفطّنون له، ولا يتفكّرون ليعلموا ذلك. وقيل: هو متعلّق بقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، أي: قليل منهم يتدبّرون فيعلمون أنّ ذلك رزق مِن عند الله تعالى؛ إذ لو علموا لَما خافوا غيره.

وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على أنّه مصدر مؤكِّد لمعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، أو حال مِن "الثمرات" على أنّه بمعنى مرزوق، لتخصّصها بالإضافة. ثمّ بيّن أنّ الأمر بالعكس، وأنّهم أحقّاء بأن يخافوا بأسَ الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثير مِن أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العَيْش والدَّعةِ حتّى أشِروا، فدمّرنا عليهم، وخرّبنا ديارَهم، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةً بما ظلموا، ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعدِ تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا زمانًا قليلًا؛ إذ لا يَسكنها إلّا المارّة يومًا أو بعضَ يوم، أو لم يبقَ مَن يسكنها إلّا قليلًا مِن شُؤم معاصيهم.

[٢٨٤و] ﴿وَكُنَّا نَحْنُ / ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم؛ إذ لم يخلُفْهم أحد يتصرّف تصرّفهم في ديارهم وسائر ذاتِ أيديهم. وانتصاب ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزع الخافض، أو بجعلها ظرفًا بنفسها، كقولك: "زيدٌ ظنّي مقيمٌ"، أو بإضمار زمان مضاف إليه، أو بجعله مفعولًا لـ﴿بَطِرَتْ﴾ بتضمين معنى "كفرَت".

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤٢٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨١/٤.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

[٣] المِيرَةُ، بالكسر: جَلْبُ الطعام. القاموس المحيط للفيروزابادي، «مير».

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للعناية الربّانيّة إثرَ بيان إهلاك القرى المذكورة، أي: وما صحّ وما استقام -بل استحال- في سنّته المبنيّة على الحِكم البالغة، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يُهلِك القرى قبل الإنذار؛ بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وقصَبتها التي هي أعمالها وتوابعها، لكون أهلها أفطَنَ وأنبَل ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالحقّ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجّة وقطع المعذرة بأن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.[1] والالتفات إلى نون العظمة لتربية المَهابة وإدخال الروعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما كنّا مهلكين لأهل القرى بعدما بعثنا في أمّها رسولًا يدعوهم إلى الحقّ ويرشدهم إليه في حالٍ مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفرِ بآياتنا، فالبعثُ غاية لعدم صحّة الإهلاك بموجَب السنّة الإلهيّة، لا لِعدم وقوعه حتّى يلزم تحقّق الإهلاك عقيبَ البعث، وقد مرّ تحقيقه في سورة بني إسرائيل.[2]

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٠﴾

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ مِن أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: فهو شيء شأنه أن يتمتّعَ ويتزيّنَ به أيامًا قلائل. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه مِن ذلك؛ لأنّه لذّة خالصة عن شوائب الألم، وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمة الهمّ، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبدي.

---

[1] القصص، ٢٨/٤٧.

[2] الإسراء، ١٧/٥٨.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ألا تتفكّرونَ فلا تعقلون هذا الأمرَ الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. / وقُرِئ بـ"الياء"[1] على الالتفات المبنيّ على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتهم. [٢٨٤ظ]

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعدًا بالجنّة، فإنّ حُسن الوعد بحُسن الموعود، ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: مدرِكُه لا محالةَ لاستحالة الخُلف في وعده تعالى، ولذلك جيء بالجملة الاسميّة المفيدة لتحقّقه البتّة، وعُطفت بـ"الفاء" المنبئة عن معنى السببيّة.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مَشُوب بالآلام منغَّص بالأكدار، مستتبع للتحسّر على الانقطاع. ومعنى "الفاء" الأولى ترتيبُ إنكار التشابُه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها مِن ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى، أي: أبَعد هذا التفاوت الظاهر يُسوَّى بين الفريقين؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَتَّعْنَٰهُ﴾ داخل معه في حيّز الصلة، مؤكِّد لإنكار التشابه، ومقرّر له، كأنّه قيل: كمَن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثمّ نُحضره أو أحضرناه يوم القيامة النارَ أو العذابَ. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على التحقّق حتمًا. وفي جعله مِن جملة المحضَرين مِن التهويل ما لا يخفى. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة. وقُرِئ: "ثُمَّ هْوَ" بسكون "الهاء"[2] تشبيهًا للمنفصل بالمتّصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بالعطف على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لاختلافهما عنوانًا وإن اتّحدا ذاتًا، أو بإضمار "اذكر". ﴿فَيَقُولُ﴾ تفسير للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

---

١ قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن السوسي. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٠٩/٢.

كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذف المفعولان معًا ثقةً بدلالة الكلام عليهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا صدر عنهم حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم مِن الشياطين، أو رؤساؤهم الذين اتّخذوهم أربابًا مِن دون الله تعالى بأن أطاعوهم في كلّ ما أمروهم به ونهَوا عنه.

ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أنّه ثبت مقتضاه وتحقّق مؤدّاه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] وغيرُه مِن آيات الوعيد. وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع أيضًا لأصالتهم في الكفر واستحقاقِ العذابِ حسبما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]. ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدة إمّا لتفطّنهم أنّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال، وجَزمِهم بأنّ العبَدة سيقولون: / هؤلاءِ أضلّونا، وإمّا لأنّ العَبَدة قد قالوه اعتذارًا، وهؤلاء إنّما [٢٨٥و]
قالوا ما قالوا ردًّا لقولهم، إلّا أنّه لم يُحْكَ قول العَبَدة إيجازًا لظهوره.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: هم الذين أغويناهم. فحُذف الراجع إلى الموصول. ومرادهم بالإشارة بيانُ أنّهم يقولون ما يقولون بمَحضر منهم، وأنّهم غيرُ قادرين على إنكاره وردِّه.

وقوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجواب حقيقة، وما قبله تمهيد له، أي: ما أكرهناهم على الغيّ، وإنّما أغويناهم بطريق الوَسوسة والتسويل، لا بالقَسر والإلجاء، فغَوَوا باختيارهم غَيًّا مثل غَيّنا باختيارنا. ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبر.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم وممّا اختاروه مِن الكفر والمعاصي هوًى منهم، وهو تقرير لِما قبله، ولذلك لم يعطف عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنّما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة متّصلة بقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا﴾، أي: تبرّأنا مِن عبادتهم إيّانا.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إمّا تهكّمًا بهم أو تبكيتًا لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرط الحَيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ضرورةَ عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غشيهم، ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجهٍ مِن وجوه الحِيَل يدفعون به العذاب، أو إلى الحقّ لِما لَقُوا ما لَقُوا. وقيل: ﴿لَوْ﴾ للتمنّي، أي: تمنّوا لو أنّهم كانوا مهتدين.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله، سُئلوا أوّلًا عن إشراكهم، وثانيًا عن جوابهم للرسل الذين نهَوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: صارت كالعُمْي عنهم لا تهتدي إليهم. [٢٨٥ظ] وأصله "فعَموا عن الأنباء"، / وقد عُكِس للمبالغة والتنبيه على أنّ ما يحضر الذهن يَفيض عليه ويصل إليه مِن خارج، فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضاره. وتعدية الفعل بـ"على" لتضمّنه معنى الخفاء والاشتباه. والمراد بـ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ إمّا ما طُلِب منهم ممّا أجابوا به الرسل، أو جميعُ الأنباء، وهي داخلة فيه دخولًا أوّليًا. وإذا كانت الرسل عليهم السلام يفوّضون العلم في ذاك المقام الهائل إلى علّام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسئول، فما ظنّك بأولئك الضُّلّال مِن الأمم؟

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا عن الجواب لفَرط الدهشة، أو العلمِ بأنّ الكلّ سواء في الجهل.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ۝٦٧﴾

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أي: الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المَهروب. و﴿عَسَىٰٓ﴾ للتحقيق على عادة الكرام، أو للترجّي مِن قِبَل التائب، بمعنى: فليتوقع الإفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨﴾

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ﴿وَيَخۡتَارُ﴾ ما يشاء اختياره مِن غير إيجاب عليه ولا منعٍ له أصلًا. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ أي: التخيّر، كـ"الطِّيَرة" بمعنى "التطيّر". والمراد نفي الاختيار المؤثّر عنهم، وذلك ممّا لا ريب فيه. وقيل: المراد أنّه ليس لأحد مِن خلقه أن يختار عليه، ولذلك خلا عن العاطف، ويؤيّده ما رُوي أنّه نزَل في قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣].[١] والمعنى: لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسَل إليهم. وقيل: معناه: ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح.[٢]

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزّهَ بذاته تنزّهًا خاصًّا به مِن أن ينازعه أحدٌ، أو يزاحم اختيارُه اختيارَه، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا / يُشۡرِكُونَ﴾ عن إشراكهم، أو عن مشاركة ما يشركونه به. [٢٨٦و]

﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٦٩﴾

﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ كعَداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحقده ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ كالطعن فيه.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٧٠﴾

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: المستحقّ للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحقّها إلّا هو ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأنّه المُولي للنِّعم كلّها عاجلها وآجلها على الخلق كافّة،

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٣.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/٤.

يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمِدُوه في الدنيا بقولهم: "الحمد لله الذي أذهَبَ عنّا الحزَن"،[١] "الحمد لله الذي صدَقنا وعدَه"،[٢] ابتهاجًا بفضله، والتذاذًا بحمده.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ في كلّ شيء مِن غير مشاركة فيه لغيره، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾

﴿قُلْ﴾ تقريرًا لِما ذُكر: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني؛ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا، مِن "السَّرد"، وهو المتابعة والاطّراد، و"الميم" مزيدة، كما في "دُلَامِصٍ" مِن "الدِّلاص"، يقال: "دِرعٌ دِلاص"، أي: مَلساء ليّنة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو تحريكها حول الأفُق الغائر.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَـٰهٌ﴾ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس، ٣١/١٠]، وقوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك، ٣٠/٦٧] ونظائرِهما، خلا أنّه قُصِد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يُقَل: هل إله... إلخ لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم. وقُرئ: "بِضِئَاءٍ" بهمزتين.[٣]

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلامَ الحقَّ سماعَ تدبّرٍ واستبصارٍ حتّى تُذعِنوا له، وتعملوا بموجَبه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكانها في وسط السماء، أو بتحريكها على مدارٍ فوق الأفق.

---

١ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر، ٣٤/٣٥].

٢ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩].

٣ قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

/ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً مِن متاعب الأشغال. [٢٨٦ظ]
ولعلّ تجريدَ "الضياء" عن ذكر منافعه لكونه مقصودًا بذاته، ظاهِرَ الاستتباع لِما نِيط به مِن المنافع.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على مَن له بصر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواع المكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا نعمته تعالى فعَلَ ما فعَلَ، أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بـ"اذكر". ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع إثرَ تقريعٍ، للإشعار بأنّه لا شيءَ أجلب لغضب الله عزّ وجلّ مِن الإشراك، كما لا شيءَ أدخَلُ في مرضاته مِن توحيده سبحانه.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطفٌ على ﴿يُنَادِيهِمْ﴾.[1] وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد". والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله، أي: أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ نبيًا يشهد عليهم بما كانوا عليه، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2] [النساء، ٤/٤١].

---

[1] في الآية السابقة.

[2] م س - ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [صُحح في هامش م].

﴿فَقُلْنَا﴾ لكلٍّ مِن تلك الأمم: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحّة ما كنتم تدينون به، ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ يومئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهيّة لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غابَ غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مِن الباطل.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمّه يَصْهَرَ بنِ قَاهَثَ بنِ لاوَى بنِ يعقوب، وموسى عليه السلام ابنُ عمرانَ بنِ قَاهَثَ. وقيل: كان موسى عليه السلام ابنَ أخيه، وكان يسمّى المنوَّر لحسن صورته. وقيل: كان أقرأَ بني إسرائيل للتوراة، ولكنّه نافق كما نافق السامري وقال: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».[1]

ورُوي أنّه لمّا جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحُبورة[2] والقربان لهارون، وَجَدَ[3] قارون في نفسه وحَسَدَهما، فقال لموسى: «الأمر لكما، ولستُ على شيء، إلى متى أصبر؟» قال موسى عليه السلام: «هذا صنع الله تعالى»، قال: «لا أصدّقك حتّى تأتي بآية»، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ واحد بعصاه، / فحزَمها وألقاها في القبّة التي كان الوحي ينزل إليه فيها، فكانوا [٢٨٧و]
يحرسون عصِيَّهم بالليل، فأصبحوا فإذا بعَصا هارون تهتزّ ولها ورق أخضر، فقال قارون: «ما هو بأعجب ممّا تصنع مِن السحر»، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فطلب الفضلَ عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو ظلَمَهم.[4] قيل: وذلك حين ملّكه فرعون على بني إسرائيل.[5] وقيل: حسَدَهم، وذلك ما ذُكر منه في حقّ موسى وهارون عليهما السلام.[6]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ٣١٠/١٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٠/٧.

٢ الحُبورة: مصدر "حَبُر" -كـ"قَضُو"- إذا صار حَبْرًا. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٤٤/٦.

٣ وفي هامش م: غضِب وحزِن. «منه».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٣.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٥/٤.

٦ وهو قوله: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموالِ المدّخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتح صناديقه، وهو جمع "مِفتَح" بالكسر، وهو ما يُفتَح به. وقيل: خزائنه، وقياس واحدها "المَفتَح" بالفتح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة صلة ﴿مَا﴾، وهو ثاني مفعولَي "آتى". و"ناءَ به الحِمل" إذا أثقله حتّى أماله، و"العُصْبة" و"العِصابة": الجماعة الكثيرة. وقُرئ: "لَيَنُوءُ" بـ"الياء"[١] على إعطاء المضاف حكمَ المضاف إليه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦/٧].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوب بـ﴿تَنُوٓأُ﴾. وقيل:[٢] بـ﴿بَغَىٰ﴾، ورُدّ بأنّ البغي ليس مقيّدًا بذلك الوقت. وقيل:[٣] بـ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ورُدّ بأنّ الإيتاء أيضًا غيرُ مُقيّد به. وقيل: بمُضمرٍ، فقيل:[٤] هو "اذكر"، وقيل:[٥] هو "أظهَرَ الفرحَ". ويجوز أن يكون منصوبًا بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾،[٦] ويكونَ الجملة مقرِّرة لبَغيه.

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تبطَر، والفرح في الدنيا مذموم مطلقًا؛ لأنّه نتيجة حبّها والرضا بها، والذهولِ عن ذهابها، فإنّ العلم بأنّ ما فيها مِن اللذّة مفارَقة لا محالةَ يوجب الترَح حتمًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد، ٢٣/٥٧]، وعُلّل النهي ههنا بكونه مانعًا مِن محبّته عزّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: بزخارف الدنيا.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَٱبْتَغِ﴾ وقُرئ: "واتّبِعْ"[٧] ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغِنى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن بديل بن ميسرة والضحّاك وابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٩.

[٢] وفي هامش م: ابن عطيّة. «منه». | المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٩٩/٤.

[٣] وفي هامش م: أبو البقاء. «منه». | التبيان لأبي البقاء، ١٠٢٥/٢.

[٤] وفي هامش م: الطبري. «منه». | لم أجده عند الطبري، وعزاه أبو حيّان إلى الحوفي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

[٥] وفي هامش م: أبو حيّان. «منه». | البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

[٦] القصص، ٧٨/٢٨.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي المتوكل وابن السميفع. زاد المسير لابن الجوزي، ٣٩٣/٣.

ثوابَ الله تعالى فيها، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لا تترك تركَ المنسيّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ / وهو أن تحصِّل بها آخرتك، وتأخذ منها ما يكفيك. [٢٨٧ظ]

﴿وَأَحْسِن﴾ أي: إلى عباد الله تعالى ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم به عليك. وقيل: أحسِن بالشكر والطاعة كما أحسَن الله إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهيٌ عمّا كان عليه مِن الظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لناصِحيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ كأنّه يريد به الردّ على قولهم: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛[١] لإنبائه عن أنّه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر مِن غير سبب واستحقاق مِن قِبَله، أي: فُضِّلتُ به على الناس، واستوجبتُ به التفوّق عليهم بالمال والجاه.

و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موقع الحال، وهو عِلم التوراة، وكان أعلمَهم بها. وقيل: علم الكيمياء. وقيل: علم التجارة والدِّهقنة[٢] وسائر المكاسب. وقيل: عِلم فتح الكنوز والدفائن. و﴿عِندِىٓ﴾ صفة له، أو متعلّق بـ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾، كقولك: جاز هذا عندي أو في ظنّي ورأيي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ توبيخ له مِن جهة الله عزّ وجلّ على اغتراره بقوّته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءةً في التوراة، وتلقّيًا مِن موسى عليه السلام، وسماعًا مِن حفّاظ التواريخ، وتعجيبٌ منه، فالمعنى: ألم يقرأ التوراة، ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه مِن أهل القرون السابقة حتّى لا يُغتَرّ بما اغترّ به؟ أو رَدٌّ لادّعائه العلمَ

---

١ في الآية السابقة.

٢ الدِّهقان -بالكسر والضمّ-: التاجر، والاسم "الدِّهْقَنة". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، ١١٩٨.

وتعظّمه به بنفي هذا العلم منه، فالمعنى: أَعَلِم ما ادّعاه ولم يعلم هذا حتّى يَقِيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلام؛ بل يعذّبون بها بغتةً، كأنّ قارون لمّا هُدِّدَ بذكر إهلاك مَن قبله ممّن كان أقوى منه وأغنى أُكِّد ذلك بأن بيّنَ أنّ ذلك لم يكن ممّا يخصّ أولئك المهلَكين؛ بل الله تعالى مطّلع على ذنوب كافّة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالةَ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض. وقوله تعالى: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿خَرَجَ﴾، أو بمحذوفٍ هو حال مِن فاعله، / أي: فخرج عليهم كائنًا في زينته. قيل: خرج على بغلة شهباءَ عليه الأُرجوان، وعليها سَرج مِن ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيّه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بِيض، عليهنّ الحُليّ والديباج. وقيل: في تسعين ألفًا عليهم المُعصفَرات، وهو أوّل يوم رُئِيَ فيه المُعصفَر. [٢٨٨و]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِن المؤمنين جَريًا على سَنن الجِبلّة البشريّة مِن الرغبة في السَّعة واليَسار: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ وعن قتادة: «أنهم تمنَّوه ليتقرّبوا به إلى الله تعالى، وينفقوه في سُبل الخير».[2] وقيل: كان المتمنّون قومًا كفّارًا. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليل لتمنّيهم، وتأكيد له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ۝٨٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي، وإنّما لم يوصَفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهًا على أنّ العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراضَ

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٨/٨.

عن الأولى والإقبالَ على الثانية حتمًا، وأنّ تمنّي المتمنّين ليس إلّا لعدم علمهم بهما كما ينبغي: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك، شاع استعماله في الزجر عمّا لا يُرتَضى.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا تتمنّونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليق بكم أن تَتَمنَّوه غيرَ مكتفين بثوابه تعالى ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الكلمةَ التي تكلّم بها العلماء، أو الثوابَ، فإنّه بمعنى المَثوبة، أو الجنّةَ، أو الإيمانَ والعملَ الصالح، فإنّهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: على الطاعات وعن الشهوات.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوي أنّه كان يؤذي موسى عليه السلام كلَّ وقت وهو يُداريه لقَرابته حتّى نزلت الزكاة، فصالحه عن كلّ ألف على واحد، فحسَبَه فاستكثره، فعَمَد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بني إسرائيل، فجعل لبَغِيّ مِن بغايا بني إسرائيل ألفَ دينار، وقيل: طَستًا مِن ذهب مملوءة ذهبًا، / فلمّا كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبًا، فقال: «مَن سرق قطعناه، ومَن زنى غير محصَن جلدناه، ومَن زنى محصَنًا رجمناه»، فقال قارون: «ولو كنتَ؟» قال: «ولو كنتُ»، قال: «إنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجَرتَ بفلانة»، فأُحضِرت، فناشدها عليه السلام أن تصدُقَ، فقالت: «جعل لي قارون جُعلًا على أن أرمِيَك بنفسي»، فخرَّ موسى ساجدًا لربّه يبكي ويقول: «يا ربّ إن كنتُ رسولَك فاغضَبْ لي»، فأوحي إليه أن مُرِ الأرضَ بما شئتَ، فقال: «يا بني إسرائيل إنّ الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمَن كان معه فليلزم مكانه، ومَن كان معي فليعتزله»، فاعتزلوا جميعًا غيرَ رجلَين، ثمّ قال: «يا أرض خُذِيهم»، فأخذَتْهم إلى الرُّكَب، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذتهم إلى الأوساط، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذَتْهم إلى الأعناق، وهم يناشدونه عليه السلام بالله تعالى وبالرحِم، وهو لا يلتَفت إليهم لشدّة غَيظه، ثمّ قال: «خُذيهم»، [٢٨٨ظ]

فانطبقَتْ عليهم، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجَون بينهم: «إنّما دعا عليه موسى عليه السلام ليَستبدّ بداره وكنوزه»، فدعا الله تعالى حتّى خُسِف بداره وأمواله.[١]

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة مُشفِقة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدفع العذابِ عنه، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: الممتنعين منه بوجه مِن الوجوه، يقال: نصرَه مِن عدوّه فانتصر، أي: منعه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَه ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يفعل كلَّ واحد مِن البَسط والقَدْر بمَحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البَسط، ولا لهَوان يقتضي القَبض.

و﴿وَيْكَأَنَّ﴾ عند البصريّين مركّب مِن "وَيْ" للتعجّب، و"كأنّ" للتشبيه، والمعنى: ما أشبه الأمرَ أنّ الله يبسط... إلخ. وعند الكوفيّين مِن "وَيْكَ" بمعنى "وَيلَك"، و"أنّ"، وتقديره: "وَيْكَ أعلمُ أنّ الله"، وإنّما يستعمل عند التنبّه على الخطأ والتندّم، والمعنى: أنّهم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنّيهم، وتندّموا على ذلك.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعدم إعطائه إيّانا ما تمنّيناه، وأعطانا مثلَ ما أعطاه إيّاه. وقُرئ: "لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا".[٢] ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسَف به. وقُرئ: "لَخُسِفَ بِنَا"[٣] / على البناء للمفعول، و"بِنَا" هو القائم مقام الفاعل. وقُرئ: "لَانْخُسِفَ بِنَا"،[٤] كقولك: "انْقُطِعَ بِهِ". وقُرئ: "لَتُخُسِّفَ بِنَا".[٥] ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله تعالى، أو المكذّبون برسله، وبما وُعِدوا مِن ثواب الآخرة. [٢٨٩و]

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٣١/٢٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وطلحة والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ١٥٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٠/٨.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنّه قيل: تلك التي سمعتَ خبرَها وبلغكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غلبةً وتسلّطًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا على العباد، كدأب فرعون وقارون. وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيدُ تحذير منهما.

وعن عليّ رضي الله تعالى[1] عنه: «إنّ الرجل ليُعجبه أن يكون شِراك نعله أجودَ مِن شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها».[2]

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يتّقون ما لا يرضاه الله تعالى مِن الأفعال والأقوال.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ بمقابلتها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتًا ووصفًا وقدرًا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضِع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيّئة إليهم، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا مِثل ما كانوا يعملون، فحُذف "المِثل"، وأقيمَ مُقامه ما كانوا يعملون مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

---

[1] س - تعالى.

[2] جامع البيان للطبري، ١٨/٣٤٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤١٠. قال الألوسي: ولعلّ هذا إذا أحبّ ذلك ليفتخرَ على صاحبه ويستهينَه، وإلّا فقد روى أبو داود [٦/١٩٠ (٤٠٩٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رجلًا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم -وكان جميلًا- فقال: يا رسول الله، إنّي رجل حُبّب إليّ الجَمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحِبّ أن يفوقني أحد -إمّا قال: بشِراك نَعل، وإمّا قال: بِشِسع نَعل- أفمِن الكِبْر ذلك؟ قال: «لا، ولكنّ الكِبْر مَن بطَرَ الحقَّ، وغمط الناس». روح المعاني للألوسي، ١٠/٣٣١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ به ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيّ مَعادٍ، مَعادٍ يمتدّ إليه أعناق الهِمم، ويَرْنُو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه. وقيل: هو مكّة المعظّمة، على أنّه تعالى قد وعده وهو بمكّة في أذيّة وشدّة مِن أهلها أنّه يُهاجِر به منها، ثمّ يُعيده إليها بعزٍّ ظاهر، وسلطانٍ قاهر.

وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجُحفة في مهاجَره، وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرَم إبراهيم عليه السلام، فنزل جبريل عليه السلام، فقال له: «أتشتاق إلى مكّة؟» قال: «نعم»، فأوحاها إليه.[1]

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقّه مِن الثواب والنصر. و﴿مَن﴾ منتصب بفعل يدلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: يعلم، وقيل: بـ﴿أَعْلَمُ﴾ على أنّه بمعنى "عالم".

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقّه مِن العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسَه والمشركين. وهو تقرير للوعيد السابق، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: سيردّك إلى مَعادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجوه / ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمةً منه. ويجوز أن يكون [٢٨٩ظ] استثناء محمولًا على المعنى، كأنّه قيل: وما ألقي إليك الكتاب إلّا رحمةً، أي: لأجل الترحّم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمُداراتهم والتحمّل عنهم والإجابة إلى طَلِبتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: الكافرون ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وفُرضت عليك. وقُرئ: "يُصِدُّنَّكَ"،[2] مِن "أَصَدَّ" المنقول مِن "صَدَّ" اللازم.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٦/٣.

[2] قراءة شاذّة، حكاها أبو زيد، عن رجل مِن كلب، قال: وهي لغة قومه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣١/٨.

﴿وَٱدۡعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٨﴾

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ هذا وما قبله للتهييج والإلهابِ وقطعِ أطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام لهم، وإظهارِ أنّ المنهيّ عنه في القُبح والشرِّيّة بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه أصلًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ إلّا ذاته، فإنّ ما عداه كائنًا ما كان ممكن في حدّ ذاته، عرضةٌ للهلاك والعدم، ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: القضاء النافذ في الخلق، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء بالحقّ والعدل.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿طسٓمٓ﴾ القصص كان له مِن الأجر بعدد مَن صَدّق بموسى وكذّب، ولم يبقَ ملَك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقًا».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٣/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٨٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٨

سُورَةُ القَصَصِ

مكية إلاّ «إنّ الذي فرض» الآيَة، نزلت بالجُحْفة، وإلاّ «الذين آتيناهم الكتاب» إلى «لا نبتغي الجاهلين»، وهي سبعٌ أو ثمانٍ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿طسم﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ ﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿آياتُ الكِتابِ﴾ ـ الإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿المُبِينِ﴾: المُظهِرِ الحقَّ من الباطل، ٣ ـ ﴿نَتلُو﴾: نقصّ ﴿علَيكَ مِن نَبَإِ﴾: خبرِ ﴿مُوسَى وفِرعَونَ بِالحَقِّ﴾: الصِّدقِ، ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾: لأجلهم لأنهم المُنتفعون به. ٤ ـ ﴿إنَّ فِرعَونَ عَلا﴾: تكبّرَ ﴿في الأرضِ﴾ أرض مِصرَ، ﴿وجَعَلَ أهلَها شِيَعًا﴾: فِرقًا في خِدمته، ﴿يَستَضعِفُ طائفةً مِنهُم﴾ هم بنو إسرائيل،........

سُورَةُ القَصَصِ

قولُه: (نَقُصُّ) أو ننزلُ، أو نقرأُ بلسانِ جبريلَ.

قولُه: (خَبَرِ) أي: بعضهُ، مفعولُ: ﴿نَتْلُو﴾.

قولُه: (بالصِّدْقِ) أو مُحقِّينَ.

قولُه: (فِرَقاً) يُشيِّعونَهُ فيما يريدُ، أو يُشيِّعُ بعضُهم بعضاً في طاعتِهِ، أو أصنافاً في استخدامِهِ، استعملَ صِنفاً في حَرثٍ، وصِنفاً في حَفرٍ، ومن لم يستعملهُ ضَرَبَ عليه الجزيَةَ.

قولُه: (وهُم) أي: الطَّائفةُ، والجملةُ: حالٌ من فاعلِ ﴿جَعَلَ﴾، أو صفةٌ لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئنافٌ. وقولُه تعالى: ﴿يُذَبِّحُ﴾ بدَلٌ على الوجوهِ.

﴿يُذَبِّحُ أبناءَهُم﴾ المولودين، ﴿ويَستَحيِي نِساءَهُم﴾: يستبقيهنّ أحياء، لقول بعض الكهنة له: إنّ مولودًا يُولد في بني إسرائيلَ يكون سببَ ذهاب مُلكك. ﴿إنَّهُ كانَ مِنَ المُفسِدِينَ﴾ بالقتل وغيره.

٥ ـ ﴿ونُريدُ أن نَمُنَّ علَى الَّذِينَ استُضعِفُوا في الأرضِ، ونَجعَلَهُم أئمّةً﴾، بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ياء: يُقتدى بهم في الخير، ﴿ونَجعَلَهُمُ الوارِثِينَ﴾ مُلكَ فِرعَونَ، ٦ ـ ﴿ونُمَكِّنَ لَهُم في الأرضِ﴾: أرض مصرَ والشام، ﴿ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنُودَهُما﴾ ـ وفي قراءة: «ويَرَى» بفتح التحتانيّةِ والراءِ ورفع الأسماء الثلاثة ـ ﴿مِنهُم ما كانُوا يَحذَرُونَ﴾: يخافون من المولود الذي يَذهب مُلكهم على يده.

٧ ـ ﴿وأوحَينا﴾ وحيَ إلهامٍ أو مَنامٍ ﴿إلَى أُمِّ مُوسَى﴾ ـ وهو المولود المذكور، ولم يشعر بولادته غيرُ أُخته ـ ﴿أنْ أرضِعِيهِ، فإذا خِفتِ علَيهِ فألقِيهِ في اليَمِّ﴾: البحر أي: النيل، ﴿ولا تَخافِي﴾ غرَقَه، ﴿ولا تَحزَنِي﴾ لفِراقه. ﴿إنّا رادُّوهُ إلَيكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرسَلِينَ﴾. فأرضعته ثلاثة أشهر لا يَبكي، وخافت عليه فوضعته في تابوت مطليّ بالقار من داخلٍ مُمهّدٍ له فيه، وأغلقته وألقته في بحر النِّيل ليلاً..............

قولُه: (سَبَبَ ذَهَابِ) وذلك مِن غايةِ حُمقِه، فإنَّه لو صَدَقَ لم يَندفِعْ بالقَتلِ، وإن كَذَبَ فلا وجهَ له.

قولُه: (بِتَحقِيقِ الهَمزَتَينِ) لشاميٍّ وكوفيٍّ[1].

قولُه: (وإبدَالِ الثَّانِيَةِ) هذا وجهٌ للحِرميَّينِ والبصريِّ، ووجهٌ آخرُ بتَسهيلِ الثَّانيةِ، ولا يُدخِلُ إلا هشامٌ بخُلفٍ عنه.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (مِنَ المَولُودِ) بيانٌ لـ﴿مَا﴾.

قولُه: (أَو مَنَامٍ) أو على لسانِ نَبيٍّ أو مَلَكٍ.

قولُه تعالى: (﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾) أي: ما أمكنَكِ إخفاؤهُ. وقولُه: (﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيهِ﴾) بأن يُحَسَّ.

قولُه: (غَرَقَهُ) ولا ضَيعَةَ، ولا شِدَّةَ، فعَلينا حفظُهُ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ﴾ عن قريبٍ، بحيثُ تأمَنينَ عليه.

قولُه: (خَافَتْ عَلَيهِ) حيث ألَحَّ فرعونُ في طَلَبِ المواليدِ، واجتهدَ العيونُ[3] في تفحُّصِها.

قولُه: (أَغْلَقَتْهُ) أي: سَدَّتهُ.

---

(١) انظر هذا وما بعده: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٧٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٥٨).

(٣) يقصد الجواسيس.

٨ ـ ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾ بالتابوت صبيحةَ الليل ﴿آلُ﴾: أعوانُ ﴿فِرعَونَ﴾، فوضعوه بين يديه، وفُتح وأُخرج موسى منه، وهو يَمَصُّ من إبهامه لبنًا، ﴿لِيَكُونَ لَهُم﴾ في عاقبة الأمر ﴿عَدُوًّا﴾ يقتل رجالهم ﴿وحَزَنًا﴾ يستعبد نساءهم. وفي قراءة بضمّ الحاء وسكون الزاي: لغتانِ في المصدر. وهو هنا بمعنى اسم الفاعل، من: حَزَنه كأحزنه. ﴿إنَّ فِرعَونَ وهامانَ﴾: وزيرَه ﴿وجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ﴾ ـ من الخطيئة ـ أي: عاصينَ فعُوقبوا على يده.

قولُه: (بالتَّابُوتِ) الباءُ للمُصاحبَةِ.

قولُه: (أَعْوانُ) قيل: امرأةُ فرعونَ، وقيلَ: ابنتُهُ.

قولُه: (في عَاقِبَةِ الأَمْرِ) يعني: هذه اللام[1] تعليلٌ، لكنَّهُ واردٌ على سبيلِ المجازِ في غَيرِ مَورِدِهِ الموضوعِ له[2]، وتُسمَّى لامَ العاقبةِ، كقولِهِ:

لِــدُوا للمَــوتِ وابنُوا للخَــرابِ[3]

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[4].

قولُه: (وهُو) أي: المصدرُ بلُغتَيهِ.

قولُه: (مِنْ: حَزَنَهُ) أي: من حَزَنهُ الَّذي [هو] متعدٍّ؛ كأحزَنهُ، ويمكنُ من حَزِنَ اللازمِ، فيُقدَّرُ السَّببُ قبلَهُ، والمفهومُ من «القامُوسِ» أنَّهما اسمانِ للْهَمِّ[5]، وبالضَّمِّ مصدَرُ المتعدِّي لا غيرَ[6].

قولُه: (وَزِيرَهُ) بالنَّصبِ، أو الرَّفعِ.

قولُه: (فعُوقِبُوا على يَدَيْهِ) أي: يَدِ مَن ربَّوهُ على أيديهِم، أو: من الخَطَإ؛ أي: خاطِئينَ في كلِّ شيءٍ، فليسَ ببِدْعٍ منهم أن قَتلوا ألوفًا لأجلِه ثمَّ أخذوهُ يُربُّونَهُ ليكبُرَ ويفعلَ بهم ما كانوا يحذَرُونَ.

---

(١) في (م) و(ن): «الأمر».

(٢) فهم لم يطلبوا بأخذه أن يعاديهم، ولكن كان عاقبة الأمر أن صار لهم عدواً وحزناً.

(٣) هو شطر بيت لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص: ٢٣) وعجزه:

فكلكــم يصيــر إلــى يباب

وجاء في حديث رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه أن ملكاً ينادي به.

وهو ضعيف كما في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» للقاري (ص: ٢٧٦).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٢).

(٥) في (م) و(ص): «للحزن».

(٦) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٨٩).

٩ ـ ﴿وقالَتِ امرأةُ فِرعَونَ﴾، وقد همّ مع أعوانه بقتله: هو ﴿قُرَّةُ عَينٍ لِي ولَكَ. لا تَقتُلُوهُ، عَسَى أن يَنفَعَنا أو نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. فأطاعوها، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بعاقبة أمرهم معه. ١٠ ـ ﴿وأصبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى﴾ لمّا علمت بالتقاطه ﴿فارِغًا﴾ ممّا سواه، ﴿إنْ﴾ ـ مُخففةٌ من الثقيلة واسمها محذوف ـ أي: إنّها ﴿كادَتْ لَتُبدِي بِهِ﴾ أي: بأنه ابنها، ﴿لَولا أن رَبَطْنا علَى قَلبِها﴾ بالصبر أي: سكّنّاه ﴿لِتكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾: المُصدّقين بوعد الله. وجوابُ «لولا» محذوف دلّ عليه ما قبلها.

١١ ـ ﴿وقالَت لِأُختِهِ﴾ مريمَ: ﴿قُصِّيهِ﴾: اتبعي أثره حتّى تعلمي خبره. ﴿فبَصُرَتْ بِهِ﴾: أبصرته ﴿عَن جُنُبٍ﴾: ....

قولُه: (مَعَ أَعوَانِهِ) فيكونُ الخِطابُ في ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ له ولهم، وقيلَ: له؛ للتَّعظيمِ.

قولُه: (هُوَ) قُدِّرَ ليكونَ مبتدأً، والجملةُ مقولاً.

قولُه: (فَأَطَاعُوهَا) اسمُها: آسيةُ بنتُ مَزاحِمٍ، وفي الحديثِ: «فأجابَهَا: أمَّا لكِ فنعَمْ، وأمَّا لِي فلا، فكانَ كذلكَ»، رواهُ النَّسائيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ[1].

قولُه: (بعَاقِبَةِ أَمْرِهِم) أي: الملتَقِطينَ.

قولُه: (معَهُ) أي: موسى، فالجملةُ حالٌ من الملتَقِطِينَ؛ من كَلامِ اللهِ؛ أي: التقطوا، وقيلَ: كذلكَ[2] والحالُ أنَّهم لا يشعُرونَ ما أرادَ اللهُ منهم بالتقاطِهم إيَّاهُ.

وقيلَ: من كلامِ امرأةِ فرعَونَ؛ أي: نتَّخذَهُ ولداً والنَّاسُ لا يشعرونَ أنَّه وَلَدُ غيرِنا[3].

قولُه: (مِمَّا سِوَاهُ) أي: خالياً من هَمٍّ غيرِ موسى، أو: صِفراً من العقلِ لِمَا غَشِيَها من الخوفِ والحَيرةِ.

أو: مِن الهمِّ؛ لفرَطِ وثوقِها بوعدِ اللهِ، أو لسماعِها أنَّ فرعونَ عطَفَ عليه وتَبنَّاهُ.

قولُه: (بِأَنَّهُ ابْنُهَا) أي: لَتُظهِرُ به مِن شدَّةِ الحزنِ أو الفرحِ.

قولُه: (بالصَّبْرِ) أو الثَّباتِ.

قولُه: (المُصَدِّقِينَ) أو الواثِقينَ بحفظِهِ لا بتَبنِّي فرعونَ وعطفِه، وهو علَّةٌ للرَّبطِ.

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وزاد: فقال رسول الله ﷺ: «والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرمه ذلك».

(٢) أي: من كلام الله.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٢)، وفي «البحر المحيط» (٨/ ٢٨٨): والظاهر أنه من كلام الله تعالى، وقيل: هو من كلام امرأة فرعون.

من مكان بعيد اختلاسًا، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ أنها أُخته وأنها ترقبه، ١٢ ـ ﴿وحَرَّمْنا علَيهِ المَراضِعَ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ ردّه إلى أُمّه، أي: منعناه من قَبول ثدي مُرضعةٍ غيرِ أُمّه، فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المُحضَرة، ﴿فقالَتْ﴾ أُختُه: ﴿هَل أدُلُّكُم علَى أهلِ بَيتٍ﴾، لمّا رأت حنوّهم عليه، ﴿يَكفُلُونَهُ لكُم﴾ بالإرضاع وغيره، ﴿وهُم لَهُ ناصِحُونَ﴾؟

وفسّرتْ ضمير «له» بالمَلِك جوابًا لهم، فأُجِيبَتْ فجاءت بأُمّه، فقَبِلَ ثديها، وأجابتهم عن قبوله بأنها طيّبة الريح طيّبة اللبن، فأُذِنَ لها بإرضاعه في بيتها، فرجعت به كما قال تعالى: ١٣ ـ ﴿فرَدَدْناهُ إلَى أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَينُها﴾ بلقائه، ﴿ولا تَحزَنَ﴾ حينئذٍ، ﴿ولِتَعلَمَ أنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بردِّه إليها..............

قولُه: (مِنْ مَكَانٍ) والأخصَرُ: عن بُعدٍ.

قولُه: (اختِلَاساً) لا دلالةَ في الآيةِ عليه.

قولُه: (أي: قَبْلَ رَدِّهِ) أو قَبلَ تتبُّعِها أثرَهُ.

قولُه: (مَنَعْنَاهُ) أي: تحريماً قَدَريًّا.

قولُه: (مِنَ المَرَاضِعِ) جمعُ: مُرضِعٍ، أو مَرْضَعٍ وهو الرَّضاعُ ـ والجمعُ باعتبارِ المواد[1] ـ أو مَوضِعُه؛ يعني: الثَّديَ.

قولُه: (وغَيرِهِ) من الضَّمِّ والتَّربيَةِ.

قولُه: (جَوَاباً لَهُم) نُقِلَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّها لمَّا قالَتِ القولَ أخذوها وقالوا: عرفْتِ هذا الولدَ فدُلِّينا، فقالَت: لا أعرِفُهُ، وإنَّما أردتُ أنَّهم للمَلِكِ ناصِحونَ لا للولَدِ حتَّى استدلَلتُم عليَّ أنِّي أعرفُهُ، فخلَّوها[2].

قولُه: (فَجَاءَتْ بأُمِّهِ) وموسى على يَدِ فرعونَ يَبكِي وهو يُعلِّلُه، فلمَّا وجَدَ ريحَها استأنَسَ وسَكَنَ.

قولُه: (وأَجَابَتْهُم) حينَ قالُوا: من أنتِ منهُ فقد أبَى كلَّ ثديٍ إلَّا ثَديكِ؟

قولُه: (طَيِّبَةُ اللَّبَنِ) لا أوتَى بصَبيٍّ إلَّا قَبِلَني.

قولُه: (فَرَجَعَتْ بِهِ) من يَومِها مع عطاءٍ جزيلٍ ووعدٍ جميلٍ.

قولُه: (حينئذٍ) أي: بفراقِهِ.

قولُه: (بِرَدِّهِ) أي: عِلْمَ مشاهدَةٍ، وإلَّا فهي كانت مُتيقِّنَةً به قبلَ ذلك.

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: باعتبار المرات؛ أي: تكرار مرات الرضاع.

(٢) قطعة من الحديث الذي رواه النسائي عن ابن عباس، وقد تقدم قريباً.

﴿حَقٌّ، ولكِنَّ أكثَرَهُم﴾ أي: الناسِ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ بهذا الوعد ولا بأنّ هذه أُختُه وهذه أُمّه. فمكث عندها إلى أن فطمتْه، وأُجرِيَ عليها أُجرتُها، لكُلّ يوم دِينار، وأخذتْها لأنها مال حربيّ، فأتت به فِرعون فتربّى عِنده كما قال تعالى حكاية عنه، في سورة الشعراء: «أَلَم نُرَبِّكَ فِينا وَلِيدًا، ولَبِثتَ فِينا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ»؟

١٤ ـ ﴿ولَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ـ وهو ثلاثون سنةً أو وثلاثٌ ـ ﴿واستَوَى﴾: بلغ أربعين سنة، ﴿آتيناهُ حُكمًا﴾: حِكمة ﴿وعِلمًا﴾:..

قولُه: (بِهَذا الوَعدِ) أو: أنَّ وعدَهُ حَقٌّ فيرتابُونَ فيه.

قولُه: (وَهُو) أي: الأشُدُّ؛ يعني: مَبْلَغَهُ الَّذي لا يزيدُ عليهِ نشؤه ولا ينقصُ، ويُسَمَّى ذلك: سِنَّ الوقُوفِ، وهو من ثلاثينَ إلى أربعينَ، فإنَّ العقلَ يكمُلُ حينئذٍ، ورُوِيَ أنه: «لم يُبعَثْ نَبيٌّ إلَّا على رأسِ الأربعينَ»[1]، قالَهُ القاضي[2].

وفي «المدارِكِ»: بَلَغَ موسى نهايةَ القُوَّةِ وتمامَ العقلِ، وهو جَمعُ شدَّةٍ ـ كنِعمَةٍ وأنعُم ـ عندَ سيبويه[3]، و﴿اسْتَوَى﴾ أي: اعتدلَ وتَمَّ استحكامُهُ؛ وهو أربعونَ سنةً[4].

وقالَ القاضي: استوى قدُّهُ أو عقلُهُ[5].

وحاصلُ التَّفسيرينِ: أنَّهُ لمَّا بلغَ السِّنُّ إلى حَدِّ الاعتدال، ووصلَ العقلُ إلى مرتبَةِ الكمال، وأمَّا حاصلُ كلامِ الشَّيخِ وهو أنَّه لمَّا بَلَغَ الثَّلاثينَ وبَلَغَ الأربعينَ؛ فلا طائِلَ تحتَهُ.

قولُه: (حِكمَةً) وفي «المدارِكِ»: نُبُوَّةً[6]، وقالَ القاضي: نبوةً، أو عِلمَ الحكماءِ، وهو أوفَقُ لنَظمِ القصَّةِ؛ لأنَّهُ استنبأَهُ بعدَ الهجرةِ في المراجعةِ[7].

قلتُ: فعَلى هذا يلزَمُ أن تكونَ نبوَّتُهُ بعدَ خمسينَ سنةً، فيُخالِفُ ظاهرَ الحديثِ المذكورِ[8]، ويناقِضُ

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٧): غريب. وقال ابن حجر في «الكاف الشاف» (ص: ١٢٦): لم أجده.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٣).

(٣) وانظر: «المحكم والمحيط» لابن سيده (٧/ ٦٠٧).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٢).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٣).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٢).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٣).

(٨) أي: «لم يبعث نبي...»، ولا ضير في مخالفته فإنه لم يثبت كما يفيد كلام الزيلعي والحافظ.

فِقهًا في الدِّين قبل أن يُبعث نبيًّا ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: كما جزَيناه ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ﴾ لأنفُسهم ـ ١٥ ـ ﴿ودَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿المَدِينَةَ﴾: مدينةَ فِرعون ـ وهي مَنْفُ ـ بعد أن غاب عنه مُدّة ﴿علَى حِينِ غَفلةٍ مِن أهلِها﴾: وقتَ القَيلولة، ﴿فوَجَدَ فِيها رَجُلَينِ يَقتَتِلانِ: هذا مِن شِيعتِهِ﴾ أي: إسرائيليّ، ﴿وهذا مِن عَدُوِّهِ﴾ أي: قِبطيّ يُسخِّر الإسرائيليَّ ليحمل حطبًا إلى مطبخ فِرعون، ﴿فاستغاثَهُ الَّذِي مِن شِيعتِهِ علَى الَّذِي مِن عَدُوِّهِ﴾، فقال له مُوسَى: خلِّ سبيلَه. فقيل: إنه قال لمُوسَى: لقد هممتُ أن أحملَه عليك. ﴿فوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي: ضربه بجُمع كفّه، وكان شديدَ القوة والبطش، ﴿فقَضَى علَيهِ﴾ أي: قتله، ولم يكن قَصَدَ قتله، ودفنه في الرمل.

﴿قالَ: هذا﴾ أي: قتلُه ﴿مِن عَمَلِ الشَّيطانِ﴾ المُهيّج غضبي. ﴿إنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لابن آدمَ ﴿مُضِلٌّ﴾ له ﴿مُبِينٌ﴾:..

كلامَهُم عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] أنَّها ثلاثونَ، وما قالَهُ القاضي في الأوفقيَّةِ إنَّما هو حُجَّةٌ ظاهِريَّةٌ مَبنيَّةٌ على الدِّلالةِ الذِّكريَّةِ، وإلا فليسَ في الكلامِ فاءُ التَّعقيبيَّةِ ولا ثمَّ التَّراخيَّةِ، فقولُه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ بينَ أحوالِ القصَّةِ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، أو ما بعدَها ذكرُ سَبَبِ وصولِهِ إلى هذه المرتبَةِ العليَّةِ، والأظهرُ أن تُحمَلَ هذهِ الآيَةُ على النُّبوَّةِ، وتُجعَلَ الرِّسالةُ بعدَ الهجرةِ، فترتفعُ المخالفةُ.

قولُه: (كَمَا جَزَيْنَاهُ) وأمَّهُ.

قولُه: (لِأَنْفُسِهِم) فإنَّه تعالى غَنيٌّ عن إحسانِهم.

قولُه: (مَدِيْنَةَ فِرعَوْنَ) أو مِصرَ، آتياً من قَصرِ فرعونَ.

قولُه: (مَنْفُ)[1] ضبَطوه بفتحِ الميمِ، والمشهورُ ضمُّها، غيرُ منصَرفٍ لاجتماعِ العَلَميَّةِ والتَّأنيثِ والعُجمَةِ كـ(ماه) و(جَور)، كذا قالَهُ سعدي جلبي، وفي نسخةٍ: «مَنُوفُ» وهو بفتحِ الميمِ وضمِّ النُّونِ، قريةٌ بمِصرَ، والميمُ زائدةٌ، فاقتصرَ عليهِ «القاموسُ»[2] ولم يذكر مادَّةَ «م ن ف» أصلاً.

قولُه: (وَقْتَ القَيلُولَةِ) أو ما بينَ العِشاءَينِ.

قولُه: (أي: إسرَائِيْلِيٌّ) قيلَ: إنَّه السَّامِريُّ.

قولُه: (المُهَيِّجُ) لأنَّهُ لم يُؤمَر بقتلِ الكُفَّارِ، أو لأنَّه كانَ مأموناً فيهم، ولا يقدحُ ذلك في عِصمتِهِ لكونِهِ خطأً، وإنَّما عدَّهُ من عَملِ الشَّيطانِ، وسمَّاهُ ظلماً، واستغفرَ عنه= على عادَتِهم في استعظامِ محقَّراتٍ فَرطَت منهم.

---

(١) انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢١٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٥٨).

بيّنُ الإضلال. ١٦ ـ ﴿قالَ﴾ نادمًا: ﴿رَبِّ، إنِّي ظَلَمتُ نَفسِي﴾ بقتله. ﴿فاغفِرْ لِي. فغَفَرَ لَهُ. إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المُتّصف بهما أزلاً وأبدًا. ١٧ ـ ﴿قالَ: رَبِّ ـ بِما أنعَمتَ﴾: بحقّ إنعامك ﴿علَيَّ﴾ بالمغفرة اعصِمْني ـ ﴿فلَن أكُونَ ظَهِيرًا﴾: عونًا ﴿لِلمُجرِمِينَ﴾: الكافرين بعد هذا، إن عصمتني.

١٨ ـ ﴿فأصبَحَ في المَدِينةِ خائفًا، يَتَرَقَّبُ﴾: ينتظر ما يناله من جِهة القتيل، ﴿فإذا الَّذِي استَنصَرَهُ بِالأمسِ يَستَصرِخُهُ﴾: يستغيث به على قِبطيّ آخر. ﴿قالَ لَهُ مُوسَى: إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الغَواية لِما فعلتَه أمسِ واليومَ.

١٩ ـ ﴿فلَمّا أنْ﴾: زائدةٌ ﴿أرادَ أنْ يَبطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما﴾: لمُوسَى والمُستغيثِ به، ﴿قالَ﴾ المستغيثُ، ظانًّا أنه يبطش به لِما قال له «إنك لغويّ مبين»: ﴿يا مُوسَى، أتُرِيدُ أن تَقتُلَنِي كَما قَتَلتَ نَفسًا بِالأمسِ؟ إنْ﴾: ما ﴿تُرِيدُ إلاّ أن تَكُونَ جَبّارًا في الأرضِ، وما تُرِيدُ أن تَكُونَ مِنَ المُصلِحِينَ﴾. فسمع القِبطيُّ ذلك فعلم أنّ القاتل مُوسَى، فانطلق إلى فِرعون فأخبره بذلك، فأمر فِرعون الذبّاحين بقتل موسى، فأخذوا في الطريق إليه.

قولُه: (بيّنُ الإضْلالِ) والعَداوةِ.

قولُه: (بِحَقِّ إنْعَامِكَ) قسَمٌ محذوفُ الجوابِ، والتَّقديرُ: لأتوبَنَّ، وقيل: استعطافٌ، واختارَهُ الشَّيخُ، والفرقُ بينهُما: أنَّ جوابَ الأوَّلِ بالخبرِ، وجوابَ الثَّاني بالطَّلَبِ(١).

قولُه: (بالمَغْفِرَةِ) وغَيرِها.

قولُه: (عَوْناً) الظَّاهرُ: مُعيناً.

قولُه: (بَعْدَ هَذِهِ) أي: المرَّةِ.

قولُه: (إنْ عَصَمْتَنِي) أي: إن عَصَمْتَني ﴿فلنْ أكونَ﴾.

قولُه: (يَستَغِيثُ بِهِ) الأولى: يستغيثُهُ؛ بمعنى: يستعينُهُ، وقُرِئَ: (فاستعانه)(٢).

قولُه: (لِمَا فَعَلْتَهُ) مِن التَّسبُّبِ.

قولُه: (زَائِدَةٌ) للتَّأكيدِ.

قولُه: (لما قالَهُ) أي: لقولِهِ: ﴿إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [١٨].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٤).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٦٦) ونسبت للأخفش وسيبويه.

٢٠ ـ ﴿وجاءَ رَجُلٌ﴾ هو مؤمن آل فِرعونَ ﴿مِن أقصَى المَدِينةِ﴾: آخِرها، ﴿يَسعَى﴾: يُسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم، ﴿قالَ: يا مُوسَى، إنَّ المَلَأَ﴾ من قوم فرعون ﴿يأتَمِرُونَ بِكَ﴾: يتشاورون فيك ﴿لِيَقتُلُوكَ. فاخرُجْ﴾ من المدينة. ﴿إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في الأمر بالخُروج.

٢١ ـ ﴿فخَرَجَ مِنها خائفًا، يَتَرَقَّبُ﴾ لُحوقَ طالبٍ أو غوثَ اللهِ إيّاه، ﴿قالَ: رَبِّ، نَجِّنِي مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ قوم فِرعون.

٢٢ ـ ﴿ولَمّا تَوَجَّهَ﴾: قصَدَ بوجهه ﴿تِلقاءَ مَدْيَنَ﴾: جِهتَها ـ وهي قرية شُعيبٍ مَسيرةَ ثمانية أيام من مِصر، سُمّيت بمَدْيَنِ بنِ إبراهيمَ ـ ولم يكن يَعرف طريقها ﴿قالَ: عَسَى رَبِّيَ أن يَهدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾ أي: قَصْدَ الطريقِ، أي: الطريقَ الوسط إليها. فأرسل الله إليه مَلَكًا بيده عَنَزَةٌ، فانطلق به إليها.

٢٣ ـ ﴿ولَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾: بئرٌ فيها، أي: وصل إليها ﴿وَجَدَ علَيهِ أُمّةً﴾: جماعة ﴿مِنَ النّاسِ يَسقُونَ﴾ مَواشيَهم، ﴿ووَجَدَ مِن دُونِهِم﴾..........................

قولُه: (هُوَ مُؤمِنُ آلِ فِرْعَونَ) ابنُ عمِّهِ، واسمُهُ: شمعونُ أو حبيبٌ.

قولُه: (يُسْرِعُ) صفةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾.

قولُه: (مِنْ قَومِ فِرعَونَ) أو هو وأشرافه.

قولُه: (فِيْكَ) أي: في الأمرِ بقَتلِكَ، أو لأجلِكَ وبسببِكَ.

قولُه: (فِي الأَمْرِ) ولامُ ﴿لَكَ﴾ للبَيانِ(١).

قولُه: (قَوْمِ فِرْعَونَ) أي: شَرِّهم.

قولُه: (الوَسَطَ) أي: العدلَ السَّويَّ.

قولُه: (فِيْهَا) أي: مَدْيَنَ.

قولُه: (إِلَيْهَا) أي: البِئرِ، والأَولى: إليه؛ أي: الماءِ.

---

(١) قوله: «اللامُ للبَيانِ»؛ أي: وليسَ صِلَةً لـ﴿النَّاصِحينَ﴾ لأنَّ مَعمولَ الصِّلَةَ لا يتقدَّمُ المَوصولَ عند الجمهور، ومعنى كون اللام في ﴿لك﴾ للبيان: أنها متعلقة بمحذوف هو: «أعني» كما في «سقياً لك»، ولم يجوِّز الجمهور تعلقه بـ﴿الناصحين﴾ لأن «أل» فيه اسم موصول، ومعمول الصلة لا يتقدم الموصولَ كما ذكرنا، ولا يجوز أيضاً تعلقه بمحذوف مقدم يفسره المذكور؛ لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً، أما عند مَن جوَّز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول «أل» خاصة لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه، أو قال: إن «أل» هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت= يجوز أن يكون ﴿لك﴾ متعلقاً بـ﴿الناصحين﴾ أو بمحذوف يفسره ذلك. انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ١٤١)

أي: سِواهم ﴿امرأتين تَذُودانِ﴾: تمنعان أغنامهما عن الماء. ﴿قالَ﴾ موسى لهما: ﴿ما خَطبُكُما﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ﴿قالَتا: لا نَسقِي حَتَّى يَصدُرَ الرِّعاءُ﴾: جمع راع، أي: يَرجِعوا من سقيهم، خوفَ الزِّحام فنسقي ـ وفي قراءة: «يُصدِرَ» من الرباعيّ، أي: يَصرفوا مواشيَهم عن الماء ـ ﴿وأَبُونا شَيخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر أن يَسقي. ٢٤ ـ ﴿فسَقَى لَهُما﴾ من بئر أُخرى بقُربهما، رفع حجرًا عنها لا يرفعه إلاّ عشرة أنفُس، ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾: انصرف ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ لسَمُرةٍ من شِدّة حرّ الشمس، وهو جائع، ﴿فقالَ: رَبِّ، إِنِّي لِما أَنزَلتَ إِلَيَّ مِن خَيرٍ﴾: طعام ﴿فَقِيرٌ﴾: محتاج.

فرجَعتا إلى أبيهما في زمنٍ أقلَّ ممّا كانتا ترجِعان فيه، فسألهما عن ذلك، فأخبرتاه بمن سقى لهما، فقال لإحداهما: ادعِيه لي. قال تعالى:..........

قولُه: (أي: سِوَاهُم) فـ(دُونَ) بمعنى: غير، أو: في مكانٍ أسفَلَ من مكانِهم.

قولُه: (أَغْنَامَهُمَا) لئلّا تختَلطَ بأغنامِهم.

قولُه: (لا تَسْقِيانِ) أو: تَذُودانِ.

قولُه: (يَرجِعُوا) أي: يَنصَرِفوا، ومنه: طوافُ الصَّدَرِ[1].

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ بصريٍّ وشاميٍّ[2].

قولُه: (مِنَ الرُّبَاعِيِّ) بزيادةِ همزةٍ.

قولُه: (لا يَقْدِرُ) لكِبَرِ سِنِّه، فيُرسِلنا اضطراراً.

قولُه: (مِنْ بِئْرٍ أُخرَى) وعن عُمَرَ: لمَّا فرَغَ النَّاسُ جعَلوا صخرةً لا يستطيعُ رفعَها إلَّا عشرةٌ على رأسِ البئرِ، فرفَعَ موسى الحَجرَ وحدَهُ، ثمَّ لم يستقِ إلَّا ذَنوباً واحداً وَدَعا بالبركةِ، ورَوَّى غنمَهُما، نقلَهُ ابنُ أبي شيبةَ[3]، وقالَ عمادُ بنُ كثيرٍ: إسنادُهُ صحيحٌ[4].

قولُه: (بقُرْبِهِمَا) رَحمَةً عليهما مع ما كانَ به من أنواعِ التَّعَبِ.

قولُه: (طَعَامٍ) قليلٍ أو كثيرٍ، وقيلَ: كسرَةٍ، و﴿مِنْ﴾ بيانُ (ما).

قولُه: (مُحْتَاجٌ) أي: طالبٌ، ولذا عُدِّيَ باللَّامِ.

---

(١) طواف الصدر، ويسمى: طواف الوداع، وطواف آخر عهده بالبيت؛ لأنه يودع البيت ويصدر به، وهو واجب عند الحنفية. انظر: «الهداية» (١/ ١٤٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٤٢).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٢٧).

٢٥ ـ ﴿فجاءَتْهُ إحداهُما، تَمشِي علَى استِحياءٍ﴾ أي: واضعةً كُمَّ دِرعها على وجهها حياء منه، ﴿قالَتْ: إنَّ أبِي يَدعُوكَ، لِيَجزِيَكَ أجرَ ما سَقَيتَ لَنا﴾، فأجابها مُنكِرًا في نفسه أخذ الأُجرة، وكأنّها قَصدَتِ المُكافأةَ إن كان ممّن يُريدها، فمشت بين يديه، فجعلَتِ الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها، فقال لها: امشي خلفي ودُلّيني على الطريق. ففعلت إلى أن جاء أباها، وهو شُعيبٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعِنده عَشاء. قال له: اجلس فتعشَّ. قال: إني أخاف أن يكون عِوضًا ممّا سقيتُ لهما، وإنّا أهل بيت لا نطلب على عملِ خيرٍ عِوضًا. قال: لا، عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف ونُطعم الطعام. فأكل وأخبره بحاله. قال تعالى: ﴿فلَمّا جاءَهُ وقَصَّ علَيهِ القَصَصَ﴾: مصدرٌ بمعنى المقصوص، من قتلِه القِبطيَّ وقصدِهم قتلَه وخوفِه من فِرعون، ﴿قالَ: لا تَخَفْ: نَجَوتَ مِنَ القَومِ الظّالِمِينَ﴾ إذ لا سُلطان لِفرعون على مَديَنَ.

٢٦ ـ ﴿قالَت إحداهُما﴾، وهي المُرسَلة والكُبرى أو الصُّغرى: ﴿يا أبَتِ، استأجِرْهُ﴾: اتخذه أجيرًا يرعى غنمنا أي: بدَلَنا. ﴿إنَّ خَيرَ مَنِ استأجَرتَ القَوِيُّ الأمِينُ﴾ أي: استأجره لقوّته وأمانته. فسألها عنهما فأخبرته بما تقدّم من رفعه حجرَ البئر، ومن قوله لها: «امشي خلفي»، وزيادةِ أنها لمّا جاءته وعلم بها صوّب رأسه فلم يرفعه، فرغب في إنكاحه، ٢٧ ـ فـ﴿قالَ: إنِّي أُرِيدُ أن أُنكِحَكَ إحدَى ابنَتَيَّ هاتَينِ﴾،..

قولُه: (أيْ: وَاضِعَةً) يعني: مُستَحيَةً.

قولُه: (فأَجَابَهَا) ليتبرَّكَ برؤيةِ الشَّيخِ، ويستَظهِرَ بمعرفتِه، لا طمعاً في الأجرِ.

قولُه: (وهو شُعَيْبٌ) عندَ الأكثرِ، كذا في «المبهماتِ»[1]، وقيل: ابنُ أخيهِ، وقيل: رجلٌ مؤمنٌ من قريةِ قومِهِ، وشعيبٌ قد ماتَ ودُفِنَ بين زمزمَ والمقامِ[2].

قولُه: (فَأكَلَ) هذا وإنَّ مَن فعلَ معروفاً فأُهديَ بشيءٍ لم يَحرُمْ أخذُهُ.

قولُه: (لِفِرْعَونَ) وقومِهِ.

قولُه: (أو الصُّغْرَى) يعني: المرادُ بـ﴿إحدَاهِمَا﴾ المرسَلةُ لا غيرَ، وإنَّما الخلافُ في أنّها الصُّغرى أو الكبرى.

قولُه: (صَوَّبَ) أي: خفضَ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» (ص: ٨٢).

(٢) انظر: «فضائل مكة» للحسن البصري (ص: ٢٠)، وفيه: «...وقبر نوح وهود وشعيب وصالح صلى الله على نبينا وعليهم وسلم فيما بين زمزم والمقام».

وهي الكُبرى أو الصُّغرى، ﴿عَلَى أَن تَأْجُرَنِي﴾: تكونَ أجيرًا لي في رَعي غنمي ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أي: سنينَ. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي: رَعيَ عشرِ سنين ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ التمامُ. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط العشر. ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ـ للتبرّك ـ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: الوافين بالعهد.

٢٨ ـ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قلتَه ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ، أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ الثمانَ أو العشرَ ـ وما: زائدة ـ أي: رَعْيَه ﴿قَضَيْتُ﴾ به، أي: فرَغتُ منه، ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بطلب الزيادة عليه............

قولُه: (وهيَ الكُبْرَى) وبه قالَ القاضي[١]، وصاحبُ «المداركِ»[٢].

قولُه: (أو الصُّغرَى) في «المعالمِ»: ذهبَ أكثرُهم إلى أنّه زوَّجَهُ الصُّغرى، وهي التي ذهبَتْ لطلَبِ موسى[٣].

قولُه: (تَكُونَ أَجِيراً) يقالُ: أجَرْتُه، إذا كنتُ له أجيراً، وقيلَ: نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ، وهذا مواعدةٌ منهُ[٤] وإلا لقالَ: أنكحتُكَ، وعيَّنَها، وفي «المداركِ»: والتزوُّجُ برَعيِ الغنمِ جائزٌ بالإجماعِ بخلافِ التَّزوُّجِ على الخدمَةِ[٥].

قولُه: (التَّمَامُ) أي: فإتمامُهُ من عندِكَ تفضُّلاً لا من عندِي إلزاماً عليكَ فـ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ جزاءُ الشَّرطِ.

قولُه: (لِلتَّبَرُّكِ) لا يلائمُهُ تفسيرُ ما بعدَهُ بـ(الوَافِيْنَ)، نعم لو أُريدَ بالصَّلاحِ العمومُ الشَّامِلُ لحُسنِ المعاملةِ لكانَ للتَّبرُّكِ وجهٌ، وعلى الأوَّلِ المرادُ بالمشيئةِ: الاتِّكالُ على توفيقِهِ فيه ومعونتِهِ، لا أنّه إن شاءَ فعلَ وإن شاءَ لم يفعلْ ذلكَ.

قولُه: (الَّذي) قائمٌ لا يُخرَجُ عنه[٦].

قولُه: (﴿ما﴾ زَائِدَةٌ) لتأكيدِ إبهامِ المفعولِ.

قولُه: (أي: فَرَغْتُ) أو: وفَّيتُكَ إيَّاه.

قولُه: (بطَلَبِ الزِّيادَةِ) فكما لا أُطالَبُ بالزِّيادةِ على العَشْرِ لا أطالَبُ بالزِّيادةِ على الثَّمانِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٥).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٨).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٣٠).

(٤) في (ص): «له».

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٣٨).

(٦) أي: ذلك الذي عاهدتَني فيه قائمٌ بيننا لا نخرجُ عنه. عبارة البيضاوي.

﴿واللهُ علَى ما نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٌ﴾: حفيظ أو شهيد. فتمّ العَقد بذلك، وأمر شُعيب ابنته أن تُعطيَ مُوسَى عصًا يدفع بها السِّباع عن غنمه ـ وكانت عِصِيُّ الأنبياء عنده ـ فوقع في يدها عصا آدمَ من آسِ الجنّة، فأخذها مُوسَى بعِلم شُعيب.

٢٩ ـ ﴿فلَمّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ﴾ أي: رعيَه ـ وهو ثمانُ أو عشرُ سنين وهو المظنون به ـ ﴿وسارَ بأهلِهِ﴾: زوجتِه بإذن أبيها نحوَ مِصرَ، ﴿آنَسَ﴾: أبصرَ من بعيد ﴿مِن جانِبِ الطُّورِ﴾: اسمُ جبل ﴿نارًا. قالَ لِأهلِهِ: امكُثُوا﴾ هنا. ﴿إنِّي آنستُ نارًا، لَعَلِّيَ آتِيكُم مِنها، بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، وكان قد أخطأها، ﴿أو جِذْوةٍ﴾، بتثليث الجيم: قطعةٍ وشُعلة ﴿مِنَ النّارِ، لَعَلَّكُم تَصطَلُونَ﴾ تستدفئون. والطاء بدل من تاء الافتعال، ....

قولُه: (أَنَا وأَنْتَ) من المُشارَطَةِ.

قولُه: (أو شَهِيدٌ) والأظهَرُ: شاهِدٌ وحفيظٌ، عُدِّي ﴿وكيلٌ﴾ بـ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِهِ معنى: الشَّهادةِ.

قولُه: (عِصِيُّ) بكسرَتينِ وتشديدِ الياءِ.

قولُه: (عَصَا آدَمَ) بالألفِ.

قولُه: (آسِ) شَجَرِ.

قولُه: (وهُو المَظنُونُ بهِ) بل هو المرويُّ فيهِ، ففي الحديثِ: «قَضَى أَطوَلَهُمَا» رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ والبزَّارُ[١]، ورواهُ البخاريُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ[٢].

قولُه: (أَبْصَرَ) وكانَ في ليلَةٍ مظلمَةٍ شديدةِ البَردِ.

قولُه: (اسْمُ جَبَلٍ) أي: من الجهةِ الَّتي تَلي الطُّورَ.

قولُه: (بتَثلِيثِ الجِيْمِ) فعاصِمٌ بالفَتحِ وحمزةُ بالضَّمِّ[٣].

قولُه: (قِطعَةٍ أو شُعلَةٍ) وفي «القاموسِ»[٤]: قبسَةٌ من النَّارِ أو جمرةٌ، وقيلَ: عُودٌ غليظٌ.

قولُه: (مِن تَاءِ الافْتِعَالِ) لمناسَبَةِ صفةِ الإطباقِ.

(١) رواه البزار في «مسنده» (٣٩٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٦٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٨٤).

(٣) والباقي بالكسر، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٦٩).

من: صَلي بالنار، بكسر اللام وفتحها.

٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿فلَمّا أتاها نُودِيَ مِن شاطِئِ﴾: جانبِ ﴿الوادِي الأيمَنِ﴾ لمُوسَى ﴿في البُقْعةِ المُبارَكةِ﴾ لمُوسَى لسماعه كلامَ الله فيها، ﴿مِنَ الشَّجَرةِ﴾: بدلٌ من «شاطئ» بإعادة الجارّ، لنباتها فيه، وهي شجرة عُنّاب أو عُلّيق أو عَوسَج، ﴿أنْ﴾ ـ مُفسِّرةٌ لا مُخفّفة ـ ﴿يا مُوسَى، إنِّيَ أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ، وأنْ ألقِ عَصاكَ﴾، فألقاها، ﴿فلَمّا رآها تَهتَزُّ﴾: تتحرّك، ﴿كأنَّها جانٌّ﴾ ـ وهي الحيّة الصغيرة ـ من سُرعة حركتها، ﴿وَلَّى مُدبِرًا﴾: هاربًا منها، ﴿ولَم يُعَقِّبْ﴾ أي: يرجعْ.

فنُودي: ﴿يا مُوسَى، أقبِلْ ولا تَخَفْ، إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ. اسلُكْ﴾: أدخِلْ ﴿يَدَكَ﴾ اليُمنى، بمعنى الكفّ، ﴿في جَيبِكَ﴾ هو طوقُ القميص، وأخرِجْها ﴿تَخرُجْ﴾ خِلافَ ما كانت عليه من الأُدمة ﴿بَيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ﴾ أي: برَص ـ فأدخلها وأخرجها تُضيء كشُعاع الشمس تُغشّي البصر ـ ﴿واضمُمْ إلَيكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهَبِ﴾، بفتح الحرفين، ....

قولُه: (صَلِيَ بالنَّارِ) سَخَّنَها[1].

قولُه: (بَدَلٌ) أي: بدلُ الاشتِمالِ.

قولُه: (لِنَبَاتِهَا فِيْهِ) لنَباتِ الشَّجرةِ في الشَّاطِئِ.

قولُه: (عُلَّيْقٍ) بضمِّ العَينِ وتشديدِ اللَّامِ، نَبتٌ يتعلَّقُ بالشَّجَرِ، له فوائدُ ذُكِرَت في «القاموسِ»[2].

قولُه: (أَو عَوْسَجٍ) شَوكٍ.

قولُه: (فَأَلْقَاهَا) فالفاءُ فصيحَةٌ في: ﴿فلَمَّا﴾.

قولُه: (تَتَحَرَّكُ) بسُرعَةٍ.

قولُه: (هَارِباً) من الخَوفِ.

قولُه: (أَيْ: بَرَصٍ) يعني: سُوءٍ كبَرَصٍ.

قولُه: (بِفَتحِ الحَرفَينِ) الحِرْميُّ والبصريُّ[3].

---

(١) قوله: «سخنها» كذا النسخ، ولم أجد من ذكر هذا المعنى، وأقرب شيء إليه ما ذكره أبو حيان في «البحر» (٣/ ٤٩٢): صلي بالنار: تسخن بها. وفي «الدر المصون» (٣/ ٥٩٥): صلي بالنار: تسخن بقربها. وقد تقدم مثل هذا في أول النمل.

(٢) انظر: «القاموس» (ص: ٩١١).

(٣) انظر هذا وما بعده: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٣).

وسكون الثاني مع فتح الأول وضمّه، أي: الخوفِ الحاصل من إضاءة اليد، بأن تُدخلها في جيبك، فتعودَ إلى حالتها الأُولى. وعُبّر عنها بالجناح لأنها للإنسان كالجناح للطائر. ﴿فذانِّكَ﴾، بالتشديد والتخفيف، أي: العصا واليد ـ وهما مؤنّثان، وإنما ذُكّر المُشار به إليهما المبتدأ لتذكير خبره ـ ﴿بُرهانانِ﴾ مرسَلانِ، ﴿مِن رَبِّكَ إِلَى فِرعَونَ ومَلَئِهِ. إِنَّهُم كانُوا قَومًا فاسِقِينَ﴾.

٣٣ـ ﴿قالَ: رَبِّ، إِنِّي قَتَلتُ مِنهُم نَفسًا﴾ هو القِبطيّ السابق، ﴿فأخافُ أن يَقتُلُونِ﴾ به،

٣٤ـ٣٥ـ ﴿وأخِي هارُونُ هُوَ أفصَحُ مِنِّي لِسانًا﴾: أبيَنُ. ﴿فأرسِلهُ مَعِي رِدْءًا﴾: مُعينًا ـ وفي قراءة بفتح الدال بلا همزة ـ ﴿يُصَدِّقُنِيَ﴾ بالجزم جوابُ الدعاء. وفي قراءة بالرفع وجُملته: صفة «ردءًا». ﴿إِنِّيَ أخافُ أن يُكَذِّبُونِ. قالَ: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾: نُقوّيك ﴿بِأخِيكَ، ونَجعَلُ لَكُما سُلطانًا﴾: غلبة، ﴿فلا يَصِلُونَ إِلَيكُما﴾ بسُوء...

قولُه: (مَعَ فَتحِ الأوَّلِ) حَفصٌ.

قولُه: (وضَمِّهِ) أي: مع ضَمِّ الأوَّلِ: الباقونَ.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ.

قولُه: (مُرسَلَانِ) أو: مُرسَلاً بِهِما؛ أي: بالمعجزَتَينِ، وقُدِّر لتعلُّقِ: ﴿إلى﴾.

قولُه: (بِهِ) الظَّاهرُ: بها.

قولُه: (أَبيَنُ) يعني: أنَّ المرادَ بالفصاحَةِ: المعنَى اللُّغَويُّ، وقد مَرَّ أنَّ لهُ نوعَ لُكْنَةٍ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ[1].

قولُه: (بفَتحِ الدَّالِ) يعني: بالنَّقلِ للتَّخفيفِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لعاصمٍ وحمزةَ.

قولُه: (صِفَةٌ) أي: بإتمامِ الحُجَّةِ ورَفعِ الشُّبهَةِ، وقيلَ: يُصَدِّقُني فرعونُ؛ لأنَّ خبرَ الاثنينِ أوقَعُ، وأمَّا قولُ البيضاويِّ: والجوابُ محذوفٌ[2]، ففيهِ أنَّهُ لا يلزمُ الجوابُ لكُلِّ أمرٍ.

قولُه: (غَلَبَةً) أو حُجَّةً وبرهاناً.

قولُه: (بِسُوءٍ) مِن استيلَاءٍ أو حِجاجٍ.

---

(١) انظر هذا وما بعده: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧٧).

اذهبا ﴿بِآياتِنا، أنتُما ومَنِ اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ﴾ لهم.

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿فلَمّا جاءَهُم مُوسَى بِآياتِنا بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ ﴿قالُوا: ما هذا إلاّ سِحرٌ مُفتَرًى﴾: مُختلَقٌ، ﴿وما سَمِعْنا بِهذا﴾ كائنًا ﴿في﴾ أيام ﴿آبائنا الأوَّلِينَ. وقالَ﴾ ـ بواو وبدونها ـ ﴿مُوسَى: رَبِّيَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِمَن جاءَ بِالهُدَى مِن عِندِهِ﴾، الضمير للربّ، ﴿ومَن﴾: عطفٌ على «مَن» ﴿تكُونُ﴾ ـ بالفَوقانيّة والتحتانيّة ـ ﴿لَهُ عاقِبةُ الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودة في الدار الآخرة، أي: وهو أنا في الشِّقَّين، فأنا مُحقّ فيما جئتُ به. ﴿إنَّهُ لا يُفلِحُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون.

قولُه: (اذْهَبَا) أشارَ إلى أنَّ: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وقيلَ: بـ﴿نجعلُ﴾، ولذا وقعَتِ المعانقةُ[١] بينَهُما في الوَقفِ، وقيل: بيانٌ لـ﴿الغَالِبُونَ﴾.

قولُه: (مُختَلَقٌ) لم يُفعَل قبلَهُ مثلُهُ.

قولُه: (كَائِنًا) إشارةٌ إلى أنَّ قولَه: ﴿في آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ وقعَ حالاً من اسمِ الإشارةِ، ويعنونَ به السِّحرَ المفترَى، أو ادِّعاءَ النُّبوَّةِ.

قولُه: (وبِدُونِهَا) مكيٌّ[٢].

قولُه: (أيْ: عَالِمٌ) اعلم أنَّ ﴿أعلَمُ﴾ هنا على بابه[٣]، بخلافِ ما في آخرِ السُّورةِ[٤]؛ لأنَّه ورَدَ بلا باء فيُحتاجُ إلى تأويلِهِ بعالمٍ كما ستعلمُ، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (عَطفٌ على: «مَنْ») دفعَ وهمَ عطفِه على: ﴿ربِّي﴾.

قولُه: (والتَّحتَانِيَّةِ) حمزةُ والكسائيُّ[٥].

قولُه: (فِي الدَّارِ) أو: النُّصرَةُ والعاقبَةُ المحمودَةُ في الدُّنيا.

قولُه: (الكَافِرُونَ) فلا يفوزونَ بالهِدايةِ في الدُّنيا وحُسنِ العاقبةِ في العُقبى.

---

(١) وقف المعانقة: هو أن يتعانق الوقفان باجتماعهما في محل واحد، فلا يجوز للقارئ أن يقف على كل منهما، بل إذا وقف على أحدهما امتنع الوقف على الآخر، لئلا يضطرب المعنى أو يبهم المراد. «معجم علوم القرآن» (ص: ٣٣٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٤).

(٣) كونه أفعل تفضيل.

(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٤).

٣٨ - ﴿وقالَ فِرعَونُ: يا أيُّها المَلأُ، ما عَلِمتُ لَكُم مِن إلـٰـهٍ غَيرِي. فأَوقِدْ لِي - يا هامانُ - على الطِّينِ﴾: فاطبخْ لي الآجُرَّ، ﴿فاجعَلْ لِي صَرحًا﴾: قصرًا عاليًا، ﴿لَعَلِّيَ أَطَّلِعُ إلَى إلـٰـهِ مُوسَى﴾: أنظرُ إليه، وأقف عليه. ﴿وإنِّي لَأظُنُّهُ مِنَ الكاذِبِينَ﴾ في ادعائه إلـٰـهًا آخَرَ وأنه رسوله.

٣٩ - ﴿واستكبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ، وظَنُّوا أَنَّهُم إلَينا لا يَرجِعُونَ﴾ - بالبناء للفاعل وللمفعول - ٤٠ - ﴿فأخَذْناهُ وجُنُودَهُ، فنبَذْناهُم﴾: طرحْناهم ﴿في اليَمِّ﴾: البحر المالح، فغرقوا. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الظّالِمِينَ﴾ حينَ صاروا إلى الهلاك؟ ٤١ - ﴿وجَعَلْناهُم﴾ في الدنيا ﴿أَئمَّةً﴾، بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ياء: رُؤساءَ في الشِّرك، ﴿يَدعُونَ إلَى النّارِ﴾ بدُعائهم إلى الشِّرك، ﴿ويَومَ القِيامةِ لا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم، ٤٢ - ﴿وأتبَعناهُم في هذِهِ الدُّنيا لَعْنةً﴾: خِزيًا، ﴿ويَومَ القِيامةِ هُم مِنَ المَقبُوحِينَ﴾: المُبعَدِينَ.

٤٣ - ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة ﴿مِن بَعدِ ما أهلَكْنا القُرُونَ الأُولَى﴾: قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرَهم، ﴿بَصائرَ لِلنّاسِ﴾: حالٌ من «الكتاب»..........................

قولُه: (الآجُرَّ) قيلَ: أوَّلُ مَن اتخذَ الآجُرَّ فرعونُ.

قولُه: (وأَقِفُ) الواو عاطفةٌ.

قولُه: (لِلفَاعِلِ) نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُه: (طَرَحْنَاهُم) أي: ألقيناهُم كَكَفٍّ رَمادٍ.

قولُه: (بتَحْقِيقِ) تقدَّمَ أوَّلَ السُّورةِ[2].

قولُه: (رُؤَسَاءَ) أي: قدوةً للضُّلَّالِ بالحملِ على الإضلالِ.

قولُه: (بِدُعَائِهِم) أي: إلى مُوجِباتِها من المعاصي.

قولُه: (خِزْياً) أو: طَرداً من الرَّحمةِ، أو: لَعنَ اللَّاعِنينَ.

قولُه: (المُبعَدِينَ) المطرودينَ، أو ممَّن قَبَّحَ اللهُ وجوهَهُم، وعن ابنِ عبَّاسٍ: سُودُ الوجوهِ، زُرقُ الأعيُنِ[3].

قولُه: (وعَادٍ) حقُّ العبارَةِ: «وعاداً» بالنَّصبِ، أو «هودٍ» مكانَهُ بالخفضِ.

قولُه: (وغَيْرَهم) ومنهُم قومُ فرعونَ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٧١).

(٢) انظر الآية رقم: (٥).

(٣) ذكره عنه المجد في «تنوير المقباس» (ص: ٤٥٥)، وهو عن مجاهد في «تفسيره» (ص: ٣٣٧).

جمعُ بَصِيرة ـ وهي نورُ القلب ـ أي: أنوارًا للقلوب ﴿وهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿ورَحْمَةً﴾ لمن آمن به، ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون بما فيه من المواعظ.

٤٤ ـ ﴿وما كُنتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿بِجانِبِ﴾ الجبل أو الوادي أو المكان ﴿الغَرِبيِّ﴾ من مُوسَى حين المُناجاة، ﴿إذ قَضَينا﴾: أوحَينا ﴿إلَى مُوسَى الأمرَ﴾ بالرسالة إلى فِرعون وقومه، ﴿وما كُنتَ مِنَ الشّاهِدِينَ﴾ لذلك، فتعرفَه فتُخبرَ به، ٤٥ ـ ﴿ولكِنّا أنشأنا قُرُونًا﴾: أُممًا بعدَ مُوسَى، ﴿فتَطاوَلَ علَيهِم العُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم، فنسُوا العهود واندرسَتِ العلوم وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولاً، وأوحَينا إليك خبر مُوسَى وغيرِه، ﴿وما كُنتَ ثاوِيًا﴾: مُقيمًا ﴿في أهلِ مَديَنَ، تَتلُو علَيهِم آياتِنا﴾: خبرٌ ثان، فتعرفَ قِصّتهم فتُخبِرَ بها، ﴿ولكِنّا كُنّا مُرسِلِينَ﴾ لك وإليك بأخبار المُتقدّمين.

٤٦ ـ ﴿وما كُنتَ بِجانِبِ الطُّورِ﴾: الجبل ﴿إذ﴾: حين ﴿نادَينا﴾ مُوسَى:.........

قولُه: (جَمْعُ: بَصِيرةٍ) يُتبَصَّرُ بها الحقائقُ، ويُميَّزُ بينَ الحقِّ والباطِلِ.

قولُه: (مِنَ الضَّلالَةِ) أو: إلى الشَّرائعِ الَّتي هي سبل اللهِ.

قولُه: (لِمَنْ آمَنَ) أي: سبَبَ رحمةٍ؛ لأنَّهُم لو عمِلوا بها نالوا رحمَةَ اللهِ.

قولُه: (يَا مُحَمَّدُ) حاضِراً.

قولُه: (الطُّورِ) وفي نسخةٍ: «الجبلِ»[1] وهذا على مذهبِ البصريِّ، أو: الجانِبِ الغربيِّ من مقامِ موسى على مذهبِ الكوفيِّ[2].

قولُه: (لِذَلِكَ) أي: للوَحيِ إليه.

قولُه: (فتُخبِرَ بِهِ) يعني: فما هو إلَّا من إعلامِ اللهِ ووَحيِهِ، فكيف يرتابُ أحَدٌ في نبوَّتِكَ؟

قولُه: (أُمَماً)أي: خَلَقنا.

قولُه: (فتَعرِفَ قِصَّتَهُم) أي: أهلِ مديَنَ، وهم شعيبٌ والمؤمنونُ به بالتَّعلُّمِ منهُم.

قولُه: (لَكَ وإلَيكَ) الظَّاهرُ: مرسِلِينَ إيَّاكَ، ومخبرينَ لك بها، أو: مرسِلِينَ إليك أخبارَهُم بوَحيِنا.

قولُه: (مُوسَى) وعن بعضِ السَّلفِ: معناهُ: إذ نادَينا أُمَّتَكَ في أصلابِ آبائِهِم حين سأَلَني موسى رؤيتَكَ،

---

(١) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٢) عند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى الصفة إلا بشرط خاص سنذكره، وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقاً، حجة البصريين: أن إضافة الموصوف إلى الصفة تقتضي إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا غير جائز فذاك أيضاً غير جائز. «تفسير الرازي» (٢٤/ ٦٠٢).

أن «خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ»، ﴿ولكِنْ﴾ أرسلناك ﴿رَحمةً مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَومًا، ما أتاهُم مِن نَذيرٍ مِن قَبلِكَ﴾ ـ وهم أهل مكّة ـ ﴿لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون، ٤٧ ـ ﴿ولَولا أن تُصِيبَهُم مُصِيبةٌ﴾: عُقوبة ﴿بِما قَدَّمَت أيدِيهِم﴾ من الكُفر وغيره، ﴿فيَقُولُوا: رَبَّنا، لَولا﴾: هلاّ ﴿أرسَلتَ إلَينا رَسُولاً، فنَتَّبِعَ آياتِكَ﴾ المُرسَلَ بها، ﴿ونَكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾. وجواب «لولا» محذوف وما بعدها مبتدأ. والمعنى: لولا الإصابةُ المُسبَّبُ عنها قولُهم، أو لولا قولُهم المسبَّبُ عنها، ما أرسلناك إليهم رسولاً.

٤٨ ـ ﴿فلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ﴾ مُحمّدٌ ﴿مِن عِندِنا قالُوا: لَولا﴾: هلاّ ﴿أُوتِيَ مِثلَ ما أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الآياتِ كاليد البيضاء والعصا وغيرهما، ....

وقلْتُ لهُ: إنَّكَ لن تَصِلَ إلى ذلكَ لكن إن شئتَ أُسمِعْتَ صوتَ أمّتِهِ، نقلَهُ النَّسائيُّ عن أبي هريرةَ[1]، وكذا قالَ مقاتلُ بنُ حيّانَ[2] والأعمشُ[3] ووهبٌ[4]، وقد نُقِلَ عن ابنِ عبَّاسٍ، كذا في «تفسيرِ المعينِ»[5].

قولُه: (أَرْسَلْنَاكَ) أو: أعلَمْناكَ، أو: أوحَيْنا إليكَ، ويتعلَّقُ به: ﴿لِتُنْذِرَ﴾.

قولُه: (وَهُم أَهْلُ مَكَّةَ) لوقوعِهِم في فَتْرَةٍ بينكَ وبينَ عيسى، وهي خمسُ مئةٍ وخمسونَ سنةً.

قولُه: (وجَوَابُ ﴿لَولَا﴾) أي: الأولى وهيَ الامتِناعيَّةُ، وأمَّا الثَّانيةُ فهي تحضيضيَّةٌ، كما أشارَ إليه بقولِه: «هلَّا»، وجوابُها بالفاءِ تشبيهاً لها بالأمرِ، مفعولُ: ﴿يَقُولُوا﴾ المعطوفُ على ﴿تُصِيبَهُمْ﴾ بالفاءِ المعطيةِ معنَى: السَّببيَّةِ.

قولُه: (ولَمَا أَرْسَلْنَاكَ) أي: إنَّما أرسَلناكَ قَطْعاً لعُذرِهم وإلزاماً للحُجَّةِ عليهِم إن عَذَّبناهُم؛ يعني: هم مُستَحقُّونَ للعذابِ، ولكنَّ تأخيرَهُ وإرسالَكَ لقَطعِ الحُجَّةِ.

قولُه: (مُحَمَّدٌ) أي: الرَّسولُ المصَدَّقُ بالمعجِزاتِ، أو بالقرآنِ الباهِرِ البُرهانِ الباقي في كلِّ زمانٍ.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٨) عن أبي هريرة، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾، قال: نودي: أن يا أمة محمد، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبل أن تدعوني.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٤٦) ولفظه، قال: في قول الله عز وجل: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾: إذ نادى أمتك وهم في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت.

(٣) لم أقف عليه، وحديث أبي هريرة المتقدم هو من طريق الأعمش.

(٤) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ٤٦٢).

(٥) أي: المعين الصفوي، صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» (٣/ ٢٥٣) وقد جاء فيه بعض ما ذكر، أما تتمته فلا شك أنها في كتابه الأتم والأكمل «جوامع التبيان» وعنه ينقل المصنف وغيره، وقد خفي أمره على كثيرين، وقد عثرت عليه وهو قيد التحقيق ولله الحمد، أساله التيسير والتوفيق والقبول.

أو الكتابِ جُملةً واحدة. قال تعالى: ﴿أَوَلَم يَكفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبلُ﴾ حيثُ ﴿قالُوا﴾ فيه وفي مُحمّد: ﴿ساحِرانِ﴾ ـ وفي قراءةٍ: «سِحرانِ» أي: التوراة والقُرآن ـ ﴿تَظاهَرا﴾: تعاونا. ﴿وقالُوا: إنّا بِكُلٍّ﴾ من النبيِّينِ والكتابَينِ ﴿كافِرُونَ﴾؟

٤٩ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فائتُوا بِكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ، هُوَ أهدَى مِنهُما﴾ أي: من الكتابين، ﴿أتَّبِعْهُ إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في قولكم. ....

قولُه: (أو الكِتَابِ) عطفٌ على: «الآياتِ»، و«مِن» بيانيَّةٌ لـ﴿ما﴾، ولا مانِعَ[1] من الجمعِ.

قولُه: (فِيْهِ وفِي مُحَمَّدٍ) فاعلُ: ﴿يَكْفُرُوا﴾ ضميرُ قريشٍ، فإنَّهم كَفَروا بنبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ أيضاً حين جاءَهُم الرَّهطُ الَّذين أرسَلوهُم إلى يهودِ المدينةِ يسألونَهُم عن محمَّدٍ ﷺ بخبرِهم على ما ذُكِرَ في «الكشَّافِ»[2]، و«المعالمِ»[3]، و«المداركِ»[4]، وقيلَ: فيه وفي هارونَ[5]، وهو ضعيفٌ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) للكوفيِّ[6].

قولُه: (أي: التَّوْرَاةُ والقُرْآنُ) أو موسى ومحمَّدٌ، جُعِلا سحرَينِ مبالغةً، أو بتقديرِ مضافٍ؛ أي: ذوا سِحْرٍ، وثُنِّي دَفعاً للالتباسِ، أو الأصلُ: ذَوا سحرَينِ، والأَولى تطابُقُ القراءتينِ إلَّا أن يُحمَلَ على تَوزيعِ الأشخاصِ أو الأوقاتِ.

قولُه: (تَعَاوَنَا) بإظهارِ الخوارِقِ، أو بتوافُقِ الكتابينِ.

قولُه: (والكِتَابَينِ) الظَّاهرُ: (أو)، وقيل: أو بكُلِّ الأنبياءِ.

قولُه: (مِنَ الكِتَابَينِ) أو ممَّا نزلَ على موسَى وعلى نبيِّنا، وإضمارُهُما لدلالةِ المعنى، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالسَّاحِرَينِ: موسَى ومحمَّدٌ عليهما السَّلامُ.

قولُه: (فِي قَولِكُم) إنَّا ساحِرانِ، وهذا من الشُّروطِ الَّتي يُرادُ بها الإلزامُ والتَّبكيتُ، لا الشَّكُّ والتَّردُّدُ.

---

(١) في (د): «منع».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٢٠). وفيه: وذلك حِيْنَ بَعثُوا الرَّهْطَ إلى رُؤسَاء اليَهُود بالمَدينَةِ يَسْألُونَهُم عن محمَّدٍ عليه السلام، فأخبَرُوهم أنّه صِفتُه ونَعْتُه وأنّه في كتَابهم، فرَجعَ الرَّهْطُ إلى قُرَيْشٍ فَأخبَروهُم بقَوْلِ اليَهُود، فقَالُوا عند ذلك: ﴿سَاحِرَانِ تظَاهَرا﴾.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٣٧).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٤٨).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٩٥٦) عن سعيد بن جبير.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٥).

٥٠ ـ ﴿فإِن لَم يَستَجِيبُوا لَكَ﴾ دُعاءك بالإتيان بكتاب ﴿فاعلَمْ أنّما يَتَّبِعُونَ أهْواءَهُم﴾ في كُفرهم. ﴿ومَن أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾؟ أي: لا أحدَ أضلّ منه. ﴿إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين.

٥١ ـ ﴿ولَقَد وَصَّلْنا﴾: بيّنّا ﴿لَهُمُ القَولَ﴾:..

قولُه: (﴿فإنْ﴾) كُتِبَ النُّونُ في نُسخَتِنا مخالفاً للَونِ الأصلِ، وهو مُوهِمٌ أنَّ النُّونَ غيرُ مرسُومٍ هنا، وقد اتَّفَقَ الرُّسومُ على وصلِهِ في هودٍ[١]، وفُصِلَ هنا.

قولُه: (دُعَاءَكَ) فحُذِفَ المفعولُ للعِلمِ به؛ لأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعَدَّى بنفسِهِ إلى الدُّعاءِ، وباللَّامِ إلى الدَّاعِي، كذا في البيضاويِّ[٢] و«الكشَّافِ»[٣]، لكن في «القاموسِ»: استجابه واستَجابَ لهُ[٤]، ونصَّ أبو حيَّانَ[٥] أنَّه يتعدَّى إلى الدَّاعي بنفسِهِ أيضاً، فلا يُحتاجُ إلى تكلُّفِ تقديرٍ.

قولُه: (بالإِتيَانِ) والأظهَرُ: إلى الإتيانِ، ولعلَّ الباءَ بيانيَّةٌ.

قولُه: (في كُفْرِهِم) لأنَّهُم ما رَجِعوا ـ بعدَما ألزَمَتهم الحجَّةَ ـ عن العنادِ، ولو اتَّبعوا حُجَّةً لأتَوا بها.

قولُه: (أيْ: لا أَضَلَّ مِنهُ) يعني: استفهامَ إنكارٍ بمعنى النَّفيِ، وقولُه: ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ في موضِعِ الحالِ للتَّوكيدِ ـ إذِ الغالبُ مخالفَةُ الهَوى للهُدى، فيُلحَقُ النَّادِرُ بالمعدومِ ـ أو للتَّقييدِ، فإنَّ هَوى النَّفسِ قد يوافِقُ الحقَّ، ويكونُ سَمناً مع العَسَلِ، ونوراً على نُورٍ، وفي الحديثِ: «لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتَّى يكونَ هواهُ تبعاً لِمَا جِئتُ بِهِ»[٦].

قولُه: (الكَافِرِينَ) المتَّبِعينَ للهَوى.

قولُه: (بَيَّنَّا) أو: أتبَعنا بعضَهُ بعضاً في الإنزالِ ليتَّصِلَ التَّذكيرُ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [هود: ١٤]. وانظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ١٥٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٨٠).

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٢٠).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٠).

(٥) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٣١٣).

(٦) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٧٩)، والبيهقي في «المدخل» (٢٠٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قال النووي في «الأربعون النووية» (٤٢): حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. واستدرك عليه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٤).

القُرآنَ، ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون فيُؤمنون. ٥٢ ـ ﴿الَّذِينَ آتيناهُمُ الكِتابَ مِن قَبلِهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿هُم بِهِ يُؤمِنُونَ﴾ أيضًا ـ نزل في جماعة أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن النصارى قدِموا من الحبشة ومن الشام ـ ٥٣ ـ ﴿وإذا يُتلَى علَيهِمْ﴾ القُرآنُ ﴿قالُوا: آمَنّا بِهِ. إنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّنا. إنّا كُنّا مِن قَبلِهِ مُسلِمِينَ﴾: مُوحّدين.

٥٤ ـ ﴿أُولَئِكَ يُؤتَونَ أجرَهُم مَرّتَينِ﴾ بإيمانهم بالكتابين ﴿بِما صَبَرُوا﴾: بصبرهم على العمل بهما، ﴿ويَدرَؤُونَ﴾: يدفعون ﴿بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ﴾ منهم، ﴿ومِمّا رَزَقْناهُم يُنفِقُونَ﴾: يتصدّقون. ٥٥ ـ ﴿وإذا سَمِعُوا اللَّغوَ﴾: الشتم والأذى من الكُفّار ﴿أعرَضُوا عَنهُ، وقالُوا: لَنا أعمالُنا ولَكُم أعمالُكُم، سَلامٌ علَيكُم﴾: سلامَ مُتاركة، أي: سلمتم منّا من الشتم وغيره. ﴿لا نَبتَغِي الجاهِلِينَ﴾: لا نصحَبهم.

ونزل في حِرصه ﷺ على إيمان عمّه أبي طالب: ٥٦ ـ ﴿إنَّكَ لا تَهدِي مَن أحبَبتَ﴾ هِدايتَه، .....

قولُه: (أي: القُرْآنَ) الأظهرُ: أنَّه للقَولِ المرادِ به القرآنُ.

قولُه: (فيُؤمِنُونَ) ويُطيعونَ.

قولُه: (مِنَ النَّصارَى) أربعونَ.

قولُه: (مِنَ الحَبَشَةِ) اثنانِ وثلاثونَ معَ جعفرٍ.

قولُه: (ومِنَ الشّامِ) ثمانيةٌ.

قولُه: (على العَمَلِ بِهَا) الظّاهرُ: بهما، ويبعدُ رجوعُ الضّميرِ إلى التَّوراةِ.

قولُه: (مِنْهُم) أي: يَدفَعونَ بالطّاعَةِ المعصيةَ المتقدِّمةَ منهم الصّادِرةَ عنهم؛ كقولِهِ ﷺ: «أتبعِ السَّيئةَ الحسنةَ تَمحُهَا» رواهُ التِّرمذيُّ وحسَّنَهُ[1].

أو: لا يُقابِلونَ الأذى بمثلِه، بل يَعفونَ، بل يُجازُونَ بالإحسانِ.

قولُه: (الشَّتْمَ) فاللَّغوُ: الكلامُ القَبيحُ.

قولُه: (سَلامَ مُتارَكَةٍ) أي: لا تحيَّةً، أو دُعاءً لهم بالسَّلامةِ عمَّا هم فيه.

قولُه: (لا نَصْحَبُهُم) والأبلَغُ: لا نطلُبُ صُحبَتَهُم، ولا نُريدُ طَرِيقَهُم.

قولُه: (هِدَايَتَهُ) أو نفسَهُ؛ أي: لا تَقدِرُ أن تُدخِلَهُ في الإسلامِ.

اعلم أنَّ الهدايةَ: خَلقُ الاهتداءِ في العبدِ، وبيانُ طريقِ الصَّوابِ، وكلا المعنَيينِ مُستَقيمٌ في حقِّ اللهِ تعالى، وأمَّا الرَّسولُ فلا يصحُّ اتِّصافُهُ إلّا بالمعنى الثّاني، فلا يُناقِضُ هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ولكِنَّ اللهَ يَهدِي مَن يَشاءُ، وهُوَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِالمُهتَدِينَ﴾.

٥٧ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: قومه: ﴿إن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِن أرضِنا﴾ أي: نُنتزَعْ منها بسُرعة. قال تعالى: ﴿أوَلَم نُمَكِّنْ لَهُم حَرَمًا آمِنًا﴾ يأمنون فيه من الإغارة والقتل الواقعَينِ من بعض العرب على بعض، ﴿تُجبَى﴾ ـ بالفَوقانيّة والتحتانيّة ـ ﴿إلَيهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ﴾ من كُلِّ أوب ﴿رِزقًا﴾ لهم ﴿مِن لَدُنّا﴾: مِن عِندنا؟ ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنّ ما نقوله حقّ، ٥٨ ـ ﴿وكَم أهلَكْنا مِن قَريَةٍ، بَطِرَتْ مَعِيشَتَها﴾ أي: في عيشها! وأُريد بالقرية أهلُها ـ ﴿فتِلكَ مَساكِنُهُم، لَم تُسكَنْ مِن بَعدِهِم إلاّ قَلِيلاً﴾ للمارّة يومًا أو بعضه ـ ﴿وكُنّا نَحنُ الوارِثِينَ﴾ منهم. ٥٩ ـ ﴿وما كانَ رَبُّكَ مُهلِكَ القُرَى﴾ بظلم أهلها ﴿حَتَّى يَبعَثَ في أُمِّها﴾ أي: أعظمِها ﴿رَسُولاً، يَتلُو عليهِم آياتِنا، وما كُنّا مُهلِكِي القُرَى إلاّ وأهلُها ظالِمُونَ﴾ بتكذيب الرُّسل.

قولُه: (أيْ: عَالِمٌ) كرَّرَهُ في مواضِعَ، وتبعَهُ السُّيوطيُّ[1] أيضاً، ولا أعلمُ وجهَهُ إلَّا في موضِعٍ يقعُ بدونِ الباءِ، كما قرَّرناهُ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾ [الأنعام: ١١٧] واللهُ أعلمُ.

قولُه: (أي: قَوْمُهُ) من قُريشٍ، لا أهلُ الكتابِ.

قولُه: (يَأْمَنُونَ) أي: ألم نَجعَل مكانَهُم حَرَماً ذا أَمنٍ مع كُفرِهِم، فكيفَ نُعرِّضُهُم للخَوفِ والتَّخطُّفِ إذا كانوا مُوَحِّدينَ؟ يعني: هم كاذِبونَ في عُذرِهِم.

قولُه: (بالفَوقَانيَّةِ) نافعٌ[2]؛ أي: يُحمَلُ إليه ويُجمَعُ فيه.

قولُه: (أَوْبٍ) مكانٍ يُرجَعُ إليه؛ أي: ثَمراتٌ كثيرةٌ.

قولُه: (أي: عَيْشَهَا) بنَزعِ الخافِضِ[3]، و﴿بَطِرَتْ﴾ أي: طَغَتْ وأَشِرَتْ.

قولُه: (مِنْهُم) إذ ما بَقيَ منهم في الدِّيارِ ديَّارٌ.

قولُه: (بظُلْمٍ) أي: ما كانت عادَتُه تعالى إهلاكَ القُرى.

قولُه: (أَهْلِهَا) على إضمارِ المضافِ، أو ذِكرِ المحلِّ وإرادةِ الحالِّ.

قولُه: (أي: أَعْظَمِهَا) فإنَّ الأشرافَ فيها، أو: في أصلِها الَّتي هي ـ أي: القُرى ـ أعمالُها وسوادُها؛ لأنَّ أهلَها تكونُ أفطنَ وأنبلَ، فإن أنكَروا نزَلَ عليهم العَذابُ.

---

(١) انظر: سورة آل عمران الآية رقم: (٣٦)، وسورة يوسف الآية رقم: (٧٧)، وسورة النحل الآية رقم: (٣٢) ورقم: (١٢٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٥).

(٣) وقد أظهر الخافض في النسخ المعتمدة في المتن.

٦٠ ـ ﴿وما أُوتِيتُم مِن شَيءٍ فمَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا وزِينتُها﴾ أي: تتمتّعون وتتزيّنون به أيام حياتكم ثمّ يفنى، ﴿وما عِندَ اللهِ﴾ ـ وهو ثوابه ـ ﴿خَيرٌ وأبقَى. أفلا تَعقِلُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ أنّ الباقي خير من الفاني؟ ٦١ ـ ﴿أفمَن وَعَدْناهُ وَعدًا حَسَنًا، فهُوَ لاقِيهِ﴾: مُصيبُهُ ـ وهو الجنّة ـ ﴿كمَن مَتَّعْناهُ مَتاعَ الحَياةِ الدُّنيا﴾ فيزول عن قريب، ﴿ثُمَّ هُوَ يَومَ القِيامةِ مِنَ المُحضَرِينَ﴾ النارَ؟ الأوّل المؤمن والثاني الكافر، أي: لا تساوي بينهما.

٦٢ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ يُنادِيهِمْ﴾ اللهُ، ﴿فيَقُولُ: أينَ شُركائيَ الَّذِينَ كُنتُم تَزعُمُونَ﴾ ـهُم شركائي؟ ٦٣ ـ ﴿قالَ الَّذِينَ حَقَّ علَيهِمِ القَولُ﴾ بدخول النار وهم رؤساء الضلالة:..........

قولُه تعالى: (﴿مِنْ شَيءٍ﴾) أي: قليلٍ وكثيرٍ من أسبابِ الدُّنيا.

قولُه: (تمتَّعونَ) بحذفِ التَّاءِ فيه وفيما بعدَهُ.

قولُه: (وهُوَ ثَوَابُهُ) أي: الجنَّةُ ونعيمُها.

قولُه: (واليَاءِ) الغيبةُ بصريٌّ[(١)].

وقولُه تعالى: (﴿خَيْرٌ﴾) أي: خيرٌ في نفسِهِ من ذلكَ؛ لأنَّه لَذَّةٌ خالِصَةٌ وبَهجَةٌ كاملةٌ.

قولُه: (البَاقِي) إشارَةٌ إلى أنَّ (أبقى) لمجرَّدِ الزِّيادةِ مبالغةً، أو: أبقى لأنَّه أبديٌّ.

قولُه: (مُصِيبُهُ) ومُدرِكُهُ؛ لامتِناعِ الخُلفِ في وَعدِهِ للحسابِ أو العذابِ.

قولُه: (وهُوَ الجَنَّةُ) أي: وَعداً بالجنَّةِ، فإنَّ حُسنَ الوعدِ بحُسْنِ[(٢)] الموعودِ.

قولُه: (فيَزُولُ عَن قَرِيبٍ) وهو في نفسِهِ مَشُوبٌ بأنواعِ الغُصَصِ، مُكدَّرٌ بالمتاعِبِ، مُستَعقِبٌ للتَّحسُّرِ على الانقِطاعِ.

قولُه: (أي: لا تَسَاوِيَ) فالهمزَةُ للإنكارِ، رُوِيَ: أنَّ الآيَةَ نزلَتْ في حمزةَ وأبي جَهلٍ[(٣)]، لكنَّ العِبرةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ.

قولُه: (أي: اللهُ) نداءَ غَضَبٍ وتَوبيخٍ.

قولُه: (هُمْ شُرَكَائِي) فحُذِفَ المفعولانِ لدلالةِ الكلامِ عليهِما.

قولُه: (رُؤَسَاءُ الضَّلالَةِ) أي: شياطينُهُم وساداتُهُم في الضَّلالِ؛ خوفاً من أن يقولَ السَّفلَةُ: لا ذنبَ لنا، إنَّما الذَّنبُ لساداتِنا.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) في النسخ: «بمعنى»، والتصويب من البيضاوي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٠٥، ٦٠٦) عن مجاهد.

﴿رَبَّنا، هؤلاءِ الَّذِينَ أغوَينا﴾ هم: مبتدأ وصفةٌ ﴿أغوَيناهُم﴾: خبرُه، فغَوَوا ﴿كَما غَوَينا﴾ لم نُكرِهْهم على الغيّ. ﴿تبَرَّأنا إلَيكَ﴾ منهم. ﴿ما كانُوا إيّانا يَعبُدُونَ﴾. ما: نافية، وقُدّم المفعول للفاصلة. ٦٤ ـ ﴿وقِيلَ: ادعُوا شُرَكاءَكُم﴾ أي: الأصنامَ الذين كنتم تزعمون أنهم شُركاء الله، ﴿فدَعَوهُم فلَم يَستَجِيبُوا لَهُم﴾ دُعاءهم، ﴿ورَأَوُا﴾ هم ﴿العَذابَ﴾: أبصروه. ﴿لَو أنَّهُم كانُوا يَهتَدُونَ﴾ في الدنيا ما رأوه في الأُخرى.

٦٥ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ يُنادِيهِم فيَقُولُ: ماذا أجَبتُمُ المُرسَلِينَ﴾........

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) أي: ﴿هؤلاءِ﴾.

قولُه: (وَصِفَته) ما بعدَهُ، والرَّاجعُ إلى الموصولِ محذوفٌ، أو هو الخبرُ[1] وهو الأَظهرُ؛ أي: هؤلاءِ همُ الَّذينَ أغوَيناهُم، وما بعدَهُ[2] استئنافٌ للدِّلالةِ على أنَّهم غَوَوا باختيارِهم، وأنَّهُم لم يفعَلوا بهم إلَّا وسوَسَةً وتسويلاً.

قولُه: (فَغَوَوا) أي: غيًّا مثلَ ما غَوَينا، والمعنى: غَوَوا باختيارِهم كما غَوَينا باختيارِنا، أو المعنَى: ما اختَرنا لهُم إلَّا ما اختَرنا لأنفُسِنا فلا عَتَبَ لهُم علينا.

قولُه: (مِنْهُم) وممَّا اختاروهُ من الكُفرِ هوًى منهُم.

قولُه: (نَافِيَةٌ) أي: ما كانوا يعبُدونَنا، وإنَّما كانوا يعبُدونَ أهواءَهُم، فنحنُ وإيَّاهُم سواءٌ في الغِوايَةِ، شهِدوا على أنفُسِهم بالغِوايَةِ والإغواءِ، ثمَّ تبرَّؤوا من عبادَتِهِم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

قولُه: (أيْ: الأَصْنَامَ) لتُخَلِّصَكُم من العذابِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿فَدَعَوْهُمْ﴾) من فَرْطِ الحَيرَةِ.

قولُه: (دُعَاءَهُم) مرَّ تَحقيقُهُ لعجزِهِم عن الإجابَةِ والنُّصرَةِ.

قولُه: (﴿وَرَأَوُا﴾ هُم) تأكيدٌ للضَّميرِ.

قولُه: (أَبْصَرُوهُ) أو: رأى الكفَّارُ العذابَ لازماً بهم.

قولُه: (فِي الدُّنْيَا) أي: إلى الحَقِّ (مَا رَأَوْهُ) جوابُ ﴿لَو﴾.

وقيل: ﴿لَو﴾ للتَّمنِّي؛ أي: تمنَّوا أنَّهُم، على الحكايَةِ.

قولُه: (﴿و﴾ اذْكُرْ) وقيل: عطفٌ على الأوَّلِ.

---

(١) قوله: «أو هو الخبر»؛ أي: أو ﴿الذين﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿هؤلاء﴾.

(٢) قوله: «وما بعده»؛ أي: قوله تعالى: ﴿أغويناهم﴾.

إليكم؟ ٦٦ ـ ﴿فعَمِيَتْ علَيهِم الأنباءُ﴾: الأخبار المُنجية في الجواب ﴿يَومَئذٍ﴾ أي: لم يجدوا خبرًا لهم فيه نجاةٌ، ﴿فهُم لا يَتَساءَلُونَ﴾ عنه فيسكتون. ٦٧ ـ ﴿فأمّا مَن تابَ﴾ من الشِّرك، ﴿وآمَنَ﴾: صدّق بتوحيد الله ﴿وعَمِلَ صالِحًا﴾: أدّى الفرائض، ﴿فعَسَى أن يَكُونَ مِنَ المُفلِحِينَ﴾: الناجين بوعد الله.

٦٨ ـ ﴿ورَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشاءُ ويَختارُ﴾ ما يشاء، ﴿ما كانَ لَهُمُ﴾: للمشركين ﴿الخِيَرَةُ﴾: الاختيار في شيء، ﴿سُبحانَ اللهِ وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ عن إشراكهم! ....

قولُه: (إِلَيْكُم) متعلّقٌ بـ﴿الْمُرْسَلِيْنَ﴾.

قولُه: (الأَخْبَارُ) أي: خَفِيَتْ.

قولُه: (المُنْجِيَةُ) الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بـ﴿الأَنْبَاءُ﴾ ما أجابوا بِهِ الرُّسُلَ، أو ما يعُمُّهُ، وإذا كانت الرُّسُلُ يتقعقعُونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك من الهَولِ، ويُفَوِّضونَ إلى اللهِ تعالى، فما ظنُّكَ بالضَّالِّينَ من أُممِهِم؟

قولُه: (عَنْهُ) أي: لا يسأَلُ بعضُهم بعضاً عن الجوابِ لفرطِ حَيرَةِ كلٍّ منهُم، أو للعِلمِ بأنَّه مثلُهُ في العجزِ عن الجوابِ.

قولُه: (بتَوحِيْدِ اللهِ) وسائرِ ما يجبُ الإيمانُ به.

قولُه: (بِوَعْدِ اللهِ) ﴿فَعَسَى﴾ تحقيقٌ على عادةِ الكِرامِ، أو ترَجٍّ من التَّائبِ؛ بمعنى: فليتوقَّعْ أن يُفلِحَ؛ أي: ليكُن بين الخَوفِ والرَّجاءِ.

قولُه: (مَا يَشَاءُ) لا موجِبَ عليه، ولا مانِعَ لهُ.

قولُه: (للمُشْرِكِينَ) الصَّحيحُ: أنَّ الضَّميرَ للخَلقِ، وظاهرُه: نَفيُ الاختيارِ عنهم رأساً، والأمرُ كذلك عندَ التَّحقيقِ، وهو الموافِقُ للمذهَبِ الحَقِّ، فإنَّ اختيارَ العَبدِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ مَنوطٌ بدَواعٍ لا اختيارَ لهم فيها، وقيلَ: المرادُ أنَّه ليسَ لأحَدٍ مِن خلقِهِ أن يختارَ عليه، ويؤيِّدُه ما رُويَ: أنَّه نزلَ في قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][1]، وهذا هو المختارُ للشَّيخِ، لكن معَ هذا لا وجهَ لتخصيصِ المشركينَ.

وقولُه تعالى: (﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾) تنزيهاً له أن ينازِعَهُ أحدٌ، أو يزاحِمَ اختيارَهُ اختيارٌ.

قولُه: (عن إِشْرَاكِهِم) فـ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ، أو: مُشارَكَةِ ما يُشركونَه[2] به، فـ﴿ما﴾ موصولَةٌ والمضافُ مقدَّرٌ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٩) وعزاه لأهل التفسير، وذكره أيضاً الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٠/ ٤٨٣) ولم يصرح بالنزول.

(٢) في (ص): «يشركون».

٦٩ ـ ﴿وربُّكَ يَعلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُم﴾: تُسِرُّ قُلوبهم من الكُفر وغيره، ﴿وما يُعلِنُونَ﴾ بألسنتهم من ذلك، ٧٠ ـ ﴿وهُوَ اللهُ لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ، لَهُ الحَمدُ في الأُولَى﴾: الدنيا ﴿والآخِرةِ﴾: الجنّة، ﴿ولَهُ الحُكمُ﴾: القضاء النافذ في كل شيء، ﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بالنُّشور.

٧١ ـ ﴿قُلْ﴾ لأهل مكّة: ﴿أرَأيتُم﴾ أي: أخبِروني ﴿إن جَعَلَ اللهُ علَيكُمُ اللَّيلَ سَرمَدًا﴾: دائمًا ﴿إلَى يَومِ القِيامةِ، مَن إلـٰـهٌ غَيرُ اللهِ﴾ بزعمكم ﴿يأتِيكُم بِضِياءٍ﴾: نهار، تطلبون فيه المعيشة؟ ﴿أفلا تَسمَعُونَ﴾ ذلك سماعَ تفهّم، فترجعون عن الإشراك؟ ٧٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أرَأيتُم إن جَعَلَ اللهُ علَيكُمُ النَّهارَ سَرمَدًا إلَى يَومِ القِيامةِ، مَن إلـٰـهٌ غيرُ اللهِ﴾ بزعمكم ﴿يأتِيكُم بلَيلٍ، تَسكُنُونَ﴾: تستريحون ﴿فِيهِ﴾ من التعب؟ ﴿أفلا تُبصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ في الإشراك، فترجعون عنه؟ ٧٣ ـ ﴿ومِن رَحْمتِهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، لِتَسكُنُوا فِيهِ﴾: في الليلِ، ﴿ولِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ﴾ في النهار بالكسب، ﴿ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ النّعمة فيهما.

٧٤ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ يُنادِيهِم، فيَقُولُ: أينَ شُرَكائيَ الَّذِينَ كُنتُم تَزعُمُونَ﴾؟ ذُكِر ثانيًا ليُبنى عليه:

قولُه: (تُسِرُّ) أي: تُخفِي، والأظهرُ: تَستُرُ.

قولُه: (مِنَ الكُفرِ) ومنه عداوةُ النَّبيِّ وحِقدُهُ.

قولُه: (مِنْ ذَلِكَ) أي: الكُفرِ، بالطَّعنِ فيه، أو في القرآنِ، وفي هذا تسليةٌ له ﷺ وتهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لهم.

قولُه: (الجَنَّةِ) لأنّه المولِي للنِّعَمِ كلِّها عاجِلاً وآجِلاً، يحمدُهُ المؤمنونَ في الآخرةِ كما حَمِدوهُ في الدُّنيا.

قولُه: (لأَهْلِ مَكَّةَ) الأعَمُّ هو الأتَمُّ.

قولُه: (نَهارٍ) الظَّاهرُ: نورٍ، بل نورِ الشّمسِ، وإنّما حملَهُ عليه التَّقابُلُ، وهو غيرُ لازِمٍ.

قولُه: (تَفَهُّمٍ) واستِبصارٍ.

قولُه: (مِنَ التَّعَبِ) وصَفَ اللَّيلَ دونَ النَّهارِ؛ لأنَّ النَّهارَ مُستغنٍ عن الوصفِ، ولأنَّ منافِعَ الضَّوءِ أكثرُ ممَّا يقابلُهُ، ولذا قرنَ به ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ من السَّمعِ أكثرُ مِن استفادتِهِ منَ البصرِ.

قولُه: (ذُكِرَ ثَانِياً) للتَّقريعِ[1] بعدَ التَّقريعِ؛ إشعاراً بأنَّهُ لا شيءَ أجلبُ لغضبِ اللهِ من الإشراكِ بِهِ، أو الأوَّلُ: لتقريرِ فسادِ رأيِهِم، والثَّاني: لبيانِ أنّه لم يكُنْ عن سَنَدٍ.

قولُه: (لِيُبْنَى عَلَيْهِ) ما أدري مبنَى هذا المبنى، ولا مَعنى هذا المعنَى، ولا يخفَى أنَّ المناسبةَ والرَّابطةَ

---

(١) في بعض الأصول: «للتفريع»، والمثبت موافق لما في البيضاوي، ويؤيده قوله: «إشعاراً...».

٧٥ ـ ﴿وَنَزَعْنا﴾: أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ـ وهو نبيّهم ـ يشهد عليهم بما قالوه، ﴿فَقُلْنا﴾ لهم: ﴿هاتُوا بُرهانَكُم﴾ على ما قلتم من الإشراك، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ﴾ في الإلـٰهية ﴿لِلهِ﴾، لا يُشاركه فيها أحد، ﴿وضَلَّ﴾: غاب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ في الدنيا من أنّ معه شريكًا. تعالى عن ذلك.

٧٦ ـ ﴿إِنَّ قارُونَ كانَ مِن قَومِ مُوسَى﴾ ابنَ عمّه أو ابنَ خالته وآمنَ به، ﴿فَبَغَى عَلَيهِم﴾ بالكِبْر والعلوّ وكثرة المال، ﴿وآتَيناهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ﴾: تَثقُل ﴿بِالعُصْبَةِ﴾: الجماعة ﴿أُولِي﴾: أصحابِ ﴿القُوَّةِ﴾ أي: تُثقِلُهم ـ فالباء: للتعدية. وعِدّتهم قيل: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عشرةٌ، وقيل غيرُ ذلك ـ اذكرْ...

المعنويَّةَ بينَ الآيتينِ[1] لا تُسَمَّى بناءً، إذ البناءُ يُستَعمَلُ في التَّعلُّقِ اللَّفظيِّ بالعطفِ أو التَّعليلِ ونحوِهِما.

قولُه: (بِمَا قَالُوْهُ) الأَولى: بما كانوا عليه.

قولُه: (لَهُم) للأمَمِ.

قولُه: (عَلَى مَا قُلْتُمْ) أي: على صِحَّةِ ما كنتُم تدَّعونَهُ.

قولُه: (غَابَ) غيبةَ الضَّائعِ؛ أي: ذَهبَ باطِلُهم بظُهورِ بُطلانهِ.

قولُه: (وآمَنَ بِهِ) ثمَّ نافَقَ.

قولُه: (والعُلُوِّ) أي: الظُّلمِ أو الجاهِ.

قولُه: (تَثْقُلُ) أي: مفاتِحُ صناديقِهِ، على حذفِ مُضافٍ، جمعُ «مِفتَحٍ» بالكَسرِ: آلة الفتحِ، وقيلَ: خزائنُهُ، جمعُ «مَفتح» بالفتحِ: مكان الفتح[2].

قولُه: (الجَمَاعَةِ) أي: الكثيرةِ.

قولُه: (تُثقِلُهُم) حتَّى تُميلَهُم.

قولُه: (وقِيْلَ: غَيرُ ذَلِكَ) قيل في الإنجيلِ: إنَّ مفاتِحَ كنوزِ قارونَ وِقرُ ستِّينَ بغلًا، كلُّ مِفتاحٍ منها على قَدْرِ أصبُعٍ، لكلِّ مفتاحٍ منها كَنزٌ[3].

قولُه: (اذكُرْ) أحسنُ من قولِ القاضي: منصوبٌ بـ﴿تَنُوءَ﴾[4].

---

(١) في (م) و(ص): «الاثنين».

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢/ ٥٣٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦١٧)، والدينوري في «المجالسة» (٢٨٢١) عن خيثمة.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٨٥).

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بكثرة المال فرحَ بطرٍ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بذلك ـ ٧٧ ـ ﴿وَابْتَغِ﴾: اطلبْ ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من المال ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بأن تُنفقه في طاعة الله. ﴿وَلَا تَنسَ﴾: تتركْ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: أن تعمل فيها للآخرة، ﴿وَأَحْسِن﴾ للناس بالصدقة ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ. وَلَا تَبْغِ﴾: تطلبِ ﴿الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بمعنى أنه يُعاقبهم.

٧٨ ـ ﴿قَالَ: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي: المالَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أي: في مُقابلته. وكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون. قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾: الأُممِ ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال؟ أي: هو عالم بذلك ويُهلكه الله. ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لِعلمه ـ تعالى ـ بها، فيدخلون النار بلا حِساب.

٧٩ ـ ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾: بأتباعه الكثيرين رُكبانًا،...............

قولُه: (فَرَحَ بَطَرٍ) وما أحسنَ كلامَ البيضاويِّ: الفَرَحُ بالدُّنيا مَذمومٌ مطلقاً؛ لأنَّه نتيجةُ حُبِّها والرِّضا بها، والذُّهولِ عن ذهابِها، فإنَّ العِلمَ بأنَّ ما فيها منَ اللَّذَّةِ مُفارِقُه لا محالةَ يوجِبُ الحُزنَ كما قالَ:

أشَـدُّ الغَـمِّ عنـدِي فـي سُرورٍ ... تيقَّـنَ عنـهُ صَاحِبُـهُ انتِقَـالا[1]

قولُه: (للآخِرَةِ) قيلَ: النَّصيبُ: الكَفَنُ.

قولُه: (بالصَّدَقَةِ) أو: إلى عبادِ اللهِ مطلَقاً.

قولُه: (أَيْ: فِي مُقَابَلَتِهِ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿عَلَىٰ﴾ للتَّعليلِ ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ بـ(أُوتِيتُ)، وقولُ البيضاويِّ: إنَّهُ في موضِعِ الحالِ[2]، غيرُ ظاهرٍ.

قولُه: (وَكَانَ أَعْلَمَ) وقيلَ: المرادُ: عِلمُ الكيمياءِ، وقيلَ: علمُ التِّجارةِ والدَّهقنةِ وسائرِ المكاسِبِ، وقيلَ: علمٌ بكنوزِ يوسفَ.

قولُه: (للمالِ) أو: جماعةً وخدماً.

قولُه: (أي: هُو عَالِمٌ) فالاستِفهامُ للتَّقريرِ.

قولُه: (لِعِلْمِهِ) يعني: سؤالَ استعلامٍ، بل سؤالَ توبيخٍ، أو: مُطلقَ السُّؤالِ، فيكونُ في موطنٍ خاصٍّ.

قولُه: (الكَثِيرِينَ) قيل: معه أربعةُ آلافٍ على زيِّه.

---

(١) انظر المصدر السابق. والبيت للمتنبي، انظر: «ديوانه» (ص: ١٤٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٨٥).

مُتحلِّينَ بملابس الذهب والحرير على خُيول وبغال مُتحلّية. ﴿قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَياةَ الدُّنيا: يا﴾ ـ للتنبيه ـ ﴿لَيتَ لَنا مِثلَ ما أُوتِيَ قارُونُ﴾ في الدنيا. ﴿إنَّهُ لَذُو حَظٍّ﴾: نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ فيها.
٨٠ ـ ﴿وقالَ﴾ لهمُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ بما وعد اللهُ في الآخرة: ﴿وَيلَكُم﴾: كلمةُ زجرٍ. ﴿ثَوابُ اللهِ﴾ في الآخرة بالجنّة ﴿خَيرٌ، لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا﴾ ممّا أُوتي قارون في الدنيا، ﴿ولا يُلَقّاها﴾ أي: الجنّةَ المُثابَ بها ﴿إلاّ الصّابِرُونَ﴾ على الطاعة وعن المعصية.

٨١ ـ ﴿فخَسَفْنا بِهِ﴾: بقارونَ ﴿وبِدارِهِ الأرضَ، فما كانَ لَهُ مِن فِئةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾: من غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك، ﴿وما كانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ﴾ منه، ٨٢ ـ ﴿وأصبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوا مَكانَهُ بِالأمسِ﴾ أي: من قريب ﴿يَقُولُونَ: وَيْ كَأَنَّ اللهَ يَبسُطُ﴾ يُوسِّع ﴿الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ويَقدِرُ﴾: يُضيّق على من يشاء. ووَيْ: اسم فعلٍ بمعنى: أعجبُ أي: أنا. والكاف: بمعنى اللام. ﴿لَولا أن مَنَّ اللهُ علَينا لَخَسَفَ بِنا﴾، بالبناء للفاعل والمفعول. ﴿وَيْ كَأَنَّهُ لا يُفلِحُ الكافِرُونَ﴾ لِنعمة الله كقارونَ.

٨٣ ـ ﴿تِلكَ الدّارُ الآخِرةُ﴾ أي: الجنّة ﴿نَجعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرضِ﴾ بالبغي ﴿ولا فَسادًا﴾ بعمل المعاصي، ﴿والعاقِبةُ﴾ المحمودة ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ عقابَ الله بعمل الطاعات..........

قولُه: (للتَّنبِيهِ) أو التَّقديرُ: يا قوم.

قولُه: (فِيهَا) الأظهرُ: منها.

قولُه: (لَهم) أي: للمتمنِّينَ.

قولُه: (زَجْرٍ) عمَّا لا يُرتَضى.

قولُه: (مِمَّا أُوتِيَ) بل من الدُّنيا وما فيها، بل لأَدنى أهلِ الجنَّةِ، بل لا مقابَلةَ بينهما.

قولُه: (أي: الجَنَّةَ) أو الثَّوابَ بمعنى المثوبَةِ.

قولُه: (وعَنِ المَعْصِيَةِ) وفي الفَقرِ والمصيبةِ.

قولُه: (مِنْهُ) أي: الممتَنِعينَ من الهلاكِ، أو المنتصِرينَ بنفسِهِ.

قولُه: (أيْ: مِنْ قَرِيبٍ) ولا يبعدُ حملهُ على الحقيقةِ.

قولُه: (بِمَعنَى: اللَّامِ) للتَّعليلِ، أو زائدةٌ.

قولُه: (للفَاعِلِ) حفصٌ[1]، فمفعولُهُ محذوفٌ؛ أي: لَخَسَفَ بنا الأرضَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٥).

٨٤ ـ ﴿مَن جاءَ بِالحَسَنةِ فلَهُ خَيرٌ مِنها﴾: ثوابٌ بسببها ـ وهو عشرُ أمثالها ـ ﴿ومَن جاءَ بِالسَّيِّئةِ فلا يُجزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

٨٥ ـ ﴿إنَّ الَّذِي فَرَضَ علَيكَ القُرآنَ﴾: أنزلَه ﴿لَرادُّكَ إلَى مَعادٍ﴾: إلى مكّة. وكان قد اشتاقها. ﴿قُلْ: رَبِّيَ أعلَمُ مَن جاءَ بِالهُدَى ومَن هُوَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾. نزل جوابًا لقول كُفّار مكّة له: «إنّكَ في ضَلالٍ» أي: فهو الجائي بالهدى، وهم في الضلال. وأعلم بمعنى: عالمٌ.

٨٦ ـ ﴿وما كُنتَ تَرجُو أن يُلقَى إلَيكَ الكِتابُ﴾: القُرآنُ. ﴿إلاّ﴾ لكنْ أُلقي إليك ﴿رَحمةً مِن رَبِّكَ. فلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾: مُعينًا ﴿لِلكافِرِينَ﴾ على دِينهم الذي دعَوك إليه، ٨٧ ـ ﴿ولا يَصُدُّنَّكَ﴾ ـ أصله «يَصُدُّونَنَّكَ» حُذفت نونُ الرفع للجازم، والواوُ الفاعلُ لإتيانها مع النون الساكنة ـ ﴿عَن آياتِ اللهِ، بَعدَ إذ أُنزِلَتْ إلَيكَ﴾ أي: لا تَرجِع إليهم في ذلك، ﴿وادعُ﴾ الناس ﴿إلَى رَبِّكَ﴾ بتوحيده وعبادته، ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشرِكِينَ﴾ بإعانتهم ـ ولم يؤثِّر الجازمُ في الفعل لبنائه ـ ٨٨ ـ ﴿ولا تَدعُ﴾: تعبدْ ﴿مَعَ اللهِ إلَـهًا آخَرَ. لا إلَـهَ إلاّ هُوَ، كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجهَهُ﴾: إلاّ إيّاه، ﴿لَهُ الحُكمُ﴾: القضاء النافذ، ﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بالنشور من القبور.

قولُه: (ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا) أو: خيرٌ منها قَدْراً وذاتاً ووَصفاً.

قولُه: (أَنْزَلَهُ) تفسيرٌ غريبٌ، والصَّوابُ: أوجَبَ عليك تلاوتَهُ وتبليغَهُ ومتابعتَهُ.

قولُه: (إِلَى مَكَّةَ) أو القيامةِ، أو المقامِ المحمودِ.

قولُه: (بِمَعْنَى: عَالِمٌ) لِمَا تقدَّمَ من أن أفعَلَ لا ينصبُ الظَّاهرَ، وقيلَ: بنزعِ الخافِضِ.

قولُه: (على دِينِهِم) أي: بمُداراتِهِم والتَّحمُّلِ عنهم، بل خالِفهُم ونابِذهُم، نقلَ محيي السُّنَّةِ: عن مقاتلٍ: أنَّه نزلَ حينَ دعيَ إلى دينِ آبائِهِ[1].

قولُه: (أيْ: لا تَرجِعْ) لا يظهرُ له معنًى، والمعنى الصَّحيحُ: لا يمنَعُنَّكَ عن قراءَتِها والعملِ بها.

قولُه: (بتَوحِيدِهِ) الباءُ لا وجهَ لها.

قولُه: (بإِعَانَتِهِم) وحقيقةُ الخِطابِ لأمَّتِهِ، أو هذا وما بعدَهُ للتَّهييجِ وقَطعِ أطماعِ المشركينَ عن مساعدَتِهِم.

قولُه: (تَعبُدْ) الدُّعاءُ على إطلاقِهِ أبلغُ.

قولُه: (إلَّا إيَّاهُ) أي: ذاتَهُ المقدَّسَ عن الفناءِ، فإنَّ ما عداهُ ممكنٌ هالِكٌ في حَدِّ ذاتِهِ معدومٌ، أو معناهُ: إلَّا ما أُريدَ به وجهُهُ؛ أي: كلُّ عملٍ لم يُرَد به وجهُ اللهِ فهو باطلٌ فانٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٥٤٨)، وذكره أيضاً الواحدي في «التفسير البسيط» (١٧/ ٤٧٨).

سورة القصص

مكيةٌ كلُّها على ما روي عن الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة. وقال مقاتل: فيها من المدنيِّ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٥]، فقد أخرج الطبرانيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت هي وآخِرُ «الحديد» في أصحاب النجاشيِّ الذين قَدِمُوا وشهدوا وقعةَ أحد[١].

وفي روايةٍ عنه رضي الله عنهما أنَّ الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة.

وقيل: نزلت بين مكة والجحفة.

وقال الداني[٢] في كتاب «العدد»: حدَّثني محمد، حدثنا عبد الله، قال: حدثني أبي، قال: حدثني علي بن الحسين، عن أحمد بن موسى، عن يحيى بن سلام قال: بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجِّهٌ من مكة إلى المدينة، فقال: أتشتاقُ يا محمد إلى بلدك التي وُلِدْتَ فيها؟ قال: «نعم» قال: (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) الآيةَ. وهي ثمان وثمانون آيةً بالاتِّفاق[٣].

ووجهُ مناسَبَتِها لِمَا قبلها اشتمالُها على شرح بعض ما أُجمل فيه من أمر موسى عليه السلام؛ قال الجلال السيوطيُّ: إنه سبحانه لمَّا حكى في «الشعراء» قولَ فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝

(١) المعجم الأوسط (٧٦٦٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢١: فيه مَن لم أعرفهم.
(٢) في (م): المدائني، وهو تصحيف.
(٣) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٢.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ إلى قول موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآيات: ١٨-٢١]، ثم حكى سبحانه في «طس» قولَ موسى عليه السلام لأهله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [الآية: ٧] إلى آخره، الذي هو في الوقوع بعد الفرار، وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال، فبَسَطَ جلَّ وعلا في هذه السورة ما أوجزه سبحانه في السورتين، وفصَّل تعالى شأنُه ما أَجْمَلَه فيهما على حسب ترتيبهما، فبدأ عزَّ وجلَّ بشرح تربية فرعونَ له مصدَّراً بسبب ذلك من علوِّ فرعون وذَبْحِ أبناء بني إسرائيل، الموجبِ لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليمِّ خوفاً عليه من الذبح، وبَسَطَ القصة في تربيته وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قَتَلَ القبطيَّ، إلى قَتْلِ القبطيِّ وهي الفَعْلَةُ التي فعل، إلى النمِّ عليه بذلك الموجبِ لفراره إلى مدين، إلى ما وقع له مع شعيب عليه السلام وتَزَوُّجِه بابنته، إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠]، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربِّه جلَّ جلالُه وبَعْثِه تعالى إياه رسولاً وما استتبع ذلك، إلى آخر القصة، فكانت هذه السورةُ شارحةً لِمَا أُجْمِلَ في السورتين معاً على الترتيب، وبذلك عُرِفَ وجهُ الحكمة من تقديم «طس» على هذه وتأخيرها عن «الشعراء»(١) في الذكر في المصحف، وكذا في النزول، فقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد أنَّ «الشعراء» نزلت، ثم «طس»، ثم «القصص».

وأيضاً قد ذَكر سبحانه في السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يومَ القيامة ما ذَكَر، وذَكَر جلَّ شأنُه في هذه من ذلك ما هو أبسط وأكثر مما تقدَّم.

وأيضاً ذكر عزَّ وجلَّ من أمر الليل والنهار هنا فوق ما ذكره سبحانه منه هناك.

وقد يقال في وجه المناسبة أيضاً: إنه تعالى فصَّل في تلك السورة أحوالَ بعض المُهْلَكين من قوم صالح وقوم لوط، وأَجْملَ هنا في قوله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ) الآيات.

وأيضاً بَسَط في الجملة هناك حالَ مَن جاء بالحسنة وحالَ مَن جاء بالسيئة،

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص٧١-٧٢.

وأَوْجَزَ سبحانه هنا حيث قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾، فلم يذكر عزَّ وجلَّ من حال الأوَّلين أمنَهم من الفزع، ومن حال الآخِرينَ كبَّ وجوههم في النار. إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمِّل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ قد مرَّ ما يتعلَّق به من الكلام في أشباهه. ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ بواسطة جبرائيل عليه السلام، فالإسنادُ مجازيٌّ كما في: بَنَى الأميرُ المدينة.

والتلاوةُ في كلامهم ـ على ما قال الراغب ـ تختصُّ باتِّباع كتب الله تعالى المنزَلةِ تارةً بالقراءة وتارةً بالارتسام لِمَا فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ أو ما يتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة[1].

ويجوزُ أن تكون التلاوةُ هنا مجازاً مرسلاً عن التنزيل بعلاقةِ أنَّ التنزيل لازمٌ لها أو سببها في الجملة، وأن تكون استعارةً له لِمَا بينهما من المشابَهةِ، فإنَّ كلًّا منهما طريقٌ للتبليغ، فالمعنى: نُنزلُ عليك ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: من خبرهما العجيب الشأن، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لمفعول «نتلو» المحذوف، أي: نتلو شيئاً كائناً من نبئهما.

والظاهر أنَّ «مِن» تبعيضية، وجوَّز بعضُهم كونَها بيانيةً، وكونَها صلةً على رأي الأخفش، فـ «نبأ» مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ[2] محلًّا مفعول «نتلو». ويوهمُ كلامُ بعضهم[3] أنَّ «من» هو المفعول، كأنه قيل: نتلو بعضَ نبأ، وفيه بحثٌ[4].

(١) مفردات الراغب (تلا).

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: منصوب، ينظر الدر المصون ٨/ ٦٤٩.

(٣) هو البيضاوي، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) جاء في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٦٢: «من نبأ موسى وفرعون»: بعضَ نبئهما مفعول «نتلو». قال الشهاب: جَعْلُ الحرف مفعولاً لا يوافق القواعد النحوية، فإما أن
=

وأيًّا ما كان فلا تجوُّز في كون النبأ متلوًّا لِمَا أنه نوعٌ من اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من فاعل «نتلو»، أي: نتلو ملتبسين بالحق، أو مفعولِه، أي: نتلو شيئاً من نبئهما ملتبساً بالحقِّ، أو وقع صفةً لمصدرِ «نتلو»، أي: نتلو تلاوةً ملتبسةً بالحق.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ متعلِّقٌ بـ «نتلو»، واللامُ للتعليل، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به، وقد تقدَّم الكلام في شمول «يؤمنون» للمؤمنين حالاً واستقبالاً في السورة السابقة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التفسير للمُجْمَلِ الموعود، وتصديرُه بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيقِ مضمونِ ما بعده، أي: إنَّ فرعون تجبَّر وطغى في أرض مصر، وجاوَزَ الحدود المعهودة في الظلم والعدوان.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً يشيِّعونه في كلِّ ما يريده من الشر والفساد، أو يشيِّع بعضُهم بعضاً في طاعته. أو: أصنافاً في استخدامه يستعمل كلَّ صنفٍ في عمل، من بناءٍ وحَرْثٍ وحَفْرٍ، وغيرِ ذلك من الأعمال الشاقَّة، ومَن لم يعمل ضَرَبَ عليه الجزيةَ فيخدمه بأدائها. أو: فِرَقاً مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاء لئلا تتفَّق كلمتهم.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ أي: يَجْعلهم(١) ضعفاء مقهورين، والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل، وعدُّهم من أهلها للتغليب، أو لأنهم كانوا فيها زماناً طويلاً.

والجملةُ إما استئنافٌ نحويٌّ، أو بيانيٌّ في جوابٍ: ماذا صنع بعد ذلك؟ وإما حالٌ من فاعل «جعل»، أو من مفعوله، وإما صفةٌ لـ «شيعاً». والتعبيرُ بالمضارع لحكاية الحال الماضية.

وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ بدلٌ من الجملة قبلها بدلَ

= يكون هذا ميلاً مع المعنى، أو يكون المراد أن مفعول «نتلو» محذوف، وهو «شيئاً»، ولما كان الجار والمجرور صفة له قائمة مقامه سمَّاه مفعولاً تسمُّحاً، كما جعلوا الظرف حالاً والحال في الحقيقة متعلَّقُه.

(١) في الأصل: بجعلهم.

اشتمال، أو تفسيرٌ، أو حالٌ من فاعلِ «يستضعف»، أو صفةٌ لـ «طائفة»، أو حالٌ منها لتخصُّصها بالوصف.

وكان ذلك منه لِمَا أنَّ كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ يذهب ملكُك على يده.

وقال السديُّ: إنه رأى في منامه أنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القِبْطَ وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه فقالوا: يخرج من هذا البلد رجلٌ يكون هلاكُ مصر على يده. فأخذ يفعل ما يفعل. ولا يخفَى أنه من الحمق بمكان، إذ لو صَدَق الكاهنُ أو الرؤيا فما فائدةُ القتل؟ وإلَّا فما وجهُه؟ وفي الآية دليلٌ على أنَّ قتل الأولاد لحِفْظِ الملك شريعةٌ فرعونية.

وقرأ أبو حيوة وابن محيصن: «يَذْبَحُ» بفتح الياء وسكون الذال[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة مِن قَتْلِ مَن لا جنحةَ له من ذراري الأنبياء عليهم السلام لتخيُّلٍ فاسد.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي: نتفضَّلَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم من بأسه، وصيغةُ المضارع في «نريدُ» لحكاية الحال الماضية، وأمَّا «نمنَّ» فمستقبلٌ بالنسبة للإرادة فلا حاجةَ لتأويله، وهو[2] معطوفٌ على قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا) إلخ لتناسُبِهما في الوقوع في حيِّز التفسير للنبأ، وهذا هو الظاهر.

وجوِّز أن تكون الجملة حالاً من مفعول «يستضعف» بتقديرِ مبتدأ، أي: يستضعفُهم فرعونُ ونحن نريد أن نمنَّ عليهم، وقدِّر المبتدأ ليجُوز التصدير بالواو.

وجوِّز أن يكون حالاً من الفاعل بتقديرِ المبتدأ أيضاً، وخلوُّها عن العائد عليه وما يقوم مقامه لا يضرُّ؛ لأن الجملة الحالية إذا كانت اسميةً يكفي في ربطها الواو، وضعِّف بأنه لا شبهة في استهجان ذلك مع حذف المبتدأ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، والبحر ٧/ ١٠٤.
(٢) أي: «نريد» كما في الكشاف ٣/ ١٦٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٦٣.

وتعقُّب القول بصحة الحالية مطلقاً بأنَّ الأصل في الحال المقارَنةُ، والمنُّ بعد الاستضعاف بكثير.

وأجيب بأنَّ الحال ليس المنُّ بل إرادتُه وهي مقارِنةٌ، وتعلُّقها إنما هو بوقوع المنِّ في الاستقبال، فلا يلزم من مقارنتها مقارنتُه، على أنَّ منَّ الله تعالى عليهم بالخلاص لمَّا كان في شرف الوقوع جاز إجراؤه مجرى الواقع المقارِن للاستضعاف، وإذا جُعِلَتِ الحالُ مقدَّرةً يرتفعُ القيلُ والقال(١).

وجوَّز بعضُهم عَطْفَ ذلك على «نتلو» و«يستضعف»، وقال الزمخشريُّ: هو غيرُ سديد(٢). ووجَّه ذلك في «الكشف» بقوله: أمَّا الأول فلمَا يلزم أن يكون خارجاً عن المنبَّأ به وهو أعظمُه وأهمه، وأمَّا الثاني فلأنه إما حالٌ عن ضمير «جعل» أو عن مفعوله، أو صفةٌ لـ «شيعاً»، أو كلامٌ مستأنفٌ، وعلى الأوَّلين [هو](٣) ظاهرُ الامتناع، وعلى الثالث أظهر؛ إذ لا مدخل لذلك في الجواب عن السؤال الذي يعطيه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ والعطفُ يقتضي الاشتراك.

لكن للعطف على «يستضعف» مساغٌ على تقدير الوصف، والمعنى: جعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ونريد أن نمن عليهم منهم، أي: على الطائفة من الشيع، فأُقيم المظهَرُ مقام المضمَرِ الراجعِ إلى الطائفة وحُذف الراجعُ إلى الشيع للعلم، كأنه قيل: يستضعفُهم ونريد أنْ نقوِّيهم، كما زعم الزمخشريُّ في الوجه الذي جعله حالاً عن مفعول «يستضعف»(٤)، والحاصل: شيعاً موصوفين باستضعافِ طائفةٍ وإرادةِ المنِّ على تلك الطائفة منهم بدَفْعِ الضَّعف.

فإنْ قلتَ: يدفعُه أنَّ العلم بالصفة الثانية لم يكن حاصلاً بخلافِ الأولى.

قلنا: كذلك لم يكن حاصلاً باستضعافٍ مقيَّدٍ بحالِ الإرادة. والحقُّ أنَّ الوجهين يضعفان لذلك، وإنما أوردناه على الزمخشريِّ لتجويزه الحال. انتهى.

---

(١) في (م): والمقال.
(٢) الكشاف ٣/ ١٦٥.
(٣) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٦٣.
(٤) الكشاف ٣/ ١٦٥.

وأُورِدَ عليه أنَّ للعطف عليه على تقدير كونه حالاً[١] مساغاً أيضاً بعين ما ذكره، فلا وجه للتخصيص بالوصفية، وأنَّ عدم حصول العلم بالصفة الثانية بعد تسليم اشتراط العلم بالصفة مطلقاً غيرُ مسلَّم، فإنَّ سبب العلم بالأولى ـ وهو الوحي أو خبرُ أهل الكتاب ـ يجوز أن يكون سبباً للعلم بالثانية. وأيضاً يجوز أن يخصِّص جوازُ حاليةِ «ونريد» إلخ باحتمالِ الاستئناف والحاليةِ في «يستضعف» دون الوصف، فلا يكون مشتركَ الإلزام.

وفيه أنَّ احتمال الحالية من المفعول لم يذكره الزمخشريُّ، فلذا لم يلتفت صاحب «الكشف» إلى أنَّ للعطف عليه مساغاً، وأنَّ اشتراط العلم بالصفة مما صرَّح به في مواضع من «الكشاف»، والكلام معه، وأنَّ العلم بصفة الاستضعاف لكونه مفسَّراً بالذبح والاستحياء وذلك معلومٌ بالمشاهَدة، وليس سببُ العلم ما ذُكر من الوحي أو خبر أهل الكتاب، وفي هذا نظر.

والإنصافُ أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ إلخ لا يظهر كونُه بياناً لنبأ موسى عليه السلام وفرعونَ معاً على شيءٍ من الاحتمالات ظهورَه على احتمال العطف على «إنَّ فرعون» وإدخاله في حيِّز البيان، وإلَّا فالظاهرُ من «إنَّ فرعون» إلخ بدون هذا المعطوف أنه بيانٌ لنبأ فرعون فقط، فتأمَّل.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ مقتدًى بهم في الدِّين والدنيا على ما في «البحر»[٢]. وقال مجاهد: دعاةً إلى الخير. وقال قتادة: ولاةً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] وقال الضحاك: أنبياء. وأيًّا ما كان ففيه نسبةُ ما للبعض إلى الكلِّ.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ لجميع ما كان منتظماً في سِلْكِ مُلْكِ فرعون وقومِه على أكمل وجهٍ، كما يومئُ إليه التعريف، وذلك بأنْ لا ينازعهم أحدٌ فيه.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مصر، وأصلُ التمكين أن تَجعل للشيء[٣] مكاناً يتمكَّن فيه، ثم استُعير للتسليط وإطلاق الأمر، وشاع في ذلك حتى

(١) أي: من المفعول، كما في حاشية الشهاب ٧/ ٦٣، والكلام منه.
(٢) ٧/ ١٠٤، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أقوال.
(٣) في الأصل و(م): أن يجعل الشيء، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٦٣، وتفسير أبي السعود ٧/ ٣.

صار حقيقةً لغوية، فالمعنى: نسلطهم على أرض مصر يتصرَّفون ويَنفُذُ أمرُهم فيها كيفما يشاؤون، وظاهرُ كلام بعضهم أنَّ المراد بالأرض ما يعمُّ مصر والشام مع أنَّ المعهود هو أرضُ مصر لا غير، وكأنَّ ذلك لِمَا أنَّ الشام مقرُّ بني إسرائيل.

وقرأ الأعمش: «ولنمكِّن» بلام «كي»(١)، أي: وأَردْنا ذلك لنمكِّن، أو: ولنمكِّن فَعَلْنا ذلك.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ إضافةُ الجنود إلى ضميرهما إمَّا للتغليب، أو لأنه كان لهامان جندٌ مخصوصون به وإن كان وزيراً، أو لأنَّ جند السلطان جندُ الوزير.

و«نري» من الرؤية البصرية على ما هو المناسب للبلاغة. وجوِّز أن يكون من الرؤية القلبية التي هي بمعنى المعرفة، وعلى الوجهين هو ناصبٌ لمفعولين لمكان الهمزة، فـ «فرعون» وما عُطف عليه مفعولُه الأول، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم﴾ أي: من أولئك المستضعفين متعلِّقٌ به، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ أي: يتوقَّوْنَ من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولودٍ منهم، مفعولُه الثاني، والرؤية على تقدير كونها بصريةً لمقدمات ذلك وعلاماتِه في الحقيقة، لكنها جُعِلتْ له مبالغةً، ومثلُه مستفيضٌ بينهم حتى يقال: رأى موته بعينه، وشاهد هلاكه، وعليه قولُ بعض المتأخِّرين:

أبكاني البينُ حتى رأيتُ غَسْلي بعيني(٢)

وقيل: المرادُ رؤيةُ وقتِ ذلك. وليس بذاك.

والأمرُ على تقدير كونها بمعنى المعرفة ظاهرٌ؛ لأنهم قد عرفوا ذهاب ملكهم وهلاكَهم؛ لِمَا شاهدوه من ظهور أولئك المستضعَفِينَ عليهم، وطلوعِ طلائعه من طرق خذلانهم.

وفسَّر بعضهم الموصول بظهور موسى عليه السلام، وهو خلافُ الظاهر المؤيِّدِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، والبحر ٧/ ١٠٥.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٦٤، وعزاه في المستطرف ٢/ ٩٢ للموصلي برواية:

ووجنةُ الخدِّ قالت رأيتُ غَسْلي بعيني

بالآثار، وكأنَّ ذلك منه لخفاءِ وجهِ تعلُّق رؤية فرعون ومَن معه بذهاب ملكهم وهلكهم عليه، وقد علمتَ وجهه.

وقرأ عبد الله وحمزةُ والكسائيُّ: «ويَرَى» بالياء مضارع رأى، و«فرعونُ» بالرفع على الفاعلية، وكذا ما عُطِفَ عليه(١).

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ قيل: هي محيانةُ بنتُ يصهر بنِ لاوي. وقيل: يوخابذ. وقيل: يارخا. وقيل: يارخت. وقيل غيرُ ذلك.

والظاهرُ أنَّ الإيحاء إليها كان بإرسالِ مَلَكٍ، ولا ينافي حكايةَ أبي حيان(٢) الإجماعَ على عدم نبوَّتها؛ لِمَا أنَّ الملائكة عليهم السلام قد تُرْسَلُ إلى غير الأنبياء وتكلِّمُهم، وإلى هذا ذهب قطرب وجماعةٌ. وقال مقاتل منهم: إنَّ المَلَكَ المرسَلَ إليها هو جبريلُ عليه السلام.

وعن ابن عباس وقتادةَ أنه كان إلهاماً، ولا يأباه قولُه تعالى: (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ) نعم هو أوفق بالأول.

وقال قوم: إنه كان رؤيا منامٍ صادقةً قُصَّ فيها أَمْرُه عليه السلام، وأوقع الله تعالى في قلبها اليقين. وحُكي عن الجبائيِّ أنها رأت في ذلك رؤيا، فقصَّتْها على مَن تثقُ به من علماء بني إسرائيل فعبرها لها.

وقيل: كان بإخبارِ نبيٍّ في عصرها إياها.

والظاهر أنَّ هذا الإيحاءَ كان بعد الولادة، وفي الأخبار ما يشهدُ له، فيكون في الكلام جملةٌ محذوفة، وكأنَّ التقدير والله تعالى أعلم: وَوَضَعتْ موسى أمُّه في زمن الذبح، فلم تَدْرِ ما تصنعُ في أمره، وأوحينا إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

وقيل: كان قبل الولادة.

---

(١) التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤١ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، وأمالوا فتحة الراء في «يرى»، وذكرها عن عبد الله بن مسعود ﷺ أبو حيان في البحر ٧/ ١٠٥.

(٢) في البحر ٧/ ١٠٥.

و«أنْ» تفسيرية أو مصدرية، والمراد: أنْ أرضعيه ما أَمْكَنك إخفاؤه، وقرأ عمر بن عبد الواحد وعمر بن عبد العزيز: «أنِ ارْضِعيه» بكَسْرِ النون بعد حذف الهمزة على غيرِ قياسٍ[1]؛ لأنَّ القياس فيه نقلُ حركتها وهي الفتحةُ إلى النون كما في قراءة ورش[2].

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء، أو من الجيران ونحوِهم أن ينمُّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر، والمرادُ به النيل، ويسمَّى مثلُه بحراً وإن غلب في غير العَذْبِ.

﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعةً أو شدَّةً من عدم رضاعه في سنِّ الرضاع ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ من مفارقتِك إياه.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريبٍ بحيث تأمنين عليه، ويومئُ إلى القُرْبِ السياقُ. وقيل: التعبيرُ باسم الفاعل لأنه حقيقةٌ في الحال، ويعتبر لذلك في قوله سبحانه: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ ولا يضرُّ تفاوتُ القُرْبَيْنِ.

والجملة تعليلٌ للنهي عن الخوف والحزن، وإيثارُ الجملة الاسمية وتصديرُها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إنَّا فاعلون ردَّه وجَعْلَه من المرسلين لا محالة.

واستَفْصَحَ الأصمعيُّ امرأةً من العرب أنشدت شعراً فقالت: أَبَعْدَ قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ) الآيةَ فصاحةٌ، وقد جمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحةٌ، والتقدير: ففعلَتْ ما أُمرت به من إرضاعه وإلقائه في اليمِّ لمَّا خافت عليه، وحُذِفَ ما حُذِفَ تعويلاً على دلالة الحال، وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال. روي أنَّها لمَّا ضربها الطَّلْقُ دَعَتْ قابلةً من الموكَّلات بحبالَى بني إسرائيل فعالجتها، فلمَّا وقع موسى عليه السلام على الأرض هالها نورٌ بين عينيه، وارْتَعَشَ كلُّ مَفْصِلٍ منها، ودخل حبُّه قلبها بحيث منعها من السعاية، فقالت لأمِّه: احفظيه. فلمَّا خرجت جاء عيون فرعون، فلفَّته في

(١) المحتسب ٢/ ١٤٧، والبحر ٧/ ١٠٥، والكلام منه.
(٢) التيسير ص٣٥.

خرقةٍ وألقته في تنُّورٍ مسجورٍ، لم تَعلم ما تصنعُ لِمَا طاش من عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النارَ عليه برداً وسلاماً فأخذته، فلمَّا ألحَّ فرعونُ في طلب الولدان واجتهد العيونُ في تفحُّصِها أوحى الله تعالى إليها ما أوحى، وأرضعته ثلاثةَ أشهر، أو أربعةً، أو ثمانيةً، على اختلاف الروايات، فلمَّا خافت عليه عمدتْ إلى بَرْدِيٍّ[1] فصنعت منه تابوتاً، أي: صندوقاً، فطلته بالقار من داخله.

وعن السديِّ أنها دعت نجاراً، فصنع لها تابوتاً، وجعلت مفتاحه من داخلٍ، ووضعت موسى عليه السلام فيه وألقته في النيل بين أحجارٍ عند بيت فرعون، فخرج جواري آسيةَ امرأةِ فرعونَ يغتسلن فوجَدْنَه، فأَدخَلنه إليها وظننَّ أنَّ فيه مالاً، فلمَّا فَتَحْنَه رأته آسية ووقعت عليه رحمتُها فأحبَّته، وأراد فرعونُ قتله فلم تَزَلْ تكلِّمه حتى تَرَكه لها.

وروي عن ابن عباس وغيره أنه كان لفرعون يومئذ بنتٌ لم يكن له ولدٌ غيرُها، وكانت من أكرم الناس إليه، وكان بها برصٌ شديدٌ أعيا الأطباء، وكان قد ذُكر له أنها لا تبرأُ إلا من قِبَلِ البحر يؤخذ منه شبهُ الإنس يوم كذا من شهر كذا حين تُشْرقُ الشمس، فيؤخَذ من ريقه فيلطَّخ به برصُها فتبرأ، فلمَّا كان ذلك اليوم غدا فرعونُ في مجلسٍ له على شفير النيل ومعه امرأتُه آسية، وأقبلت بنتُه في جواريها حتى جلست على شاطئ النيل، فإذا بتابوتٍ تضربُه الأمواج فتعلَّق بشجرةٍ، فقال فرعون: ائتوني به. فابتَدَروا بالسفن فأحضروه بين يديه، فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه، وقَصَدوا كَسْره فأعياهم، فنظرت آسيةُ فكشفت لها عن نورٍ في جوفه لم يره غيرُها، فعالجته ففتحته، فإذا صبيٌّ صغيرٌ فيه وله نورٌ بين عينيه وهو يمصُّ إبهامه لبناً، فألقى الله تعالى محبَّته عليه السلام في قلبها وقلوبِ القوم، وعمدت بنتُ فرعون إلى ريقه فلطَّخَتْ به بَرَصَها فبرأت من ساعتها.

وقيل: لمَّا نظرت إلى وجهه برأت، فقالت الغواةُ من قوم فرعون: إنَّا نظنُّ أنَّ هذا هو الذي تَحذَرُ منه، رُمي في البحر خوفاً منك فاقتله، فهمَّ أن يقتله فاستوهبته

---

(١) نبات كالقصب تصنع منه الحُصُر، وكان قدماء المصريين يصنعون منه الورق. المعجم الوسيط (برد).

آسيةُ فتركه كما سيأتي إن شاء الله تعالى. والأخبارُ في هذه القصة كثيرةٌ، وقد قدَّمنا منها ما قدَّمنا.

و«آلُ فرعون» أتباعُه، وقولُهم: إنَّ الآلَ لا يُستعمل إلا فيما فيه شَرَفٌ مبنيٌّ على الغالب، أو الشرف فيه أعمُّ من الشرف الحقيقيِّ والصوريِّ، ومعنى التقاطِهم إياه عليه السلام أخذُهم إياه عليه السلام أَخْذَ اللُّقَطة، أي: أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضياع.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فيه استعارةٌ تهكُّميةٌ ضرورةَ أنه لم يَدْعُهم للالتقاط أن يكون لهم عدوًّا وحَزَناً، وإنما دعاهم شيءٌ آخَرُ كالتبنِّي ونَفْعِه إياهم إذا كبر.

وفي تحقيق ذلك أقوال:

الأول: أنْ يشبَّه كونُه عدوًّا وحَزَناً بالعلَّة الغائية كالتبنِّي والنفع تشبيهاً مضمَراً في النفس، ولم يصرَّح بغير المشبَّهِ، ويدلُّ على ذلك بذِكْرِ ما يَخُصُّ المشبَّه به وهو لامُ التعليل، فيكون هناك استعارةٌ مكنيةٌ أصليةٌ في المجرور، واللامُ على حقيقتها.

الثاني: أن يشبَّه أوَّلاً ترتُّبُ غيرِ العلَّة الغائية بترتُّبِ العلَّة الغائية، أي: يعتبر التشبيهُ بين الترتُّبين الكلِّيين ليسريَ في جزئياتهما فيتحقَّقَ تبعاً تشبيهُ ترتُّبِ كونه عدوًّا وحَزَناً - أعني الترتُّبَ المخصوصَ على الالتقاط - بترتُّب التبنِّي ونحوِه مما هو علَّةٌ غائيةٌ، أعني الترتُّبَ المخصوصَ أيضاً عليه، ثم يستعمل في المشبَّه اللامُ الموضوعةُ للدلالة على ترتُّب العلَّة الغائية الذي هو المشبَّه به، فتكون الاستعارةُ أوَّلاً في العلِّية والغَرَضية، وتبعاً في اللام، فصار حُكْمُ اللام حُكْمَ الأسد حيث استُعيرت لِما يُشْبِهُ العلَّة كما استُعير الأسد لما يُشْبِهُ الأسد، بيد أنَّ الاستعارة ها هنا مكنيةٌ تبعيةٌ.

الثالث: ما أفاده كلامُ الخطيب الدمشقيِّ[1] في «التلخيص» و«الإيضاح»، وهو أن يقدَّر التشبيهُ أوَّلاً لكونه عدوًّا وحَزَناً بالعلَّة الغائية، ثم يسرى ذلك التشبيهُ إلى

---

(١) هو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق، والمتوفى سنة (٧٣٩هـ)، له: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، ثم صنف كتاباً آخر في هذا الفن وسماه: الإيضاح في المعاني والبيان، وجعله كالشرح على التلخيص. كشف الظنون ١/ ٢١٠ و٤٧٣.

تشبيه ترتُّبه بترتُّبِ العلَّة الغائية، فتستعارُ اللامُ الموضوعةُ لترتُّب العلة الغائية لترتُّب كونه عدوًّا وحَزَناً من غير استعارةٍ في المجرور، وهذا التشبيهُ كتشبيه الربيع بالقادر المختار ثم إسنادِ الإنبات إليه. وهو مفادُ كلام «الكشاف»[١]، واختار ذلك العلَّامةُ عبد الحكيم[٢]، فقال: وهو الحقُّ عندي؛ لأنَّ اللام لمَّا كان معناها محتاجاً إلى ذكر المجرور كان اللائقُ أن تكون الاستعارةُ والتشبيهُ فيها تابعاً لتشبيه المجرور، لا تابعاً لتشبيه معنىً كلِّيٍّ بمعنًى كلِّيٍّ معنى الحرفِ من جزئياته، كما ذهب إليه السكاكيُّ[٣] وتبعه العلَّامة التفتازانيُّ. انتهى فتأمَّل.

واستشكل أصل تعليل الالتقاط بأنَّ الالتقاط الوجدانُ من غير قصدٍ، والتعليل يقتضي حقيقةَ القصد. وهو توهُّم؛ لأنَّ الوجدان من غير قصد لا ينافي قَصْدَ أَخْذِ ما وُجِدَ لغرضٍ، وقد علمتَ أنَّ المعنى هنا: فأخذه أَخْذَ اللُّقطة ـ أي: أَخْذَ اعتناءٍ به ـ آلُ فرعون ليكون.. إلخ، والتعليلُ فيه إنما هو للأَخْذِ ولا إشكالَ فيه.

وقال بعضهم: يحتملُ تعلُّقُ اللام بمقدَّرٍ[٤]، أي: قدَّرنا الالتقاطَ ليكون.. إلخ، وعليه لا تجوُّز في الكلام إلَّا عند مَن يقول: إنَّ أفعال الله تعالى لا تعلَّل، وهو أمرٌ غير ما نحن فيه. ولا يخفى أنَّ كلام الله سبحانه أجلُّ وأعلى من أن يُعتبر فيه مثلُ هذا الاحتمال.

وفي جَعْلِه عليه السلام نفسَ الحَزَنِ مالا يخفى من المبالغة.

وقرأ ابن وثابٍ والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ وابن سعدان: «حُزْناً» بضمِّ الحاء وسكون الزاي[٥]، وقراءة الجمهور بفتحتين لغة قريش.

---

(١) ينظر الكشاف ٣/ ١٦٦.

(٢) ابن شمس الدين الهندي السيالكوتي، له: حاشية على مطول السعد ومختصره، وهما من أشهر شروح تلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني، وله أيضاً حاشية على تفسير البيضاوي على بعض سورة البقرة، وحاشية على شرح العقائد النسفية للسعد، وغيرها، وكانت وفاته في نيف وستين وألف. خلاصة الأثر ٢/ ٣١٨.

(٣) ينظر مفتاح العلوم ص٣٨٢.

(٤) في (م): بمقدار، وهو تصحيف.

(٥) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر ٧/ ١٠٥.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ⑧﴾ في كل ما يأتون وما يَذَرون، أو: من شأنهم الخطأ، فليس بِبِدْعٍ منهم أن قتلوا ألوفاً لأَجْلِه ثم أخذوه يربُّونه ليَكْبُرَ ويَفْعَلَ بهم ما كانوا يَحْذَرون، روي أنه ذُبح في طلبه عليه السلام تسعون ألفَ وليدٍ، و«خاطئين» على هذا من الخطأ في الرأي.

ويجوز أن يكون من خَطِئَ بمعنى: أذنب، وفي «الأساس» يقال: خطئ خطأً، إذا تعمَّد الذنب[1]. والمعنى: وكانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم.

والجملة على الأول اعتراضٌ بين المتعاطفين لتأكيد خطئهم المفهومِ من قوله تعالى: (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) فإنه كما سمعتَ استعارةٌ تهكُّميةٌ. وعلى الثاني اعتراضٌ لتأكيد ذنبهم المفهومِ من حاصل الكلام، وقيل: يتعيَّن عليه أن تكون اعتراضاً لبيان الموجب لِمَا ابتُلوا به، ويحتمل على هذا أن تكون استئنافاً بيانيًّا إن أريد بما ابتُلوا به كونُه عدوًّا وحزناً، وهو لا ينافي الاعتراض عندهم.

وقرئ: «خاطين» بغير همزٍ[2]، فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحُذفت، وهو الظاهر. وقيل: هو من خطا يخطو، أي: خاطين الصواب إلى ضدِّه، فهو مجازٌ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ آسيةُ بنتُ مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعونَ مصر في زمن يوسف الصدِّيق عليه السلام، وعلى هذا لم تكن من بني إسرائيل. وقيل: كانت منهم من سبط موسى عليه السلام. وحكى السهيليُّ[3] أنها كانت عمَّته عليه السلام، وهو قولٌ غريبٌ، والمشهورُ القولُ الأول.

والجملة عطفٌ على جملة «فالتقطه آل فرعون»، أي: وقالت امرأةُ فرعون له حين أخرجته من التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي: هو قرةُ عينٍ كائنةٌ لي ولك،

(١) أساس البلاغة (خطأ).
(٢) وهي قراءة أبي جعفر، وقرأ حمزة وقفاً بالحذف والتسهيل. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص٢٣٩.
(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٠.

على أنَّ «قرة» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والظرف في موضع الصفة له. ويَبعُدُ كما في «البحر»[١] أن يكون مبتدأ خبرُه جملةُ قولِه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

وقالت ذلك لِمَا أَلْقَى الله تعالى من محبته في قلبها، أو لِمَا كُشِفَ لها فرأته من النور بين عينيه، أو لِمَا شاهدته من برء بنت فرعون من البرص بريقه، أو بمجرد النظر إلى وجهه.

ولتفخيم شأن القرَّة عدلت عن: لنا، إلى «لي ولك»، وكأنها لِمَا تعلمُ من مزيدِ حبِّ فرعون إياها، وأنَّ مصلحتها أهمُّ عنده من مصلحة نفسِه قدَّمت نفسها عليه، فيكون ذلك أبلغَ في ترغيبه بترك قتله، فلا يقال: إنَّ الأظهر في الترغيب بذلك العكسُ. وقد يُستأنس لكون مصلحتها أهمَّ عنده من مصلحةِ نَفْسِه ما أخرجه النسائيُّ عن ابن عباس ﵄ أنها حين قالت له ذلك، قال: لكِ لا لي. ولو قال: لي كما هو لك، لهداه الله تعالى كما هداها[٢]، وهذا أمرٌ فرضيٌّ فلا ينافي ما ورد من أنه عليه اللعنةُ طبع كافراً.

والخطاب في «لا تقتلوه» قيل: لفرعون، وإسنادُ الفعل إليه مجازيٌّ لأنه الآمرُ، والجمعُ للتعظيم، وكونُه لا يوجد في كلام العرب الموثوقِ بهم إلَّا في ضمير المتكلِّم كفَعَلْنا مما تفرَّد به الرضيُّ وقلَّده فيه مَن قلَّده، وهو لا أصلَ له روايةً ودرايةً؛ قال أبو عليٍّ الفارسيُّ في «فقه اللغة»[٣]: من سَنَنِ العرب مخاطبةُ الواحد

---

(١) ٧/ ١٠٦.

(٢) سنن النسائي الكبرى (١١٢٦٣)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٦١٨)، ولفظه فيهما: ... فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي. فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلَفُ به لو أقرَّ فرعون أن يكون له قرةَ عين كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن الله حَرَمه ذلك»، وهو قطعة من خبر طويل جدًّا، ذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٤٠) من سورة «طه» ثم قال: وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل، وكأنه تلقَّاه ابن عباس مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٦: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان.

(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٥، والصواب: ابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة، والكلام فيه ص٣٥٣.

بلَفْظِ الجمع، فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري. وهكذا في «سرِّ الأدب»[١]، و«خصائص» ابن جنِّي، وهو مجازٌ بليغٌ، وفي القرآن الكريم منه ما الْتِزامُ تأويله سَفَهٌ.

وقيل: هو لفرعون وأعوانِه الحاضرين، ورُجِّح بما رُوي: أنَّ غواة قومه قالوا وقتَ إخراجه: هذا هو الصبيُّ الذي كنَّا نَحْذَرُ منه، فَأْذَنْ لنا في قتله.

وقيل: هو له ولمن يُخشى منه القتلُ - وإن لم يحضر - على التغليب.

واختار بعضُهم كونَه للمأمورين بقتل الصبيان، كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفُه على موسى عليه السلام أَمِنَتْ منه بادرةَ أمرٍ[٢] جديدٍ بقتله، فالتفتت إلى خطاب المأمورين قبلُ فنَهتْهم عن قتله معلِّلةً ذلك بقوله تعالى المحكيِّ عنها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهو أوفقُ باختلاف الأسلوب، حيث فصَّلَتْ أوَّلاً في قولها: «لي ولك»، وأَفْردَتْ ضمير خطاب فرعون، ثم خاطبت وجَمعَتْ الضمير في «لا تقتلوه»، ثم تركت التفصيل في «عسى أن ينفعنا» إلخ، ولم تأتِ به على طرزِ «قرَّة عينٍ لي ولك» بأن تقول: عسى أن ينفعني وينفعك - مثلاً - فتأمل.

ورجاءُ نَفْعِه لِمَا رأت فيه من مخايل البركة ودلائل النجابة:

في المهد ينطقُ عن سعادة جدِّه ... أثرُ النجابة ساطعَ البرهان

واتخاذُه ولداً لأنه لائقٌ لتبنِّي الملوك لِمَا فيه من الأُبَّهةِ. وعطفُ هذا على ما قبله من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، أو تُعتبر بينهما المغايرةُ، وهو الأنسب بـ «أو».

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ حالٌ من «آل فرعون»، والتقديرُ: فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدوًّا وحَزَناً، وقالت امرأته له كيتَ وكيتَ، وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا.

وقال قتادةُ: لا يشعرون أنه الذي يَفْسُدُ ملكُهم على يده.

وقال مجاهد: أنه عدوٌّ لهم.

---

(١) سر الأدب في مجاري كلام العرب، لأبي منصور الثعالبي. كشف الظنون ٢/ ٩٨٥. وذكره الثعالبي أيضاً في فقه اللغة وسرّ العربية ص٢٩٩-٣٠٠، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٦٥.

(٢) في (م): أمن.

وقال محمد بن إسحاق: أنِّي أفعل ما أريد لا ما يريدون. والتقديرُ الأول أجمعُ.

وجوِّز كونُه حالاً من القائلة والمقولِ له معاً، والمراد بالجمع اثنان على احتمالِ كونِ الخطاب في «لا تقتلوه» لفرعون فقط. وكونُه حالاً من القائلة فقط، أي: قالت امرأة فرعون له ذلك والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقالتها له واستعطافِ قلبها عليه لئلا يُغْروه بقتله. وعلى الاحتمالات الثلاثة هو من كلام الله تعالى.

وجوِّز كونُه حالاً من أحد ضميري «نتَّخذه» على أنَّ الضمير للناس لا لذي الحال؛ إذ يكفي الواوُ للربط، أي: نتَّخذه ولداً والناسُ لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنَّيناه، فيكون من كلام آسية رضي الله عنها.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي: صار خالياً من كلِّ شيءٍ غيرِ ذِكْرِ موسى عليه السلام؛ أخرجه الفريابيُّ وابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس[١]، وروي ذلك أيضاً عن ابن مسعود والحسن ومجاهد، ونحوُه عن عكرمة.

وقالت فرقة: فارغاً من الصبر.

وقال ابن زيد: فارغاً من وعد الله تعالى ووحيه سبحانه إليها، تناست ذلك من الهمِّ.

وقال أبو عبيدة[٢]: فارغاً من الهمِّ؛ إذ لم يغرق وسمعتْ أنَّ فرعون عَطَفَ عليه وتبنَّاه، كما يقال: فلانٌ فارغُ البال.

وقال بعضهم: فارغاً من العقل؛ لِمَا دَهَمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوِّه فرعونَ، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: خلاءٌ لا عقولَ فيها.

واعترض على القولين بأنَّ الكلام عليهما لا يلائم ما بعده، وفيه نظر.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/١٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/٢٩٤٦، والمستدرك ٢/٤٠٦، وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/١٢١.

(٢) في مجاز القرآن ٢/٩٨ بنحوه.

وقرأ أحمد بن موسى عن أبي عمرو: «فواد» بالواو(١)، وقرئ: «مؤسى» بهمزةٍ بدل الواو(٢).

وقرأ فضالةُ بن عبيد والحسن ويزيد بن قطيب وأبو زرعة بن عمرو بن جرير: «فَزِعاً» بالزاي والعين المهملة من الفزع(٣)، وهو الخوفُ والقلق.

وابن عباس: «قَرِعاً» بالقاف وكسر الراء وإسكانها، من قَرِعَ رأسُه: إذا انحسر شعرُه، كأنه خلا من كلِّ شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام. وقيل: «قَرْعاً» بالسكون مصدر، أي: يَقْرَعُ قَرْعاً، من القارعة، وهو الهمُّ العظيم(٤).

وقرأ بعض الصحابة: «فِزْغاً» بفاءٍ مكسورةٍ وزاي ساكنةٍ وغينٍ معجَمةٍ، ومعناه: ذاهباً هدراً. والمراد: هالكاً من شدة الهمِّ كأنه قتيلٌ لا قَوَدَ ولا دِيَةَ فيه، ومنه قولُ طليحة الأسديِّ في أخيه حبال:

فإن يكُ قبلي قد أُصيبتْ نفوسُهم فلن يذهبوا فِزْغاً بقتل حبالِ(٥)

وقرأ الخليل بن أحمد: «فُرُغاً» بضم الفاء والراء(٦).

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: إنها كادت.. إلخ، على أنَّ «إنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة. أو: ما كادت إلَّا تُبدي به، على أنَّ «إنْ» نافية واللام بمعنى «إلَّا»، وهو قولٌ كوفيٌّ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٦، وهي قراءة ورش من طريق الأصبهاني، وبها قرأ حمزة وقفاً، والمشهور عن أبي عمرو القراءة بالهمز. النشر ١/ ٣٩٥، والبدور الزاهرة ص٢٣٩.

(٢) المحتسب ٢/ ١٤٨، والكشاف ٣/ ١٦٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١١١، والمحتسب ٢/ ١٤٧، والبحر ٧/ ١٠٧، والكلام منه.

(٤) البحر ٧/ ١٠٧، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١١، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٨.

(٥) كذا ذكر المصنف، ومثله في البحر ٧/ ١٠٧، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٤٨، والكشاف ٣/ ١٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨، والدر المصون ٨/ ٦٥٣، وحاشية الشهاب ٧/ ٦٥ بالراء المهملة بدلاً من الزاي، وذكروا البيت بالراء المهملة أيضاً شاهداً عليها. وكذا ورد في مادة (فرغ) في العين ٤/ ٤٠٩، وتهذيب اللغة ٨/ ١١٠، واللسان.

(٦) البحر ٧/ ١٠٧، وهي في كتاب العين ٤/ ٤٠٨.

والإبداء: إظهارُ الشيء، وتعديتُه بالباء لتضمينه معنى التصريح.

وقيل: المفعولُ محذوفٌ والباءُ سببيةٌ، أي: تُبدي حقيقةَ الحال بسببه، أي: بسبب ما عراها من فراقه. وقيل: هي صلة، أي: تُبديه. وكِلَا القولين كما ترى.

والظاهر أنَّ الضمير المجرور لموسى عليه السلام، والمعنى أنها كادت تصرِّحُ به عليه السلام وتقول: واابناه، من شدة الغمِّ والوَجْدِ. رواه الجماعة عن ابن عباس(١)، وروي ذلك أيضاً عن قتادة والسدِّي.

وعن مقاتل: أنها كادت تصيحُ: واابناه، عند رؤيتها تلاطُمَ الأمواج به شفقةً عليه من الغرق.

وقيل: المعنى: أنها كادت تُظْهِرُ أمره من شدة الفرح بنجاته وتبنِّي فرعونَ إياه.

وقيل: الضمير للوحي، [أي](٢) أنها كادت تُظْهِر الوحي، وهو الوحيُ الذي كان في شأنه عليه السلام المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآيةَ، وهو خلافُ الظاهر، ولا تساعد عليه الروايات.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: بما أنزلنا عليه من السكينة، والمراد: لولا أن ثبَّتنا قلبها وصبَّرناها، فالربطُ على القلب مجازٌ عن ذلك. وجواب «لولا» محذوفٌ دلَّ عليه «إن كادت لتبدي به» أي: لولا أن ربطنا على قلبها لأبدَتْه؛ وقيل: لكادت تُبدي به.

وقولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ علةٌ للربط على القلب، والإيمان بمعنى التصديق، أي: صبَّرناها وثبَّتنا قلبها لتكون راسخةً في التصديق بوَعْدِنا بأنَّا رادُّوه إليها وجاعلوه من المرسلين.

ومَن جَعَلَ الفراغ من الهمِّ والحزن، وكَيْدودةَ الإبداء من الفرح بتبنِّيه عليه السلام الذي هو فرحٌ مذمومٌ، جَعَلَ الإيمان بمعنى الوثوق، كما في قولهم على

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٧١، وابن أبي خاتم ٩/ ٢٩٤٧، والحاكم ٢/ ٤٠٦، وهو قطعة من خبر ابن عباس السالف ص١١٩.

(٢) زيادة يقضيها السياق، وينظر البحر ٧/ ١٠٧.

ما حكى أبو زيد: ما آمنتُ أنْ أجدَ صحابة، أي: ما وثقتُ[1]، وحقيقته: صرتُ ذا أمنٍ، أي: ذا سكونٍ وطمأنينة. وقال: المعنى: لولا أن ربطنا على قلبها وسكَّنَّا قلقه الكائنَ من الابتهاج الفاسدِ لتكون من الواثقين بوعد الله تعالى المبتهجين بما يحقُّ الابتهاج به.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم، وقيل: كلثمة، وقيل: كلثوم. والتعبير عنها بأخوَّته دون أن يقال: لبنتها؛ للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر.

﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبعي أثره وتتبَّعي خبره، والظاهر أن هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادُها فارغاً، فإنْ كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهرٌ، وإن كانت قد عرفته فتتبُّعُ الخبر لِيُعْرَفَ هل قتلوه أم لا، ولينكشف ما هو عليه من الحال.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرته، والفاءُ فصيحةٌ، أي: فقصَّتْ أثره فبصُرَتْ. وقرأ قتادة: «فبصَرتْ» بفتح الصاد، وعيسى بكسرها[2].

﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بُعْدٍ.

وقيل: أي: عن شوقٍ إليه؛ حكاه أبو عمرو بن العلاء[3]، وقال: هي لغةُ جذام؛ يقولون: جنبتُ إليك، أي: اشتقتُ.

وقال الكرمانيُّ: «جنب» صفةٌ لموصوفٍ محذوف، أي: عن مكانٍ جنبٍ، أي: بعيد، وكأنه من الأضداد؛ فإنه يكون بمعنى القريب أيضاً كالجار الجنُبِ.

وقيل: أي: عن جانب؛ لأنها كانت تمشي على الشطِّ.

وقيل: النظر عن جُنُبٍ أن تنظر إلى الشيءِ كأنك لا تريده.

وقرأ قتادة والحسن وزيد بن عليٍّ رضي الله عنه والأعرجُ: «عن جَنْب» بفتح الجيم وسكون النون. وعن قتادة أنه قرأ بفتحهما أيضاً. وعن الحسن أنه قرأ بضم الجيم

---

(١) النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص١٩٣.

(٢) القراءتان في البحر ٧/ ١٠٧، والثانية في القراءات الشاذة ص١١٢.

(٣) كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩، والبحر ٧/ ١٠٧، والكلام منه.

وإسكان النون. وقرأ النعمان بن سالم: «عن جانب»[1] والكلُّ - على ما قيل - بمعنى واحد؛ وفي «البحر»: الجنب والجانب والجنابةُ والجنابُ بمعنى[2].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ أنها تقصُّه وتتعرَّفُ حالَه، أو أنها أخته.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه ذلك، فالتحريمُ مجازٌ عن المنع فإنَّ مَن حَرُمَ عليه شيءٌ فقد مُنِعَه، ولا يصحُّ إرادة التحريم الشرعيِّ؛ لأن الصبيَّ ليس من أهل التكليف، ولا دليل على الخصوصية.

والمراضع جمعُ مُرْضِع بضم الميم وكسر الضاد، وهي المرأة التي تُرضِعُ، وترك التاء إمَّا لاختصاصه بالنساء، أو لأنه بمعنى شخص مرضع. أو جمع مَرْضَع بفتح الميم على أنه مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الرضاع، وجُمع لتعدُّد مرَّاته، أو اسمُ مكانٍ، أي: موضع الرضاع وهو الثدي.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ قصِّها أو إبصارها، أو وروده على مَن هو عنده، أو من قبل ذلك، أي: من أول أمره، وظاهرُ صنيع أبي حيان اختيارُه[3].

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أي: هل تريدون أن أدلَّكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: يضمنونه ويقومون بتربيته لأجْلِكم، والفاءُ فصيحةٌ، أي: فدَخلتْ عليهم فقالت، وقولها: «على أهل بيتٍ» دون: امرأة، إشارةٌ إلى أنَّ المراد: امرأة من أهل الشرف تليقُ بخدمة الملوك.

﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ لا يقصِّرون في خدمته وتربيته. وروي أنَّ هامان لمَّا سمع هذا منها قال: إنها لتَعرفُه وأهلَه فخُذوها حتى تخبر بحاله. فقالت: إنما أردتُ: وهم للمَلِكِ ناصحون. فخلصتْ بذلك من الشرِّ الذي يجوز لمثله الكذب، وأحسنَتْ وليس ببدعٍ لأنها من بيت النبوَّة فحقيقٌ بها ذلك.

واحتمالُ الضمير لأمرين مما لا تختصُّ به اللغة العربية، بل يكون في جميع

---

(١) ذكر هذه القراءات أبو حيان في البحر ٧/ ١٠٧، وعنه نقل المصنف، والقراءتان الأولى والأخيرة في القراءات الشاذة ص١١٢، والمحتسب ٢/ ١٤٩.

(٢) البحر ٧/ ١٠٧.

(٣) البحر ٧/ ١٠٨.

اللغات، على أنَّ الفراعنة من بقايا العمالقة وكانوا يتكلَّمون بالعربية، فلعلها كلَّمت بلسانهم، ويسمَّى هذا الأسلوب من الكلام الموجَّه. ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ الفاء فصيحةٌ، أي: فقبلوا ذلك منها ودلَّتهم على أمِّه وكلَّموها في إرضاعه فقبلت فردَدْناه إليها، أو يقدَّر نحوُ ذلك.

وروي أنَّ أخته لمَّا قالت ما قالت أمرها فرعونُ بأن تأتي بمن يكفلُه، فأتت بأمِّه وموسى عليه السلام على يد فرعون يبكي وهو يعلِّله، فدفعه إليها فلمَّا وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: مَن أنت منه فقد أبى كلَّ ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبة الريح طيبةُ اللبن لا أوتَى بصبيٍّ إلا قَبِلَني. فقرَّره في يدها، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأَمر أن يُجرَى عليها النفقةُ، وليس أخذُها ذلك من أخذ الأجرة على إرضاعها إياه، ولو سلِّم فلا نسلِّم أنه كان حراماً فيما تدينُ. وكانت النفقةُ على ما في «البحر» ديناراً في كلِّ يوم[1].

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وعده سبحانه من ردِّه وجَعْلِه من المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه، بمشاهدةِ بعضه وقياسِ بعضه عليه، وإلا فعلمُها بحقِّية ذلك بالوحي حاصلٌ قبلُ. واستدل أبو حيان بالآية على ضَعْفِ قول مَن ذهب إلى أنَّ الإيحاء كان إلهاماً أو مناماً؛ لأنَّ ذلك يَبْعُد أن يقال فيه وعد[2]. وفيه نظر.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يعرفون وَعْدَه تعالى ولا حقِّيته، أو: لا يجزمون بما وَعَدهم جلَّ وعلا؛ لتَجْويزِهم تخلُّفَه، وهو سبحانه لا يُخْلِفُ الميعاد.

وقيل: لا يعلمون أنَّ الغرض الأصليَّ من الردِّ عليها علمُها بذلك، وما سواه من قرة عينها وذهابِ حزنها تبعٌ. وفيه أنَّ الذي يفيده الكلام إنما هو كونُ كلٍّ من قرة العين والعلم كالغرض أو غرضاً مستقلًّا، وأما تبعيةُ غير العلم له لا سيما مع تقدُّم الغير فلا، وكونُ المفيد لذلك حذفَ حرفِ العلَّة من الأول لا يخفى حالُه.

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

وفي قوله تعالى: «ولكن أكثرهم»[(١)] إلخ قيل: تعريضٌ بما فرط من أمه حين سمعتْ بوقوعه في يد فرعون من الخوف والحيرة. وأنت تعلم أنَّ ما عَرَاها كان من مقتضيات الجِبِلَّة البشرية، وهو يجامعُ العلم بعدم وقوع ما يخاف منه، ونفي العلم في مثل ذلك إنما يكون بضَرْبٍ من التأويل كما لا يخفى. ثم إنَّ الاستدراك على ما أختاره مما وقع بعد العلم، وجوِّز أن يكون من نفس العلم، وذلك إذا كان المعنى: لا يعلمون أنَّ الغرض الأصليَّ من الردِّ عليها علمُها بحقِّية وعد الله تعالى. فتأمل.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغَ الذي لا يزيدُ عليه نشؤه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ ـ أي: كمل وتمّ ـ تأكيدٌ وتفسيرٌ لما قبله، كذا قيل.

واختُلفَ في زمان بلوغ الأشُدِّ والاستواء، فأخرج ابن أبي الدنيا[(٢)] من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: الأشدُّ ما بين الثماني عشرةَ إلى الثلاثين، والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: الأشدُّ ثلاثٌ وثلاثون سنةً، والاستواء أربعون سنة[(٣)]، وهي روايةٌ عن ابن عباس أيضاً[(٤)]، وروي نحوُه عن قتادة.

وقال الزجَّاج مرةً: بلوغ الأشدِّ من نحو سبعَ عَشْرةَ سنةً إلى الأربعين[(٥)]، وأخرى: هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين[(٦)]. واختاره بعضهم هنا، وعلَّل بأنَّ ذلك لموافقته لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] لأنه يُشْعِرُ

---

(١) في الأصل و(م): ولكن أكثر الناس. وهو سبق قلم.

(٢) في كتاب المعمرين كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٢.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٢٢، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ١٨١.

(٤) أخرجها من طريق مجاهد عن ابن عباس الطبري ١٨/ ١٨١، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١١٨ و٩/ ٢٩٥١.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٩.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٥، وفيه: قيل: الأشد بضع وثلاثون سنة. وهو ما بين ثلاث وثلاثين إلى تسع وثلاثين.

بأنه منتهٍ إلى الأربعين، وهي سنُّ الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه، ولا يخلو عن شيءٍ.

والحقُّ أنَّ بلوغ الأشدِّ في الأصل هو الانتهاءُ إلى حدِّ القوة، وذلك وقتَ انتهاءِ النموِّ وغايتِه، وهذا مما يختلفُ باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال، ولذا وقع له تفاسيرُ في كتب اللغة والتفسير، ولعل الأولى ـ على ما قيل ـ أن يقال: إنَّ بلوغ الأشُدِّ عبارةٌ عن بلوغ القَدْرِ الذي يتقوَّى فيه بدنُه وقواه الجسمانية، وينتهي فيه نموُّه المعتدُّ به، والاستواء اعتدالُ عقله وكمالُه، ولا ينبغي تعيينُ وقتٍ لذلك في حقِّ موسى عليه السلام إلا بخبرٍ يعوَّلُ عليه؛ لِمَا سمعت من أنَّ ذاك مما يختلفُ باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال، نعم اشتهر أنَّ ذلك في الأغلب يكون في سنِّ أربعين وعليه قول الشاعر:

إذا المرءُ وافَى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يَهْوَى حياءٌ ولا سترُ
فدَعْهُ ولا تَنْفِسْ عليه الذي مضى ... وإنْ جرَّ أسبابَ الحياةِ له العمرُ[1]

وفي قوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً) ما يُسْتأْنَسُ به لذلك. وقد مرَّ طرفٌ من الكلام في الأشُدِّ في سورة «يوسف»[2]، فتذكَّر ولا تغفل.

ثم إنَّ حاصل المعنى ـ على ما قيل ـ أخيراً: ولمَّا قوي جسمُه، واعتدل عقلُه ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ أي: نبوَّة على ما روي عن السديِّ، أو: علماً هو من خواصِّ النبوَّةِ، على ما تأوَّل به بعضُهم كلامه ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ بالدِّين والشريعة.

وفي «الكشاف»: العلم التوراةُ، والحُكْم السنَّةُ، وحكمةُ الأنبياء عليهم السلام سنَّتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وقيل: آتيناه سيرةَ الحكماء العلماء وسَمْتَهم قبل البعث، فكان عليه السلام لا يفعل فعلاً يُسْتَجْهَلُ فيه[3]. اهـ.

ورجِّح ما قيل بأنه أوفقُ لنظم القصة مما تقدم؛ لأنَّ استنباءه عليه السلام بعد

---

(١) سلف البيتان ١٢/ ٢٦٢.
(٢) ١٢/ ٢٦٢.
(٣) الكشاف ٣/ ١٦٨.

وَكْزِ القبطي، والهجرةِ إلى مدين، ورجوعِه منها، وإيتاؤه التوراة كان بعد إغراق فرعون، فهو بعد الوكز بكثيرٍ.

وبأنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي فعلناه بموسى وأمِّه عليهما السلام ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ على إحسانهم، يأبى حَمْلَ ما تقدَّم على النبوَّةِ؛ لأنها لا تكون جزاءً على العمل.

ومَن ذهب إلى الأول جَعَلَ هذا بياناً إجماليًّا لإنجاز الوعد بجَعْلِه من المرسلين بعد ردِّه لأمِّه، وما بعدُ تفصيلٌ له، والعطفُ بالواو لا يقتضي الترتيب، وكونُ ما فُعل بموسى وأمِّه عليهما السلام جزاءً على العمل باعتبارِ التغليب.

وقد يقال: إنَّ أصل النبوة وإنْ لم تكن جزاءً على العمل إلَّا أنَّ بعض مراتبها ـ وهو ما فيه مزيدُ قُرْبٍ من الله تعالى ـ يكون باعتبار مزيدِ القُرْبِ جزاءً عليه، ويرجع ذلك إلى أنَّ مزيد القرب هو الجزاء، وتفاوتُ الأنبياء عليهم السلام في القرب منه تعالى ممَّا لا ينبغي أن يُشَكَّ فيه. ورجِّح ما تقدم بكونه[1] أوفقَ بقوله تعالى: (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ)، واستلزامهُ حصولَ النبوَّةِ لكلِّ محسنٍ ليس بشيءٍ أصلاً.

ومَن ذهب إلى أنَّ هذا الإيتاءَ كان قبل الهجرة قال: يجوزُ أن يكون المعنى: آتيناه رياسةً بين قومه بني إسرائيل بأنْ جعلناه ممتازاً فيما بينهم يرجعون إليه في مهامِّهم، ويمتثلون[2] إذا أمرهم بشيء أو نهاهم عنه، وعلماً يَنتفِع به وينفعُ به غيرَه، وذلك إمَّا بمحض الإلهام، أو بتوفيقه لاستنباط دقائقَ وأسرارٍ مما نقل إليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام من بني إسرائيل، ولا بدعَ في أنْ يكون عليه السلام عالماً بما كان عليه آباؤه الأنبياء منهم، وبما كانوا يتديَّنون به من الشرائع بواسطة الإلهام، أو بسماع ما يفيده العلم من الأخبار، ولعل هذا أولى مما نقله في «الكشاف». وفي الكلام على أواخر سورة «البقرة» ما تنفعك مراجعتُه فليُراجَعْ.

---

(١) في الأصل: بأنه.

(٢) في (م): ويمتثلونه.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ قال ابن عباس على ما في «البحر»: هي منف[١].

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي في وقتٍ لا يعتاد دخولها، أو لا يتوقَّعونه فيه، وكان على ما روي عن الحبر وقتَ القائلة. وفي رواية أخرى عنه: بين العشاء والعتمة. وذلك أنَّ فرعون ركب يوماً وسار إلى تلك المدينة، فعلم موسى عليه السلام بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت.

وقال ابن إسحاق: هي مصر، كان موسى عليه السلام قد بدت منه مجاهرةٌ لفرعون وقومه بما يكرهون، فاختفى وغاب، فدخلها متنكِّراً.

وقال ابن زيد: كان فرعون قد أخرجه منها فغاب سنين، فنُسي، فجاء ودخلها وأهلُها في غفلةٍ بنسيانهم له، وبُعْدِ عهدهم به.

وقيل: دخل في يوم عيدٍ وهم مشغولون بلَهْوِهم.

وقيل: خرج من قصر فرعون ودخل مصر وقت القيلولة أو بين العشاءين.

وقيل: المدينة عين شمس. وقيل: قريةٌ على فرسخين من مصر يقال لها: حابين. وقيل: هي الإسكندرية. والأشهر أنها مصر، ولعله هو الأظهر.

والمتبادرُ أنَّ «على حين» متعلِّقٌ بـ «دخل»، وعليه فالظاهرُ أنَّ «على» بمعنى «في» مثلها في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] على قول.

وقال أبو البقاء: هو في موضع الحال من «المدينة»، ويجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل، أي: مختلِساً[٢]. اهـ.

ولعل الذي دعاه إلى العدول عن المتبادر احتياجُه إلى جَعْلِ «على» بمعنى

---

(١) البحر ٧/١٠٩، ومنف قال ياقوت في معجم البلدان ٥/٢١٣: بالفتح ثم السكون وفاء. وقال الشهاب في الحاشية ٧/٦٧: هي بضم الميم، وفتحُها وإن ذكره بعضهم لا يوثق به، والنون ساكنة، وهي ممنوعة من الصرف، والمعروف فيها منوف بالواو. اهـ. وفي معجم البلدان: بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ.

(٢) الإملاء ٤/١٤٦.

«في»، وخفاءُ نكتة التعبير بها دونها، أو الاكتفاء بالظرف وحده عليه، والأمرُ ظاهرٌ لمن له أدنى تأمُّلٍ.

وقيل: إنَّ الداعي إلى ذلك أنَّ دخول «المدينة» في حين غفلة من أهلها ليس نصًّا في دخولها غافلاً أهلُها كما في وجه الحالية من «المدينة»، ولا في دخولها مختلساً كما في وجه الحالية من الضمير، فإنَّ وقت الغفلة كوقت القائلة وما بين العشاءين قد لا يغفل فيه. وفيه بحث.

و«من أهلها» في موضع الصفة لـ «غفلة»، وما في النظم الكريم أبلغُ من: غَفْلَةِ أَهْلِها، بالإضافة؛ لِمَا في التنوين من إفادة التفخيم، ولعله عدل عن ذلك إلى ما ذكر لهذا، فتدبَّر.

وقرأ أبو طالب القارئُ: «على حينَ» بفتح النون[(١)]، ووجِّهَ بأنه فَتَحَ لمجاورة الغين كما كسر في بعض القراءات الدال في «الحمد لله» لمجاوَرةِ اللام، أو بأنه أَجْرَى المصدر مجرى الفعل، كأنه قيل: على حين غَفِلَ أهلُها، فبنى «حين» كما يُبْنَى إذا أضيف إلى الجملة المصدَّرة بفعلٍ ماضٍ، نحو قوله:

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصبا[(٢)]

وهو كما ترى.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتحاربان، والجملة صفةٌ لـ «رجلين». وقال ابن عطية: في موضع الحال[(٣)]. وهو مبنيٌّ على مذهب سيبويه من جواز مجيء الحال من النكرة من غير شرط[(٤)]. وقرأ نعيم بن ميسرة: «يَقَتِّلان» بإدغام التاء في التاء ونقل فتحتها إلى القاف[(٥)].

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١٠٩.

(٢) وعجزه: وقلت ألمَّا أصحُ والشيب وازعُ. والبيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٧٩، والكتاب ٢/ ٣٣٠، والبحر ٧/ ١٠٩، وقال أبو حيان: وهذا توجيه شذوذ.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

(٤) الكتاب ٢/ ٥٢ و١١٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممن شايَعَه وتابعه في أمره ونهيه، أو في الدِّين على ما قاله جماعةٌ، وهم بنو إسرائيل. قال في «الإتقان»: هو السامريُّ[١].

﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مُخالِفيه فيما يريد، أو في الدِّين على ما قاله الجماعةُ، وهم القبط، واسمه كما في «الإتقان» أيضاً: قانون[٢] = صفةٌ بعد صفةٍ لـ «رجلين»، والإشارةُ بـ «هذا» واقعةٌ على طريق الحكاية لِمَا وقع وقت الوجدان كأنَّ الرائي لهما يقوله، لا في المحكيِّ لرسول الله ﷺ. وقال المبرِّد: العرب تشير بـ «هذا» إلى الغائب؛ قال جرير:

هذا ابن عمِّي في دمشق خليفةٌ لو شئتُ ساقكُمُ إليَّ قطينا[٣]

وهذه الإشارةُ قائمةٌ مقام الضمير في الربط، والعطفُ سابقٌ على الوصفية.

واختلف في سبب تقاتُلِ هذين الرجلين؛ فقيل: كان أمراً دينيًّا. وقيل: كان أمراً دنيويًّا؛ رُوي أنَّ القبطيَّ كلَّف الإسرائيليَّ حَمْلَ الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى، فاقتتلا لذلك، وكان القبطيُّ على ما أخرج ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير خبازاً لفرعون[٤].

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: فطلب غَوْثَه ونَصْرَه إياه ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ ولتضمين الفعل معنى النصر عدِّي بـ «على»، ويؤيِّده قوله تعالى بعدُ: (ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ). ويجوز أن يكون تعديته بـ «على» لتضمينه معنى الإعانة، ويؤيِّده أنه قُرئ: «فاستعانه» بالعين المهملة والنون بدل الثاء، وقد نَقَلَ هذه القراءة ابنُ خالويه عن سيبويه[٥]، وأبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة[٦] عن ابن مقسم والزعفرانيِّ.

---

(١) الإتقان ٢/١٠٩٨.

(٢) الإتقان ٢/١٠٩٨، وفيه: فانون، وكذا في الكشاف ٣/١٦٨، وتفسير البغوي ٣/٤٣٩، والبحر ٧/١٠٩.

(٣) ديوان جرير ١/٣٨٨، والبحر ٧/١٠٩، والكلام منه. قال شارح الديوان: القطين: الرقيق، والقطين: الحَشَم.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/٢٩٥٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/١٠٩، والكلام منه.

(٦) الهذلي المغربي المقرئ، أحد مَن طوَّف الدنيا في طلب القراءات، وله كتاب: الكامل في القراءات، توفي سنة (٤٦٥هـ). قال الذهبي: وله أغاليط كثيرة في أسانيد القراءات، =

وقولُ ابن عطية: أنه ذكرها الأخفش وهو تصحيفٌ لا قراءة[١]، مما لا ثبت له فيه.

وقد حُذف من جملة الصلة صدرُها، أي: الذي هو من شيعته والذي هو من عدوِّه، ولو لم يُعتبر حَذْفُ ذلك صحَّ.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضرب القبطيَّ بجمع كفِّه، أي: بكفِّه المضمومةِ أصابعُها على ما أخرجه غيرُ واحدٍ عن مجاهد. وقال أبو حيان: الوكز الضرب باليد مجموعةً أصابعُها كعقد ثلاثة وسبعين[٢]. وعلى القولين يكون عليه السلام قد ضربه باليد.

وأخرج ابن المنذر[٣] وجماعةٌ عن قتادةَ أنه عليه السلام ضربه بعصاه، فكأنه يفسِّر الوكز بالدفع أو الطعن، وذلك من جملة معانيه كما في «القاموس»[٤]. ولعله أراد بعصاه عصاً كانت له، فإنَّ عصاه المشهورةَ أعطاه إياها شعيب عليه السلام بعد هذه الحادثة كما هو مشهورٌ، وفي كتب التفاسير مسطور.

وقرأ عبد الله: «فلكزه» باللام[٥]، وعنه: «فنكزه» بالنون[٦]، واللَّكز على ما في «القاموس»: الوكزُ، والوَجْءُ في الصدر والحنك. والنَّكز على ما فيه أيضاً: الضربُ والدفع[٧].

وقيل: الوَكْزُ والنَّكْزُ واللَّكز: الدفعُ بأطراف الأصابع.

وقيل: الوكز على القلب، واللكز على اللَّحى[٨].

= وحَشَد في كتابه أشياء منكرة لا تحل القراءة بها، ولا يصح لها إسناد. معرفة القراء الكبار ٢/ ٨١٥. والكلام من البحر ٧/ ١٠٩.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

(٢) البحر ٧/ ١٠٣.

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٢، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٨٩.

(٤) مادة (وكز).

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١٠٩، والكلام منه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٤٦، والبحر ٧/ ١٠٩.

(٧) القاموس (لكز) و(نكز).

(٨) في الأصل: الحيّ، والمثبت من (م) والبحر ٧/ ١٠٣، والكلام منه.

روي أنه لمَّا اشتدَّ التناكُر قال القبطيُّ لموسى عليه السلام: لقد هممتُ أن أحمله ـ يعني الحطب ـ عليك. فاشتدَّ غضب موسى عليه السلام، وكان قد أوتي قوةً فوكزه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: فقتله موسى، وأصله: أنهى حياته، أي: جعلها منتهيةً متقضِّيةً، وهو بهذا المعنى يتعدَّى بـ «على» كما في «الأساس»(١)، فلا حاجة إلى تأويله بـ: أَوْقَع القضاءَ عليه. وقد يتعدَّى الفعل بـ «إلى» لتضمينه معنى الإيحاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [الحجر:٦٦].

وعودُ ضمير الفاعل في «قضى» على «موسى» هو الظاهر. وقيل: هو عائدٌ على الله تعالى، أي: فقضى الله سبحانه عليه بالموت، فقضى بمعنى حَكم. وقيل: يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من «وكزه» أي: فقضى الوكزُ عليه، أي: أنهى حياته.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ أي: من تزيينه. وقيل: من جنس عمله. والأولُ أوفق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ أي: ظاهرُ العداوة، على أنَّ «مبين» صفةٌ ثانية لـ «عدوّ».

وقيل: ظاهر العداوة والإضلال، ووجِّه بأنه صفةٌ لـ «عدو» الملاحظِ معه وصفُ الإضلال، أو بأنه متنازعٌ فيه لـ «عدو» و«مضل»، كلٌّ يطلبه صفةً له، وأيًّا ما كان فـ «مبين» من أبان اللازم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بوكزٍ ترتَّب عليه القتلُ ﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبي، وإنما قال عليه السلام ما قال لأنه فَعَلَ ما لم يؤذن له به، وليس من سَنَنِ آبائه الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه الحادثة التي شاهدها، وقد أفضى إلى قتل نفسٍ لم يُشْرَعْ في شريعة من الشرائع قتلُها، ولا يُشْكِلُ ذلك على القول بأنَّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكبائر بعد النبوَّة وقبلها؛ لأنَّ أصل الوكز من الصغائر، وما وقع من القتل كان خطأً كما قاله كعبٌ وغيره، والخطأ وإن كان لا يخلو عن الإثم ـ ولذا شرعت فيه الكفارة ـ إلا أنه صغيرةٌ أيضاً.

بل قيل: لا يُشْكِلُ أيضاً على القول بعصمتهم عن الكبائر والصغائر مطلقاً؛ لجوازِ أن يكون عليه السلام قد رأى أنَّ في الوكز دفعَ ظالم عن مظلوم، ففعله غيرَ

---

(١) مادة (قضى)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٨.

قاصدٍ به القتلَ، وإنما وقع مترتِّباً عليه لا عن قصدٍ، وكونُ الخطأ لا يخلو عن إثم في شرائع الأنبياء المتقدِّمين عليهم السلام كما في شريعة نبيِّنا ﷺ غيرُ معلوم، وكذا مشروعية الكفَّارة فيه. وكأنه عليه السلام بعد أن وقع منه ما وقع تأمَّل فظهر له إمكانُ الدفع بغير الوكز، وأنه لم يتثبَّت في رأيه لِمَا اعتراه من الغضب، فعلم أنه فَعَلَ خلافَ الأَوْلَى بالنسبة إلى أمثاله، فقال ما قال على عادة المقرَّبين في استعظامهم خلافَ الأولى.

ثم إنَّ هذا الفعل وقع منه عليه السلام قبل النبوَّة، كما هو ظاهرُ قوله تعالى حكايةً عنه في سورة «الشعراء»: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٢١] وبذلك قال النقَّاش وغيره، وروي عن كعب أنه عليه السلام كان إذ ذاك ابنَ اثنتي عَشْرةَ سنةً.

ومَن فسَّر الاستواء ببلوغ أربعين سنةً، وجَعَلَ ما ذكر بعد بلوغ الأشُدِّ والاستواء وإيتاءِ الحكم والعلمِ بالمعنى الذي لا يقتضي النبوَّة، يلزمُه أن يقول: كان عليه السلام إذ ذاك ابنَ أربعين سنةً أو ما فوقها بقليلٍ.

وزعم بعضهم أنه عليه السلام أراد بقوله: «ظلمتُ نفسي»: أنِّي عرَّضتُها للتلف بقتل هذا الكافر؛ إذ لو عرف فرعون ذلك لقتلني به، وأراد بقوله: «فاغفر لي»: فاستُر عليَّ ذلك، وجعله مِن عَمَلِ الشيطان لِمَا فيه من الوقوع في الوسوسة وترقُّب المحذور. ولا يخفى ما فيه، ويأبى عنه قولُه تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ وترتيبُ «غَفَر» على ما قبله بالفاء يُشْعِرُ بأنَّ المراد: غفر له لاستغفاره، وجملةُ «إنه» إلخ كالتعليل للعليَّة، أي: إنه تعالى هو المبالغُ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم، ولذا كان استغفاره سبباً للمغفرة له.

وتوسيط «قال» بين كلاميه عليه السلام لِمَا بينهما من المخالفة من حيث إنَّ الثاني مناجاةٌ ودعاء، بخلاف الأول، وأمَّا توسيطُ «قال» في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فوجهُه ظاهر.

والباء في «بما» للقَسَم، و«ما» مصدرية، وجوابُ القسم محذوفٌ، أي: أُقسم بإنعامك عليَّ لأَمْتَنِعنَّ عن مثل هذا الفعل. وقيل: لأتوبنَّ. وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ عطفٌ على الجواب.

ولعل المراد بإنعامه تعالى عليه حفظُه إياه من شرِّ فرعون، وردُّه إلى أمه، وتمييزُه على سائر بني إسرائيل، ونحوُ ذلك.

وقيل: المراد به مغفرتُه له، وهو غيرُ بعيد، ومعرفته عليه السلام أنه سبحانه غفر له إذا كان هذا القول قبل النبوة بإلهامٍ أو رؤيا.

و«الظهير»: المُعِينُ. و«المجرمين» جمع مجرم، والمراد به: مَن أَوْقَعَ غيره في الجرم، أو: أدَّتْ معاونتُه إلى جرم، كالإسرائيليِّ الذي خاصمه القبطيُّ فأدَّت معاونتُه إلى جرمٍ في نظر موسى عليه السلام، فيكون في «المجرمين» مجازٌ في النسبة للإسناد إلى السبب.

وجوِّز أن يراد بذلك الكفار، وعنى بهم مَن استغاثه ونحوَه، بناءً على أنه لم يكن أسلم.

وقيل: أراد بالمجرمين فرعونَ وقومه، والمعنى: أُقسم بإنعامك عليَّ لأتوبنَّ فلن أكون مُعيناً للكفار بأنْ أصحبهم وأُكثِّرَ سَوادَهم، وقد كان عليه السلام يصحبُ فرعونَ ويركبُ بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمَّى ابن فرعون. ولا يخفى أنَّ ما تقدَّم أنسبُ بالمقام.

وجوِّز أن تكون الباء للقسم الاستعطافيِّ على أنها متعلِّقةٌ بفعلِ دعاءٍ محذوفٍ، وجملة «فلن أكون» إلخ متفرِّعةٌ عليه، والفاءُ واقعةٌ في جواب الدعاء أو الشرط المقدَّر، أي: بحقِّ إنعامك عليَّ اعْصِمْني فلن[1] أكون.. إلخ، أو: إنْ عَصَمْتَني فلن أكون.. إلخ.

والقسمُ الاستعطافيُّ ما أكِّد به جملةٌ طلبيةٌ، نحو قولك: بالله تعالى زرني، وغير الاستعطافي ما أكِّد به جملةٌ خبرية، نحو: واللهِ تعالى لأقومنَّ، وإلى هذا ذهب ابن الحاجب.

وقيل: القسم الاستعطافيُّ ما كان المُقْسَمُ به مُشْعراً بعطفٍ وحنوٍّ، نحو: بكَرَمك الشاملِ أَنْعِمْ عليَّ، وهو صادقٌ على ما هنا، وغير الاستعطافيِّ ما كان المَقْسَمُ به أعمَّ من ذلك. وعلى القولين هما قسمان من مطلق القسم.

---

(١) في (م): فلم.

وظاهر كلام الزمخشريِّ أنَّ المتبادر من القسم ما يؤكّد به الكلام الخبريُّ، وينعقدُ منه يمينٌ، فما يكون المراد به الاستعطافَ قسيمٌ له[١]. وجَعَل بعضُهم إطلاق القسم على الاستعطافي تجوُّزاً.

ويُبْعِدُ إرادةَ الاستعطاف هنا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ موسى عليه السلام لم يَسْتَثْنِ ـ أي: لم يقل: إن شاء الله تعالى ـ فابتُلي به، أي: بالكون ظهيراً للمجرمين مرةً أخرى، وهو ما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ إلخ؛ لأنَّ الاستثناء لا يناسبُ الاستعطافَ؛ لكون النفي معلَّقاً بعصمة الله عزَّ وجلَّ.

وجوِّز أن تكون الباءُ سببيةً متعلِّقة بفعلٍ مقدَّرٍ يُعطف عليه «لن أكون» إلخ و«ما» موصولة، والمعنى: بسبب الذي أنعمته عليَّ من القوة أشكرك فلن أستعملها إلا في مظاهرةِ أوليائك ولا أَدَعُ قبطيًّا يغلب إسرائيليًّا، وهو إلزامٌ لنفسه بنصرة أوليائه عزَّ وجلَّ كالنذر، وليس هناك قَسَمٌ بوجهٍ خلافاً لمن تَوَهَّم ذلك، ولا يخفى أن هذا وإن لم يُبْعِدْه الأثر لا يخلو عن بُعْدٍ نَظَراً إلى السباق.

و«لن» على جميع الأوْجهِ المذكورة للنفي، وفي البحر: قيل: إنها للدعاء[٢]. وحكى ابن هشام ردَّه بأنَّ فعل الدعاء لا يُسنَدُ إلى المتكلِّم بل إلى المخاطب أو الغائب، نحو: ياربِّ لا عذَّبْتَ فلاناً، ويجوز: لا عذَّب الله تعالى عمراً، ثم قال: ويردُّه قوله:

.... ثم لا زلْـ ـتُ لكم خالداً خلودَ الجبالِ[٣]

ولا يخفى عليك أنَّ كونها للدعاء على الوجه الأخير في الآية غيرُ ظاهر، وعلى الوجه الأول لا يخلو عن خفاء، فلعل مَن جَعَلَها للدعاء حَمَلَ «بما أنعمْتَ عليَّ» على الاستعطاف، وعلَّق الجارَّ والمجرورَ بنحو: اعصمني، وجَعَلَ الفاء تفسيريةً،

---

(١) ينظر الكشاف ٣/ ١٦٩، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٦٨.

(٢) البحر ٧/ ١١٠، وتعقبه أبو حيان بقوله: والصحيح أن «لن» لا تكون للدعاء. وجاء في هامش الأصل و(م): مجيئها للدعاء مذهب جماعة منهم ابن عصفور. اهـ منه.

(٣) المغني ص٣٧٤-٣٧٥، وهذا قطعة من بيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٦٩، والأصول في النحو ٢/ ١٧١ برواية:

لن تزالوا كذلكم ثم لا زِلْـ ـتَ لهم خالداً خلود الجبالِ

و«لن أكون» إلخ تفسيراً لذلك المحذوف، كما قيل في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤] فليُتدبَّر.

واحتجَّ أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الوَصَّافيِّ(١) أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخٍ له كاتبٍ فقال له: إنَّ أخي ليس له من أمور السلطان شيءٌ، إلا أنه يكتب له بقلمٍ ما يدخل وما يخرج، فإنْ تَرَكَ قلمه صار عليه دَينٌ واحتاج، وإنْ أخذ به كان له فيه غنًى؟ قال: لمن يكتب؟ قال: لخالد بن عبد الله القسري. قال: ألم تسمع إلى ما قال العبدُ الصالح: (رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) فلا يهتمَّ أخوك بشيءٍ ولْيَرْمِ بقلمه فإنَّ الله تعالى سيأتيه برزقٍ(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنظلة جابر بن حنظلة الضبيِّ الكاتب قال: قال رجلٌ لعامر: يا أبا عمرو، إنِّي رجلٌ كاتبٌ ما يدخل وما يخرج، آخُذُ رزقاً أستغني به أنا وعيالي؟ قال: فلعلك تكتب في دم يسفك؟ قال: لا. قال: فلعلك تكتب في مالٍ يؤخذ؟ قال: لا. قال: فلعلك تكتب في دار تهدم؟ قال: لا. قال: أسمعتَ بما قال موسى عليه السلام: (رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ) قال: أَبْلَغْتَ إليَّ يا أبا عمرو، والله عز وجل لا أخطُّ لهم بقلم أبداً. قال: والله تعالى لا يدعُكَ الله سبحانه بغير رزقٍ أبداً(٣).

وقد كان السَّلَفُ يجتنبون كلَّ الاجتناب عن خدمتهم؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط قال: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال: اذهب بعطاءِ أهل بخارى فأعطهم. فقال: أعْفِني. فلم يَزَلْ يستعفيه حتى أعفاه،

---

(١) في الأصل و(م): الرصافي. والصواب ما أثبتناه. ينظر تهذيب الكمال ١٩/ ١٧٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٦، وأخرجه أيضاً ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٥٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٣. وخالد بن عبد الله القسري البجلي كان أمير العراقيين لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان، ثم عزله هشام بيوسف بن عمر الثقفي. سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢٥.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٦.

فقال له بعض أصحابه: ما عليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً؟ فقال: لا أحبُّ أنْ أُعينَ الظَّلمة في شيءٍ من أمرهم[(١)].

وإذا صحَّ حديثُ: «ينادي منادٍ يومَ القيامة: أين الظلمةُ وأشباهُ الظلمة وأعوانُ الظلمة، حتى مَن لاق لهم دواةً أو بَرَى لهم قلماً، فيجمعون في تابوتٍ من حديد، فيُرْمَى بهم في جهنم، فليَبْكِ مَن عَلِمَ أنه من أعوانهم على نفسه، وليُقْلِعْ عمَّا هو عليه قبل حلول رَمْسِه»[(٢)].

ومما يَقصِمُ الظهر ما روي عن بعض الأكابر أنَّ خياطاً سأله فقال: أنا ممن يخيطُ للظلمة، فهل أُعدُّ من أعوانهم؟ فقال: لا، أنت منهم، والذي يبيعُك الإبرة من أعوانهم. فلا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله تعالى العليِّ العظيم، ويا حسرتا على مَن باع دينه بدُنْياه، واشترى رضا الظلمةِ بغضب مولاه. هذا وقد بلغ السيلُ الزُّبَى، وجرى الوادي فطمَّ على القرى.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ وقوعَ المكروه به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يترصَّد ذلك، أو الأخبارَ: هل وقفوا على ما كان منه؟ وكان عليه السلام فيما يُروى قد دفن القبطيَّ بعد أن مات في الرمل.

وقيل: «خائفاً» وقوعَ المكروه من فرعون، «يترقَّبُ» نصرةَ ربِّه عز وجل.

وقيل: يترقَّبُ أن يُسْلِمَه قومه.

وقيل: يترقَّب هدايةَ قومه.

وقيل: «خائفاً» من ربِّه عزَّ وجلَّ «يترقَّب» المغفرة. والكلُّ كما ترى.

والمتبادرُ على ما قيل: أنَّ «في المدينة» متعلِّقٌ بـ «أصبح»، واسم «أصبح» ضميرُ موسى عليه السلام، و«خائفاً» خبرها، وجملة «يترقَّب» خبرٌ بعد خبر، أو حالٌ من الضمير في «خائفاً».

---

(١) الدر المنثور ٥/١٢٣. وعبد الرحمن بن مسلم هو أبو مسلم الخراساني الأمير، هازم جيوش الدولة الأموية، والقائم بإنشاء الدولة العباسية. سير أعلام النبلاء ٦/٤٨.

(٢) ذكره أحمد في الورع ص٩٣ من حديث ابن مسعود ﷺ، والديلمي في مسند الفردوس (٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال أبو البقاء: «يترقب» حالٌ مبدلةٌ من الحال الأولى، أو تأكيدٌ لها، أو حالٌ من الضمير في «خائفاً»(١). اهـ. وفيه احتمالُ كونِ «أصبح» تامةً، واحتمالُ كونها ناقصةً، والخبر «في المدينة»، ولا يخفى عليك ما هو الأَوْلى من ذلك.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ وهو الإسرائيليُّ الذي قَتَلَ عليه السلام القبطيَّ بسببه ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثُه من قبطيٍّ آخر برفع الصوت، من الصراخ وهو في الأصل الصياحُ، ثم تجوِّز به عن الاستغاثة لعدم خلوِّها منه غالباً، وشاع حتى صار حقيقةً عرفيةً.

وقيل: معنى «يستصرخه»: يطلب إزالة صراخه.

و«إذا» للمفاجأة، وما بعدها مبتدأ، وجملةُ «يستصرخه» الخبر.

وجوَّز أبو البقاء كونَ الجملة حالاً، والخبر «إذا»(٢).

والمراد بـ «الأمس» اليومُ الذي قبل يوم الاستصراخ، وفي «الحواشي الشهابية»: إنْ كان دخوله عليه السلام المدينةَ بين العشاءين، فـ «الأمس» مجازٌ عن قرب الزمان(٣). وهو مُعْرَبٌ لدخول «أل» عليه، وذلك الشائع فيه عند دخولها، وقد بُني معها على سبيل الندرة كما في قوله:

وإنِّي حُبِسْتُ اليومَ والأمسِ قبلَه ... إلى الشمس حتى كادتِ الشمسُ تَغْرُبُ(٤)

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي: للإسرائيليِّ الذي يستصرخُه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ﴾ ضالٌّ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ بيِّنُ الغواية؛ لأنك تسبَّبت لقتل رجل وتقاتل آخَرَ، أو: لأنَّ

---

(١) الإملاء ٤/ ١٤٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٦٩.

(٤) البيت لنصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٦٢، والخصائص ١/ ٣٩٤ و٣/ ٥٧، والأزمنة والأمكنة ١/ ٢٤١، والإنصاف ١/ ٣٢٠، والبحر ٧/ ١١٠، والدر المصون ٨/ ٦٥٩، واللسان (أمس)، ورواية الديوان: وإني ثويتُ . . .، وفيه أيضاً: على الباب، بدل: إلى الشمس. وجاء في بعض المصادر: ببابك، وفي بعضها: إلى الليل. قال ابن جني: رواه ابن الأعرابي: والأمسِ، والأمسَ، جرًّا ونصباً.

عادتك الجدال، واختار هذا بعضُ الأجلَّة وقال: إنَّ الأول لا يناسبُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ إلخ؛ لأنَّ تذكُّر تسبُّبِه لِمَا ذُكر باعثُ الإحجام لا الإقدام.

ورُدَّ بأنَّ التذكُّر أمرٌ محقَّقٌ؛ لقوله تعالى: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، والباعثُ له على ما ذكر شفقتُه على مَن ظُلم من قومه، وغيرتُه لنصرةِ الحقِّ.

وقيل: إنَّ الضمير في «له» والخطابَ في «إنك» للقبطيِّ، ودلَّ عليه قوله: «يستصرخه». وهو خلافُ الظاهر، ويُبعده الإظهارُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ فإنَّ الظاهر على ذاك «به» بدل «الذي».

والبطش: الأخذُ بصولةٍ وسطوةٍ، والتنوينُ في «عدوٌّ» للتفخيم، أي: عدوٌّ عظيمُ العداوة، ولإرادة ذلك لم يُضِفْه، والمراد بالذي هو عدوٌّ لهما القبطيُّ، وقد كان القبطُ أعظمَ الناس عداوةً لبني إسرائيل. وقيل: عداوتُه لهما لأنه لم يكن على دينهما.

وقرأ الحسن وأبو جعفر: «يبطُش» بضمِّ الطاء[1].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيليُّ الذي يستصرخُه على ما روي عن ابن عباس وأكثرِ المفسرين، وكأنه توهَّم إرادةَ البطش به دون القبطيِّ من تسمية موسى عليه السلام إياه غَوِيًّا.

وقال الحسن: قاله القبطيُّ الذي هو عدوٌّ لهما، كأنه توهَّم من قوله للإسرائيليِّ: «إنك لغويٌّ» أنه الذي قتل القبطيَّ بالأمس له. ولا بُعْدَ فيه لأنَّ ما ذكر إمَّا إجمالٌ لكلامٍ يُفهم منه ذلك، أو لأنَّ قوله ذلك لمظلوم انتصر به خلافُ الظاهر، فلا بُعْدَ للانتقال منه لذلك.

والذي في التوراة التي بأيدي اليهود اليومَ ما هو صريحٌ في أنَّ هذين الرجلين كانا من بني إسرائيل، وأمَّا الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيليٌّ والآخر مصريٌّ[2]. ووُجِّه أمرُ العداوة على ذلك بأنَّ هذا الذي أراد عليه السلام أن يبطش به كان ظالماً لمن استصرخه، فيكون عدوًّا له، وعاصياً لله تعالى فيكون عدوًّا

(١) النشر ٢/ ٢٧٤ عن أبي جعفر، وذكرها عنه وعن الحسن أبو حيان في البحر ٧/ ١١٠.
(٢) العهد القديم، سفر الخروج، ص١٥٥.

لموسى عليه السلام، ويحتمل أن تكون عداوتُه لهما لكونه مخالفاً لِمَا هما عليه من الدِّين وإن كان إسرائيليًّا.

وفيها أيضاً ما هو صريحٌ في أنَّ الظالم هو قائلُ ذلك[١]. وأنت تعلمُ أنَّ هذه التوراة لا يُلتفت إليها فيما يكذِّبُ القرآن أو السنَّة الصحيحة، وهي فيما عدا ذلك كسائر أخبار بني إسرائيل لا تصدَّق ولا تكذَّب، نعم قد يُستأنس بها لبعض الأمور.

ثم إنَّ ما فيها من قصة موسى عليه السلام مخالفٌ لِمَا قصَّه الله تعالى منها هنا وفي سائر المواضع زيادةً ونقصاً، وهو ظاهرٌ لمن وقف عليها، ولا يخفى الحكم في ذلك، وقد خلت هنا عن ذكر مجيءِ مؤمن آل فرعون ونصحه لموسى عليه السلام، وكذا عن ذِكْرِ ما يدلُّ على قوله: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي يفعل كلَّ ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب.

وقيل: المتعظِّم الذي لا يتواضَعُ لأمرِ الله تعالى، وأصلُه على ما قيل: النخلةُ الطويلة، فاستُعير لِمَا ذُكر إمَّا باعتبار تعاليه المعنويِّ أو تعظُّمِه.

وأخرج ابن المنذر عن الشعبيِّ[٢] أنه قال: مَن قتل رَجلين ـ أي: بغير حقٍّ ـ فهو جبَّار، ثم تلا هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم نحوَه عن عكرمة[٣].

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾ بين الناس، فتدفعَ التخاصُمَ بالتي هي أحسنُ، ولمَّا قال هذا انتشر الحديثُ وارتقى إلى فرعون ومَلَئِهِ فهمُّوا بقَتْلِ موسى عليه السلام، فخرج مؤمنٌ من آلِ فرعون ـ هو ابن عمِّ فرعون ـ ليخبره بذلك وينصحَه، كما قال عزَّ وجل:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ الآيةَ، واسمه قيل: شمعان، وقيل: شمعون بن إسحاق، وقيل: حزقيل، وقيل غيرُ ذلك.

وكونُ هذا الرجل الجائي مؤمنُ آل فرعون هو المشهور. وقيل: هو غيرُه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٣.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٨.

و«يسعى» بمعنى: يسرع في المشي، وإنما أسرع لبُعْدِ محلِّه ومزيدِ اهتمامه بإخبار موسى عليه السلام ونُصْحِه. وقيل: «يسعى» بمعنى: يقصدُ وَجْهَ الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩] وهو وإن كان مجازاً يجوزُ الحملُ عليه لشهرته.

والظاهر أنَّ «من أقصى» صلةُ «جاء»، وجملة «يسعى» صفة «رجل». وجوِّز أن يكون «من أقصى» في موضع الصفة لـ «رجل»، وجملة «يسعى» صفة بعد صفةٍ.

وجوِّز أن تكون الجملة في موضع الحال من «رجل»؛ أمَّا إذا جُعل الجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة منه فظاهرٌ؛ لأنه وإن كان نكرةً ملحقٌ بالمعارف، فيَسُوغُ أن يكون ذا حالٍ، وأما إذا كان متعلِّقاً بـ «جاء» فمنع ذلك الجمهورُ وأجازه سيبويه[1]. وجوِّز أن يعلَّق الجارُّ والمجرورُ بـ «يسعى»، وهو كما ترى.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ وهم وجوهُ أهل دولةِ فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، وإنما سمِّي التشاورُ ائتماراً لأنَّ كلًّا من المتشاورين يأمر الآخَرَ ويأتمر ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ اللامُ للبيان كما في: سقياً لك، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ أعني: أعني، ولم يجوِّز الجمهور تعلُّقه بـ «الناصحين» لأنَّ «أل» فيه اسمٌ موصول، ومعمولُ الصلة لا يتقدَّم الموصولَ، ولا بمحذوفٍ مقدَّمٍ يفسِّره المذكورُ؛ لأنَّ ما لا يعمل لا يفسِّر عاملاً.

وعند مَن جوَّز تقدُّمَ معمولِ الصلة إذا كان الموصول «أل» خاصةً لكونها على صورة الحرف، أو إذا كان المتقدِّم ظرفاً للتوسُّع فيه، أو قال: إنَّ «أل» هنا حرفُ تعريفٍ لإرادة الثبوت = يجوز أن يكون «لك» متعلِّقاً بـ «الناصحين»، أو بمحذوفٍ يفسِّره ذلك.

واستدلَّ القرطبيُّ[2] وغيره بالآية على جواز النميمة لمصلحةٍ دينية.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من المدينة ممتثلاً ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

(١) سلف ص١٢٩ من هذا الجزء.

(٢) كما في الإكليل للسيوطي ص٢٠٣، ولم نقف عليه في تفسير القرطبي.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ أي: صَرَفَ وجهه ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: ما يقابل جانبها، و«تلقاء» في الأصل مصدرٌ انتصب على الظرفية، و«مدين» قريةُ شعيب سُمِّيت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم يكن في سلطان فرعون، ولذا توجَّه لقريته. وقيل: توجَّه إليها لمعرفته به. وقيل: لقرابته منه عليهما السلام، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وسط الطريق المؤدِّي إلى النجاة، وإنما قال عليه السلام ذلك توكُّلاً على الله تعالى، وثقةً بحُسْنِ توفيقه عزَّ وجلَّ، وكان عليه السلام لا يعرف الطرق، فعنَّ[١] ثلاثُ طرائقَ، فأخذ في الوُسْطى وأخذ طالبوه في الأُخريين وقالوا: المريبُ لا يأخذ في أعظم الطرق ولا يسلكُ إلا بُنَيَّاتِها، فبقي ثماني ليالٍ وهو حافٍ لا يَطْعَمُ إلَّا ورق الشجر.

وعن سعيد بن جبير: أنه عليه السلام لم يصل حتى سقط خفُّ قدميه.

وروي أنه عليه السلام أخذ يمشي من غير معرفةٍ، فهداه جبريلُ عليه السلام إلى مَدْيَن.

وعن السدِّي أنه عليه السلام أخذ في بنيَّات الطريق، فجاءه ملكٌ على فرسٍ بيده عنزةٌ فلمَّا رآه موسى عليه السلام سجد له، أي: خضع من الفَرَق، فقال: لا تسجد لي ولكن اتبعني. فتبعه وانطلق حتى انتهى به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: وَصَلَ إليه، وَوَرَدَ الوُرودُ بمعنى الدخولِ وبمعنى الشربِ، وليس شيءٌ منهما مراداً. والمراد بماء مدين بئرٌ كانوا يسقون منها، فهو مجازٌ من إطلاق الحالّ وإرادة المحلِّ.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي: فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: جماعةً كثيرةً مختلفي الأصناف، ويُشعر بالقيد الأول التنوين، وبالثاني «من الناس» لشموله للأصناف المختلفة، وهي فائدةُ ذِكْرِه.

وقيل: فائدتُه تحقيرُ أولئك الجماعةِ، وأنهم لئامٌ لا يُعرفون بغير جنسهم، أو محتاجون إلى بيانِ أنهم من البشر.

﴿يَسْقُونَ﴾ الظاهر أنهم كانوا يسقون مواشيَ مختلفةَ الأنواع، بمعنى أنَّ منهم

(١) عَنَّ له كذا عَنَنًا: عَرَض واعترض. مختار الصحاح (عنن).

مَن كان يسقي إبلاً، ومنهم مَن كان يسقي غنماً، وهكذا، وتخصيصُ سَقْيِهم بنوعٍ يحتاج إلى توقيف.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: في مكانٍ أسفلَ من مكانهم. وقيل: مِن قُرْبهم، أو: مِن سواهم، أو: مما يلي جهته إذا قدم عليهم، وإلى هذا الأخير ذهب ابنُ عطية حيث قال: المعنى: ووجد من الجهة التي وصل إليها قَبْلَ أن يصل إلى الأمَّة(١).

﴿ٱمْرَأَتَيْنِ﴾ اسم إحداهما قيل: ليّا، وقيل: عبرا، وقيل: شرفا، واسم الأخرى قيل: صفوريا، وقيل: صفوراء، وقيل: صفيراء. وفي «الكشاف»: صفيراء اسم الصغرى، واسم الكبرى صفراء(٢).

﴿تَذُودَانِۖ﴾ كانتا تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء؛ قاله ابن عباس وغيره. وقيل: تمنعان غنمهما عن التقدُّم إلى البئر لئلا تختلط بغيرها، وحُكي ذلك عن الزجَّاج(٣). وقال قتادة: تمنعان الناس عن غنمهما. وقال الفراء(٤): تحبسان غنمهما عن أن تتفرَّق. وفي جميع هذه الأقوال تصريحٌ بأنَّ المَذُودَ كان غنماً، والظاهرُ أنَّ ذلك عن توقيفٍ.

وقيل: «تذودان» عن وجوههما نظر الناظرين لتستُّرهما. وهذا كما ترى.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ أي: ما مخطوبُكما ومطلوبكما مما أنتما عليه من التأخُّر والذود، ولمَ لا تباشران السقي كغيركما؟ وأصلُ الخطب مصدرُ خَطَبَ بمعنى طلب، ثم استُعمل بمعنى المفعول. وفي سؤاله عليه السلام إياهما دليلٌ على جواز مكالمة الأجنبية فيما يعني.

وقرأ شمر: «ما خِطْبُكما» بكسر الخاء؛ قال في «البحر»: أي: مَن زَوْجُكما؟ ولمَ لا يسقي هو؟ وهذه قراءةٌ شاذةٌ نادرة(٥). اهـ. ولا يخفى ما فيه وإباءُ الجواب عنه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

(٢) الكشاف ٣/ ١٧١.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٩، وفيه: أي: تذودان غنمهما عن أن يقرب موضع الماء؛ لأنها يطردها عن الماء من هو على السقي أقوى منهما.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٥.

(٥) البحر ٧/ ١١٣.

وقال بعضهم: الخِطبُ فيها بمعنى المخطوب والمطلوب كما في القراءة المتواترة، ونظيره الحِبُّ بكسر الحاء المهملة بمعنى المحبوب.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: عادتنا أنْ لا نسقيَ حتى يَصْرِفَ الرعاةُ مواشِيَهم ـ بعد ريِّها ـ عن الماء عجزاً عن مُساجَلَتهم، لا أنَّا لا نسقي اليوم إلى تلك الغاية.

وقرأ ابن مصرف: «لا نُسْقي» بضم النون من الإسقاء[1].

وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وقتادة، والعربيان: ابن عامر وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» بفتح الياء وضمِّ الدال[2]، أي: حتى يَصْدُرَ الرعاةُ بأغنامهم. وسأل بعض الملوك عن الفرق بين القراءتين من حيث المعنى، فأجيب بأن قراءة «يَصْدُرَ» بفتح الياء تدلُّ على فَرْطِ حيائهما وتواريهما من الاختلاط بالأجانب، وقراءة «يُصْدِرَ» بضمِّ الياء تدلُّ على إصدار الرعاة المواشي، ولم يُفهم منها صدورُهم عن الماء.

وقرئ بزايٍ خالصةٍ[3]، وبحرفٍ بين الصَّاد والزاي[4].

وقرئ: «الرُّعاء» بضمِّ الراء[5]، والمعروف في صيغ الجمع فِعَال بكَسْرِ الفاء كما في قراءة الجمهور، وأمَّا فُعال بالضم فعَلَى خلافِ القياس؛ لأنه من أبنية المصادر والمفردات كنُباح وصُراخ. واذا استُعمل في معنى الجمع كما في القراءة الشاذة، فقيل: هو اسمُ جمعٍ لا جمعٌ، وقيل: إنه جمعٌ أصليٌّ، وقيل: إنه جمعٌ ولكنَّ الأصل فيه الكسرُ، والضمُّ فيه بدلٌ من الكسر كما أنه بدل من الفتح في نحو سُكارى، والوارد منه في كلام العرب ألفاظٌ محصورةٌ ذكرها الخفاجيُّ في «شرح

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٠، والبحر ٧/ ١١٣.

(٢) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١ عن ابن عامر وأبي عمرو وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ١١٣.

(٣) الإملاء ٤/ ١٤٧.

(٤) أي: بإشمام الصاد زاياً، وبه قرأ الأخوان وخلف ورويس، وقرأ غيرهم بالصاد الخالصة. البدور الزاهرة ص٢٤٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١١٣.

درة الغوَّاص»، والمشهورُ منها على ما قال ثمانيةٌ، وقد نَظَمها صَدْرُ الأفاضل - لا الزمخشريُّ على الأصحِّ - بقوله:

ما سمعنا كَلِماً غيرَ ثمان ... هي جمعٌ وهي في الوزن فُعال
فرُبابٌ وفُرارٌ وتُؤامٌ ... وعُرامٌ وعُراقٌ ورُخال
وظُؤارٌ جمع ظئرٍ وبُساطٌ ... جمع بسطٍ هكذا فيما يقال(١)

وذهب أبو حيان إلى أنَّ «الرِّعاء» في قراءة الجمهور ليس بقياسٍ أيضاً؛ قال: لأنه جمعُ راعٍ، وقياسُ «فاعِلٍ» الصفةِ التي للعاقل أن تُكسَّر على فُعَلَة كقاضٍ وقُضاة، وما سوى جَمْعِه هذا فليس بقياس(٢).

وقرأ عياش عن أبي عمرو: «الرَّعاء» بفتح الراء، وهو مصدر أُقيم مقام الصفة، فاستوى لفظُ الواحد والجماعة فيه، وجوِّز أن يكون مما حذف منه المضاف(٣)، أي: أهلُ الرعاء.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ إبداءٌ منهما للعذر له عليه السلام في تولِّيهما للسقي بأنفسهما، كأنهما قالتا: إنَّا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدرُ على مُساجَلةِ الرجال ومزاحمتِهم، وما لَنا رجلٌ يقومُ بذلك، وأبونا شيخٌ كبيرُ السِّن قد أضعفه الكبر، فلا بدَّ لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناسُ أوطارهم من الماء.

وذكر بعضُهم أنه عليه السلام أخرج السؤال على ما يقتضيه كرمُه ورحمتُه بالضعفاء، حيث سألهما عن مطلوبهما من التأخُّر والذودِ قصداً لأنْ يجاب بطلب

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): الرباب جمع رُبَّى: الشاة الحديثة العهد بالنتاج. والفُرار جمع فَرير: ولد البقرة الوحشية. والتؤام جمع توأم: المولود مع قرينه. والعُرام بالعين والراء المهملتين بمعنى العراق، وهو جمعُ عَرْقِ العَظْم: الذي عليه بقية لحم. والرُّخال جمع رِخلة بالكسر وبهاء وككَتِف: الأنثى من أولاد الضأن. والظُّؤار جمع ظِئْر: المُرضع. والبُساط جمع بسط: الناقة التي تخلَّى مع ولدها. اهـ منه.
قلنا: وزاد ابن بري كما في اللسان (عرق): رُذال جمع رَذْل، ونُذال جمع نَذْل، وثُناء جمع ثِنْي للشاة تلد في السنة مرتين، وظُهار جمع ظَهْر للريش على السهم، وبُراء جمع بريء، وعَدَّ العُرام والعُراق واحداً، فصارت الجملة - كما قال - اثني عشر حرفاً.
(٢) البحر ١١٣/٧.
(٣) المصدر السابق.

المعونة، إلا أنهما لجلالةِ قَدْرِهما حَمَلَتا قوله على ما يجاب عنه بالسبب وفي ضِمْنِه طلبُ المعونة؛ لأنَّ إظهارهما العجزَ ليس إلا لذلك.

وقيل: ليس في الكلام ما يدلُّ على ضَعْفِهما، بل فيه أماراتٌ على حيائهما وسترهما، ولو أرادتا إظهارَ العجز لقالتا: لا نقدِرُ على السقي، ومعنى «وأبونا شيخ كبير»: أنَّا مع حيائنا إنما تصدَّينا لهذا الأمر لكبره وضعفه، وإلا كان عليه أن يتولَّاه.

ولعل الأَوْلَى أن يقال: إنهما أرادتا إظهار العجز عن المساجلة؛ للضَّعْفِ، ولِمَا جُبِلا عليه من الحياء، والكلامُ وإنْ لم يكن فيه ما يدلُّ على ضَعْفِهما فيه ما يشير إليه لمن له قلبٌ.

ويُفهم من بيان معنى جوابهما المارِّ آنفاً أنَّ جملة «أبونا شيخ كبير» عطفٌ على مقدَّرٍ، وجوِّز أن تكون حالاً، أي: نترك السقي حتى يصدر الرعاءُ والحالُ أبونا شيخٌ كبيرٌ.

وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيبٌ عليه السلام.

فإن قيل: كيف ساغ لنبيٍّ الله تعالى أن يَرْضَى لابنتيه بسقي الغنم؟

فالجواب: أنَّ الأمر في نفسِه ليس بمحظورٍ، فالدِّين لا يأباه، وأمَّا المروءةُ فالناسُ مختلفون في ذلك، والعاداتُ متباينةٌ فيه، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوال العجم، ومذهبُ أهل البدو فيه غيرُ مذهبِ أهل الحَضَر، خصوصاً إذا كانت الحالُ حالَ ضرورةٍ[(١)].

وذهب جماعةٌ إلى أنه ليس بشعيبٍ عليه السلام، فأخرج سعيد بن منصور، وابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي عبيدة أنه قال: كان صاحبُ موسى عليه السلام أثرون ابن أخي شعيبٍ النبيِّ عليه السلام[(٢)]. وحكى هذا القولَ

(١) الكشاف ٣/ ١٧١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ١٢٦. وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٢٢٣.

عنه أبو حيان أيضاً، إلا أنه ذكر: هارون، بدل: أثرون. وحكاه أيضاً عن الحسن إلّا أنه ذكر بدله: مروان(١).

وحكى الطبرسيُّ عن وهبٍ وسعيد بنِ جبير نحوَ ما حكاه أبو حيان عن أبي عبيدة(٢).

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: بلغني أنَّ أبا الامرأتين ابنُ أخي شعيب، واسمُه: رعاويل، وقد أخبرني مَن أصدِّقُ أنَّ اسمه في الكتاب يثرون كاهن مدين، والكاهن حبر(٣).

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: الذي استأجر موسى عليه السلام يثرب صاحب مدين(٤). وجاء في روايةٍ أخرى عنه أن اسمه: يثرون، وهو موافقٌ لِمَا نُقِلَ عن الكتاب من الاسم، ولم يذكر في هاتين الروايتين نسبتُه إلى شعيبٍ عليه السلام، فيحتمل أنَّ المسمَّى بما فيها ابن أخيه، ويحتمل أنه رجلٌ أجنبيٌّ عنه، فقد قيل: إنَّ أباهما ليس ذا قرابةٍ من شعيب عليه السلام، وإنما هو رجلٌ صالحٌ.

وحكى الطبرسيُّ عن بعضهم أنَّ يثرون اسم شعيب(٥). وقد أخبرني بعضُ أهل الكتاب بذلك أيضاً، إلا أنه قال: هو عندنا يثرو، بدون نونٍ في آخره، والذي رأيتُه أنا في الفصل الثاني من السفر الثاني من توراتهم ما ترجمتُه: ولمَّا سمع فرعون بهذا الخبر ـ أي: خبر القتل ـ طلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من بين يديه وصار إلى بلدِ مدين، وجلس على بئرِ ماءٍ، وكان لإمام مدين سبعُ بناتٍ، فجاءت ودلَّت وملأت الأحواض لسقي غنم أبيهنَّ، فلما جاء الرعاة فطردوهنَّ قام موسى فأغاثهنَّ وسقى غنمهنَّ، فلمَّا جئن إلى رعوايل أبيهنَّ قال: ما بالُكنَّ أسرعتُنَّ المجيءَ اليوم.. إلخ(٦).

---

(١) البحر ٧/ ١١٤.
(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٢٨٢، وفيه: يثرون.
(٣) الدر المنثور ٥/ ١٢٦.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢٣، وفيه: يثرى.
(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٨٢.
(٦) العهد القديم، سفر الخروج، ص١٥٥، وفيه: رعوئيل، بدل: رعوايل.

وفي أول الفصل الثالث منه ما ترجمته: وكان موسى يرعى غنم يثرو حَمِيهِ إمام مدين. . إلخ[١]. فلا تغفل.

وفي «البحر» عند الكلام في تفسير «إنَّ أبي يدعوك»: قيل: كان عمَّها صاحب الغنم وهو المزوِّج، عبَّرت عنه بالأب إذ كان بمثابته[٢]. والظاهر أنَّ هذا القائلَ يقول: إنهما عَنَتَا بالأب هنا العمَّ.

وأنت تعلم أنَّ هذا وأمثالَه مما تقدَّم مما لا يقال من قِبَلِ الرأي، فالمدارُ في قبول شيءٍ من ذلك خبرٌ يعوَّلُ عليه، والأخبار التي وقفنا عليها في هذا المطلب مختلفةٌ، ولم يتميَّز عندنا ما هو الأرجحُ فيما بينها، وكأنِّي بك تعوِّلُ على المشهور الذي عليه أكثرُ المفسرين، وهو أنَّ أباهما على الحقيقة شعيبٌ عليه السلام، إلى أن يظهر لك ما يوجبُ العدولَ عنه.

والظاهرُ من قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أنه عليه السلام سارع إلى السقي لهما رحمةً عليهما، ومنشأُ الترحُّمِ كونُهما على الذَّوْدِ، وكونُ الأمَّةِ من الناس على السقي، ولهذا ذهب الشيخ عبد القاهر[٣] وصاحب «الكشاف»[٤] إلى أنَّ حَذْفَ المفعول في «يسقون» و«تذودان» للقَصْدِ إلى نفس الفعل، وتنزيلِه منزلةَ اللازم، أي: يَصْدُرُ منهم السقيُ ومنهما الذود، وقالا[٥]: إنَّ كونَ المَسْقيِّ والمَذودِ إبلاً أو غنماً خارجٌ عن المقصود، بل يُوهِمُ خلافَه؛ إذ لو قيل أو قدِّر: يسقون إبلهم، وتذودان غنمهما، لتُوهِّم أنَّ الترحُّم عليهما ليس من جهةِ أنهما على الذود والناس على السقي، بل من جهةِ أنَّ مَذُودَهما غنمٌ ومَسْقِيَّهم إبلٌ، بناءً على أنَّ محطَّ الفائدة في الكلام البليغ هو القيدُ الأخير.

وخالفهما في ذلك السكاكيُّ[٦]، فذهب إلى أنَّ حذف المفعول من «يسقون»

(١) العهد القديم ص١٥٦، وفيه: يِثْرو.
(٢) البحر ٧/ ١١٤.
(٣) في دلائل الإعجاز ص١٦١-١٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٩.
(٤) في الكشاف ٣/ ١٧٠-١٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٦٩.
(٥) في (م): وقال.
(٦) في مفتاح العلوم ص٢٢٩، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٦٩.

و«تذودان» لمجرَّدِ الاختصار، والمراد: يسقون مواشيهم وتذودان غنمهما، وكذا سائرُ الأفعال المذكورة في هذه الآية.

واختاره العلَّامة الثاني فقال: إنَّ هذا أقربُ إلى التحقيق؛ لأنَّ الترحُّم لم يكن من جهةِ صدورِ الذود عنهما وصدورِ السقي من الناس، بل من جهة ذودهما غنمهما، وسقيِ الناس مواشِيَهم، حتى لو كانتا تذودان غير غنمهما بل مواشيهم، وكان الناس يسقون غير مواشيهم بل غنمهما مثلاً، لم يصحَّ الترحُّم.

ووافقه في ذلك السيد السند، وقال في تحقيق المذهبين: إنَّ الشيخين[1] اعتبرا المفعول الذي نزل الفعلان بالنسبة إليه هو الإبلُ والغنم مثلاً، أي: النوعين من المواشي بدون الإضافة، كما يدلُّ عليه قولُهما: إنَّ كون المسقيِّ والمذود إبلاً أو غنماً.. إلخ، وكلٌّ منهما مقابلٌ للآخر في نفسه، وجعلا ما يضاف إليه كلٌّ في القول أو التقدير المفروض خارجاً عن المفعول من حيث إنه مفعولٌ، غيرَ ملحوظٍ معه، فالمفعولُ عندهما ليس إلا مطلقَ الإبل والغنم، فلو قدِّر المفعولُ لأدَّى إلى فساد المعنى، فإنهما لو كانتا تذودان إبلاً لهما على سبيل الفرض لكان الترحُّم باقياً بحاله؛ لأنه إنما كان لعدم قدرتهما على السقي، والسكاكيُّ نظر إلى أنَّ المفعول هو الغنم المضافةُ إليهما والمواشي المضافةُ إليهم، وكلٌّ واحدٍ منهما يقابل الآخر من حيث إنه مضافٌ، فلو لم يقدَّر المفعول يَفْسُدُ المعنى، وهذا أدقُّ نظراً وأصحُّ معنًى. انتهى.

وتعقَّبه المولى عبد الحكيم السيالكوتيُّ بقوله: وفيه بحثٌ؛ لأن عدم التقدير إن قُصِد به التعميمُ ـ أي: يسقون مواشِيَهم وغيرَ مواشيهم، وتذودان غَنَمَهما وغيرَ غَنَمِهما ـ يلزم الفساد، أما إذا قُصِدَ به مجرَّد السقي والذود من غير ملاحظة التعلُّق بالمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فلا؛ لأنَّ كون طبيعة السقي والذود منشأ الترحُّم لا يقتضي أن يكون عند تعلُّقه بمفعولٍ مخصوصٍ كذلك حتى يلزم أن يكون سقيُ غيرِ مواشيهم وذودُ غير غنمِهم محلًّا للترحُّم، فتدبر، فإنَّ منشأ ما ذكره السكاكيُّ عدمُ الفرق بين الإطلاق والعموم. انتهى.

---

(١) يعني الشيخ عبد القاهر والزمخشري.

ولا يخفى أنه ينبغي أن يضم إلى طبيعة السقي والذود بعض الحيثيات، كحيثيةِ تحقُّقِ طبيعة السقي من أقوياءَ متغلِّبين، وتحقُّق طبيعة الذود من امرأتين ضعيفتين مستورتين، في موضعٍ هو مجتمعُ الناس للسقي، وإلا فالظاهرُ أنَّ مجرَّد طبيعة السقي والذودِ لا تصلُحَ منشأً للترحُّم.

وقال بعض الأجلَّة[1]: تركُ المفعول في «يسقون» و«يذودان» لأن الغرض هو الفعلُ لا المفعولُ؛ إذ هو يكفي في البعث على سؤال موسى عيه السلام، وما زاد على المقصود لكنةٌ وفضول، وأما البعثُ على المرحمة فليس هذا موضعُه، فإنَّ له قولهما: «لا نسقي حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخٌ كبير» ومَن لم يفرِّق بين البعثين قال ما قال.

ورُدَّ بأنَّ منشأ السؤال هو المرحمةُ لحالهما كما صرَّحوا به، فسؤالُه عليه السلام للتوسُّلِ إلى إعانتهما وبرِّهما لتفرُّس ضَعْفِهما وعَجْزِهما، ولولاه لم يكن للتكلُّم مع الأجنبية داعٍ، وقولُهما: «لا نسقي» إلخ باعثٌ لمزيد المرحمة؛ لقبولها للزيادة والنقص.

وتعقِّب بأنه إنما يتمُّ لو سلِّم أنه عليه السلام تفرَّس ضَعْفَهما وعَجزهما لأمورٍ شاهدها، وإلَّا فالذودُ لا يدلُّ على ذلك؛ إذ يتحقَّق للضعف ولغيره.

وقد نقل الخفاجيُّ كلامَ جمعٍ من الفضلاء في هذا المقام منه ما ذكرنا عن بعض الأجلَّة، وردَّه واعتَرض بما اعْتَرَضَ، ثم قال: وأمَّا ما اعتُرض به على المرحمة فخيالٌ فاسدٌ[2]. ومحطُّ كلامه عليه الرحمة الانتصارُ لِمَا ذهب إليه الشيخان، وقد انتصر لهما وقالَ بقولهما غيرُ واحد.

واعترض بعضهم على تقدير المفعول مضافاً بأنَّ الإضافة تُشْعِر بالملك، ولا ملكَ لأحدٍ من الأمَّة والامرأتين، فإنَّ الظاهر في الأمة أنهم كانوا رعاءً، والأغلبُ أنَّ الرِّعاء لا يملكون، والظاهرُ أنَّ ما في يد الامرأتين كان ملكاً لأبيهما. ولا يخفى أنَّ هذا الاعتراض على طرف الثمام، والله تعالى أعلم.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٦٩.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٧٠.

هذا والظاهرُ أنه عليه السلام سقى لهما من البئر التي عليها الناس، ويدلُّ عليه ما روي أنه عليه السلام دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما. وكذا ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إنَّ موسى عليه السلام لمَّا ورد ماء مدين وجد عليه[١] أمةً من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيقُ رفعَها إلَّا عشرةُ رجالٍ؛ فإذا هو بامرأتين قال: ما خطبكما؟ فحدَّثَتاه، فأتى الصخرة فرفعها وحده ثم استقى[٢]، فلم يستسق إلَّا دلواً واحداً حتى رَوِيَتِ الغنم[٣]. لكنَّ هذا مخالفٌ لِمَا يقتضيه ظاهر الآية من أنه عليه السلام حين ورد ماء مدين وجد الأمَّة يسقون ووجد الامرأتين تذودان، وهذا ظاهرٌ في مقارنة وجدانهما لوجدانهم وذودهما لسقيهم، ولا يكاد يُفهم منه أنَّ وجدانهما بعد فراغهم من السقي كما يقتضيه الخبر، فلعل الخبر غير صحيح[٤]، وتصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار، وكأنَّ مَن يقول بصحته يمنع اقتضاءَ الآية كونَ وجدان الأمة يسقون ووجدانِ الامرأتين تذودان في أول وقت الورود، فإنه يقال: لمَّا ورد رسول الله ﷺ المدينةَ وجب الصيامُ ووجبت الزكاةُ مثلاً، مع أنَّ وجوب كلٍّ ليس في أول وقت الورود، فيجوز أن يكون عليه السلام قد وجد أمةً يسقون أول وقت وروده، وبعد أن فرغوا من السقي ووضعوا الصخرة على البئر وجد امرأتين تذودان فخاطبهما بـ «ما خطبكما»، فكان ما كان، ويُحمل ذودهما على منع غنمهما عن التقدُّم إلى البئر لعلمهما أنها قد أُطبق عليها صخرةٌ لا يقدرون على رفعها، ويتكلَّف في توجيه الجواب ما يتكلَّف.

---

(١) في (م): عليها.
(٢) في (م): استسقى.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٦٦٤، والمستدرك ٢/ ٤٠٧، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٢٤-١٢٥. وهو عندهم مطولٌ، ولم ترد هذه القطعة من الخبر في المستدرك.
(٤) بل إسناده صحيح، فقد أخرجه ابن أبي شيبة ومن طريقه ابن أبي حاتم، والحاكم من طريق أحمد بن مهران الأصبهاني، عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر ﷺ، وهذا إسناد صحيح كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

أو يقول: الآيةُ على ظاهرها، ويسلِّم اقتضاءَه اتحادَ الوجدانين والذودِ والسقي بالزمان، ويمنع أن يكون في الخبر ما ينافي ذلك؛ لجواز أن يكون المعنى: لمَّا ورد ماء مدين وجد عليه أمةً يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، فلما فرغوا أعادوا الصخرةَ فإذا بالامرأتين حاضرتان عنده بين يديه، فسألهما فحدَّثتاه.. إلخ، فما بعد الفراغ من السقي ليس وجدانَ الامرأتين تذودان وإنما هو حضورُهما بين يديه. والكلُّ كما ترى، وكأني بك تعتمد عدمَ صحة الخبر.

وقيل: إنه عليه السلام سقى لهما من بئرٍ أخرى، فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما في خبر طويل أنه عليه السلام لمَّا سأل الامرأتين وأجابتا قال: فهل قربَكما ماء؟ قالتا: لا، إلا بئرٌ عليها صخرةٌ قد غطِّيت بها لا يطيقُها نفر، قال: فانْطَلِقا فأرِيَانيها. فانطلقتا[2] معه، فقال بالصخرة بيده فنحَّاها، ثم استقى لهما سَجْلاً واحداً فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان هناك، وهو على ما روي عن ابن مسعود ظلُّ شجرةٍ قيل: كانت سمرةً. وقيل: هو ظلُّ جدارٍ لا سقفَ له.

وقيل: إنه عليه السلام جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهَه من الشمس، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾. وهو كما ترى.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ أي: لأيِّ شيءٍ تُنزله من خزائن كرمك إليَّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جلَّ أو قلَّ ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: محتاجٌ، وهو خبرُ «إنَّ» وبه يتعلَّق «لِمَا»، ولِمَا أشرنا إليه من تضمُّنه معنى الاحتياج عدِّي باللام، وجوِّز أن يكون مضمَّناً معنى الطلب، واللامُ للتقوية، وقيل: يجوز أن تكون للبيان فتتعلَّق بأعني محذوفاً.

و«ما» على جميع الأوجه نكرةٌ موصوفةٌ، والجملةُ بعدها صفتُها، والرابطُ محذوفٌ، و«من خير» بيانٌ لها، والتنوينُ فيه للشيوع.

والكلامُ تعريضٌ لِمَا يَطْعَمُه؛ لِمَا ناله من شدة الجوع، والتعبير بالماضي بدل المضارع في «أَنزلْتَ» للاستعطاف، كالافتتاح بـ«ربِّ»، وتأكيدُ الجملة للاعتناء.

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٤، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): فانطلقا، والمثبت من الدر المنثور.

ويدلُّ على كون الكلام تعريضاً لذلك ما أخرجه ابن مردويه(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمَّا سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولَّى إلى الظلِّ فقال: ربِّ إنِّي لِما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقير، [قال:] «إنه يومئذٍ فقيرٌ إلى كفٍّ من تمر».

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر(٢) وابن أبي حاتم، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس قال: لقد قال موسى عليه السلام: «ربِّ إنِّي لِمَا أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير» وهو أكرمُ خَلْقِه عليه، ولقد افتقر إلى شقِّ تمرةٍ، ولقد لصق بطنُه بظهره من شدَّة الجوع(٣).

وفي روايةٍ أخرى عنه: إنه عليه السلام سأل فلقاً من الخبز يشدُّ بها صُلْبَه من الجوع(٤).

وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين وأنه كما رَوَى أحمدُ في «الزهد» وغيرُه عن الحبر: ليتراءى خضرة البقل من بطنه من الهزال(٥).

وإلى كون الكلام تعريضاً لذلك ذهب مجاهدٌ وابن جبير وأكثر المفسرين. وكان عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه يقول: والله ما سأل إلَّا خبزاً يأكله.

وجوِّز أن تكون اللام للتعليل و«ما» موصولةً و«من» للبيان، والتنكيرُ في «خير» لإفادة النوع والتعظيم، وصلة «فقير» مقدَّرة، أي: إني فقيرٌ إلى الطعام ـ أو من الدنيا ـ لأجل الذي أنزلته إليَّ من خير الدِّين وهو النجاةُ من الظالمين، فقد كان عليه السلام عند فرعون في ملكٍ وثروةٍ، وليس الغرضُ عليه التعريضَ لِمَا يَطْعَمُه،

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) قوله: ابن المنذر، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل والدر المنثور ٥/ ١٢٥، والكلام منه.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٦، والأحاديث المختارة ١٠/ ١٥٢، وهو في تفسير ابن أبي حاتم بلفظ آخر، وسيرد قريباً.
(٤) أخرج هذه الرواية البيهقي في الزهد (٤٤٤).
(٥) لم نقف عليه عند أحمد، وأخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦١، وعزاه لأحمد السيوطي في الدر ٥/ ١٢٥.

ولا التشكِّي والتضجُّر، بل إظهار التبجُّح والشكر على ذلك، ووجهُ التعبير بالماضي عليه ظاهر.

وأنت تعلم أنَّ هذا خلافُ المأثور الذي عليه الجمهور، ومثله في ذلك ما روي عن الحسن أنه عليه السلام سأل الزيادةَ في العلم والحكمة، ولا يخلو أيضاً عن بُعْدٍ.

وجاء عن ابن عباس أنَّ الامرأتين سمعتا ما قال فرجعتا إلى أبيهما، فاستنكر سرعةَ مجيئهما فسألهما فأَخْبَرَتاه، فقال لإحداهما: انطلقي فادْعِيه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل: هي الكبرى منهما، وقيل: الصغرى. وكانتا ـ على ما في بعض الروايات ـ توأمتين وُلِدتْ إحداهما قبل الأخرى بنصف نهار.

وقرأ ابن محيصن: «حْداهما» بحذف الهمزة تخفيفاً[1] على غير قياسٍ، مثل: وَيْلُمِّه، في: ويلُ أمِّه.

﴿تَمْشِى﴾ حال من فاعلِ «جاءت».

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف هو حالٌ من ضمير (تَمْشِى)، أي: جاءته ماشيةً كائنةً على استحياءٍ، فمعناه أنها كانت على استحياءٍ حالتي المشي والمجيء معاً، لا عند المجيء فقط، وتنكيرُ «استحياء» للتفخيم، ومن هنا قيل: جاءت متخفِّرةً، أي: شديدةَ الحياء. وأخرج سعيد بن منصور وابن جريرٍ وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: جاءت مستترةً بكمِّ دِرْعِها على وجهها[2]. وأخرجه ابن المنذر عن [ابن] أبي الهذيل موقوفاً عليه[3]. وفي رَفْعِه إلى عمر روايةٌ أخرى صحَّحها الحاكم بلفظِ: واضعةً ثوبها على وجهها[4].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٥٠، والبحر ٧/ ١١٤.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢١٨، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٢٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٤) قطعة من خبر طويل في المستدرك ٢/ ٤٠٧، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣١، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٥. وقد سلف قطعة منه قريباً، ووقع في المستدرك: يدها، بدل: ثوبها.

﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ مجيئها إياه عليه السلام، كأنه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاءَ سَقْيِكَ، على أنَّ «ما» مصدريةٌ، ولا يجوز أن تكون موصولةً لأنَّ ما يستحقُّ عليه الأجرَ فعلُه لا ما سقاه؛ إذ هو الماءُ المباح.

وأَسْندتِ الدعوةَ إلى أبيها وعلَّلتْها بالجزاء لئلَّا يُوهِمَ كلامُها ريبةً، وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفَّة ما لا يخفى.

وروي أنه عليه السلام أجابها، فقام معها فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فإنِّي أكره أن تصيبَ الريحُ ثيابَكِ فتَصِفَ لي جسدك. ففعلَتْ.

وفي رواية أنه قال لها: كوني ورائي فإنِّي رجلٌ لا أنظر إلى أدبارِ النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً.

وروي عن ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم أنها مَشَتْ أولاً أمامه فألزقت الريح ثوبَها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق. ففعلت، حتى أتيا دار شعيبٍ عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: ما جرى عليه من الخبر المقصوص، فإنه مصدرٌ سمي به المفعولُ كالعَلَل[1].

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يريد فرعونَ وقومَه، وقال ذلك لِمَا أنه لا سلطان لفرعون بأرضه، ويحتمل أنه قاله عن إلهامٍ أو نحوه.

واختلف في الداعي له عليه السلام إلى الإجابة؛ فقيل: الذي يلوحُ من ظاهر النظم الكريم أنَّ موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعيةَ من غير تلعثُمٍ ليتبرَّك برؤية الشيخ ويستظهرَ برأيه، لا طمعاً بما صرَّحت به من الأجر، ألا ترى إلى ما أخرج ابنُ عساكر عن أبي حازم قال: لمَّا دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذا هو بالعشاء، فقال له شعيبٌ: كُلْ. قال موسى: أعوذ بالله تعالى. قال: ولِمَ، أَلَسْتَ بجائعٍ؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لِمَا سقيتُ لهما، وأنا

---

(١) العَلَلَ مصدر علَّ، وهو يأتي بمعنى: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعاً. القاموس (علل).

من أهل بيتٍ لا نبيعُ شيئاً من عمل الآخرة بملءِ الأرض ذهباً. قال: لا والله، ولكنها عادتي وعادةُ آبائي، نَقْري الضيف ونُطعمِ الطعامَ. فجلس موسى عليه السلام فأكل[(١)].

وقيل: الداعي له ما به من الحاجة، وليس بمستنكَرٍ منه عليه السلام أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن مطرِّف بن الشِّخِّير قال: أَمَا والله لو كان عند نبيٍّ الله تعالى شيءٌ ما تبع مَذْقَتَها، ولكنْ حَمَله على ذلك الجهد[(٢)].

واستَدلَّ بعضهم على أنَّ ذهابه عليه السلام رغبة بالجزاء بما روي عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ليُسْمِعَهما، ولذلك قيل له: «ليجزيك». . إلخ.

وأجيب بأنه ليس بنصٍّ؛ لاحتمال أنه إنما فعله ليكون ذريعةً إلى استدعائه لا إلى استيفاءِ الأجر.

ولا ضيرَ فيما أرى أن يكون عليه السلام قد ذهب رغبةً في سدِّ جوعته، وفي الاستظهار برأي الشيخ ومعرفته، ولا أقول: إنَّ الرغبة في سدِّ الجوعة رغبةٌ في استيفاء الأجر على عملِ الآخرة أو مستلزمةٌ لها. ودعوى أنَّ الذي يَلُوحُ من ظاهر النظم الكريم أنه عليه السلام إنما أجاب للتبرُّك والاستظهار بالرأي لا تخلو عن خفاءٍ.

وعملُه عليه السلام بقول امرأةٍ لأنه من باب الرواية، ويُعمل بقول الواحدِ حرًّا كان أو عبداً، ذكراً كان أو أنثى، إذا كان كذلك، ومماشاتُه امرأةً أجنبيةً مما لا بأسٍ به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورُّع.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوَّجها من موسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: لرعي الأغنام والقيامِ بأمرها. وأصلُ الاستئجار كما قال الراغب: طلبُ الشيء بالأجرة، ثم عبِّر به عن تناوله بها، وهو

(١) تاريخ ابن عساكر ٢٣/ ٧٨، وأخرجه أيضاً الدارمي (٦٤٧).
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٢٥، ولم نقف عليه عند أحمد.

المراد هنا، وكذا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[1] وهو تعليلٌ جارٍ مجرى الدليلِ على أنه عليه السلام حقيقٌ بالاستئجار المفهوم من طلب استئجاره. وبعضُهم رتَّب من الآية قياساً من الشكل الأول هكذا: هو قويٌّ أمينٌ، وكلُّ قويٍّ أمينٍ لائقٌ بالاستئجار، ينتج: هو لائقٌ بالاستئجار، وهو المدَّعَى المفهومُ من الطلب.

وتعقِّب بأنَّ هذا ظاهرٌ لو كان «خير» خبراً، وليس هو كذلك.

وأجيب بأنَّ المعنى على ذلك، إلا أنه جُعِلَ اسماً للاهتمام بأمر الخيرية؛ لأنها أمُّ الكمال المبنيُّ عليها غيرها.

وفي «الكشاف»: فإنْ قيل: كيف جُعِلَ «خيرَ مَن استأجَرْتَ» اسماً لـ «إنَّ» و«القويُّ الأمين» خبراً؟ قلت: هو مثل قوله:

ألا إنَّ خيرَ الناس حيًّا وهالكاً أسيرُ ثقيفٍ عندهم في السلاسل

في أنَّ العناية هي سببُ التقديم، وقد صَدَقَتْ حتى جُعِلَ لها ما هو أحقُّ أن يكون خبراً اسماً[2].

وأراد بذلك على ما قيل: أحقيةَ كون «خير» خبراً من حيث الصناعةُ، ووجِّه بأنَّ «خيراً» مضافٌ إلى «مَن» وهي نكرةٌ، فكذا هو، والإخبارُ عن النكرة بالمعرفة خلافُ الظاهر، وإن جوَّزوه في اسمي التفضيل والاستفهام. ولو جُعلت موصولةً فإضافةُ أفعل التفضيل لفظيةٌ لا تفيدُ تعريفاً كما هو أحدُ قولين للنحاة فيها، وعلى القول بإفادتها التعريف يقال: المعرَّفُ باللام أعرفُ من الموصول وما أضيف إليه.

وتعقِّب بأنَّ تعريف «القويّ الأمين» للجنس، وما فيه تعريفُ الجنس قد يُنزَّلُ منزلةَ النكرة.

وأجيب بأنَّ الموصول إذا أريد به الجنسُ كذلك، وهنا تصحُّ هذه الإرادة ليجيء

---

(١) مفردات الراغب (أجر).

(٢) الكشاف ٣/ ١٧٢، والبيت لأبي الشَّغب العبسي، قاله في خالد بن عبد الله القسري، وكان سجيناً عند يوسف بن عمر الثقفي والي العراق. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٢٧.

التعدُّد الذي يقتضيه «خير»، وحيث كان المضافُ إلى شيءٍ دونه يكون «القويُّ الأمين» أحقَّ بالاسمية و«خير» أحق بالخبرية، وإذ قلتَ بأنَّ أحقِّية الخبرية لأنَّ سَوْقَ التعليل يقتضيها إلا أنه عُدِل إلى الاسمية للاهتمام، خلصتَ من كثيرٍ من المناقشات.

وقال لي الشيخ خليل أفندي الآمدي يومَ اجتمعتُ به وأنا شابٌّ عند وروده إلى بغداد، فجرى بحثٌ في هذه الآية الكريمة: إنَّ القياسَ المأخوذ منها من الشكل الثاني هكذا: موسى القويُّ الأمين، وخيرُ مَن استأجرتَ القويُّ الأمين، ينتج: موسى خيرُ مَن استأجَرْتَ.

فقلت: أظهرُ ما يَرِدُ على هذا أنَّ شرط إنتاج الشكل الثاني بحسب الكيفية اختلافُ مقدِّمتيه بالإيجاب والسلب، بأنْ تكون إحداهما موجبةً والأخرى سالبةً، وهو منتفٍ فيما ذَكَرْتَ. فسكت وأعرض عن البحث حَذَراً من الفضيحة.

وأنت تعلم أنَّ أدلة القرآن لا يلزمُ فيها الترتيب الذي وضعه المنطقيون، فذلك صناعةٌ أغنى الله تعالى العرب عنها.

وما ذُكر من أنَّ جَعْلَ «خير» اسماً للاهتمام هو ما اختاره غيرُ واحد، وجوَّز الطيبيُّ أن يكون تقديمه وجَعْلُه اسماً من باب القَلْبِ للمبالغة.

والظاهرُ أنَّ «أل» في «القوي الأمين» للجنس، فيندرجُ موسى عليه السلام، وهو وجهُ الاستدلال، وذِكْرُ الاستئجار بلفظ الماضي مع أنَّ الظاهر ذِكْرُه بلفظ المضارع للدلالة على أنه أمرٌ قد جُرِّبَ وعُرف. وجوَّز الطيبيُّ أن يكون المراد بالقويِّ الأمين موسى عليه السلام، فكأنها قالت: إنَّ خير مَن استأجرتَ موسى، والأولُ أولى.

ثم إنَّ كلامها هذا كلامٌ حكيمٌ جامعٌ لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت الخصلتان ـ أعني الكفايةَ والأمانةَ في القائم بأمرك ـ فقد فرغ بالُك وتمَّ مرادُك. وقد استَغْنَتْ بإرسال هذا الكلام الذي سياقُه سياقُ المَثَلِ والحكمة أن تقول: استأْجِرْه لقوَّته وأمانته، ولَعَمْري إنَّ مثل هذا المدح من المرأة للرجل أجملُ من المدح الخاصِّ وأبقى للحشمة، وخصوصاً إن كانت فهمتْ أنَّ غرض أبيها أن يزوِّجها منه.

ومعرفتُها قوَّتَه عليه السلام لِمَا رأت مِن دَفْعِه الناسَ عن الماء وحده حتى سقى لهما، ومعرفتُها أمانتَه من عدم تعرُّضِه لها بقبيحٍ مّا مع وَحْدَتِها وضَعْفِها.

وروي أنها لمَّا قالت ما قالت قال لها أبوها: ما أَعْلَمكِ بقوَّته؟ فذكرت له أنه عليه السلام أقلَّ صخرةً على البئر لا يُقِلُّها كذا وكذا. وقد مرَّ في حديثِ عمر رضي الله عنه أنه لا يُطيق رَفْعَها إلا عشرةُ رجالٍ(١). والنقل في عدد مَن يقلُّها مضطربٌ، فأقلُّ ما قالوا فيه سبعةٌ، وأكثرُه مئة، وقد مرَّ ما يُعْلَم منه حالُ الخبر في أصل الإقلال. وذَكَرتْ أنه نزع وحده بدلوٍ لا ينزعُ بها إلا أربعون.

وقال: ما أَعْلَمكِ بأمانته؟ فذكرت ما كان من أمره إياها بالمشي وراءه، وأنه صوب رأسه حتى بلغته الرسالة.

وقدَّمتْ وصفَ القوةِ مع أنَّ أمانة الأجير لحفظ المال أهمُّ في نظر المستأجر لتقدُّم عِلْمِها بقوَّته عليه السلام على علمها بأمانته، أو ليكون ذكرُ وصفِ الأمانة بعده من باب الترقِّي من المهمِّ إلى الأهم.

واستُدِلَّ بقولها: «استأجره» على مشروعية الإجارة عندهم، وكذا كانت في كلِّ ملَّةٍ، وهي من ضروريات الناس ومصلحةِ الخِلْطةِ، خلافاً لابن عُليَّة والأصمِّ حيث كانا لا يُجيزانها، وهذا مما انعقد عليه الإجماعُ، وخلافُهما خَرْقٌ له(٢)، فلا يُلْتفَتُ إليه.

وهذا لَعَمْري غريبٌ منهما إن كانا لا يجيزان الإجارة مطلقاً، ورأيتُ في «الإكليل» أنَّ في قوله تعالى: (أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي) إلخ ردًّا على مَن مَنَعَ الإجارة المتعلِّقةَ بالحيوان عَشْرَ سنين لأنه يتغيَّر غالباً(٣)، فلعل الإجارة التي لا يُجيزانها نحوُ هذه الإجارة، والأمرُ في ذلك أهونُ من عدم إجازة الإجارة مطلقاً كما لا يخفى.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما قال

(١) سلف ص١٥١ من هذا الجزء.
(٢) البحر ٧/ ١١٥.
(٣) الإكليل للسيوطي ص٢٠٤، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٧.

أبوها بعد أن سمع كلامها؟ فقيل: «قال إنِّي». وفي تأكيد الجملة إظهارٌ لمزيد الرغبة فيما تضمَّنته الجملة.

وفي قوله: «هاتين» إيماءٌ إلى أنه كانت له بناتٌ أُخَرُ غيرهما، وقد أخرج ابن المنذر[1] عن مجاهدٍ أنَّ لهما أربعَ أخواتٍ صغار. وقال البقاعيُّ: إنَّ له سبعَ بناتٍ كما في التوراة[2]، وقد قدَّمنا نَقْلَ ذلك[3]. وفي «الكشاف»: فيه دليل على ذلك[4].

واعتُرِضَ بأنه لا دلالةَ فيه على ما ذكر؛ إذ يكفي في الحاجة إلى الإشارة عدمُ علم المخاطب بأنه ما كانت له غيرهما.

وتعقِّب بأنه على هذا تكفي الإضافةُ العهديةُ ولا يحتاج إلى الإشارة، فهذا يقتضي أن يكون للمخاطب علمٌ بغيرهما معهودٌ عنده أيضاً، وإنما الإشارةُ لدفع إرادةِ غيرهما من ابنتيه الأُخريين المعلومتين له من بينهنَّ؛ ونِعْمَ ما قال الخفاجي: لا وَجْه للمشاحَّةِ في ذلك، فإنَّ مثله زهرةٌ لا يَحتَمِلُ الفَرْك[5].

وقرأ ورش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو: «أُنْكِحَكَ حْدَى» بحذفِ الهمزة[6].

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ في موضع الحال من مفعولِ «أُنْكِحَكَ»، أي: مشروطاً عليك، أو واجباً، أو نحو ذلك. ويجوز أن يكون حالاً من فاعله؛ قاله أبو البقاء[7].

و«تأجرني» من أَجَرْتُه: كنتُ له أجيراً، كقولك: أَبَوْتُه: كنتُ له أباً، وهو بهذا المعنى يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، وقولُه تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ظرفٌ له.

ويجوز أن يكون «تأجرني» بمعنى تُثيبني، من أَجَره الله تعالى على ما فعل،

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٥.
(٢) نظم الدرر ١٤/ ٢٧٦، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٧١.
(٣) ص١٤٧ من هذا الجزء.
(٤) أي: فيه دليل على أنه كان له غيرهما. الكشاف ٣/ ١٧٢.
(٥) حاشية الشهاب ٧/ ٧١.
(٦) البحر ٧/ ١١٥.
(٧) في الإملاء ٤/ ١٤٨-١٤٩.

أي: أثابه، فيتعدَّى إلى اثنين ثانيهما هنا «ثماني حجج»، والكلامُ على حذفِ المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامه، أي: تثيبني رعيةَ ثماني حجج، أي: تجعلها ثوابي وأَجْري على الإنكاح، ويعني بذلك المهر.

وجوِّز على هذا المعنى أن يكون ظرفاً لـ «تأجرني» أيضاً بحذف المفعول، أي: تعوِّضني خدمتَك ـ أو عملك ـ في ثماني حجج.

ونقل عن المبرِّد أنه يقال: أَجَرْتُ داري ومملوكي غير ممدود، وآجَرْتُ ممدوداً، والأول أكثر، فعلى هذا يتعدَّى إلى مفعولين، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، والمعنى: على أن تأجرني نفسَكَ. وقد يتعدَّى إلى واحدٍ بنفسه والثاني بـ «من»، فيقال: أَجَرْتُ الدارَ من عمرو. وظاهر كلامِ الأكثرين أنه لا فَرْقَ بين آجَرَ بالمدِّ وأَجَر بدونه، وقال الراغب: يقال: أَجَرْتُ زيداً، إذا اعتُبر فِعْلُ أحدهما، ويقال: آجَرْتُه إذا اعتُبِرَ فعلاهما، وكلاهما يرجعان إلى معنى[1]. ويقال كما في «القاموس»: أَجَرْتُه أجراً وآجَرْتُه إيجاراً ومُؤاجَرةً[2].

وفي «تحفة المحتاج»: آجَرَه بالمدِّ إيجاراً، وبالقصر يَأْجُرُه بكَسْرِ الجيم وضمِّها أَجْراً. وفيها: أنَّ الإجارة بتثليث الهمزة ـ والكسر أفصحُ لغة ـ اسمٌ للأجرة، ثم اشتهرت في العقد[3].

والحججُ جمع حِجَّةٍ بالكسر: السَّنَة.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فهو من عندك من طريق التفضُّلِ، لا مِن عندي بطريق الإلزام.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمامِ العشر، والمناقشةِ في مراعاةِ الأوقات واستيفاء الأعمال. واشتقاقُ المشقَّة ـ وهي ما يصعبُ تحمُّله ـ من الشَّقِّ بفتح الشين: وهو فَصْلُ الشيء إلى شقين، فإنَّ ما يَصْعُبُ عليك يَشُقُّ عليك رأيَكَ في أمره، لتردُّده في تحمُّله وعدمِه.

---

(١) مفردات الراغب (أجر).

(٢) القاموس (أجر).

(٣) تحفة المحتاج ٦/ ١٢١.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ في حُسْنِ المعاملة ولِيْنِ الجانب والوفاءِ بالعهد، ومرادُ شعيبٍ عليه السلامُ بالاستثناء التبرُّكُ به وتفويضُ أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته سبحانه، بمعنى أنه إن شاء الله تعالى استَعْمَلَ الصلاحَ وإن شاء عزَّ وجلَّ استعمل خلافَه؛ لأنه لا يناسب المقام. وقيل: لأنَّ صلاحه عليه السلام متحقِّقٌ فلا معنى للتعليق، ونحوُه قول الشافعيِّ: أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، أي: ذلك الذي قلت وعاهدتني فيه وشارَطْتَني عليه قائمٌ وثابتٌ بيننا جميعاً لا يخرجُ عنه واحدٌ منَّا، لا أنا عمَّا شَرَطْتَ عليَّ، ولا أنت عمَّا شَرَطْتَ على نفسك.

وقوله سبحانه: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي: أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: وفيتُك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ تصريحٌ بالمراد، وتقريرٌ لأمر الخيار، أي: لا عدوانَ كائنٌ عليَّ بطلب الزيادة على ما قضيتُه من الأَجَلَيْنِ، وتعميم انتفاء العدوان بكِلَا الأجلين بصَدَدِ المشارطة، مع تحقُّق عدم العدوان في أطولهما رأساً، للقَصْدِ إلى التسوية بينهما في الانتفاء، أي: كما لا أطالبُ بالزيادة على العشر لا أطالبُ بالزيادة على الثمان، أو: أيما الأجلين قضيتُ فلا إثم كائنٌ عليَّ [يعني][1] كما لا إثم عليَّ في قضاء الأطول لا إثم عليَّ في قضاء الأقصر فقط.

وقرأ عبد الله: «أيَّ الأجليْنِ ما قضيت»[2] فـ «ما» مزيدةٌ لتأكيد القضاء، أي: أيَّ الأجلين صمَّمْتُ على قضائه وجرَّدْتُ عزيمتي له، كما أنها في القراءة الأولى مزيدةٌ لتأكيد إبهام «أي» وشياعها، وجَعْلُها نافية لا يخفى ما فيه.

وقرأ الحسن والعباس عن أبي عمرو: «أيْما» بتسكين الياء من غير تشديدٍ[3]، كما في قول الفرزدق:

تنظَّرْتُ نصراً والسماكين أيْهُما عليَّ من الغيث استهلَّتْ مَواطِرُه[4]

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١١، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥، والكشاف ٣/ ١٧٤، والبحر ٧/ ١١٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٢، والمحتسب ٢/ ١٥٠، والبحر ٧/ ١١٥، والعباس هو ابن الفضل كما ذكر ابن خالويه.

(٤) ديوان الفرزدق ١/ ٢٨١، والبيت من قصيدة في مدح نصر بن سيار، وتنظَّرت بمعنى:

وأصلُها المشدَّدةُ وحُذِفت الياءُ تخفيفاً، وهي ممَّا عينُه واوٌ ولامُه ياءٌ، ونصَّ ابنُ جنِّي على أنها من باب: أويت، قياساً واشتقاقاً[1]. وقد نقل كلامه في بيان ذلك العلَّامة الطيبيُّ في «شرح الكشاف»، فليَرْجعْ إليه مَن شاء.

وقرأ أبو حيوة وابن قطيب: «فلا عِدْوان» بكسر العين[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: شهيدٌ، على ما روي عن ابن عباس. وقال قتادة: حفيظ. وفي «البحر»[3]: الوكيلُ الذي وُكل إليه الأمر، ولمَّا ضُمِّنَ معنى شاهِدٍ ونحوِه عُدِّي بـ «على». ومن هنا قيل: أي: شاهدٌ حفيظٌ.

والمرادُ توثيقُ العهدِ، وأنه لا سبيلَ لأحدٍ منهما إلى الخروج عنه أصلاً، وهذا بيانٌ لِمَا عزما عليه واتَّفقا على إيقاعه إجمالاً من غير تعرُّضٍ لبيانِ مواجبِ عَقْدَي النكاح والإجارة في تلك الشريعة تفصيلاً.

وقولُ شعيبٍ عليه السلام: «إنِّي أريد أن أُنكحك» إلخ ظاهرٌ في أنه عَرْضٌ لرأيه على موسى عليه السلام واستدعاءٌ منه للعقد، لا إنشاءٌ وتحقيقٌ له بالفعل، ولم يجزم القائلون باتفاق الشريعتين في ذلك بكيفية ما وقع، فقيل: لعل النكاح جرى على معيَّنةٍ بمهرٍ غيرِ الخدمة المذكورة، وهي إنما ذُكرت على طريق المعاهَدةِ لا المعاقَدة، فكأنه قال: أريد أن أنكحك إحدى ابنتيَّ بمهرٍ معيَّنٍ إذا أَجَرْتَني ثمانيَ حججٍ بأجرةٍ معلومةٍ، فما تقول في ذلك؟ فرضي، فعقد له على معيَّنةٍ منهما، فلا يَرِدُ أنَّ الإبهام في المرأة المزوَّجة غيرُ صحيح، وعلى الخدمة ومنافع الحرِّ عندنا أيضاً، خصوصاً إذا قيل: إنَّ مدتها غيرُ معيَّنةٍ، وهي أيضاً ليست للزوجة بل لأبيها، فكيف صحَّ كونُها مهراً؟

= انتظرت، والسماكان كوكبان وهما من الأنواء. واستهلَّ بمعنى: انصبَّ، كهلَّ. والمواطر جمع ماطرة، وهي السحابة، يعني أنه انتظر الممدوح وجودَه وأحدَ الأنواءِ الماطرة، ولم يفرِّق بينهما. حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

(١) المحتسب ٢/ ١٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١١٥.

(٣) ٧/ ١١٦.

وقيل: يجوزُ أن يكون جرى على معيَّنةٍ بمهرِ الخدمةِ المذكورة، ولا فسادَ في جَعْلِ الرعْيةِ مهراً، فإنه جائزٌ عند الشافعيِّ عليه الرحمةُ، وكذا عند الحنفية كما يُفهم من «الهداية»[١]، ونقل عن صاحب «المدارك» أنه قال: التزوُّج على رعي الغنم جائزٌ بالإجماع؛ لأنه قيامٌ بأمر الزوجية لا خدمةٌ صرفةٌ[٢].

وفي دعوى الإجماع إنْ أريد به إجماعُ الأئمة مطلقاً بحثٌ، ففي «المحيط البرهانيِّ»: لو تزوَّجها على أن يَرْعَى غنمها سنةً لم يجز على رواية الأصل، وروى ابنُ سماعة[٣] عن محمد أنه يجوزُ في الرعي.

وفي «الانتصاف»: مذهب مالك في ذلك على ثلاثة أقوال: المنعُ، والكراهةُ، والجواز[٤]. ويقال على الجواز: كانت الغنم للمزوَّجةِ لا لأبيها. وليس في المدة إبهامٌ إذ هي الحجج الثمان، والزائد[٥] قد وَعَدَ موسى عليه السلام الوفاءَ به إنْ تيسَّر له، على أنَّ الإبهام في المهر يجوزُ كما هو مبيَّنٌ في الفروع.

وقال بعضهم: يجوز أن تكون الشرائعُ مختلفةً في أمر الإنكاح، فلعل إنكاح المبهمة جائزٌ في شريعة شعيبٍ عليه السلام، ويكون التعيينُ للوليِّ أو للزوج، وكذا جَعْلُ خدمةِ الوليِّ صداقاً، ونحوُ ذلك مما لا يجوزُ في شريعتنا.

ولا يَرِدُ أنَّ ما قصَّ من الشرائع السالفة من غير إنكارٍ فهو شرعٌ لنا؛ لأنه على الإطلاق غيرُ مسلَّمٍ. وفي «الإكليل» عن مكِّي أنه قال: في الآية خصائصُ في النكاح: منها أنه لم يعيِّن الزوجة، ولا حَدَّ أوَّلَ المدة، وجَعَلَ المهر إجارةً، ودخل ولم ينفذ شيئاً[٦].

والذي يميل إليه القلب اختلافُ الشرائع في مواجب النكاح، وربما يُستأنس

---

(١) الهداية مع شرح فتح القدير ٢/ ٤٥١.

(٢) مدارك التنزيل المعروف بتفسير النسفي ٤/ ٤٩.

(٣) كما في فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٤٥١.

(٤) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ١٧٣.

(٥) في (م): والزائدة.

(٦) الإكليل للسيوطي ص٢٠٣، وذكره عن مكي أيضاً القرطبي ١٦/ ٢٦٢ وفيه: ... ودخل ولم يَنْقُد ...

له بما في الفصل التاسع والعشرين من السفر الأول من التوراة[١]: أنَّ يعقوب عليه السلام مضى إلى بلدِ أهل الشرق، فإذا بئرٌ في الصحراء على فمها صخرةٌ عظيمةٌ وعندها ثلاثةُ قطعانٍ من الغنم، فقال لرعاتها: من أين أنتم يا إخوة؟ قالوا: من حران[٢]. فقال لهم: أتعرفون لابان بن ناحور؟ فقالوا: نعم. فقال: أحيٌّ هو؟ قالوا: نعم، وهذه راحيل ابنتُه مع الغنم. ثم قال: ليس هذا وقت انضمام الماشية فاسقوا الغنم وامضوا بها فارعوها. قالوا: لا نطيق ذلك إلى أن تجتمع الرعاة ويدحرجوا الصخرةَ عن فم البئر، فبينما هو يخاطبهم جاءت راحيل مع غنم أبيها، فلمَّا رأى ذلك تقدَّم ودحرج الصخرة وسقى غنم خاله لابان، ثم قبَّل راحيل وبكى وأخبرها أنه ابنُ عمتها ربقا[٣]، فأخبرت أباها فخرج للقائه فعانقه وقبَّله وأدخله إلى منزله، ثم قال لابان له: أمَّا أنتَ فعَظْمي ولحمي. ومكث عنده شهراً فقال له لابان: أنت وإن كنتَ ذا قرابةٍ منِّي لا أستحسن أن تخدمني مجاناً، فأخبرني بما تريد من الأجرة؟ وكان له ابنتان اسم الكبرى لَيآ[٤] واسم الصغرى راحيل، وعينا لَيآ حسنتان، وراحيل حسنةُ الحلية والمنظر، فأحبَّها يعقوب فقال: أخدمك سبعَ سنين براحيل. فقال لابان: إعطائي إياها لك أصلحُ من إعطائي إياها لرجلٍ آخر، فأقِمْ عندي. فخدمه براحيل سبعَ سنين ثم قال: أعطني زوجتي فقد كَملَتْ أيامي. فجمع لابان أهل الموضع وصنع لهم مجلساً، فلما كان العشاء أخذ لَيآ ابنته فزفَّها إليه، ودخل عليها، فأعطاها لابان أَمَته زَلْفَا لتكون لها أَمَةً، فلما كانت الغداةُ فإذا هي ليآ، فقال للابان: ماذا صنعتَ بي، أليس براحيل خَدَمْتُكَ؟ قال: نعم، لكن لا تزوَّج الصغرى قبل الكبرى في بلدنا، فأكْمِلْ أسبوعَ هذه وأعطيك أختها راحيل أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبعَ سنين أُخر. فكمل يعقوبُ أسبوعَ لَيآ ثم أعطاه ابنته راحيل زوجةً، وأعطاها أَمَته بَلْهَا لتكون لها أمةً، فلمَّا دخل عليها يعقوب أحبَّها أكثر من حبِّه ليآ، ثم خدمه سبع سنين أُخر. اهـ.

---

(١) العهد القديم ص١١١.

(٢) في التوراة: حاران.

(٣) في التوراة: رِفْقَة.

(٤) في (م): ليا، وفي التوراة: لَيْئة. وكذا في باقي المواضع، والمثبت من الأصل.

وأخبرني بعضُ أهل الكتاب أنه يجوز أن تكون خدمةُ الأب مهراً لابنته، ويلزم الأبَ إرضاؤها بشيء إذا كانت كبيرةً، وأنَّ ما التُزِمَ من الخدمة لا يجب فِعْلُه قبل الدخول، ويكفي الالتزامُ والتعهُّد، وأنَّ المهر عندهم كلُّ شيءٍ له قيمةٌ أو ما في حكمها، وأنَّ تسليم المرأة نفسَها للزوج راضيةً بما يحصل لها منه من قضاء الوطر والانتفاع بدلاً عن المهر قد يقوم مقام المهر، وأنَّ حِلَّ الجمع بين الأختين كان ليعقوب عليه السلام خاصةً، وهذا الأخيرُ ممَّا ذكره علماء الإسلام، واللهُ تعالى أعلمُ بصحة غيره ممَّا ذكر من الكلام.

هذا وللعلماء في الآية استدلالاتٌ؛ قال في «الإكليل»[1]: فيها استحبابُ عَرْضِ الرجلِ موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها. واعتبارُ الوليِّ في النكاح، وأنَّ العمى لا يقدحُ في الولاية فإنه عليه السلام كان أعمى. واعتبارُ الإيجاب والقبول في النكاح.

وقال ابن الفرس: استدلَّ مالكٌ بهذه الآية على إنكاح الأب البكرَ البالغةَ بغير استئمارٍ؛ لأنه لم يُذْكَر فيها استئمارٌ. قال: واحتجَّ بها[2] بعضهم على جواز أن يُكتب في الصداق: أُنكِحُه إياها، خلافاً لمن اختار: أُنْكِحُها إياه، قائلاً: لأنه إنما يملك النكاحَ عليها لا عليه.

وقال ابن العربي[3]: استدلَّ بها أصحابُ الشافعيِّ على أنَّ النكاح موقوفٌ على لفظ الإنكاح والتزويج.

قال[4]: واستدلَّ بها قومٌ على جواز الجمع بين نكاحٍ وإجارةٍ في صفقةٍ واحدةٍ، فعدَّوه إلى كلِّ صفقةٍ تجمعُ عقدين وقالوا بصحتها.

قال[5]: واستدلَّ بها علماؤنا على أنَّ اليسار لا يُعتبر في الكفاءة، فإنَّ موسى عليه السلام لم يكن حينئذٍ موسراً.

---

(١) ص٢٠٣.
(٢) قوله: بها، ساقط من (م).
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٦.
(٤) أي: ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤.
(٥) أي: ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٦.

قال[1]: وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اكتفاءٌ بشهادة الله عزَّ وجل، إذ لم يُشْهِدا[2] أحداً من الخلق، فيدل على عدم اشتراط الإشهاد في النكاح. اهـ.

واستدل بها الأوزاعيةُ على صحة البيع فيما إذا قال: بعتك بألفٍ نقداً، أو ألفين نسيئةً. انتهى ما في «الإكليل» مع حذفٍ قليل. ولا يخفى ما في هذه الاستدلالات من المقالات والمنازعات.

ثم إنَّ ما تقدَّم عن مكي من أنه عليه السلام دخل ولم ينفذ شيئاً مما قاله غيره أيضاً، وقد روي أيضاً من طريق الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله عنه[3].

وقيل: إنه عليه السلام لم يدخل حتى أتمَّ الأَجَل.

وجاء في بعض الآثار أنهما لمَّا أتمَّا العقد قال شعيبٌ لموسى عليهما السلام: ادخل ذلك البيتَ فخذ عصاً من العصيِّ التي فيه. وكان عنده عصيُّ الأنبياء عليهم السلام، فدخل وأخذ العصا التي هبط بها آدمُ من الجنة، ولم تزل الأنبياءُ عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب، فقال له شعيب: خذ غيرَ هذه. فما وقع في يده إلَّا هي سبعَ مرات، فعلم أنَّ له شأناً.

وعن عكرمة أنه قال: خرج آدمُ عليه السلام بالعصا من الجنة، فأخذها جبرائيل عليه السلام بعد موته، وكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه.

وفي «مجمع البيان»[4] عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه قال: كانت عصا موسى قضيبَ آسٍ من الجنة أتاه بها جبرائيل عليه السلام لمَّا توجَّه تلقاءَ مدين.

وقال السديُّ: كانت تلك العصا قد أَوْدَعَها شعيباً مَلَكٌ في صورة رجلٍ، فأمر ابنته أن تأتي بعصاً، فدخلت وأخذت العصا فأتته بها، فلمَّا رآها الشيخ قال: ائتيه بغيرها. فردَّها سبع مراتٍ فلم يقع في يدها غيرُها، فدفعها إليه، ثم ندم لأنها وديعةٌ، فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أولُ طالعٍ، فأتاهما الملك

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٨.

(٢) في الأصل و(م) والإكليل: يشهد، والمثبت من أحكام القرآن.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٨٥.

(٤) ٢٠/ ٢٨٦.

فقال: أَلْقِيَاها فمن رفعها فهي له. فعالجها الشيخ فلم يُطِقْها، ورَفَعها موسى عليه السلام.

وعن الحسن: ما كانت إلا عصاً من الشجر اعترضها اعتراضاً.

وعن الكلبيِّ: الشجرة التي نودي منها شجرةُ العَوْسَج ومنها كانت عصاه.

وروي أنه لمَّا شَرَعَ عليه السلامُ بالخدمة والرَّعي قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرقَ الطريق فلا تأخذ على يمينك؛ فإنَّ الكلأ وإن كان بها أكثَرَ إلَّا أنَّ فيها تنِّيناً أخشاه عليك وعلى الغنم، فلمَّا بلغ مفرق الطريق أخذت الغنم ذاتَ اليمين ولم يقدر على كفِّها، ومشى على أثرها فإذا عشبٌ وريفٌ لم يَرَ مثلَه، فنام فإذا بالتنِّين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام داميةً، فلمَّا أبصرها داميةً والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولمَّا رجع إلى شعيب وجد الغنم ملأى البطونِ غزيزةَ اللبن، فأخبره موسى عليه السلام بما كان، ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً، وقال له: إنِّي وهبتُ لك من نتاج غنمي هذا العام كلَّ أدرعَ ودَرْعاءَ. فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اضْرِبْ بعصاك مُسْتقَى الغنم، ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدةٌ إلا وَضَعتْ أَدْرعَ أو دَرْعاءَ، فوفى له شعيبٌ بما قال.

وحكى يحيى بن سلام أنه جعل له كلَّ سخلةٍ تُولَدُ على خلافِ شيةِ أمِّها، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في المنام أنْ أَلْقِ عصاك في الماء الذي تَسقي منه الغنم. ففعل، فولَدَتْ كلُّها على خلافِ شيتها.

وأخرج ابن ماجه والبزار وابن المنذر والطبرانيُّ وغيرهم من حديث عتبةَ السلميِّ مرفوعاً: «أنه عليه السلام لمَّا أراد فراقَ شعيب أَمَرَ امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمُه من قالِبِ لونٍ[1] من ذلك العلم، وكانت غنمُه سوداءَ حسناءَ، فانطلق موسى إلى عصاه فسماها من طرفها، ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها ووقف بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاةٌ إلا ضرب جنبها شاةً شاةً، فأتأمت وأثلثت[2] ووضعت كلُّها قوالِبَ ألوانٍ

(١) أي: ما جاءت على غير ألوان أمهاتها، كأن لونها قد انقلب. النهاية (قلب).
(٢) في الأصل و(م): فأنمث وانثنت، وفي تفسير ابن أبي حاتم والدر المنثور: فأنمت وأثلثت، =

إلا شاةً أو شاتين، ليس فيها فَشُوشٌ» أي: واسعة الشخب[١] «ولا ضَبُوب» أي: طويلة الضرع تجرُّه «ولا عَزُوز» أي: ضيقة الشخب «ولا ثَعول» أي: لا ضرعَ لها إلا كهيئة حلمتين «ولا كمشة تفوتُ الكفَّ»[٢] أي: صغيرة الضرع لا يدركه[٣] الكفُّ. وظاهرُ هذا الخبر أنَّ الهبة كانت لزوجته عليه السلام، وأنه كان ذلك لمَّا أراد فراق شعيب عليهما السلام، وهو خلافُ ما يقتضيه ظاهر ما تقدم.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: أتمَّ المدة المضروبةَ لِمَا أراد شعيبٌ منه، والمراد به: الأَجَلُ الآخَرُ كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٤].

= والمثبت من تفسير ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم، ويؤيده ما جاء في رواية البزار: فولدت قوالب ألوان كلها وولدت ثنتين أو ثلاثاً كلُّ شاة. . .

(١) الشُّخب ويضم: ما خرج من الضرع من اللبن. القاموس (شخب).

(٢) البزار (٢٢٤٦ - كشف الأستار)، والمعجم الكبير ١٧/ (٣٣٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٧٨)، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٠-٢٩٧١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٢٦. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفاً عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد. اهـ. وموقوف أنس في تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٧-٢٣٨.
وأخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤) من حديث عتبة بإسنادٍ آخر مقتصراً على قطعة في أوله لم يذكرها المصنف، وإسناده ضعيف أيضاً كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وابن حجر في الفتح ٤/ ٤٤٥.
وما أورده المصنف ضمن الحديث من شرح الفشوش وما بعدها أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧١ عن ابن لهيعة في جوابه لمن سأله عن معانيها. وفي النهاية: الفَشوش: التي ينفشُّ لبنها من غير حلب، أي: يجري، وذلك لسعة الإحليل. والضبوب: الضيقة ثقب الإحليل. والعزوز: الشاة القليلة اللبن الضيقة الإحليل. والثَّعول: الشاة التي لها زيادة حَلَمة، وهو عيب. والكموش ـ وهي الكمشة ـ: الصغيرة الضرع، سميت بذلك لانكماش ضرعها، وهو تقلُّصه. النهاية (فشش) و(ضبب) و(عزز) و(ثعل) و(كمش).

(٣) في (م): يدرك، والمثبت من الأصل وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧١، والدر المنثور ٣/ ١٢٦.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٢٧.

وأخرج البخاريُّ وجماعةٌ عن ابن عباس أنه سئل: أيَّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ فقال: قضى أكثرَهما وأطيبهما، إنَّ رسول الله إذا قال فعل[١].

وأخرج ابن مردويه من طريق عليّ بنِ عاصم عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ رجلاً سأله: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقال: لا أدري حتى أسأل رسول الله ﷺ، فسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: «لا أدري حتى أسألَ جبريل عليه السلام» فسأل جبريل فقال: لا أدري حتى أسأل ميكائيل عليه السلام، فسأل ميكائيل فقال: لا أدري حتى أسأل الرفيعَ، فسأل الرفيعَ فقال: لا أدري حتى أسأل إسرافيل عليه السلام، فسأل إسرافيل فقال: لا أدري حتى أسأل ذا العزة جلَّ جلالُه، فنادى إسرافيلُ بصوته الأشدِّ: يا ذا العزة، أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أتمَّ الأجلين وأطيبهما: عَشْرَ سنين» قال علي بن عاصم: فكان أبو هارون إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: حدثني أبو سعيد، عن النبيِّ ﷺ، عن جبريل، عن ميكائيل، عن الرفيع، عن إسرافيل، عن ذي العزة تبارك وتعالى: «أنَّ موسى قضى أتمَّ الأجلين وأطيبهما عَشْرَ سنين»[٢].

والفاء قيل: فصيحةٌ، أي: فعقد العقدين وباشَرَ موسى ما أُريدَ منه فلما أتمَّ الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيل: نحو مصر بإذنٍ من شعيب عليه السلام لزيارة والدته وأخيه وأخته وذوي قرابته، وكأنه عليه السلام أقدمه على ذلك طولُ مدةِ الجناية، وغلبةُ ظنِّه خفاء أمره. وقيل: سار نحو بيت المقدس. وهذا أبعدُ عن القيل والقال.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: أَبْصَرَ من الجهة التي تلي الطورَ، لا من بعضه كما هو المتبادر، وأصلُ الإيناس ـ على ما قيل ـ الإحساسُ، فيكون أعمَّ من الإبصار. وقال الزمخشريُّ: هو الإبصار البيِّن الذي لا شبهةَ فيه، ومنه: إنسان العين؛ لأنه يبينُ به الشيء، والإنسُ؛ لظهورهم، كما قيل: الجنُّ؛ لاستتارهم. وقيل: هو إبصارُ ما يؤنس به[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٨٤).

(٢) الدر المنثور ٥/١٢٦-١٢٧، وأبو هارون هو العبدي واسمه عمارة بن جوين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٣) الكشاف ٢/٥٣١.

﴿نَارًا﴾ استظهر بعضهم أنَّ المبصَرَ كان نوراً حقيقةً، إلَّا أنه عبَّر عنه بالنار اعتباراً لاعتقادِ موسى عليه السلام.

وقال بعض العارفين: كان المبصَر في صورة النار الحقيقيةِ، وأما حقيقتُه فوراء طورِ العقل، إلا أنَّ موسى عليه السلام ظنَّه النار المعروفة.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا مكانكم، وكان معه عليه السلام ـ على قولٍ ـ امرأتُه وخادمٌ، ويخاطَبُ الاثنان بصيغة الجمع، وعلى قولٍ آخر كان معه ولدان له أيضاً، اسمُ الأكبر جيرشوم، واسمُ الأصغر أليعازر، وُلدا له زمانَ إقامته عند شعيب، وهذا مما يتسنَّى على القول بأنه عليه السلام دخل على زوجته قبل الشروع فيما أريد منه، وأما على القول بأنه لم يدخل عليها حتى أتمَّ الأجل فلا يتسنَّى إلَّا بالتزامِ أنه عليه السلام مكث بعد ذلك سنين، وقد قيل به؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قضى موسى عَشْرَ سنين ثم مكث بعد ذلك عشراً أخرى[1].

وعن وهبٍ: أنه عليه السلام ولد له ولدٌ في الطريق ليلةَ إيناس النار.

وفي «البحر»[2] أنه عليه السلام خرج بأهله وماله في فصل الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافةَ ملوك الشام، وامرأتُه حاملٌ لا يدري أليلاً تَضَعُ أم نهاراً؟ فسار في البرية لا يعرفُ طرقها، فألجأه السيرُ إلى جانب الطور الغربيِّ الأيمنِ في ليلة مُظْلمةٍ مُثْلِجَةٍ شديدةِ البرد.

وقيل: كان لغيرته على حرمه يَصْحَبُ الرفقة ليلاً ويفارقُهم نهاراً، فأضلَّ الطريق يوماً حتى أدركه الليلُ، فأخذ امرأتَه الطلقُ، فقدح زنده فأَصْلَدَ، فنظر فإذا نارٌ تلوحُ من بُعْدٍ، فقال: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخبرِ الطريق، بأنْ أَجِدَ عندها مَن يخبرني به، وقد كانوا كما سمعتَ ضلُّوا الطريق، والجملةُ استئنافٌ في معنى التعليل للأمر.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عودٍ غليظٍ، سواءٌ كان في رأسه نارٌ كما في قوله:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٢٧.
(٢) ٦/ ٢٢٩-٢٣٠.

وأَلْقَى على قيسٍ من النارِ جذوةً شديداً عليها حرُّها والْتِهابُها[(١)]

أو لم تكن كما في قوله:

باتت حواطبُ ليلى يلتمسنَ لها جَزْلَ الجِذا غيرَ خوَّارٍ ولا دَعِرِ[(٢)]

ولذا بُيِّنتْ كما قال بعض المحققين بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وجَعَلَها نفسَ النار للمبالغة، كأنها لتشبُّث النار بها استحالت ناراً.

وقال الراغب: الجذوةُ: ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب[(٣)]. وفي معناه قول أبي حيان: عودٌ فيه نارٌ بلا لهب[(٤)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: هي عودٌ من حطبٍ فيه النارُ[(٥)].

وأخرج هو وجماعةٌ عن قتادة أنها أصلُ شجرةٍ في طرفها النار[(٦)]. قيل: فتكون «من» على هذا للابتداء، والمراد بالنار هي التي آنسها.

وقرأ الأكثر: «جِذْوة» بكسر الجيم، والأعمش وطلحة وأبو حيوة وحمزة بضمِّها[(٧)].

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تستدفئون وتتسخَّنون بها، وفيه دليلٌ على أنهم أصابهم بَرْدٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٧٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٢. قال الشهاب: قيس اسم قبيلة، ولذا قال: عليها، وهو استعارة لما لحقها من الفتنة التي كأنها نار متوقدة.

(٢) البيت لتميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٩١. الحواطب جمع حاطبة، وهي: الجارية التي تجمع الحطب. والجزل: الحطب اليابس. والجِذا بكسر الجيم: جمع جذوة. والخوَّار: الضعيف الهش. والدَّعِر بفتح الدال وكسر العين: الرديء الكثير الدخان. حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

(٣) مفردات الراغب (جذو).

(٤) البحر ٧/ ١٠٣.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٢٩٧٣).

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٢٧، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٩١، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٢ عن مجاهد.

(٧) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١ عن حمزة، وهي قراءة خلف من العشرة، وقرأ عاصم بفتح الجيم، والكسر قراءة الباقين.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النارَ التي آنَسَها ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: أتاه النداءُ من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام في مسيره، فـ «الأيمن» صفةُ الشاطئ، وهو ضدُّ الأيسر. وجوّز أن يكون «الأيمن» بمعنى: المتَّصف باليُمْنِ والبركةِ ضدّ الأشأم، وعليه فيجوزُ كونُه صفةً لـ «الشاطئ» أو«الوادي». و«مِن» على ما اختاره جمع لابتداء الغاية متعلِّقةٌ بما عندها، وجوّز أن تتعلَّق بمحذوفٍ وقع حالاً من ضمير موسى عليه السلام المستترِ في «نودي»، أي: نودي قريباً من شاطئ الوادي، وجوِّز على الحالية أن تكون «من» بمعنى «في»، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي: نودي كائناً في شاطئ الوادي.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ في موضع الحال من «الشاطئ»، أو صلة لـ «نودي». والبُقعةُ: القطعة من الأرض على غيرِ هيئةِ التي إلى جنبها، وتُفتَحُ باؤها كما في «القاموس»[(١)]، وبذلك قرأ الأشهب العقيليُّ ومسلمة[(٢)]. ووُصِفَتْ بالبركة لِمَا خُصَّتْ به من آيات الله عزَّ وجلَّ وأنوارِه.

وقيل: لِمَا حَوَتْ من الأرزاق والثمار الطيبة. وليس بذاك.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ من قوله تعالى: (مِن شَٰطِيِٕ)، أو «الشجرة» فيه بدلٌ من «شاطئ» وأُعيد الجارُّ لأنَّ البدل على تكرار العامل، وهو بدلُ اشتمالٍ، فإن الشاطئ كان مشتملاً على «الشجرة» إذ كانت نابتةً فيه.

و«من» هنا لا تحتمل أن تكون بمعنى «في» كما سمعتَ في «مِن» الأولى، نعم جوِّز فيها أن تكون للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥] متعلِّقةً بـ «المباركة»، أي: البقعة المباركة لأجْل الشجرة. وقيل: يجوز تعلُّقُها بـ «المباركة» مع بقائها للابتداء، على معنى أنَّ ابتداءَ بركتها من الشجرة.

وكانت هذه الشجرةُ على ما روي عن ابن عباس عُنَّاباً، وعلى ما روي عن ابن مسعود سَمُرةً، وعلى ما روي عن ابن جريج والكلبيِّ ووهب: عوسجة. وعلى ما روي عن قتادة ومقاتل: علّيقة، وهو المذكور في التوراة اليوم[(٣)].

---

(١) مادة (بقع).

(٢) القراءات الشاذة ص١١٢، والبحر ٧/ ١١٦.

(٣) العهد القديم ص١٥٦.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ تحتملُ أن تكون تفسيريةً، وأنْ تكونَ مخفَّفةً من الثقيلة، والأصل: بأنه، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «نودي»، والنداء قد يوصَلُ بحرف الجرِّ؛ أنشد أبو عليٍّ:

نـاديـتُ بـاسـم ربـيـعـةَ بـن مُـكـدَّمٍ إنَّ الـمـنـوَّهَ بـاسـمـه الـمـوثـوقُ[(١)]

والضميرُ للشأن، وفسَّر الشأن بقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾. وقرأت فرقة: «أنِّي» بفتح الهمز[(٢)]، واستشكل بأنَّ «أنْ» إن كانت تفسيرية ينبغي كَسْرُ «إنَّ» وهو ظاهرٌ، وإن كانت مصدريةً واسمُها ضمير الشأن، فكذلك؛ إذ على الفتح تُسبك مع ما بعدها بمفردٍ، وهو لا يكون خبراً عن ضمير الشأن، وخرِّجت على أنَّ «أنْ» تفسيرية، و«أني» إلخ في تأويل مصدرٍ معمولٍ لفعل محذوف، والتقدير: أن[(٣)] يا موسى اعلم أنِّي أنا الله.. إلخ.

وجاء في سورة «طه»: ﴿نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [الآية:١١] وفي سورة «النمل»: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الآية:٨] وما هنا غير ذلك، بل ما في كلٍّ غيرُ ما في الآخر، فاستشكل ذلك.

وأجيب بأنَّ المغايرة إنما هي في اللفظ، وأما في المعنى المراد فلا مغايرةَ. وذهب الإمام إلى أنه تعالى حكى في كلٍّ من هذه السور بعضَ ما اشتمل عليه النداءُ لِمَا أنَّ المطابقة بين ما في المواضع الثلاثة تحتاجُ إلى تكلُّفٍ ما[(٤)].

والظاهرُ أنَّ النداء منه عزَّ وجلَّ من غير توسيطِ ملكٍ، وقد سمع موسى عليه السلام ـ على ما تدلُّ عليه الآثار ـ كلاماً لفظيًّا قيل: خَلَقَه الله تعالى في الشجرة بلا اتِّحادٍ وحلولٍ، وقيل: خلقه في الهواء كذلك، وسمعه موسى عليه السلام من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات، و«أنا» وإن كان كلُّ أحدٍ يشير به إلى نفسه فليس المعنيُّ به محلَّ لفظه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩، والخزانة ٦/ ٥٧، وهو للفرزدق وسلف ١٦/ ٢٥٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧، والبحر ٧/ ١١٧، والدر المصون ٨/ ٦٧٠.
(٣) في الأصل و(م): أي، والمثبت من الدر المصون ٨/ ٦٧٠.
(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٧٣.

وذهب الشيخ الأشعريُّ والإمام الغزاليُّ[(١)] إلى أنه عليه السلام سمع كلامه تعالى النفسيَّ القديم بلا صوتٍ ولا حرفٍ، وهذا كما تُرى ذاتُه عزَّ وجلَّ بلا كيفٍ ولا كمٍّ.

وذكر بعضُ العارفين أنه إنما سمع كلامه تعالى اللفظيَّ بصوتٍ، وكان ذلك بعد ظهوره عزَّ وجلَّ بما شاء من المظاهر التي تقتضيها الحكمةُ، وهو سبحانه مع ظهوره تعالى كذلك باقٍ على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق، وقد جاء في الصحيح أنه تعالى يتجلَّى لعباده يومَ القيامة في صورة، فيقول: أنا ربُّكم، فينكرونه، ثم يتجلَّى لهم بأخرى فيعرفونه[(٢)].

والله تعالى وصفاتُه من وراء حُجُبِ العزة والعظمة والجلال، فلا يحدِّثَنَّ الفكرُ نفسَه بأنْ يكون له وقوفٌ على الحقيقة بحالٍ من الأحوال:

مرامٌ شطَّ مَرْمَى العقلِ فيه ودونَ مَداهُ بِيدٌ لا تَبيدُ[(٣)]

وذكر بعضُ السلفيين أنه عليه السلام إنما سمع كلامه تعالى اللفظيَّ بصوتٍ، مُنكِراً[(٤)] الظهور في المظاهر، عادًّا القول به من أعظم المناكر، ولابن القيِّم كلامٌ طويلٌ في تحقيق ذلك، وقد قدَّمنا لك في المقدِّمات ما يتعلَّقُ بهذا المقام[(٥)]، فتذكَّر والله تعالى وليُّ الإفهام.

وقال الحسن: إنه سبحانه نادى موسى عليه السلام نداءَ الوحي لا نداءَ الكلام. ولم يَرْتَضِ ذلك العلماءُ الأعلامُ؛ لِمَا فيه من مخالفة الظاهر، وأنه لا يظهر عليه وجهُ اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء عليهم السلام، ووجهُ الاختصاص على القول بأنه سمع كلامه تعالى الأزليَّ بلا حرفٍ ولا صوتٍ ظاهرٌ، وكذا على القول

---

(١) في الاقتصاد في الاعتقاد ص١٤٤.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: أنت ربُّنا».

(٣) سلف ١/ ١٣٠ و١٦/ ٢٣٤.

(٤) في (م): منكر.

(٥) ينظر ما سلف ١/ ١١٦ وما بعدها، وينظر كذلك التفسير القيم لابن القيم ص٣٧.

بأنه عليه السلام سمع صوتاً دالًّا على كلامه تعالى بلا واسطةِ ملكٍ أو كتابٍ، سواءٌ كان من جانبٍ واحدٍ لكنْ بصوتٍ غيرِ مكتسَبٍ للعباد على ما هو شأن سماعنا، أو من جميع الجهات، لِمَا في كلٍّ من خَرْقِ العادة، وأمَّا وجهه عند القائلين بأنَّ السماع كان بعد التجلِّي في المظهر، فكذلك أيضاً إن قالوا بأنَّ هذا التجلِّي لم يقع لأحدٍ من الأنبياء عليهم السلام سوى موسى.

ثم إنَّ عِلْمَه عليه السلام بأنَّ الذي ناداه هو الله تعالى حَصَلَ له بالضرورة خَلْقاً منه سبحانه فيه. وقيل: بالمعجزة، وأوجب المعتزلةُ أن يكون حصولُه بها، فمنهم مَن عيَّنها ومنهم مَن لم يعيِّنها، زعماً منهم أنَّ حصول العلم الضروريِّ ينافي التكليف، وفيه بحث.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على «أنْ يا موسى»، والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحةٌ مُفْصِحةٌ عن جملٍ حُذِفَتْ تعويلاً على دلالة الحال عليها، وإشعاراً بغايةِ سرعةِ تحقُّقِ مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت حيةً فاهتزَّتْ فلمَّا رآها تهتزُّ وتتحرَّك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هي حيةٌ كحلاءُ العين لا تؤذي، كثيرةٌ في الدُّور، والتشبيهُ بها باعتبارِ سرعة حركتها وخفَّتها لا في هيئتها وجثَّتها، فلا يقال: إنه عليه السلام لمَّا ألقاها صارت ثعباناً عظيماً، فكيف يصحُّ تشبيهها بالجانِّ؟

وقال بعضهم: يجوزُ أن يكون المرادُ تشبيهَها بها في الهيئة والجثة، ولا ضير في ذلك لأن لها أحوالاً مختلفةً تَدِقُّ فيها وتَغْلُظ.

وقيل: الجانُّ يطلَقُ على ما عَظُمَ من الحيَّات، فيراد عند تشبيهها بها في ذلك. والأَوْلَى ما ذُكِرَ أوَّلاً.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يرجع ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: نودي - أو قيل - يا موسى ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ أي: أَدْخِلْها ﴿فِى جَيْبِكَ﴾ هو فتحُ الجبَّة من حيث يخرجُ الرأس ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: عيب.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: من أَجْلِ المخافة. قال مجاهدٌ وابن زيد: أَمَره سبحانه بضمِّ عضده وذراعه ـ وهو الجناح ـ إلى جنبه ليخفَّ بذلك فزعه، ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يَقْوَى قلبُه.

وقال الثوريُّ: خاف موسى عليه السلام أن يكون حدث به سوءٌ، فأمره سبحانه أن يعيد يده إلى جنبه لتعود إلى حالتها الأولى، فيعلم أنه لم يكن ذلك سوءاً بل آيةً من الله عزَّ وجلَّ. وقريبٌ منه ما قيل: المعنى: إذا هالَكَ أمرٌ لِمَا يغلبُ من شعاعها فاضْمُمْها إليك يَسْكُنْ خوفُك.

وفي «الكشاف»: فيه معنيان:

أحدهما: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا قَلَبَ الله تعالى العصا حيةً فزع واضطرب، فاتَّقاها بيده كما يفعل الخائفُ من الشيء، فقيل له: إنَّ اتِّقاءك بيدك فيه غضاضةٌ عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلبُ حيةً فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتِّقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتنابُ ما هو غضاضةٌ عليك، وإظهارُ معجزةٍ أخرى، والمراد بالجناح اليد؛ لأنَّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضمَّ جناحه إليه.

والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه تجلُّده وضَبْطُه نفسَه وتشدُّدُه عند انقلاب العصا حيةً، حتى لا يضطرب ولا يَرْهَبَ، استعارةً من فِعْلِ الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمَّران، ومعنى «من الرهب»: من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهبُ عند رؤية الحية فاضمُم إليك جناحك، جَعَل الرَّهْبَ الذي كان يصيبه سبباً وعلَّةً فيما أُمر به من ضمِّ جناحه إليه.

ومعنى (وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) وقوله تعالى: (ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ) على أحد التفسيرين واحدٌ، ولكنْ خُولِفَ بين العبارتين، وإنما كرَّر المعنى الواحد لاختلافِ الغرضين وذلك أنَّ الغرض في أحدهما خروجُ اليد بيضاءَ، وفي الثاني إخفاءُ الرعب[1]. اهـ.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥.

وضمُّ الجناح على الثاني كنايةٌ عن التجلُّد والضبط نحو قوله:

اشْدُدْ حَيازِيمكَ للموت فإنَّ الموتَ لاقِيكَ[1]

وهو مأخوذٌ من فِعْلِ الطائر عند الأمن بعد الخوف، وهو في الأصل مستعارٌ من فِعْلِ الطائر عند هذه الحالة، ثم كثُر استعماله في التجلُّد وضبطِ النفس حتى صار مثلاً فيه وكنايةً عنه، وعليه يكونُ تتميماً لمعنى «إنَّك من الآمنين».

وهذا مأخوذٌ من كلام أبي عليٍّ الفارسيِّ، فإنه قال: هذا أمرٌ منه سبحانه بالعزم على ما أراده منه، وحضٌّ على الجدِّ فيه؛ لئلا يمنعه الخوف[2] الذي يغشاه في بعض الأحوال عمَّا أُمر بالمضي فيه، وليس المرادُ بالضمِّ الضمَّ المزيلَ للفرجة بين الشيئين. وهو أبعدُ عن المناقشة مما ذكره الزمخشريُّ.

ومثله في البعد عن المناقشة ما قاله البقاعيُّ من أنه أُريدَ بضمِّ جناحه إليه تجلُّده وضبطُه نفسَه عند خروج يده بيضاء، حتى لا يَحْذَرَ ولا يضطربَ من الخوف[3].

وأراد[4] بأحد التفسيرين الوجهَ الأول؛ لأنَّ المعنى عليه: أَدْخِلْ يدك اليمنى تحت عضدك اليسرى. وقال بعضهم[5]: إنَّ المعنى: اضمم يديك المبسوطتين بإدخال اليمنى تحت العضد الأيسر، واليسرى تحت الأيمن، أو بإدخالهما في الجيب. وظاهرُه أنه أريد بالجناح الجناحان، وقد صرح الطبرسيُّ بذلك في نحو ما ذكر، وقال: إنه قد جاء المفردُ مراداً به التثنيةُ كما في قوله:

يداك يدٌ إحداهما الجودُ كلُّه وراحتُك اليُسْرَى طعانٌ تُغامِرُه

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٠، والبيت نسب لعلي ﷺ في الكامل للمبرد ٣/ ١١٢١، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٠٤، والمستقصى ٢/ ١٢٨، ونسبه الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٦٧ لأحيحة بن الجلاح وقال: «اشدد» في البيت زيادة، ويسمِّي العروضيون هذا خَزْماً، والنقصانَ حزماً، والخزم يكون من حرفٍ إلى أربعة، كاشدد في هذا البيت.

(٢) في الأصل و(م): الجد، والمثبت من مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٠، والكلام منه.

(٣) ينظر نظم الدرر ١٤/ ٢٨١.

(٤) يعني الزمخشري.

(٥) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٢.

فإنَّ المعنى: يداك يدان، بدلالة قوله: إحداهما[١].

وفي «الكشاف» أيضاً[٢]: من بدع التفاسير أنَّ الرهب الكُمُّ بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني ما في رَهْبِكَ. وليت شعري كيف صحتُه في اللغة، وهل سُمع من الأثبات الثقات التي تُرضَى عربيَّتُهم؟ ثم ليت شعري كيف موقعُه في الآية، وكيف تطبيقُه المَفْصِلَ[٣] كسائر كلمات التنزيل؟ على أنَّ موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَةٌ[٤] من صوف لا كمَّين لها. اهـ.

وما أشار إليه من أنَّ ذاك لا يطابق بلاغةَ التنزيل ممَّا لا ريبَ فيه، فإنَّ الذاهبين إليه قالوا: المعنى عليه: واضمُم إليك يدك مُخْرَجةً من الكُمِّ؛ لأنَّ يده كانت في الكُمِّ، وهو معنًى كما ترى، ولفظُه أقصرُ منه في الإفادة.

وأمَّا أمرُ سماعه عن الأثبات فقد تعقَّبه في «البحر» بأنه مرويٌّ عن الأصمعيِّ وهو ثقةٌ ثَبْتٌ[٥]. وقال الطيبيُّ: قال محيي السنَّة: قال الأصمعيُّ: سمعتُ بعض الأعراب يقول: أعطني ما في رَهبِكَ، أي: ما في كمِّك[٦]. وزعم بعضهم أنَّ استعمال الرهب في الكُمِّ لغةُ بني حنيفة أيضاً، وهو عندهم وكذا عند حمير بفتح الراء والهاء، والحزمُ عندي عدمُ الجزمِ بثبوت هذه اللغة، وعلى تقدير الثبوت لا ينبغي حَملُ ما في التنزيل الكريم عليها.

والظاهر أنَّ «من الرهب» متعلِّقٌ بـ «اضمم»، وقال أبو البقاء: هو متعلِّق بـ «ولَّى». وقيل: بـ «مدبِراً». وقيل: بمحذوفٍ، أي: تَسْكُنْ من الرهب. وقيل: بـ «اضمم»[٧]. ولا يخفى ما في تعلُّقه بسوى «اضمُم» وإن أشار إلى تعلُّقه بـ «ولَّى»

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩١، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٦ برواية:

يداك يدٌ إحداهما النيلُ والذرى ... وراحتُها الأخرى طعانٌ تُعاوِرُه

(٢) ٣/ ١٧٥.

(٣) التطبيق: إصابة السيف المفصل، ويعني به هنا مطابقته لبلاغة التنزيل، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٤٣) من سورة النمل.

(٤) الزُّرْمانقة: جبة من صوف، معرَّب أُشْتُرْ بانَهْ، أي: متاع الجِمال. القاموس (زرق).

(٥) البحر ٧/ ١١٨.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥.

(٧) الإملاء ٤/ ١٤٩-١٥٠.

أو «مدبراً» كلامُ ابن جريج على ما أخرجه عنه ابن المنذر[١]، حيث جَعَل الآيةَ من التقديم والتأخير، والمرادُ: ولَّى مدبراً من الرهب.

وقرأ الحِرْمِيَّان: «من الرَّهَب» بفتح الراء والهاء[٢]، وأكثر السبعة بضمِّ الراء وإسكانِ الهاء. وقرأ قتادة والحسن وعيسى والجحدريُّ بضمِّها[٣]، والكلُّ لغاتٌ.

﴿فَذَانِكَ﴾ أي: العصا واليد، والتذكيرُ لمراعاة الخبر، وهو قولُه تعالى: ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾.

وقيل: الإشارة إلى انقلاب العصا حيةً بعد إلقائها، وخروجِ اليد بيضاءَ بعد إدخالها في الجيب، فأمرُ التذكير ظاهرٌ.

والبرهانُ: الحجَّةُ النيِّرةُ، وهو فُعْلان لقولهم: أَبْرَهَ الرجل، إذا جاء بالبرهان، من بَرِهَ الرجلُ: إذا ابيضَّ، ويقال للمرأة البيضاء: بَرْهَاء وبَرَهْرَهَة.

وقال بعضهم: هو فُعْلان من البره بمعنى القطع، فيفسَّر بالحجة القاطعة.

وقيل: هو فُعْلال، لقولهم: بَرْهَنَ. ونُقل عن الأكثر أن بَرْهَنَ مولَّدٌ بنَوْه من لفظ البرهان.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «فذانِّك» بتشديد النون[٤]، وهي لغةٌ فيه، فقيل: إنه عوِّض من الألف المحذوفة من «ذا» حالَ التثنية لألفها نونٌ وأدغمت. وقال المبرِّد[٥]: إنه بدلٌ من لام «ذلك»، كأنهم أدخلوها بعد نون التثنية، ثم قلبت اللام نوناً لقرب المخرج وأُدغمت، وكان القياس قَلْبَ الأولى لكنه حوفظ على علامة التثنية.

وقرأ ابن مسعود وعيسى وأبو نوفل وابن هرمز وشبل: «فذانيك» بياءٍ بعد النون

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٨.

(٢) وقرأ بها أيضاً أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب، وقرأ حفص بفتح الراء وإسكان الهاء، والباقون ـ كما سيرد آنفاً ـ بضم الراء وإسكان الهاء. التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١.

(٣) البحر ٧/ ١١٨.

(٤) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٤٨. وهي قراءة رويس عن يعقوب.

(٥) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٧٤، وعنه نقل المصنف.

المكسورة، وهي لغةُ هذيل، وقيل: بل لغة تميم. ورواها شبل عن ابن كثير، وعنه أيضاً: «فذانَيك» بفتح النون قبل الياء[1] على لغةِ مَن فتح نونَ التثنية نحو قوله:

علـى أحـوذيَّـيـنَ استـقـلَّـت عـشـيـةً فـمـا هـي إلا لـمـحـةٌ وتـغـيـبُ[2]

وعن ابن مسعود أنه قرأ بتشديد النون مكسورةً بعدها ياءٌ، قيل: وهي لغة هذيل، وقال المهدويُّ: بل لغتُهم تخفيفها[3].

و«مِن» في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ «برهانان» أي: كائنان من ربك، و«إلى» في قوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أيضاً هو ـ على ما يقتضيه ظاهرُ كلام بعضهم ـ صفةٌ بعد صفةٍ له، أي: واصلان إليهم، وعلى ما يقتضيه ظاهرُ كلام آخَرين حالٌ منه، أي: مرسَلاً أنت بهما إليهم.

وفي «البحر»: أنه متعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، تقديره: اذهب إلى فرعون[4].

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: فرعونَ وملأه ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحقَّاء بأنْ نرسلك بهاتين المعجزتين الباهرتين إليهم، والكلامُ في «كانوا» يُعلَمُ مما تقدَّم في نظائره.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ﴾ لذلك ﴿أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ بمقابلتها، والمرادُ بهذا الخبر طلبُ الحفظِ والتأييد لإبلاغ الرسالة على أكمل وجهٍ، لا الاستعفاءُ من الإرسال، وزعمت اليهود أنه عليه السلام استَعْفَى ربَّه سبحانه من ذلك. وفي التوراة التي بأيديهم اليوم أنه قال: ياربِّ، ابعث مَن أنت باعثُه[5].

---

(١) ذكر هذه القراءات أبو حيان في البحر ٧/ ١١٨، وعنه نقل المصنف، والقراءة الأخيرة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٣.

(٢) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص٥٥ قاله في وصف قطاة، والأحوذي: الخفيف في الشيء بحذقه، ويريد بالأحوذيين هنا جناحي القطاة يصفهما بخفتهما. المقاصد النحوية للعيني على هامش الخزانة ١/ ١٨٠.

(٣) البحر ٧/ ١١٨، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٣ عن ابن كثير.

(٤) البحر ٧/ ١١٨.

(٥) العهد القديم ص١٥٩.

وأكَّد طلب التأييد بقوله: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ أي: عوناً، كما روي عن قتادة، وإليه ذهب أبو عبيدة وقال: يقال: رَدَأْتُه على عدوِّه: أَعَنْتُه[1].

وقال أبو حيان: الرِّدْءُ: المُعين الذي يشتدُّ به الأمرُ، فِعْلٌ بمعنى مفعول، فهو اسمٌ لِمَا يُعانُ به كما أنَّ الدِّفْءَ اسمٌ لِمَا يُتدفَّأُ به؛ قال سلامةُ بن جندل:

وِرِدْئي كلُّ أبيضَ مَشْرَفيٍّ   شديدِ الحدِّ عَضْبٍ ذي فُلولِ[2]

ويقال: ردأتُ الحائط أَرْدَؤُه: إذا دعمته بخشبةٍ لئلَّا يسقط.

وفي قوله: «أفصح منِّي» دلالةٌ على أنَّ فيه عليه السلامُ فصاحةً، ولكنَّ فصاحة أخيه أَزْيَدُ من فصاحته.

وقرأ أبو جعفر ونافع المدنيان[3]: «رِداً» بحذف الهمزة ونَقْلِ حركتها إلى الدال[4]. والمشهورُ عن أبي جعفر أنه قرأ بالنقل ولا هَمْزَ ولا تنوين، ووَجْهُه أنه أَجْرى الوصلَ مجرى الوقف[5]. وجوِّز في «ردا» على قراءة التخفيف كونُه منقوصاً بمعنى زيادة، من رَدَيْتُ عليه: إذا زدت.

﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ أي: يلخِّصُ بلسانه الحقَّ، ويبسطُ القولَ فيه، ويجادلُ به الكفار؛ فالتصديقُ مجازٌ عن التلخيص المذكور الجالبِ للتصديق؛ لأنه كالشاهد لقوله، وإسنادُه إلى هارون حقيقةٌ، ويرشد إلى ذلك: «وأخي هارون» إلخ؛ لأنَّ فضل الفصاحة إنما يُحتاج إليه لِمثْلِ ما ذكر، لا لقوله: صَدَقْتَ، أو: أخي موسى صادقٌ، فإنَّ سحبان وباقلاً فيه سواء[6].

---

(١) مجاز اللغة ٢/ ١٠٤، وفيه: أردأت، بدل: ردأت. وهما بمعنًى كما في اللسان (ردأ).

(٢) الكشاف ٣/ ١٧٦، والبحر ٧/ ١٠٣، وفيهما: شحيذ الحد...، ولم نقف عليه في ديوان سلامة بن جندل.

(٣) في الأصل و(م) ومطبوع البحر: والمدنيان، والصواب ما أثبتناه.

(٤) التيسير ص١٧١، والنشر ١/ ٤١٣-٤١٤.

(٥) البحر ٧/ ١١٨، ووافق نافعٌ أبا جعفر في الوقف كما في النشر ١/ ٤١٤.

(٦) باقل رجل من إياد، وكان عييًّا فَدماً، وسحبان رجل من وائل باهلة، وكان من خطباء العرب وبلغائها، وقيل: إنه خطب في صلح بين حيين شطر يوم فما أعاد كلمة، وهو أول من قال: =

أو: يَصِلُ جناحَ كلامي بالبيان حتى يصدِّقَني القومُ الذين أخاف تكذيبَهم، فالتصديقُ على حقيقته، وإنما أسند إلى هارون عليه السلام لأنه ببيانه جَلَبَ تصديق القوم، ويؤيِّد هذا قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ لدلالته على أنَّ التصديق على الحقيقة.

وقيل: تصديقُ الغير بمعنى إظهار صدقه، وهو كما يكون بقولِ: هو صادق، يكون بتأييده بالحجج ونحوِها، كتصديق الله تعالى للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات، والمراد به هنا ما يكون بالتأييد بالحجج، فالمعنى: يُظْهِرُ صدقي بتقرير الحجج وتزييفِ الشُّبَه «إنِّي أخاف أن يكذبون» ولساني لا يطاوعُني عند المحاجَّة. وعليه لا حاجةَ إلى ادِّعاء التجوُّز في الطرف أو في الإسناد.

وتعقِّب بأنه لا يخفى أنَّ صَدَّقَه معناه إمَّا قال: إنه صادق، أو قال له: صَدقْتَ، فإطلاقُه على غيره الظاهرُ أنه مجازٌ.

وجملة «يصدِّقني» تحتملُ أن تكون صفةً لـ «ردءاً»، وأن تكون حالاً، وأن تكون استئنافاً. وقرأ أكثر السبعة: «يصدِّقْني» بالجزم[1] على أنه جوابُ الأمر. وزعم بعضهم أنَّ الجواب على قراءة الرفع محذوفٌ. ويَرِدُ عليه أنَّ الأمر لا يلزمُ أن يكون له جوابٌ، فلا حاجةَ إلى دعوى الحذف.

وقرأ أُبيٌّ وزيد بن عليٍّ رضي الله عنه: «يصدِّقوني» بضمير الجمع[2]، وهو عائدٌ على فرعون وملئه لا على هارون، والجمعُ للتعظيم كما قيل، والفعلُ على ما نُقِلَ عن ابن خالويه مجزومٌ، فقد جَعَل هذه القراءة شاهداً لمن جَزَمَ من السبعة «يصدِّقْني» وقال: لأنه لو كان رفعاً لقيل: يصدقونني[3]. وذكر أبو حيان بعد

= أما بعد، من العرب. ومن أمثالهم: أعيا من باقل، ومنها: أبلغ من سحبان وائل. الأمثال لأبي عبيد ص٣٦٨، وفصل المقال للبكري ص٤٩٦-٤٩٧، وجمهرة الأمثال ٢/ ٧٢، والمستقصى ١/ ٢٨ و٢٥٦.

(١) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١. وقرأ بالرفع عاصم وحمزة.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١١٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٤، وتعقبه السمين في الدر ٨/ ٦٧٧ بقوله: وهذا سهو من ابن خالويه؛ لأنه متى اجتمعت نون الرفع مع نون الوقاية جازت أوجهٌ، أحدها: الحذفُ، فهذا =

نقله أنَّ الجزم على جواب الأمر، والمعنى في يصدقون: أرجُ تصديقَهم إياي[١]، فتأمل.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ إجابةٌ لمطلوبه، وهو ـ على ما قيل ـ راجعٌ لقوله: «أرسله معي» إلخ، والمعنى: سنُقوِّيكَ به ونُعينُكَ، على أن «شدَّ عَضُدَه» كنايةٌ تلويحيةٌ عن تقويته؛ لأنَّ اليد تشتدُّ بشدة العضد، وهو ما بين المرفق إلى الكتف، والجملة تشتدُّ بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول «بأخيك» فيما جُعل كناية، أو على أنَّ ذلك خارجٌ مخرج الاستعارة التمثيلية، شُبِّه حالُ موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحالِ اليد في تقويتها بعضدٍ شديد.

وجوِّز أن يكون هناك مجازٌ مرسَلٌ من باب إطلاق السبب على المسبَّب بمرتبتين، بأن يكون الأصلُ: سنقوِّيك به ثم سنؤيِّدُك ثم سنشدُّ عضدك به.

وقرأ زيد بن عليٍّ والحسن: «عُضُدَك» بضمتين[٢]. وعن الحسن أنه قرأ بضمِّ العين وإسكان الضاد، وقرأ عيسى بفتحهما، وبعضُهم بفتح العين وكسر الضاد، ويقال فيه: عَضْدٌ بفتح العين وسكون الضاد، ولم أعلم أحداً قرأ بذلك[٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: تسلُّطاً عظيماً وغلبةً، راجعٌ على ما قيل أيضاً لقوله: «إنِّي أخاف أن يكذبون». وقولُه سبحانه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ تفريعٌ على ما حصل من مراده، أي: لا يصلون إليكما باستيلاءٍ أو محاجَّةٍ ﴿بِئَايَٰتِنَآ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ قد صرِّح به في مواضع أُخر، أي: اذهبا بآياتنا، أو بـ «نجعل»، أي: نسلِّطُكما بآياتنا، أو بـ «سلطاناً» لِمَا فيه من معنى التسلُّط والغلبةِ، أو بمعنى: لا يصلون، أي: تمتنعون منهم بها، أو بحرف النفي على قول بعضهم بجواز تعلُّق الجارِّ به.

= يجوز أن يكون مرفوعاً، وحَذفُ نونِه لما ذكرت لك، وحكاه الشيخ (يعني أبا حيان) عن ابن خالويه ولم يعقبه بنكير.

(١) البحر ٧/ ١١٨.

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٢، والبحر ٧/ ١١٨.

(٣) البحر ٧/ ١١٨.

وقال الزمخشريُّ: يجوز أن يكون قسماً جوابه «لا يصلون» مقدماً عليه، أو هو من القسم الذي يتوسَّطُ الكلام ويُقْحَمُ فيه لمجرَّد التأكيد، فلا يحتاج إلى جوابٍ أصلاً[1].

ويَرِدُ على الأول أنَّ جواب القسم لا يتقدَّمه ولا يقترن بالفاء أيضاً، فلعله أراد أنَّ ذلك دالٌّ على الجواب وأما هو فمحذوفٌ، إلا أنه تَساهَلَ في التعبير.

وجوَّز أن يكون صلةً لمحذوفٍ يفسِّره «الغالبون» في قوله سبحانه: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أو صلةً له واللامُ فيه للتعريف لا بمعنى «الذي»، أو بمعناه على رأيِ مَن يجوِّز تقديم ما في حيِّز الصلة على الموصول، إمَّا مطلقاً أو إذا كان المقدَّم ظرفاً، وتقديمه إمَّا للفاصلة أو للحصر.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالةِ على صحة رسالته عليه السلام منه عز وجل، والظاهرُ أنَّ المراد بالآيات العصا واليد؛ إذ هما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك، وقد تقدَّم في سورة «طه» سرُّ التعبير عنهما بصيغةِ الجمع.

﴿قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ الذي جئتَ به ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: سحرٌ تختلقُه لم يُفْعَلْ قبلَه مثلُه، فالافتراءُ بمعنى الاختلاق لا بمعنى الكذب، أو سحرٌ تتعلَّمه من غيرك ثم تنسبه إلى الله تعالى كذباً، فالافتراء بمعنى الكذب لا بمعنى الاختلاق. والصفةُ على هذين الوجهين مخصِّصةٌ.

وقيل: المراد بالافتراء التمويهُ، أي: هو سحرٌ مموَّهٌ لا حقيقةَ له، كسائرِ أنواع السحر، وعليه تكونُ الصفة مؤكِّدةً والافتراءُ ليس على حقيقته كما في الوجه الأول. والحقُّ أنَّ من أنواع السحر ما له حقيقةٌ، فتكونُ الصفة مخصِّصةً أيضاً.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: نوع السحر، أو: ما صدر من موسى عليه السلام، على أنَّ الكلام على تقدير مضافٍ، أي: بمثل هذا، أو الإشارةُ إلى ادِّعاء النبوَّة، ونَفْيُهم السماعَ بذلك تعمُّدٌ للكذب، فقد جاءهم يوسف عليه السلام من قبلُ بالبينات وما بالعهد من قدم.

---

(١) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٧٦.

ويحتمل أنهم أرادوا نفي سماع ادِّعاء النبوَّة على وجه الصدق عندهم، وكانوا ينكرون أصلَ النبوَّات، ولا يقولون بصحة شيءٍ منها، كالبراهمة، وككثيرٍ من الإفرنج ومَن لَحَسَ من فَضَلاتهم اليوم.

والباء كما في «مجمع البيان» إمَّا على أصلها، أو زائدةٌ[1]، أي: ما سمعنا هذا ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٦﴾ أي: واقعاً في أيامهم، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من «هذا» بتقديرِ مضافٍ، والعاملُ فيه «سمعنا». وجوِّز أن يكون «بهذا» على تقديرِ: بوقوع هذا، ويكون الجارُّ متعلِّقاً بذلك المقدَّر. وأشاروا بوصف آبائهم بالأوَّلين إلى انتفاء ذلك منذ زمانٍ طويل.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ يريد عليه السلام بالموصول نفسَه، وقرأ ابن كثير: «قال» بغير واوٍ[2]؛ لأنه جوابٌ لقولهم: إنه سحر، والجوابُ لا يعطف بواوٍ ولا غيرِها، ووجهُ العطف في قراءة باقي السبعة أنَّ المراد حكايةُ القولين ليوازنَ الناظرُ المحكيُّ له بينهما فيميِّزَ صحيحهما من الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أي: العاقبةُ المحمودةُ في الدار وهي الدنيا، وعاقبتُها أن يُختم للإنسان بها بما يفضي به إلى الجنة بفَضْلِ الله تعالى وكرمه، ووجهُ إرادة العاقبة المحمودة من مُطْلَقِ العاقبة أنها هي التي دعا اللهُ تعالى إليها عباده، وركَّب فيهم عقولاً ترشدُهم إليها، ومكَّنهم منها، وأزاح عِلَلَهم ووفَّر دواعيَهم وحضَّهم عليها، فكأنها لذلك هي المرادةُ من جميع العباد، والغرضُ من خَلْقِهم، وهذا ما اختاره ابن المنير موافقاً لِمَا عليه الجماعةُ، وحَكَى[3] أنَّ بعضهم قال له: ما يمنعك أن تقول: فَهْمُ عاقبة الخير من إضافة العاقبة إلى ذويها باللام كما في هذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وقولِه سبحانه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] إذ عاقبةُ الخير هي التي تكون لهم، وأما عاقبةُ السوء فعليهم لا لهم، فقال له: لقد كان لي في ذلك مقالٌ لولا ورودُ مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، ولم يقل: وعليهم، فاستعمال

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٥.

(٢) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٣٤١.

(٣) في الانتصاف ٣/ ١٧٨.

اللام مكانَ «على» دليلٌ على إلغاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير.

وقد يقال: إنَّ اللام ظاهرةٌ في النفع، ويكفي ذلك في انفهام كون المراد بالعاقبة عاقبةَ الخير، ويلتزم في نحو الآية التي أوردها ابن المنير كونُها من باب التهكُّم، وهذا نظيرُ ما قالوا: إنَّ البشارة في الخير، و﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] من باب التهكُّم.

وقال الطيبيُّ انتصاراً للبعض أيضاً: قلت: الآيةُ غيرُ مانعةٍ عن ذلك، فإنَّ قرينة اللعنة والسوء مانعةٌ عن إرادة الخير، وإنما أتى بـ «لهم» ليؤذِنَ بأنهما حقَّان ثابتان لهم لازمان إياهم، ويعضده التقديم المفيدُ للاختصاص، فتدبَّر.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يكون» بالياء التحتية[1]، لأنَّ المرفوع مجازيُّ التأنيث ومفصولٌ عن رافعه.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا يفوزون بمطلوبٍ ولا ينجون عن محذورٍ.

وحاصلُ كلام موسى عليه السلام: ربِّي أعلمُ منكم بحالِ مَن أهَّله سبحانه للفلاح الأعظم، حيث جعله نبيًّا وبعثه بالهدى ووعده حُسْنَ العقبى، ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لمَا أهَّله لذلك؛ لأنه غنيٌّ حكيم لا يرسِلُ الكاذبينَ ولا يُنبِّئ الساحرينَ، ولا يفلح عنده الظالمون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ قاله اللعينُ بعدما جمع السحرةَ وتصدَّى للمعارضة، والظاهرُ أنه أراد حقيقةَ ما يدلُّ عليه كلامُه، وهو نفيُ علمه بإلهٍ غيرِه دون وجوده، فإنَّ عدم العلم بالشيء لا يدلُّ على عدمه، ولم يَجْزِم بالعدم بأن يقول: ليس لكم إلهٌ غيري، مع أنَّ كلًّا من هذا وما قاله كذبٌ، لأنَّ ظاهر قول موسى عليه السلام له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] يقتضي أنه كان عالماً بأنَّ إلههم غيرُه، وما تَركه أوفقُ ظاهراً بما قَصَده من تبعيدِ قومه عن اتِّباع موسى عليه السلام اختياراً لدسيسةٍ شيطانية، وهو إظهارُ أنه منصفٌ في الجملة؛ ليتوصَّل بذلك إلى قبولهم ما يقولُه لهم بعدُ في أمر الإله، وتسليمِهم إياه له اعتماداً على ما رأوا من إنصافه،

---

(١) التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٣، وهي قراءة خلف من العشرة.

فكأنه قال: ما علمتُ في الأزمنة الماضية لكم إلهاً غيري كما يقول موسى، والأمر محتملٌ وسأحقِّق لكم ذلك.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اصْنَعْ لي آجُرًّا ﴿فَٱجْعَل لِّي﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي: بناءً مكشوفاً عالياً، من صَرُح الشيءُ: إذا ظَهَر.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ﴾ أي: أَطْلعُ وأصعدُ، فافْتَعَلَ بمعنى الفعل المجرَّد كما في «البحر»[1] وغيرِه ﴿إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ الذي يذكر أنه إلهه وإلهُ العالمين، كأنه يُوهِمُ قومه أنه تعالى لو كان كما يقول موسى لكان جسماً في السماء، كون الأجسام فيها يمكن الرقيُّ إليه.

ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فيما يذكر، تأكيداً لِمَا أراد، وإعلاماً بأنَّ ترجِّيَهُ الصعودَ إلى إله موسى عليه السلام ليس لأنه جازمٌ بأنه هناك.

والأمرُ بجَعْلِ الصرح وبنائه لا يدلُّ على أنه بُني، وقد اختُلف في ذلك؛ فقيل: بناه، وذُكر من وَصْفِه ما اللهُ عزَّ وجلَّ أعلم به.

وقيل: لم يُبْنَ، وعلى هذا يكون قوله ذلك وأمرُه للتلبيس على قومه، وإيهامِه إياهم أنه بصدد تحقيق الأمر، ويكون ما ذُكر ذكراً لأحد طرق التحقيق، فيتمكَّنُ من أن يقول بعده: حقَّقتُ الأمر بطريقٍ آخر فعَلِمْتُ أن ليس لكم إلهٌ غيري، وأنَّ موسى كاذبٌ فيما يقول.

وعلى الأول يحتملُ أن يكون صعد الصَّرْحَ وحده أو مع مَن يأمنُه على سرِّه، وبقي ما بقي، ثم نزل إليهم فقال لهم: صعدتُ إلى إله موسى وحقَّقتُ أنْ ليس الأمرُ كما يقول وعلمتُ أنْ ليس لكم إلهٌ غيري.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدِّيِّ قال: لمَّا بُني له الصرحُ ارْتَقَى فوقه فأمر بنشابةٍ فرمى بها نحو السماء، فرُدَّتْ إليه وهي متلطِّخةٌ دماً، فقال: قتلتُ إلهَ موسى[2]. وهذا إن صحَّ من باب التهكُّم بالفعل، ولا أظنُّه يصحُّ.

---

(١) ٧/ ١٢٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٩.

وأيًّا ما كان فالقومُ كانوا في غاية الغباوة والجهل وإفراطِ العماية والبَلادةِ، وإلّا لَمَا نفق عليهم مثلُ هذا الهذيان، ولله تعالى خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

ولا يَبْعُدُ أن يقال: كان فيهم من ذوي العقول مَن يعلمُ تمويهه وتلبيسَه، ويعتقدُ هذيانَه فيما يقول، إلا أنه نظم نفسه في سلك الجهّال، ولم يُظْهِرْ خلافاً لِمَا عليه اللعين بحالٍ من الأحوال، وذلك إمَّا للرغبة فيما لديه أو للرهبة من سطوته واعتدائه عليه، وكم رأينا عاقلاً وعالماً فاضلاً يوافق لذلك الظَّلَمة الجبابرة ويصدِّقُهم فيما يقولون، وإن كان مستحيلاً أو كفراً بالآخرة.

وكأنَّ قولَ اللَّعينِ لموسى عليه السلام: «لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنَّك من المسجونين»، بعد هذا القول المحكيِّ ها هنا، بأنْ يكون قاله وأردفه بإخبارهم على البتِّ أنْ لا إله لهم غيرُه، ثم هدَّد موسى بالسَّجْنِ إنْ بدا منه ما يُشْعِرُ بخلافه. وهذا وجهٌ في الآية لا يخلو عن لطفٍ وإن كان فيه نوعُ خفاءٍ، وفيها أوجهٌ أُخَرُ:

الأول: أنه أراد بقوله: «ما علمت لكم من إلهٍ غيري» نفيَ العلم دون الوجود كما في ذلك الوجه، إلا أنه لم يَنْفِ الوجودَ لأنه لم يكن عنده ما يقتضي الجزمَ بالعدم، وأراد بقوله: «إنِّي لأظنُّه من الكاذبين»: إني لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة من الله تعالى، وأراد بقوله: يا هامان أوقد لي على الطين.. إلخ، إعلامَ الناس بفسادِ دعواه تلك بناءً على توهُّمه أنه تعالى إن كان كان في السماء بأنه لو كان رسولاً منه تعالى فهو ممن يَصِلُ إليه، وذلك بالصعود إليه، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، فيكون من نوع المحال بالنسبة إليه، فما بُني عليه وهي الرسالة منه تعالى مثلُه، فقوله: «فاجعل لي صرحاً» لإظهار عدم إمكان الصعود الموقوف عليه صحةُ دعوى الرسالةِ في زَعْمِه، و«لعل» للتهكُّم.

الثاني: أنه أراد أيضاً نفي العلم بالوجود دون الوجود نفسِه، لكنه كان في نفي العلم ملبِّساً على قومه كاذباً فيه، حيث كان يعلم أنَّ لهم إلهاً غيرَه هو إلهُ الخلق أجمعين، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وأراد بقوله: «وإنِّي» إلخ: إنِّي لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة كما في سابقه، وأراد بقوله: «ياهامان» إلخ، طَلَبَ أن يجعل له ما يزيلُ به شكَّه في الرسالة، وذلك بأنْ يبني له رصداً في موضعٍ عالٍ يرصدُ منه أحوالَ

الكواكب الدالَّة على الحوادث الكونية بزَعْمِه، فيرى هل فيها ما يدلُّ على إرسال الله تعالى إياه.

وتعقِّب بأنه لا يناسبُ قوله: «فأطَّلعَ إلى إله موسى» إلَّا أنْ يراد: فأطَّلع على حُكْمِ إله موسى بأوضاع الكواكب، والنظرِ فيها: هل أرسل موسى كما يقول أم لا؟ فيكون الكلام على تقديرِ مضافٍ، و«إلى» فيه بمعنى «على».

وجوِّز على هذا الوجه أن يكون قد أراد بإله موسى الكواكبَ، فكأنه قال: لعلِّي أصعدُ إلى الكواكب التي هي إلهُ موسى، فأنظرَ هل فيها ما يدلُّ على إرسالها إياه؟ أو: لعلِّي أطلعُ على حُكْمِ الكواكب التي هي إلهُ موسى في أمر رسالته، وهو كما ترى. وبالجملة هذا الوجه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه.

الثالث: أنه أراد بنفي علمه بإلهٍ غيرِه نفيَ وجوده، وبظنِّه كاذباً ظنَّه كاذباً في إثباته إلهاً غيره، ويفسَّر الظنُّ باليقين، كما في قول دريد بن الصمة:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألفي مُدجَّجٍ سَرَاتُهمْ في الفارسيِّ المسرَّدِ[1]

فإثباتُ الظنِّ المذكورِ لا يدفعُ إرادةَ ذلك النفي. وجوِّز بعضُهم إبقاءه على ظاهره، وقال في دفع المنافاة: يمكن أن يقال: الظاهر أن كلامه الأول كان تمويهاً وتلبيساً على القوم، والثاني كان مُواضعةً مع صاحب سرِّه هامان، فإثباتُ الظنِّ في الثاني لا يدفعُ أن يكون العلم في الأول لنفي المعلوم. وفيه أنه يأبى ذلك سوقُ الآية، والفاءُ في «فأَوْقِدْ لي».

وطلبُه بناءَ الصرح راجياً الصعودَ إلى إله موسى عليه السلام أراد به التهكُّم، كأنه نَسب إلى موسى عليه السلام القولَ بأنَّ إلهه في السماء، فقال: يا هامان اجعل لي صرحاً لأصعد إلى إله موسى، متهكِّماً به، وهذا نظيرُ ما إذا أخبرك شخصٌ بحياةِ زيد وأنه في داره، وأنت تعلم خلافَ ذلك، فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكِّماً به: ياغلام، أَسْرِجْ لي الدابَّةَ لعلِّي أذهبُ إلى فلانٍ وأستأنسُ به، بل ما قاله فرعون أظهرُ في التهكُّم مما ذُكر، فطلبُه بناءَ الصرح بناءً

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٤٧، والأضداد ص١٤، وتفسير الطبري ١/ ٦٢٤، والأغاني ١٠/ ٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨١٢. ورواية الديوان: علانيةً ظنُّوا...

على هذا لا يكون منافياً لِمَا ادَّعاه أوّلاً وآخِراً من العلم واليقين.

وقال بعضهم في دفع ما قيل من المنافاة: إنها إنما تكون لو لم يكن قوله: «لعلي أطّلعُ» إلخ، على طريق التسليم والتنزُّل.

وقال آخر في ذلك: إنَّ اللعين كان مشركاً يعتقدُ أنَّ مَن ملك قطراً كان إلهَهُ ومعبودَ أهله، فما أثبته في قوله: «لعلِّي أطّلعُ» إلخ الإلهُ لغير ممتلكه، وما نفاه إلهُها كما يشير إليه قولُه: «لكم»، ولا يخلو عن بحث.

وفي «الكشاف»(١) القولُ بالمناقضة بين بناء الصرح وما ادَّعاه من العلم واليقين، إلا أنه قال: قد خَفِيتْ على قومه لغباوتهم وبلههم، أوْ لم تَخْفَ عليهم ولكن كلًّا كان يخاف على نفسه سوطَه وسيفه.

وإذا فتح هذا الباب جاز إبقاء الظنِّ على ظاهره من غير حاجةٍ إلى دفع التناقض، والأَوْلَى عندي السعيُ في دفع التناقُض، فإذا لم يمكن استُند في ارتكاب المخذول إياه إلى جهله، أو سَفَهِه وعدمِ مبالاته بالقوم لغباوتهم، أو خوفهم منه، أو نحو ذلك.

واعتُرض القول بأنه أراد بنفي علمه بإلهٍ غيره نفيَ وجوده فقال في «التحقيق»، وذَكَره غيرُه أيضاً: إنه غيرُ سديدٍ؛ فإنَّ عدم العلم بالشيء لا يدلُّ على عدمه، لاسيما عدم علم شخصٍ واحد.

وقال القاضي البيضاوي: هذا في العلوم الفعلية صحيحٌ؛ لأنها لازمةٌ لتحقُّق معلوماتها، فيلزمُ من انتفائها انتفاؤها، ولا كذلك العلومُ الانفعالية(٢).

وردَّ بأنَّ غرض قائل ذلك أنَّ عدم الوجود سببٌ لعدم العلم بالوجود في الجملة، ولا شكَّ أنه كذلك، فأُطلق المسبَّب وأُريدَ السبب، لا أنَّ بينهما ملازمةً كلِّيةً، على أنه لمَّا كان من أقوى أسباب عدم العلم لأنه المطَّردُ جاز أن يطلق ويرادَ به الوجود؛ إذ لا يشترط في فنِّ البلاغة اللزومُ العقليُّ بل العاديُّ والعرفيُّ

---

(١) ٣/ ١٧٩.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٥. وقال الشهاب: المراد بالعلم الفعلي ما كان سبباً لوقوع معلومه، والانفعالي خلافه.

كافٍ أيضاً، وقد يقول أحدٌ منا: لا أعلم ذلك، أي: لو كان موجوداً لعَلِمتُه إذا قامت قرينةٌ، وهذا الاستعمالُ شائعٌ في عُرْفي العرب والعجم عند العامة والخاصة، ومنه قولُ المزكِّي إذا سئل عن عدالة الشهود: لا أعلم، كيف وكان المخذولُ يدَّعي الإلهية. ثم الظاهرُ أنَّ الكلام على تقدير إرادةِ نفي الوجود كنايةٌ لا مجازٌ. وبالجملة ما ذكر وجهٌ وجيهٌ، وتعيينُ الأَوْجَهِ مفوَّضٌ إلى ذهنك والله تعالى الموفق.

واستدل بعضُ مَن يقول: إنَّ الله تعالى في السماء، بالمعنى الذي أراده سبحانه في قوله عز وجل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] حَسْبَما يقول السلف بهذه الآية، ووجه ذلك بأنَّ فرعون لو لم يسمع من موسى عليه السلام أنَّ إلهه في السماء لمَا قال: «فاجعل لي صرحاً لعلِّي اطَّلعُ إلى إله موسى»، فقوله ذلك دليلُ السماع، إلا أنه أخطأ في فهم المراد مما سمعه، فزعم أنَّ كونه تعالى في السماء بطريق المظروفية والتمكُّنِ ونحوِهما مما يكون للأجسام.

وأنت تعلم أنَّ هذا الاستدلال في غاية الضعف، وإثباتُ مذهب السلف لا يحتاجُ إلى أن يُتمسَّكَ له بمثل ذلك.

وفي قول المخذول: «أَوْقِد لي على الطين» والمرادُ به اللَّبِن، دون: اصنع لي آجرًّا، إشارةٌ إلى أنه لم يكن لهامان علمٌ بصنعة الآجُرِّ، فأمره باتِّخاذه على وجهٍ يتضمَّنُ التعليم، وفي الآثار ما يؤيِّد ذلك؛ فقد أخرج ابن المنذر[1] عن ابن جريج قال: فرعونُ أولُ مَن أمر بصنعة الآجُرِّ وبنائه.

وأخرج هو وجماعةٌ عن قتادةَ قال: بلغني أنَّ فرعون أولُ مَن طبخ الآجرَّ، وصنع له الصرح[2].

وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر قال: ما علمتُ أنَّ أحداً بنى بالآجرِّ غير فرعون.

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٩.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٢٩، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٩١، والطبري ١٨/ ٢٥٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٧٩.

وفي أَمْرِه إياه وهو وزيرُه وردِيفُه بعملِ السِّفْلةِ من الإيقاد على الطين، منادياً له باسمه دون تكنيةٍ وتلقيبٍ بـ «يا» دون ما يدلُّ على القُرْب، في وسط الكلام دون أوَّله = من الدلالة على تجبُّره وتعظُّمه ما لا يخفى.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: رأوا كلَّ مَن سواهم حقيراً بالإضافة إليهم، ولم يروا العظمةَ والكبرياء إلَّا لأنفسهم، فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الأكثرون على أنَّ المراد: في أرض مصر. وقيل: المراد بها الجُرم المعروف المقابلُ للسماء. وفي التقييد بها تشنيعٌ عليهم حيث استكبروا فيما هو أسفلُ الأجرام، وكان اللائقُ بهم أن ينظروا إلى محلِّهم وتسفُّله فلا يستكبروا.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير الاستحقاق، لما أنَّ رؤيتهم تلك باطلةٌ، ولا تكونُ رؤية الكلِّ حقيراً بالإضافة إلى الرائي ورؤيةُ العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره حقًّا إلا من الله عزَّ وجل، ومن هنا قال الزمخشريُّ: الاستكبار بالحقِّ إنما هو لله تعالى، وكلُّ مستكبرٍ سواه عزَّ وجلَّ فاستكبارُه بغير الحق، وفي الحديث القدسيِّ: «الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري، فَمَنْ نازَعَني واحداً منهما ألقيتُه في النار»[(١)].

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالبعث للجزاء، والظنُّ قيل: إمَّا على ظاهره، أو عبَّر عن اعتقادهم به تحقيراً لهم وتجهيلاً[(٢)].

وقرأ حمزة والكسائيُّ ونافع: «لا يَرْجِعون» بفتح الياء وكسر الجيم[(٣)].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: ألقيناهم وأغرقناهم فيه، وقد مرَّ تفصيلُ ذلك. وفي التعبير بالنبذ وهو إلقاء الشيء الحقير وطَرْحُه لقلَّة الاعتداد به، ولذلك قال الشاعر:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٠، والحديث أخرجه ابن ماجه (٤١٧٥)، وابن حبان (٥٦٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٧٣٨٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه بنحوه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) في (م): وتمهيلاً، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٧٥، والكلام منه.

(٣) التيسير ص١٧١، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩، وهي قراءة خلف ويعقوب من العشرة.

نـظـرتُ إلـى عـنـوانـه فـنـبـذتـهُ   كـنبـذك نـعـلاً مـن نـعـالـك بـالـيـا[1]

استحقارٌ لهم. وفي الكلام على ما قيل استعارةٌ مكنيةٌ وتخييليةٌ، وذلك أنهم شبِّهوا في الحقارة بنعالٍ باليةٍ، واستُعير لهم اسمُ النعال ثم حذف المستعارُ وبقي المستعارُ له، وجعل النبذ قرينة على أنه حقيقةٌ والمجازُ في التعلُّق، على نحو ما قيل في: أظفارُ المنيَّة نشبتْ بفلان.

وقال بعضهم: الأخذ وهو حقيقةٌ في التناول مجازٌ عن خَلْق الداعية لهم إلى السير إلى البحر، والنبذُ مجازٌ عن خَلْقِ الداعية لهم إلى دخوله.

وفي «البحر» أنه كنايةٌ عن إدخالهم فيه[2].

والأَوْلَى أن يكون الكلام من باب التمثيل، كأنه عز وجلَّ فيما فعل بهم أخذهم مع كثرتهم في كفٍّ وطرحهم في اليمِّ.

والظاهر أنَّ الفاء الأولى سببيةٌ وليست لمجرَّد التعقيب، وأما الثانية فللتعقيب إذا أُبقي الأخذُ على معنى التناوُلِ، أو أريد به خلقُ الداعية إلى السير أو نحوه، أما إذا أريد به الإهلاك فهي للتفسير، كما في ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] ونحوِه.

﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ وبيِّنها للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ أي: خلقناهم ﴿أَئِمَّةً﴾ قدوةً للضلال بسبب حملهم لهم على الضلال، كما يؤذن بذلك قولُه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: إلى موجباتها من الكفر والمعاصي، على أنَّ النار مجازٌ عن ذلك، أو على تقدير مضافٍ، والمراد: جَعَلَهم ضالِّين مضلِّين.

والجعلُ هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[3] [الأنعام: ١]، والآيةُ

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص١٠٦ و٢٥٨ و٤٤٥، وهو دون نسبة في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٩، والبحر ٧/ ١٢٠، ورواية الديوان: . . . نعلاً أخلقَتْ من نعالكا.

(٢) البحر ٧/ ١٢٠.

(٣) في (م): والنار.

ظاهرةٌ في مذهب أهل السنَّة من أنَّ الخير والشرَّ مخلوقان لله عز وجل، وأوَّلَها المعتزلةُ تارةً بأنَّ الجعل فيها بمعنى التسمية، مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩] أي: وسمَّيناهم فيما بين الأمم بعدهم دعاةً إلى النار، وتارة بأنَّ جَعْلَهم كذلك بمعنى خذلانهم ومنعِهم من اللطف والتوفيق للهداية، والأولُ محكيٌّ عن الجبائيِّ، والثاني عن الكعبيِّ.

وعن أبي مسلم: أنَّ المراد: صيَّرناهم بتعجيل العذاب لهم أئمةً، أي: متقدِّمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار. وهذا في غاية التعسُّف كما لا يخفى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ بدَفع العذاب عنهم بوجهٍ من الوجوه.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي فتنَتْهم ﴿لَعْنَةً﴾ طرداً وإبعاداً، أو لعناً من اللاعنين حيث لا تزالُ الملائكة عليهم السلام تلعنُهم، وكذا المؤمنون خَلَفاً عن سَلَفٍ، وذلك إمَّا بدخولهم في عموم مَن يلعنونهم من الظالمين، وإما بالتنصيص عليهم، نحو: لَعَنَ الله تعالى فرعونَ وجنودَه.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ من المطرودين المبعَدين، يقال: قَبَحه الله تعالى بالتخفيف، أي: نحَّاه وأبعده عن كلِّ خير، كما قال الليث. ولا يتكرَّرُ مع اللعنة المذكورة قبلُ[1]؛ لأنَّ معناها الطرد أيضاً، لأن ذلك في الدنيا وهذا في الآخرة، أو ذاك طردٌ عن رحمته التي في الدنيا وهذا طردٌ عن الجنة، أو على هذا يراد باللعنة فيما تقدَّم ما تأخَّر، مع أنَّ من المطرودين معناه أنهم من الزمرة المعروفين بذلك، وهو أبلغ وأخصُّ.

وقال أبو عبيدة والأخفش: «من المقبوحين» أي: من المهلَكين[2].

وعن ابن عباس، أي: من المشوَّهين في الخلقة بسوادِ الوجوه وزرقةِ العيون، وهذا المعنى هو المتبادرُ إلا أنَّ فيه أنَّ فِعْلَ «قبح» عليه لازمٌ، فبناءُ اسم المفعول منه غير ظاهر، وقد يقال: إذا صحَّ هذا التفسير عن ابن عباس التُزم القولُ بأنه سُمع أيضاً. وجوِّز أن يكون ذلك تفسيراً بما هو لازمٌ في الجملة.

(١) في الأصل و(م): قيل، وفي حاشية الشهاب ٧/ ٧٦ (والكلام منه): قبله.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٠٦، وقول الأخفش في النكت والعيون ٤/ ٢٥٤.

و«يوم القيامة» متعلِّقٌ بـ «المقبوحين»، أو بمحذوفٍ يفسِّره ذلك، على ما عَلِمْتَ آنفاً في نظيره[1]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج، وعبد بن حميد عن قتادة، ما هو ظاهرٌ في أنه معطوفٌ على «هذه الدنيا»، وهو عطفٌ على المحلِّ، والمرويُّ عن ابن جُرَيجٍ أظهرُ في ذلك، وكلاهما في «الدر المنثور»[2]، والظاهرُ ما سمعتَه أولاً.

وهذه الآيةُ أظهرُ دليلٍ على عدم نجاة فرعون يومَ القيامة، وأنه ملعونٌ مُبْعَدٌ عن رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، فإنَّ ضمائر جمع الغائب فيها راجعةٌ إلى فرعون وجنوده، ويكادُ ينتظِمُ مَن الْتزمَ إرجاعها إلى الجنود في الجنود، وفي «الفتاوى الحديثية» للعلَّامة ابن حجر: روى [ابن] عدي، والطبرانيُّ عن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «خَلَقَ الله تعالى يحيى بن زكريا في بطن أمِّه مؤمناً، وخَلَقَ فرعون في بطن أمِّه كافراً»[3].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، وهو على ما قال أبو حيان: أولُ كتابٍ فُصِّلَتْ فيه الأحكامُ[4] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم السلام، والتعرُّضُ لبيانِ كونِ إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بأنها نزلت بعد مساسِ الحاجة إليها؛ تمهيداً لِمَا يعقبُه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، فإنَّ إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماسِ آثارها، المؤدِّيين إلى اختلال نظام العالم وفسادِ أحوال الأمم، المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على ممرِّ الدهور، وترتيبِ الفروع المتبدِّلة بتبدُّل العصور، وتذكيرِ أحوال الأمم الخالية الموجبةِ للاعتبار.

ومَن غفل عن هذا قال: الأَوْلَى أن تفسَّر القرونُ الأولى بمن لم يؤمن بموسى عليه السلام، ويقابلُها الثانيةُ وهي مَن آمن به عليه السلام.

---

(١) ينظر ما سلف ص١٨٤ من هذا الجزء.
(٢) ١٢٩/٥.
(٣) الفتاوى الحديثية ص٢٩١، وما سلف بين حاصرتين منه، والخبر في الكامل لابن عدي ٢٢٢١/٦ و٢٤٩٨/٧، والمعجم الكبير (١٠٥٤٣)، وسلف ٢٨٣/١١.
(٤) البحر ١٢٠/٧.

وقيل: المراد بها ما يعمُّ مَن لم يؤمن بموسى من فرعون وجنوده والأمم المهلَكة من قبل. وليس بذاك.

و«ما» مصدرية، أي: آتيناه ذلك بعد إهلاكنا القرون الأولى ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنواراً لقلوبهم تُبْصِرُ بها الحقائقَ، وتميِّز بين الحقِّ والباطل حيث كانت عمياً عن الفهم والإدراك بالكلِّية، فإنَّ البصيرة نورُ القلب الذي به يستبصِرُ كما أنَّ البصر نورُ العين الذي به تُبْصِرُ، ويطلق على نفس العين ويُجمع على أبصار، والأول يجمع على بصائر. والمراد بالناس قيل: أمّته عليه السلام، وقيل: ما يعمُّهم ومَن بعدهم.

وكونُ التوراة بصائرَ لمن بُعِثَ إليه نبيُّنا ﷺ لتضمُّنها ما يرشدهم إلى حقِّيَّة بعثته عليه الصلاة والسلام، أو يزيدُهم علماً إلى علمهم.

وتعقِّب بأنه يلزم على هذا الحضُّ على مطالعة التوراة والعلم بما فيها، وقد صحَّ أنَّ عمر رضي الله عنه استأذن رسول الله ﷺ في جوامعَ كَتَبها من التوراة ليقرأها ويزدادَ علماً إلى علمه، فغضب ﷺ حتى عُرِفَ في وجهه ثم قال: «لو كان موسى حيًّا لمَا وسعه إلا اتِّباعي» فرمى بها عمر رضي الله عنه من يده وندم على ذلك[1].

وأجيب بأنَّ غضبه ﷺ من ذلك لِمَا أنَّ التوراة التي بأيدي اليهود إذ ذاك كانت محرَّفةً وفيها الزيادةُ والنقصُ، وليست عينَ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، وكان الناس حديثي عهدٍ بكفرٍ، فلو فتح باب المراجعة إلى التوراة ومطالعتِها في ذلك الزمان لأدَّى إلى فسادٍ عظيم، فالنهي عن قراءتها حيث الإسلامُ حديثٌ والخروجُ عن الكفر جديدٌ لا يدلُّ على أنها ليست في نفسها بصائر مشتملةً على ما يرشدُ إلى حقِّية[2] بعثته ﷺ ويزيد علماً بصحة ما جاء به. ومما يدلُّ على حِلِّ الرجوع إليها في الجملة قولُه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقد كان المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعبِ الأحبار ينقلون منها ما ينقلون من الأخبار، ولم ينكر ذلك ولا سماعَه أحدٌ

---

(١) سلف ٢/ ١٤٢ و٣/ ٤٦١.

(٢) في الأصل: حقيقة.

من أساطين الإسلام، ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منهم وبين قراءته فيها وأَخْذِه منها، وقد رجع إليها غيرُ واحدٍ من العلماء في إلزام اليهود والاحتجاجِ عليهم ببعض عباراتها في إثبات حقِّية بعثته ﷺ.

والذي أميلُ إليه كونُ المراد بالناس بني إسرائيل فإنه الذي يقتضيه المقام، وأمَّا مطالعةُ التوراة فالبحثُ فيها طويل، وفي «تحفة المحتاج» للمولى العلَّامةِ ابن حجر عليه الرحمةُ: يَحرُمُ على غير عالم متبحِّرٍ مطالعةُ نحوِ توراةٍ علم تبدُّلها أو شكَّ فيه[١]. وهو أقربُ إلى التحقيق، ومَن سَبَرَ التوراةَ التي بأيدي اليهود اليومَ رأى أكثرها مبدَّلاً لا توافُقَ بينه وبين ما في القرآن العظيم أصلاً، وهو المعوَّلُ عليه.

﴿وَهُدَى﴾ أي: إلى الشرائع التي هي الطرقُ الموصلةُ إلى الله عزَّ وجل ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال مَن عمل به رحمة الله تعالى بمقتضى وعده سبحانه، فعمومُ رحمته بهذا المعنى لا ينافي أنَّ من الناس مَن هو كافرٌ بها وهو غيرُ مرحوم.

وانتصابُ المتعاطفات على الحالية من «الكتاب» على أنه نفسُ البصائر والهدى والرحمة، أو على حذف المضاف، أي: ذا بصائر.. إلخ. وجوَّز أبو البقاء[٢] انتصابها على العلَّة، أي: آتيناه الكتاب لبصائر وهدًى ورحمةً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كي يتذكَّروا، بناءً على أنَّ «لعل» للتعليل؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق السديِّ عن أبي مالك قال: «لعل» في القرآن بمعنى «كي» غيرَ آيةٍ في «الشعراء»: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[٣] [الآية: ١٢٩].

وحكى البغويُّ عن الواقديِّ[٤] أنه قال: جميعُ ما في القرآن من «لعل» للتعليل، إلا (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) فإنها فيه للتشبيه.

والمشهورُ أنها للترجِّي، ولمَّا كان محالاً عليه عزَّ وجلَّ جَعَلَ بعضُهم الكلام من باب التمثيل، والمراد: آتيناه ذلك ليكونوا على حالةٍ قابلةٍ للتذكُّر كحالِ مَن

(١) تحفة المحتاج ١/ ١٧٨.

(٢) في الإملاء ٤/ ١٥١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٦٠، وسلف ١٨/ ١٤١.

(٤) في الأصل و(م): وحكى الواقدي عن البغوي، وهو خطأ، وينظر ما سلف ١٨/ ١٤١.

يُرْجَى منه الخير. وبعضٌ آخَرُ صَرَفَ التَّرجِّيَ إلى المخاطبين، فهو منهم لا منه تعالى. وجَعَلَ الزمخشريُّ(١) في ذلك استعارةً تبعيةً، حيث شبَّه الإرادة بالترجِّي لكون كلٍّ منهما طلب الوقوع.

ورُدَّ بأنَّ فيه لزومَ تخلُّفِ مراد الله تعالى عن إرادته لعدم تذكُّر الكلِّ، إلا أن يكون من قبيل إسناد ما للبعض إلى الكلِّ. وأنت تعلم أنَّ الإرادة عند المعتزلة قسمان: تفويضية، وهي قد يتخلَّف المراد عنها، وقسريةٌ وهي لا يتخلَّف المراد عنها أصلاً، فمتى أُريدَ القسمُ الأولُ منها هنا زال الإشكال، إلا أنَّ التقسيم المذكور خلافُ المذهب الحقِّ.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروعٌ في بيانِ أنَّ إنزال القرآن الكريم أيضاً واقعٌ زمانَ مساس الحاجة إليه واقتضاءِ الحكمة له البتةَ، متضمِّناً تحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله تعالى، ببيانِ أنَّ الوقوف على ما فصِّل من الأحوال لا يتسنَّى إلا بالمشاهدة أو التعلُّم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما تبيَّن أنه بوحيٍ من علَّام الغيوب لا محالةَ. كذا قيل(٢)، ولا يخفى أنَّ تعيُّن كونه بوحي لا يتمُّ إلا بنفي كونه بالاستفاضة، وكونِه بالتعلُّم من بعض أهل الكتاب المعاصرين له ﷺ، كما قال المشركون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] ولعله إنما لم يتعرَّض لنفي ذلك وتعرَّض لنفي ما هو أظهرُ انتفاءً منه للإشارة إلى ظهور انتفاءِ ذلك، والمبالغةِ في دعوى ذلك، حيث آذَنَ بأنَّ المحتاج إلى الإخبار بانتفائه ذانك الأمران دونه، على أنه عزَّ وجلَّ قد نفى في موضعٍ آخَرَ كونَه بالتعلُّم من بعض أهل الكتاب، ولعله يُعلَم منه انتفاءُ كونه بالاستفاضة، وإن قلنا: إنه لا يُعلم، فدليلهُ ظاهرٌ جدًّا، ولذا لم يتشبَّثْ بكون الوقوف بها أحدٌ من المشركين، فتدبر.

والمعنى على ما ذهب إليه بعضُهم: وما كنتَ حاضراً بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربيِّ الذي وقع فيه الميقاتُ وأَعْطَى الله تعالى فيه ألواحَ التوراة لموسى عليه السلام، والكلامُ على هذا من باب حذف الموصوف وإقامةِ صفته مقامَه، وهو عند قومٍ من باب إضافة الموصوف إلى الصفة التي جوَّزها الكوفيون كما في:

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٧٦.

(٢) هو قول أبي السعود في تفسيره ٧/ ١٥.

مسجد الجامع، والأصل: في الجانب الغربيِّ، فيتَّحِدُ الجانبُ والغربيُّ على هذا الوجه، وهو بعضٌ من الغربي على الوجه الأول.

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عَهِدْنا إليه وأَحْكَمنا أمرَ نبوَّته بالوحي وإيتاءِ التوراة.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: من جملة الحاضرين للوحي، أو: الشاهدين على الوحي إليه عليه السلام، وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتُخْبِرَ به الناس، فالشاهدُ من الشهادة إمَّا بمعنى الحضورِ أو بمعناها المعروف، واستشكل إرادةُ المعنى الأول بلزوم التكرار؛ فإنه قد نفى الحضور أولاً في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ)، وكذا إرادةُ المعنى الثاني بلزوم نحو ذلك؛ لِمَا أنَّ نفي الحضور يستدعي نفي كونه من الشاهدين بذلك المعنى، ومن هنا قيل: المراد من الأول نفيُ كونه ﷺ حاضراً بنفسه لغرضٍ من الأغراض، ومن الثاني نفيُ كونه عليه الصلاة والسلام من جماعةٍ جيء بهم ليَحْضُروا فيطَّلعوا على ما يقع هناك لموسى عليه السلام؛ لأنَّ المراد بالشاهدين جماعةٌ معهودون كان حالُهم ذلك.

وقيل: المراد بالشاهدين الملائكةُ عليهم السلام، فقد جاء الشاهد اسماً للمَلَكِ كما في «القاموس»[1]، فكأنه قيل: ما كنتَ حاضراً بجانب الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى أمرَ نبوَّته بالوحي وما كنتَ من الملائكة الذين ينزلون ويصعدون بأمر الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه عليهم السلام، ولهم من الاطِّلاع على الحوادث ما ليس لغيرهم من البشر، حتى يكون لك علمٌ بما وقع لموسى عليه السلام فتُخْبِرَ به الناس.

وقال ابن عباس كما في «التفسير الكبير» و«البحر»: التقدير: لم تحضر ذلك الموضعَ، ولو حَضَرْتَ لَما شاهدتَ تلك الوقائعَ، فإنه يجوزُ أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى[2].

(١) مادة (شهد).
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ١٢٢.

وقيل وهو مختار أبي حيان: إنَّ المعنى: وما كنتَ من الشاهدين بجميع ما أعلمناك به، فهو نفيٌ لشهادته عليه الصلاة والسلام جميعَ ما جرى لموسى عليه السلام، فكان عموماً بعد خصوص(١).

وقيل: المراد: وما كنتَ من الشاهدين ذلك الزمان، فيكون نفياً لحضوره ومشاهدته ذلك الزمان أعمّ من أن يكون بجانب الغربي أو بغيره، وحاصلُه نفيُ الوجود العينيِّ إذ ذاك، فيكون ترقِّياً في النفي.

وقيل: المراد: وما كنتَ إذ ذاك منتظماً في سلك مَن يتَّصفُ بالشهادة، وهم الموجودون بالوجود العينيِّ أينما كانوا، ومآله كمآل ما قبله وإن اختلفا في طريق الإرادة، وتعيُّن كون الشهادة فيما قبله بمعنى الحضور، ولعل ما قبله أظهرُ منه، بل إذا ادَّعى مدَّعٍ كونَه أظهر من جميع ما قيل لم يَبْعُدْ.

هذا ولا يخفى عليك حالُ تلك الأقوال وما فيها من القيل والقال، وفي القلب من صحة نسبةِ ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما إليه ما فيه، فتدبَّر جميع ذاك، واللهُ تعالى يتولَّى هداك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: ولكنَّا خلَقْنا بين زمانِكَ وزمانِ موسى قروناً كثيرةً ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتمادى الأمدُ، فتغيَّرت الشرائعُ والأحكام، وعَمِيَتْ عليهم الأنباء، لاسيما على آخرهم الذين أنت فيهم، فاقتضت الحكمةُ التشريعَ الجديد وقصَّ الأنباء على ما هي عليه، فأوحينا إليك وقصصنا الأنباء عليك، فحذف المستدرك ـ أعني: أوحينا ـ اكتفاءً بذكر ما يوجبه ويدلُّ عليه من إنشاء القرون وتطاوُلِ الأمد، وخلاصةُ المعنى: لم تكن حاضراً لتَعْلَم ذلك، ولكن عَلِمْتَه بالوحي، والسببُ فيه تطاوُلُ الزمن حتى تغيَّرت الشرائعُ وعَمِيَتِ الأنباء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيبٌ عليه السلام والمؤمنون، نفيٌ لاحتمالِ كونِ معرفته ﷺ لبعضِ ما تقدَّم من القصة بالسماع ممن شاهد ذلك.

---

(١) البحر ٧/ ١٢٢.

وقولُه سبحانه: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأ على أهل مدين بطريق التعلُّم منهم كما يقرأ المتعلِّم الدرسَ على معلِّمه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بما كان لموسى عليه السلام بينهم وبما كان لهم معه، إمَّا حالٌ من المستكنِّ في «ثاوياً»، أو خبرٌ ثانٍ لـ «كنت».

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لك ومُوْحِينَ إليك تلك الآيات ونظائرَها، والاستدراكُ كالاستدراك السابق، إلَّا أنه لا حَذْفَ فيه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ ندائنا موسى: «إنِّي أنا الله ربُّ العالمين»، واستنبائنا إياه، وإرسالِنا له إلى فرعون.

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذُكر وغيرِه لرحمةٍ كائنةٍ منَّا لك وللناس. وقيل: أي: علَّمناك رحمةً، ولعل الرحمة عليه مفعولٌ ثانٍ لعلَّم والمراد بها القرآن، وليست مفعولاً له والمفعولُ الثاني ما ذكر من القصة؛ لِمَا ستعرفُه قريباً إن شاء الله تعالى. وأمَّا جَعْلُها منصوبةً على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ فحالُه غنيٌّ عن البيان.

والالتفاتُ إلى اسم الربِّ للإشعار بأنَّ ذلك من آثار الربوبية، وتشريفِه عليه الصلاة والسلام بالإضافة، وقد اكتفى ها هنا عن ذكر المستدرَكِ بذِكْر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى في الأول بذكر ما يوجبه من جهة الناس، وصرَّح به فيما بينهما تنصيصاً على ما هو المقصودُ، وإشعاراً بأنه المرادُ فيهما أيضاً، ولله تعالى درُّ شأنِ التنزيل.

وقوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بالفعل المعلَّل بالرحمة، وهو يستدعي أن يكون الإرسال بالقرآن أو ما في معناه كتعليم القرآن، دون تعليم ما ذكر من القصة، إذ لا يظهر حُسْنُ تعليله بالإنذار. وجوِّز أن يتعلَّق بالمستدرَكات الثلاث على التنازُع.

وقرأ عيسى وأبو حيوة: «رحمةٌ» بالرفع(١) على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والتقدير: ولكنْ هو، أو هذا، أو هي، أو هذه، رحمةٌ، والضمير أو الإشارة قيل: للإرسال المفهوم من الكلام، والتذكيرُ والتأنيثُ باعتبار المرجع والخبر، والخلافُ

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٣.

في الأولى مشهور. وجوَّز أبو حيان أن يكون التقدير: ولكن أنت رحمةٌ[(١)]. و«لتنذر» على هذه القراءة متعلِّقٌ بما هو صفةٌ لـ «رحمة».

وقولُه جلَّ وعلا: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفةٌ لـ «قوماً»، و«من» الأولى مزيدةٌ للتأكيد.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾ أي: يتَّعظون بإنذارك، تعليلٌ للإنذار على القول بأنَّ «لعل» للتعليل، وأمَّا على القول بأنها الترجِّي حقيقةً أو مجازاً، فقيل: هو في موضع الصفة بتقدير القول، أي: لتنذر قوماً مقولاً فيهم: لعلهم يتذكرون.

والمرادُ بهؤلاء القوم قيل: العرب، وظاهر الآية أنهم لم يُبعث إليهم رسولٌ قبل نبيِّنا ﷺ أصلاً، وليس بمرادٍ؛ للاتِّفاق على أنَّ إسماعيل عليه السلام كان مرسلاً إليهم، وكأنه لتطاوُل الأمد بين بعثته عليه السلام وبعثةِ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، إذ بينهما أكثرُ من ألفي سنةٍ[(٢)] بكثيرٍ، واندراسِ شرعه، وعدمِ وقوفِ الأكثرين في أغلب هذه المدة على حقيقته = قيل ذلك.

وقيل: إنَّ ذلك لِمَا صرَّحوا به من أنَّ حُكْم بعثةِ إسماعيل عليه السلام قد انقطع بموته، وأنه لم يرسَل إليهم بعده نبيٌّ سوى النبيِّ ﷺ؛ قال العلَّامة ابنُ حجر في «المنح المكية»: من المقرَّر أنَّ العرب لم يُرسَلْ إليهم رسولٌ بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وأنَّ إسماعيل انتهت رسالتُه بموته. وادَّعى قبيل هذا الاتِّفاقَ على أنَّ إبراهيم عليه السلام ومَن بعده ـ أي: سوى إسماعيل عليه السلام ـ لم يُرْسَلوا للعرب، ورسالةُ إسماعيل إليهم انتهت بموته. اهـ. فكأنه لقلَّة لبث إسماعيل عليه السلام فيهم، وانقطاعِ حُكْمِ رسالته بعد وفاته فيما بينهم، وبقائهم الأمدَ الطويلَ بغير رسولٍ مبعوثٍ فيهم، نُفِي إتيانُ النذير إياهم من قَبْلِه ﷺ.

وذكر العلَّامة ابن حجر في «المنح» أيضاً ما يفيد أنَّ كلَّ رسولٍ ممن عدا نبينا ﷺ تنقطعُ رسالتُه بموته، وليس ذلك خاصًّا بإسماعيل عليه السلام.

---

(١) البحر ٧/ ١٢٣.
(٢) جاء في حاشية (م): قوله: أكثر من ألفي سنة.. إلخ، في الحاوي للسيوطي ما يدل على أن بينهما نحواً من ثلاثة آلاف سنة. اهـ منه.

ويُفْهَمُ من كلام العز بن عبد السلام في «أماليه» أنَّ هذا الانقطاعَ ليس على إطلاقه، فقد قال: فائدة: كلُّ نبيٍّ إنما أُرسل إلى قومه إلا سيدَنا محمداً ﷺ، فعلى هذا يكون ما عدا قومَ كلِّ نبيٍّ من أهل الفترة، إلا ذرية النبيِّ السابق عليه، فإنهم مخاطبون ببعثة السابق إلا أن تدرسَ شريعةُ السابق فيصير الكلُّ من أهل الفترة. اهـ.

وهو وكذا ما نقلناه عن العلَّامة ابن حجر عندي الآن على أعراف الردِّ والقبول، ولعل الله تعالى يشرحُ صدري بعدُ لتحقيق الحقِّ في ذلك.

وقيل: إنَّ موسى وعيسى عليهما السلام كما أُرسلا لبني إسرائيل أُرسلا للعرب، فالمراد بنفي هذا الإتيان الفترةُ التي بين عيسى ونبيِّنا عليهما الصلاة والسلام، وزمنُها على ما روى البخاريُّ عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه ستُّ مئة سنة[1]، وفي كثيرٍ من الكتب أنه خمسُ مئةٍ وخمسون سنة.

ونفيُ إتيان نبيٍّ بين زماني إتيانِ نبيِّنا وإتيان عيسى عليهما الصلاة والسلام هو ما صحَّحه جمعٌ من العلماء لحديثِ: «لا نبيَّ بيني وبين عيسى»[2]. وقال بعضهم: إنَّ بينهما أربعةَ أنبياء؛ ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب، وهو خالد بن سنان[3]. وقيل غيرُ ذلك.

واختار البعضُ أنَّ المراد بهؤلاء القوم العربُ المعاصرون له ﷺ؛ إذ هم الذين يُتصوَّر إنذارُه عليه الصلاة والسلام إياهم دون أسلافهم الماضين، ولعله الأظهر. وعدمُ إتيان نذيرٍ إياهم من قَبْلِه ﷺ ـ على القول بانتهاءِ حُكْم رسالة الرسول سوى نبيِّنا عليه الصلاة والسلام بموته ـ ظاهرٌ.

وأمَّا إذا قيل بعدم انتهائه بذلك، وبقائه حكماً لرسالة الرسول يجب على مَن عَلِمَه من ذراري المرسَلِ إليهم الأخذُ به من حيث إنه حكمٌ من أحكام ذلك الرسول إلى أن يأتي رسولٌ آخرُ فيؤخذ به من حيث إنه حكمٌ من أحكامه، أو على الوجه الذي يأمر به فيه من النسبة إليه، أو من نسبته[4] إلى مَن قبله، أو يترك إن جاء الثاني ناسخاً

(١) صحيح البخاري (٣٩٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) وسلف ٧/ ١٢٨.

(٣) ينظر ما سلف ٧/ ١٢٧-١٢٨، وما سيأتي عند تفسير الآية (٣) من سورة السجدة.

(٤) في الأصل: النسبة.

له = فالمرادُ بعدم إتيان النذير إياهم عدمُ وصول ما أتى به على الحقيقة إليهم.

ولا يمكن أن يراد بهؤلاء القوم العربُ مطلقاً، ويقال بأنهم لم يُرْسَلْ إليهم قبل رسول الله ﷺ أحدٌ أصلاً؛ لظهور بطلانه ومنافاته لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] والعربُ أعظمُ أمةٍ، وكذا لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦] بناءً على أنَّ «ما» فيه ليست نافيةً، وهو على القول بأنَّ «ما» فيه نافيةٌ مؤوَّلٌ بحَمْلِ الآباء على الآباء الأقربين، ولا يكاد يجوز في «ما» ها هنا ماجاز فيها من الاحتمال في آية «يس»، بل المتعيّنُ فيها النفيُ ليس غير، وتكلُّفُ غيره مما لا ينبغي في كتاب الله تعالى.

والنذير بمعنى المنذر، واحتمالُ كونه مصدراً بمعنى الإنذار مما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه.

وتغييرُ الترتيب الوقوعيِّ بين قضاء الأمر بمعنى إحكام أمرِ نبوّةِ موسى عليه السلام بالوحي وإيتاءِ التوراة، وثوائه عليه السلام في أهل مدين المشارِ إليه بقوله تعالى: (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)، والنداءِ = للتنبيه على أنَّ كلًّا من ذلك برهانٌ مستقلٌّ على أنَّ حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحي الإلهيِّ. ولو رُوعيَ الترتيبُ الوقوعيُّ، ونُفي أولاً الثواءُ في أهل مدين، ونُفيَ ثانياً الحضورُ عند النداء، ونُفي ثالثاً الحضورُ عند قضاء الأمر، لربما تُوهِّم أنَّ الكلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذكر كما مرَّ في قصةِ البقرة.

ومن الناس مَن فسَّر قضاء الأمر بالاستنباء، والنداءَ بالنداء لأخذ التوراة بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] رعايةً للترتيب الوقوعيِّ بينهما.

وتعقِّب بأنه يفوتُ عليه التنبيهُ المذكورُ، مع أنه بهذا القَدْرِ لا يرتفعُ تغيير الترتيب الوقوعيِّ بالكلِّية بين المتعاطفات؛ لأنَّ الثواء في أهل مدين متقدِّمٌ على القضاء والنداء في الواقع، وقد وسِّط في النظم الكريم بينهما، وأيضاً ما تقدَّم من تفسير كلٍّ من القضاء والنداء بما فسِّر أنسبُ بما يلي كلًّا من الاستدراك.

ومما يُستغربُ أنَّ بعضَ مَن فسَّر ما ذُكر بما يوافقُ الترتيبَ الوقوعيَّ فسَّر «الشاهدين» بالسبعين المختارين للميقات، ولا يكاد يتسنَّى ذلك عليه؛ لأنهم

إنما كانوا مع موسى عليه السلام لمَّا أُعطي التوراة، فكان عليه أن يفسِّره بغير ذلك، وقد تقدَّم لك عدةُ تفاسير لا يأبى شيءٌ منها تفسيرَه ما ذُكر بما يوافقُ الترتيبَ الوقوعيَّ، وجوِّز على التفسير بما يوافقُ كونَ المراد بالشاهدين الملائكةَ عليهم السلام الذين كانوا حول النار، فإنَّ الآثار ناطقةٌ بحضورهم حولها عندما أتاها موسى عليه السلام، وكذا قولُه تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] في قول.

هذا وفي الآيات تفسيراتٌ أُخَرُ، فقال الفرَّاء[1] في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا) إلخ، أي: وما كنتَ مقيماً في أهل مدين مع موسى عليه السلام، فتراه وتسمع كلامه، وها أنت تتلو عليهم ـ أي: على أمتك ـ آياتِنا، فهو منقطعٌ. اهـ.

ونحوُه ما روي عن مقاتلٍ فيه، وهو أنَّ المعنى: لم تَشْهَدْ أهلَ مدين فتقرأ على أهل مكةَ خبرهم، ولكنَّا أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا إليك هذه الأخبار، ولولا ذلك ما علمتَ.

وقال الضحاك: يقول سبحانه: إنك يا محمدُ لم تكن الرسولَ إلى أهل مدين تتلو عليهم آياتِ الكتاب، وإنما كان غيرُك، ولكنَّا كنَّا مرسلين في كلِّ زمانٍ رسولاً، فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً، وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء. اهـ. ولا يخفى أنَّ ما قدَّمنا أولى بالاعتبار.

وذهب جمعٌ إلى أنَّ النداء في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) كان نداءً فيما يتعلَّق بهذه الأمة المحمدية على نبيِّها أفضلُ الصلاة وأكملُ التحية، وذكروا عدَّة آثارٍ تدلُّ على ذلك. أخرج الفريابيُّ والنسائيُّ وابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابنُ مردويه، وأبو نعيم والبيهقيُّ معاً في «الدلائل» عن أبي هريرة قال في ذلك: نودوا: يا أمَّة محمدٍ أعطيتُكم قبل أن تسألوني، واستجبتُ لكم قبل أن تدعوني[2].

---

(١) كما في البحر ٧/ ١٢٢، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٢) سنن النسائي الكبرى (١١٣١٨)، وتفسير الطبري ١٨/ ٢٦٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٣، والمستدرك ٢/ ٤٠٨، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٨١، وعزاه للفريابي وابن مردويه وأبي نعيم السيوطيُّ في الدر ٥/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف، وهو من طريق أبي زرعة بن عمرو عن أبي هريرة. وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٦٢ عن أبي زرعة قوله؛ قال الدارقطني في العلل ٨/ ٢٩١: وهو أصح.

وأخرجه ابن مردويه من وجهٍ آخرَ عن أبي هريرة مرفوعاً[1].

وأخرج هو أيضاً، وأبو نعيم في «الدلائل»، وأبو نصر السجزيُّ في «الإبانة»، والديلميُّ، عن عمرو بن عبسة[2] قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: «كتابٌ كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خَلْقَه بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أمةَ محمد، سَبَقَتْ رحمتي غضبي، أعطيتُكم قبل أن تسألوني، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلتُه الجنة».

وأخرج الختليُّ[3] في «الديباج» عن سهل بن سعد الساعديِّ مرفوعاً مثلَه.

وأخرج ابن مردويه[4] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «لمَّا قرَّب الله تعالى موسى إلى طور سيناء نجيًّا قال: أي ربِّ، هل أجدُ أكرمَ عليك منِّي؛ قرَّبْتَني نجيًّا، وكلَّمتني تكليماً؟ قال: نعم، محمدٌ عليه الصلاة والسلام أكرمُ عليَّ منك. قال: فإن كان محمدٌ ﷺ أكرمَ عليك منِّي، فهل أمةُ محمدٍ أكرمُ من بني إسرائيل؛ فلَقْتَ البحر لهم، وأنجيتهم من فرعون وعملِه، وأطعمتَهم المنَّ والسلوى؟ قال: نعم، أمةُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام أكرمُ عليَّ من بني إسرائيل. قال: إلهي أَرِنيهم. قال: إنَّك لن تراهم، وإن شئتَ أسمعتُكَ صوتَهم. قال: نعم إلهي. فنادى ربُّنا أمةَ محمدٍ ﷺ: أجيبوا ربَّكم. قال: فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحامِ أمهاتهم إلى يوم القيامة، فقالوا: لبيك، أنت ربُّنا حقًّا، ونحن عبيدُك حقًّا. قال: صدقتُم أنا ربُّكم حقًّا وأنتم عبيدي حقًّا، قد عفوتُ عنكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٢٩، وأخرجه مرفوعاً أيضاً القزويني في تاريخ قزوين ٢/ ٣٥٣، والجرجاني في تاريخ جرجان ص٢٧٧.

(٢) في الأصل: عينية، وفي (م): عيينة، والمثبت من الدر المنثور ٣/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف.

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن سُنَيْن، المتوفى سنة (٢٨٣هـ)، قال الحاكم: ليس بالقوي. وقال مرة: ضعيف. وقال الدارقطني: ليس بالقوي. سمع من علي بن الجعد وأبي نصر التمار وهشام بن عمار وطبقتهم. الميزان ١/ ١٨٠.

(٤) كما في الدر المنثور ٥/ ١٢٩-١٣٠.

تسألوني، فمن لقيني منكم بشهادةِ أنْ لا إله إلا الله دخل الجنة» قال ابن عباس: فلمَّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ أراد أن يمنَّ عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته، فقال: يا محمد (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا).

واستشكل ذلك بأنه معنًى لا يناسبُ المقام، ولا تكادُ ترتبطُ الآيات عليه. ولا بدَّ لصحة هذه الأخبار من دليلٍ، وتصحيحُ الحاكم لا يخفى حاله.

وقال بعض: يمكن أن يقال على تقدير صحة الأخبار: إنَّ المراد: وما كنتَ حاضراً مع موسى عليه السلام بجانب الطور لتقف على أحواله فتخبرَ بها الناس، ولكن أرسلناك بالقرآن الناطقِ بذلك وبغيره رحمةً منَّا لك وللناس، والتوقيتُ بنداء أمته ليس لكون المخبر به ما كان من ذلك بل لإدخال المسرَّةِ عليه عليه الصلاة والسلام فيما يعود إليه وإلى أمته، وفيه تسليةٌ له ﷺ مما يكون من أمة الدعوة من الكفر به عليه الصلاة والسلام والإباءِ عن شريعته، وتلويحٌ مّا إلى مضمون ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩] وحينئذٍ ترتبطُ الآياتُ بعضُها ببعضٍ ارتباطاً ظاهراً، فتأمل.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبةٌ، وهي على ما نُقل عن أبي مسلم عذابُ الدنيا والآخرة. وقيل: عذابُ الاستئصال.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما اقترفوا من الكفر والمعاصي، ويعبَّر عن كلِّ الأعمال وإن لم تَصْدُرْ عن الأيدي باجتراحِ الأيدي وتقديمِ الأيدي، لِمَا أنَّ أكثر الأعمال تُزاوَلُ بها.

﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلَّا أرسلْتَ إلينا رسولاً مؤيَّداً من عندك بالآيات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرةَ على يده ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بما جاء به.

و«لولا» الثانيةُ تحضيضيةٌ كما أشرنا إليه، وقوله تعالى: (فَنَتَّبِعَ) جوابُها، ولكون التحضيض طلباً كالأمر أُجيبت على نحو ما يجاب، وأما الأولى فامتناعيةٌ، وجوابُها محذوفٌ ثقةً بدلالةِ الحال عليه، والتقديرُ: لمَا أرسلناك. والفاء في «فيقولوا»عاطفةٌ ليقول على «تصيبهم»، والمقصودُ بالسببية لانتفاء الجواب والركنِ الأصيل فيها قولُهم ذلك إذا أصابتهم مصيبة، فالمعنى: لولا قولُهم إذا عوقبوا

بما اقترفوا: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَه ونكونَ من المؤمنين، لمَا أرسلناك إليهم. وحاصلُه سببيةُ القول المذكور لإرساله ﷺ إليهم قطعاً لمعاذيرهم بالكلِّية، ولكنَّ العقوبة لمَّا كانت هي السببَ للقول وكان وجودُه بوجودها جُعِلَتْ كأنها سببُ الإرسال بواسطة القول، فأُدخلت عليها «لولا» وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المُعْطيةِ معنى السببية، ونكتةُ إيثارِ هذا الأسلوب وعدمِ جَعْلِ العقوبة قيداً مجرَّداً أنهم لو لم يعاقَبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما أُلْجِئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقابُ لا غير، لا التأسُّفُ على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخِه فيهم ما لا يخفى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] هذا ما أراده صاحب «الكشاف»(١)، وليس في الكلام عليه تقديرُ مضافٍ كما هو الظاهر.

وذهب بعضهم إلى أنَّ الكلام على تقديرِ مضافٍ، أي: كراهةُ أن تصيبهم.. إلخ، فالسببُ للإرسال إنما هو كراهةُ ذلك؛ لِمَا فيه من إلزام الحجة، ولله تعالى الحجةُ البالغة، وهذه الكراهةُ مما لا ريب في تحقُّقها الذي تقتضيه «لولا»، ودَفَعوا بهذا التقديرِ لزومَ تحقُّقِ الإصابة والقولِ المذكور وانتفاءَ عدم الإرسال، كما هو مقتضى «لولا»، وفي ذلك ما فيه.

وقال ابن المنير: التحقيقُ عندي أنَّ «لولا» ليست كما قال النحاة تدلُّ على أنَّ ما بعدها موجودٌ أو أنَّ جوابها ممتنعٌ، والتحرير في معناها أنها تدلُّ على أنَّ ما بعدها مانعٌ من جوابها، عَكْس «لو»، ثم المانعُ قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً، وما في الآية من الثاني فلا إشكالَ فيها(٢).

واستُدلَّ بالآية على أنَّ قول مَن لم يُرْسَلْ إليه رسولٌ إن عذِّب: ربِّي لولا أرسلتَ إليَّ رسولاً، مما يَصْلُحُ للاحتجاج، وإلَّا لَما صلح لأنْ يكون سبباً للإرسال، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ العقل لا يغني عن الرسول، والبحثُ في ذلك شهيرٌ، والكلامُ فيه كثير.

---

(١) ٣/ ١٨١، والكلام السابق منه.

(٢) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ١٨٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: أولئك القوم، والمرادُ بهم هنا أهلُ مكةَ الموجودون عند البعثة، وضمائرُ الجمع الآتيةُ كلُّها راجعةٌ إليهم ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: الأمرُ الحقُّ، وهو القرآنُ المنزلُ عليه عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا۟﴾ تعنُّتاً واقتراحاً: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يَعْنُونَه عليه الصلاة والسلام ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام من الكتاب المنزل جملةً.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهارٌ لكونِ ما قالوه تعنُّتاً محضاً لا طلباً لِمَا يرشدُهم إلى الحق. و«من قبل» متعلِّقٌ بـ «يكفروا»، وتعلُّقُه بـ «أوتي» لا يظهر له وجهٌ لائحٌ؛ إذ هو تقييدٌ بلا فائدةٍ؛ لأنه معلومٌ أنَّ ما أوتي موسى عليه السلام من قبلِ محمدٍ ﷺ، أو من قبل هؤلاء الكفرة، نعم أمرُ الردِّ عليه على حاله، أي: ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا بهذا الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير كفرهم المستفادِ من الإنكار السابق، وبيانِ كيفيته. وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هما ـ يَعْنون: ما أوتي نبيُّنا وما أوتي موسى عليهما الصلاة والسلام ـ سحران ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تَعاونَا بتصديق كلٍّ واحدٍ منهما الآخرَ وتأييدِه إياه، وذلك أنَّ أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيدٍ لهم، فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إنَّا نجدُه في التوراة بنعته وصِفَتِهِ. فلمَّا رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بكلٍّ واحدٍ من الكتابين ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ تصريحٌ بكفرهم بهما، وتأكيدٌ لكفرهم المفهوم من تسميتها سحراً، وذلك لغايةِ عتوِّهم وتماديهم في الكفر والطغيان.

وقرأ الأكثرون: «ساحران»(١)، وأراد الكفرةُ بهما نبيَّنا وموسى عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/٢٤١-٢٤٢. وقرأ الكوفيون: «سحران».

وقرأ طلحة والأعمش: «اظَّاهَرا» بهمزة الوصل وشدِّ الظاء، وكذا هي في حرف عبد الله[(١)]، وأصلُه: تَظَاهَرَا، فلما قُلبت التاءُ ظاءً وأُدْغِمَتْ سُكِّنَتْ، فاجتُلِبَتْ همزةُ الوصل ليُبتَدأ بالساكن.

وقرأ محبوبٌ عن الحسن، ويحيى بن الحارث الذماريّ، وأبو حيوة، وأبو خلاد عن اليزيديِّ: «تظَّاهَرَا» بالتاء وتشديدِ الظاء؛ قال ابن خالويه: وتشديدُه لحنٌ لأنه فعلٌ ماضٍ، وإنما يشدَّد في المضارع[(٢)].

وقال صاحب «اللوامح»: لا أعرفُ وجهَه. وقال صاحب «الكامل في القراءات»: لا معنى له. وخرَّج ذلك أبو حيان[(٣)] على أنه مضارعٌ حذفت منه النون بدون ناصبٍ أو جازم، وجاء حذفها كذلك في قليل من الكلام وفي الشعر، و«ساحران» خبرٌ لمبتدأ محذوف، وأصل الكلام: أنتما ساحران تتظاهران، فحذف «أنتما» وأُدغمت التاء في الظاء وحُذفت النون وروعي الخطاب. ولو قرئ: يظَّاهرا بالياء حملاً على مراعاة «ساحران» أو على تقديرِ «هُما»، لكان له وجهٌ. وكأنهم خاطبوا النبيَّ ﷺ بذلك وأرادوه وموسى عليهما الصلاة والسلام بـ«أنتما» على سبيل التغليب.

هذا وتفسير الآية بما ذكر مما لا تكلُّف فيه، ولعله هو الذي يستدعيه جزالةُ النظم الجليل ويقتضيه اقتضاءً ظاهرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي: مما أُوتياه من القرآن والتوراة ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ أي: إن تأتوا به أتَّبِعْه، فالفعلُ مجزومٌ بجواب الأمر، ومثلُ هذا الشرط يأتي به مَن يُدِلُّ[(٤)] بوضوح حجَّته؛ لأنَّ الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمرٌ بيِّنُ الاستحالة، فيوسِّع دائرةَ الكلام للتبكيت والإلزام.

و[في][(٥)] إيراد كلمة «إنْ» في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ - أي: في أنهما سحران مُخْتَلَقان - مع امتناع صدقهم نوعُ تهكُّم بهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٤، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٣، والكلام من البحر ٧/ ١٢٤.
(٣) في البحر ٧/ ١٢٤، وما قبله منه.
(٤) أي: يثق. اللسان (دلل).
(٥) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١٨، والكلام منه.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «أتبعُه» بالرفع على الاستئناف، أي: أنا أتبعه[1].

وقال الزمخشريُّ: «الحقُّ»: الرسولُ المصدَّقُ بالكتاب المُعْجِزِ مع سائر المعجزات. يعني أن المقام مقام أن يقال: فلمَّا جاءهم آيُ الرسول، أو فلما جاءهم الرسولُ، لكنْ عَدَلَ عن ذلك لإفادة تلك المعاني. و«ما أوتي موسى» بما هو أعمُّ، من الكتاب المنزل جملةً واحدةً واليدِ والعصا وغيرِهما من آياته عليه السلام[2].

وتعقِّب بأنه لا تعلُّق للمعجزات من اليد ونحوها بالمقام، وكذا لا تعلُّق لغير القرآن من معجزات نبيِّنا ﷺ به، ويرشدُ إلى ذلك ظاهرُ قوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا) إلخ.

وجوِّز أن يكون ضميرا «جاءهم» و«قالوا» راجعَينِ إلى أهل مكة الموجودين، وضمير «يكفروا» وكذا ضمير «قالوا» في الموضعين راجع إلى جنس الكفرة المعلومِ من السياق، والمراد بهم الكفرةُ الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، و«من قبل» متعلِّق بـ «يكفروا» لا بـ «أوتي» لعدم ظهور الفائدة، والمراد بـ «سحرين» أو «ساحران» موسى وهارون عليهما السلام، كما روي عن مجاهد، وإطلاقُ «سحرين» عليهما للمبالغة، أو هو بتقدير: ذوا سحرين، والمعنى: أولم يكفر أبناءُ جنسهم من قبلهم بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا هم بما أوتيتَه، وقال أولئك الكفرة: هما، أي: موسى وهارون، سحران أو ساحران تَظَاهَرا.

وقيل: يجوز أن تكون الضمائر راجعةً إلى الموجودين، والكفرُ والقولُ المذكور لأولئك السابقين حقيقةً وإسنادهما إلى الموجودين مجازيٌّ لِمَا بين الطائفتين من المُلابسة.

وقيل بناءً على ما روي عن الحسن من أنه كان للعرب أصلٌ في أيام موسى عليه السلام: إنَّ المعنى: أوَلَمْ يكفُرْ آباؤهم من قبلِ أن يُرْسَلَ محمدٌ ﷺ بما أوتي موسى، قالوا: هما ـ أي: موسى وهارون ـ سحران أو ساحران تظاهرا، فهو على أسلوب ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٤٩] ونحوِه، ويفيد الكلامُ عليه أنَّ قَدَمهم في الكفر من الرسوخ بمكانٍ، ولهم في العناد عرقٌ أصيلٌ.

---

(١) البحر ٧/ ١٢٤.

(٢) الكشاف ٣/ ١٨٣ بنحوه.

وكونُ العربِ لهم أصلٌ في أيام موسى عليه السلام مما لا شبهةَ فيه، حتى قيل: إنَّ فرعون كان عربيًّا من أولاد عاد، لكنْ في حُسْنِ تخريج الآية على ذلك كلامٌ.

وأنت تعلم أن كلَّ هذه الأوجُهِ ليست مما ينشرحُ له الصدرُ، وفيها من التكلُّف ما فيها.

وادَّعى أبو حيان ظهورَ رجوعِ ضمير «يكفروا» وكذا ضمير «قالوا» إلى قريش الذين قالوا: «لولا أوتي مثلَ ما أُوتي موسى» وأنَّ نسبة ذلك إليهم لِمَا أنَّ تكذيبهم لمحمدٍ ﷺ تكذيبٌ لموسى عليه السلام، ونسبتَهم السحرَ للرسول نسبتُهم إياه لموسى وهارون عليهما السلام؛ إذ الأنبياءُ عليهم السلام من وادٍ واحدٍ، فَمَنْ نَسَبَ إلى أحدٍ منهم ما لا يليقُ كان ناسباً ذلك إلى جميعهم[١]. فلا يُحتاج إلى توسيط حكايةِ الرهط في أمر النسبة، وعليه يجوزُ أن يراد بـ «كلٌّ»: كلُّ واحدٍ من الأنبياء عليهم السلام.

ولا يخفى أنَّ ما ادَّعاه من ظهور رجوع الضمير إلى ما ذكر أمرٌ مقبولٌ عند منصفي ذوي العقول، لكنَّ توجيه نسبةِ الكفر والقولِ المبينِ لكيفيته بما[٢] ذكر ممَّا يَبْعُدُ قبولُه، وكأنه إنما احتاج إليه لعدم ثبوتِ حكايةِ الرهط عنده.

وعن قتادة أنه فسَّر السحران بالقرآن والإنجيل، والساحران بمحمدٍ وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وجَعَلَ ذلك القولَ قولَ أعداء الله تعالى اليهود. وتفسيرُ الساحرين بذلك مرويٌّ عن الحسن، وروي عنه أيضاً أنه فسَّرهما بموسى وعيسى عليهما السلام، والكلُّ كما ترى.

وتفسيرُهما بمحمدٍ وموسى عليهما الصلاة والسلام مما رواه البخاريُّ في «تاريخه» وجماعةٌ عن ابن عباس[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصمٍ الجحدريِّ أنه كان يقرأ: «سحران» ويقول:

---

(١) البحر ٧/ ١٢٣.
(٢) في (م): مما.
(٣) التاريخ الكبير ٥/ ٣١٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٥.

هما كتابان؛ الفرقان والتوراة، ألا تراه سبحانه يقول: (فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا)(١).

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإنْ لم يفعلوا ما كلَّفتهم به من الإتيان بكتابٍ أهدى منهما، وإنما عبَّر عنه بالاستجابة إيذاناً بأنَّه عليه الصلاة والسلام على كمال أمنٍ من أمره، كأنَّ أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاءٌ لهم إلى أمرٍ يريد وقوعه.

وقيل: المراد: فإن لم يستجيبوا دعاءك إياهم إلى الإيمان بعد ما وَضَحَ لهم من المعجزات التي تضمَّنها كتابك الذي جاءهم، فالاستجابةُ على ظاهرها؛ لأنَّ الإيمان أمرٌ يريد ﷺ حقيقةَ وقوعِه منهم، وهي كما في «البحر» بمعنى الإجابة، وتتعدَّى إلى الداعي باللام كما في هذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ [يوسف:٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء:٧٦]، وبنفسها كما في بيت الكتاب:

وداعٍ دعا يا مَن يُجيبُ إلى الندا ... فلمْ يَستَجِبْه عند ذاك مُجيبُ(٢)

وقال الزمخشريُّ: هذا الفعلُ يتعدَّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الدَّاعي باللام، ويُحذف الدعاءُ إذا عدِّي إلى الداعي في الغالب، فيقال: استجاب الله تعالى دعاءه، أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه، وقوله في البيت: فلم يستجبه، على حذفِ مضافٍ، أي: فلم يستجب دعاءه(٣). انتهى.

ولو جُعِلَ ضميرُ يَسْتَجِبه للدعاء المفهوم من داعٍ لم يَحْتَجْ إلى تقدير.

وجُعِلَ المفعولُ هنا محذوفاً لذكر الداعي، ووجهُه على ما قيل: أنه مع ذِكْرِ الداعي والاستجابةِ يتعيَّنُ أنَّ المفعول الدعاء، فيصيرُ ذِكْرُه عبثاً، وجوِّز كونُ الحذف للعلم به من فِعْلِه لا لأنه ذكر الداعي، وهذا حكمُ الاستجابة دون الإجابة؛ لقوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٦.
(٢) البحر ٧/ ١٢٤، والبيت لكعب بن سعد الغنوي، وسلف ٥/ ٢٢٦.
(٣) الكشاف ٣/ ١٨٤.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغةَ من غير أن يكون لهم متمسَّكٌ مّا أصلاً؛ إذ[1] لو كان لهم ذلك لأتوا به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للنفي، أي: لا أضلَّ ممن اتَّبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: هو أضلُّ من كلِّ ضالٍّ، وإن كان ظاهرُ السبك لنفي الأضلِّ لا لنفي المُساوي كما مرَّ في نظائره مراراً.

وقولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ في موضع الحال من فاعل «اتَّبع»، وتقييدُ الاتِّباع بذلك لزيادة التقرير، والإشباعِ في التشنيع والتضليل، وإلا فمقارنتُه لهدايته تعالى بيِّنةُ الاستحالة. وقيل: للاحتراز عمَّا يكون فيه هدًى منه تعالى، فإنَّ الإنسان قد يتَّبعُ هواه ويوافقُ الحقَّ، وفيه بحث.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الذين ظلموا أنفسهم فانهمكوا في اتِّباع الهوى والإعراضِ عن الآيات الهاديةِ إلى الحقِّ المُبينِ.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ الضميرُ لأهل مكة، وأصلُ التوصيل ضمُّ قِطَعِ الحبل بعضِها ببعضٍ؛ قال الشاعر:

فقُلْ لبني مروان ما بال[2] ذمَّتي بحبلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يُوَصَّلُ[3]

والمعنى: ولقد أنزلنا القرآن عليهم متواصلاً بعضه إثر بعضٍ حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ، أو متتابعاً وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ومواعظَ ونصائحَ.

وقيل: جعلناه أوصالاً، أي: أنواعاً مختلفةً؛ وعداً ووعيداً.. إلخ.

وقيل: المعنى: وصَّلنا لهم خبرَ الآخرة بخبر الدنيا، حتى كأنَّهم عاينوا الآخرة.

وعن الأخفش: أتممنا لهم القول.

---

(١) في (م): إذا، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ١٨، والكلام منه.
(٢) في الأصل و(م): نال، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٣) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص١٠، وتفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤، ومجاز القرآن ٢/ ١٠٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٩٣، والبحر ٧/ ١٢٥، والدر المصون ٨/ ٦٨٥، وجاء في المصادر عدا البحر والدر: ما بال ذمةٍ وحبلٍ، ورواية الديوان: فسائل بني مروان ما بال...

وقرأ الحسن: «وَصَلْنا» بتخفيف الصاد[1]. والتضعيفُ في قراءة الجمهور للتكثير، ومن هنا قال الراغب في تفسير ما في الآية عليها: أي: أَكْثَرنا لهم القولَ موصولاً بعضُه ببعض[2].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ فيؤمنون بما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من[3] قبل القرآن، على أنَّ الضمير لـ «القول» مراداً به القرآن، أو للقرآن المفهومِ منه، وأيًّا ما كان فالمرادُ: من قبل إيتائه ﴿هُم﴾ لا هؤلاء الذين ذكرت أحوالهم ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾. وقيل: الضميران للنبيِّ ﷺ.

والمرادُ بالموصول على ما روي عن ابن عباس مؤمنو أهل الكتاب مطلقاً.

وقيل: هم أبو رفاعة [وابنه][4] في عشرةٍ من اليهود آمنوا فأُوذوا، وأخرج ابن مردويه بسندٍ جيدٍ وجماعةٌ عن رفاعة القرظيِّ ما يؤيِّدُه[5].

وقيل: أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول ﷺ قبل مبعثه، اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب، وثمانيةٌ قدموا من الشام: بحيرا وأبرهة وأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم.

وقيل: ابنُ سلام وتميمٌ الداريُّ والجارود العبديُّ وسلمان الفارسيُّ؛ ونُسب إلى قتادة.

واسْتَظْهَرَ أبو حيان[6] الإطلاق، وأنَّ ما ذكر من باب التمثيل لمن آمنَ من أهل الكتاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٥.
(٢) مفردات الراغب (وصل).
(٣) قوله: أي من، ليس في (م).
(٤) ما بين حاصرتين زيادة من البحر ٧/ ١٢٥.
(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٣١ وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٢٧٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٧-٢٩٨٨، والطبراني في الكبير (٥٤٦٣) عن رفاعة القرظي قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا منهم.
(٦) في البحر ٧/ ١٢٥، وما قبله منه.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي: بأنه كلامُ الله تعالى ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: الحقُّ الذي كنَّا نَعرِفُ حقِّيَّتَه، وهو استئنافٌ لبيانِ ما أَوْجَبَ إيمانَهم به. وجوَّز أن تكون الجملة مفسِّرةً لِمَا قبلها.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ بيانٌ لكون إيمانهم به أمراً متقادِمَ العهد لما شاهدوا ذِكْرَه في الكتب المتقدِّمة، وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن، ويكفي في كونهم على دين الإسلام قبل نزوله إيمانُهم به إجمالاً.

وفي «الكشاف» و«البحر»: أنَّ الإسلام صفةُ كلِّ موحِّدٍ مصدِّقٍ بالوحي[1]. والظاهر عليه أنَّ الإسلام ليس من خصوصيات هذه الأمة من بين الأمم. وذهب السيوطيُّ عليه الرحمةُ إلى كونه من الخصوصيات، وألَّف في ذلك كراسةً وقال في ذيلها: لمَّا فرغتُ من تأليف هذه الكراسة واضطَجَعْتُ على الفراش للنوم وَرَدَ عليَّ قولُه تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ) الآيةَ، فكأنما أُلقي عليَّ جبلٌ لِمَا أنَّ ظاهرها الدلالةُ للقول بعدم الخصوصية، وقد أَفْكَرْتُ فيها ساعةً ولم يتَّجِهْ لي فيها شيءٌ، فلجأتُ إلى الله تعالى ورَجَوْتُ أن يفتح بالجواب عنها، فلمَّا استيقظتُ وقتَ السَّحَرِ إذا بالجواب قد فُتِحَ، فظهر عنها ثلاثةُ أجوبةٍ:

الأول: أنَّ «مسلمين» اسمُ فاعلٍ مرادٌ به الاستقبالُ كما هو حقيقةٌ فيه دون الحال والماضي، والتمسُّكُ بالحقيقة هو الأصل، وتقدير الآية: إنَّا كنَّا من قبل مجيئه عازمينَ على الإسلام به إذا جاء؛ لِمَا كنَّا نَجِدُه في كتبنا من بَعْثِه ووَصْفِه، ويرشِّحُ هذا أنَّ السياق يرشدُ إلى أنَّ قَصْدَهم الإخبارُ بحقِّيَّة القرآن، وأنهم كانوا على قَصْدِ الإسلام به إذا جاء به النبيُّ ﷺ، وليس قَصْدُهم الثناءَ على أنفسهم في حدِّ ذاتهم بأنهم كانوا بصفة الإسلام أوَّلاً، لنبوِّ المقام عنه كما لا يخفى.

الثاني: أنْ يقدَّر في الآية: إنَّا كنَّا من قبله مسلمين به، فوَصْفُ الإسلام سببُه القرآن لا التوراةُ والإنجيل، ويرشِّحُ ذلك ذِكْرُ الصلة فيما قبلُ، حيث قال سبحانه: (هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ)؛ فإنه يدلُّ على أنَّ الصلة مرادةٌ هنا أيضاً، إلا أنها حُذِفَتْ كراهةَ التكرار.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٥، والبحر ٧/ ١٢٥.

الثالث: أنَّ هذا الوصف منهم بناء على ما هو مذهبُ الأشعريِّ من أنَّ مَن كتب الله تعالى أن يموت مؤمناً فهو يسمَّى عنده تعالى مؤمناً ولو كان في حال الكفر، وإنما لم نطلق نحن هذا الوصفَ عليه لعدم علمنا بما عنده تعالى، فهؤلاء لمَّا ختم الله تعالى لهم بالدخول في الإسلام أخبروا عن أنفسهم أنهم كانوا متَّصفين به قبلُ؛ لأن العبرة في هذا الوصف بالخاتمة، ووَصْفُهم بذلك أولى من وصف الكافر الذي يَعْلَم الله تعالى أنه يموتُ على الإسلام به؛ لأنهم كانوا على دين حقٍّ. وهذا معنًى دقيقٌ استفدناه في هذه الآية من قواعد علم الكلام[١]. انتهى.

ولا يخفَى ضَعْفُ هذا الجوابِ، وكذا الجوابُ الأولُ، وأما الجوابُ الثاني فهو بمعنى ما ذكرناه في الآية، وقد ذكره البيضاويُّ وغيرُه[٢].

وجوِّز أن يراد بالإسلام الانقيادُ، أي: إنَّا كنَّا من قبل نزوله منقادين لأحكام الله تعالى الناطقِ بها كتابُه المنزلُ إلينا، ومنها وجوبُ الإيمان به، فنحن مؤمنون به قبل نزوله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر من النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرةً على إيمانهم بكتابهم ومرةً على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بصَبْرِهم وثباتهم على الإيمانين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى مَن هاجَرَهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي: يدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالطاعة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: المعصيةَ؛ فإنَّ الحسنة تمحو السيئةَ؛ قال ﷺ لمعاذ: «أتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها»[٣].

وقيل: أي: يدفعون بالحِلْم الأذى. وقال ابن جبير: بالمعروف المنكر. وقال ابن زيد: بالخير الشرَّ. وقال ابن سلام: بالعلم الجهلَ، وبالكَظْمِ الغيظَ. وقال ابن مسعود: بشهادةِ أنْ لا إله إلَّا اللهُ الشركَ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: في سبيل الخير، كما يقتضيه مقامُ المدح.

---

(١) إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة، من كتاب الحاوي للسيوطي ٢/ ٢٣١-٢٣٢.
(٢) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٧٩.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨) من حديث معاذ ﷺ، وسلف ٥/ ٢٣٢ و١٠/ ٤٩٤.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ سَقْطَ القول، وقال مجاهد: الأذى والسبُّ. وقال الضحاك: الشِّرك. وقال ابن زيد: ما غيَّرته اليهود من وصف الرسول ﷺ.

﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: عن اللغو تكرُّماً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا﴾ لهم، أي: للَّاغين المفهومِ من ذكر اللغو ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ متارَكةً لهم، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قالوه توديعاً لهم لا تحيةً، أو هو للمتاركة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وأيًّا ما كان فلا دليلَ في الآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام كما زعم الجصَّاص[1]؛ إذ ليس الغرضُ من ذلك إلَّا المتارَكةَ أو التوديع، ورُوي عن النبيِّ ﷺ في الكفار: «لا تبدؤوهم بالسلام، وإذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب فقولوا: وعليكم»[2].

نعم روي عن ابن عباس جوازُ أن يقال للكافر ابتداءً: السلامُ عليك، على معنى: الله تعالى عليك، فيكون دعاءً عليه، وهو ضعيفٌ.

وقوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ بيانٌ للداعي للمتارَكةِ والتوديع، أي: لا نَطْلبُ صحبةَ الجاهلين، ولا نريدُ مخالَطتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ هدايةً مُوْصِلةً إلى البغية لا محالة ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: كلَّ مَن أحببتَه[3] طبعاً من الناس قومِك وغيرِهم، ولا تقدرُ أن تُدْخِلَه في الإسلام وإن بذلْتَ فيه غايةَ المجهود، وجاوَزْتَ في السعي كلَّ حدٍّ معهود. وقيل: مَن أَحْبَبْتَ هدايتَه.

---

(١) كذا ذكر، وليس هذا من زعم الجصاص، وإنما ذكره في أحكام القرآن ٣/ ٣٤٩ عن بعضهم، ثم ردَّه بما سيأتي لاحقاً. وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٧٩.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٤٩، والحديث أخرجه أحمد (١٧٢٩٥) من حديث أبي عبد الرحمن الجهني ﷺ، و(٢٧٢٣٦) من حديث أبي بصرة ﷺ. وقوله: «لا تبدؤوهم» يشهد له حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٦٧)، ومسلم (٢١٦٧). وقوله: «وإذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» يشهد له حديث أنس ﷺ عند البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣).

(٣) في (م): أحببته.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، فيدخلُه في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ بالمستعدِّين لذلك، وهم الذين يشاء سبحانه هدايتَهم، ومنهم الذين ذُكرت أوصافُهم من أهل الكتاب.

وأفعل للمبالغة في علمه تعالى. وقيل: يجوز أن يكون على ظاهره. وأفاد كلامُ بعضهم أنَّ المراد أنه تعالى أعلم بالمهتدي دون غيره عزَّ وجل.

وحيث قُرِنَتْ هدايةُ الله تعالى بعلمه سبحانه بالمهتدي، وأنه جلَّ وعلا العالِمُ به دون غيره، دلَّ على أنَّ المراد بالمهتدي المستعدُّ دون المتَّصفِ بالفعل، فيلزم أن تكون هدايتُه إياه بمعنى القدرةِ عليها، وحيث كانت هدايتُه تعالى لذلك بهذا المعنى، وجيء بـ «لكنَّ» متوسِّطةً بينها وبين الهداية المنفيةِ عنه ﷺ، لزم أن تكون تلك الهدايةُ أيضاً بمعنى القدرة عليها؛ لتقع «لكنَّ» في موضعها، ولذا قيل: المعنى: إنك لا تقدرُ أن تُدْخِلَ في الإسلام كلَّ مَن أحببتَ لأنك عبدٌ لا تعلم المطبوعَ على قلبه من غيره، ولكنَّ الله تعالى يقدُر على أن يُدْخِلَ مَن يشاء إدخالَه، وهو الذي علم سبحانه أنه غيرُ مطبوعٍ على قلبه. وللبحث فيه مجال.

وظاهرُ عبارةِ «الكشاف» حملُ نفي الهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ على نفي القدرة على الإدخال في الإسلام، وإثباتِها في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على وقوع الإدخال في الإسلام بالفعل(١).

وهذا ما اعتمدناه في تفسير الآية، ووجهُه: أنَّ مساق الآية لتسليته ﷺ، حيث لم يَنْجَعْ في قومه الذين يحبُّهم ويحرصُ عليهم أشدَّ الحرص إنذارُه عليه الصلاة والسلام إياهم، وما جاء به إليهم من الحق، بل أصرُّوا على ما هم عليه، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، ثم كفروا به وبموسى عليهما الصلاة والسلام، فكانوا على عكس قوم هم أجانبُ عنه ﷺ، حيث آمنوا بما جاء به من الحقِّ، وقالوا: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ ثم صرَّحوا بتقادُم إيمانهم به، وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيِّهم وبما جاءهم به أيضاً، فلو لم يُحمل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ على نفي القدرة على إدخال مَن أحبَّه عليه الصلاة والسلام في الإسلام، بل حُمِلَ على نفي

(١) الكشاف ٣/ ١٨٥.

وقوع إدخاله ﷺ إياه فيه، لبُعْدَ الكلام عن التسلية وقَرُبَ إلى العتاب، فإنه على طرز قولك لمن له أحبابٌ لا ينفعهم: إنك لا تنفعُ أحبابَك، وهو إذا لم يؤوَّل بـ: إنك لا تقدُر على نفع أحبابك، فإنما يقال على سبيل العتاب أو التوبيخ أو نحوِه، دون سبيل التسلية، ولمَّا كان لهدايته تعالى أولئك الذين أوتوا الكتاب مدخلاً فيما يستدعي التسلية كان المناسبُ إبقاءَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ على ظاهره من وقوع الهداية بالفعل دون القدرة على الهداية، وإثباتُ ذلك له تعالى فرعُ إثبات القدرة، ففي إثباته إثباتُها لا محالةَ، فيصادف الاستدراكُ المحزَّ، وحَمْلُ المهتدين على المستعدِّين للهداية لا يستدعي حملَ «يهدي» على: يقدر على الهداية، فما ذكر من اللزوم ممنوعٌ.

ويجوز أن يراد بالمهتدين المتَّصفون بالهداية بالفعل، والمراد بعلمه تعالى بهم مجازاتُه سبحانه على اهتدائهم، فكأنه قيل: وهو تعالى أعلمُ بالمهتدين كأولئك الذين ذكروا من أهل الكتاب فيجازيهم على اهتدائهم بأجرٍ أو بأجرين، فتأمَّل.

والآيةُ على ما نطقت به كثيرٌ من الأخبار نزلت في أبي طالب؛ أخرج عبد بن حميد ومسلمٌ والترمذيُّ وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن أبي هريرة قال: لمَّا حضرت وفاةُ أبي طالب أتاه النبيُّ ﷺ فقال: «يا عمَّاه، قل: لا إله إلا الله، أشهدُ لك بها عند الله يومَ القيامة» فقال: لولا أن يعيِّروني قريشٌ يقولون: ما حمله عليها إلا جزعُه من الموت لأَقْرَرْتُ بها عينَك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ الآية[1].

وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ وأحمدُ والنسائيُّ وغيرُهم، عن سعيد بن المسيب عن أبيه نحو ذلك[2].

وأخرج أبو سهل السريُّ بن سهل من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن

---

(١) صحيح مسلم (٢٥): (٤٢)، وسنن الترمذي (٣١٨٨)، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٤٤-٣٤٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٣٣، وأخرجه أيضاً أحمد (٩٦١٠).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٨٤)، وصحيح مسلم (٢٤)، ومسند أحمد (٢٣٦٧٤)، وسنن النسائي ٤/ ٩٠-٩١.

ابن عباس أنه قال: (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ) إلخ نزلت في أبي طالب، ألحَّ النبيُّ ﷺ أن يُسْلِمَ فأبى، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١]. وقد رَوَى نزولَها فيه عنه أيضاً ابنُ مردويه[٢].

ومسألةُ إسلامه خلافيةٌ، وحكايةُ إجماع المسلمين أو المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت فيه لا تصحُّ، فقد ذهب الشيعة وغيرُ واحد من مفسِّريهم إلى إسلامه، وادَّعوا إجماعَ أئمة أهل البيت على ذلك، وأنَّ أكثر قصائده تشهدُ له بذلك، وكأنَّ مَن يدَّعي إجماعَ المسلمين لا يَعتدُّ بخلاف الشيعة، ولا يعوِّلُ على رواياتهم.

ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبُّه والتكلُّم فيه بفضول الكلام، فإنَّ ذلك مما يتأذَّى به العلويون، بل لا يَبْعدُ أن يكون مما يتأذَّى به النبيُّ عليه الصلاة والسلام الذي نطقت الآيةُ بناءً على هذه الروايات بحبِّه ﷺ إياه، والاحتياطُ لا يخفى على ذي فهمٍ:

ولأجْلِ عينٍ ألفُ عينٍ تُكْرَمُ[٣]

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي: نخرج من بلادنا ومقرِّنا، وأصلُ الخطف: الاختلاسُ بسرعةٍ، فاستُعير لِمَا ذكر، والآيةُ نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبيَّ ﷺ فقال[٤]: نحن نعلم أنك على الحقِّ، ولكنَّا نخاف إن اتَّبعناك وخالَفْنا العربَ وإنما نحن أكلةُ رأسٍ أن يتخطَّفونا من أرضنا. فردَّ الله تعالى عليهم خوفَ التخطُّفِ بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: أَلَمْ نَعْصِمْهم ونَجْعَلْ مكانهم حرماً ذا أمنٍ بحرمةِ البيت الذي فيه، تتناحَرُ[٥] العرب حوله وهم آمنون فيه، فالعطفُ على محذوفٍ، و«نمكِّن» مضمَّنٌ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٣٤.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ١٣٣.

(٣) وصدره: داريتُ أهلكِ في هواكِ وهم عِدا، والبيت للشاب الظريف، وهو في ديوانه ص٧١، وسلف ١/ ٢٧٧.

(٤) في الأصل و(م): فقالوا، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٨٠، وتفسير أبي السعود٧/ ١٩.

(٥) في الأصل: تناحر، وفي (م): تتاجر، والمثبت من تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود.

معنى الجَعْلِ ولذا نَصَبَ «حرماً»، و«آمناً» للنسب كلابِنٍ وتامرٍ، وجعل أبو حيان[١] الإسنادَ فيه مجازيًّا؛ لأنَّ الآمن حقيقةً ساكنوه، فيُسْتَغْنَى عن جَعْلِه للنَّسَبِ، وهو وجهٌ حَسَنٌ.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: يُحمَلُ إليه ويُجمَعُ فيه من كلِّ جانبٍ وجهَةٍ ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ثمراتُ أشياءَ كثيرةٍ، على أنَّ «كلّ» للتكثير، وأصلُ معناه الإحاطة وليست بمرادةٍ قطعاً. والجملة صفةٌ أخرى لـ «حرماً» دافعةٌ لِمَا عسى يُتوَهَّم من تضرُّرهم إن اتَّبعوا الهدى بانقطاع المِيْرة.

وقولُه تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ نصبٌ على[٢] المصدر من معنى «يُجبى»؛ لأنَّ مآله: يُرزقون، أو الحالِ من «ثمرات» بمعنى مرزوقاً، وصحَّ مجيءُ الحال من النكرة عند مَن لا يراه لتَخَصُّصِها بالإضافة هنا. أو على أنه مفعولٌ له بتقديرِ: نسوق إليه ذلك رزقاً.

وحاصل الردِّ أنه لا وجهَ لخوفٍ من التخطُّف إن آمنوا، فإنهم لا يخافون منه وهم عبدةُ أصنامٍ، فكيف يخافون إذا آمنوا وضمُّوا حرمةَ الإيمان إلى حرمة المقام؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ جَهَلةٌ لا يتفطَّنون ولا يتفكَّرون ليعلموا ذلك، فهو متعلِّقٌ بقوله تعالى: (أَوَلَمْ نُمَكِّن) إلخ.

وقيل: هو متعلقٌ بقوله سبحانه: (مِّن لَّدُنَّا) أي: قليل منهم يتدبَّرون فيعلمون أنَّ ذلك رزقٌ من عند الله عز وجل، إذ لو علموا لَمَا خافوا غيره، والأول أظهر، والكلام عليه أبلغُ في الذمِّ.

وقرأ المنقريُّ: «نتخطَّفُ» بالرفع[٣] كما قرئ في قوله تعالى: «أينما تكونوا يدركُكم الموت» برفع «يدركُ»[٤]، وخرِّج بأنه بتقديرِ: فنحن نُتخطَّفُ، وهو تخريجُ شذوذ.

---

(١) في البحر ٧/ ١٢٦.

(٢) في (م): عن، وهو تصحيف.

(٣) البحر ٧/ ١٢٦. والمنقري هو أبو معمر عبد الله بن عمرو بن الحجاج المنقري التميمي البصري، قيِّم بحرف أبي عمرو ضابط له، توفي سنة (٢٢٤هـ). طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٣٩.

(٤) وهي قراءة طلحة بن سليمان، كما في القراءات الشاذة ص٢٧، والمحتسب ١/ ١٩٣.

وقرأ نافعٌ، وجماعةٌ عن يعقوب، وأبو حاتم عن عاصم: «تُجبى» بتاء التأنيث(١).

وقرئ: «تُجنَى» بالنون من الجني، وهو قطعُ الثمرة، وتعديتُه بـ «إلى» كقولك: يجني إلى فيه، ويجني إلى الخافة(٢).

وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم: «ثُمُرات» بضمِّ الثاء والميم(٣). وقرأ بعضهم: «ثَمْرات» بفتح الثاء وإسكان الميم(٤).

ثم إنه تعالى بعد أن ردَّ عليهم خوفَهم من الناس بيَّن أنهم أحقَّاءُ بالخوف من بأس الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثيراً من أهل قريةٍ كانت حالُهم كحال هؤلاء في الأمن وخَفْضِ العيش والدَّعة، حتى بطروا واغترُّوا ولم يقوموا بحقِّ النعمة، فدمَّرنا عليهم وخرَّبنا ديارهم.

﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ التي تمرُّون عليها في أسفاركم كحِجْر ثمود خاويةً بما ظلموا حالَ كونها ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلَّا زماناً قليلاً؛ إذ لا يسكنُها إلا المارَّةُ يوماً أو بعض يوم، أو: إلا سكناً قليلاً، وقلَّتهُ باعتبارِ قلَّة الساكنين، فكأنه قيل: لم يسكنها من بعدهم إلَّا قليلٌ من الناس. وجوِّز أن يكون الاستثناء من المساكن، أي: إلا قليلاً منها سُكن، وفيه بُعدٌ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ منهم إذ لم يَخْلُفْهم أحدٌ يتصرَّف تصرُّفَهم في ديارهم وسائرِ ذات أيديهم.

---

(١) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٣٤٢ عن نافع، ويعقوب من رواية رويس عنه، وبها قرأ أبو جعفر. والكلام من البحر ٧/ ١٢٦.

(٢) الكشاف ٣/ ١٨٥. وقوله: إلى الخافة، جاء في هامش الأصل و(م): هي خريطة من أدم يُشار فيها العسل. اهـ منه. وقوله: يجني إلى فيه، مأخوذ من قول عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش:

هذا جَنَايَ وخياره فيه ... إذ كلُّ جانٍ يدُه إلى فيه

وذلك أنه خرج يجني الكمأة مع أصحاب له فكانوا إذا وجدوا خيار الكمأة أكلوها، وإذا وجدها عمرو جعلها في كمّه حتى يأتي بها خاله، وقال هذا الشعر فذهب مثلاً. مجمع الأمثال ١/ ١٣٨، والنهاية (خبى).

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣، والمحتسب ٢/ ١٥٣، والبحر ٧/ ١٢٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٦.

وفي «الكشاف» أي: تركناها على حالٍ لا يسكنها أحدٌ، أو خرَّبناها وسوَّيْناها بالأرض[(١)]. وهو مشيرٌ إلى أنَّ الوراثة إمَّا مجرَّدُ انتقالها من أصحابها، وإما إلحاقُها بما خلقه الله تعالى في البدء، فكأنه رجع إلى أصله ودخل في عداد خالص ملكِ الله تعالى على ما كان أوَّلاً، وهذا معنى الإرث.

وانتصابُ «معيشتها» على التميز على مذهب الكوفيين، أو مشبَّهٌ بالمفعول به على مذهب بعضهم، أو مفعولٌ به على تضمين «بطرت» معنى فِعْلٍ متعدٍّ، أي: كفرتْ معيشتها ولم تَرْعَ حقَّها، على مذهب أكثر البصريين، أو على إسقاط «في» أي: في معيشتها على مذهب الأخفش، أو على الظرف نحو: جئتُ خفوقَ النجم، على قول الزجَّاج[(٢)].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيانٌ للعناية الربانية إثر بيانِ إهلاك القرى المذكورة، أي: وما صحَّ وما استقام، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار، بل كانت سنَّته عزَّ وجلَّ أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وكبيرتِها التي ترجع تلك القرى إليها ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ الناطقةَ بالحقِّ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب.

وإنما لم يُهْلكهم سبحانه حتى يبعث إليهم رسولاً لإلزام الحجة وقَطْعِ المعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتَّبع آياتك. وإنما كان البعثُ في أمِّ القرى لأنَّ في أهل البلدة الكبيرة وكرسيِّ المملكة ومحلِّ الأحكام فطنةً وكيساً، فَهُمْ أَقْبَلُ للدعوة وأشرف.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة: أنَّ أمَّ القرى مكة، والرسول محمدٌ ﷺ[(٣)]. فالمراد بالقرى: القرى التي كانت في عصره عليه الصلاة والسلام. والأُولى أَوْلَى.

والالتفاتُ إلى نون العظمة في «آياتنا» لتربية المهابة وإدخالِ الروعة.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٦.

(٢) نقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٧/ ١٢٦، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ١٥٠: «معيشتها» منصوبة بإسقاط «في» وعمل الفعل، وتأويله: بطرت في معيشتها.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩٧، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٣٤.

وقرئ: «في إمها» بكسر الهمزة إتْباعاً للميم(١).

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على «ما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى» ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: وما كنَّا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا في أمِّها رسولاً يدعوهم إلى الحقِّ ويرشدهم إليه في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفرِ بآياتنا، فالبعثُ غايةٌ لعدم صحة الإهلاك بموجب السنَّة الإلهية، لا لعدم وقوعه حتى يلزمَ تحقُّقُ الإهلاك عقيب البعث.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: أيّ شيء أَصَبْتُموه من أمور الدنيا وأسبابها ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ فهو شيءٌ شأنُه أن يُتَمَتَّعَ به ويُتَزَيَّنَ به أياماً قلائل، ويُشْعِرُ بالقلَّة لفظُ المتاع، وكذا ذِكرُ «أبقى» في المقابل، وفي لفظ الدنيا إشارةٌ إلى القلَّة والخسَّة.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة، وهو الثوابُ ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك؛ لأنه لذةٌ خالصةٌ وبهجةٌ كاملةٌ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ، وأين المتناهي من غير المتناهي؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾ أي: ألا تتفكَّرون فلا تعقلون(٢) هذا الأمرَ الواضحَ، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، وتخافون على ذهاب ما أصبتُموه من متاع الحياة الدنيا، وتمتنعون عن اتِّباع الهدى المفضي إلى ما عند الله تعالى لذلك، فكأنَّ هذا ردٌّ عليهم في منع خوف التخطُّف إياهم من اتِّباعه ﷺ على تقدير تحقق وقوع ما يخافونه.

وقرأ أبو عمرو: «يعقلون» بياء الغيبة(٣) على الالتفات، وهو أبلغ في الموعظة لإشعاره بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب، فالالتفاتُ هنا لعدم الالتفات زجراً لهم.

وقرئ: «فمتاعاً الحياةَ الدنيا»(٤)، أي: فتتمتَّعون به في الحياة الدنيا، فنصب «متاعاً» على المصدرية و«الحياة» على الظرفية.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي وصلاً، والجميع يبتدئون بضم الهمزة، وأجمعوا على كسر الميم في الحالين. البدور الزاهرة ص٢٤٢.

(٢) في (م): تفعلون، وهو تصحيف.

(٣) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٣٤٢.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٧.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعداً بالجنة وما فيها من النعيم الصرف الدائم، فإنَّ حُسْنَ الوعدِ بحُسْنِ الموعود ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: مُدْرِكُه لا محالةَ؛ لاستحالة الخُلْفِ في وعده تعالى، ولذلك جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحَقُّقه ألبتة، وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلام، منغَّصٌ بالأكدار، مستَتْبَعٌ بالتحسُّر على الانقطاع. ومعنى الفاءِ الأولى ترتيبُ إنكارِ التشابُه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوُتِ بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله تعالى، أي: أَبَعْدَ هذا التفاوُتِ الظاهر يسوَّى بين الفريقين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ عطفٌ على «متَّعناه» داخلٌ معه في حيِّز الصلة مؤكِّدٌ لإنكار التشابه مقوٍّ له، كأنه قيل: كمن متَّعناه متاعَ الحياة الدنيا ثم نحضرُه ـ أو أحضرناه ـ يوم القيامة للنار أو العذاب، وغلب لفظُ المُحضَرِ في المُحْضَرِ لذلك[١].

والعدولُ إلى الجملة الاسمية، قيل: للدلالة على التحقُّق حتماً، ولا يضر كونُ خبرها ظرفاً مع العدول، وحصولُ الدلالة على التحقُّق لو قيل: أحضرناه، لا ينافي ذلك.

وقد يقال: إنَّ فيما ذُكر في النظم الجليل شيءٌ آخرُ غيرُ الدلالة على التحقيق ليس في قولك: ثم أحضرناه يومَ القيامة، كالدلالة على التقوِّي أو الحصر، والدلالةِ على التهويل والإيقاع في حيرة، ولمجموع ذلك جيء بالجملة الاسمية.

و«يوم» متعلِّقٌ بـ «المحضرين» المذكور، وقدِّم عليه للفاصلة، أو هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وقد مرَّ الكلام في مثل ذلك[٢].

و«ثم» للتراخي في الرتبة دون الزمان، وإن صحَّ وكان فيه إبقاءُ اللفظ على

---

(١) أي: في المحضَر إلى النار، كقوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] و﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧]. ينظر الكشاف ٣/ ١٨٧، والبحر ٧/ ١٢٧، وحاشية الشهاب ٧/ ٨١.

(٢) ص١٨٤ من هذا الجزء.

حقيقته؛ لأنه أنسبُ بالسياق، وهو أبلغُ وأكثر إفادةً، وأربابُ البلاغة يَعْدِلون إلى المجاز ما أَمْكنَ لتضمُّنه لطائفَ النكات.

وقرأ طلحة: «أمَن وعدناه» بغير فاء[١].

وقرأ قالون والكسائيُّ: «ثم هْو» بسكون الهاء[٢]، كما قيل: عَضُدٌ وعَضْدٌ؛ تشبيهاً للمنفصل وهو الميم الأخير مِن «ثُم» بالمتَّصل.

والآيةُ نزلت على ما أخرج ابنُ جريرٍ عن مجاهد في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وأخرج من وجهٍ آخَرَ عنه أنها نزلت في حمزةَ وأبي جهل[٣].

وقيل: نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأبي جهل، ونُسب إلى محمد بن كعب والسديِّ.

وقيل: في عمارٍ رضي الله عنه والوليد بن المغيرة.

وقيل: نزلت في المؤمن والكافر مطلقاً.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على «يوم القيامة» لاختلافهما عنواناً وإن اتَّحدا ذاتاً، أو منصوبٌ بإضمارِ اذكر، ونداؤه تعالى إياهم يحتمل أن يكون بواسطةٍ وأن يكون بدونها، وهو نداءُ إهانةٍ وتوبيخ.

﴿فَيَقُولُ﴾ تفسيرٌ للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فإنَّ زَعَم مما يتعدَّى إلى مفعولين، كقوله:

وإنَّ الذي قد عاش يا أمَّ مالكٍ يموتُ ولم أَزْعُمْك عن ذاك مَعْزِلا[٤]

---

(١) البحر ٧/ ١٢٧، والدر المصون ٨/ ٦٨٨.

(٢) التيسير ص٧٢، والنشر ٢/ ٢٠٩، والبدور الزاهرة ص٢٤٢، وأسكن الهاء أيضاً أبو جعفر من العشرة.

(٣) الخبران في تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٤-٢٩٥، وفيه عن مجاهد أيضاً أنه قال: نزلت في حمزة وعلي بن أبي طالب وأبي جهل.

(٤) البيت برواية المصنف في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص١١٤، والكتاب ١/ ١٢١، وصدره فيهما: عدَدْتَ قشيراً إذ عَدَدْتَ فلم أُسَأْ. ووقع في الديوان: أزمعك، بدل: أزعمك. قال الأعلم في شرح الشواهد ص١٢١: نصب معزل على المفعول الثاني، والتقدير: ولم أزعمك ذا معزلٍ عن ذلك. ويجوز أن

وحُذِفَ هنا المفعولان معاً ثقةً بدلالة الكلام عليهما، نحو: مَن يَسْمَعْ يَخَلْ. وفي «الكشاف»: يجوزُ حَذْفُ المفعولين في باب ظننتُ ولا يصحُّ الاقتصارُ على أحدهما[1]. وادّعى بعضهم أنَّ عدم صحة الاقتصار هو الأصحُّ، وأنه الذي ذهب إليه الأكثرون.

وقال الأخفش[2]: إذا دخلت هذه الأفعالُ «ظنَّ» وأخواتُها على «أنَّ»، نحو: ظننتُ أنك قائم، فالمفعول الثاني منهما محذوفٌ، والتقدير: ظننتُ قيامَك كائناً؛ لأن المفتوحة بتأويل المفرد. وسيبويه يرى في ذلك أنَّ «أنَّ» مع ما بعدها سدَّت مسدَّ المفعولين[3].

وأجاز الكوفيون الاقتصارَ على الأول إذا سدَّ شيءٌ مسدَّ الثاني كما في باب المبتدأ، نحو: أقائمٌ أخواك، فيقولون: هل ظننتَ قائماً أخواك؟

وقال أبو حيان: إذا دلَّ دليلٌ على أحدهما جاز حذفُه كقوله:

كأنْ لم يَكُنْ بينٌ إذا كان بعده ... تَلاقٍ ولكنْ لا إخالُ تلاقيا[4]

أي: لا إخال بعد البين تلاقياً.

وقال صاحب «التحفة»: يجوزُ الاقتصارُ في باب كسوتُ على أحد المفعولين بدليلٍ وبغير دليل؛ لأنَّ الأول فيهما غيرُ الثاني.

وأجاز بعضهم حذف الأول إذا كان هو الفاعل معنىً، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ

= يكون نصبه على الظرف الواقع موقع المفعول الثاني؛ لأنك تقول: أنت معزلاً عن ذاك، تريد: في معزل منه وبمعزل، كما تقول: أنت مني مرأى ومسمعاً.

(١) الكشاف ٣/ ١٨٧.

(٢) قوله في البحر ١/ ١٨٦، وحاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وعنه نقل المصنف.

(٣) الكتاب ١/ ١٢٥-١٢٦، ونقله المصنف بواسطة الطيبي في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) البيت نسب لابن الدمينة كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٨٣، وهو في ملحق ديوانه ص٢٠٦. ونسب لجميل بثينة كما في منتهى الطلب ٢/ ٣٧٦، وهو في ديوانه ص٢٢٤، وجاء في هذه المصادر: نأي، بدل: بينٌ. والكلام من حاشية الطيبي على الكشاف.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعۡجِزِينَ﴾ أي: ولا يحسبن الذين كفروا إياهم ـ أي: أنفسَهم ـ معجزين؛ وقال الطيبي[1] في عدم الحذف فيما عدا ما ذكر وجواز الحذف فيه: لعل السرَّ أنَّ هذه الأفعال قيودٌ للمضامين تدخلُ على الجمل الاسمية لبيان ما هي عليه؛ لأنَّ النسبة قد تكونُ عن علم وقد تكون عن ظنٍّ، فلو اقتُصر على أحد طرفي الجملة لقيام قرينةٍ، تُوهم أنَّ الذي سيق له الكلام والذي هو مهتمٌّ بشأنه الطرف المذكور، وليس غيرُ المذكور مما يعتنَى به، نعم إذا كان الفاعل والمفعولُ لشيءٍ واحدٍ يهونُ الخطب، وذَكر عن صاحب «الإقليد» ما يؤيِّده، وقد أطال طيَّب الله تعالى مرقده الكلام في هذا المقام.

وادَّعى ابنُ هشام[2] أنَّ الأَوْلَى أن يقدَّر هنا: الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي؛ لأنه لم يقع الزعم في التنزيل على المفعولين الصريحين، بل على «أنَّ» وصِلَتِها، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام: ٩٤] وفيه نظر.

والظاهر أنَّ المراد بالشركاء مَن عُبِدَ من دون الله تعالى، من مَلَكٍ أو جنٍّ أو إنسٍ أو كوكبٍ أو صنمٍ أو غير ذلك.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على حكاية السؤال، كأنه قيل: فماذا كان بعد هذا السؤال؟ فقيل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ثبت عليهم مقتضَى القولِ وتحقُّق مؤدَّاه، وهو قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وغيرُه من آيات الوعيد، والمرادُ بالموصول الشركاءُ الذين كانوا يزعمونهم شركاء من الشياطين ورؤساء الكفر، وتخصيصُهم بما في حيِّز الصلة مع شمول مضمونها الأتباع أيضاً لأصالتهم في الكفر واستحقاقِ العذاب، والتعبيرُ عنهم بذلك دون: الذين زعموهم شركاء؛ لإخراج مِثْلِ عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام؛ لشمول الشركاء ـ على ما سمعت ـ له.

ومسارعتُهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة؛ لتفطُّنهم أنَّ السؤال منهم سؤالُ توبيخٍ وإهانةٍ، وهو يستدعي استحضارَهم وتوبيخَهم بالإضلال، وجَزْمَهم بأنَّ العبدة سيقولون: هؤلاء أضلُّونا.

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) في المغني ص٧٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٨٢.

وقيل: يجوز أن يكون العبدة قد أجابوا معتذرين بقولهم: هؤلاء أضلونا، ثم قال الشركاء ما قصَّ الله تعالى ردًّا لقولهم ذلك، إلا أنه لم يُحْكَ إيجازاً لظهوره.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ تمهيدٌ للجواب، والإشارةُ إلى العبدة لبيانِ أنهم يقولون ما يقولون بمحضرٍ منهم، وأنهم غيرُ قادرين على إنكاره وردِّه، و«هؤلاء» مبتدأ خبرُه الموصولُ بعده، وجملة «أغوينا» صلةُ الموصول، والعائدُ محذوفٌ للتصريح به فيما بعدُ، أي: الذين أغويناهم، وقوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجوابُ حقيقةً، أي: ما أكرهناهم على الغيِّ، وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل، لا بالقسر والإلجاء، فغَوَوا باختيارهم غيًّا مثل غيِّنا باختيارنا.

ويجوز أن يكون الموصولُ صفةَ اسم الإشارة، والخبر جملة «أغويناهم كما غوينا». ومنع ذلك أبو عليٍّ في «التذكرة» بأنه يؤدِّي إلى أنَّ الخبر لا يكون فيه فائدةٌ زائدةٌ، ؛ لأن إغواءهم إياهم قد عُلم من الوصف.

ورُدَّ بأن التشبيه دلَّ على أنهم غَوَوْا باختيارٍ؛ لا أنَّ الإغواء إلجاءٌ، وقوله[1]: إنَّ «كما غوينا» فضلةٌ، فلا تصيِّرُ ذاك أصلاً في الجملة، ليس بشيء؛ لأنَّ الفضلات قد تَلْزَمُ في بعض المواضع، نحو: زيدٌ عمروٌ قائمٌ في داره[2].

وقرأ أبان عن عاصم وبعض الشاميين: «كما غَوِينا» بكسر الواو، قال ابن خالويه: وليس ذلك مختاراً لأنَّ كلام العرب: غَوَيْتُ من الضلالة، وغَوِيْتُ بالكسر من البَشَم[3].

﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوًى من أنفسهم، موجِّهين التبرُّؤ ومهيِّئين له ﴿إِلَيْكَ﴾ والجملةُ تقريرٌ لِمَا قبلها؛ لأن الإقرار بالغواية تبرُّؤٌ في

---

(١) يعني أبا علي، كما في الإملاء للعكبري ٤/ ١٥٦، والبحر ٧/ ١٢٨، وحاشية الشهاب ٧/ ٨٢.

(٢) أي: لابد من قولك: في داره؛ ليعود من الجملة إلى زيد ضمير، وهو فضلة في الكلام، فكذا هنا ينبغي أن يكون «أغويناهم» خبراً؛ لتعلق قوله: «كما غوينا» به، وإن كانت فضلة في الكلام. حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٨، والبَشَم: التُّخَمة، ويقال: غَوِيَ الفصيل يَغْوَى، إذا أكثر من لبن أمه فبَشِمَ فكاد يهلك. زاد المسير ٥/ ٣٢٩-٣٣٠، والقاموس (بشم).

الحقيقة، ولذا لم تعطف عليه، وكذا قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ۝﴾ أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون في نفس الأمر والمآل أهواءهم.

وقيل: «ما» مصدريةٌ متصلةٌ بقوله تعالى: (تَبَرَّأۡنَآ) وهناك جارٌّ مقدَّرٌ، أي: تبرأنا من عبادتهم إيانا. وجعلُها نافيةً على أنَّ المعنى: ما كانوا يعبدوننا باستحقاقٍ وحجَّةٍ، ليس بشيءٍ، وأيًّا ما كان فـ «إيانا» مفعول «يعبدون» قدِّم للفاصلة.

﴿وَقِيلَ﴾ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم: ﴿ٱدۡعُوا۟ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ الذين زعمتُم ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ لفَرْطِ الحيرة، وإلَّا فليس هناك طلبٌ حقيقةً للدعاء.

وقيل: دَعَوهم لضرورة الامتثال، على أنَّ هناك طلباً، والغرضُ من طلب ذلك منهم تفضيحُهم على رؤوس الأشهاد بدعاء مَن لا نَفْعَ له لنفسه؛ قيل: والظاهرُ من تعقيب صيغة الأمر بالفاء في قوله تعالى «فدعوهم» أنها لطلب الدعاء وإيجابه. والأولُ أبلغُ في تهويل أمر أولئك الكفرة، والإشارةِ إلى سوء حالِهم، وأمرُ التعقيب بالفاء سهلٌ.

﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُوا۟ لَهُمۡ﴾ ضرورةَ عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة. وجوِّز أن يكون المراد: فلم يُجيبوهم لأنهم في شغلٍ شاغلٍ عنهم، ولعلهم خُتِمَ على أفواههم إذ ذاك.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ الظاهرُ أنَّ الضمير للداعين. وقال الضحاك: هو للداعين والمدعوِّين جميعاً. وقيل: هو للمدعوِّين فقط، وليس بشيءٍ.

والظاهرُ أن الرؤية بصرية ورؤية العذاب إمَّا على معنى رؤية مباديه، أو على معنى رؤيته نفسِه بتنزيله منزلة المشاهَد.

وجوِّز أن تكون عِلْميةً والمفعولُ الثاني محذوف، أي: رأوا العذاب متصلاً بهم، أو غاشياً لهم، أو نحو ذلك. وأنت تعلم أنَّ حذف أحد مفعولي أفعال القلوب مختلَفٌ في جوازه، وتقدَّم آنفاً عن البعض أنَّ الأكثرين على المنع، فمَن مَنَعَ وقال في بيان المعنى: ورأوا العذاب متصلاً بهم، جَعَلَ متصلاً حالاً من العذاب.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ «لو» شرطية، وجوابُها محذوفٌ، أي: لو كانوا يهتدون لوجهٍ من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب.

أو: لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين مؤمنين لَمَا رأوا العذاب.

واعتُرِضَ بأنَّ الدالَّ على المحذوف: «رأوا العذاب» وهو مُثْبَتٌ، فلا يقدَّر المحذوف منفيًّا. وهو غيرُ واردٍ لأنَّ الالتفات إلى المعنى، وإذا جاز الحذفُ لمجرَّد دلالة الحال، فإذا انضمَّ إليها شهادةُ المقال كان أولى وأولى.

وجوِّز أن تكون «لو» للتمنِّي، أي: تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين، فلا تحتاج إلى الجواب؛ وقال صاحب «التقريب»[1]: فيه نظر، إذ حقُّه أن يقال: لو كنَّا، إلا أنْ يكون على الحكاية، كـ: أَقْسَمَ لَيَضْرِبنَّ، أو على تأويلِ: رأوا متمنِّين هدايتَهم.

وجوِّز على تقديرِ كونها للتمنِّي أن يكون قد وُضع: «لو أنهم كانوا مهتدين»، موضع: تحيَّروا لرؤيته، كأنَّ كلَّ أحدٍ يتمنَّى لهم الهداية عند ذلك الهول والتحيُّرِ ترحُّماً عليهم، أو هو من الله تعالى شأنُه على المجاز كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣]. وجَعَل الطيبيُّ[2] وَضْعَه موضعه من إطلاق المسبَّب على السبب؛ لأنَّ تحيُّرهم سببٌ حاملٌ على هذا القول. وقال عليه الرحمةُ: إنَّ النظم على هذا الوجه ينطبق.

واختار الإمام الرازي أنها شرطيةٌ، إلا أنه لم يَرْتَضِ ما قالوه في تقدير الجواب، فقال بعد نَقْلِ ما قالوه: وعندي أنَّ الجواب غيرُ محذوفٍ، وفي تقريره وجوهٌ:

أحدها: أنَّ الله تعالى إذا خاطبهم بقوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ فهناك يشتدُّ الخوف عليهم، ويلحقُهم شيءٌ كالسَّدَر[3] والدوارِ، فيصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً، فقال سبحانه: ورأوا العذب لو أنهم كانوا يبصرون شيئاً، على معنى أنهم لم يروا العذاب؛ لأنهم صاروا بحيث لا يبصرون شيئاً.

---

(١) كما في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) أي: التحيُّر، ينظر القاموس (سدر).

وثانيها: أنه تعالى لمَّا ذكر عن الشركاء ـ وهي الأصنامُ ـ أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقِّهم: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: هذه الأصنامُ كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين، ولكنها ليست كذلك، والإتيانُ بضمير العقلاء على حسب اعتقاد القوم بهم.

وثالثها: أن يكون المراد من الرؤية رؤيةَ القلب، أي: والكفارُ علموا حقِّيَّةَ هذا العذاب لو كانوا يهتدون.

وهذه الوجوه عندي خيرٌ من الوجوه المَبْنيَّة على أنَّ جواب «لو» محذوف، فإنَّ ذلك يقتضي تفكيك نظم الآية(١). اهـ.

ولعمري إنه لم يأتِ بشيء، وما يَرِدُ عليه أظهرُ من أن يخفى على مَن له أدنى تمييزٍ بين الحيِّ والليِّ(٢).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ عطفٌ على الأول، سئلوا أولاً عن إشراكهم لأنه المقصودُ من «أين شركائي الذين زعمتم»، وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أصلُه: فعَمُوا عن الأنباء، أي: لم يهتدوا إليها، وفيه استعارةٌ تصريحيةٌ تبعيةٌ، حيث استُعير العمى لعدم الاهتداء، ثم قُلِبَ للمبالغة، فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم، وضمِّن العمى معنى الخفاء فعدِّي بـ «على»، ولولاه لتعدَّى بـ «عن»، ولم يتعلَّق بالأنباء لأنها مسموعةٌ لا مبصَرةٌ. وفي هذا القلب دلالةٌ على أنَّ ما يحضر الذهن يفيضُ عليه ويصل من الخارج ونفس الأمر إما ابتداءً وإمَّا بواسطةِ تذكُّر الصورة الواردةِ منه بأماراتها الخارجية، فإذا أخطأ الذهن الخارجُ بأنْ لم يَصِلْ إليه لانسداد الطريق بينه وبينه بعمًى ونحوِه، لم يُمْكِنْه إحضارٌ ولا استحضار، وذلك لأنه لمَّا جعل الأنباء الواردةَ عليهم من الخارج عُمياً لا تهتدي دلَّ على أنهم عميٌ لا يهتدون بالطريق الأَوْلى؛ لأنَّ اهتداءهم بها، فإذا كانت هي في نفسها لا تهتدي فما بالُك بمن يهتدي بها؟! كذا قيل، فليتدبر.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/٨.

(٢) أي: الكلام الذي يفهم من الذي لا يفهم، ومن أمثالهم: لا يدري الحوَّ من اللَّو، والحيَّ من اللّي. المزهر للسيوطي ١/ ٥٠٠.

وجوِّز أن يكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييلية، أي: فصارت الأنباء كالعُمْي عليهم لا تهتدي إليهم.

والمراد بالأنباء إمَّا ما طُلب منهم مما أجابوا به الرسل عليهم السلام، أو ما يعمُّها وكلَّ ما يمكن الجوابُ به، وإذا كانت الرسل عليهم السلام يتَتَعْتَعون[١] في الجواب عن مثل ذلك في ذلك المقام الهائل، ويفوِّضون العلم إلى علَّام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤول، فما ظنُّك بأولئك الضلَّال من الأمم؟!

وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش وأبو زرعة بن عمرو بن جرير: «فَعُمِّيتْ» بضمِّ العين وتشديد الميم[٢].

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً لفَرْطِ الدهشة، أو العلم بأنَّ الكلَّ سواءٌ في الجهل، والفاءُ إمَّا تفصيليةٌ أو تفريعيةٌ؛ لأنَّ سبب العمى فَرْطَ الدهشة.

وقرأ طلحة: «لا يسَّاءلون» بإدغام التاء في السين[٣].

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾ أي: الفائزين بالمطلوب عنده عزَّ وجلَّ، الناجين عن المهروب. و«عسى» للتحقيق على عادة الكرام، أو للترجِّي من قِبَلِ التائب المذكور، بمعنى: فليتوقَّعْ أن يفلح.

وقوله تعالى: (فَأَمَّا) قيل[٤]: لتفصيل المجمَلِ الواقع في ذهن السامع من بيانِ ما يَؤُولُ إليه حال المشركين، وهو أنَّ حالَ مَن تاب منهم كيف يكون؟ والدلالةِ على ترتُّب الإخبار به على ما قبله، فالآيةُ متعلِّقةٌ بما عندها.

وقال الطيبيُّ[٥]: هي متعلِّقةٌ بقوله تعالى: (أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا)، والحديثُ عن الشركاء مستطردٌ لذكر الإحضار.

---

(١) التعتعة: التردُّد في الكلام لحصر أو عيٍّ. حاشية الشهاب ٧/ ٨٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٩.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣، والبحر ٧/ ١٢٩.

(٤) قوله: قيل، ليس في الأصل.

(٥) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ الظاهر أنه ليس متعلِّقاً به، بل لمَّا ذكر سبحانه حالَ مَن حقَّ عليه القولُ من التابع والمتبوع، قال تعالى شأنُه حثًّا لهم على الإقلاع: (فَأَمَّا مَن تَابَ) منهم (وَءَامَنَ) فكأنه قيل ـ ما ذكر ـ لمصرِّيهم[1]: فأما مَن تاب فكلَّا.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ خَلْقَه من الأعيان والأعراض ﴿وَيَخْتَارُ﴾ عطفٌ على «يخلق»، والمعنى على ما قيل: يخلق ما يشاؤه باختياره، فلا يخلقُ شيئاً بلا اختيار، وهذا ممّا لم يُفهم من «ما يشاء»، فليس في الآية شائبةُ تكرار.

وقيل في دفع ما يتوهَّم من ذلك غيرُ ما ذُكر، مما نقله وردَّه الخفاجيُّ[2]، ولم يتعرَّضْ للقدح في هذا الوجه، وأراه لا يخلو عن بُعْدٍ، ولي وجهٌ في الآية سأذكره بعدُ إن شاء الله تعالى.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: التخيُّر، كالطِّيَرة بمعنى التطيُّر، وهما والاختيارُ بمعنًى، وظاهرُ الآية نفيُ الاختيار عن العبد رأساً كما يقوله الجبرية، ومَن أثبت للعبد اختياراً قال: إنه لكونه بالدواعي التي لو لم يخلقها الله تعالى فيه لم يكن كان في حيِّز العدم، وهذا مذهبُ الأشعريِّ على ما حقَّقه العلَّامة الدَّوَاني؛ قال: الذي أَثْبته الأشعريُّ هو تعلُّقُ قدرة العبد وإرادتِه الذي هو سببٌ عاديٌّ لخلق الله تعالى الفعلَ فيه، وإذا فتَّشنا عن مبادي الفعل وجدنا الإرادة منبعثةً عن شوقٍ له، وتصوُّرِ أنه ملائمٌ، وغيرِ ذلك من أمورٍ ليس شيءٌ منها بقدرة العبد واختياره.

وحقَّق العلَّامة الكورانيُّ في بعض رسائله المؤلَّفةِ في هذه المسألة أنَّ مذهب السلف أنَّ للعبد قدرةً مؤثِّرةً بإذن الله تعالى، وأنَّ له اختياراً لكنه مجبورٌ باختياره، وادَّعى أنَّ ذلك هو مذهبُ الأشعريِّ، دون ما شاع من أنَّ له قدرةً غيرَ مؤثِّرةٍ أصلاً بل هي كاليد الشلَّاء، ونفيُ الاختيارِ عنه على هذا نحوه على ما مرَّ، فإنه حيث كان مجبوراً به كان وجوده كالعدم.

وقيل: إنَّ الآية أفادت نفي ملكهم للاختيار، ويَصْدُقُ على المجبور باختياره بأنه غيرُ مالكٍ للاختيار؛ إذ لا يتصرَّف فيه كما يشاء تصرُّف المالك في ملكه.

---

(١) في (م): لمصيرهم، وهو تصحيف.

(٢) في الحاشية ٧/ ٨٣.

وقيل: المراد: لا يليقُ ولا ينبغي لهم أن يختاروا عليه تعالى، أي: لا ينبغي لهم التحكُّمُ عليه سبحانه بأن يقولوا: لِمَ لَمْ يفعل الله تعالى كذا. ويؤيِّده أنَّ الآية نزلت حين قال الوليد بن المغيرة: لولا نزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم، أو حين قال اليهود: لو كان الرسول إلى محمد ﷺ غيرَ جبريل عليه السلام لآمنَّا به، على ما قيل. والجملة على هذا الوجه مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها، أو مفسِّرةٌ له؛ إذ معنى ذلك: يخلقُ ما يشاء ويختار ما يشاءُ أنْ يختارَه لا ما يختارُه العباد عليه، ولذا خلت عن العاطف، وهي على ما تقدَّم مستأنفةٌ في جواب سؤالٍ تقديره: فما حالُ العباد؟ أو: هل لهم اختيارٌ؟ أو نحوه. فقيل: إنهم ليس لهم اختيارٌ.

وضعِّف هذا الوجهُ بأنه لا دلالةَ على هذا المعنى في النظم الجليل، وفيه حذفُ المتعلِّق، وهو: على الله تعالى، من غيرِ قرينةٍ دالَّةٍ عليه، وكونُ سببِ النزول ما ذُكر ممنوعٌ، والقول الثاني فيه يستدعي بظاهره أن يكون ضميرُ «لهم» لليهود، وفيه من البعدُ ما فيه.

وقيل: «ما» موصولةٌ مفعولُ «يختار»، والعائد محذوفٌ، والوقف على «يشاء»، لا نافيةٌ والوقفُ على «يختار» كما نصَّ عليه الزجَّاج وعلي بن سليمان والنحاس[1]، كما في الوجهين السابقين، أي: ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح، واختياره تعالى ذلك بطريق التفضُّلِ والكرم عندنا، وبطريق الوجوب عند المعتزلة.

وإلى موصوليةِ «ما» وكونِها مفعولَ «يختار» ذهب الطبريُّ، إلا أنه قال في بيان المعنى عليه: أي: ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرةً للناس، وأنكر أن تكون نافيةً لئلا يكون المعنى أنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يُستقبل[2]. وادَّعى أبو حيان أنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما معنًى ما ذهب إليه[3].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤١، وعلي بن سليمان هو الأخفش الأصغر، وذكر قوله النحاس، وأبو حيان في البحر ٧/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩-٣٠٢، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٢٩.
(٣) البحر ٧/ ١٢٩.

واعتُرِضَ بأنَّ اللغة لا تساعدُه؛ لأنَّ المعروف فيها أنَّ «الخيرة» بمعنى الاختيار لا بمعنى الخير، وبأنه لا يناسبُ ما بعده من قوله[1]: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، وكذا لا يناسبُ ما قبله من قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. وضعَّفه بعضُهم بأنَّ فيه حذفَ العائد، ولا يخفى أنَّ حذفه كثير.

وأجيب عمَّا اعترض به الطبريُّ بأنه يجوز أن يكون المراد بمعونة المقام استمرارَ النفي؛ أو يكون المراد: ما كان لهم في علم الله تعالى ذلك، وهذا بعد تسليم لزومِ كونِ المعنى ما ذكره لو أبقي الكلام على ظاهره.

وقال ابن عطية: يتَّجه عندي أن يكون «ما» مفعولَ «يختار» إذا قدَّرنا «كان» تامةً، أي: إن الله تعالى يختار كلَّ كائنٍ ولا يكون شيءٌ إلا بإذنه، وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ معناها تعديدُ النعمة عليهم في اختيار الله سبحانه لهم لو قبلوا وفهموا[2]. اهـ. يعني والله تعالى أعلم أنَّ المراد: خيرةُ الله تعالى لهم، أي: اختياره لمصلحتهم.

وللفاضل سعدي چلبي نحوُ هذا، إلا أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾: إنه في معنى: أَلَهم الخيرة؟ بهمزةِ الاستفهام الإنكاريِّ، وذكر أنَّ هذا المعنى يناسبه ما بعدُ من قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، فإنه إمَّا تعجيبٌ عن إثبات الاختيار لغيره تعالى، أو تنزيهٌ له عزَّ جلَّ عنه.

ولا يخفى ضَعْفُ ما قالاه لِمَا فيه من مخالفة الظاهر من وجوه.

ويظهر لي في الآية غيرُ ما ذُكر من الأوجُهِ، وهو أن يكون «يختار» معطوفاً على «يخلق» والوقفُ عليه تامٌّ كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ، وهو من الاختيار بمعنى الانتقاء والاصطفاء، وكذا «الخيرة» بمعنى الاختيار بهذا المعنى، والفعل متعدٍّ حُذِفَ مفعولُه ثقةً بدلالةِ ما قبله عليه، أي: ويختار ما يشاء، وتقديم المسند إليه في كلٍّ من جانبي المعطوفِ والمعطوفِ عليه لإفادة الحصر، وجملةُ «ما كان لهم الخيرة» مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها، حيث تكفَّل الحصرُ بإفادة النفي الذي تضمَّنته، والكلامُ مسوقٌ

---

(١) في (م): من تعالى قوله، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ١٠٤، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦، والبحر ٧/ ١٢٩-١٣٠.

لتجهيل المشركين في اختيارهم ما أشركوه، واصطفائهم إياه للعبادة والشفاعة لهم يوم القيامة، كما يرمز إليه: «ادعوا شركاءكم»، وللتعبير بـ «ما» وجهٌ ظاهر، والمعنى: وربُّك لا غيرُه يخلقُ ما يشاء خَلْقَه، وهو سبحانه دون غيره ينتقي ويصطفي ما يشاء انتقاءه واصطفاءه، فيصطفي مما يخلُقه شفعاءَ ويختارُهم للشفاعة، ويميِّز بعض مخلوقاته جلَّ جلالهُ على بعضٍ ويفضِّلُه عليه بما شاء، ما كان لهؤلاء المشركين أن ينتقوا ويصطفوا ما شاؤوا، ويميِّزوا بعضَ مخلوقاته تعالى على بعضٍ، ويجعلوه مقدَّماً عنده عزَّ وجلَّ على غيره؛ لأنَّ ذلك يستدعي القدرة الكاملة، وعدمَ كونِ فاعله محجوراً عليه أصلاً، وأنَّى لهم ذلك، فليس لهم إلا اتِّباعُ اصطفاءِ الله تعالى، وهو جلَّ وعلا لم يَصْطَفِ شركاءهم الذين اصْطَفَوْهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذي اصْطفَوْهم عليه، فما هم إلَّا جهَّالٌ ضلَّالٌ صُدُّوا عما يلزمُهم، وتصدَّوا لِمَا ليس لهم بحالٍ من الأحوال.

وإن شئتَ فنزِّل الفعلَ منزلةَ اللازم، وقل: المعنى: وربُّك لا غيرُه يخلق ما يشاء خَلْقَه وهو سبحانه لا غيرُه يفعل الاختيارَ والاصطفاءَ، فيصطفي بعضَ مخلوقاته لكذا وبعضاً آخر لكذا، ويميِّز بعضاً منها على بعضٍ، ويجعلُه مقدَّماً عنده تعالى عليه، فإنه سبحانه قادرٌ حكيم لا يُسأَلُ عمَّا يفعلُ، وهو جلَّ وعلا أعظمُ من أن يُعتَرض عليه وأجلُّ.

ويدخل في الغير المنفيِّ عنه ذلك المشركون، فليس لهم أن يفعلوا ذلك، فيصطفوا بعضَ مخلوقاته للشفاعة، ويختاروهم للعبادة، ويجعلوهم شركاء له عزَّ وجلَّ، ويدخل في الاختيار المنفيِّ عنهم ما تضمَّنه قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فإنَّ فيه انتقاءَ غيره ﷺ من الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفيِّ، وتمييزَه بأهلية تنزيل القرآن عليه، فإن صحَّ ما قيل في سبب نزول هذه الآية من أنه القولُ المذكور كان فيها ردُّ ذلك عليهم أيضاً، إلا أنها لتضمُّنها تجهيلَهم باختيارهم الشركاءَ واصطفائهم إياهم آلهةً وشُفَعاءَ كتضمُّنِها الردَّ المذكور جيء بها هنا متعلِّقةً بذكر الشركاء وتقريعِ المشركين على شركهم.

وربما يقال: إنها لمَّا تضمَّنت تجهيلهم فيما له نوعُ تعلُّقٍ به تعالى كاتِّخاذ الشركاء له سبحانه، وفيما له نوعُ تعلُّقٍ بخاتم رسله عليه الصلاة والسلام كتمييزهم

غيرَه عليه الصلاة والسلام بأهلية الإرسال إليه وتنزيلِ القرآن عليه، جيء بها بعد ذكر سؤال المشركين عن إشراكهم، وسؤالهم عن جوابهم للمرسَلين الناهين لهم عنه، الذين عَيْنُ أعيانهم وقلبُ صدر ديوانهم رسولُه الخاتم لهم ﷺ، فلها تعلُّقٌ بكلا الأمرين، إلا أنَّ تعلُّقها بالأمر الأول أظهرُ وأتمُّ، وخاتمتُها تقتضيه على أكمل وجه وأحكم.

وربما يقال أيضاً: إنَّ لها تعلُّقاً بجميع ما قبلها، أمَّا تعلُّقها بالأمرين المذكورين فكما سمعتَ، وأمَّا تعلُّقُها بذكر حالِ التائب فمن حيث إنَّ انتظامه في سلك المفلحين يستدعي اختيارَ اللهِ تعالى إياه واصطفاءَه له وتمييزَه على مَن عَدَاه، ولذا جيء بها بعد الأمور الثلاثة. وذكرُ انحصارِ الخلق فيه تعالى وتقديمُه على انحصار الاختيار والاصطفاءِ مع أنَّ مبنَى التجهيلِ والردِّ إنما هو الثاني؛ للإشارة إلى أنَّ انحصارَ الاختيار من توابع انحصار الخلق.

وفي ذكره تعالى بعنوان الربوبية إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَه عزَّ وجلَّ ما شاء على وفق المصلحة والحكمة، وإضافةُ الربِّ إليه ﷺ لتشريفه عليه الصلاة والسلام، وهي في غاية الحسن إنْ صحَّ ما تقدَّم عن الوليد سبباً للنزول.

ويخطر في الباب احتمالاتٌ أُخر في الآية، فتأمَّل فإنِّي لا أقول: ما أبديتُه هو المختارُ، كيف وربُّك جلَّ شأنُه يخلق ما يشاء ويختار؟

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزَّه تعالى بذاته تنزُّهاً خاصًّا به من أن ينازعه أحدٌ، أو يزاحمَ اختيارَه عزَّ شأنُه ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾ أي: عن إشراكهم، على أنَّ «ما» مصدريةٌ، ويحتمل أن تكون موصولةً بتقدير مضافٍ، أي: عن مشاركة ما يشركونه به، كذا قيل.

وجَعَل بعضهم «سبحان الله» تعجيباً من إشراكهم مَن يضرُّهم بمن يريد لهم كلَّ خيرٍ تبارك وتعالى، وهو على احتمالِ كونِ «ما» فيما تقدَّم موصولةً مفعولَ «يختار»، والمعنى: ويختار ما كان لهم فيه الخير والصلاح.

ويجوز أن يكون تعجيباً أيضاً من اختيارهم شركاءَهم الذين أعدُّوهم للشفاعة، وإقدامِهم على ما لم يكن لهم، وذلك بناء على ما ظهر لنا.

وظاهرُ كلام كثيرٍ أنَّ الآية ليست من باب الإعمال، وجوِّز أن تكون منه بأن يكون كلٌّ من «سبحان» و«تعالى» طالباً «عما يشركون»، والأفيدُ على ما قيل أن لا تكون منه.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما يُكِنُّونَ ويُخْفُون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة، ومن عداوتهم لرسول الله ﷺ، ونحو ذلك.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ وما يظهرونه من الأفعال الشنيعة، والطعنِ فيه عليه الصلاة والسلام وغير ذلك. ولعله للمبالغة في خباثةِ باطنهم لأنَّ ما فيه مبدأٌ لِمَا يكون في الظاهر من القبائح لم يقل: ما يكنُّون، كما قيل: «ما يعلنون».

وقرأ ابن محيصن: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف[1].

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ أي: وهو تعالى المستأثرُ بالألوهية المختصُّ بها، وقوله سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقريرٌ لذلك، كقولك: الكعبةُ القبلةُ لا قبلةَ إلَّا هي.

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: له تعالى ذلك دون غيره سبحانه؛ لأنه جلَّ جلالُه المعطي لجميع النعم بالذات، وما سواه وسائط، والمراد بالحمد هنا ما وقع في مقابلة النعم بقرينةِ ذِكْرِها بعده بقوله تعالى: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ) إلخ.

وزعم بعضهم أنَّ الحمد هنا أعمُّ من الشكر، واعتبر الحصر بالنسبة إلى مجموع حمدي الدارين، زاعماً أنَّ الحمد في الدنيا وإن شاركه فيه غيرُه تعالى لكنَّ الحمد في الآخرة لا يكون إلَّا له تعالى.

وفيه أنَّ الحمد مطلقاً مختصٌّ به تعالى؛ لأنَّ الفضائل والأوصاف الجميلة كلَّها بخَلْقِه تعالى، فيرجعُ الحمدُ عليها في الآخرة له تعالى؛ لأنه جلَّ وعلا مُبْديها ومُبْدِعُها، ولو نظر إلى الظاهر لم يكن حمدُ الآخرة مختصًّا به سبحانه أيضاً، فإنَّ نبينا ﷺ يحمده الأولون والآخرون عند الشفاعة الكبرى.

وفسَّر غيرُ واحدٍ حمدَه تعالى في الآخرة بقول المؤمنين: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾

---

(١) البحر ٧/ ١٣٠.

[فاطر: ٣٤] وقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وقالوا: التحميدُ هناك على وجهِ اللَّذةِ لا الكلفة، وفي حديثٍ رواه مسلم وأبو داود عن جابر في وصف أهل الجنة: «يُلْهَمون التسبيحَ والتهليلَ كما يُلْهَمونَ النَّفس»(١).

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: القضاءُ النافذ في كلِّ شيءٍ من غير مشاركةٍ فيه لغيره تعالى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: له الحكمُ بين عباده تعالى، فيحكُم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل، ولأهل معصيته بالشقاء والويل.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ بالبعث.

﴿قُلْ﴾ تقريراً لِمَا ذكر ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، وقرأ الكسائي: «أَرَيْتُم» بحذف الهمزة(٢) ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً، وهو عند البعض من السرد، وهو المتابعةُ والاطِّرادُ، والميم مزيدةٌ لدلالة الاشتقاق عليه، فوزنه فَعْمَل، ونظيرُه دُلَامِص(٣) من الدِّلَاص، يقال: درعٌ دِلَاصٌ، أي: ملساء لينة. واختار بعضُ النحاة أنَّ الميم أصليةٌ، فوزنُه فَعْلَلَ؛ لأنَّ الميم لا تنقاسُ زيادتُها في الوسط. ونَصْبُه إمَّا على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل»، أو على أنه حالٌ من «الليل».

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إما متعلِّقٌ بـ «سرمداً» أو بـ «جعل»، وجوَّز أبو البقاء أيضاً تعلُّقه بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «سرمداً»(٤). وجَعْلُه تعالى كذلك بإسكان الشمس تحت الأرض مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقولُه سبحانه: ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «إله»، وقولُه تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ صفةٌ أخرى له، عليها يدورُ أمر التبكيت والإلزام كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] وقولِه سبحانه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ونظائرِهما، خلا أنه قُصِدَ بيانُ انتفاءِ الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يؤت بـ «هل» التي هي لطلب التصديق المناسبِ بحسب الظاهر

(١) صحيح مسلم (٢٨٣٥)، وسنن أبي داود (٤٧٤١).
(٢) التيسير ص١٠٢، والنشر ١/ ٣٩٨.
(٣) بضم الدال وكسر الميم: البرَّاق. حاشية الشهاب ٧/ ٨٤، والقاموس (دلص).
(٤) الإملاء ٤/ ١٥٦.

للمقام، وأُتيَ بـ «مَن» التي هي لطلب التعيين المقتضي لأصل الوجود، لإيراد التبكيت والإلزام على زَعْمِهم[١]، فإنه أبلغ كما لا يخفى.

وجملة «مَن إلهٌ» إلخ قال أبو حيان: في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيتم»، وجَعَل «الليل» مما تَنَازَعَ فيه «أرأيتم» و«جعل»، وقال: إنه أُعْمِلَ فيه الثاني، فيكون المفعولُ الأول للأول محذوفاً، وحيث جُعِلَت تلك الجملةُ في موضع مفعوله الثاني لا بدَّ من تقدير العائد فيها، أي: مَن إله غيرُه يأتيكم بضياءٍ بَدَلَه[٢]، مثلاً، وجواب «إنْ» محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، وكذا يقال في الآية بعدُ.

وعن ابن كثير أنه قرأ: «بضئاء» بهمزتين[٣].

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ سماعَ فَهْمٍ وقبولٍ الدلائلَ الباهرةَ والنصوصَ المتظاهرةَ، لتعرفوا أنَّ غير الله تعالى لا يقدر على ذلك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس في وسط السماء مثلاً ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً من متاعب الأشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ الشواهدَ المنصوبةَ الدالَّة على القدرة الكاملة؛ لتقفوا على أنَّ غير الله تعالى لا قدرةَ له على ذلك.

ويُعلم ممَّا ذكرنا أنَّ كلًّا من جملتي «أفلا تسمعون» و«أفلا تبصرون» تذييلٌ للتوبيخ الذي يعطيه قوله تعالى: (أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ) إلخ قبله، وأفاد الزمخشريُّ[٤] أنَّ ظاهر التقابُل يقتضي ذِكْرَ النهار والتصرُّفَ فيه، إلا أنَّ العدول عن ذلك إلى الضياء ـ وهو ضوءُ الشمس ـ للدلالة على أنه يتضمَّنُ منافعَ كثيرةً منها التصرُّفُ، فلو أتى بالنهار لاستَدْعَى القَصْرَ على تلك المنفعة من ضرورةِ التقابل، ولأنَّ المنافع للضياء لا للنهار، على أنَّ النهار أيضاً من منافعه.

ثم استشعر أنْ يقال: فلم لم يُؤْتَ بالظلام بدل الليل في الآية الثانية لتتمَّ

(١) أي: على زعمهم أن آلهتهم موجودة. حاشية الشهاب ٧/ ٨٤.
(٢) البحر ٧/ ١٣٠، وفيه: بعده، بدل: بدله، ومثله في الدر المصون ٨/ ٦٩١.
(٣) وهي رواية قنبل عنه. التيسير ص١٢٠-١٢١.
(٤) في الكشاف ٣/ ١٨٩.

المقابلة من هذا الوجه؟ وأجاب بأنه ليس بتلك المنزلة، فلا هو مقصودٌ في ذاته كالضياء، ولا أنَّ المنافع من روادفه، مع ما فيهما من الاستئناس والاشمئزاز، بل لو تأمَّل حقَّ التأمُّل وجدَّ حَكَمَ بأنَّ الليل من منافع الضياء أيضاً، والظلام من ضرورات كون الشمس المضيئة تحت الأرض وإلقاء ظلِّ الليل[1].

ثم أفاد أنَّ التفصلة وهو التذييلُ المذكور فيها إرشادٌ إلى هذه النكتة؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ التوبيخ بعدم التأمُّل في الضياء أكثر، من حيث إنَّ مُدْرَكَ السمع أكثر[2]، والمرادُ ما يدركه العقل بواسطة السمع، فلا يَرِدُ أنَّ مُدْرَكه الأصواتُ وحدها ومُدْرَك البصر أكثرُ من ذلك، وذلك أنَّ ما لا يُدْرَكُ بحسٍّ أصلاً يُدْرَكُ بواسطة السمع إذا عبَّر عنه المعبِّر بعبارةٍ مُفهِمة، وأما ما يدرَكُ بالبصر فمن مشاهدة المبصَرات وهي قليلة، وأمَّا المطالعةُ من الكتب فإنها أضيقُ مجالاً من السمع وفَرْعِه، كذا في «الكشف».

والعلَّامةُ الطيبيُّ قرَّر عبارة «الكشاف» بما قرَّر ثم قال: الأبعدُ من التكلُّف أن يُجعل «أفلا تسمعون» تذييلاً للتوبيخ المستفاد من «أرأيتم» إلخ قبله، وكذا «أفلا تبصرون» على ما في «المعالم»: أفلا تسمعون سماعَ فَهْمٍ وقبول، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ[3]؛ ليجتمع لهم الصَّممُ والعَمَى من الإعراض عن سماع البراهين والإغماض عن رؤية الشواهد. ولمَّا كانت استدامةُ الليل أشقَّ من استدامة النهار لأنَّ النوم الذي هو أجلُّ الغرض فيه شبيهُ الموتِ[4]، والابتغاء من فضل الله تعالى الذي هو بعضُ فوائدِ النهار شبيهٌ بالحياة، قيل في الأول: «أفلا تسمعون»، أي: سماع فَهْمٍ، وفي الثاني: «أفلا تبصرون» أي: ما أنتم عليه من الخطأ؛ ليطابق كلٌّ من التذييلين الكلامَ السابق من التشديد والتوبيخ. وذَكَر في حاصل المعنى ما ذكرناه أولاً[5]، ثم قال: وفيه أنَّ دلالةَ النصِّ أولى وأقدمُ من العقل[6].

---

(١) لم نقف على هذا الكلام في الكشاف، وينظر حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) بنحوه في الكشاف ٣/ ١٨٩.
(٣) تفسير البغوي المسمَّى معالم التنزيل ٣/ ٤٥٣، والكلام من حاشية الطيبي على الكشاف.
(٤) في حاشية الطيبي على الكشاف: بالموت.
(٥) ينظر ما سلف في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.
(٦) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وصاحب «الكشف» قرَّر العبارة بما سمعتَ، وذكر أنَّ ذلك لا ينافي ما في «المعالم» بل يؤكِّده ويبيِّن فائدةَ التوبيخين.

ونقل الطيبيُّ عن الراغب في «غرة التنزيل» أنه قال: إنَّ نَسْخَ الليل بالنيِّر الأعظم أبلغُ في المنافع وأَضْمَنُ للمصالح من نَسْخِ النهار بالليل، ألا ترى أنَّ الجنة نهارُها دائمٌ لا ليلَ معه؛ لاستغناء أهلها عن الاستراحة؟ فتقديمُ ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذي هو أجدى من تفاريق العصا، ومنافعُ ضوء شمسِه أكثرُ من أن تحصى، أحقُّ وأولى، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: أفلا تسمعون سماعَ مَن يتدبَّر المسموعَ ليستدرك منه قَصْدَ القائل، ويحيطَ بأكثرِ ما جعل الله تعالى في النهار من المنافع، فإنَّ عقيب السماع استدراكُ المراد بالمسموع إذا كان هناك تدبُّرٌ وتفكُّرٌ فيه، ومعنى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أفلا أتستدركون[1] من ذلك ما يجب استدراكه. انتهى.

وفي «الكشف» أنه مؤيِّدٌ لما ذكره صاحب «الكشاف»، وربما يقال: ذكر سبحانه أولاً فرضية جَعْلِ الليل سرمداً، وثانياً فرضيةَ جَعْلِ النهار كذلك؛ لأنَّ الليل كما قالوا مقدَّمٌ على النهار شرعاً وعرفاً، وأيضاً ذلك أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ففي المَثَلِ: الليل أَخْفَى للويل. وكذا بقوله سبحانه: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ ففي الأثر: كان الخلق في ظلمةٍ، فرشَّ الله تعالى عليهم من نوره[2]. ولعله لاعتبارِ الأوَّلية والآخرية ذُيِّلَت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ بناءً على أنَّ المعنى: أفلا تسمعون ممن سلف من آبائكم أو مما سلف منَّا أنَّ آلهتكم لا تقدرُ على مثل ذلك، والثانيةُ بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بناءً على أنَّ المعنى: أفلا تبصرون أنتم عجزها عن مثل ذلك، وجيء بالضياء غير موصوفٍ في الآية الأولى وبالليل موصوفاً في الثانية لِمَا أفاده الزمخشريُّ.

(١) في الأصل و(م): أتستدركون، بدل: أفلا تستدركون، والمثبت من حاشية الطيبي على الكشاف.

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٤٤)، والترمذي (٢٦٤٢) وحسَّنه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «إن الله عزَّ وجلَّ خَلَق خَلْقَه في ظلمة فألقى عليهم من نوره...» الحديث، و«فرشَّ» رواية فيه كما في تحفة الأحوذي ٧/ ٤٠١.

وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ دون قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إنَّ المفروض لو تحقَّق بقيَ معه السمعُ دون الإبصار، إذ ظلمةُ الليل لا تحجبُ السمع وتحجبُ البصر. وفي وجه تذييل الثانية بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ دون ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: إنَّ تحقُّق المفروض وعدمَه سِيَّان في أمر السمع دون الإبصار؛ إذ لضياء النهار مدخلٌ في الإبصار وليس له مدخلٌ في السمع أصلاً. وهو كما ترى.

واعلم أنَّ ها هنا إشكالاً، وهو أنَّ جَعْلَ الليل سرمداً إلى يوم القيامة إنْ تحقَّق لم يتصور الإتيانُ بضياء أصلاً، وكذا جَعْلُ النهار سرمداً إلى يوم القيامة إن تحقَّق لم يتصوَّر الإتيان بليلٍ كذلك، أمَّا مِن غيره تعالى فظاهرٌ؛ لأنه معدنُ العجز عن كلِّ شيء، وأمَّا منه عزَّ وجل فلاستلزامه اجتماعَ الليل والنهار إذ[1] لو لم يجتمعا لم يتحقَّق الليل مستمرًّا إلى يوم القيامة، وكذا جَعْلُ النهار كذلك، وهو خلافُ المفروض، واجتماعُهما محالٌ، والمحالُ لا صلاحيةَ له لتعلُّق القدرة فلا يُراد.

وأجيب بأن المراد: إنْ أراد سبحانه ذلك فَمَنْ إلهٌ غيرُه تعالى يأتيكم بخلافِ مراده سبحانه بأنْ يقطعَ الاستمرارَ فيأتي بنهارٍ بعد ليلٍ وليل بعد نهارٍ.

واعترض بأنه يُفهم من الآية حينئذٍ أنه جلَّ وعلا هو الذي إن أراد ذلك يأتيهم بخلافِ مراده تعالى فيقطع الاستمرار، وهو مُشْكِلٌ أيضاً؛ لأن إتيانه تعالى بخلافِ مراده جلَّ وعلا مستلزمٌ لتخلُّف المراد عن الإرادة، وهو محالٌ، فإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئاً على وجه إرادةٍ لا تعليقَ فيها لا يمكنُ أن يريده على خلافِ ذلك الوجه.

وأجيب بأنه يجوزُ أن يكون المراد: إنْ أراد الله تعالى ذلك غيرَ معلِّقٍ له على إرادته ـ عزَّ شأنه ـ خلافَه، لا يأتيكم بخلافِه غيرُه عزَّ وجل، ولم يصرِّح بالقيد لدلالة العقل الصريح على أنَّ الإرادة غيرَ[2] المعلَّقة لا يمكن الإتيانُ بخلاف موجبها أصلاً. ومن الناس مَن ذهب إلى أنه سبحانه لا يَبتُّ إرادته، فجميع ما يريده جلَّ شأنُه معلَّقٌ.

---

(١) في (م): إذا.

(٢) في الأصل: الغير.

وقيل: الأَوْلى أن يقال: ليس المراد سوى أنَّ آلهتهم لا يقدرون على الإتيان بنهارٍ بعد ليلٍ وليلٍ بعد نهارٍ إذا أراد الله تعالى شأنُه استمرارَ أحدِهما، وإنما القادرُ على الإتيانِ بذلك هو الله سبحانه وحده من غير نظرٍ إلى كون ذلك الإتيان مقيَّداً بتلك الإرادة، فتدبَّر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: بسبب رحمته جلَّ شأنُه ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالسعي بأنواع المكاسب، ففي الآية ما يقال له: اللفُّ والنشر، ويسمَّى أيضاً: التفسير، كقول ابن حَيُّوس:

ومُقَرْطِقٍ يَغْنَى النديمُ بوجهه عن كأسه الملأى وعن إبريقه
فِعْلُ المدام ولونُها ومذاقُها في مُقْلَتيه ووَجْنَتَيْه ورِيْقه(١)

وضميرُ «فَضْلِه» لله تعالى، وجوَّز أبو حيان كونَه للنهار على الإسناد المجازيِّ(٢)، وهو خلافُ الظاهر.

وفيها إشارةٌ إلى مدح السعي في طلب الرزق، وقد ورد: «الكاسبُ حبيبُ الله»(٣)، وهو لا ينافي التوكُّل، وأنَّ ما يحصلُ للعبد بواسطته فضلٌ من الله عزَّ وجل، وليس ممَّا يجبُ عليه سبحانه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: ولكي تشكروا نعمتَه تعالى فَعَلَ ما فَعَلَ، أو: لتعرفوا نعمتَه تعالى وتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوبٌ بـ: اذكُرْ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ تقريعٌ إثر تقريع، للإشعار بأنه لا شيءَ أَجْلَبُ لغضب الله تعالى من الإشراك، كما لا شيء أَدْخَلُ في مرضاته من توحيده عزَّ وجل.

---

(١) البحر ٧/ ١٣٠، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٧٥. وابن حيوس هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيُّوس الغنوي الدمشقي، مصطفى الدولة، شاعر الشام، صاحب الديوان، توفي سنة (٤٧٣هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٣.
(٢) البحر ٧/ ١٣٠.
(٣) لم نقف عليه.

أو أنَّ الأول لبيان فسادِ رأيهم كما يشير إليه قوله تعالى هناك: (حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)، وهذا لبيانِ أنَّ إشراكهم لم يكن عن سندٍ، بل عن محضِ هوًى كما يشير إليه قوله تعالى بعدُ: (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

أو الأول إحضارٌ للشركاء بعدم الصلوح؛ لقوله سبحانه بعده: (ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ)، وهذا تحسيرٌ بأنهم لم يكونوا في شيء من اتِّخاذهم، ألا ترى قوله تعالى: (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطفٌ على «يناديهم»، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق، أو حالٌ من فاعله بإضمار «قد» أو بدونه، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النَّزْعِ وتهويلِه، أي: أَخْرَجْنا بسرعة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه، وهو نبيُّ تلك الأمة كما روي عن مجاهد وقتادة، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وهذا في موقفٍ من مواقف يوم القيامة، فلا يضرُّ كونُ الشهيد في موقفٍ آخر غيرَ الأنبياء عليهم السلام، وهم أمةُ محمدٍ ﷺ، أو الملائكةُ عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩] فإنه دالٌّ في الظاهر على مغايرة الشهداء للأنبياء عليهم السلام.

وقيل: يجوز اتحادُ الموقف، والدلالةُ على المغايرة غيرُ مسلَّمةٍ، ولو سلِّمت فشهادةُ الأنبياء عليهم السلام لا تنافي شهادةَ غيرهم معهم. وقولُه تعالى: (مِن كُلِّ أُمَّةٍ) وإفرادُ «شهيدٍ» ظاهرٌ فيما تقدم، ومن هنا قال في «البحر»: قيل: أي: عدولاً وخياراً، والشهيدُ عليه اسمُ جنسٍ[1].

﴿فَقُلْنَا﴾ لكلٍّ من تلك الأمم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تَدينون به ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركُه سبحانه فيها أحدٌ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: وغاب عنهم غيبةَ الشيء الضائع، فـ «ضلَّ» مستعارٌ لمعنى غاب استعارةً تبعية. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ في الدنيا من الباطل.

(١) البحر ٧/ ١٣١.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ﴾ اسمٌ أعجميٌّ مُنِعَ الصَّرفَ للعَلَميةِ والعُجْمةِ ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل كما هو الظاهر، وحكى ابن عطيةَ الإجماعَ عليه[١].

واختلف في جهة قرابته من موسى عليه السلام، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وابنِ جُرَيجٍ وقتادةَ وإبراهيمَ أنه ابنُ عمِّ موسى عليه السلام، فموسى بن عمران بن قاهث - بقاف وهاء مفتوحة وثاء مثلثة - بن لاوى - بالقصر - بن يعقوب عليه السلام، وهو ابن يَصْهُر - بياءٍ تحتية مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وهاء مضمومة - بن قاهث. . إلخ. وفي «مجمع البيان» عن عطاء عن ابن عباس: أنه ابنُ خالة موسى عليه السلام، وروي ذلك عن أبي عبد الله رضي الله عنه[٢].

وحكي عن محمد بن إسحاق أنه عمُّ موسى عليه السلام[٣]، وهو ظاهرٌ على قولِ مَن قال: إنَّ موسى عليه السلام بن عمران بن يصهر بن قاهث، وهو ابنُ يصهر بن قاهث.

وكان يسمَّى المنوّر لحسن صورته، وكان أحفظَ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم، لكنه نافَقَ كما نافق السامريُّ، وقال: إذا كانت النبوَّةُ لموسى والمذبحُ والقربان لهارون، فما لي؟

وروي أنه لمَّا جاوز بهم موسى عليه السلام البحرَ وصارت الرسالةُ والحبورة لهارون يقرِّبُ القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربانُ إلى موسى عليه السلام فجعله لأخيه هارون، وجد قارون في نفسه فحسدهما، فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على شيءٍ، إلى متى أصبر؟ قال موسى عليه السلام: هذا صنعُ الله تعالى. قال: والله تعالى لا أصدِّقُكَ حتى تأتيَ بآيةٍ. فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلُّ واحدٍ بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتزُّ ولها ورقٌ أخضرُ وكانت من شجر اللوز، فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.
(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٢.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ فطلب الفضلَ عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو تكبَّر عليهم، وعُدَّ من تكبُّره أنه زاد في ثيابه شبراً، أو ظلمهم وطلب ما ليس حقَّه؛ قيل: وذلك حين ملَّكه فرعونُ على بني إسرائيل. وقيل: حسدهم وطلب زوالَ نعمهم، وذلك ما ذكر منه في حقِّ موسى وهارون عليهما السلام.

والفاء فصيحةٌ، أي: ضلَّ فبغَى، وجوِّز أن تكون على ظاهرها؛ لأنَّ القرابة كثيراً ما تدعو إلى البغي.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أي: الأموال المدَّخرةِ، فهو مجازٌ بجَعْلِ المدَّخَرِ كالمدفون إن كان الكنزُ مخصوصاً به، وحكى في «البحر» أنه سمِّيَتْ أموالُه كنوزاً لأنها لم تؤدَّ منها الزكاةُ، وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى، وهو من أسباب عدواته إياه[1].

وقيل: الكنوزُ هنا الأموالُ المدفونة، وكان كما روي عن عطاء قد أظفره الله تعالى بكنزٍ عظيم من كنوز يوسف عليه السلام.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتِحَ صناديقِه، فهو على تقديرِ مضافٍ، أو الإضافة لأدنى ملابسةٍ. وهو جمعُ مِفْتَح بالكسر، وهو ما يُفْتَح به.

وقال السديُّ: أي: خزائنه. وفي معناه قولُ الضحاك، أي: ظروفَه وأَوْعِيتَه. وروي نحوُ ذلك عن ابن عباس والحسن، وقياسُ واحدِهِ على هذا: المَفْتَح بالفتح لأنه اسمُ مكان.

ويؤيِّد ما تقدَّم قراءةُ الأعمش: «مفاتيحه» بياءٍ، جمع مفتاح[2].

و«ما» موصولةٌ ثاني مفعولي آتى، و«مفاتحه» اسم «إنَّ»، وقوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ خبرها، والجملة صلةُ «ما» والعائد الضمير المجرور، ومنع الكوفيون جوازَ كونِ الجملة المصدَّرة بـ «إنَّ» صلةً للموصول، قال النحاس[3]: سمعتُ عليّ بن سليمان ـ يعني الأخفش الصغير ـ يقول: ما أقبح ما يقوله الكوفيون

(١) البحر ٧/ ١٣١.
(٢) البحر ٧/ ١٣٢.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢، ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٣١.

في الصلات، أنه لا يجوز أن تكون صلةُ الذي «إنَّ» وما عملت فيه، وفي القرآن «ما إنَّ مفاتحه». انتهى.

ولا يخفى أنَّ المانع من ذلك إن كان عَدَمَ السماع فالردُّ عليهم لا يتم إلا بشاهدٍ لا يَحتمِلُ غير ذلك، و«ما» في الآية تحتملُ أن تكون نكرةً موصوفةً. وإنْ كان المانع كونَ «إنَّ» تقع في ابتداء الكلام فلا ترتبطُ الجملةُ المصدَّرةُ بها بما قبلها فالردُّ بالآية المذكورة عليهم تامٌّ؛ لأنَّ المانع المذكور كما يمنع كونَ الجملة صلةً يمنع كونها صفةً، فتدبر.

و«تنوء» من ناء به الحمل: إذا أثقلَه حتى أماله، فالباءُ للتعدية كما في: ذهبتُ به. و«العصبةُ» الجماعةُ الكثيرة من غير تعيينٍ لعددٍ خاصٍّ على ما ذكره الراغب[1]. ومن أهل اللغة مَن عيَّن لها مقداراً، واختلفوا فيه:

فقيل: من عشرةٍ إلى خمسةَ عَشَرَ، وهو مرويٌّ هنا عن مجاهد.

وقيل: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين، وروي ذلك عن الكلبي.

وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

وقيل: من عشرة إلى أربعين، وروي هذا عن قتادة.

وقيل: أربعون، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: سبعون، وروي ذلك عن أبي صالح مولى أمِّ هانئ.

وقال الخفاجيُّ: قد يقال: إنَّ أصل معناها الجماعةُ مطلقاً كما هو مقتضى الاشتقاق، ثم إنَّ العرف خصَّها بعددٍ، أو اختُلِفَ فيه، أو اختلف بحسب موارده[2].

وقال أبو زيد: «تنوء» من نؤتُ بالحمل: إذا نهضت به؛ قال الشاعر:

تنوءُ بأُخراها فلأياً قيامُها ... وتمشي الهُوَيْنا عن قريبٍ فتُبهَرُ[3]

---

(١) في مفرداته (عصب)، وكلامه فيه: العصبة جماعة متعصبة متعاضدة. ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٨٦.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٨٦.

(٣) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٢٢٤. قال شارحه: فلأياً، أي: بعد بطءٍ شديد. وتبهر: تعيا.

وفي الآية على هذا قلبٌ عند أبي عبيدة ومَن تبعه، والأصل: تنوء العصبة بها، أي: تنهض[١].

وقيل: يجوز أن لا يكون هناك قلبٌ لأنَّ المفاتح تنهضُ ملابِسةً للعصبة إذا نهضت العصبةُ بها.

والأَوْلَى ما قدَّمناه أوَّلاً، وهو منقولٌ عن الخليل وسيبويه والفرَّاء، واختاره النحاس[٢]، ورويَ معناه عن ابن عباس وأبي صالح والسدي.

وقرأ بديل بن ميسرة: «لينوء» بالياء التحتية[٣]، وخرَّج ذلك أبو حيان على تقديرِ مضافٍ مذكَّرٍ يرجعُ إليه الضمير، أي: ما إنَّ حملَ مفاتحه أو مقدارها أو نحو ذلك[٤].

وقال ابن جنِّي: ذهب بالتذكير إلى ذلك القَدْرِ والمَبْلَغ، فلاحَظَ معنى الواحد فحمل عليه، ونحوه قول الراجز:

مثل الفراخ نَتَقَتْ حواصلُه

أي: حواصلُ ذلك، أو حواصلُ ما ذكرنا[٥].

وقال الزمخشريُّ: وَجْهُه أن يفسر المفاتحَ بالخزائن، ويعطيها حكمَ ما أضيفت إليه للملابسة والاتِّصال، كقولك: ذهبتْ أهلُ اليمامة[٦]. انتهى.

وإنما فسَّر المفاتحَ بالخزائن دون ما يُفتح به ليتمَّ الاتصالُ، فإنَّ اتِّصال الخزائن بالمخزون فوق اتصالِ المفاتيح به، بل لا اتِّصال للثاني، وحينئذٍ

(١) مجاز القرآن ٢/ ١١٠.
(٢) في معاني القرآن ٥/ ١٩٩، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠، والكلام من البحر ٧/ ١٣٢.
(٣) المحتسب ٢/ ١٥٣، والبحر ٧/ ١٣٢.
(٤) البحر ٧/ ١٣٢.
(٥) المحتسب ٢/ ١٥٣-١٥٤، والرجز سلف ١٤/ ١٨٤، ووقع في الأصل و(م) والمحتسب: نتفت، وقد سلف الكلام فيه.
(٦) الكشاف ٣/ ١٩٠.

يكتسي التذكيرَ من المضاف إليه كما اكْتَسى التأنيثَ من عكسه كالمثال الذي ذكره، وما تقدَّم عن غيره أولى؛ قال في «الكشف»: لأنَّ تفسير المفاتح بالخزائن ضعيفٌ جدًّا؛ لفوات المبالغة، وقيل: إنَّ المفاتح بذلك المعنى غيرُ معروفٍ.

وقد سمعتَ أنه تفسيرٌ مأثورٌ، فإذا صحَّ ذلك فلا يُلتفت إلى ما ذكر من هذا وكلام «الكشف».

وذكر أبو عمرو الداني[1] أنَّ بديل بن ميسرة قرأ: «ما إنَّ مفتاحه» على الإفراد، فلا تحتاجُ قراءته «لينوء» بالياء إلى تأويل.

وقد بُولِغَ في كثرة مفاتيحه؛ فروي عن خيثمةَ: أنها كانت وِقْر ستِّين بغلاً أغرَّ محجَّلاً، ما يزيد منها مفتاحٌ على أصبع، لكلِّ مفتاح كنز. وفي رواية أخرى عنه: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلودٍ، كلُّ مفتاح على خزانة على حِدَة، فإذا ركب حُملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغرَّ محجَّلاً.

وفي «البحر»: ذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذبٌ أو يقاربُ الكذبَ، فلم أكتبه[2].

ومما لا مبالغة فيه ما روي عن ابن عباس من أنَّ المفاتح الخزائن، وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء، وكانت أربع مئة ألفٍ، يحملُ كلُّ رجلٍ عشرةَ آلافٍ. وعليه فأمثالُ قارون في الناس أكثر من خزائنه، ولعل الآية تشير إلى أنَّ[3] ما أوتيه فوق ذلك، ولا أظنُّ الأمرَ كما روي عن خيثمة.

وأبْعَدَ أبو مسلم في تفسير الآية فقال: المراد من المفاتح العلم والإحاطة كما في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] والمراد: وآتيناه من الكنوز ما إنَّ حِفْظَها والاطِّلاعَ عليها ليَثْقُلُ على العصبة، أي: هذه الكنوز لكثرتها واختلافِ أصنافها تُتعِبُ حَفَظَتها القائمين على حفظها.

---

(١) كما في البحر ٧/ ١٣٢، وعنه نقل المصنف.

(٢) البحر ٧/ ١٣٢.

(٣) قوله: أن، ساقط من (م).

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ قال الزمخشريُّ: هو متعلِّقٌ بـ «تنوء»[١]. وضعِّف بأنَّ إثقال المفاتحِ العصبةَ ليس مقيَّداً بوقتِ قولِ قومه. وقال ابن عطية: بـ «بغى»[٢]. وضعِّف بنحو ذلك.

وقال أبو البقاء: بـ «آتينا»، ويجوز أن يكون ظرفاً لمحذوفٍ دلَّ عليه الكلام، أي: بغى عليهم إذ قال[٣]، وفي كلٍّ منهما ما سبق.

وقال الحوفي: منصوبٌ بـ : اذكر محذوفاً. وجوِّز كونُه متعلِّقاً بما بعده من قوله تعالى: (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ) والجملةُ مقرِّرةٌ لبغيه.

ورجِّح تعلُّقه بمحذوفٍ، والتقدير: أَظْهَر التفاخُرَ والفرح بما أوتي إذ قال له قومه:

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تَبْطَر، والفرحُ بالدنيا لذاتها مذمومٌ؛ لأنه نتيجةُ حبِّها والرضا بها والذهولِ عن ذهابها، فإنَّ العلم بأنَّ ما فيها من اللذة مفارقةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ حتماً، كما قال أبو الطيب:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ ... تيقَّن عنه صاحبُه انتقالا[٤]

وقال ابن شمس الخلافة:

وإذا نَظَرْتَ فإنَّ بؤساً زائلاً ... للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائلِ[٥]

ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] والعربُ تمدحُ بتَرْكِ الفرح عند إقبال الخير؛ قال الشاعر:

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرَّني ... ولا جازعٍ من صرفه المتقلِّبِ[٦]

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.
(٣) الإملاء ٤/ ١٥٧.
(٤) ديوان المتنبي ٣/ ٣٤١، وسلف ٢/ ٥٧.
(٥) وفيات الأعيان ١/ ٣٦٢، وابن شمس الخلافة هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلي، الملقب مجد الملك، الشاعر المشهور، توفي سنة (٦٢٢هـ).
(٦) البيت لهدبة بن خشرم كما في الكامل ٣/ ١٤٥٥، ومجاز القرآن ٢/ ١١١، ودون نسبة في =

وقال آخر:

إنْ تـلاقِ مُـنْـفِـسـاً لا تَـلْـقَـنـا فُـرُحَ الـخـيـر ولا نَـكْـبـو لـضـرّ[1]

وعلَّل سبحانه النهي ها هنا بكون الفرح مانعاً من محبته عزَّ وجل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ فهو دليلٌ إنيٌّ على كون الفرح بالدنيا مذموماً شرعاً، وإنما قلنا: إنَّ الفرح بها لذاتها مذمومٌ؛ لأنَّ الفرح بها لكونها وسيلةً إلى أمرٍ من أمور الآخرة غيرُ مذمومٍ.

ومحبة الله تعالى عند كثيرٍ صفةُ فِعْلٍ، أي: إنه تعالى لا يكرمُ الفَرِحينَ بزخارف الدنيا، ولا يُنْعِمُ جلَّ شأنُه عليهم ولا يقرِّبُهم عزَّ وجلَّ، والمراد أنه تعالى يبغضهم ويُهينهم ويُبْعِدُهم عن حضرته سبحانه.

وقال بعضهم: إنَّ في نفي محبته تعالى إياهم تنبيهاً على أنَّ عدم محبته تعالى كافٍ في الزَّجْرِ عما نَهى عنه، فما بالُك بالبغض والعقاب؟ وهو حسن.

وحكى عيسى بن سليمان الحجازي أنه قرئ: «الفارحين»[2].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الكنوز والغِنَى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: ثوابَها، أي: ثوابَ الله تعالى فيها بصَرْفِ ذلك إلى ما يكون وسيلةً إليه. و«في» إمَّا ظرفيةٌ على معنى: ابتغ متقلِّباً ومتصرِّفاً فيه، أو سببية على معنى: ابتغِ بصَرْفِ ما آتاك الله تعالى ذلك. وقرئ: «اتَّبع»[3].

﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: ولا تترك تَرْكَ المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حظَّك منها، وهو كما أخرج الفريابيُّ وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنْ تعمل فيها لآخرتك[4]. وروي ذلك عن مجاهد.

= البحر ٧/ ١٣٢. ووقع في الأصل و(م): إذ الدهر، والمثبت من المصادر.

(١) البحر ٧/ ١٣٣، والبيت لطرفة، وهو في ديوانه ص٥٤، وصدره فيه برواية:

إن نـصـادِفْ مـنـفـسـاً لا تُـلْـفِـنـا

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٤١، والبحر ٧/ ١٣٣، وعنه نقل المصنف، وعزاها ابن الجوزي لأبي رجاء وأبي حيوة وعاصم الجحدري وابن أبي عبلة.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٣.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٠، وعزاه للفريابي السيوطي في الدر ٥/ ١٣٧.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: هو أن تأخذ من الدنيا ما أحلَّ الله تعالى لك[١].

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» عن منصور قال: ليس هو عَرَضٌ من عَرَضِ الدنيا، ولكن «نصيبك» عمرك، أنْ تقدِّمَ فيه لآخرتك[٢].

وأخرج ابن المنذر وجماعةٌ عن الحسن أنه قال في الآية: قدِّم الفضل وأمسك ما يبلِّغك[٣].

وقال مالك: هو الأكلُ والشرب بلا سرفٍ.

وقيل: أرادوا بنصيبه من الدنيا الكفنَ كما قال الشاعر:

نصيبُك مما تَجْمعُ الدهرَ كلَّه   رداءان تُلْوَى فيهما وحنوطُ[٤]

وفي نهيهم إياه عن نسيان ذلك حضٌّ عظيمٌ له على التزوُّد من ماله للآخرة، فإنَّ مَن يكون نصيبُه من دنياه وجميعِ ما يملكه الكفنَ لا ينبغي له تَرْكُ التزوُّد من ماله، وتقديمِ ما ينفعه في آخرته.

﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله عزَّ وجلَّ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: مثلَ إحسانه تعالى إليك فيما أَنعمَ به عليك، والتشبيهُ في مطلق الإحسان، أو: لأَجْلِ إحسانه سبحانه إليك، على أنَّ الكاف للتعليل.

وقيل: المعنى: وأَحْسِنْ بالشكر والطاعة كما أَحْسنَ الله تعالى عليك بالإنعام، والكافُ عليه أيضاً تحتمل التشبيهَ والتعليل.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهيٌ عن الاستمرار على ما هو عليه من الظلم

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٣٧.

(٢) الزهد ص٢١٠، وأخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٠ من طريق منصور عن مجاهد. ومنصور هو ابن المعتمر.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٣٧، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١١.

(٤) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٢١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩، والبحر ٧/ ١٣٣، ورواية الديوان:

نصيبك مما صرت تجمع دائباً   ثوبان من قبطيةٍ وحنوطُ

والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الكلامُ فيه كالكلام في قوله سبحانه: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ).

وهذه الموعظةُ بأسرها كانت من مؤمني قومه كما هو ظاهرُ الآية. وقيل: إنها كانت من موسى عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ مجيباً لمن نَصَحَه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ كأنه يريد به[1] الردَّ على قولهم: «كما أحسن الله إليك» لإنبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاقٍ من قِبَله، وحاصلُه دعوى استحقاقِهِ لِمَا أوتيه لِمَا هو عليه من العلم.

وقوله: «على علم» عند أكثر المُعْرِبين في موضع الحال من مرفوعِ «أوتيتُه» قيِّد به العاملُ إشارةً إلى علَّة الإيتاء ووجهِ استحقاقه له، أي: إنما أوتيتُه كائناً على علم. وجوِّز كون «على» تعليليةً والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أوتيتُ» على أنه ظرفٌ لغوٌ، كأنه قيل: أوتيتُه لأجْلِ علم. و«عندي» في موضع الصفة لـ «عِلْم»، والمراد: لعلم مختصٍّ بي دونكم. وجوِّز كونُه متعلِّقاً بـ «أوتيت»، ومعناه: في ظنِّي ورأيي، كما في قولك: حُكْمُ كذا الحِلُّ عند أبي حنيفة عليه الرحمة.

وفي «الكشاف» ما هو ظاهرٌ في أنَّ «عندي» إذا كان بمعنى: في ظنِّي ورأيي، كان خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو في ظنِّي ورأيي هكذا[2]، والجملةُ عليه مستأنفةٌ تقرِّر أنَّ ما ذكره رأيٌ مستقرٌّ هو عليه، قال في «الكشف»: وهذا هو الوجه.

والمراد بهذا العلم قيل: علمُ التوراة، فإنه كان أعلمَ بني إسرائيل بها. وقال أبو سليمان الداراني: علمُ التجارة ووجوهِ المكاسب. وقال ابن المسيب: علم الكيمياء، وكان موسى عليه السلام يعلم ذلك، فأفاد يوشع بنَ نون ثلثه، وكالب بن يوقنا ثلثه، وقارونُ ثلثه، فخدعهما قارونُ حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً.

---

(١) قوله: به، ليس في (م).
(٢) الكشاف ٣/ ١٩١.

وقيل: علَّم الله تعالى موسى عليه السلام علم الكيمياء، فعلَّمه موسى أختَه، فعلَّمتْه أختُه قارونَ.

وروي عن ابن عباس تخصيصُه بعلم صنعةِ الذهب.

وقيل: علم استخراج الكنوز والدفائن.

وعن ابن زيد: أنَّ المراد بالعلم علمُ الله تعالى، وأنَّ المعنى: أوتيتُه على علمٍ من الله تعالى وتخصيصٍ من لدنه سبحانه قَصَدَني به، و«عندي» عليه بمعنى: في ظني ورأيي.

وقيل: العلم بمعنى المعلوم، مِثْله في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإلى ذلك يشير ما روي عن مقاتل أنه قال: أي: على خير عَلِمَه الله تعالى عندي.

وتفسيرُه بعلم الكيمياء شائعٌ فيما بين أهلها، وفي «مجمع البيان» حكايتُه عن الكلبي أيضاً[(١)]، وأنكره الزجَّاج وقال: إنه لا يصحُّ؛ لأن علم الكيمياء باطلٌ لا حقيقةَ له[(٢)]. وتعقبه الطيبيُّ بأنه لعله كان من قبيل المعجز[(٣)]. وتعقِّب بأنه ليس بسديدٍ، وإلا لَمَا تمكَّن قارون منه.

وإنكارُ الكيمياء ـ وهو لفظٌ يونانيٌّ معناه الحيلة، أو عبرانيٌّ وأصله كيم يه، بمعنى أنه من الله تعالى، أو فارسيٌّ وأصله كي ميا بمعنى: متى يجيء، على سبيل الاستبعاد، غلب على تحصيل النقدين بطريق مخصوص ـ مما لم يختصَّ بالزجَّاج، بل أنكرها جماعةٌ أجلَّة وقالوا بعدم إمكانها، وذهب آخرون إلى خلاف ذلك، وإذا أردت نبذةً من الكلام في ذلك فاستمع لِمَا يُتْلَى عليك:

ذكر بعض المحقِّقين أنَّ مَبْنَى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة، وهي: الذهب والفضة والرصاص والقصدير[(٤)] والنحاس

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٦.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وفيه: المعجزة، بدل: المعجز.

(٤) في (م): والقزدير.

والحديد والخارصين[1]، هل هي مختلفاتٌ بالفصول فيكون كلٌّ منها نوعاً غيرَ النوع الآخر، أو هي مختلفاتٌ بالخواصِّ والكيفيات فقط، فتكون كلُّها أصنافاً لنوعٍ واحدٍ، فالذي ذهب إليه المعلِّم أبو نصر الفارابيُّ وتابعه عليه حكماءُ الأندلس أنها نوعٌ واحدٌ، وأنَّ اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللِّين والصلابة والألوان نحو الصفرة والبياض والسواد، وهي كلُّها أصنافٌ لذلك النوع الواحد، وبَنَى على ذلك إمكانَ انقلابِ بعضها إلى بعضٍ بتبدُّل الأعراض بفعل الطبيعة أو بالصنعة.

وقد حَكَى أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه[2] في بعض تصانيفه عن المعلِّم المذكور أنه قال: قد بيَّن أرسطو في كتبه في المعادن أنَّ صناعة الكيمياء داخلةٌ تحت الإمكان، إلا أنها من الممكن الذي يعسُر وجوده بالفعل، اللهمَّ إلا أنْ يتَّفقَ قرائنُ يَسْهلُ بها الوجود، وذلك أنه فحص عنها أوَّلاً على طريق الجدل فأثبتها بقياسٍ وأبطلها بقياسٍ، على عادته فيما يَكْثُر عنادُه من الأوضاع، ثم أثبتها أخيراً بقياسٍ ألَّفه من مقدِّمتين بيَّنهما في أول الكتاب:

الأُولى: أنَّ الفلزَّات واحدةٌ بالنوع، والاختلافُ الذي بينها ليس في ماهياتها وإنما هو في أعراضها، فبعضُه في أعراضها الذاتيةِ، وبعضُه في أعراضها العَرَضية.

والثانية: أنَّ كلَّ شيئين تحت نوعٍ واحدٍ اختلفا بعَرَضٍ فإنه يمكنُ انتقالُ كلٍّ منهما إلى الآخر، فإن كان العَرَضُ ذاتيًّا عَسُرَ الانتقال، وإن كان مفارقاً سَهُلَ الانتقال، والعُسْرُ في هذه الصناعة إنما هو لاختلافِ أكثرِ هذه الجواهر في أعراضها الذاتية، ويُشْبِه أن يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جدّاً. اهـ.

والذي ذهب إليه الشيخ أبو علي بنُ سينا وتابعه عليه حكماءُ المشرق أنها مختلفةٌ بالفصول، وأنها أنواعٌ متباينةٌ، وبنى على ذلك إنكارَ هذه الصناعة واستحالةَ

---

(١) في الأصل و(م): والخارصيني، والمثبت من مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٨٥، والكلام منه. والخارصين: التوتياء. معجم متن اللغة (توت) و(خرص).

(٢) هو محمد بن باجه التُّجِيبيُّ الأندلسي السَّرَقُسْطي، الفيلسوف الشاعر، توفي سنة (٥٣٣هـ)، وقيل غير ذلك. وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٩.

وجودها؛ لأنَّ الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالقُ الأشياء ومقدِّرُها، وهو الله عزَّ وجلَّ، وهذا ما حكاه ابن خلدون عنه[١].

وقال الإمام في «المباحث المشرقية»[٢] في الفصل الثامن من القسم الرابع منها: الشيخ سلَّم إمكانَ أن يُصْبغَ النحاسُ بصبغ الفضة والفضةُ بصبغ الذهب، وأن يزال عن الرصاص أكثرُ ما فيه من النقص، فأما أن يكون الفصل المنوَّعُ يُسلَبُ أو يُكسى، قال: فلم يظهر لي إمكانُه بعد؛ إذ هذه الأمور المحسوسةُ تُشْبِهُ أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجساد أنواعاً، بل هي أعراضٌ ولوازمُ، وفصولُها مجهولةٌ، وإذا كان الشيءُ مجهولاً كيف يمكن قَصْدُ إيجاده وإفنائه. اهـ.

وغلَّطه الطُّغْرائيُّ[٣] وهو من أكابر أهل هذه الصناعة، وله فيها عدةُ كتبٍ، وردَّ عليه بأنَّ التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه، وإنما هو في إعداد المادة لقبوله[٤] خاصةً، والفصلُ يأتي من بعد الإعداد من لَدُنْ خالقه وبارئه جلَّ شأنُه وعَظُمَتْ قدرتُه، كما يُفيضُ سبحانه النورَ على الأجسام بالصقل، ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوُّره ومعرفته، وإذا كنَّا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات، مثل العقرب من التراب والتبن، والحيةِ من الشعر، وغير ذلك، فما المانعُ من العثور على مثل ذلك في المعادن، وهذا كلُّه بالصناعة، وهي إنما موضوعُها المادةُ، فيُعِدُّها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول لا أكثر، فنحن نحاول مثلَ ذلك في الذهب والفضة، فنتَّخذُ مادةً نُضيفُها[٥] للتدبير بعد أن يكون فيها استعدادٌ أولُ لقبول

---

(١) في مقدمته ٢/ ٦٨٥.

(٢) المباحث المشرقية في العلم الإلهي والطبيعي، للإمام فخر الدين الرازي. كشف الظنون ٢/ ١٥٧٧.

(٣) مؤيد الدين، أبو إسماعيل، الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني، من كتبه: تراكيب الأنوار في الكيمياء، وحقائق الاستشهادات في الكيمياء، ومفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة، مات مقتولاً سنة (٥١٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٥٤، وكشف الظنون ١/ ٣٩٤ و٦٧٢، و٢/ ١٧٥٥. ونقل المصنف كلامه عن مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٨٥.

(٤) في الأصل و(م): لقبول، والمثبت من مقدمة ابن خلدون.

(٥) في الأصل: نضعها، وفي (م): نصفها، والمثبت من مقدمة ابن خلدون.

صورة الذهب والفضة، ثم نحاولها بالعلاج إلى أن يتمَّ فيها الاستعدادُ لقبول فصلهما[١]. اهـ بمعناه، وهو ردٌّ صحيحٌ فيما يظهر.

وقال الإمام بعد ذِكْرِه ما سمعتَ من كلام الشيخ: هو ليس بقويٍّ؛ لأنَّا نشاهد من الترياق آثاراً وأفعالاً مخصوصةً، فإمَّا أن لا نُثْبِتَ له صورةً ترياقيةً، بل نقول: إنَّ الأفعال الترياقيةَ حاصلةٌ من ذلك المزاج لا من صورةٍ أخرى، جاز أيضاً أن يقال: صفرةُ الذهب ورزانتُه حاصلتان مما فيه من المزاج لا من صورةٍ مقوِّمةٍ، فحينئذٍ لا يكون للذهب فصلٌ منوِّعٌ إلَّا مجرَّد الصفرة والرزانة، ولكنهما معلومتان، فأمكن أن تُقصد إزالتُهما واتخاذُهما، فبطل ما قاله الشيخ.

وأمَّا إذا أثبتنا صورةً مقوِّمةً له فنقول: لا شكَّ بأنَّا لا نَعْقِلُ مِن تلك الصورة إلا أنها حقيقةٌ تقتضي الأفعال المخصوصة الصادرةَ عن الترياق، فإمَّا أن يكون هذا القَدْرُ من العلم يكفي في قَصْدِ الإيجاد والإبطال أو لا يكفي، فإنْ لم يَكْفِ وَجَبَ أن لا يمكننا اتخاذُ الترياق، وإن كفى فهو في مسألتنا أيضاً حاصل؛ لأنَّا لا نعلم من الصورة الذهبية أنها ماهيةٌ تقتضي الذَّوْبَ والصفرةَ والرزانة.

ويجاب أيضاً بأنَّا وإن كنَّا لا نعلمُ الصورةَ المقوِّمةَ على التفصيل، إلا أنَّا نعلم الأعراض التي تلائمها والتي لا تلائمها، ونعلم أنَّ العَرَضَ الغيرَ الملائم إذا اشتدَّ في المادة بطلت الصورةُ، مثل الصورة المائية فإنَّا نعلم أنَّ الحرارة لا تلائمُها وإنْ كنَّا لا نعلم ماهيتها على التفصيل، فلذلك يمكننا أن نبطل الصورة المائيةَ وأن نكسبها، أمَّا الإبطال فبتسخين الماء، وأمَّا الاكتسابُ فبتبريد الهواء، فكذلك في مسألتنا.

واحتجَّ قومٌ من الفلاسفة على امتناعِها بأمورٍ:

أوَّلُها: أنَّ الطبيعة إنما تعمل هذه الأجساد من عناصرَ مجهولةٍ عندنا، ولتلك العناصر مقاديرُ معيَّنةٌ مجهولةٌ عندنا أيضاً، ولكيفياتِ تلك العناصر مراتبُ معلومةٌ وهي مجهولةٌ عندنا، ولتمام الفعل والانفعال زمانٌ معيَّنٌ هو[٢] مجهولٌ عندنا، ومع الجهل بكلِّ ذلك كيف يمكننا عملُ هذه الأجساد؟

---

(١) في المقدمة: فصلها.

(٢) قوله: هو، ليس في (م).

وثانيها: أنَّ الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ، أو يكون المصبوغُ أصبر، أو يتساويان، فإن كان الصابغُ أصبر وجب أن يَفْنى المصبوغ ويبقى الصابغ بعد فنائه، وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يبقى بعد فناء الصابغ، وإن تَساوَيَا في الصبر على النار فهما من نوعٍ واحدٍ لاستوائهما في الصبر على النار، فليس أحدُهما بالصابغية والآخرُ بالمصبوغية أَوْلَى من العكس.

وثالثها: أنه لو كان ما بالصناعة مِثْلاً لِمَا بالطبيعة(١)، لكن التالي باطلٌ؛ أما أولاً: فلأنَّا لم نجد له شبيهاً. وأما ثانياً: فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة ما يحصل بالطبيعة لجاز أن يحصل بالطبيعة ما يحصل بالصناعة، حتى يوجد سيفٌ أو سريرٌ بالطبيعة، ولمَّا ثبت امتناعُ التالي ثبت امتناعُ المقدَّم.

ورابعها: أنَّ لهذه الأجساد أماكنَ طبيعيةً هي معادنُها، وهي لها بمنزلة الأرحام للحيوان، فَمَن جوَّز تولُّدَها في غير تلك المعادن كان كَمن جوَّز تولُّد الحيوانات في غير الأرحام.

وأجاب الإمام عن الأول: بأنه منقوضٌ بصناعة الطب.

وعن الثاني: بأنه لا يلزمُ من استواء الصابغ والمصبوغِ في الصبر على النار استواؤهما في الماهية؛ لأنَّ المختلفَيْنِ قد يشتركان في بعض الصفات.

وعن الثالث: بأنه قد يوجد بالصناعة مِثْلُ ما يوجد بالطبيعة، مثل النار الحاصلة بالقدح، والنوشادر قد يتخذ من الشعير، وكذلك كثيرٌ من الزَّاجَاتِ، ثُم بتقديرِ أنْ لا نجد له مثالاً لا يلزم الجزمُ بنفيه، ولا يلزمُ من إمكان حصول الأمر الطبيعيِّ بالصناعة إمكانُ عَكْسِه، بل الأمرُ فيه موقوفٌ على الدليل.

وعن الرابع: بأنَّ مَن أراد أن يَقْلِبَ النحاس فضةً فهو لا يكون كالمُحْدِث للشيء بل كالمعالِج للمريض، فإنَّ النحاس من جوهر الفضة إلَّا أنَّ فيه عللاً وأمراضاً، وكما يمكنُ المعالجة لا في موضع التكوُّن فكذلك في هذا الموضع.

على أنَّ حاصل الدليل أنَّ الذي يتكوَّنُ في الجبال لا يمكن تكوُّنه بالصناعة،

(١) في (م): لو كان بالصناعة مثلاً لما كان بالطبيعة.

وفيه وقع النزاع، وابن خلدون[١] بعد أن ذكر كلام ابن سينا وردَّ الطغرائيِّ عليه قال: لنا في الرَّد على أهل هذه الصناعة مأخذٌ آخَرُ يتبيَّنُ منه استحالةُ وجودها، وبطلانُ زَعْمِهم أجمعين. وذلك أنَّ حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدَّةِ بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبيرَ الطبيعة للجسم في المعدن حتى أَحَالَتْه ذهباً أو فضةً، ويضاعفون القوى الفاعلةَ والمُنفعِلةَ ليتمَّ في زمانٍ أقصر؛ لأنه تبيَّن في موضعه أنَّ مضاعفة قوة الفاعل تنقصُ من زمن فعله، وتبيَّن أنَّ الذهب إنما يتم كونُه في معدنه بعد ألفٍ وثمانين من السنين، دورة الشمس الكبرى، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمانُ كونه أقصرَ من ذلك ضرورةً على ما قلناه، أو يتحرَّون بعلاجهم ذلك حصولَ صورةٍ مزاجية لتلك المادة تصيِّرها كالخميرة للخبز تَقْلِبُ العجين إلى ذاتها، وتعملُ فيه ما حصل لها من الانتفاش والهشاشة لِيَحْسُنَ هضمُه في المعدة، ويستحيلَ سريعاً إلى الغذاء، فتفعل تلك الصورة الأفاعيل المطلوبة، وذلك هو الإكسير.

واعلم أنَّ كلَّ متكوِّنٍ من المولّدات العنصرية لابدَّ فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبةٍ متفاوتةٍ، إذ لو كانت متكافئةً في النسبة لمَا حصل امتزاجُها، فلا بدَّ من الجزء الغالب على الكلِّ، ولا بدَّ في كلِّ ممتزجٍ من المولّدات من حرارة غريزيةٍ هي الفاعلةُ لكونه[٢]، الحافظةُ لصورته.

ثم كلُّ متكوِّنٍ في زمانٍ لابدَّ من اختلافِ أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طورٍ إلى طورٍ حتى ينتهيَ إلى غايته، وانظر شأنَ[٣] الإنسان في تطوُّره نطفةً ثم علقةً ثم وثم إلى نهايته، ونسبُ الأجزاء في كلِّ طورٍ تختلفُ[٤] مقاديرُها وكيفياتها، وإلا لكان الطورُ الأول بعينه هو الآخِرَ، وكذا الحرارةُ المقدَّرةُ الغريزية في كلِّ طورٍ مخالفةٌ لِمَا في الطور الآخر، فانظر إلى الذهب ما يكون في معدنه من الأطوار منذ ألفِ سنةٍ وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال.

---

(١) في المقدمة ٢/ ٦٨٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) في الأصل و(م): لكونها، والمثبت من المقدمة.
(٣) في الأصل: لشأن، والمثبت من (م) والمقدمة.
(٤) في الأصل و(م): مختلف، والمثبت من المقدمة.

فيحتاجُ صاحب الكيمياء أن يُساوِقَ فعلَ الطبيعة في المعدن، ويُحاذِيَه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم، ومِن شَرْطِ الصناعة مطلقاً تصوُّرُ ما يُقْصَدُ إليه بها، فمن الأمثال السائرة في ذلك للحكماء: أولُ العمل آخِرُ الفكرة، وآخِرُ الفكرة أولُ العمل. فلا بدَّ من تصوُّر هذه الحالات للذهب في أحواله المتعدِّدةِ، ونِسَبِها المتفاوتة في كلِّ طورٍ [واختلاف الحارِّ الغريزي عند اختلافها، ومقدار الزمان في كلِّ طور] وما ينوبُ عنه من مقدار القوى المتضاعفة ويقومُ مقامه حتى يُحاذَى بذلك فعلُ الطبيعة في المعدن، أو يُعدَّ لبعض الموادِّ صورةٌ مزاجيةٌ تكون كصورة الخميرة للخبز، وتفعلُ في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها.

وهذه كلُّها إنما يحصرها العلم المحيط، وهو علمُه عزَّ وجلَّ، والعلومُ البشرية قاصرةٌ عن ذلك، وإنما حالُ مَن يدَّعي حصولَه على الذهب بهذه الصناعة بمثابةِ مَن يدَّعي صنعة تخليق الإنسان من المنيِّ، ونحن إذا سلَّمنا [له] الإحاطة بأجزائه ونِسَبِه وأطوارِه وكيفيةِ تخليقه في رَحِمِه، وعلم ذلك عِلْماً محصِّلاً لتفاصيله حتى لا يشذَّ من ذلك شيءٌ عن علمه، سلَّمنا له تخليقَ هذا الإنسان، وأنَّى له ذلك!

والحاصل أنَّ الفعل الصناعيَّ على ما يقتضيه كلامُهم مسبوقٌ بتصوُّراتِ أحوالِ الطبيعة المعدنية التي تقصد مساواتها(١) ومحاذاتها، وفعل المادة ذات القوى فيها على التفصيل، وتلك الأحوال لا نهايةَ لها، والعلمُ البشريُّ عاجزٌ عما دونها، فقَصْدُ تصيير النحاس ذهباً كقَصْدِ تخليق إنسانٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ.

وهذا أوثقُ ما عَلِمتُه من البراهين الدالَّة على الاستحالة، وليست الاستحالةُ فيه من جهة الفصول، ولا من جهة الطبيعة، وإنما هي من تعذُّر الإحاطة وقُصورِ البشر عنها، وما ذكره ابن سينا بمعزلٍ عن ذلك.

ولذلك وجهٌ آخرُ في الاستحالة من جهة غايته، وهو أنَّ حكمة الله تعالى في الحجرين وندرتِهما أنهما عُمْدَتا مكاسِبِ الناس ومتموّلاتهم، فلو حُصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى في ذلك، إذ يكثر وجودُهما حتى لا يحصل أحدٌ من اقتنائهما على شيء.

---

(١) في المقدمة: مساوقتها.

وآخَرُ أيضاً، وهو أنَّ الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكبُ الأبعدَ، فلو كان هذا الطريق الصناعيُّ الذي يزعمون صحته، وأنه أقربُ من طريق الطبيعة في معدنها وأقلُّ زماناً، صحيحاً لَمَا تركته الطبيعةُ إلى طريقها الذي سلكته في تكوين الذهب والفضة وتخليصهما[1].

وأما تشبيهُ الطغرائيِّ هذا التدبير بما عثر عليه من مفرداتٍ لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والحية وتخليقهما، فأمرٌ صحيحٌ في ذلك أدَّى إليه[2] العثور كما زعم، وأمَّا الكيمياء فلم ينقل عن أحدٍ من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها، وما زال منتحلوها يخبطون فيها خَبْطَ عشواءَ ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة، ولو صحَّ ذلك لأحدٍ منهم لحفِظَه عنه ولدُه أو تلميذُه وأصحابُه، وتُنوقِلَ في الأصدقاء وضمن تصديقُه صحةَ العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا.

وأما قولهم: إنَّ الإكسير بمثابة الخميرة، وأنه مركَّبٌ يُحيلُ ما حصل فيه ويقلبُه إلى ذاته[3]، فليس بشيءٍ؛ لأنَّ الخميرة إنما تقلبُ العجين وتعدُّه للهضم وهو فسادٌ، والفسادُ في المواد سهلٌ يقع بأيسرِ شيءٍ من الأفعال والطبائع، والمطلوبُ من الإكسير قلبُ المعدن إلى ما هو أشرفُ منه وأعلى، فهو تكوينٌ والتكوينُ أصعبُ من الفساد، فلا يقاس الإكسير على الخميرة.

ثم قال: وتحقيقُ الأمر في ذلك أنَّ الكيمياء إن صحَّ وجودها كما يزعم الحكماء المتكلِّمون فيها، فليس من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتم بأمرٍ صناعيٍّ، وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات، إنما هو من مَنْحَى كلامِهم في الأمور السحريةِ وسائرِ الخوارق، وقد ذكر مسلمة المجريطيُّ[4] في كتابه «الغاية» ما يُشْبِهُ

---

(١) في المقدمة: وتخلقهما.

(٢) في الأصل و(م): عليه، والمثبت من المقدمة.

(٣) في المقدمة: إلى ذلك.

(٤) مسلمة بن أحمد بن قاسم، أبو القاسم، ومجريط من قرى الأندلس، كان جامعاً لعلوم الحكمة من الإلهيات وطبائع الأحجار وخواص النبات، وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس، توفي سنة (٣٥٣هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٨.

ذلك، وكلامُه فيها في كتاب «رتبة الحكيم» من هذا المنحى، وكذا كلامُ جابرٍ في رسائله[١].

وبالجملة: إنَّ نَيْلَها إن كان صحيحاً فهو واقعٌ مما وراء الصنائع والطبائع، فهي إنما تكونُ بتأثيرات النفس وخوارق العادة كالمشي على الماء وتخليق الطير، فليست إلا معجزةً أو كرامةً أو سحراً، ولهذا كان كلامُ الحكماء فيها ألغازاً لا يظفر بتحقيقه إلا مَن خاض لجةً من علوم السحر، واطَّلع على تصرُّفات النفس في عالَم الطبيعة، وأمورُ خَرْقِ العادة غيرُ منحصرةٍ، ولا يقصد أحد إلى تحصيلها. اهـ.

وإلى إمكانها ذهب الإمام الرازي، فقال: الحقُّ إمكانُها؛ لأنَّ الأجساد السبعة مشتركةٌ في أنها أجسادٌ ذائبةٌ صابرةٌ على النار منطرقةٌ، وأنَّ الذهب لم يتميَّز عن غيره إلا بالصفرة والرزانة أو الصورةِ الذهبية المفيدةِ لهذين العَرَضَين إن ثبت ذلك، وما به الاختلافُ لا يكون لازماً لما به الاشتراكُ، فإذن يمكن أن تتَّصف جسميةُ النحاس بصفرةِ الذهب ورزانته، وذلك هو المطلوب.

والحقُّ أنَّ الكيمياء ممكنةٌ، وأنها من الصنائع الطبيعية، لكنَّ العلم بها من أقاصي العلوم الصعبة التي لا يطَّلع عليها إلَّا مَن أهَّله الله تعالى لها، واختصَّه سبحانه من عباده وأوليائه بها، وهو علمٌ تاهَتْ في طلبه العقول، وطاشت الأحلام، وأصلُه من الوحي الإلهيِّ وحَصَلَ لبعضٍ بالتصفية وكثرة النظر مع التجربة، ووصل إلى مَن ليس أهلاً للوحي ولم يتعاط ما تعاطاه البعض بالتعلُّم ممن منَّ الله تعالى به عليه.

وقال أرس، وهو من أجلَّة أهل هذا العلم: كان أوله وحياً من الله تعالى، ثم دَرَس وباد فاستخرجه مَن استخرجه من الكتب، وقد جرت سنَّةُ الله تعالى فيمَن ظفر به بكَتْمِه إلَّا على مَن شاء الله تعالى، وتواصت الحكماء على كتمه عن غير أهله، بل قيل: إنَّ الله تعالى أخذ على العقول في فطرتها المواثيقَ بكتمانه وصيانته والاحتراسِ من إذاعته وإضاعته، ولذا ترى الحكماء قد ألغزوه نهايَةَ الإلغاز، وأغمضوه غايةَ الإغماض، حتى عَدَّ كلامَهم مَن لم يعرف مَرَامَهم حديثَ خرافةٍ،

---

(١) يعني جابر بن حيان في رسائله السبعين. مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٨٣.

وحَكَم على قائله بالسَّفَهِ والسخافة. وبهذا الكَتْم حُفظت حكمة الله تعالى التي زعمها ابن خلدون في النقدين، وسقط استدلالُه الذي سمعتَه فيما مر.

وقد نصَّ جابر بن حيان وهو إمامٌ في هذه الصنعة ـ وإنكارُ أنه كان موجوداً حمقٌ[1] ـ في كتابه «سر الأسرار» على ما قلنا، حيث قال: كلُّ حكيم وضع رمزه وكتابه على معنًى مبهمٍ من وضع الحلِّ والإصعاد والغسل على أربع طبائع، وسماها الأجساد الثقال، ووصَف التدابير على لفظٍ ومعنًى مشتبهٍ، فهو عند الحكيم مفتوح، وعند الجهلة مغلق، وربما تعدَّوا إلى أخذ تلك الأجساد بعينها واختبروها ولم ينتفعوا بها، وشتموا الحكماء على كتمانهم هذا العمل، وإنما عمارةُ الدنيا بالدراهم والدنانير، وإن الناس الصُّنَّاعَ والمقاتلةَ لا يعملون إلا لرغبةٍ أو رهبةٍ، فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السرَّ حتى يعلمه كلُّ أحدٍ لم يتم أمر الدنيا وخربت، ولم يعمل أحدٌ لأحدٍ، فخرجوا[2] من ذلك وكتموه. اهـ.

ثم لا يخفى أنَّ ما ذكره ابن خلدون أولاً من أنَّ الاستحالة لعدم الإحاطة، إذا ثبت أنها كانت عن وحي، ليس بشيء، على أنَّ فيه ما فيه وإن لم يثبت ذلك.

ومثلُ ذلك ما ذكره من أنَّ الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد؛ لأنَّا نقول: ما يحصل من الطبائع أيضاً، فيكون لها طريقان: بعيدٌ اقتضت الحكمة أن تسلكه غالباً، وقريبٌ اقتضت الحكمة أيضاً أن تسلكه نادراً بواسطةِ مَن شاء الله تعالى من عباده.

وكونُ المنتحلين لم يزالوا يخبطون خبطَ عشواء، إنْ أراد بهم أئمةَ هذه

---

(١) يشير المصنف بهذا إلى ما قاله جماعة من أهل العلم وأكابر الورَّاقين، أن جابراً لا أصل له ولا حقيقة، ذكر ذلك ابن النديم في الفهرست ص٤٢٠ وردَّه بقوله: والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر، وقال في ترجمته: هو جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي، واختلف في أمره؛ فزعمت الشيعة أنه من كبارهم، وأحد الأبواب، وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الصناعة انتهت إليه في عصره، وأن أمره كان مكتوماً، وزعموا أنه كان يتنقل في البلدان لا يستقر به بلد... والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة: قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان. وتوفي سنة (٢٠٠هـ) كما في الأعلام ٢/ ١٠٣.

(٢) في الأصل: فحرجوا.

الصناعة: كهرمس وسقراط وأفلاطون وأغاريمون وفيثاغورس وهرقل وفرفوريوس ومارية وذوسيموس وأرس وذومقراط وسفيدوس وبليناس ومهراريس، وجابر بن حيان، والمجريطيِّ، وأبي[1] بكر بن وحشية[2]، ومحمد بن زكريا الرازي[3]، وغيرهم مما لا يحصون كثرةً، فهم لم يخبطوا، ودون إثبات خَبْطِهم خَرْطُ القتاد، وإلغازهم لنكتةٍ صرَّحوا بها لا يدلُّ على خبطهم.

وإن أراد بهم مَن يتعاطاها من المشاقِّين في عصره وفي هذه الأعصار؛ فما ذكره مسلَّمٌ في أكثرهم، وهو لا يطعن في إمكانها، وقد ذمَّ الطغرائيُّ هذا الصنفَ من الناس، فقال في كتابه «تراكيب الأنوار»: إنَّ المعلِّم الناصح موجودٌ في كلِّ صنعةٍ إلَّا في هذا الفنِّ، وكيف يُرْجَى النصحُ عند قومٍ يسمُّون فيما بينهم بالحسدة، وتحالَفوا فيما بينهم أن لا يوضحوا هذه السرائر أبداً، لا سيما في هذا الزمان الذي قد باد فيه هذا العلم جملةً، وصار المتعرِّضُ له والباحثُ عنه عند الناس مسخرةً، وقد عنيتُ برهةً من الزمان أبحث عن كلِّ مَن يُظَنُّ أنَّ عنده طرفاً من هذا العلم، فما وجدتُ أحداً شَمَّ له رائحةً، ولا عرف منه شطر كلمة، ووجدتُ منتحلي هذه الصنعة الشريفة بين خادعٍ يبيعُ دينَه ومروءتَه بعَرَضٍ من الدنيا قليل، ويُتلفُ أموال الناس بالتجارب الصادرة عن الجهل، وبين مخدوعٍ مأخوذٍ عن رشده بالأمل الخائب والطمع الكاذب، والتشاغُلِ بالباطل عن طلب المعاش الجميل، والتعويلِ على الأماني والأكاذيب، قصارى أحدهم أن ينظر في كتب جابرٍ وأضرابه، فيأخذَ بظواهر كلامهم، ويغترَّ بجلايا دعاويهم دون حقائقِ معانيهم، وهم وجميع مَن مضى من حكماء هذه الصنعة يحذِّرون الناس من الاغترار بظواهر كتبهم، وينادون على

(١) في الأصل و(م): وأبو، والمثبت هو الجادة.

(٢) أحمد بن علي بن المختار بن عبد الكريم الكسداني الكلداني الصوفي، من أهل قُسِّين، كان عالماً بالفلاحة والكيمياء والسحر والسموم وغير ذلك، وكان شعوبيًّا يفاخر بانتسابه إلى الأنباط، وإلى قدماء الآراميين، من كتبه: السحر والطلسمات، وطرد الشياطين ويعرف بالأسرار، والسحر الكبير، توفي سنة (٢٩٦هـ). الفهرست ص٣٧٢، ومعجم المؤلفين ١/ ٢١٢.

(٣) أبو بكر، الفيلسوف الطبيب، صاحب التصانيف، له كتاب الحاوي في الطب، والجامع، والأعصاب، أخذ عن البلخي الفيلسوف، توفي سنة (٣١١هـ). سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٥٤.

أنفسهم بأنهم يرمزون ويلغزون، ولا يلتفتُ إلى قولهم ولا يُصدِّقون.. إلى آخر ما قال. وقد تفاقم الأمرُ في زماننا إلى ما لا تتَّسع العبارة لشرحه.

وكونُ الكيمياء من تأثيرات النفوس وخوارقِ العادات، فلا تكون إلَّا معجزةً أو كرامةً أو سحراً، ليس بشيء، بل هي بأسبابٍ عاديةٍ، لكنها خفيةٌ على أكثر الناس لا دَخْلَ لتأثير النفوس فيها أصلاً. نعم قد يكون من النبيِّ أو الوليِّ ما يكون من الكيماويِّ من غيرِ معاطاةِ تلك الأسباب، فيكون ذلك كرامةً أو معجزة. وكونُ مَنْحَى كلامِ بعض الحكماء فيها منحَى كلامِهم في الأمور السحرية لا يدلُّ على أنها من أنواع السحر أو توابعه، فإنَّ ذلك من إلغازهم لأمرها، وقد تفنَّنوا في الإلغاز لها، وسلكوا في ذلك كلَّ مسلكٍ، فوضع بليناس[1] كتابه فيها على الأفلاك والكواكب، ومنهم مَن تكلَّم عليها بالأمثال، ومنهم مَن تكلَّم عليها بالحكايات التي هي أشبهُ شيء بالخرافات، إلى غير ذلك.

وبالجملة هي صنعةٌ قلَّ مَن يعرفها جدًّا، وأَعُدُّ الاشتغالَ بها والتصدِّي لمعرفتها من كتبها من غير حكيمٍ عارفٍ برموزها، كما يفعلُه جَهَلةُ المنتحلين لها اليوم، مَحْضَ جنونٍ. وكونُ أصلِها الوحيَ الإلهيَّ أو نحوَ ذلك هو الذي يَغْلِبُ على الظنِّ، وقد أورد الطغرائيُّ في كتبه كـ «جامع الأسرار» وغيرِه ما يدلُّ على ذلك، فذكر أنه روي عن هرمس أنه قال: إنَّ الله عز وجل أوحى إلى شيث بن آدم عليهما السلام أنِ ازْرَعِ الذهبَ في الأرض البيضاء النقية، واسْقِهِ ماءَ الحياة.

وقالت مارية: إنِّي لستُ أقول لكم من تلقاء نفسي، ولكنِّي أقول لكم ما أمر الله تعالى به نبيَّه موسى عليه السلام، وأعلمه أنَّ الحجر النسطريس هو الذي يمسك الصبغ.

وقال بنسبتها إلى موسى عليه السلام ذوسيموس وأرس، وذكر أرس أنَّ العمل بها كان طوعَ اليهود بمصر، وكان يوسف عليه السلام وهو أولُ مَن دخل مصر من بني إسرائيل يعرفُ ذلك، فأكرمه فرعون لحكمته التي آتاه الله تعالى إياها، وذكر أيضاً فصلاً مرموزاً فيها نسبه إلى سليمان عليه السلام.

(١) لعله بلينُس الأكبر من علماء الطبيعة الرومان، ولد سنة (٢٣) للميلاد، وتوفي سنة (٧٩). ينظر دائرة المعارف ٤/ ٥٩٠.

وقال الطرسوسي في كتابه: إنَّ الله تعالى لمَّا أهبط آدم عليه السلام من الجنة عوَّضه عِلْمَ كلِّ شيء، وكان علمُ الصنعة ممَّا علّمه، وانتقل من قومٍ إلى قومٍ كما انتقلت العلوم الأُخر إلى أيام هرمس الأول.

وقال أيضاً: حدَّثونا عن محمد بن جرير الطبريِّ بإسنادٍ له متَّصلٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «زُوِيَتْ لي الأرضُ فأُرِيتُ مشارِقَها ومغاربها، وأُعْطِيتُ الكبريتَ الأبيضَ والأحمر»[1].

ورَوَى جابر[2] عن جعفر الصادق ؓ في ذلك رواياتٍ كثيرةً، حتى إنه أسند إليه عدَّةً من كتبه[3]، ولا أحقِّق قوله ولا أكذِّبه، وأُجِلُّه لموضعه من العلم والعمل عن الافتراء على الأئمة.

ورَوَى عن أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه سئل فقيل له: ما تقولُ فيما خاض الناسُ فيه من علم الكيمياء؟ فأطرق مليًّا ثم رفع رأسه ثم قال: سألتموني عن أختِ النبوَّة وتوأمِ المروَّةِ، لقد كان وإنه لكائنٌ، وما من شجرةٍ ولا مَدَرةٍ ولا شيءٍ إلا وفيه أصلٌ وفرعٌ، أو أصلٌ، أو فرعٌ. قيل: يا أمير المؤمنين، أمَا تعلمه؟ قال: والله تعالى أنا أعلم به من العالِمينَ له؛ لأنهم يتكلَّمون بالعلم على ظاهره دون باطنه، وأنا أعلم العلم ظاهره وباطنه. قيل: فاذكر لنا منه شيئاً نأخذه منك. قال: والله تعالى لولا أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوء لقلت. قيل: فما كان تقول؟ قال: إني أعلم أنَّ في الزئبق الرَّجْراجِ والذهب الوهَّاج والحديدِ المُزَعْفَرِ وزنجار النحاس الأخضر لكنوزاً لا يؤتى على آخرها، يُلقحُ بعضُها ببعضٍ فتفتر عن ذهبٍ كامن. قيل: يا أمير المؤمنين، ما نعلم هذا. قال: هو ماءٌ جامدٌ،

---

(١) لم نقف عليه من طريق الطبري، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان مطولاً لكن بلفظ: الكنزين، بدل: الكبريت. .

(٢) هو جابر بن حيان، فقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٣٢٧، والصفدي في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٤ أن جابراً كان تلميذ جعفر الصادق، وأنه ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمس مئة رسالة في الكيمياء. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) قال الصفدي في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٤: وأنا أنزِّه الإمام جعفراً الصادق ؓ عن الكلام في الكيمياء، وإنما هذا الشيطان أراد الإغواء بكونه عزا ذلك إلى أن يقوله مثل جعفر الصادق لتتلقاه النفوس بالقبول.

وهواءٌ راكدٌ، ونارٌ حائلة، وأرضٌ سائلة. قالوا: ما نَفْقَهُ هذا. قال: لو حلَّ للمؤمنين من أهل الحكمة أن يكلِّموا الناس على غير هذا لعلمه الصبيانُ في المكاتب. اهـ كلامُ الطغرائيِّ باختصار.

وذكر في كتابه «مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة» عن ستِّين نبيًّا وحكيماً أنهم قالوا بحقِّيَّة هذا العلم، وفي القلب من صحة هذه الأخبار شيءٌ، والأغلبُ على الظنِّ أنه لو كان في الكيمياء خبرٌ مقبولٌ عند المحدِّثين لشاع، ولَما أنكرها مَن هو من أجلَّتهم كشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، فإنه كان ينكر ثبوتَها، وألَّف رسالةً في إنكارها، ولعل ردَّ الشيخ نجم الدِّين ابن أبي الذّرّ البغداديِّ، وتزييفَه ما قاله فيها ـ كما زعم الصفديُّ[1] ـ إنما كان فيما هو من باب الاستدلالات العقلية، فإنَّ الرجل في باب النقليات مما لا يجاريه نجم الدين المذكورُ وأمثالُه، وهو في باب العقليات وإن كان جليلاً أيضاً إلا أنه دونه في النقليات.

والمطلبُ دقيقٌ، حتى إنَّ بعض مَن تُعقَدُ عليه الخناصر اضْطَربَ في أمرها، فأنكرها تارةً وأقرَّ بها أخرى، فهذا شيخُ الحكماء ورئيسُهم أبو علي بن سينا سمعتَ ما نُقل عنه أولاً، وحُكي عنه الرجوعُ عنه، وعلى جودة ذهنه وعلوِّ كعبه في الحكمة بأقسامها لم يقف على حقيقة عملها، حتى قال الطغرائيُّ في «تراكيب الأنوار»: ما ينقضي عجبي من أبي علي بن سينا كيف استجاز وضع رسالة في هذا الفن فضح بها نفسه، وخالف الأصول التي عنده، وقصَّر فيها عن كثيرٍ من الحشوية الطَّغامِ المُظْلِمةِ الأذهان الكليلةِ الأفهام.

وقال في «جامع الأسرار»: إنَّ الشيخ أبا عليّ بن سينا لفَرْطِ شغفه بهذا العلم وحَدْسِه القويِّ بأنه حقٌّ صنَّف رسالةً فيه فأحسن فيما يتعلق بأصول الطبيعيات، ولخفاء طريق القوم واستعمائها دونه لم يذكر في التدابير المختصَّة بعلمنا لفظةً صحيحةً، ولا أشار إلى ذكر المزاج الحقِّ، والأوزانِ والتراكيب المكتومة، والنيران

---

(١) في الوافي بالوفيات ١٨/ ٥٢٧. ونجم الدين البغدادي هو عبد العزيز بن عبد القادر بن أبي الكرم ابن أبي الذر الربعي البغدادي، قال الصفدي: هو أحد من سمعت إليه وأجاز لي بخطه سنة ثمان وعشرين وسبع مئة، ثم ذكر رسالته في الرد على ابن تيمية، ثم قال: وله مصنفات منها: كتاب نتائج الشيب من مدحٍ وعيب.

وطبقاتها، والآلةِ التي لا يتمُّ العمل إلا بها، وهي أحد الشرائط العشرة، ولم يتجاوز ما عند الحشوية من تدابير الزوابق والكباريت والدفن في زبل الخيل والتشاغل بهذه القاذورات، ولولا آفةُ الإعجاب وحُسنِ ظنِّ الإنسان بعلمه وحِرْصِه على أن لا يشذَّ عنه شيءٌ من المعارف لكان من الواجب على مثله مع غزارة علمه وعلوِّ طبقته في الأبحاث الحقيقية أن يكتفي بما عنده، ولا يتعرَّضَ لِمَا لا يعلمه، وقد تأدَّى إلينا من تدابيره عن أصحابه الذين شاهدوها أنه لم يكن يعرف حقيقةَ علمنا، وقد رأينا بخطِّه من التعاليق الملتقطة من كلام جابر بن حيان وخالد بن يزيد ما يدلُّ أيضاً على ذلك. اهـ ملخَّصاً.

والكلام في هذا المطلب طويلٌ، وفيما ذكرنا كفايةٌ لمن أحبَّ الاطِّلاع على شيءٍ مما قيل في ذلك، والله تعالى الموفق. ثم إنَّ القول بأنَّ المراد بالعلم في الآية علمُ استخراج الكنوز والدفائن يستدعي ثبوتَ هذا العلم، وأهلُ علم الحرف وعلم الطلسمات يقولون به، ولهم في ذلك كلامٌ طويلٌ، والعقلُ يجوِّز ثبوته، والله تعالى أعلم بثبوته في نفس الأمر.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تقريرٌ لعلمه ذلك، وتنبيهٌ على خطئه في اغتراره، وعلمُه بذلك من التوراة، أو من موسى عليه السلام، أو من كتب التواريخ، أو من القُصَّاص. والقوةُ تحتمل القوةَ الحسِّيةَ والمعنوية، والجمعُ يحتمل جمعَ المال وجمعَ الرجال، والمعنى: ألم يقف على ما يفيده العلم ولم يعلم ما فعل الله تعالى بمن هو أشدُّ منه قوةً حسًّا أو معنًى، وأكثرُ مالاً أو جماعةً يحوطونه ويخدمونه، حتى لا يغترَّ بما اغترَّ به.

ويحتمل أن تكون الهمزةُ للإنكار داخلةً على مقدَّرٍ، وجملة «ولم يعلم» حاليةً مقرِّرةً للإنكار، ودالَّةً على انتفاء ما دخلت عليه، كما في قولك: أتدَّعي الفقهَ وأنت لا تعرفُ شروط الصلاة. والمراد ردُّ ادِّعائه العلمَ والتعظُّم به بنفي هذا العلم عنه، أي: أعَلِمَ ما ادَّعاه ولم يعلم هذا حتى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين.

وقيل: إنَّ «لم يعلم» عطفٌ على ذلك المقدَّر، ونفيُ العلم عنه لعدم جَرْيِه على موجبه.

﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ الظاهر أنَّ هذا في الآخرة، وأنَّ ضمير «ذنوبهم» للمجرمين، وفاعلُ السؤال إمَّا الله تعالى أو الملائكةُ عليهم السلام.

والمراد بالسؤال المنفيِّ هنا وكذا في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ـ على ما قيل ـ سؤالُ الاستعلام، ونفيُ ذلك بالنسبة إليه عزَّ وجل ظاهر، وبالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام لأنهم مطَّلعون على صحائفهم، أو عارفون إياهم بسيماهم كما قال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

والمراد بالسؤال المثبَتِ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] سؤالُ التوبيخ والتقريع، فلا تناقض بين الآيتين.

وجوِّز أن يكون السؤال في الموضعين بمعنًى، والنفيُ والإثباتُ باعتبار موضعين أو زمانين، والمواقفُ يوم القيامة كثيرةٌ واليومُ طويلٌ، فلا تناقضَ أيضاً.

والظاهر أن الجملة غيرُ داخلة في حيِّز العلم، ولعل وجه اتِّصالها بما قبلها أنه تعالى لمَّا هدَّد قارون بذكر إهلاك من قبله مِن أضرابه في الدنيا، أردف ذلك بما فيه تهديدُ كافَّة المجرمين بما هو أشنعُ وأشنع من عذاب الآخرة، فإنَّ عدم سؤال المذنب مع شدَّة الغضب عليه يؤذِنُ بالإيقاع به لا محالة. وجعل الزمخشريُّ الجملةَ تذييلاً لِمَا قبلها(١).

وقيل: إنَّ ذلك في الدنيا، والمراد أنه تعالى أهلك مَن أهلك من القرون عن عِلْمٍ منه سبحانه بذنوبهم، فلم يَحْتَجْ عزَّ وجلَّ إلى مساءلتهم عنها.

وقيل: إنَّ ضمير ذنوبهم لمن هو أشدُّ قوةً، وهو المُهْلَكُ من القرون، والإفراد والجمع باعتبار اللفظ والمعنى، والمعنى: ولا يُسأَلُ عن ذنوب أولئك المهلكين غيرُهم ممن أَجْرَمَ، ويعلم أنه لا يسأل عن ذنوبهم مَن لم يُجْرِمْ بالأَوْلى؛ لما بين الصنفين من العداوة، فمآلُ المعنى: لا يسأل عن ذنوب المهلَكين غيرُهم ممن أَجْرَمَ وممن لم يُجْرِمْ، بل كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة. وكلا القولين كما ترى.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩١.

وربما يَختلجُ في ذهنك عطفُ هذه الجملة على جملة الاستفهام، أو جَعْلُها حالاً من فاعلِ «أهلك» أو من مفعوله، لكنْ إذا تأمَّلْتَ أدنى تأمُّلٍ أخرجْتَه من ذهنك، وأَبَيْتَ حَمْلَ كلام الله تعالى الجليل على ذلك.

وقرأ أبو جعفر في رواية: «ولا تسألْ» بتاء الخطاب والجَزْمِ «المجرمين» بالنصب. وقرأ أبو العالية وابن سيرين: «ولا تَسْأَلْ» كذلك[١]، ولم نَدْرِ أنَصبا المجرمين كأبي جعفر، أم رفعاه كما هو في قراءة الجمهور؟ والظاهر الأول.

وجوَّز صاحب «اللوامح» الثاني، وذكر له وجهين:

الأول: أن يكون ضمير «ذنوبهم» للمهلَكين من القرون، وارتفاعُ المجرمين بإضمار المبتدأ، أي: هم المجرمون.

والثاني: أن يكون «المجرمون» بدلاً من ضمير «ذنوبهم» باعتبارِ أن أصله الرفعُ؛ لأن إضافةَ «ذنوب» إليه بمنزلةِ إضافةِ المصدر إلى اسم الفاعل[٢]. وأُورد على هذا أنَّ «ذنوب» جمعٌ، فإن كان جمعَ مصدرٍ ففي إعماله خلافٌ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على «قال» وما بينهما اعتراضٌ، وقولهُ تعالى: ﴿فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ إمَّا متعلِّقٌ بـ «خرج»، أو بمحذوفٍ هو حال من فاعله، أي: فخرج عليهم كائناً في زينته.

قال قتادة: ذُكر لنا أنه خرج هو وحشمُه على أربعة آلافِ دابةٍ عليهم ثيابٌ حمرٌ منها ألفُ بغلةٍ بيضاء، وعلى دوابِّهم قطائفُ الأُرْجُوان[٣].

وقال السدِّي: خرج في جَوَارٍ بيضٍ على سروجٍ من ذهبٍ على قُطُفِ أُرْجُوان، وهنَّ على بغالٍ بيضٍ عليهنَّ ثيابٌ حمرٌ وحليٌّ ذهبٍ.

---

(١) البحر ٧/ ١٣٤.

(٢) كذا وقع في الأصل و(م) والبحر/٧ ١٣٤، والكلام منه، والجادة في العبارة: إضافة المصدر إلى فاعله كما في الدر المصون ٨/ ٦٩٦.
وفي تجويز الرفع على هذه القراءة تعسُّف كثير كما ذكر السمين، وقال: ولا ينبغي أن يقرأ ابن سيرين وأبو العالية إلا «المجرمين» بالياء فقط، وإنما تُرك نقلها لظهوره.

(٣) بضم الهمزة والجيم: الحمرة والأحمر، معرَّب أرغوان. حاشية الشهاب ٧/ ٨٧.

وقيل: خرج على بغلةٍ شهباءَ عليها الأُرْجُوان، وعليها سرجٌ من ذهبٍ، ومعه أربعةُ آلافِ خادمٍ، عليهم وعلى خيولهم الديباجُ الأحمرُ، وعلى يمينه ثلاث مئة غلام، وعلى يساره ثلاث مئة جاريةٍ بيض عليهنَّ الحليُّ والديباج.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أنه خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات، وكان ذلك أولَ يومٍ في الأرض رؤيت المعصفراتُ فيه(١).

وقيل غيرُ ذلك من الكيفيات، وكان ذلك الخروج ـ على ما قيل ـ يومَ السبت.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ قيل: كانوا جماعةً من المؤمنين، وقالوا ذلك جَرْياً على سَنَنِ الجِبِلَّة البشرية من الرغبة في السعة واليسار. وعن قتادة: أنهم تمنَّوا ذلك ليتقرَّبوا به إلى الله تعالى، وينفقوه في سبيل الخير. ولعل إرادتَهم الحياةَ الدنيا ليتوصَّلوا بها للآخرة، لا لِذاتها؛ فإنَّ إرادتَها لذاتها ليست من شأن المؤمنين.

وقيل: كانوا كفاراً ومنافقين.

وتمنِّيهم مثل ما أوتي دونه نَفْسِه من باب الغَبْطِ، ولا ضرر فيه على المشهور، وقيل: ضررُه دون ضررِ الحسد، فقد قيل لرسول الله ﷺ: هل يضرُّ الغبط؟ فقال: «لا، إلَّا كما يضرُّ العضاهَ الخَبْطُ»(٢). وفي «الكشف»: الظاهرُ أنه نفيٌ للضرر على أبلغ وجهٍ، فإنَّ الشجر ربما ينتفع بالخبط فضلاً عن التضرُّر، وفيه أنه قد يُفْضي إلى الضَّرر إشارة إلى متعلق الغبط من دينيٍّ أو دنيويٍّ. وقائلُ ذلك إن كان الكفرةُ ففيه من ذمِّ الحسد ما فيه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٤.

(٢) الحديث بهذا اللفظ في الكشاف ٣/ ١٩٢، والنهاية (خبط) و(غبط)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٩٨، وإبراهيم الحربي في غريب الحديث ٢/ ٦٣٨ من حديث أم الدرداء ﵁ بلفظ: . . . «نعم، كما يضر الشجرَ الخَبْطُ». الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها. والعضاه: كل شجر عظيم له شوك، الواحدة: عِضَةٌ بالتاء، وأصلها عِضَهَةٌ. أراد عليه الصلاة والسلام أن ما يلحق الغابط من الضرر الراجع إلى نقصان الثواب دون الإحباط بقَدْر ما يلحق العِضاهَ من خبط ورقها، الذي هو دون قطعها واستئصالها، ولأنه يعود بعد الخبط. النهاية (خبط) و(عضه) و(غبط).

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ قال الضحاك: أي: درجةٍ عظيمة. وقيل: نصيبٍ كثيرٍ من الدنيا. والحظُّ: البَخْتُ والسَّعْدُ، ويقال: فلانٌ ذو حظٍّ وحَظيظٌ ومحظوظٌ. والجملةُ تعليلٌ لتمنِّيهم وتأكيدٌ له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي، ومنهم يوشع عليه السلام، وإنَّما لم يوصفوا بإرادة ثوابِ الآخرة تنبيهاً على أنَّ العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراض عن الأولى والإقبالَ على الأخرى حتماً، وأنَّ تمنِّيَ المتمنِّينَ ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغي.

وقيل: المراد بالعلم: معرفةُ الثواب والعقاب. وقيل: معرفة التوكُّل. وقيل: معرفةُ الأخبار. وما تقدَّم أولى.

﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهلاك بحسب الأصل، ثم شاع استعمالُه في الزجر عمَّا لا يُرْتَضَى، والمرادُ به هنا الزَّجرُ عن التمنِّي، وهو منصوبٌ على المصدرية لفعلٍ من معناه. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنَّونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليقُ بكم أن تتمنَّوه غير مكتفين بثوابه عزَّ وجلَّ، هذا على القول بأنَّ المتمنين كانوا مؤمنين. أو: فآمِنوا لتفوزوا بثوابه تعالى الذي هو خيرٌ من ذلك. وتقديرُ المفضَّل عليه: ما تتمنَّوه؛ لاقتضاءِ المقام إياه، ويجوز أن يقدَّر عامًّا ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أوَّليًّا، أي: خيرٌ من الدنيا وما فيها.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه المقالةَ، أو الكلمةَ التي تكلَّم بها العلماء، والمراد بها(١) المعنى اللغويُّ، أو الثوابَ، والتأنيثُ باعتبار أنه بمعنى المثوبةِ أو الجنةِ المفهومةِ من الثواب. وقيل: الإيمانَ والعملَ الصالح، والتأنيثُ والإفرادُ باعتبار أنهما بمعنى السيرة أو الطريقة. ومعنى تلقِّيها: إمَّا فهمُها، أو التوفيقُ للعمل بها.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ على الطاعات وعن المعاصي والشهوات، ولعل المراد بالصابرين على القول الأخير في مرجع الضمير: المتَّصفون بالصبر في علم الله تعالى، فتدبر.

---

(١) أي: بالكلمة. حاشية الشهاب ٧/ ٨٨.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ روى ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ: أنَّ قارون كان ابنَ عمِّ موسى عليه السلام، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً، فلم يَزَلْ في ذلك حتى بَغَى على موسى عليه السلام وحَسَدَه، فقال [له] موسى: إنَّ الله تعالى أمرني أنْ آخُذَ الزكاة فأبى فقال: إنَّ موسى ـ عليه السلام ـ يريد أن يأكل أموالكم، جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياءَ فاحتملتموها، فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل، فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أُرْسِلَ إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها. فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حُكْمَك على أن تشهدي على موسى أنه فَجَرَ بِكِ. قالت: نعم. فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربُّك. قال: نعم. فجمعهم، فقالوا له: بِمَ أمرك ربُّك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً، وأن تَصِلوا الرحم، وكذا وكذا، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أُحْصِنَ أن يُرْجَمَ. قالوا: وإنْ كنتَ أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زنيتَ. قال: أنا! فأرسَلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تَشهدين على موسى عليه السلام؟ فقال لها موسى عليه السلام: أَنْشُدُك بالله تعالى إلَّا ما صدقت. فقالت: أمَا إذ أَنْشَدْتني بالله تعالى فإنهم دعوني وجعلوا لي جَعْلاً على أن أقذفك بنفسي، وأنا أشهد أنك بريءٌ، وأنك رسول الله. فخرَّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي، فأوحى الله تعالى إليه: ما يُبْكيك؟ قد سلَّطناك على الأرض فمرها تُطِعْكَ. فرفع رأسه فقال: خذيهم، فأخذَتْهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى رُكبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم، فغيَّبتهم، فأوحى الله تعالى: يا موسى سألك عبادي وتضرَّعوا إليك فلم تُجبهم، وعزَّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم[(١)].

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١/٥٣١-٥٣٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/٣٠١٨، والمستدرك ٢/٤٠٨-٤٠٩، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/١٣٦، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

وفي بعض الروايات: أنه جعل للبغيِّ ألف دينار، وقيل: طستاً من ذهب مملوءةً ذهباً.

وفي بعضٍ: أنه عليه السلام قال في سجوده: يا ربِّ، إن كنتُ رسولَك فاغضب لي. فأوحى الله تعالى إليه: مُرِ الأرضَ بما شئت فإنها مطيعةٌ لك. فقال: يا بني إسرائيل إنَّ الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم، ومَن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غيرَ رجلين. ثم قال: يا أرضُ خُذيهم. فأخذتهم إلى الرُّكب، ثم إلى الأوساط، ثم إلى الأعناق، وهم يتضرَّعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه الرحمَ، وهو عليه السلام لا يلتفتُ إلى قولهم لشدَّة غضبه، ويقول: خذيهم. حتى انطبقت عليهم، فأوحى الله تعالى: يا موسى ما أفظَّكَ، استغاثوا بك مراراً فلم تَرْحَمهم، أَمَا وعزَّتي لو إيايَ دَعَوا مرةً واحدةً لوجدوني قريباً مجيباً.

وفي روايةٍ: أنَّ الله سبحانه أوحى إليه: ما أشدَّ قلبك، وعزَّتي وجلالي لو بي استغاثَ لأغثْتُه. فقال عليه السلام: ربِّ غضباً لك فعلتُ.

ثم إنَّ بني إسرائيل قالوا: إنما فعل موسى ـ عليه السلام ـ به ذلك ليرثه، فدعا اللهَ تعالى حتى خسف بداره وأمواله.

وفي بعض الأخبار أنَّ الخسف به وبداره كان في زمانٍ واحد، وكانت دارُه ـ فيما قيل ـ من صفائح الذهب.

وجاء في عدَّة آثارٍ أنه يُخسف به كلَّ يومٍ قامةٌ، وأنه يتجَلْجَلُ في الأرض لا يبلُغ قعرها إلى يوم القيامة(١). والله تعالى أعلَم بصحة ذلك، بل هو مُشْكِلٌ إن صحَّ ما قاله الفلاسفةُ في مقدار قطر الأرض، ولم يُقَلْ بأنَّ لها حركةً أصلاً، وأما الخسفُ فلا شكَّ في إمكانه الذاتيِّ والوقوعيِّ، وسببه العاديُّ مبيَّنٌ في محلِّه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٠ عن قتادة، وأخرجه أيضاً من طريق قتادة عن أبي ميمونة عن سمرة بن جندب رضي الله عنه. وأخرج البخاري (٣٤٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجرُّ إزاره من الخيلاء خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعةٍ معيَّنةٍ، مشتقَّة من فَأَوْتُ قلبه: إذا ميَّلته، وسمِّيت الجماعةُ بذلك لميل بعضهم إلى بعض. وهو محذوفُ اللام ووزنُه فِعَة، وقال الراغب: إنه محذوفُ العين، فوزنُه فِلة، وإنه من الفيء وهو الرجوع؛ لأنَّ بعضَ الجماعة يَرْجعُ إلى بعض(١).

و«من» صلة، أي: فما كان له فئةٌ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدَفْع العذاب عنه ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: بنفسه ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: الممتنعين عن عذابه عزَّ وجلَّ؛ يقال: نَصَره من عدوِّه فانتصر، أي: منعه فامتنع. ويحتمل أن يكون المعنى: وما كان من المنتصرين بأعوانه، فذكر ذلك للتأكيد.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ أي: مثلَ مكانه ومنزلته؛ لِمَا تقدَّم من قولهم: «مثلَ ما أوتي»، وجوِّز كونُ هذا على ظاهره و«مثل» هناك مقحَمةٌ، وليس بذاك.

﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذ زمانٍ قريبٍ، وهو مجازٌ شائع، وجوِّز حملُه على الحقيقة، والعطفُ بالفاء التي تقتضي التعقيبَ في «فخسفنا» يدلُّ عليه. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ«تمنَّوا» أو بـ«مكانه»(٢). وفي «البحر»: دلَّ «أصبح» إذا حُمل على ظاهره على أنَّ الخسف به وبداره كان ليلاً، وهو أفظعُ العذاب؛ إذ الليلُ مقرُّ الراحة والسكون(٣).

وقال بعضهم: هي بمعنى صار، أي: صار المتمنُّون.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يفعلُ كلَّ واحدٍ من البسط والقَدْرِ ـ أي: التضييق والقتر ـ لا لكرامةٍ توجبُ البَسْطَ ولا لهوانٍ يوجبُ التضييق.

و«وَيْ» عند الخليل وسيبويه(٤) اسمُ فعلٍ ومعناها: أَعْجبُ. وتكون للتحسُّر والتندُّم أيضاً كما صرَّحوا به، وعن الخليل أنَّ القوم ندموا فقالوا متندِّمين على

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٨٨، وينظر مفردات الراغب (فيأ).

(٢) قوله: والجار والمجرور متعلق بتمنوا أو بمكانه، وقع في (م) بعد قوله: على الحقيقة، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ١٣٥.

(٣) البحر ٧/ ١٣٥.

(٤) كما في المحتسب ٢/ ١٥٥، والبحر ٧/ ١٣٥، وينظر الكتاب ٢/ ١٥٤.

ما سلف منهم: «وي»، وكلُّ مَن ندم وأراد إظهار ندمه قال: «وي». ولعل الأظهر إرادةُ التعجُّب، بأن يكونوا تعجَّبوا أوَّلاً مما وقع، وقالوا ثانياً: «كأن» إلخ. و«كأن» فيه عاريةٌ عن معنى التشبيه جيء بها للتحقيق، كما قيل ذلك في قوله:

وأصبح بطنُ مكةَ مقشعرًّا كأنَّ الأرض ليس بها هشامُ[1]

وأنشد أبو عليٍّ:

كأنني حين أُمسي لا تكلِّمُني متيَّمٌ يشتهي ما ليس موجودا[2]

وقيل: هي غيرُ عاريةٍ عن ذلك، والمرادُ تشبيهُ الحال المطلق بما في حيِّزها إشارةً إلى أنه لتَحَقُّقِه وشهرته يصلح أن يشبَّه به كلُّ شيءٍ. وهو كما ترى.

وزعم الهمدانيُّ[3] أنَّ الخليل ذهب إلى أن «وي» للتندُّم و«كأنَّ» للتعجُّب، والمعنى: ندموا متعجِّبين في أنَّ الله تعالى يبسط.. إلخ. وفيه أنَّ كون «كأنّ» للتعجُّب مما لم يُعْهَدْ.

وأيًّا ما كان فالوقفُ كما في «البحر» على «وي»[4]، والقياسُ كتابتُها مفصولةً، وكتبت متَّصلةً بالكاف لكثرة الاستعمال، وقد كتبت على القياس في قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وَيْ كأنْ مَن يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ ومَن يَفْتقِرْ يَعِشْ عيشَ ضرِّ[5]

(١) البيت للحارث بن أمية كما في الاشتقاق ص١٠١، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ١٧٠، ونسبه الثعالبي في ثمار القلوب ص٢٩٨ لعبد الله بن ثور الخفاجي، وهو دون نسبة في الكامل ٢/ ٦٧١، والمغني ص٢٥٣. وهشام هو ابن المغيرة المخزومي. وكان سيداً مطاعاً، وتوفي قبل بعثة النبي ﷺ.

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٥، والمغني ص٤٨٣، والبيت ينسب لعمر بن أبي ربيعة وليزيد بن الحكم، كما في شرح شواهد المغني للسيوطي ٢/ ٧٨٨، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٥٣ باختلاف يسير.

(٣) في الفرائد، كما في حاشية الشهاب ٧/ ٨٨.

(٤) البحر ٧/ ١٣٥.

(٥) الكتاب ٢/ ١٥٥، والخزانة ٦/ ٤١٠، والمحتسب ٢/ ١٥٥، والبحر ٧/ ١٣٥.

وقال الأخفش[١]: الكاف متصلةٌ بها، وهي اسم فعلٍ بمعنى أعجبُ؛ والكاف حرفُ خطابٍ لا موضعَ لها من الإعراب كما قالوا في «ذلك» ونحوِه، والوقفُ على «ويك»، وعلى ذلك جاء قولُ عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سُقْمَها ... قيلُ الفوارس وَيْكَ عنترَ أَقْدِمِ[٢]

و«أنَّ» عنده مفتوحةُ الهمزة بتقدير العلم، أي: اعلم أنَّ الله.. إلخ[٣].

وذهب الكسائيُّ ويونس وأبو حاتم وغيرهم إلى أنَّ أصله: ويلك، فخفِّف بحذف اللام فبقي «ويك»، وهي للردع والزَّجْر، والبعثِ على تَرْكِ ما لا يُرْضَى، وقال أبو حيان: هي كلمةُ تحزُّنٍ[٤]، وأنشد في «التحقيق» قوله:

أَلَا وَيْكَ المضرَّةُ لا تدومُ ... ولا يبقى على البؤس النعيمُ[٥]

والكاف على هذا في موضع جرٍّ بالإضافة، والعاملُ في «أنَّ» فعلُ العلم المقدَّر كما سمعتَ، أو هو بتقديرِ: لأنَّ، على أنه بيانٌ للسبب الذي قيل لأجله: «ويك».

وحكى ابن قتيبة عن بعض أهل العلم أنَّ معنى «ويك»: رحمة لك، بلغة حمير[٦].

وقال الفرَّاء: «ويك» في كلام العرب كقول الرجل: أَلَا تَرى إلى صُنْعِ الله تعالى شأنه[٧].

---

(١) كما في المحتسب ٢/ ١٥٥، والبحر ٧/ ١٣٥، وعنه نقل المصنف.

(٢) ديوان عنترة ص٣٠.

(٣) اكتفى الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٤ بقوله: والمفسرون يفسِّرونها: ألم تر أن الله. ومثله قول سيبويه في الكتاب ٢/ ١٥٤، وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٤٠١ عن الكسائي.

(٤) البحر ٧/ ١٣٥.

(٥) البيت في البحر ٧/ ١٣٥، والدر المصون ٨/ ٦٩٨ برواية: ألا ويك المسرة...، ويجوز - كما ذكر السمين - أن يكون هذا البيت شاهداً على قول الأخفش، كما يجوز أن يستشهد ببيت عنترة على هذا القول.

(٦) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٠١.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢. ونقل المصنف قوله وقول ابن قتيبة بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٣٥.

وقال أبو زيد وفرقةٌ معه، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ويكأن» حرفٌ واحدٌ بجملته، وهو بمعنى: ألم تر.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعدم إعطائه تعالى ما تمنَّيناه من إعطائنا مثلَ ما أعطاه قارون ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: الأرضَ كما خسف به، أو: لولا أنْ مَنَّ الله تعالى علينا بالتجاوُز عن تقصيرنا في تَمنِّينا ذلك لخسف بنا جزاءَ ذلك كما خسف به جزاءَ ما كان عليه.

وقرأ الأعمش: «لولا مَنَّ» بحذفِ «أنْ» وهي مرادةٌ[١]. وروي عنه: «منُّ اللهِ» برَفْعِ «مَنّ» والإضافة[٢].

وقرأ الأكثر: «لخُسِفَ بنا» على البناء للمفعول[٣]، و«بنا» هو القائمُ مقام الفاعل. وجوِّز أن يكون ضميرَ المصدر، أي: لخُسِفَ هو ـ أي: الخسف ـ بنا، على معنى: لفُعِلَ الخَسْفُ بنا.

وقرأ ابن مسعود وطلحةُ والأعمش: «لانْخُسِفَ بنا» على البناء للمفعول أيضاً[٤]، و«بنا» أو ضمير المصدر قائمٌ مقام الفاعل. وعنه أيضاً: «لَتُخُسِّفَ» بتاءٍ وشدِّ السين مبنيًّا للمفعول[٥].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لنعمةِ الله تعالى، أو: المكذِّبون برسله عليهم السلام، وبما وعدوا من ثواب الآخرة، والكلام في «ويكأن» هنا كما تقدم، بيد أنه جوِّز هنا أن يكون «لأنَّ» على بعض الاحتمالات تعليلاً لمحذوفٍ بقرينة السياق، أي: لأنه لا يفلح الكافرون فُعل ذلك، أي الخسفُ بقارون، واعتبار نظيره فيما سبق دون اعتبار هذا هنا، وضمير «ويكأنه» للشأن.

هذا وفي «مجمع البيان» أنَّ قصة قارون متصلةٌ بقوله تعالى: (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ) عليه السلام[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٣٥.
(٢) البحر ٧/ ١٣٥.
(٣) التيسير ص١٧٢، والنشر ٢/ ٣٤٢، وقرأ حفص ويعقوب: «لخَسَف» بفتح الخاء والسين.
(٤) القراءات الشاذة ص١١٤، والمحتسب ٢/ ١٥٧، والبحر ٧/ ١٣٥.
(٥) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٣٦.
(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٦.

وقيل: هي متصلةٌ بقوله سبحانه: (فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ).

وقيل: لمَّا تقدَّم خزيُ الكفار وافتضاحُهم يومَ القيامة ذكر تعالى عقيبه أنَّ قارون من جملتهم، وأنه يفتضحُ يوم القيامة كما افتضح في الدنيا.

ولمَّا ذكر سبحانه فيما تقدَّم قولَ أهل العلم (ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ) ذكر محلَّ ذلك الثوابِ بقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ مشيراً إشارةَ تعظيمٍ وتفخيم إلى ما نزِّل ـ لشهرته ـ منزلةَ المحسوس المشاهَد، كأنه قيل: تلك التي سمعتَ خبرها وبلَغَكَ وَصْفُها.

و«الدار» صفةٌ لاسم الإشارة الواقعِ مبتدأً وهو يوصفُ بالجامد، ولا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ ـ أي: نعيمُ الدار ـ كما يوهمه كلام «البحر»[1]. و«الآخرة» صفةٌ للدار، والمرادُ بها الجنةُ، وخبرُ المبتدأ قولُه تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غلبةً وتسلُّطاً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ظلماً وعدواناً على العباد، كدأب فرعون وقارون، وليس الموصولُ مخصوصاً بهما، وفي إعادة «لا» إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا من العلوِّ والفساد مقصودٌ بالنفي، وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيدُ تحذيرٍ منهما.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال: العلوُّ في الأرض التكبُّر وطلبُ الشرف والمنزلة عند سلاطينها وملوكها، والفسادُ العملُ بالمعاصي وأَخْذُ المال بغير حقِّه[2].

وعن الكلبيِّ: العلوُّ الاستكبارُ عن الإيمان، والفسادُ الدعاء إلى عبادة غير الله تعالى. وروي عن مقاتل تفسيرُ العلوِّ بما روي عن الكلبي.

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو والٍ يرشدُ الضالَّ ويعينُ الضعيفَ، ويمرُّ بالبقَّال والبيَّاع فيفتتحُ عليه القرآن ويقرأ: (تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ) إلى آخرها، ويقول: نزلت هذه الآية:

---

(١) ١٣٦/٧.

(٢) الدر المنثور ١٣٩/٥، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٣٠٢٢/٩ و٣٠٢٣ بنحوه.

«تلك الدارُ الآخرةُ» إلخ، في أهل العدل والتواضُع من الولاة، وأهلِ القدرة من سائر الناس[١].

وأخرج ابن مردويه عن عديّ بن حاتم أنه لمَّا دخل على النبيِّ ﷺ ألقى إليه وسادةً، فجلس على الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «أشهدُ أنك لا تبغي علوًّا في الأرض ولا فساداً» فأَسْلَمَ ﵁[٢].

وعن الفضيل أنه قرأ الآية ثم قال: ذهبت الأماني ها هنا.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردِّدها حتى قُبض.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إنَّ الرجل ليحبُّ أن يكون شِسْعُ نَعْلِه أجودَ من شِسْعِ نَعْلِ صاحبه، فيدخل في هذه الآية[٣]. ولعل هذا إذا أحبَّ ذلك ليفتخر على صاحبه ويستهينَه، وإلا فقد روى أبو داود عن أبي هريرة أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ وكان جميلاً، فقال: يارسول الله، إني رجلٌ حُبِّبَ إليَّ الجمالُ، وأُعطيتُ منه ما ترى، حتى ما أحبُّ أن يفوقني أحدٌ - إمَّا قال: بشراك نعلٍ، وإما قال: بشِسْعِ نعلٍ - أفَمِنَ الكبر ذلك؟ قال: «لا، ولكنَّ الكبر مَن بَطِرَ الحقَّ وغَمِطَ الناس»[٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٣٩، وهو في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٤٨٩، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٨٦. وفي إسناده أبو الصباح عبد الغفور بن عبد العزيز الواسطي، قال عنه ابن معين: ليس حديثه بشيء، وقال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث، وقال البخاري: تركوه. الميزان ٢/ ٦٤١.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٣٩، وأخرجه أيضاً ابن عساكر ٤٠/ ٧٧، والعسكري كما في كشف الخفاء ١/ ٧٨، وذكره الذهبي في السير ٢/ ٥٣٢. وفي إسناده سوار بن مصعب الهمداني الكوفي، قال عنه ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي وغيره: متروك. الميزان ٢/ ٢٤٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٤٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٣، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٣٩.

(٤) سنن أبي داود (٤٠٩٢). وبَطَر الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقًّا من توحيده وعبادته باطلاً. وقيل: هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه. وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله. والغَمْطُ: الاستهانة والاستحقار، وهو مثل الغمص. النهاية (بطر) و(غمط).

وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبر» فقال رجل: إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعلُه حسناً. قال: «إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس»(١).

واستدلَّ بعض المعتزلة بالآية بناءً على عموم العلوّ والفساد فيها على تخليد مرتكب الكبيرة في النار، وفي «الكشاف» ما هو ظاهرٌ في ذلك(٢).

والتزم بعضُهم في الجواب تفسيرَ العلوِّ والفساد بما فسَّرهما به الكلبيُّ، وآخَرُ أنَّ المراد بهما ما يكون مثل العلوِّ والفساد اللذين كانا من فرعون وقارون.

ورُدَّ بأنَّ التذييل بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يدلُّ على أنَّ العمدة هي التقوى، ولا يكفي تَرْكُ العلوِّ والفساد المقيَّدين.

وأجيب بأنَّ المتَّقيَ ها هنا هو المتقي من علوِّ فرعونَ وفساد قارون، أو مَن لم يكن من المؤمنين مثل فرعون في الاستكبار على الله تعالى بعدم امتثال أوامره والارتداعِ عن زواجره، ولم يكن مثلَ قارون في إرادة الفساد في الأرض، وإخراجِ كلِّ شيء من كونه منتفعاً به لا سيما نفسه، فإنَّ غاية إفسادها الامتناعُ من عبادة ربِّها؛ لأنها خُلقت للعبادة، فإذا امتنع عنها خرجتْ عن كونها منتفعاً بها، وليس معنى المتَّقي إلا ذلك.

وتعقَّبه صاحب «الكشف» بأن الأول تقييدٌ بلا دليل، والثاني هو الذي يسعى له المعتزلي.

وقال الفاضل الخفاجيُّ: إمَّا أن يراد بالعاقبة العاقبةُ المحمودةُ على وجه الكمال، أو يراد بالمتقي المتقي ما لا يرضاه الله تعالى مثل حال قارون، بقرينةِ المقام والنصوصِ الدالةِ على أنَّ غير الكفار لا يخلد في النار، فلا وجه للقول بأنَّ ذلك تقييدٌ بلا دليلٍ، مع أنَّ مبنَى الاستدلالِ على أنَّ اللام للتخصيص، وهو ممنوعٌ(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٩١)، وسنن أبي داود (٤٠٩١)، وسنن الترمذي (١٩٩٩).
(٢) الكشاف ٣/ ١٩٣.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٨٩.

وقال بعضٌ في الجواب على تقدير إرادة العموم في «علوًّا» و«فساداً»: أنَّ المراد من جَعْلِ الجنة للذين لا يريدون شيئاً منهما تمكينُهم منها أتمّ تمكين، نحو قولك: جَعَل السلطان بلد كذا لفلان، وذلك لا ينافي أن يدخلها غيرهم من مرتكب الكبيرة، ويكون فيها بمنزلةٍ دون منزلتهم، ولعله إنما دخلها بشفاعة بعضٍ منهم.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ جَعْلَها لهم باعتبارِ أنهم أهلها الأوَّلون وملوكُها السابقون، وغيرهم إنما يَرِدُ عليهم وينزل بهم، ويقال في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ نحوُ ما مرَّ آنفاً عن الخفاجي.

بقي في الآية كلامٌ آخرُ، وهو أنَّ بعضهم استدلَّ بها على عدم وجود الجنة اليومَ، بناءً على أنَّ معنى «نجعلُها للذين لا يريدون» إلخ: نخلقُها في المستقبل لأَجْلهم.

وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الجعل متعدِّياً إلى مفعولين ثانيهما «للذين لا يريدون» إلخ، فيصير المعنى: نجعلها كائنةً وحاصلةً لهم في الزمان المستقبل، فتفيد الآيةُ أنَّ جَعْلَها كائنةً لهم غيرُ حاصلِ الآن، لا جَعْلَها نفسها، وهو محلُّ النزاع.

ودُفع بأنَّ المتبادر من جَعْلِ الدار كائنةً لزيدٍ تمكينُه وعدمُ مَنْعِه من التمكُّن فيها، سواءٌ حصل له التمكُّن فيها أو لم يحصل، فمعنى «نجعلها للذين» إلخ: نمكِّنهم في الاستقبال من التمكُّن فيها. ولا يخفى ركاكتُه، لأنَّ التمكينَ من التمكُّن فيها لازمٌ لوجودها غيرُ منفكٍّ عنها، على ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فلا يمكن أن تكون نفسُ الجنة الآنَ ويكونَ جَعْلُها كائنةً لهم في الاستقبال.

وحَمْلُ الجَعْلِ على التمكُّن بالفعل، والتمكين من التمكُّن وإن كان لازماً لوجود الجنة لكنَّ التمكُّن فيها بالفعل غيرُ لازمٍ بل يكون فيما سيجيء = عدولٌ عن المتبادر، فإنَّ المتبادر من قولك: جعلتُ الدار لزيد، تمكينُه من التمكُّن فيها، لا جَعْلُ زيدٍ متمكِّناً فيها بالفعل، فتدبَّر ذلك كلَّه.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ بمقابَلتها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتاً ووَصْفاً وقَدْراً على ما قيل.

وجوِّز كونُ «خير» واحدَ الخيور وليس بأفعل التفضيل، و«من» سببية، أي: فله خيرٌ بسبب فعلها، وهو خلافُ الظاهر، وقد تقدَّم الكلام في ذلك.

﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضع فيه الموصولُ والظاهرُ موضعَ الضمير لتهجين حال المسيئين بتكرير إسناد السيئة إليهم.

وفي جمع «السيئات» دون الحسنة قيل: إشارةٌ إلى قلَّة المحسنين وكثرة المسيئين.

وقد يقال: إنه إشارةٌ إلى أنَّ ضمَّ السيئة إلى السيئة لا يزيدُ جزاءها، بل جزاؤها إذا انفردت مثلُ جزائها إذا انضمَّ إليها غيرُها، وأنَّ عدم ضمِّ الحسنة إلى الحسنة لا يؤثر في مقابلتها بما هو خيرٌ منها.

ولعل قلَّة المحسنين يُفهم من عدم اعتبار الجمعية في «مَن» في قوله تعالى: (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا) وكثرة المسيئين تُفهم من اعتبار الجمعية فيها؛ إذ الموصول قائمٌ مقامَ ضميرها في قوله تعالى: (وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: إلَّا مثلَ ما كانوا يعملون، فحذف المثل وأُقيم مقامه «ما كانوا يعملون» مبالغةً في المماثلة. وهذا لطفٌ منه عزَّ وجل إذ ضاعف الحسنة ولم يَرْضَ بزيادةِ جزاء السيئة مقدارَ ذرَّة.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار المضاف؛ فإنَّ أعمالهم أنفسَها تظهر يومَ القيامة في صورة ما يعذَّبون به، ولا يخفى ما فيه.

وفي ذِكْرِ «عملوا» ثانياً دون: جاؤوا، إشارةٌ إلى أنّ ما يُجزَوْن عليه ما كان عن قَصْدٍ، لأنَّ العمل يخصُّه كما قال الراغب[1]. وفي «التفسير الكبير» للإمام الرازي في أثناء الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ الآية [الكهف: ٩] أنَّ في التعبير بـ: جاء، دون: عَمِلَ، بأنْ يقال: مَن عَمِلَ الحسنة فله خيرٌ منها ومَن عمل السيئة.. إلخ، دلالةً على أنَّ استحقاق الثواب - أي: والعقاب - مستفادٌ من الخاتمة لا من أوَّل العمل، ويؤكِّدُ ذلك أنه لو مضى عمره في

(١) في مفرداته (عمل)، قال: العمل كلُّ فعلٍ يكون من الحيوان بقَصْدٍ، فهو أخصُّ من الفعل.

الكفر ثم أسلم في آخِرِ الأمر كان من أهل الثواب، وبالضدِّ[1]. ولا يخلو عن حُسْنٍ، ولعل نكتة التعبير بـ «عملوا» ثانياً تتأتّى عليه أيضاً.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ إلخ دون: فللذين عملوا السيئات ما كانوا يعملون، أو: فما للذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون = إشارةٌ إلى أنه قد يحصل العفو عن العقاب. ولله تعالى درُّ التنزيل ما أكثر أسراره.

واستشكل ما تدلُّ عليه الآية من أنَّ جزاء السيئة مثلُها بأنَّ مَن كَفَرَ فمات على الكفر يعذَّب عذابَ الأبد، وأين هو مِن كُفْرِ ساعةٍ؟

وأجيب: بأنَّ أمر المماثلة مجهولٌ لنا، لا سيما على القول بنفي الحُسْنِ والقُبْحِ العقليين للأفعال، وقصارى ما نعلم أنَّ الله تعالى جَعَلَ لكلِّ ذنبٍ جزاءً أخبر عزَّ وجلَّ أنه مماثلٌ له، وقد أخبر سبحانه أنَّ جزاء الكفر عذابُ الأبد، فنؤمنُ به وبأنه مما تقتضيه الحكمةُ، وما علينا إذا لم نعلم جهة المماثلة، ووجهَ الحكمة فيه؟

وكذا يقال في الذنوب التي شرع الله تعالى لها حدوداً في الدنيا، كالزنى وشربِ الخمر وقذفِ المحصَنِ، وحدودِها التي شَرَعَها جلَّ شأنُه لها فإنَّا لا نعلمُ وجهَ تخصيص كلِّ ذنبٍ منها بحدٍّ مخصوص من تلك الحدود المختلفة، لكنَّا نجزم بأنّ ذلك لا يخلو عن الحكمة.

وأجاب الإمام عن مسألة الكفر وعذابِ الأبد بأنَّ ذلك لأنَّ الكافر كان عازماً أنه لو عاش إلى الأبد لبقي على ذلك الكفر[2].

وقيل في وجه تعذيب الكافر أبدَ الآباد: إنَّ جزاء المعصية يتفاوتُ حسب تفاوُتِ عظمة المعصيِّ، فكلَّما كان المعصيُّ أعظمَ كان الجزاء أعظم، فحيث كان الكفر معصيةَ مَن لا تتناهى عظمتُه جلَّ شانُه كان جزاؤه غيرَ متناهٍ، وقياسُ ذلك أن يكون جزاءُ كلِّ معصيةٍ كذلك، إلا أنه لم يكن كذلك فيما عدا الكفر فضلاً منه تعالى شأنُه؛ لمكان الإيمان.

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٩٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢١.

وقيل أيضاً: إنَّ كلَّ كفرٍ قولاً كان أو فعلاً يعود إلى نسبة النقص إليه عزَّ وجلَّ، المنافي لوجوب الوجود المقتضي لوجوده سبحانه أزلاً وأبداً، وإذا تُوهِّم هناك زمانٌ ممتدٌّ كان غيرَ متناهٍ، فحيث كان الكفر مستلزماً نفي وجوده تعالى شأنُه فيما لا يتناهى كان جزاؤه غيرَ متناهٍ، ولا كذلك سائر المعاصي، فتدبر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أَوْجَبَ عليك العمل به، كما روي عن عطاء. وعن مجاهد: أي: أعطاكه. وعن مقاتل وإليه ذهب الفرَّاء وأبو عبيدة: أي: أنزله عليك[١]. والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى محلٍّ عظيم القَدْرِ اعتَدْتَ به وأَلِفْتَه، على أنه من العادة لا من العَوْد، وهو كما في «صحيح البخاري»، وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائيُّ وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» من طرقٍ عن ابن عباس: مكة[٢]. وروي ذلك أيضاً عن مجاهد والضحاك.

وجوِّز أن يكون من العَوْد، والمراد به مكةُ أيضاً، بناءً على ما في «مجمع البيان» عن القتيبي: أنَّ معاد الرجل بلدُه؛ لأنه يتصرَّفُ في البلاد ثم يعود إليه[٣]. وقد يقال: أُطلق المعادُ على مكة لأنَّ العرب كانت تعود إليها في كلِّ سنة لمكانِ البيت فيها، وهذا وعدٌ منه عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ وهو بمكة أنه عليه الصلاة والسلام يهاجر منها ويعود إليها. وروي عن غير واحدٍ أنَّ الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج ﷺ من مكة مهاجراً واشتاق إليها[٤]. ووجهُ ارتباطها بما تقدَّمها تضمُّنُها الوعدَ بالعاقبة الحسنى في الدنيا كما تضمَّن ما قبلها الوعدُ بالعاقبة الحسنى في الآخرة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٣، ومجاز القرآن ٢/ ١١٢.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٢٢)، وتفسير الطبري ١٨/ ٣٥٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥٢٠-٥٢١، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦ عن الضحاك، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٩ عن مقاتل.

وقيل: إنه تعالى لمَّا ذَكَرَ من قصة موسى عليه السلام وقومِه مع قارون وبغيه واستطالتِه عليهم وهلاكِه ونصرةِ أهلِ الحقِّ عليه ما ذَكَرَ، ذكر جلَّ شأنه هنا ما يتضمَّنُ قصةَ سيدنا صلوات الله تعالى وسلامُه عليه وأصحابِه مع قومه، واستطالتِهم عليه، وإخراجِهم إياه من مسقط رأسه، ثم إعزازه عليه الصلاة والسلام بالإعادة إلى مكة وفَتْحِه إياها منصوراً مُكْرَماً، ووسَّط سبحانه بينهما ما هو كالتخلُّص من الأول إلى الثاني.

وأخرج الحاكم في «التاريخ» والديلميُّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن النبيِّ ﷺ أنه فسَّر المعاد بالجنة(١). وأخرج تفسيرَه بها ابنُ أبي شيبة، والبخاريُّ في تاريخه، وأبو يعلى وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري(٢). وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عباس(٣). والتنكيرُ عليه للتعظيم أيضاً. ووجْهُ ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتصريح ببعض ما تضمَّنه ذلك.

واستشكل ردُّه عليه الصلاة والسلام إلى الجنة من حيث إنه يقتضي سابقيةَ كونِه ﷺ فيها، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن فيها.

وأجيب بالتزام السابقية المذكورة، ويكفي فيها كونُه ﷺ فيها بالقوة؛ إذ كان في ظهر آدم عليهما الصلاة والسلام حين كان فيها.

وقيل: إنه ﷺ لمَّا كان مستعدًّا لها من قبلُ كان كأنه كان فيها، فالسابقيةُ باعتبارِ ذلك الاستعداد، على نحو ما قيل في قوله تعالى في الكفار: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨].

ولا يخفى ما في كِلَا القولين من البُعد، وقريبٌ منهما ما قيل: إنَّ ذلك باعتبارِ أنه عليه الصلاة والسلام دخلها ليلة المعراج.

وقد يقال: إنَّ تفسيره بالجنة بيانٌ لبعض ما يُشْعِرُ به المعادُ بأنْ يكون عبارةً عن

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٩٢، والتاريخ الكبير ١/ ٢٨٠، ومسند أبي يعلى (١١٣١)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٤٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦، والمعجم الكبير (١٢٠٣٢)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

المحشر، فقد صار كالحقيقة فيه لأنه ابتداءُ العود إلى الحياة التي كان المعادُ عليها، وجعله عظيماً كما يُشْعِرُ به التنوين لعظمة ما له ﷺ فيه، ومنه الجنة، فالمعادُ بواسطة تنوينه الدالِّ على التعظيم يُشعر بالجنة؛ لأنها الحاويةُ مما أُعدَّ له ﷺ من الأمور العظيمة ما لا عينٌ رأتْ ولَا أذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

وقريبٌ من تفسيره بالمحشر تفسيرُه بالآخرة كما أخرج ذلك عبد بنُ حميد وابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدريِّ[١]. وتفسيرُه بيوم القيامة كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[٢]، وعبد بنُ حميدٍ عن عكرمة[٣]، إلَّا أنه على ما ذُكر اسمُ زمانٍ، وعلى ما تقدَّم اسمُ مكان.

ومما يُشعر بأنه ليس المراد مجرَّدَ الردِّ إلى المحشر أو الآخرةِ أو يوم القيامة ما أخرجه الفريابيّ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهدٍ أنه قال في الآية: إنَّ له معاداً، يبعثُه الله تعالى يومَ القيامة ثم يدخلُه الجنة[٤]. ويتخرَّج على نحو ما قلنا تفسيرُه بالمقام المحمود، وهو مقامُ الشفاعة العظمى يومَ القيامة.

وجاء في روايةٍ أخرى رواها عبد بن حميد وابنُ مردويه عن ابن عباس وأبي سعيد الخدريِّ أيضاً تفسيرُه بالموت[٥]. ورواها معهما عن الحبر الفريابيُّ وابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ[٦]. وكونُه مَعاداً لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] ولعل تعظيمه باعتبارِ أنه بابٌ لوصوله ﷺ إلى ما أَعدَّ الله عزَّ وجلَّ له من المقام المحمود والمنزلةِ العليا في الجنة، إلى ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر، وجلّ المقصود ما[٧] أشعر به التعظيم.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٤) كذا ذكر، والصواب أن هذا القول هو قول الحسن، أخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ١٤٠، وخبر مجاهد غيره، وقد ورد قبله في الدر المنثور.

(٥) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٥، والمعجم الكبير (١٢٢٦٨)، وعزاه للفريابي السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٧) في الأصل: وما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن نعيم القارئ أنه فسَّره ببيت المقدس[١]، وكأنَّ إطلاقَ المعادِ عليه باعتبارِ أنه ﷺ أُسري به إليه ليلة المعراج، والوعدُ بردِّه عليه الصلاة والسلام إليه وعدٌ له بالإسراء إليه مرةً أخرى، أو باعتبارِ أنَّ أرضه أرضُ المحشر، فالمراد بالردِّ إليه الردُّ إلى المحشر، وهذا غايةُ ما يقال في توجيه ذلك، فإن قُبلَ فذاك وإلَّا فالأمرُ إليك، وكأنِّي بك تختارُ ما في «صحيح البخاريِّ»، ورواه الجماعةُ الذين تقدَّم ذكرُهم عن ابن عباس من أنه مكة.

وربما يخطر بالبال أنْ يراد بالمعاد الأمرُ المحبوب بنوعِ تجوُّزٍ، ويُجعل بحيث يشملُ مكةَ والجنةَ وغيرَهما مما هو محبوبٌ لديه ﷺ، ويراد بردِّه عليه الصلاة والسلام إلى الأمر المحبوب إيصالُه إليه مرةً بعد أخرى، فالردُّ هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] وعليه يهونُ أمرُ اختلافِ الروايات التي سمعتَها في ذلك، فتدبَّر.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يريد بذلك نفسَه ﷺ، وبقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ المشركين الذين بُعث إليهم ﷺ، و«مَن» منتصبٌ بفعلٍ يدلُّ عليه «أعلم» لا بـ «أعلم»؛ لأنَّ أَفْعَل لا ينصبُ المفعول به في المشهور، أي: يعلم مَن جاء.. إلخ. وأجاز بعضهم أن يكون منصوباً بـ «أعلم» على أنه بمعنى عالم.

والمراد أنه عزَّ وجلَّ يجازي كلًّا ممن جاء بالهدى ومَن هو في ضلالٍ على عمله، والجملةُ تقريرٌ لقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ) إلخ.

وفي «معالم التنزيل»: هذا جوابٌ لكفارِ مكةَ لمَّا قالوا للنبيِّ ﷺ: إنك في ضلال[٢]. ولعله لهذا وكون السبب فيه مجيئَه عليه الصلاة والسلام إليهم بالهدى، قيل في جانبه ﷺ: «مَن جاء بالهدى»، وفي جانبهم: «مَن هو في ضلالٍ مبين»، ولم يؤتَ بهما على طرزٍ واحد.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ تقريرٌ لذلك أيضاً، أي: سيردُّك إلى معادٍ كما أنزل إليك القرآن العظيمَ الشأنِ وما كنتَ ترجوه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٩.

وقال أبو حيان والطبرسيُّ: هو تذكيرٌ لنعمته عز وجل عليه عليه الصلاة والسلام(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ على ما ذهب إليه الفرَّاءُ(٢) وجماعةٌ استثناءٌ منقطعٌ، أي: ولكن ألقاه تعالى إليك رحمةً منه عز وجل.

وجوَّز أن يكون استثناءً متصلاً من أعمِّ العلل أو من أعمِّ الأحوال على أنَّ المراد نفيُ الإلقاء على أبلغ وجهٍ، فيكون المعنى: ما أُلقي إليك الكتاب لأَجْل شيءٍ من الأشياء إلا لأَجْلِ الترحُّم، أو في حالٍ من الأحوال إلا في حالِ الترحُّم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: معيناً لهم على دينهم، قال مقاتل: إنَّ كفار مكة دَعَوه ﷺ إلى دين آبائه، فذكَّره الله تعالى نعمَه، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: الكافرون ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: قراءتها والعملِ بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: بعد وقت إنزالها وإيحائها إليك، المقتضي لنبوَّتك ومزيدِ شرفك.

وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنْك» بالنون الخفيفة(٣). وقرئ: «يُصِدُّنَّك» مضارع أَصَدَّ بمعنى صَدَّ، حكاه أبو زيد عن رجل من كلب، قال: وهي لغة قومه(٤)، وقال الشاعر:

أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسيف عنهم ... صدودَ السواقي عن أنوفِ الحوائم(٥)

﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته جلَّ وعلا وتوحيده سبحانه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمظاهرتهم.

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٩، والبحر ٧/ ١٣٦.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣١٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣-٣٠٤، والبحر ٧/ ١٣٧، وهي خلاف المشهور عن يعقوب.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٣٧.

(٥) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٧٧١، والصحاح (صدد)، والكشاف ٣/ ١٩٤، والبحر ٧/ ١٣٧. ورواية الديوان: صدور السواقي عن رؤوس المخارم. والسواقي: مجاري المياه، والمَخْرِم: منقطع أنف الجبل، يقول: صدوا الناس عنهم بالسيف كما صدَّت هذه الأنهار عن المخارم فلم تستطع أن ترتفع إليها. اللسان (صدد).

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: ولا تعبد معه تعالى غيرَه عزَّ وجلَّ، وهذا وما قبله للتهييج والإلهاب، وقَطْعِ أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم، وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القبح والشرِّيَّة بحيث يُنْهَى عنه مَن لا يُتَصوَّر وقوعُه منه أصلاً.

وروى محيي السنَّة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به أهلُ دينه[1]. وهو في معنى ما حكى عنه الطبرسيُّ: أنَّ هذا وأمثاله من باب:

إيــاكِ أعــنــي واســمــعــي يــا جــاره[2]

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: موجود مطلقاً ﴿هَالِكٌ﴾ أي: معدومٌ محضٌ، والمراد كونُه كالمعدوم وفي حُكْمِه ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ذاتَه عزَّ وجلَّ، وذلك لأنَّ وجود ما سواه سبحانه لكونه ليس ذاتيًا بل هو مستندٌ إلى الواجب تعالى في كلِّ آنٍ قابلٌ للعدم وعرضةٌ له، فهو كَلَا وجود، وهذا ما اختاره غيرُ واحدٍ من الأجلَّة، والكلامُ عليه من قبيل التشبيه البليغ.

والوجهُ بمعنى الذات مجازٌ مرسلٌ، وهو مجازٌ شائعٌ، وقد يختصُّ بما شَرُفَ من الذوات، وقد يُعتبر ذلك هنا ويُجعلُ نكتةً للعدول عن: إلَّا إياه، إلى ما في النظم الجليل.

وفي الآية بناءً على ما هو الأصلُ من اتِّصال الاستثناء دليلٌ على صحة إطلاق الشيء عليه جلَّ وعلا، وقريبٌ من هذا ما قيل: المعنى كلُّ ما يطلق عليه الموجودُ معدومٌ في حدِّ ذاته إلَّا ذاتَه تعالى.

وقيل: الوجه بمعنى الذات، إلَّا أنَّ المراد ذاتُ الشيء، وإضافتُه إلى ضميره تعالى باعتبارِ أنه مخلوقٌ له سبحانه، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] من أنَّ المراد بالنَّفْس الثاني نَفْسُ عيسى عليه السلام، وإضافته إليه تعالى باعتبار أنه مخلوقٌ له جلَّ وعلا، والمعنى: كلُّ شيءٍ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٩.
(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٣٣٠، وهذا عجز بيت سلف ١٨/ ٤٥٥.

قابلٌ للهلاك والعدم إلَّا الذاتَ من حيث استقبالُها لربِّها ووقوفُها في محراب قُرْبِها، فإنها من تلك الحيثية لا تقبلُ العدم.

وقيل: الوجه بمعنى الجهةِ التي تُقْصَدُ ويُتَوَجَّهُ إليها، والمعنى: كلُّ شيءٍ معدومٌ في حدِّ ذاته إلَّا الجهةَ المنسوبةَ إليه تعالى، وهو الوجودُ الذي صار به موجوداً، وحاصلُه أنَّ كلَّ جهات الموجود من ذاته وصفاته وأحواله هالكةٌ معدومةٌ في حدِّ ذاتها إلَّا الوجود الذي هو النور الإلهيُّ.

ومن الناس مَن جعل ضمير «وجهه» للشيء، وفسر الشيء بالموجود بمعنى ما له نسبةٌ إلى حضرة الوجود الحقيقيِّ القائم بذاته، وهو عينُ الواجب سبحانه، وفسر الوجه بهذا الوجود لأنَّ الموجود يتوجَّه إليه وينسب، والمعنى: كلُّ منسوبٍ إلى الوجود معدومٌ إلا وجهَه الذي قصده وتوجَّه إليه، وهو الوجودُ الحقيقيُّ القائمُ بذاته، الذي هو عينُ الواجب جلَّ وعلا.

ولا يخفى الغثُّ والسمينُ من هذه الأقوال، وعليها كلِّها يدخل العرشُ والكرسيُّ، والسماواتُ والأرضُ، والجنة والنار، ونحو ذلك في العموم.

وقال غير واحد: المرادُ بالهلاك خروجُ الشيء عن الانتفاع به المقصودِ منه، إمَّا بتفرُّق أجزائه أو نحو ذلك[١]، والمعنى: كلُّ شيءٍ سيهلكُ ويخرج عن الانتفاع به المقصودِ منه إلا ذاتَه عزَّ وجلَّ، والظاهرُ أنه أراد بالشيء الموجود المطلق لا الموجود وقت النزول فقط، فيؤُولُ المعنى إلى قولنا: كلُّ موجودٍ في وقتٍ من الأوقات سيهلكُ بعد وجوده إلا ذاتَه تعالى، فيدلُّ ظاهرُ الآية على هلاك العرش والجنة والنار، والذي دلَّ عليه الدليل عدم هلاك الأخيرين، وجاء في الخبر أنَّ الجنة سقفُها عرشُ الرحمن[٢]. ولهذا اعتُرض بهذه الآية على القائلين بوجود الجنة والنار الآن، والمنكرين له القائلين بأنهما سيوجدان يومَ الجزاء ويستمرَّان أبدَ الآباد.

واختلفوا في الجواب عن ذلك؛ فمنهم مَن قال: إنَّ «كلًّا» ليست للإحاطة بل

---

(١) في (م): أو نحوه.
(٢) سلف ص٨٥ من هذا الجزء.

للتكثير، كما في قولك: كلُّ الناس جاء إلا زيداً، إذا جاء أكثرهم دون زيد، وأيِّد بما روي عن الضحاك أنه قال في الآية: كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا الله عزَّ وجل والعرشَ والجنةَ والنارَ.

ومنهم مَن قال: إنَّ المراد بالهلاك الموتُ، والعمومُ باعتبارِ الأحياء الموجودين في الدنيا، وأيِّد بما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: كلُّ حيٍّ ميتٌ إلا وجهه.

وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال: لمَّا نزلت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قيل: يا رسول الله، فما بالُ الملائكة؟ فنزلت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1]. فبيَّن في هذه الآية فناءَ الملائكة والثقلين من الجنِّ والإنس، وسائرِ عَالمِ الله تعالى وبَرِيَّتِه من الطير والوحوش والسباع والأنعام وكلِّ ذي روح أنه هالكٌ ميت.

وأنت تعلم أن تخصيص الشيء بالحيِّ الموجود في الدنيا لا بدَّ له من قرينةٍ، فإن اعتُبر كونُه محكوماً عليه بالهلاك ـ حيث شاع استعماله في الموت، وهو إنما يكون في الدنيا ـ قرينةً فذاك، وإلَّا فهو كما ترى.

ومن الناس مَن التزم ما يقتضيه ظاهرُ العموم من أنه كلُّ ما يوجد في وقتٍ من الأوقات في الدنيا والأخرى يصير هالكاً بعد وجوده، بناءً على تجدُّد الجواهر وعدمِ بقاء شيءٍ منها زمانين كالأعراض عند الأشعري، ولا يخفى بطلانُه وإن ذهب إلى ذلك بعضُ أكابر الصوفية قدِّست أسرارهم.

وقال سفيان الثوريُّ: وجهه تعالى العملُ الصالح الذي تُوجِّه به إليه عز وجل. فقيل في توجيه الاستثناء: إنَّ العمل المذكور قد كان في حيِّز العدم، فلمَّا فَعَله العبدُ ممتثلاً أمرَه تعالى أبقاه جلَّ شأنه له إلى أن يجازيه عليه، أو أنه بالقبول صار غيرَ قابلٍ للفناء؛ لِمَا أنَّ الجزاء عليه قام مقامه، وهو باقٍ. ورُوي عن أبي عبد الله الرضا رضي الله عنه أنه ارْتَضَى نحوَ ذلك، وقال: المعنى: كلُّ شيءٍ من أعمال العباد هالكٌ وباطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه تعالى. وزعم الخفاجيُّ أنَّ هذا كلامٌ ظاهريٌّ[2].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٩٠.

وقال أبو عبيدة: المراد بالوَجْهِ جاهُه تعالى الذي جَعَله في الناس[(١)]. وهو كما ترى لا وَجْهَ له.

والسَّلَفُ يقولون: الوجهُ صفةٌ نثبِتُها لله تعالى، ولا نشتغلُ بكيفيتها ولا بتأويلها بعد تنزيهه عزَّ وجل عن الجارحة.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاءُ النافذُ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ﴾ عز وجل ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ عند البعث للجزاء بالحقِّ والعدل لا إلى غيره تعالى، ورجوعُ العباد إليه تعالى عند الصوفية أهلِ الوحدة بمعنى ما وراءَ طورِ العقل. وقيل: ضمير «إليه» للحكم.

وقرأ عيسى: «تَرْجِعون» مبنيًّا للفاعل[(٢)].

هذا والكلامُ من باب الإشارة في آيات هذه السورة أكثرُه فيما وَقَفْنا عليه من باب تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس، ولعله يُعلَم بأدنى تأمُّلٍ فيما مرَّ بنا[(٣)] في نظائرها، فتأمَّل، واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل، وهو جلَّ وعلا حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

---

(١) البحر ٧/ ١٣٧، وفي مجاز القرآن ٢/ ١١٢: «كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه»: إلا هو.
(٢) البحر ٧/ ١٣٧، وهي قراءة يعقوب من العشرة، كما في النشر ٢/ ٢٠٨.
(٣) في الأصل: منا.

(سورة القصص)

(مكية) وهي (ثمانٍ وثمانون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③﴾

﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾ يقال بان الشيء وأبان بمعنى واحد، ويقال أبنته فأبان لازم ومُتعَدٍّ أي مبيِّن خبره وبركته أو مبيِّن للحلال والحرام والوعد والوعيد والإخلاص والتوحيد ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك أي يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول ﴿نَتْلُوا۟﴾ ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ (حال أي مُحقِّين)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة القصص مكّية) أي كلّها، وهو قول طاووس وعكرمة رضي الله عنهما (**ثمان وثمانون آية**) بالاتّفاق. اهـ شهاب. وفي تفسير الخطيب: وهي سبع أو **ثمان** وثمانون آية، وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف وثمانمائة حرف وتسمّى سورة موسى عليه السلام. اهـ. **قوله**: (**حال أي محقّين**) بيان لحاصل المعنى، أي ملتبسين بالحقّ فهو حال من فاعل نتلو، ويجوز كونه حالًا من المفعول والحقّ بمعنى الصدق أي صادقًا.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (لمن سبق) في علمنا أنه مؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للجمل كأن قائلًا قال: وكيف كان نبؤهما؟ فقال: إن فرعون ﴿عَلَا﴾ طغى وجاوز الحدّ في الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسي العبودية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مملكته يعني مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فرقًا (**يشيعونه**) على ما يريد ويطيعونه. لا يملك أحد منهم أن (**يلوي**) عنقه أو فرقًا مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم (**القبطي**) وأهان الإسرائيلي ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة، وسبب ذبح الأبناء أن كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب مُلكَكَ على يده. وفيه دليل على حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل. ويستضعف حال من الضمير في ﴿وَجَعَلَ﴾ أو صفة لـ ﴿شِيَعًا﴾ أو كلام مستأنف و﴿يُذَبِّحُ﴾ (**بدل** من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾) ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن القتل ظلمًا إنما هو فعل المفسدين إذ (**لا طائل**) تحته صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ نتفضل وهو دليل لنا في مسألة الأصلح، وهذه الجملة معطوفة على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبأ

قوله: (لمن سبق)... الخ. يعني أن اللام للتعليل.

قوله: (يشيعونه) أي يتبعون؛ لأن أصل معنى المشايعة المتابعة. اهـ شهاب. وفي تاج العروس: الشياع ـ بالكسر ـ المتابعة كالتشيّع وشيّعه على رأيه تابعه وقوّاه وشايعته تبعته وشجّعته. اهـ. **قوله**: (يلوي) أي يُميل عنقه ويُعْرِض. **قوله**: (القبطيّ) في مختار الصحاح: القِبط بوزن السِّبْط أهل مصر، وهم بَنْكُها أي أصلها، ورجل قبطيّ. اهـ. **قوله**: (بدل من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾) بدل اشتمال. **قوله**: (لا طائل) أصل الطائل النفع والفائدة. اهـ لسان العرب.

موسى وفرعون واقتصاصًا له، **(أو حال من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم)** وإرادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة يُقتدى بهم في الخير أو قادة إلى الخير أو وُلاة وملوكًا ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَنُمَكِّنَ﴾ مكّن له إذا جعل له مكانًا يقعد عليه أو يرقد، ومعنى التمكين ﴿لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر والشام أن يجعلها بحيث **(لا تنبو بهم)** ويسلطهم

قوله: (أو حال من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾، أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمنّ عليهم) أي نُنعم عليه بخلاصهم منه، وقدر نحن لتكون جملة اسمية يعني ليصحّ دخول الواو، فإن المضارع المثبت إذا وقع حالًا لا يدخله الواو، ولمّا جوّز كونه حالًا ورد أن يقال جعله حالًا يستلزم اجتماع المتنافيين وهما استضعاف فرعون إيّاهم وإرادة الله المنّة عليهم؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئًا كان ولم يتوقّف إلى وقتٍ آخر، فيلزم من مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له، وهما اجتماع المتنافيين؛ لأن إرادته تعالى أزليّة مستمرّة، فتكون مقارنةً لاستضعافه إيّاهم ويكون المراد حادثًا عند تعلّق الإرادة به، ولا استحالة في أن يريد الله تعالى حال استضعافه إيّاهم أن يمنّ عليهم بالخلاص في وقت قدّره وقضاه، وإنما الاستحالة في أن تتعلّق إرادته بخلاصهم حال الاستضعاف وذلك غير لازم من جعله حالًا، وهذا الجواب لا يتأتّى على مذهب المعتزلة، فإنهم قالوا: إرادة الله تعالى حادثة لا في محل قائمة بذاتها لا بذاته تعالى، فيلزم من كون قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ حالًا من فاعل ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ أن تقارن الإرادة الاستضعاف ومقارنتها له تستلزم مقارنة المراد له على مذهب المعتزلة، وهي اجتماع المتنافيين، والجواب أن الله تعالى لمّا أراد أن يمنّ على بني إسرائيل بعد هلاك فرعون ونجاتهم منه، وكانت تلك المنّة قريبة الوقوع جُعِلت كأنها واقعة مقارنةً لاستضعافهم.

قوله: (لا تنبو بهم) في لسان الإرب: نَبَا به منزله لم يوافقه، وكذلك فراشه، قال:

وإذا نَبَا بك منزل فتحَوَّل

وينفذ أمرهم ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ (بضم النون ونصب ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وما بعده، وبالياء ورفع ﴿فرعونُ﴾ وما بعده: علي وحمزة) أي يرون منهم ما حذروه من ذهاب مُلْكهم وهلاكهم على يد مولود منهم، ﴿وَيَرَى﴾ نصب على المنصوب قبله كقراءة النون أو رفع على الاستئناف ﴿مِّنْهُم﴾ من بني إسرائيل ويتعلق بـ ﴿نُرِى﴾ دون ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لأن الصلة لا تتقدّم على الموصول ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ الحذر: التوقي من الضرر.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالإفهام أو بالرؤيا أو بإخبار ملك كما كان لمريم، وليس هذا وحي رسالة ولا تكون هي رسولًا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ «أن» بمعنى أي أو مصدرية ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من القتل بأن يسمع الجيران صوته (فينموا) عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحر، قيل: هو نيل مصر ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ من الغرق والضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ بفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بِوَجهٍ لطيف (لتربّيه) ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وفي هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غمٌّ يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غمٌّ يلحقه لواقع وهو فراقه (والإخطار به) فنُهِيت عنهما وبشِّرت بردّه إليها وجعله من المرسلين. ورُوِيَ أنه

ونَبَتْ بي تلك الأرض أي لم أجد بها قرارًا، انتهى. **قوله**: (بضمّ النون) وكسر الراء وفتح الياء بعدها مضارع أرى (ونصب ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وما بعده) للأكثر (وبالياء) مفتوحة وفتح الراء مع الإمالة وسكون الياء بعد الراء مضارع رأى (ورفع ﴿فرعونُ﴾وما بعده: عليّ) الكسائي (وحمزة).

قوله: (فينموا) في المصباح: نمّ الرجل الحديث نمًّا من بابي قتل وضرب سعى به ليوقع فتنة أو وحشة، فالرجل نمّ تسمية بالمصدر ونمّام مبالغة والاسم النميمة والنميم أيضًا.اهـ. **قوله**: (لتربيه) أصله تربّين سقط النون لأجل اللام. **قوله**: (والإخطار به) في المصباح: الخطر الإشراف على الهلاك وخوف التلف، والجمع أخطار مثل سبب وأسباب.اهـ. وأيضًا فيه: بادية مُخْطِرَة كأنها أخطرت المسافر فجعلته خطرًا بين السلامة والتلف، انتهى.

ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد. ورُوِيَ أنها حين (**ضربها الطَّلْق**) وكانت بعض (**القوابل**) المُوكَلات بـ (**حبالى**) بني إسرائيل (**مصافية**) لها فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالَها نور بين عينيه ودخل حُبّه قلبها فقالت: ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حُبًّا ما وجدت مثله فاحفظيه، فلما خرجت القابِلَة جاءت (**عيون**) فرعون فلفَّته في خرقة ووضته في تنّور مسجور لم تعلم ما تصنع لما (**طاش**) من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئًا فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنّور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار بردًا وسلامًا، فلما ألحَّ فرعون في طلب الولدان أوحى إليها بإلقائه في اليمّ فألقته في (﴿ٱلْيَمِّ﴾) بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أخذه، قال (**الزجَاج**): كان فرعون من أهل فارس من (**اصطخر**) ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أي ليصير الأمر إلى ذلك لا أنهم أخذوه لهذا كقولهم للموت ما تلده الوالدة وهي لم تلد لأن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك كذا قال الزجّاج. وعن هذا قال المفسِّرون: إن هذه لام العاقبة والصيرورة. وقال صاحب الكشاف: هي لام كي التي معناها التعليل كقولك: «جئتك لتكرمني» ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة

قوله: (**ضربها الطّلق**) بفتح فسكون وجع يعرض عند وضع الحمل وضربه قرب حصوله. **قوله**: (**القوابل**) في المصباح: قبلت القابلة الولد تلقّته عند خروجه قِبالة ـ بالكسر ـ والجمع قوابل. **قوله**: (**حبالى**) بفتح اللام جمع حبلى معروف. **قوله**: (مُصافية) أي مُحبّة. **قوله**: (عيون) أي جواسيس. **قوله**: (طاش) الطيش الخفّة، وهو مصدر من باب باع. اهـ مصباح. **قوله**: (﴿ٱلْيَمِّ﴾) هو البحر.

قوله: (**الزجاج**) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد ﷺ. **قوله**: (**اصْطخْر**) مدينة قديمة بأرض فارس لا يدرى مَنْ بناها كان سليمان عليه السلام يتغدّى ببعلبك ويتعشّى بها. اهـ أخبار الدول وآثار الأُوَل.

المجيء ﴿وَحَزَنًا﴾ (﴿وَحَزْنًا﴾ علي وحمزة) وهما لغتان (كالعدم والعدم) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ (﴿خاطين﴾ تخفيف خاطئين) : أبو جعفر أي كانوا مُذنبين فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم ومَن هو سبب هلاكهم على أيديهم، أو كانوا خاطئين في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم (ببدع) منهم.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ رُوِيَ أنهم حين التقطوا (التابوت) عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورًا فعالجته فَفَتَحتْهُ فإذا بصبي نوره بين عَينيه فأحبوه وكانت لفرعون بنت (برصاء) فنظرت إلى وجهه فبرئت، فقالت (الغواة) من قومه: هو الذي نحذر منه فأذن لنا في قتله، فَهَمَّ بذلك فقالت آسية: قرّة عين لي ولك. فقال فرعون: لك، لا لي. (وفي الحديث) «لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها»، وهذا على سبيل الفرض أي لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان أسلم كما أسلمت. و﴿قُرَّتُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو قرّة و﴿لِّى وَلَكَ﴾ صفتان لقرّة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبته خطاب الملوك أو خاطبت الغواة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإن فيه (مخايل اليمن) ودلائل النفع وذلك لما عاينت من النور

قوله : (﴿وَحَزْنًا﴾) بضم الحاء وإسكان الزاي (عليّ) الكسائي (وحمزة)، والباقون بفتح الحاء والزاي لغة قريش، وهما بمعنى. **قوله** : (كالعَدَم والعُدْم) والرَّشَد والرُّشْد والسَّقَم والسُّقْم. **قوله** : («خاطين») بياء من دون همز (تخفيف خاطئين) أبو جعفر المدني وليس من السبعة. **قوله** : (ببدع) أي بعيب ومستغرب.

قوله : (التابوت) الصندوق. **قوله** : (برصاء) في المصباح: برص الجسم برصًا من باب تعب، فالذكر أبرص والأنثى برصاء، والجمع بُرص مثل أحمر وحمراء وحُمر. اهـ. **قوله** : (الغواة) في المصباح: غوى غيًّا من باب ضرب انهمك في الجهل، وهو خلاف الرشد، والاسم الغواية بالفتح وغوى أيضًا خاب وضلّ وهو غاوٍ والجمع غواة مثل قاضٍ وقضاة. اهـ. **قوله** : (وفي الحديث) رواه النسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. **قوله** : (مخايل اليمن) علامات البركة.

(وبرىء البرصاء) ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (أو نتبنّاه) فإنه أهل لأن يكون ولدًا للملوك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال، وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنّيه. وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم، وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ (صفرًا من العقل) لما (دهمها) من فرط الجزع لما سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ لتظهر به والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته وأنه ولدها. قيل: لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول: واابناه. وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله فكادت تقول: واابناه شفقة عليه. و«إن» مخففة من الثقيلة أي إنها كادت ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ لو ربطنا على قلبها، والربط على القلب تقويته بإلهام الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعدنا وهو ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ وجواب «لولا» محذوف أي لأبدته أو فارغًا من الهمّ حين سمعت أن فرعون تبنّاه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحًا وسرورًا بما سمعت لولا أنّا طمأنّا قلبها وسكّنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح لتكون من

قوله: (وبرىء البرصاء) في المصباح: برىء من المرض يبرأ من بابي نفع وتعب وبرأ برءًا من باب قرب لغة. اهـ. **قوله**: (أو نتبنّاه) أي نتّخذه ابنًا، فإنه لائق لتبني الملوك لما فيه من الأبّهة، وهذا من عطف الخاص على العام.

قوله: (صفرًا[١] من العقل) أي خاليًا منه لأنه محله المضاف إليه في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦]، وإن كان مشتركًا بينه وبين الرأس. **قوله**: (دهمها) بمهملات مع فتح الهاء وكسرها بمعنى عرض لها

---

(١) بالضمّ ويثلث. اهـ قاموس. ١٢ منه رحمه الله.

المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبنّي فرعون. قال **(يوسف بن الحسين)**: أُمِرَت أُم موسى بشيئين ونُهِيَت عن شيئين وبُشِّرَت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله **(حياطتها)** فربط على قلبها.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ **(مريم)** ﴿قُصِّيهِۖ﴾ اتبعي **(أثره)** لتعلمي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ **(أي أبصرته)** ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعْد حال من الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ أو من الضمير في ﴿بَصُرَتْ﴾ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أُخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع، أي منعناه **(أن يرضع ثديًا)** غير ثدي أُمه وكان لا

بغتة. **قوله**: **(يوسف بن الحسين)** شيخ الريّ والجبال في وقته وكان نسيج وحده، أي لا نظير له في إسقاط التصنع للخلق بالطاعات والتزيّن بها عندهم، وكان عالمًا أديبًا صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي ورافق أبا سعيد الخرّاز، مات سنة أربع وثلاثمائة. **قوله**: **(حياطتها)** في لسان العرب: حاطه يَحُوطه حَوْطًا وحَيْطة وحياطة حفظه وتعهّده. اهـ.

قوله: **(مريم)** عطف بيان والإيضاح من مجموعهما لأنها غير مشتهرة بهذا الاسم كشهرة والدة عيسى عليه السلام بهذا الاسم مريم أصل معناه الخادم وزنه مفعل، فإنه مشتق من رام يروم إذا فارق وبرح. اهـ قنوي. **قوله**: **(أثره)** بفتحتين وبكسر الهمزة والسكون. **قوله**: **(أي أبصرته)** فإن بصر به وأبصره بمعنى واحد. **قوله**: **(أن يرضع ثديًا)** في المصباح: رضع الصبي رضعًا من باب تعب في لغة نجد، ورضع رضعًا من باب ضرب لغة لأهل تهامة وأهل مكّة يتكلّمون بها وبعضهم يقول: أصل المصدر من هذه اللغة كسر الضاد، وإنما السكون تخفيف مثل الحَلف والحِلف، ورضع يرضع ـ بفتحتين ـ لغة ثالثة رَضاعًا ورَضاعة ـ بفتح الراء ـ وأرضعته أمّه فارتضع، فهي مرضع ومرضعة أيضًا، وقال الفراء وجماعة: إن قصد حقيقة الوصف بالإرضاع فمرضع بغير هاء، وإن قصد مجاز الوصف بمعنى أنها محلّ الإرضاع فيما كان أو سيكون، فبالهاء؛ وعليه قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: الآية ٢]، ونساء مراضع ومراضيع وراضعة

يقبل ثدي مُرضِع حتى أهمَّهم ذلك. والمراضع (جمع مرضع) وهي المرأة التي ترضع (أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع، وهو الثدي أو الرضاع) ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل قصّها أثره أو من قبل أن تردّه على أمه ﴿فَقَالَتۡ﴾ أُخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثديًا (﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾) أرشدكم ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ﴾ أي موسى ﴿لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ النصح لإخلاص العمل من (شائبة الفساد).

رُوِيَ أنها لمّا قالت: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله (فخذوها) حتى تخبر بقصة هذا الغلام، فقالت: (إنما أردت) وهم للملك ناصحون. فانطلقت إلى أُمها بأمرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلّله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: و(مَن أنت منه) فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أُوتى بصبي إلا (قبلني)، فدفعه إليها (وأجرى عليها) وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في

مراضعة ورضاعًا ورضاعة بالكسر. اهـ. **قوله**: (جمع مرضع) بضمّ الميم وكسر الضاد وترك التاء إمّا لاختصاصه بالنساء، أو لأنه بمعنى شخص. **قوله**: (أو جمع مرضع) بفتح الميم والضاد (وهو موضع الرضاع، وهو الثدي) فيكون اسم مكان (أو الرضاع) فيكون مصدرًا ميميًّا وجمع لتعدّد مواده. **قوله**: (﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾) معناه هل تريدون أنْ أدلّكم. **قوله**: (شائبة الفساد) في المصباح: الشائبة واحدة الشّوائب وهي الأدناس والأقذار. اهـ.

قوله: (فخذوها) أي أمسكوها وضيّقوا عليها حتى تقرّ. **قوله**: (إنما أردت)... الخ. لأن كلامها يحتمله في لغتهم، واختلاف مرجع الضمائر لا يختصّ بلغة العرب حتى يتكلّف له تأويل، وهذا وإن كان كذبًا جائز لدفع الضرر مع أنها غير مَعْصومة. اهـ شهاب.

قوله: (مَن أنت منه) بمعنى: من أنت في القرب منه نسبًا، ومن اتّصالية. **قوله**: (قبلني) من باب تَعِب. **قوله**: (وأجرى عليها) أي أمر بأن يجري عليها النفقة.

علمها أنه سيكون نبيًا وذلك قوله:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمقام معه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبرًا. وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ معطوف على ﴿تَقَرَّ﴾ وإنما حلَّ لها ما تأخذه من الدينار كل يوم ـ كما قال (السدي) ـ لأنه مال حربي لا أنه أجرة على إرضاع ولدها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو داخل تحت علمها أي لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون، (ويُشَبَّهُ التعريض بما فرط) منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند (سيبويه) ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ واعتدل وتمَّ استحكامه وهو أربعون سنة. ويُروى أنه لم يُبعَث نبي إلا على رأس أربعين سنة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهًا أو علمًا بمصالح الدارين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما فعلنا بموسى وأُمه نفعل بالمؤمنين. قال الزجّاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مُجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين، والعالم الحكيم مَن يعمل بعلمه

قوله: (السدّي) وهو الإمام إسماعيل السدّي رحمة الله عليه؛ لأنه كان يبيع المقانع ونحوها في سدّة مسجد الكوفة، والسدّة الباب ويُنسب إليها على اللفظ، فيقال: السدّي. **قوله**: (ويشبه التعريض بما فرط منها)... الخ. هو من التعبير بالمضارع، فإنه يُفهم أنها لم تتيقّن ذلك في الماضي؛ إذ لو كان كذلك لم يعرض لها خوف وحيرة. **قوله**: (فرط) بتخفيف الراء بمعنى سبق.

قوله: (سيبويه) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبر كان أعلم المتقدّمين والمتأخّرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، توفي سنة ثمانين ومائة، وقيل غير ذلك.

لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢]. فجعلهم جهّالًا إذ لم يعملوا بالعلم.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حال من الفاعل أي مختفيًا وهو ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار. وقيل: لما **(شب وعقل)** أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممَّن **(شايعه)** على دينه من بني إسرائيل. قيل: هو السامري، وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من مخالفيه من القبط وهو قانون، وقيل: فيهما هذا وهذا وإن كان غائبين على جهة الحكاية أي إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ فاستنصره ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ ضربه **(بجمع كفه)** أو بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ **(فقتله)** ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسمّاه ظلمًا لنفسه واستغفر منه لأنه كان (مستأمنًا) فيهم ولا يحلّ قتل الكافر الحربي المستأمن، أو لأنه قتله قبل أن يؤذَن له في القتل،

قوله: **(شبّ)** في المصباح: شبّ الصبي يشبّ من باب ضرب شبابًا وشبيبة وهو شابّ، وذلك سنٌّ قبل الكهولة. اهـ.

قوله: **(وعقل)** في المصباح: عقلت الشيء عقلًا من باب ضرب تدبّرته. وعقل يعقل من باب تعب لغة. اهـ. **قوله**: (شايعه) بمعنى تابعه **قوله**: **(بجمع كفّه)** بضم الجيم وسكون الميم بمعنى كفّه المضمومة أصابعها. **قوله**: **(فقتله)** بيان لحاصل المعنى، فإن قضاء الشيء إتمامه والفراغ منه، وكل شيء أتْمَمْته وفرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه. **قوله**: **(مستأمنا)** بكسر الميم اسم فاعل، أي الطالب للأمان، ويصحّ بالفتح اسم مفعول والسين والتاء للصيرورة، أي من صار مؤامنًا.

وعن (ابن جريج): ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (ظاهر العداوة).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا رب ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بفعل صار قتلًا ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ (زلّتي) ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ زلّته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ بإقالة الزّلل ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بإزالة (الخجل) ﴿قَالَ

قوله: (ابن جريج) وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج - بجيم مكرّرة الأولى مضمومة - القريشيّ الأُموي وهو من تابعي التابعين، سمع طاووسًا وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي مليكة ونافعًا مولى ابن عمر ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري والزهري والخلائق من التابعين وغيرهم، روى عنه الأنصاري وهو شيخه تابعي والأوزاعي والثوري وابن عُيينة واللّيث وابن عليّة ويحيىٰ القطّان والأُموي ووكيع وخلائق لا يحصون، قال أحمد بن حنبل: أوّل من صنّف الكتب ابن جريج، وقال عبد الرزّاق: كنت إذا رأيت ابن جريج يصلّي علمت أنه يخشى الله عزّ وجلّ، وأقوال أهل العلم من السلف والخلف في الثناء عليه وذكر مناقبه أكثر من أن تُحصر، توفي سنة خمسين ومئة هذا قول الأكثرين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: تسع وأربعين، وقيل: سنة ستّين وقد جاوز المائة. **قوله**: (ظاهر العداوة) إشارة إلى أنه من أبان اللازم ولم يقل ظاهر العداوة والإضلال، وإن لم يستلزم أحدهما الآخر، فكم من صديق مضلّ لأنه يريد الإشارة إلى أنه صفة عدوّ لا مضلّ؛ لوقوعه كذلك في غير هذه الآية، وإضلاله ظاهر لا يحتاج إلى بيان.

قوله: (زلّتي) في مختار الصحاح: زَلّ يَزَل بالفتح زَلَلًا والاسم الزلَّة.اهـ. وفي المصباح: زلّ عن مكانه زلّا من باب ضرب تنحّى عنه وزلّ زَلَلًا من باب تعب لغة، والاسم الزلّة - بالكسر - والزَّلة - بالفتح - المرّة، والمزلّة المكان الدَّحض وهو بفتح الميم، وأمّا الزاي فالكسر أفصح من الفتح، يقال: أرضٌ مُزِلّة تزلّ فيها الأقدام، وزلّ في منطقه أو فعله يزلّ من باب ضرب زلّة أخطأ.اهـ. **قوله**: (الخجل) في مختار الصحاح: الخَجَل التحيّر والدَّهَش من الاستحياء، وقد خَجِل من باب طرب.اهـ.

رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ مُعينًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين و﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ على قسم جوابه محذوف (**تقديره أقسم بإنعامك عليَّ بالمغفرة**) لأتوبنَّ فلن أكون ظهيرًا للمجرمين، (**أو استعطاف**) كأنه قال: ربِّ اعصمني بحق ما أنعمت عليَّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرًا للمجرمين، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره (سواده) حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الولد.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ على نفسه من قتله القبطي أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حال أي يتوقع المكروه وهو (الاستقادة) منه أو الأخبار أو ما يقال

قوله: (تقديره: أقسم بإنعامك عليَ بالمغفرة) قدّر متعلق الباء وجعل ما مصدرية وجعل إنعامه تعالى عليه بالمغفرة مقسمًا به وعيّن أن الجواب المقدّر هو قوله: لأتوبن، أي لأرجعنّ عمّا فرط مني من الزلّة، وجعل قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ معطوفًا على الجواب المقدّر، فتكون الجملة الخبرية التي أكّدت بالجملة القسمية هي المجموع من المعطوف عليه المقدّر وما عطف عليه. **قوله**: (أو استعطاف) عطف على قوله: قسم جعل الاستعطاف قسيمًا للقسم مع أن النحّاة صرَّحوا بأنّ القسم على قسمين: قسمٌ للاستعطاف، وقسم لغير الاستعطاف؛ وقالوا: القسم جملة إنشائية يؤكّد بها جملة أخرى، فإن كانت الأخرى خبرية فالقسم لغير الاستعطاف، وإن كانت طلبية فهو للاستعطاف، ولم يَجْعله المصنف والزمخشري قسمًا لأن القائل: بالله لأفعلنّ كذا انعقدت اليمين على القائل، وأمّا لو قال: بالله أفعل كذا لا ينعقد اليمين لا على المتكلّم ولا على المخاطب، فلذلك لم يجعلاه من القسم، ومَنْ جعله قسمًا مِنَ القسم اعتبر الظاهر لأن صورته صورة القسم من حيث إنه يؤكّد الطلب على المستعطف، وليس بقسم على الحقيقة لأن شرطه أن يؤكّد به جملة خبرية موجبة أو منفية، وعلى تقدير كون قوله: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ استعطافًا مؤكّدًا لجملة طلبية مقدّرة، وهي اعصمني يكون قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ جوابًا للأمر المقدّر سببًا عنه. **قوله**: (سواده) أي جماعته.

قوله: (الاستقادة) طلب القَوَد وهو القصاص.

فيه، وقال (ابن عطاء): خائفًا على نفسه يترقَّب نصرة ربه. وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه (لا يسوغ) الخوف من دون الله ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة وما بعدها مبتدأ ﴿ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ أي موسى ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه والمعنى أن الإسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانيًا من قبطي آخر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ضالّ عن الرشد ظاهر الغيّ فقد قاتلت بالأمس رجلًا فقتلته بسببك، والرشد في التدبير أن لا يفعل فِعلًا يُفضي إلى البلاء على نفسه وعلى مَن يريد نصرته.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى﴾ بالقبطي الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه ليس على دينهما، أو لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي لموسى عليه السلام وقد توهّم أنه أراد أخذه لا أخذ القبطي إذ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا﴾ يعني القبطي ﴿بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ أي قتالًا بالغضب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في (كظم الغيظ)، وكان قتل القبطي بالأمس قد شاع ولكن خفي قاتله، فلما أفشى على موسى عليه السلام علم القبطي أن قاتله موسى فأخبر فرعون فهمّوا بقتله.

قوله: (ابن عطاء) أي أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي ـ بفتح الهمزة والمهملة ـ نسبة إلى بيع الأدم جمع أديم، من كبار مشائخ الصوفية وعلمائهم، مات سنة تسع وثلاثمائة رحمه الله.

قوله: (لا يسوغ) في مختار الصحاح: ساغ له ما فعل، أي جاز له وسوّغ له تسويغًا أي جوّزه. اهـ.

قوله: (كظم الغيظ) في مختار الصحاح: كظم غيظه اجترعه وبابه ضرب، فهو رجل كظيم والغيظ مكظوم. اهـ.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عمّ فرعون ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لرجل أو حال من رجل لأنه وصف بقوله: ﴿من أقص المدينة﴾، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي يأمر بعضهم بعضًا بقتلك أو يتشاورون بسببك، والائتمار: التشاور. يقال الرجلان يتآمران ويأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (﴿لَكَ﴾ بيان) وليس بصلة ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (**لأن الصلة لا تتقدّم على الموصول**) كأنه قال: إني من الناصحين، ثم أراد أن يبيّن فقال: لك كما يقال سقيًا لك ومرحبًا لك ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرّض له في الطريق أو أن يلحقه مَن يقتله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ نحوها، والتوجّه الإقبال على الشيء، ومدين (**قرية شعيب**) عليه السلام سُمّيت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون، وبَيْنَها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج ولم يكن له علم بالطريق إلا حُسن الظن بربّه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي

قوله: (﴿لَكَ﴾ بيان) فيتعلق بمحذوف، أي أقول لك. **قوله**: (**لأن الصلة لا تتقدّم على الموصول**) عبارة البيضاوي: لأن معمول الصلة لا يتقدّم على الموصول. اهـ. أشار إلى أن اللام في الناصحين موصول لا حرف، وهو مذهب الجمهور إذا كان اسم الفاعل بمعنى الحدوث، ومعمول الصلة وهو اللام هنا لا يتقدّم. اهـ قنوي.

قوله: (**قرية شعيب**) بن نويب بن مدين بن إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وكان لإبراهيم أربعة بنين: إسمٰعيل وإسحٰق ومدين ومداين، وإليهما

وسطه ومعظم (**نهجه**) فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ وصل ﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذي يسقون منه (**وكان بئرًا**) ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ على جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ (**جماعة كثيرة**) ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تطردان غنمهما عن الماء لأن على الماء مَن هو أقوى منهما فلا تتمكّنان من السقي أو لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم، والذَّود الطرد والدفع ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ (**ما شأنكما**) وحقيقته ما مخطوبكما أي ما مطلوبكما من الذياد فسُمّي المخطوب خطبًا ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ غنمنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مواشيهم (﴿يُصْدِرَ﴾ **شامي ويزيد وأبو عمرو أي يرجع**) والرعاء جمع راعٍ كقائم وقيام ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ﴾ لا يمكنه سقي الأغنام ﴿كَبِيرٌ﴾ في حاله أو في السن لا يقدر على رعي الغنم، أبدتا إليه عذرهما في تولّيهما السقي بأنفسهما.

نُسبت البلدتان مدين ومداين. **قوله**: (**نهجه**) في مختار الصحاح: النَّهج بوزن الفَلْسِ والمَنْهَج بوزن المذهب والمِنهاج الطريق الواضح. **قوله**: (**وكان بئرًا**) إشارة إلى أن المراد بالماء محلّه مجازًا، أو أنه بئر لا عين. **قوله**: (**جماعة كثيرة**) من التنوين أو من لفظ أُمّة من الناس من أناس مختلفين، الأُمة جماعة يجمعهم أمرٌ ما إمّا دين واحد أو زمان أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع حاصلًا لهم اختيارًا أو تسخيرًا، وأخذ اختلاف الناس من لام التعريف لأنه ليس للاستغراق وهو ظاهر ولا للجنس لأن قوله: ﴿يَسْقُونَ﴾ يغني عن بيان أنّ المراد بالأُمّة جنس الناس، فثبت أنه للعهد والمعهود عرفًا أن تكون الجماعة المجتمعة للاستقاء أناسًا مختلفين.

قوله: (**ما شأنكما**) يعني أن الخطب مصدر أُريد به المفعول فهو بمعنى الشأن، والشأن أيضًا مصدر أُريد به المفعول. **قوله**: (﴿يُصْدِرَ﴾) بفتح الياء وضمّ الدال (**شامي**) أي ابن عامر الشامي (**ويزيد**) هو أبو جعفر المدني وليس من السبعة، (**وأبو عمرو**) البصري (**أي يرجع**) يقال: صدر يصدر إذا رجع من الماء وهو لازم والمعنى حتى ينصرف الرعاة، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال من الإصدار وهو متعدٍّ، والمعنى: حتى يردّوا ويصرفوا مواشيهم.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فسقى غنمهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة (للملهوف). رُوِيَ أنه (نحا) القوم عن رأس البئر وسألهم دلوًا فأعطوه دلوهم وقالوا: استقِ بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبّها في الحوض ودعا بالبركة. وترك المفعول في ﴿يَسْقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِ﴾ و﴿لَا نَسْقِى﴾ و﴿فَسَقَىٰ﴾ لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلًا، وكذا في ﴿لَا نَسْقِى﴾ و﴿فَسَقَىٰ﴾ فالمقصود هو السقي لا المسقي. ووجه مطابقة جوابها سؤاله أنه سألهما عن سبب الذَّود فقالتا: السبب في ذلك أنّا امرأتان مستورتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحي من الاختلاط بهم فلا بدَّ لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا. وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور والدين لا يأباه، وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل (البدو) فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصًا إذا كانت الحالة حالة ضرورة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي ظلّ (سمرة)، وفيه دليل جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض (المتقشفة) ولما طال البلاء عليه أنس (بالشكوى) إذ لا نقص في الشكوى إلى المولى ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ﴾ (لأي شيء ﴿أَنزَلْتَ﴾) إِلَىَّ مِنْ

قوله: (المَلْهوف) في مختار الصحاح: الملهوف المظلوم يستغيث.اهـ. **قوله**: (نحا) في لسان العرب: نحا الشيء ينحاه نحيًا ونحّاه فتنحّى أزاله.اهـ. **قوله**: (البدو) في المصباح: البدو مثال فلس خلاف الحضر، وأيضًا فيه: الحضر ـ بفتحتين ـ خلاف البدو.اهـ. وفي مختار الصحاح: البَدْوُ البادية.اهـ. **قوله**: (سمرة) في مختار الصحاح: السَّمُرة ـ بضم الميم ـ من شجر الطَّلح والجمع سَمُر بوزن رَجُل.اهـ. **قوله**: (المتقشفة) المتزهّدة وهم يقولون: لا راحة للمؤمن في الدنيا. **قوله**: (بالشكوى) بالفتح. **قوله**: (لأي شيء) إشارة إلى أن ما نكرة موصوفة لا موصولة لعدم مناسبته للمقام. **قوله**: (﴿أَنزَلْتَ﴾) بمعنى قدرت وأوصلت.

خَيۡرٖ﴾ (قليل أو كثير غثّ أو سمين) ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج، (وعدّى ﴿فَقِيرٌ﴾ **باللام لأنه ضمن**) معنى سائل وطالب. قيل: كان لم يذُق طعامًا سبعة أيام وقد لصق بظهره بطنه. ويحتمل أن يريد أني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليَّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك و(ثروة)، قال ذلك رِضًا بالبدل (السني) وفرحًا به وشكرًا له. وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سرّه من الأنوار.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ على استحياء في موضع الحال أي مستحية، وهذا دليل كمال إيمانها وشرف (عنصرها) لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا، فأتته مستحية قد استترت بكم درعها، و«ما» في ﴿مَا سَقَيۡتَ﴾ مصدرية أي جزاء سقيك. رُوِيَ أنهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما (حُفّل) قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلًا صالحًا رحمنا فسقى لنا. فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى عليه السلام فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي قصته وأحواله مع فرعون، والقصص مصدر (كالعلل) سُمِّي به المقصوص ﴿قَالَ﴾ له ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (**إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا**)، وفيه دليل

قوله: (قليل أو كثير) من شيوع التنكير. **قوله**: (غثّ) في مختار الصحاح: الغَثّ ـ بالفتح ـ اللّحم المهزول. اهـ. **قوله**: (أو سمين) في مختار الصحاح: السمين ضدّ المهزول. **قوله**: (وعدّى ﴿فَقِيرٌ﴾ **باللام لأنه ضمن**). . . الخ. يعني أن فقير يتعدّى بإلى فتعديته باللام لأنه ضمن. . . الخ. **قوله**: (ثروة) الثَّرْوة كثرة العدد. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (السّني) الرفيع.

قوله: (عنصرها) أي أصلها. **قوله**: (حُفَّل) جمع حافل أي ممتلئة الضروع. اهـ لسان العرب. **قوله**: (كالعلل) في المصباح: عللته عللًا من باب طلب سقيته السقية الثانية. اهـ. **قوله**: (**إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا**) ولسنا في

جواز العمل بخبر الواحد ولو عبدًا أو أنثى والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورّع. وأما أخذ الأجْر على البرّ والمعروف فقيل: إنه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى عليه السلام، على أنه رُوِيَ إنها لما قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ كره ذلك وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها لأن للقاصد حرمة. ولما وضع شعيب الطعام بين يديه فقال شعيب: ألست جائعًا؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون عِوَضًا مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمنًا. فقال شعيب عليه السلام: **(هذه عادتنا)** مع كل مَن ينزل بنا فأكل.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيرًا لرعي الغنم. رُوِي أن كبراهما كانت تسمى **(صفراء)** والصغرى صفيراء، وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوجها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقال: وما علمك بقوته وأمانته؟ فذكرت نوع الدلو وأمرها بالمشي خلفه. وورد الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أن أمانته وقوته أمران متحقّقان. وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ كلام جامع لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ **(بالك)** وتمّ مرادك، وقيل: القوي في دينه الأمين في جوارحه. وقد استغنت بهذا **(الكلام الجاري مجرى المثل)** عن أن تقول استأجره لقوته وأمانته.

مملكته، فإن قيل: إن المفسّرين قالوا: إن فرعون يوم خرج على أثر موسى ركب في ألف ألف وستّمائة ألف، والملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار ملكه؟ والجواب أن هذا وإنْ كان نادرًا لكنه ليس بمُحال. **قوله**: (هذه عادتنا) يعني ليس ما بذلناه أجرًا، بل قرى على عادتنا فيه.

قوله: (صفراء) أو صفوراء. **قوله**: (بالك) البال القلب، يقال: ما يخطر فلان ببالي. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: **(الكلام الجاري مجرى المثل)** عبارة الكشاف: الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة.

وعن (ابن مسعود) رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاث: بنت شعيب، وصاحب يوسف في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: الآية ٢١]، (وأبو بكرٍ في عمر).

قوله: (ابن مسعود) أي عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بمعجمة وفاء ـ ابن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمٰن، من السابقين الأوّلين ومن كبار العلماء من الصحابة مناقبه جمّة، مات سنة اثنتين وثلاثين أو في التي بعدها بالمدينة ﷺ.

قوله: (وأبو بكر في عمر) حين استخلفه[1]، أخرج ابن سعد والحاكم عن ابن مسعود قال: أفْرَس الناس ثلاثة: أبو بكر حين استخلف عمر، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، والعزيز حين تفرّس في يوسف فقال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يُوسُف: الآية ٢١]. وأخرج الواقدي من طرق أن أبا بكر لما ثَقُل دعا عبد الرحمٰن بن عوف، قال: أخْبِرْني عن عمر بن الخطاب، فقال: ما تسألني عن أمرٍ إلّا وأنت أعلم به مني، فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمٰن: هو والله أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرني عن عمر، فقال: أنت أخْبَرُنا به، فقال: على ذلك، فقال: اللّهمّ علمي به أن سَريرته خيرٌ من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، وشاوَرَ معهما سعيد بن زيد وأُسَيْد بن الحُضَيْر وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أُسَيْد: اللّهمّ أعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسَّخط الذي يسرُّ خيرٌ من الذي يُعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه، ودخل عليه بعض الصحابة فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربّك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد نرى غِلْظَة؟ فقال أبو بكر: بالله تُخَوِّفني! أقول: اللّهمّ إني استخلفت عليهم خير أهلك أبلغ عني ما قلت من ورائك، ثم دعا عثمان فقال: اكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أوّل عهده بالآخرة داخلًا فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدُق الكاذب إني استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا، فإن عَدَلَ فذلك ظنّي به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكلّ امرء ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة

---

(١) وهو أنه جعله خليفة في حياته. ١٢ منه رحمه الله.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أُزوّجك ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ (**قوله: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ يدل على أنه كان له غيرهما**) وهذه مُواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقدًا لقال: قد أنكحتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ تكون أجيرًا لي من أجَرْته إذا كنت له أجيرًا ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ظرف (**والحجة السَّنَة وجمعها** ﴿حِجَجٖ﴾) والتزوّج على رعي الغنم جائز بالإجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ أي عمل عشر حجج ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ فذلك تفضّل منك ليس بواجبة عليك، أو فإتمامه من عندك (**ولا أُحتّمه**) عليك ولكنك إن فعلته فهو منك تفضّل وتبرّع ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بإلزام أتمّ الأجلين، وحقيقة قولهم: شققت عليه وشقّ عليه الأمر أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شقّ عليك ظنّك باثنين تقول: تارة أطيقه و(**طورًا**) لا أطيقه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

الله وبركاته. ثم أمر بالكتاب فختمه، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختومًا فبايع الناس ورضوا به، ثم دعا أبو بكر عمر خاليًا فأوصاه بما أوصاه، ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه وقال: اللّهمّ إني لم أُرِدْ بذلك إلّا صلاحهم وخفتُ عليهم الفتنة، فعمِلتُ فيهم بما أنت أعلمُ به واجتهدت لهم رأيًا، فولّيتُ عليهم خيرَهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرْشَدهم وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهمْ فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح اللّهمّ وُلاتُهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيّته. وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حمزة، قال: لمّا ثقل أبو بكر أشْرَف على الناس من كُوَّة فقال: أيّها الناس، إني قد عهدت عهدًا فترضون به؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله، فقام عليّ فقال: لا نرضى إلّا أن يكون عمر، قال: فإنه عمر.

قوله: (**قوله: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ يدلَ على أنه كان له غيرهما**)، وقد قال البقاعي: إن له سبع بنات كما في التوراة. **قوله**: (**والحجّة**) بالكسر (**السَّنة وجمعها ﴿حِجَجٖ﴾**) بوزن العِنَب. **قوله**: (**ولا أحتمه**) في مختار الصحاح: الحتم إحكام الأمر، والحَتْم أيضًا القضاء والجمع حُتُوم وحتم عليه الشيء أوجبه، وباب الكل ضرب. اهـ. **قوله**: (**طورًا**) الطَّوْر التارة. اهـ مختار الصحاح.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسن المعاملة والوفاء بالعهد، ويجوز أن يُراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حُسْن المعاملة. والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتّكال على توفيقه فيه ومعونته لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب والخبر ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ يعني ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعًا لا يخرج كِلانا عنه، لا أنا فيما شرطت عليَّ ولا أنت فيما شرطت على نفسك. ثم قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي أيّ أجَلٍ قضيت من الأجَلين يعني العشرة أو الثمانية. و«أيَّ» نصب بـ ﴿قَضَيْتُ﴾ و«ما» زائدة ومؤكدة لإبهام «أيَّ» وهي شرطية وجوابها ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ (أي لا يعتدى عليّ) في طلب الزيادة عليه، قال (المبرّد): قد علم أنه لا عدوان عليه في أيّهما ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتمّ في الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذا طلب الزيادة على الأقل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو مَن وُكِّل إليه الأمر، (وعُدّي بـ «على» لأنه) استعمل في موضع الشاهد والرقيب.

قوله: (أي لا يعتدى عليّ) بيان لحاصل المعنى لا لأن ﴿عَلَيَّ﴾ متعلقة بـ ﴿عُدْوَٰنَ﴾. **قوله**: (المبرد) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر البصري النحوي، نزل بغداد وكان إمامًا في النَّحو واللغة، وله التواليف النافعة في الأدب، منها كتاب الكامل، ومنها الروضة والمقتضب وغير ذلك، أخذ الأدب عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني، وأخذ عنه نفطَوَيْه والمُبَرِّد ـ بضم الميم وفتح الباء الموحدة والراء المشدّدة وبعدها دال مهملة ـ وهو لقب عُرِف به، وكانت ولادة المبرّد يوم الاثنين في عيد الأضحى سنة عشر ومائتين، وقيل: سنة سبع ومائتين، وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجّة، وقيل: ذي القعدة سنة ستّ وثمانين، وقيل: خمس وثمانين ومائتين ببغداد، ودُفِن في مقابر باب الكوفة في دار اشْتُريت له وصلّى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي رحمه الله تعالى.

قوله: (وعدي بـ «على» لأنه)... الخ. وإلّا فالأصل أن يعدّى بكلمة إلى.

رُوِيَ أن شُعيبًا كانت عنده (عصيّ الأنبياء) عليهم السلام فقال لموسى بالليل: أدخل ذلك البيت فخذ عصًا من تلك العُصِي فأخذ عصًا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسّها (وكان مكفوفًا فضنَّ بها) فقال: خذ غيرهما فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأنًا. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت (مفرق الطريق) فلا تأخذ على يمينك فإن (الكلأ) وإن كان بها أكثر إلا أن فيها (تنينا) أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفّها فمشى على أثرها فإذا (عشب) و(ريف) لم يرَ مثله فنام فإذا التنّين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها (دامية) والتنّين

قوله: (عِصِي الأنبياء) بكسر العين وضمّها جمع العصا. اهـ مختار الصحاح. وأيضًا فيه: العصا مؤنّثة. اهـ. **قوله**: (وكان مكفوفًا) في مختار الصحاح: المكفوف الضّرير. اهـ. وأيضًا فيه: رجل ضرير بيّن الضّرارة - بالفتح - أي ذاهب البصر. اهـ. روى شدّاد بن أوس مرفوعًا: «بكى شعيب النبيّ صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلم حتى عَمِيَ، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فقال الله تعالى له: ما هذا البكاء أشوقًا إلى الجنّة أم خوفًا من النار؟ فقال: لا يا ربّ، ولكن شوقًا إلى لقائك، فأوحى الله إليه: إن يكن ذلك فهنيئًا لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك كليمي موسى على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسلام». **قوله**: (فضنّ بها) في مختار الصحاح: ضَنّ بالشيء يَضَنّ - بالفتح - ضِنًّا - بالكسر - وضَنَانة - بالفتح - أي بخل، فهو ضَنِين به، قال الفرّاء: ضنّ يَضِن - بالكسر - لغة. اهـ. **قوله**: (مفرق الطريق) في مختار الصحاح: مَفْرِق الطريق ومَفْرَقه وهو الموضع الذي يتشعّب فيه طريق آخر. اهـ. **قوله**: (الكلأ) على وزن جَبَل العُشْب رطبًا كان أو يابسًا. **قوله**: (تنينًا) التنين ضرب من الحيّات. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (عشب) العُشْب الكلأ الرَّطْب. **قوله**: (ريف) الريف أرضٌ فيها زرع وخصب، والجمع أرْياف. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (دامية) أي مخضوبة بالدم، في المصباح: دمي الجرح دمى من باب تعب ودميًا أيضًا على التصحيح خرج منه الدم، فهو دم على النقص ويتعدّى بالألف والتشديد، وشجّة دامية للتي يخرج دمها ولا يسيل، فإن سال فهي الدّامية.

مقتولًا (**ارتاح**) لذلك. ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم فوجدها ملأى البطون (**غزيرة**) اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنًا وقال له: إني وهبت لك من (**نِتاج غنمي**) هذا العام كل (**أدرع ودرعاء**) فأُوحي إليه في المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فوضعت كلهنّ أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قال عليه السلام: «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما» وهذا بخلاف الرواية التي مرَّت ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ بامرأته نحو مصر. قال ابن عطاء: لما تم أجَل المحنة ودنا أيام (**الزلفة**) وظهرت أنوار النبوّة سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق لأنه قد ضلّ الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ بالنسبة إلى موسى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ العنّاب أو (**العوسج**) ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ «أن» مفسّرة أو مخفّفة من الثقيلة ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال (**جعفر**): أبصر نارًا دلّته على الأنوار لأنه رأى النور في هيئة النار، فلما دنا منها

قوله: (ارتاح) الارتياح النشاط. **قوله**: (غزيرة) كثيرة. **قوله**: (نتاج غنمي) النِّتاج - بالكسر - اسم يشمل وضع البهائم من الغنم وغيرها. اهـ مصباح. **قوله**: (أدرع ودرعاء) في المصباح: درع الفرس، والشاة درعًا من باب تعب، والاسم الدرعة وزان غرفة إذا اسودّ رأسه وابيضّ سائره، وبعضهم يقول: اسودّ رأسه وعنقه، فهو أدرع والأُنثى درعاء مثل أحمر وحمراء. اهـ. أي أبلق وبلقاء.

قوله: (الزُلْفة) القربة والمنزلة. **قوله**: (العوسج) بفتح العين شجرة ذات شوكة تكون في البوادي ثمره بقدر الحمص مع طول. **قوله**: (جعفر) بن محمد بن

شملته أنوار القدس وأحاطت به (جلابيب) الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلَّمًا شريفًا أُعطيَ ما سُئِلَ وأُمِّن مما خاف. والجذوة باللغات الثلاث وقرىء بهنَّ، فعاصم بفتح الجيم، وحمزة وخلف بضمها، وغيرهم بكسرها. العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن، و«من» الأولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة. و﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾ بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء أي الجانب.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ونودي أن ألقِ عصاك فألقاها فقلَبها الله ثُعبانًا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيَّة في سعيها وهي ثُعبان في جثتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يرجع فقيل له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ أي أُمِّنتَ من أن ينالك مكروه من الحية ﴿ٱسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص.

عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الهاشمي المدني الصادق، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء ومحمد بن المنكدر والزهري وغيرهم، روى عنه محمد بن إسحٰق ويحيىٰ الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريج وشعبة ويحيىٰ القطّان وآخرون، واتّفقوا على إمامته وجلالته وسيادته، قال عمرو بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيّين، قال البخاري في تاريخه: وُلد جعفر سنة ثمانين، وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة رحمه الله.

قوله: **(جلابيب)** في المصباح: الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء، وقال ابن فارس: الجلباب ما يغطّى به من ثوب وغيره، والجمع الجلابيب. اهـ.

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهَبِ﴾ **حجازي بفتحتين وبصري**. ﴿ٱلرَّهْبِ﴾ **حفص** ﴿الرُّهْب﴾ **غيرهم**) ومعنى الكل الخوف والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما بك من (**فرق**) أي لأجل الحيّة. عن ابن عباس رضي الله عنهما: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل: معنى ضمّ الجناح أن الله تعالى لمّا قلب العصا حيَّة فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إن اتّقاءك بيدك فيه (**غضاضة**) عند الأعداء (**فإذا اتقيتها**) فكما تنقلب حيّة فأدخِل يدك تحت عضدك مكان اتّقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضمّ جناحه إليه، أو أُريد بضمّ جناحه إليه (**تجلّده**) وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حيّة حتى لا يضطرب ولا يرهَب، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه (**مشمّران**). ومعنى ﴿مِنَ ٱلرَّهَبِ﴾ من أجل الرهب أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحيّة فاضمم إليك جناحك، جعل الرهب الذي كان يصيبه سببًا وعلّة فيما أمر به من ضمّ جناحه إليه. ومعنى ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ و﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين إذ الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء، وفي الثاني إخفاء الرّهب. ومعنى ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: الآية ٢٢] في «طه» أدخل يُمناك تحت

قوله: (﴿مِنَ ٱلرَّهَبِ﴾ **حجازي**) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازي، أي نافع المدني وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة، وابن كثير المكّي (**بفتحتين وبصري**) أي أبو عمرو البصري، وكذا سهل ويعقوب وليسا من السبعة (﴿ٱلرَّهْبِ﴾) بفتح الراء وسكون الهاء (**حفص** ﴿الرُّهْب﴾) بضمّ الراء وسكون الهاء (**غيرهم**) أي ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ﷺ. **قوله**: (فرق) الفَرَق الخوف وقد فَرِقَ منه من باب طَرِبَ، ولا يقال فَرِقه. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (**غضاضة**) أي ذِلّة ومنقصة. **قوله**: (**فإذا اتقيتها**) وفي النسخ الصحيحة: فإذا أَلْقَيْتَها. **قوله**: (**تجلده**) التجلّد إظهار الجَلَادة. **قوله**: (**مشمران**) أي منضمّان إليه.

يُسراك ﴿فَذَٰنِكَ﴾ (**مخففًا مثنى «ذاك» ومشددًا: مكي وأبو عمرو مثنى ذلك**) فإحدى النونين عِوَض من اللام المحذوفة والمراد اليد والعصا ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ حجّتان نَيّرتان بيّنتان وسُمّيت الحجة برهانًا لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء (**برهرهة**) ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ به بغير ياء وبالياء: يعقوب ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ﴾ (﴿مَعِىَ﴾ **حفص**) ﴿رِدْءًا﴾ حال أي عونًا يقال ردأته أعنته، (**وبلا همز: مدني**) ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ **عاصم وحمزة**) صفة أي ردأ مصدِّقًا لي، وغيرهما بالجزم جواب لـ ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت، ألا ترى إلى قوله ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ﴾ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت (**فسحبان**) و(**باقل**) فيه يستويان ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

قوله: (**مخففًا مثنى «ذاك» ومشددًا: مكي وأبو عمرو مثنى ذلك**) أي شدّد ابن كثير المكّي وأبو عمرو البصري النون وخفّفها الباقون. **قوله**: (بَرَهْرَهَة) بتكرير العين واللام معًا، والدليل على زيادة النون قولهم: أَبْرَهَ الرجل إذا جاء بالبرهان. اهـ كشاف.

قوله: (﴿مَعِىَ﴾) بفتح الياء (حفص)، والباقون بالإسكان. **قوله**: (**وبلا همز مدني**) أي قرأ نافع وأبو جعفر بنقل حركة الهمزة التي بعد الدال إلى الدال وحذفها، والباقون بإسكان الدال وهمزة مفتوحة منوّنة بعده. **قوله**: (﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾) بضمّ القاف (**عاصم وحمزة**). **قوله**: (فَسَحْبان) في الصحاح: سحبان اسم رجل من وائل كان لَسِنًا بليغًا يُضرب به المثل في البيان. والفَصاحة فيقال: أفصح من سَحبانِ وائل. اهـ تاج العروس. **قوله**: (باقل) في مجمع الأمثال: (أعْيا من بَاقِل) هو رجل من إياد، قال أبو عبيدة: باقل رجل من ربيعة بلغ من عيّه أنه اشترى ظبيًا

(﴿يكذبوني﴾ في الحالين): يعقوب.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (سنقويك به) إذ اليد تشدّ بشدة العضد لأنه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مُزاولة الأمور ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ غَلَبة وتسلّطًا وهيبة في قلوب الأعداء ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء تعلق بـ ﴿يَصِلُونَ﴾ أي لا يصلون إليكما بسبب آياتنا وتمّ الكلام، أو بـ ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي نسلّطكما بآياتنا أو بمحذوف أي اذهبا بآياتنا، (أو هو بيان لـ ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾) لا صلة،

بأحد عشر درهمًا فمرّ بقوم فقالوا له: بكم اشتريت الظبي؟ فمدّ يديه ودَلَع لسانه يريد أحد عشر، فشرد الظبي وكان تحت إبطه، قال حميد الأرقط في ضيف له أكثر من الطعام حتى منعه ذلك من الكلام:

إيّانا وما داناه سحبان وائل ... بيانًا وعلمًا بالذي هو قائل
فما زال منه اللّقم حتى كأنه ... من العيّ لما أنّ تكلم باقل
يقول وقد ألقى المراسي للقرى ... أبن لي ما الحجاج بالناس فاعل
يدلّ كفاه ويحدر حلقه ... إلى البطن ما ضمّت عليه الأنامل
فقلت لعمري ما لهذا طرقنا ... فكلّ ودع الإرجاف ما أنت آكل

اهـ. **قوله**: («يكذبوني») بزيادة ياء بعد النون (في الحالين) وكذا ورش وصلًا، والباقون بحذفها مطلقًا.

قوله: (سنقويك به). . . الخ. يعني أن ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ عبارة عن قوله: سنقوّيك فهو مجاز مرسل على طريق إطلاق السبب وإرادة المسبّب بمرتبتين، فإن شدّة العضد سبب مستلزم لشدّة اليد، وشدّة اليد مستلزمة لقوّة الشخص؛ فشدّة العضد سبب لقوّة الشخص في المرتبة الثانية، فصحّ أن تطلق شدّة العضد ويُراد بها قوة الشخص على طريق المجاز المرسل. اهـ شيخ زاده رحمه الله. **قوله**: (أو هو بيان لـ ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾) لا صلة، كأنه قيل: بماذا تغلب؟ فأُجيب: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، فالباء متعلقة

(أو قسم جوابه ﴿لا يصلون﴾ مقدمًا عليه) ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله، أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حال منصوبة عن هذا أي كائنًا في زمانهم يعني ما حدّثنا بكونه فيهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي ربي أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيًا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعني نفسه، ولو كان كما تزعمون ساحرًا مُفتريًا لما أهّله لذلك لأنه غنيٌّ حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبىء الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون. وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد: الآيتان ٢٢، ٢٣]. والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها أن يُختَم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقّي الملائكة بالبشرى والغفران. (﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾) بغير واو: (مكي) وهو حسن لأن الموضع موضع سؤال وبحث عمّا أجابهم موسى عند تسميتهم مِثل تلك الآيات العِظام سحرًا مُفترى، ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليُوازن الناظر بين القول والمَقول

بمحذوف قدّر بيانًا للغالبون ولا يتعلق بنفس الغالبون؛ لأن اللام فيه موصولة بمعنى الذي، ولا يتقدّم ما في حيّز الصلة عليها إلّا أن يكون اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي، فحينئذ يجوز أن تتعلق الباء به.

قوله: (أو قسم جوابه ﴿لا يصلون﴾ مقدمًا عليه) فيه تساهل؛ لأن جواب القسم لا يتقدَّم عليه، وأيضًا لا تدخل الفاء في جواب القسم عند الجمهور، ولعلّ مراده أنه قسم حُذِف جوابه اعتمادًا على دلالة ما قبله عليه.

قوله: («قال موسى») بغير واو قبل القاف (مكّي) أي ابن كثير المكي على الاستئناف، والباقون بإثبات الواو عطفًا للجملة على ما قبلها.

ويتبصَّر فساد أحدهما وصحة الآخر. (﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ﴾ حجازي وأبو عمرو ﴿مَن يَكُونُ﴾ حمزة وعلي).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده أي ما لكم من إله غيري أو هو على ظاهره وأن إلهًا غيره هو معلوم عنده ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي اطبخ لي (الآجر اللبن) واتخذه. (وإنما لم يقل مكان الطين هذا) لأنه أول مَن عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة، ولأنه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة إذ أمر هامان وهو وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه بـ «يا» في وسط الكلام دليل التعظّم والتجبّر ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾ أي أصعد والاطّلاع الصعود ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ حسب أنه تعالى في مكان كما كان هو في مكان ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي موسى ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه أن له إلهًا وأنه أرسله إلينا رسولاً. وقد تناقض المخذول فإنه قالَ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهًا وأخبر أنه غير متيقّن بكذبه وكأنه تحصَّن من عصا موسى عليه السلام فلبَّس وقال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ رُوِيَ أن هامان جمع خمسين ألف بناء وبنى صرحًا لم يبلغه بناء أحد من الخلق، فضرب الصَّرح جبريل عليه السلام بجناحه

قوله: (﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ﴾) بفتح الياء (**حجازي**) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازي، أي نافع المدني وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة، وابن كثير المكّي (**وأبو عمرو**). **قوله**: (﴿مَن يَكُونُ﴾) بالياء من تحت على التذكير (**حمزة وعلي**) الكسائي، والباقون بالتاء الفوقية على التأنيث.

قوله: (**الآجرّ اللبن**) إذا طُبِخ بمدّ الهمزة والتشديد أشهر من التخفيف، الواحدة آجرّة وهو معرّب. اهـ مصباح. **قوله**: (**وإنما لم يقل مكان الطين هذا**)... الخ. أي أمر باتّخاذه على وجه يتضمّن تعليم الصّنعة، حيث قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى﴾ على الطين، ولم يقل: اطبخ لي الآجرّ واتّخذه، والوجد في كون التعريض بتعليم

فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، وقطعة في البحر، وقطعة في المغرب ولم يبقَ أحد من عمّاله إلا هلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ تعظّم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بالباطل، فالاستكبار بالحق لله تعالى وهو المتكبِّر على الحقيقة أي المتبالغ في كبرياء الشأن كما حكى رسولنا عن ربه: («**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمَنْ نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار**»). وكل مُستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (﴿يرجعون﴾ نافع وحمزة وعلي وخلف ويعقوب).

الصنعة مبنيًّا على التعظيم أنّ إيقاد النار على الشيء المسمّى بالطين أمرٌ هيّن حقير يقدر عليه العجائز والصبيان، فيكون التعبير عن الأمر بطبخ الآجر الذي يكفي لبناء الصَّرح المذكور بقوله: أوقد لي على الطين مبنيًّا على الإهانة بطبخه وعدم الاعتداد به، ولأن طبخ الآجر صنعة خسيسة لا يليق بالملوك وعظماء الناس أن يأمروا بها ويذكروا اسمها على ملأ الناس، وكذلك كل واحد من نداء وزيره باسم العلم من غير تكنية وتلقيب ونداءه بحرف يا الموضوع لنداء البعيد مع كون المُنادى قريبًا ونداءه في وسط الكلام مع أن العادة تقديم النداء على المُنادى له مبني على التعظم والتجبّر، ودليلٌ عليه أمّا كون الأوّلين مبنيّين على التعظم فظاهر، وأمّا كون الثالث مبنيًّا عليه؛ فلأنه لو قدّم النداء وقيل: يا هامان أوقد لي لزم أن يقدّم ذكر هامان على ذكر نفسه، ولم يرضَ به تعظّمًا وتجبّرًا.

قوله: (**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**) أي هما صفتان خاصّتان بي فلا يليقان إلّا بي، (**فمَنْ نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار**) لتشوّفه إلى ما لا يليق إلّا بالواحد القهّار، رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ورواه ابن ماجة أيضًا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. **قوله**: (﴿**يرجِعون**﴾) ببنائه للفاعل بفتح الياء وكسر الجيم (**نافع وحمزة وعليّ**) الكسائي (**وخلف ويعقوب**)، والباقون بضمّ الياء وفتح الجيم مبنيًّا للمفعول.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من الكلام المفخم الذي دلّ على عظمة شأنه شبّههم استقلالًا لعددهم وإن كانوا **(الجم الغفير)** بحصيات أخذهن آخذ بكفّه فطرحهنّ في البحر ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحذر قومك فإنك منصور عليهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي عمل أهل النار. قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم في ظلمات نفوسهم لا يدلّون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة خلق أفعال العباد ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من العذاب ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ ألزمناهم طردًا وإبعادًا عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المطرودين المُبعَدين أو المهلكين **(المشوهين)** بسواد الوجوه **(وزرقة العيون)** ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف لـ ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والبصيرة نور القلب الذي **(يبصر به الرشد)** والسعادة كما أن البصر نور العين الذي

قوله: (الجمَ الغفير) أي الجماعة الكثيرة.

قوله: (المشوهين) في مختار الصحاح: شاهت الوجوه قَبُحت، وبابه قال، وشوّهه الله تعالى تشويهًا فهو مُشَوّه. اهـ. **قوله:** (زرقة العيون) في المصباح: الزُّرقة من الألوان والذكر أزرق والأنثى زرقاء والجمع زُرق مثل أحمر وحمراء وحُمر. اهـ.

قوله: (يبصر به الرشد) أي يدرك.

يبصر به الأجساد. يريد آتيناه التوراة أنوارًا للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقًّا من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشادًا لأنهم كانوا (يخبطون) في ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمَن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى (نيل الرحمة) ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب وهو الذي وقع فيه ميقات موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي كلّمناه وقرّبناه نجيًا ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحي إليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ بعد موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي طالت أعمارهم و(فترت) النبوّة وكادت الأخبار تخفى واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها، فأرسلناك مجددًا لتلك الأخبار مبيّنًا ما وقع فيه التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى كأنه قال: وما كنت شاهدًا لموسى وما جرى عليه ولكنّا أوحيناه إليك، فذكر سبب الوحي هو إطالة (الفترة) ودلَّ به على المسبّب اختصارًا فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلّمًا منهم يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه. و﴿تَتْلُواْ﴾ في موضع نصب خبر ثانٍ أو حال من الضمير في ﴿ثَاوِيًا﴾ ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكنّا أرسلناك وأخبرناك بها وعلّمناكها.

قوله: (**يخبطون**) في لسان العرب: الخبط كل سَيْر على غير هدى.اهـ. **قوله**: (**نيل الرحمة**) في مختار الصحاح: نال خيرًا يناله نَيْلًا أصاب، وأصله نَيِل يَنْيَل مثل فَهِم يَفْهَم والأمر منه نَلْ بفتح النون، وإذا أخبرت عن نفسك كسرت النون.اهـ.

قوله: (فترت) أي انقطعت. **قوله**: (الفترة) الانقطاع.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة ﴿وَلَـٰكِن﴾ أعلمناك وأرسلناك ﴿رَّحْمَةً﴾ للرحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (في زمان الفترة) بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والظلم. ولمّا كانت أكثر الأعمال تُزاوَل بالأيدي نسبت الأعمال إلى الأيدي وإن كانت من أعمال القلوب تغليبًا للأكثر على الأقل عند العذاب ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ («لو» الأولى امتناعية) وجوابها محذوف، (والثانية تحضيضية)، والفاء الأولى للعطف والثانية جواب «لولا» لكونها في حكم الأمر إذ الأمر باعث على الفعل والباعث والمُحَضّض من وادٍ واحد، والفاء تدخل في جواب الأمر والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشِّرك والمعاصي هلّا أرسلت إلينا رسولًا محتجِّين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني أن إرسال الرسول إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله: (﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾) [النساء: الآية ١٦٥]. فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول «لولا» الامتناعية عليها دونه؟ قلت: القول هو المقصود بأن يكون سببًا للإرسال ولكن

قوله: (في زمان الفترة)... الخ. وفي رواية أخرى عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه: ستّمائة سنة. **قوله**: (لو الأُولى امتناعية) هي التي تدلّ على امتناع القضية الثانية لوجود القضيّة الأُولى، والقضية الثانية هي جوابها وهو محذوف هٰهنا، وهو لما أرسلنا إليهم، وهي هٰهنا دلّت على امتناع عدم الإرسال لوجود قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم على تقدير عدم الإرسال ربّنا هلّا أرسلت إلينا رسولًا... الخ.

قوله: (والثانية تحضيضية) هي بمعنى هلّا للحثّ والحضّ على وقوع أمر. **قوله**: (﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾) أي: أرسلناهم (﴿لِئَلَّا يَكُونَ

العقوبة لما كانت سببًا للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال فأُدخلت عليها «لولا» وجيء بالقول معطوفًا عليها بالفاء **(المعطية)** معنى السببية، و**(يؤوّل)** معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي القرآن أو الرسول المصدّق بالكتاب المُعجز ﴿قَالُوا۟﴾ أي كفّار مكة ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ هلّا أعطي ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب المُنزَّل جملة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ يعني أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكَفَرَة في زمن موسى عليه السلام ﴿بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿قَالُوا۟﴾ في موسى وهارون ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [ساحران تظاهرا] تعاونا ـ (﴿سِحْرَانِ﴾ **كوفي**) أي ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفها بالسحر ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ بكل واحد منهما ﴿كَٰفِرُونَ﴾ وقيل: إن أهل مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة وقالوا في موسى ومحمد: ساحران تظاهرا، أو في التوراة والقرآن سحران تظاهرا، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فأخبروهم أنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾) مقال (﴿بَعْدَ﴾) إرسال (﴿ٱلرُّسُلِ﴾) إليهم، فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فبعثناهم لقطع عذرهم. اهـ جلالين. **قوله**: **(المعطية)** معنى السببية أي الدالّة عليه. **قوله**: **(يؤول)** أي يرجع، في مختار الصحاح: أي رجع، وبابه قال. اهـ.

قوله: (﴿سِحْرَانِ﴾) بكسر السين وسكون الحاء بلا ألف (كوفي) أي عاصم وحمزة والكسائي وخلف بن هشام وليس من السبعة وله اختيار، والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مما أنزل على موسى وما أُنزل عليّ ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب ﴿فَأْتُوا﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهما سحران ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإن لم يستجيبوا (دعاءك) إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبقَ لهم حجة إلا اتباع الهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أضلّ ممّن اتبع في الدين هواه و﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ حال أي (مخذولًا) يخلّي بينه وبين هواه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوصيل وتكريره يعني أن القرآن أتاهم متتابعًا متواصلًا وعدًا ووعيدًا وقصصًا و(عبرًا) ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن وخبر ﴿الَّذِينَ﴾ ﴿هُم بِهِ﴾ بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل نزول القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ كائنين على

قوله: (دعاءك)... الخ. لأن الأمر بالإتيان به دعاء أي طلب له منهم، فالدعاء بمعناه اللغوي وهو المفعول المحذوف والعلم به من الاستجابة، لأنها الدعاء. اهـ شهاب. وفي الكمالين: حذف المفعول لأن فعل الاستجابة يتعدّى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي، فإذا عدّى إليه حذف الدعاء، قال الزمخشري: لا يقال استجاب له دعاءه إلّا نادرًا. اهـ. **قوله**: (مخذولًا) في مختار الصحاح: خَذَله يخذُله ـ بالضم ـ خِذلانًا ـ بكسر الخاء ـ ترك عونه ونصرته. اهـ. **قوله**: (عبرًا) جمع عبرة.

دين الإسلام، مؤمنين بمحمد عليه السلام، وقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعليل للإيمان به لأن كونه حقًّا من الله (**حقيق**) بأن يؤمن به، وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بيان لقوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيمانًا قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن إيمانهم به (متقادم).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن، أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يزكّون ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ الباطل أو الشّتم من المشركين ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ﴾ للاغين ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمان منّا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل مَن أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بمَن يختار الهداية ويقبلها ويتّعظ بالدلائل والآيات. قال الزجّاج: أجمع المفسّرون على أنها نزلت في (أبي طالب)، وذلك

قوله: (حقيق) أي لائق. **قوله**: (متقادم) في مختار الصحاح: قدُم الشيء ـ بالضمّ ـ قِدَمًا بوزن عِنَب فهو قديم وتقادم مثله، انتهى بحروفه.

قوله: (أبي طالب) كني باسم أكبر ولده، وهم: طالب، فعقيل، فجعفر، فعليّ؛ وكل أكبر ممن يليه بعشر سنين، وأختهم أُمّ هانىء، قيل: وجمانة أخت لهم ثانية، وأسلموا كلّهم إلّا طالبًا فمات كافرًا، والصحيح أن أبا طالب وأُمّه فاطمة بنت عمرو لم يسلم، وذكر جمع من الرافضة أنه مات مسلمًا وتمسّكوا بأشعار وأخبار واهية تكفّل بردّها في الإصابة، واسم أبي طالب عبد مناف.

أنه قال عند موته: يا معشر بني هاشم صدِّقوا محمدًا تفلحوا. فقال عليه السلام: يا عمّ تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك. قال: فما تريد يا ابن أخي؟ قال: أريد منك أن تقول لا إلـه إلّا الله أشهد لك بها عند الله، قال: يا ابن أخي أنا قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يُقال (خرع) عند الموت. وإن كانت الصيغة عامّة، والآية حجّة على المعتزلة لأنهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدلّ أن وراء البيان ما يسمّى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾، قالت قريش: نحن نعلم أنك على الحق ولكنّا نخاف إن اتّبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا، **(فألقمهم الله الحجر)** بأنه مكّن لهم في الحرم الذي أمنه بحرمة البيت وأمن (قطانه) بحرمته، والثمرات تُجبَى إليه من

فائدة:

أعمامه ﷺ أحد عشر، أحدهم: الحارث وهو أكبر أولاد عبد المطّلب وبه كان يكنى، وقُثَم، والزبير، وحمزة، والعباس، وأبو طالب، وأبو لهب، وعبد الكعبة، وحجل ـ بحاء مهملة ثم جيم ساكنة ـ وضرار، والغَيْداق. أسلم منهم حمزة والعباس، وكان حمزة أصغرهم سنًّا لأنه رضيع رسول الله ﷺ، ثم العباس قريبٌ منه في السنّ، وكان يَلِي زمزم بعد أبيه عبد المطلب، وكان أكبر سنًّا من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

قوله: (خرع) بالخاء المعجمة والراء من باب طَرِب، أي جبن وضعف، ورُوي بالجيم والزاي، قال في مختار الصحاح: خَرِعَ الرجل من باب طَرِب، أي ضَعُف فهو خَرِعٌ. اهـ. **وأيضا فيه**: الجَزَع ضد الصبر وبابه طرب. اهـ.

قوله: (فألقمهم الله الحجر) يقال: ألقمه الحجر إذا أسكته بالحجّة. **قوله**: (قطانه) في مختار الصحاح: قطن بالمكان أقام به وتوطّنه فهو قاطن، وبابه دخل

كل (أوب) وهم كَفَرَة، فأنَّى يستقيم أن يعرضهم للتخطّف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟ وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ (وبالتاء: مدني ويعقوب وسهل) أي تجلب وتجمع ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ معنى الكلية الكثرة كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: الآية ٢٣] ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ هو مصدر لأن معنى ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يرزق أو مفعول له أو حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصّصها بالإضافة كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (متعلق بـ ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾) أي قليل منهم يقرّون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جَهَلَة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطّف إذا آمنوا به.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر فأهلكوا. و﴿كَمْ﴾ نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بحذف الجار وإيصال الفعل أي في معيشتها، والبطر سوء احتمال الغني وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال والعامل فيها الإشارة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى أي لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يومًا أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لتلك المساكن من ساكِنِيها أي لا يملك التصرف فيها غيرنا.

والجمع قُطَّان. اهـ. **قوله**: (أوْب) أي مرجع. اهـ مصباح. أي جانب وجهة. اهـ شهاب. **قوله**: (وبالتاء) من فوق (مدني) أي نافع المدني وأبو جعفر المدني وليسا من السبعة، (**ويعقوب**) بن إسحٰق البصري (وسهل) بن محمد البصري وليسا من السبعة، والباقون بالياء من تحت ووجهها ظاهر؛ لأن التأنيث في الفاعل مجازيّ.
قوله: (متعلق ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾) أي تعلّقًا معنويًا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ في كل وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ **(وبكسر الهمزة: حمزة وعلي)** أي في القرية التي هي أُمها أي أصلها ومعظمها ﴿رَسُولًا﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أُم القرى ـ يعني مكة لأن الأرض دُحِيَت من تحتها ـ رسولًا، يعني محمدًا عليه السلام ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو إصرارهم على كفرهم وعنادهم ومُكابرتهم **(بعد الإعذار)** إليهم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وأيّ شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتّع وزينة أيامًا قلائل وهي مدة الحياة الفانية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه دائم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني. وخيّر أبو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لا غير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما. إن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن والمُنافق والكافر. فالمؤمن يتزوّد، والمُنافق يتزين، والكافر يتمتع.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم قرر هذه الآية بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي الجنة فلا شيء أحسن منها لأنها دائمة ولذا سُمِّيت الجنة بالحسنى ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي رائيه ومُدركه ومُصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين

قوله: (وبكسر الهمزة) في الوصل (حمزة وعليّ)، والباقون بضمّها والجميع يبتدؤون بضمّ الهمزة. **قوله**: مكابرتهم بمعنى عنادهم. **قوله**: **(بعد الإعذار)** أي المبالغة في الموعظة. اهـ تاج العروس.

أحضروا النار ونحوه فكذبوه فإنهم لمُحضَرون. نزلت في رسول الله ﷺ (وأبي جهل) لعنه الله، أو في (عليّ) و(حمزة) وأبي جهل، أو في المؤمن والكافر، ومعنى الفاء الأولى أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ أي أبعد هذا التفاوت الجليّ يسوّي بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، والفاء الثانية للتسبيب لأن لقاء الموعود مُسَبّب عن الوعد. و«ثم» لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع (﴿ثُمَّ هُوَ﴾ عليّ كما قيل: عضد في عضد شبه المنفصل بالمتصل) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي الله الكفّار نداء توبيخ وهو عطف على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو منصوب بـ «ذكر» ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بناء على زعمهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ومفعولا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ محذوفان تقديره: كنتم تزعمونهم شركائي، ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت (ولا يجوز الاقتصار) على أحدهما.

قوله: (أبي جهل) عمرو بن هشام بن المغيرة يكنى أبا الحكم، فكناه النبيّ ﷺ أبا جهل، فغلبت عليه هذه الكنية قتله ابنا عفراء وقطع رأسه ابن مسعود في بدر. **قوله**: (عليّ) بن أبي طالب بن عبد المطلّب بن هاشم الهاشمي ابن عمّ النبيّ ﷺ وزوج ابنته، من السابقين الأوّلين المرجح أنه أوّل مَنْ أسلم وهو أحد العشرة، مات في رمضان سنة أربعين وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض بإجماع أهل السنّة، وله ثلاث وستّون سنة على الأصحّ ؓ. **قوله**: (حمزة) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهو عمّ رسول الله ﷺ وأخوه من الرّضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وأرضعت أبا سلمة بن عبد الأسد، وكان حمزة رضي الله تعالى عنه وأرضاه أسنّ من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بأربع سنين، والأوّل أصح، وهو سيّد الشهداء وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، أسلم في السنة الثانية من المبعث، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وشهد أُحدًا فقُتِل بها يوم السبت النصف من شوّال من سنة ثلاث، وكان قَتَل من المشركين قبل أن يُقتل أحدًا وثلاثين نفسًا منهم سباع الخزاعيّ. **قوله**: (﴿ثُمَّ هُوَ﴾) بسكون الهاء (عليّ) الكسائي (كما قيل: عَضْد في عَضْد شبه المنفصل بالمتّصل) والمنفصل هو الميم الأخيرة من ثمّ مع ما بعده لأنه بوزن عضد فجعل مثله وسكن كما يسكن للتخفيف. **قوله**: (ولا يجوز الاقتصار) على أحدهما على الأصح.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي الشياطين أو أئمة الكفر. ومعنى حقّ عليهم القول وجب عليهم مُقتضاه وثبت وهو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: الآية ١٣]، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ أي دعوناهم إلى الشِّرك و(**سوّلنا**) لهم الغيّ صفة والراجع إلى الموصول محذوف والخبر ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ والكاف في ﴿كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيًّا مثل ما غوينا يعنون أنّا لم نغوِ إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغوائنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلًا فلا فرق إذًا بين غيّنا وغيّهم، وإن كان تسويلنا داعيًا لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب وهو كقوله: (﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾) إلى قوله: (﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾) [إبراهيم: الآية ٢٢] ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ بل يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

قوله: (**سوّلنا**) أي زيّنا. **قوله**: (﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾)... الخ. في تفسير الجلالين في سورة إبراهيم: (﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾) إبليس (﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾) وأدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار واجتمعوا عليه (﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾) بالبعث والجزاء فصدقكم (﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾) أنه غير كائن (﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم﴾) من زائدة ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] قوّة وقدرة أقهركم على متابعتي (﴿إِلَّآ﴾) لكن (﴿أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾) على إجابتي (﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾) بمغيثكم (﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾) بفتح الياء وكسرها (﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾) بإشراككم إياي مع الله (﴿مِن قَبۡلُۗ﴾) في الدنيا، قال تعالى: (﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾) الكافرين (﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾) مؤلم. اهـ.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَقِيلَ﴾ للمشركين ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي الأصنام لتخلّصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف أي لما رأوا العذاب ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ الذين أُرسِلوا إليكم. حكى أولًا ما يوبِّخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين أو أئمة الكفر عند توبيخهم، لأنهم إذا وبّخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم، ثم ما يشبه (**الشماتة**) بهم لاستِغاثتِهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يُبكّتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرُّسُل وإزاحة العِلل.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشِّرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بربه وبما جاء من عنده ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي فعسى أن يفلح عند الله. و«عسى» من الكرام تحقيق، وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام وترغيب للكافرين على الإيمان. ونزل جوابًا لقول (**الوليد بن المغيرة**): ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣١]. يعني نفسه (**أو أبا مسعود**).

قوله: (الشَّماتة) الفَرَح ببلية العدوّ، وبابه سَلِم.

قوله: (الوليد بن المغيرة) المخزومي أبو خالد. **قوله**: (أو أبا مسعود) هو عروة بن مسعود بن معتب، وهو ممّن أرسله قريش إلى النبيّ ﷺ يوم الحديبية، فعاد إلى قريش وقال لهم: قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها، وقال ابن إسحٰق: إنّ رسول الله ﷺ لما انصرف عن ثقيف اتّبع أثره عروة بن مسعود بن

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وفيه دلالة خلق الأفعال، ويوقف على ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أي وربك يخلق ما يشاء وربك يختار ما يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي ليس لهم أن يختاروا على الله شيئًا ما وله الخيرة عليهم. ولم يدخل العاطف في ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ لأنه بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. ومَن وصل على معنى ويختار الذي لهم فيه الخيرة فقد أبعد بل «ما» لنفي اختيار الخلق تقريرًا لاختيار الحق، ومَن قال: ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال. والخيرة من التخيّر يستعمل بمعنى المصدر وهو التخيّر وبمعنى المتخيّر كقولهم: «محمد خيرة الله من خلقه» ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي الله بريء من إشراكهم وهو مُنَزَّه عن أن يكون لأحد عليه اختيار ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله ﷺ وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه وقولهم هلّا اختير عليه غيره في النبوة.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ وهو **(المستأثر بالإلـهية)** المختصّ بها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك كقولك: «القبلة الكعبة لا قبلة إلا هي». ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدنيا

معتب فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، وكان فيهم محبّبًا مُطاعًا، فرجع إليهم وأظهر دينه ودعاهم إلى الإسلام فرموه بالنّبل من كل وجه، وأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، فادفنوني في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ؛ فيزعمون أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه كمثل صاحب ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ [يس: الآية ١] في قومه»، وفي صحيح مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ورأيت عيسى ابن مريم فإذا قريب من رأيت به شَبَهًا عروة بن مسعود».

قوله: (المستأثر بالإلـهية) في تاج العروس: استأثر بالشيء استبدّ به وانفرد، واستأثر بالشيء على غيره حضّ به نفسه.

﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ هو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: الآية ٣٤]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: الآية ٧٤]، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: الآية ٧٥]. والتحميد ثمة على وجه اللذّة (**لا الكلفة**) ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء بين عباده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والنشور. (**وبفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب**).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ (**أريتم محذوف الهمزة: علي**) ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ هو مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلَ﴾ أي دائمًا من (**السرد**) وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم («**ثلاثة سرد وواحد فرد**») والميم مزيدة ووزنه فعمل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ والمعنى أخبروني مَن يقدر

قوله: (**لا الكلفة**) أي لا بناء على الأمر بالتكليف، ومما يدلّ على أن الحمد في الآخرة على وجه اللذّة لا على وجه الكلفة ما رُوِيَ عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يمتخطون»، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء وريح كريح المسك يلهمون التسبيح والتقديس كما يُلهمون النفس». والإلهام أن يلقي الله تعالى في النفس أمرًا يبعثه على الفعل أو الترك، وهو نوعٌ من الوحي، فإنّ قوله عليه السلام: «يلهمون» يدلّ على أنّهم لا يكلّفون بهما. اهـ شيخ زاده ﷺ. وفي المصباح: الكلفة ما تكلّفه على مشقة، والجمع كلف مثل غرفة وغرف، والتكاليف المشاقّ أيضًا الواحدة تكلفة وكلفت الأمر من باب تعب حملته على مشقّة ويتعدّى إلى مفعولٍ ثانٍ بالتضعيف، فيقال: كلفته الأمر فتكلّفه مثل حملته فتحمّله وزنًا ومعنى على مشقّة أيضًا. اهـ. **قوله**: (**بفتح التاء وكسر الجيم**) مبنيًا للفاعل (**يعقوب**) وليس من السبعة.

قوله: (**«أريتم» محذوف الهمزة: عليَ**) الكسائي، والباقون بالتحقيق. **قوله**: (**السرد**) من باب قتل. **قوله**: (**ثلاثة سرد وواحد فرد**) أي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم متوالية، ورجب فرد.

على هذا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار فيكون من باب اللف والنشر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه. وقال الزجّاج: يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضل الله فيهما، ويكون المعنى جعل لكم الزمان ليلاً ونهارًا لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليُؤذَن أن لا شيء أجلَب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخَل في مرضاته من توحيده.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني نبيهم لأن الأنبياء للأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشِّرك ومخالفة الرُّسل ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ التوحيد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من ألوهية غير الله والشفاعة لهم.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ﴾ لا ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرنت الشيء لانصرف ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان إسرائيليًّا ابن عمّ لموسى فهو قارون بن

(يصهر بن قاهث) بن لاوي بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث، وكان يسمى المنوّر لحُسْن صورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم. قيل: ملَّكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم، أو من البغي الكبر تكبّر عليهم بكثرة ماله وولده، أو زاد عليهم في الثياب شبرًا ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ «ما» بمعنى الذي في موضع نصب بـ ﴿آتينا﴾ و«إن» واسمها وخبرها صلة الذي ولهذا كسرت «إن». والمفاتح جمع مفتح **(بالكسر)** وهو ما يفتح به أو مَفتح **(بالفتح)** وهو الخزانة والأصوب أنها المقاليد ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلًا لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على **(إصبع)** وكانت من جلود ﴿أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ الشدة ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي المؤمنون وقيل: القائل موسى عليه السلام ومحل ﴿إِذْ﴾ نصب بـ ﴿تنوء﴾ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ **(لا تبطر)** بكثرة المال كقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٣] ولا يفرح بالدنيا إلا مَن رضي بها واطمأن، وأما مَن قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ البطرين بالمال.

قوله: **(يصهر)** بياء تحتية مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وهاء مضمومة وراء **(ابن قاهث)** ـ بقاف وهاء مفتوحة وثاء مثلثة ـ ابن لاوي مقصور. **قوله**: **(بالكسر)** اسم آلة. **قوله**: **(بالفتح)** اسم مكان.

قوله: **(إصبع)** في المصباح: الإصبع مؤنثة، وكذلك سائر أسمائها مثل الخنصر والبنصر، وفي كلام ابن فارس ما يدلّ على تذكير الإصبع، فإنه قال: الأجود في إصبع الإنسان التأنيث. وقال الصغاني أيضًا: يذكّر ويؤنّث، والغالب التأنيث. قال بعضهم: وفي الإصبع عشر لغات تثليث الهمزة مع تثليث الباء، والعاشرة أصبوع وزان عصفور، والمشهور من لغاتها كسر الهمزة وفتح الباء، وهي التي ارتضاها الفصحاء. اهـ. **قوله**: **(لا تبطر)** البطر فرح ينشأ من الغرور بالنعمة، بابه طرب.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغنى و(**الثروة**) ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ﴾ بأن تتصدق على الفقراء وتَصِل الرَّحم وتصرف إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وهو أن تأخذ ما يكفيك ويُصلحك. وقيلَ معناه واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ أو أحسِن بشكرك وطاعتك لخالق (**الأنام**) كما أحسن إليك بالإنعام ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ بالظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ أي على استحقاق لما فيَّ من العلم الذي فضِّلت به الناس وهو علم التوراة (**أو علم الكيمياء**)، وكان يأخذ (**الرصاص**) والنحاس فيجعلهما ذهبًا، أو العلم بوجوه المكاسب من التجارة

قوله: (الثَّرْوَة) كثرة العدد. **قوله**: (الأنام) في المصباح: الأنام الجن والإنس، وقيل: الأنام ما على وجه الأرض من جميع الخلق.اهـ.

قوله: (أو علم الكيمياء) الكيمياء لفظ يوناني بمعنى الحيلة، ثم غلب على تحصيل النقدين بطريق مخصوص، وقد قيل: إنه كان تعلَّمها من موسى عليه السلام، وقيل: إنه لا أصل له. وقال الطيبي: إنه من قبيل المعجزة لِمَا فيه من قلب الأعيان، فلذا أنكره بعض الحكماء وردّ بأنه لو كان معجزة لما قبل التعلم وهو ضعيف؛ لأن القائل بأنه معجزة لا يسلم التعلم وإثباته مشكل، بل يقال في الردّ إنه بمباشرة الأسباب، فقلب الأعيان إنْ كان بمباشرة الأسباب فليس بمعجزة، وإن كان بدون الأسباب كقلب عصى موسى حيّة فمعجزة، فالظاهر أنها ليست بمعجزة، بل علم من العلوم الغريبة.اهـ قنوي. وفي حاشية تفسير البيضاوي للعلامة الشهاب: ذلك العلم اليقيني، وكان ذلك وسيلة لغشّ حرم.اهـ. **قوله**: (الرَّصاص) بالفتح.

والزراعة. و﴿عِندِيٓ﴾ صفة لـ ﴿عِلْمٍ﴾ قال (**سهل**): ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، والسعيد مَن صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية مِنَّة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال، والشقي مَن زيّن في عينه أفعاله وأقواله وأحواله ولم يفتح له سبيل رؤية مِنَّة الله فافتخر بها وادّعاها لنفسه، فشؤمه يهلكه يومًا كما خسف بقارون لمّا ادّعى لنفسه فضلًا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ هو إثبات لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله مَن هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة كأنه قيل: أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغترّ بكثرة ماله وقوته، أو نفي لعلمه بذلك لأنه لما قال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادّعى. ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى (**يَقي**) به نفسه (**مصارع الهالكين**) ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال أو أكثر جماعة وعددًا ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب، أو يعترفون بها بغير سؤال، أو يُعرَفون بسيماهم فلا يُسئلون، (**أو لا يُسألون ليُعلَم من جهتهم**) بل يُسئلون سؤال توبيخ، أو لا يُسئَل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ في الحمرة والصفرة. وقيل: خرج يوم السبت علي (**بغلة شهباء عليها**) الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة

قوله: (**سهل**) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، أحد أئمّة القوم لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات، لقي ذا النون المصري بمكّة سنة خروجه إلى الحجّ، توفي كما قيل سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل: ثلاث وسبعين ومائتين. **قوله**: (**يقي**) بمعنى يصون من الوقاية. **قوله**: (**مصارع الهالكين**) مواضع الهلاك، والمراد ما يوجبه (**أو لا يسألون ليُعلم من جهتهم**) أي لا يُسألون ليعلم ذلك مِنْ قِبَلهم؛ لأنه تعالى عالم بكل المعلومات، فلا حاجة به إلى أن يسأل عن كيفيّة ذنوبهم وكمّيتها.

قوله: (**بغلة شهباء**) في المصباح: الشهب مصدر من باب تعب وهو أن يغلب البياض السواد، والاسم الشهبة، وبغل أشهب وبغلة شهباء.اهـ. **قوله**: (**عليها**)

آلاف على (زيّه). وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهنّ الحليّ والديباج. و﴿فِي زِينَتِهِۦٓ﴾ حال من فاعل ﴿خرج﴾ أي متزيّنًا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: كانوا مسلمين وإنما تمنّوا على سبيل الرغبة في اليَسار كعادة البشر. وقيل: كانوا كفّارًا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ قالوه غبطة والغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه كهذه الآية، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: الآية ٣٢]. وقيل لرسول الله ﷺ: هل تضرّ الغبطة؟ قال: (**لا إلا كما يضرّ العضاه الخبط**) ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الحظ (**الجد**) وهو البخت والدولة.

أي على البغلة، الأُرجوان ـ بضمّ الهمزة والجيم ـ الحمرة والأحمر معرب أرغوان، أي جلّها من حرير أحمر، وفي نسخة: عليه أي على قارون، أي لباسه منه. **قوله**: (زيّه) الزيّ بالكسر اللّباس والهيئة.

قوله: (**لا إلا كما يضرّ العضاه الخبطُ**) في لسان العرب: العِضاه شجر أُمّ غيلان وكل شجر عظيم له شوك الواحد عِضَة بالتاء، وأصلها عِضْهَة.اهـ. وأيضًا فيه وفي التهذيب: الخبط ضرب ورق الشجر حتى ينحات عنه ثم يستخلف من غير أن يضرّ ذلك بأصل الشجر وأغصانها، وقال اللّيث: الخبط خبط ورق العِضاه من الطلح ونحوه يخبط بالعصا فيتناثر ثم يعلف الإبل، وفي الحديث: سُئِل: هل يضرّ الغَبْط؟ قال: «لا إلّا كما يضرّ العِضاه الخَبْط»، الغبط حسد خاص، فأراد ﷺ أن الغبط لا يضرّ ضرر الحسد، وأن ما يلحق الغابط من الضرر الراجع إلى نقصان الثواب دون الإحباط بقدر ما يلحق العضاه من خبط ورقها الذي هو دون قطعها واستئصالها، ولأنه يعود بعد الخبط ورقها، فهو وإن كان فيه طرف من الحسد فهو دونه في الإثم، والخَبَط ما انتقص من ورقها إذا خُبِطت.اهـ. وفي المصباح: خبطت الورق من الشجر خبطًا من باب ضرب أسقطته فإذا سقط فهو خبط ـ بفتحتين ـ فعل بمعنى مفعول مسموع كثيرًا.اهـ.
قوله: (**الجدّ**) بفتح الجيم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى لغابِطِي قارون ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى، (**وفي «التبيان في إعراب القرآن»**) هو مفعول فعل محذوف أي ألزمكم الله ويلكم ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي لا يُلقَّن هذه الكلمة وهي ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل (**عن الكثير**).

قوله: (**وفي التبيان في إعراب القرآن**) للعلامة أبي البقا عبد الله بن الحسين العكبري المتوفّى سنة ستّة عشرة وستّمائة مجلدًا، وله الحمد الذي وفّقنا لحفظ كتابه.. الخ.اهـ كشف الظنون. والعكبري بضم العين المهملة وسكون الكاف وفتح الباء الموحدة وبعدها راء، هذه النسبة إلى عكبرا وهي بليدة على دجلة فوق بغداد بعشرة فراسخ.

قوله: (**عن الكثير**) عن فيه بدلية ولها عشر معان: (المجاوزة) سافر عن البلد، (**البدل**) ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٨]، (الاستعلاء) ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محَمَّد: الآية ٣٨]، (التعليل) ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ [التوبة: الآية ١١٤]، (مرادفة بعد) ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٠]، (الظرفية) ولا تكُ عن حمل الرباعة وانيًا، بدليل ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: الآية ٤٢]، (مرادفة من) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٢٥]، (مرادفة الباء) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: الآية ٣]، (الاستعانة) رميت عن القوس، أي به قاله ابن مالك، (الزائدة) للتعويض عن أخرى محذوفة:

أتَجْزَعُ أن نفسٌ أتاها حمامُها   فهلّا التي عن بين جنبيك تَدْفَعُ

فحذف من أول الموصول وزيدت بعده.اهـ قاموس.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كان قارون يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو (**يُداريه للقرابة التي بينهما**) حتى نزلت الزكاة، (**فصالحه**) عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره (**فشحَّت**) به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا فمُر بما شئت قال: (**نبرطل فلانة البغي**) حتى (**ترميه بنفسها فيرفضه**) بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار (**أو طستًا من ذهب أو حكمها**)، فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل مَن سرق قطعناه، ومَن افترى جلدناه، ومَن زنى وهو (**غير محصن**) جلدناه، وإن أحصَن رجمناه. فقال قارون: وإن كنت

قوله: (**يداريه**) إذ المداراة من محاسن الأخلاق (**للقرابة التي بينهما**) لا لعجز المقاومة، في مختار الصحاح: مداراة الناس يهمز ويلين، وهي المداجاة والملاينة. اهـ. **قوله**: (**فصالحه**)... الخ. بوحي أو كان جائزاً في شرعه. اهـ شهاب. وفي حاشية البيضاوي للعلامة القنوي ﷺ: الظاهر أنه لم ينزل التوراة قبل ذلك، فنزلت ونزلت الزكاة؛ لأن نزول التوراة جملة لا منجمًا، والقول بأنه بالوحي الغير المتلوّ غير بعيد، وكذا الصلح المذكور يجوز أن يكون بالوحي الغيرالمتلوّ في شأن قارون، والقول بأنه كان جائزًا في شرعه ضعيف؛ لأنها لا تكون من الأغلال التي كانت عليهم، وقد عدّ علماؤنا أن الزكاة في شرع موسى عليه السلام ربع أموالهم، وأنها من جملة الأغلال. اهـ. فافهم.

قوله: (**فشحت**) الشحّ البخل مع حرص. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (**نُبَرْطِلُ**) أي نعطي البرطيل - بكسر الباء - وهو الرشوة. **قوله**: (**فلانة**) في المصباح: فلان وفلانة بغير ألف ولام كناية عن الأناسي، وبهما كناية عن البهائم، فيقال: ركبت الفلان وحلبت الفلانة. اهـ. **قوله**: (**البَغيّ**) بتشديد الياء وهو فعول في الأصل بمعنى الفاعلة من بغيت المرأة بِغاء - بالكسر - إذا زنت، والمعنى الزانية. **قوله**: (**ترميه بنفسها**) ورميها أن تقول: إنه عليه السلام زنى بها. **قوله**: (**فيرفضه**) أي يتركه. **قوله**: (**أو طستاً من ذهب**) أي مملوءة ذهباً. **قوله**: (**أو حَكَمَها**) أي جعلها حاكمة لنفسها بما شاءت من المال. **قوله**: (**غير محصن**) بفتح

أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك (فَجَرْت) بفلانة، فأُحضِرَت (فناشدها) بالذي فلق البحر وأنزل التوراة (أن تصدق)، فقالت: جعل لي قارون (جُعْلًا) على أن أقذفك بنفسي فخرَّ موسى ساجِدًا يبكي وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله إليه أن مُر الأرض بما شئت فإنها مُطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمَن كان معه فليلزم مكانه ومَن كان معي فليعتزل. فاعتزلوا جميعًا غير رجلين، ثم قال: يا أرض خُذيهم فأخذتهم إلى الرُّكَب، ثم قال: خُذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خُديهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرّعون إلى موسى ويُناشدونه بالله والرَّحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ثم قال: خُذيهم، فانطبقت عليهم فقال الله تعالى: استغاث بك مرارًا فلم ترحمه فوعزَّتي لو استرحمني مرة لرحمته، فقال بعض بني إسرائيل: إنما أهلكه ليَرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوه فانتصره أي منعه منه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلته في الدنيا ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ ظرف لـ ﴿تَمَنَّوْا۟﴾ ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب (استعارة) ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ و«ي» منفصلة عن

الصاد من أحصن إذا تزوّج وهي مما جاء اسم فاعل على لفظ اسم المفعول، ومنه أسهب، فهو مسهب إذا أطال في الكلام، والفج ـ بالفاء والجيم ـ فهو مفلج إذا افتقر. **قوله**: (فجرت) من باب دخل. **قوله**: (فناشدها) أي أقسم عليها. **قوله**: (أن تصدق) أي لأن تتكلّم بالصدق ما سبب ذلك. **قوله**: (جُعْلًا) بضم الجيم وسكون العين أي رشوة، وهي المرادة، وأصل الجعل الأجرة.

قوله: (استعارة) أي مجازاً.

«كأن» عند البصريين. قال (سيبويه): «وي» كلمة تنبّه على الخطأ وتندم يستعملها النادِم بإظهار ندامته يعني أن القوم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنّيهم، وقولهم: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ وتندموا ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بصرف ما كنا نتمناه بالأمس ﴿لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ ﴿لَخَسَفَ﴾ (وبفتحتين مبنيًا للفاعل: **حفص ويعقوب وسهل، وفيه ضمير الله تعالى**) ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي تندموا ثم قالوا: كأنه لا يفلح الكافرون.

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ (**تعظيم لها**) وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها، وقوله ﴿نَجۡعَلُهَا﴾ خبر ﴿تِلۡكَ﴾ و﴿ٱلدَّارُ﴾ نعتها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بغيًا: (**ابن جبير**)، وظلمًا: (**الضحاك**) أو كبرًا ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ عملًا بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله. ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: الآية ١١٣] فعلّق الوعيد بالركون. وعن عليّ رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شِراك نعله أجود من شِراك نعل صاحبه

قوله: (**سيبويه**) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبَر رحمه الله. **قوله:** (**وبفتحتين مبنيًا للفاعل: حفص ويعقوب وسهل**) وليسا من السبعة، (**وفيه ضمير الله تعالى**)، والباقون بضم الخاء وكسر السين مبنيًّا للمفعول وبناء نائب الفاعل.

قوله: (**تعظيمٌ لها**) معنى التعظيم مستفاد من الإشارة بلفظ البعيد تنزيلًا لبُعْد درجة المشار إليه ورفعه محلّه منزلة بعد المسافة؛ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١﴾ [البقرة: الآية ١] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: الآية ٢]، فإنّ الأصل في أسماء الإشارة أن يُشار بها إلى مشاهدة محسوس قريب أو بعيد، إلّا أنه قد يُشار بها إلى محسوس غير مشاهد وإلى ما يستحيل إحساسه ومشاهدته بناء على تصييره كالمشاهد المحسوس وتنزيل الإشارة العقلية منزلة الحسِّية وما نحن فيه من هذا القبيل. **قوله:** (**ابن جبير**) أي سعيد بن جبير الأسدي، ثقة ثبت فقيه وروايته عن عائشة وأبي موسى ونحوهما مرسلة، قُتِل بين يدي الحجّاج سنة خمس ومائة. **قوله:** (**الضحاك**) بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني، صدوق

فيدخل تحتها. وعن (الفضيل): إنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني هٰهنا. وعن (عمر بن عبد العزيز): إنه كان يردّدها حتى قبض. (وقال بعضهم: حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثًا) بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

كثير الإرسال، مات بعد المائة. **قوله**: (**الفضيل**) بن عياض خراساني من ناحية مرو، وقيل: إنه وُلد بسمرقند ونشأ بأبيورد، مات بمكّة المكرمة في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة. **قوله**: (**عمر بن عبد العزيز**) الخليفة الراشد والإمام العادل القرشي التابعي بإحسان رضي الله تعالى عنه.

قوله: (**وقال بعضهم: حقيقة التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبّثًا**)... الخ. التشبّث بالشيء التعلق به. اهـ مختار الصحاح، يعني أن المراد من عدم إرادة العلوّ عدم إرادته، كإرادة فرعون حيث استكبر عن الإيمان واستعلى على ما في الأرض من خلق الله تعالى، ولا سيما على نبيّه المؤيَّد بالمعجزات القاهرة، ومن عدم إرادة الفساد أن لا يريده كإرادة قارون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص: الآية ٤]، ولقول ناصح قارون: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٧]، وليس كل مَنْ يصدق عليه أنه أراد علوًّا وفسادًا في الجملة محرومًا من سعادة دار الآخرة للنصوص الدالّة على أن كل مؤمن من أهل الجنّة، ومن جملتها قوله عليه الصّلاة والسلام: «مَنْ قال لا إلٰه إلّا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق» ثلاثًا، وقال في الثالثة: «على رغم أنف أبي ذرّ»، إلّا أن الآية فيها زجر بليغ عن الخصلتين حيث لم يعلّق الوعد بترك العلوّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما كما علّق الوعيد بالركون إلى الظلمة دون نفس الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هُود: الآية ١١٣]، وأيضًا فيها دلالة على أن إرادة ما ليس له من العلوّ والرفعة مما ينقص حظّ المرء من سعادة الآخرة، لما رُوِيَ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن الرجل ليعجبه أن يكون شِراك نعله أجود من شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحت الآية. وعن الفضيل بن عياض أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني هٰهنا، يعني أن الآية تدلّ على وجوب ترك التمنّي وإرادة ما ليس له من العلوّ والرفعة، كما تدلّ على وجوب ترك إرادة الفساد، وكرّر كلمة لا في قوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ليفيد أنّ

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾ (مرّ في «**النمل**») ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معناه فلا يجزون فوضع ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ موضع الضمير لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررًا، فضل (**تهجين**) لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون ومن فضله العظيم أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿لَرَآدُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ (**أيّ معاد**) و﴿إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ ليس لغيرك من البشر فلذا نكره، أو المراد به مكة. والمراد ردّه إليها يوم الفتح لأنها كانت في ذلك اليوم معادًا له شأن ومرجعًا له اعتدادًا لغلبة رسول الله وقهره لأهلها ولظهور عزّ الإسلام وأهله وذلّ الشّرك (**وحزبه**). والسورة مكية ولكن هذه الآية (**نزلت بالجحفة**) لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده ومولد آبائه. ولما وعد

كل واحدة من الخصلتين على حدتها تمنع سعادة الآخرة، وإن لم تجامع الأخرى.

قوله: (مرّ في النمل) عبارة المصنف رحمه الله في سورة النمل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [النّمل: الآية ٨٩]، أي بقول: لا إلـه إلا الله عند الجمهور ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النّمل: الآية ٨٩] أي فله خيرٌ حاصل من جهتها وهو الجنّة، وعلى هذا لا يكون خير بمعنى أفضل، ويكون منها في موضع رفع صفة لخير، أي بسببها، انتهت بحروفها. **قوله**: (تهجين) أي تقبيح.

قوله: (أيّ معاد) إشارة إلى أن تنوين ﴿مَعَادٍ﴾ للتعظيم. **قوله**: (وحزبه) أي جُنْده. **قوله**: (نزلت بالجُحْفة) وهو موضع بين مكّة والمدينة، وهو ميقات أهل

رسوله الرد إلى معاده قال: ﴿قُل﴾ للمشركين ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني نفسه وما له من الثواب في معاده ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يعني المشركين وما يستحقونه من العذاب في معادهم (﴿مَن﴾ **في محل نصب بفعل مضمر، أي يعلم**).

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ﴾ يوحى ﴿إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ (**هو محمول على المعنى، أي وما أُلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك**)، أو «إلا» بمعنى «لكن» للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك أُلقي إليك الكتاب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ مُعينًا لهم على دينهم.

الشام، فلما نزلت الآية هناك لم تكن مكّية ولا مدنية، وكانت من جملة ما يدلّ على نبوّته ﷺ؛ لأنه أخبر عن الغيب، ووقع كما أخبر، فتكون من جملة معجزاته.

قوله: (﴿مَن﴾ **في محل نصب بفعل مضمر، أي يعلم**) لا بنفس أعلم؛ لأن اسم التفضيل لا يعمل في مظهر لعدم كونه بمعنى الفعل، لأنه يدلّ على التفضيل والفعل لا يدلّ عليه فيما وقع في حيّز معموله، فإنه معمول لمضمر يدلّ عليه اسم التفضيل.

قوله: (**هو محمول على المعنى، أي وما ألقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربّك**) فإن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في معنى ما ألقي إليك عبّر عنه بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ للمبالغة، فإن نفي رجاء الإلقاء أبلغ من نفي الإلقاء، فكأنه قيل: وما أُلقي إليك الكتاب إلا رحمة، أي في حال كونه رحمة أو إلا لأجل رحمة، فيكون الاستثناء متّصلًا مفرغًا، ويكون المُستثنى منه أعمّ الأحوال وأعمّ العلل، ولا يجوز أن يكون الاستثناء باعتبار اللفظ لأنه إذا قيل: ما كنت ترجوه إلا رحمة، لَزم أن يكون عليه الصلاة والسلام راجيًا أن يُلقى إليه الكتاب لأجل الرحمة، وظاهر أنه عليه الصّلاة والسلام لم يكن راجياً له أصلًا.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هو على الجمع أي ألا يمنعنك هؤلاء عن العمل بآيات الله أي القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الآيات أي بعد وقت إنزاله و﴿إِذْ﴾ يضاف إليه أسماء الزمان كقولك: «حينئذ» و«يومئذ» ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد أهل دينه، ولأن العصمة لا تمنع النهي، والوقف على ﴿ءَاخَرَ﴾ لازم لأنه لو وصل لصار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وفيه من الفساد ما فيه ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي إلا إياه (**فالوجه يعبّر به عن الذات**). وقال (**مجاهد**): يعني علم العلماء إذا أُريد به وجه الله ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء في خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ (**بفتح التاء وكسر الجيم: يعقوب**)، والله أعلم.

قوله: (**فالوجه يعبّر به عن الذات**)، فالوجه أطلق عليها مجازًا لتنزّهه عن الجوارح. **قوله**: (**مجاهد**) بن جبير ـ بفتح الجيم وسكون الموحدة ـ أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقة إمام في التفسير وفي العلم، مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة، وله ثلاث وثمانون رحمه الله. **قوله**: (**بفتح التاء وكسر الجيم**) على بنائه للفاعل (**يعقوب**) بن إسحٰق وليس من السبعة رحمه الله.

تمّ بحمد الله وعونه ما يتعلّق بسورة القصص،
اللّهمّ ببركة كلامك الكريم ونبيّك الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم
الْطفْ بنا في الدنيا والآخرة ويسّر لنا نَيل الأماني وانشراح الصدور،
إنك أنت الوهّاب الكريم الغفور،
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين